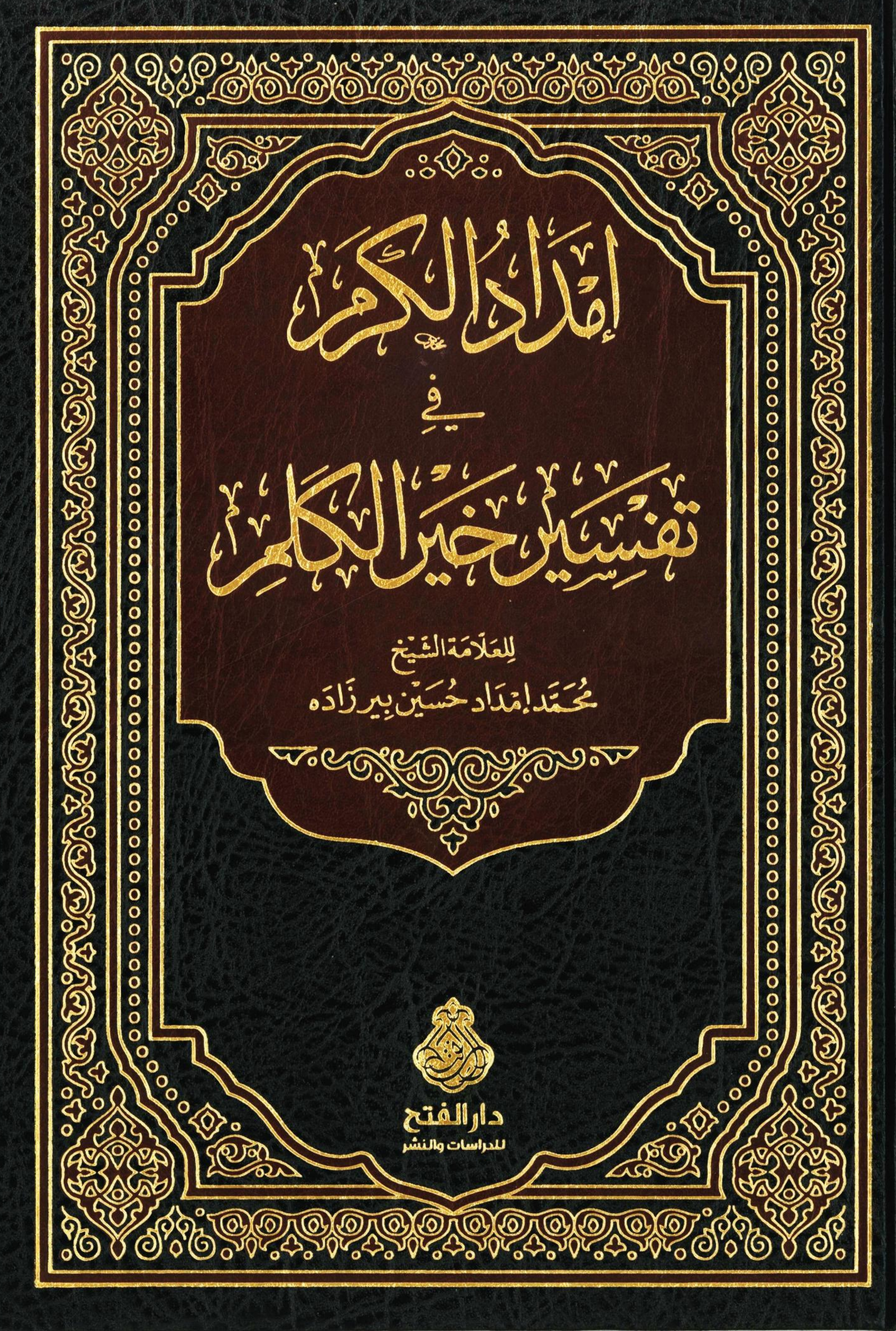

إمداد الكرم
في
تفسير خير الكلم
للعلامة الشيخ
محمد إمداد حسين بير زاده
دار الفتح
للدراسات والنشر

إمداد الكرم
في
تفسير خير الكلم

للعلامة الشيخ
محمد إمداد حسين بير زاده

إمداد الكرم في تفسير خير الكَلِم
للعلامة الشيخ محمد إمداد حسين بيرزاده
نقله عن الأردية أ.د. إبراهيم محمد إبراهيم السيد
الطبعة الأولى: ١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

قياس القطع: 17 × 24
الرقم المعياري الدولي: ٩٧٨-٩٩٥٧-٢٣-٤٢١-٨ : ISBN
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: (١٧٥٧/٤/٢٠١٧)





دار الفتح للدراسات والنشر
هاتف: (00962) 6 4646199
جوال: (00962) 777925467
ص.ب: 183479 عمّان 11118 الأردن
البريد الإلكتروني: info@daralfath.com
الموقع على الشبكة الإلكترونية: www.daralfath.com

الناشر بالمملكة المتحدة:



Al-Karam Publications
Eaton Hall
Retford
Nottinghamshire
DN22 0PR
England, United Kingdom
Tel: +44 (0) 1777 702555
Email: info@alkarampublications.com
Website: www.alkarampublications.com



للعلامة الشيخ

محمد إمداد حسين بير زاده

نقله عن الأردية

أ. د. إبراهيم محمد إبراهيم السيد

الجزء الأول



دار الفتح

للدراسات والنشر


بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس مضامين
المجلد الأول

❋ ❋ ❋

فهرس مطالب
المجلد الأول

❃ ❃ ❃

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هذا التفسير

الحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصَّلاةُ والسَّلامُ على أشرفِ المرسَلين، وعلى آلِهِ وأصحابِه أجمَعين.

أمَّا بعدُ،

تفسيرُ «**إمدادِ الكَرَم**» للعلَّامة الشَّيخ «**محمَّد إمْداد حُسَين بِيْرزَاده**» من أحدثِ التَّفاسيرِ الأُرْدِيَّةِ حتى تاريخهِ، وهُو حَلقةٌ من حلقاتِ السِّلسلةِ الذَّهبيَّةِ للجهودِ التي بَذَلَها - ولا يزالُ يبذُلُها - علماءُ شِبهِ القارَّةِ الباكستانيَّةِ الهنديَّةِ لخدمةِ الإسلام والمسلمينَ في مجالِ ترجمةِ القرآنِ الكريم وتفسيرِه باللُّغةِ الأُرْدِيَّة، بدايةً من «**شاهْ رَفيعِ الدِّين دَهْلَوي: ١٧٥٠م - ١٨٧١م**» ابن «**شاهْ وليِّ اللهِ دَهْلَوي: ١٧٠٣م - ١٧٦٣م**» وأخيه «**شاهْ عبدِ القادرِ الدَّهْلَوي: ١٧٥٢م - ١٨١٤م**» في القرنِ الثامَن عشَرَ الميلاديِّ، ومرورًا بالعلَّامةِ الشَّيخ «**محمدِ كَرَم شاهِ الأَزْهَريِّ: ١٩١٨م - ١٩٩٨م**» في القرنِ العشرينَ، ووصُولًا إلى التفسيرِ الذي بينَ أيدينا للعلَّامة الشَّيخ «**محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزَادَه**» في القرنِ الحادي والعشرين، ولا تزالُ هذه الجهودُ متواصِلةً، بل ولن تتوقَّفَ؛ لأنَّ الحاجةَ إلى فَهْم القرآنِ الكريم لن تنتهيَ.

يقعُ تفسيرُ «**إمدادُ الكَرَم**» في خمسةِ مجلَّداتٍ من القَطْع الكبير، وقد استغرقَ إعدادُه من المفسِّرِ الجليلِ ما يَقْربُ من عَشْرِ سنواتٍ ونصفِ السنة، بَدَأَهُ من بعدِ

صلاةِ مغربِ يوم السَّبتِ الأولِ من رَجَبٍ سنةَ ١٤٢١هـ الموافقِ ٣٠ سِبتمبَر سنـةَ ٢٠٠٠م بجامعة الكَرَم ـ إيتِـنْ هال ـ إنجلترا، وأكملَهُ بعدَ صلاةِ العصرِ من يوم الاثنين ٢ ربيعِ الثاني ١٤٣٢هـ، الموافـقِ ٧ مارس ٢٠١١م في المسجدِ الحرام بمكَّةَ المكرَّمةِ بالمملكةِ العربيَّةِ السُّعوديَّة، واستغرقتْ ترجمتُه عامًا وشهرًا: من أَغُسْطُس ٢٠١٤م إلى سِبتمبَر ٢٠١٥م والحمدُ لله على نِعَمِهِ.

وأولُ ما يَلفِتُ نظَرَكَ في هذا التفسيرِ هو:

١ ـ تلك المِسْحةُ الصُّوفيَّةُ من الحُبِّ الجارفِ لله تعالى ولنبيِّه الكريم ﷺ وللأُمةِ الإسلاميَّة جَمْعاءَ، والرغبةُ الشَّديدةُ في رؤيةِ الأُمَّةِ المسلمة تتربَّعُ على عرشِ المكانةِ التي تليقُ بها باعتبارِها خيرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للناس، وهذا كلُّه ليس بمُستغرَبٍ من عالم صُوفيٍّ دارسٍ لعلوم الدِّين، مُطَّلِعٍ على دقائقِها.

٢ ـ وضوحُ الرُّؤيةِ والهدفِ لدى المفسِّرِ الجليل، فهو يُصَرِّحُ بأنه يستهدفُ بتفسيرِه هذا الشبابَ المسلمَ الذي يعيشُ في أوروبا، بعيدًا عن مصادرِ الإشعاع الإسلامي، وكذلك الذين دَخَلوا في الإسلام حديثًا، حتى يتمكَّنَ هؤلاءِ وهؤلاءِ من إقامةِ علاقةٍ مَبْدَئيَّةٍ معَ القرآنِ الكريم.

٣ ـ سلامةُ المنهَج العِلميِّ المُتَّبَعِ في التفسير، وتنوُّعُ مصادرِه باللُّغاتِ المختلِفة: بينَ قديمٍ وحديثٍ ومُعاصِر، فالمفسِّرُ الجليلُ حريصٌ كلَّ الحِرصِ على توثيقِ ما وَرَد في تفسيرِه من آياتِ القرآنِ الكريم والأحاديثِ النَّبوِّيةِ الشَّريفةِ، وأقوالِ الصَّحابةِ والتابعينَ، وأولياءِ الله الصَّالحين، وإحالتِها إلى مصادرِها الأَصْلـيَّة، وكذا إعدادُ فهارسَ وافيةٍ تُيَسِّرُ على القارئِ التعرُّفَ على مضامينِ التَّفسير والوصُولَ إليها بسهولة.

٤ ـ أسلوبُ الخطابِ الذي يَشِيعُ في ثنايا التَّفسيرِ بِقَصْدِ التواصُلِ المباشرِ معَ القارئ، وإشعارِه برِباطِ الحُبِّ والمَودَّةِ الذي يجمَعُ المسلمينَ جميعًا أينَما كانوا.

ومن هنا، فإنَّ تفسيرَ «**إمدادِ الكَرَم**»:

١- يهدفُ إلى جَذْبِ قطاع عريضٍ من الشَّبابِ المسلم إلى الإسلام.

٢- يزرَعُ محبَّةَ اللهِ تعالى ومحبَّةَ رسولِهِ الكريم ﷺ ومحبَّةَ الأُمَّةِ المسلمةِ في قلبِ القارئ.

٣- يُركِّزُ على شَرْحِ وتوضيحِ العقائدِ الأساسيَّةِ للإسلام دونَ الدُّخولِ في تفاصيلِ القضايا الفِقْهيَّةِ الخلافيَّة.

٤- يَبتعدُ عن التفاصيل الدَّقيقةِ التي قد تُهِمُّ المتخصِّصينَ أكثرَ من عامَّةِ الناس.

٥- يوجِّهُ المسلمينَ إلى تقويةِ وجودِهم وتعزيزِ مكانتِهم بالعلم والإيمان، والاهتمام بالدُّنيا والآخِرةِ معًا.

ومن خصائِص هذا التَّفسير، أنه:

١- تفسيرٌ مُبَسَّطٌ ميسُورُ الفَهْم.

٢- تفسيرٌ مختصَرٌ لكنَّه جامعٌ لكلِّ أمورِ الدِّينِ الأساسيَّة.

٣- أولُّ تفسيرٍ يُكتَبُ على أرضِ بريطانيا.

٤- أولُ تفسيرٍ يُنقَلُ من الأُرديةِ إلى العربية، لما له من أهميةٍ علمية.

٥- تفسيرٌ يستعينُ بالبحوثِ العلميَّـةِ بغَرَضِ تفسيرِ الحقائقِ القرآنيَّة مثلَما قال سيِّدُنا عبدُ الله بنُ عَبّاسٍ رضيَ اللهُ عنهما: «**القرآن يُفسِّرُه الزَّمان**»، ويُمكنُكَ الرجوعُ في هذا الخصوصِ إلى ما وَرَد في تعارُفِ سورةِ العَلَق (٩٦) تحتَ عُنوانِ «**التعليم التَّجريبيِّ**».

٦- تفسيرٌ يُبْرِزُ أهميةَ العلوم الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ على السَّواء، ويؤكِّدُ على أنَّه ما لم يتقدَّمِ المسلمونَ في العلوم الدُّنيويَّةِ جَنْبًا إلى جَنْبٍ مع العلومِ الدِّينيَّةِ، فإنَّهم لن يستطيعوا تحقيقَ التقدُّم في الدُّنيا، ويُمكنُك في هذا الخصوصِ الرجوعُ إلى ما وَرَد في سُورة العَلَق (٩٦) تحتَ عُنوانِ «**سياسةِ الإسلام التعليميَّة**».

٧ـ تفسيرٌ يُقَدِّمُ القضايا الصَّعبةَ والمُعقَّدةَ من خلال أمثلةٍ ظاهرةٍ محسوسة، بغَرَضِ تبسيطِها وتيسيرِ فَهْمِها، ويُمكنُك ـ على سبيل المثال الرُّجوعُ إلى الحاشيةِ رقم (٣٩) من تفسيرِ سُورة القمَر (٥٤) فيما يتعلَّقُ بمسألة «**الجَبْرِ والاختيار**».

٨ ـ تفسيرٌ يقدِّمُ مفاهيمَ جديدةً للنَّظريَّاتِ الإسلاميَّة في ضَوْءِ المختَرَعاتِ الحديثة، باعتبارِ أنّ العصرَ الحاضِرَ هو عصرُ العلوم والتِّكنولوجيا، وأنّ هناك مُختَرَعاتٍ لا حصْرَ لها لم تكنْ تَعرِفُها العصورُ السابقة، ويُمكنُك في هذا الخصوصِ الرُّجوعُ إلى الحاشية رقم (٥) من سورة الزَّلْزَلة (٩٩).

٩ـ تفسيرٌ يتناولُ القضايا الخِلافيَّة بأسلوبٍ إيجابيٍّ معتدِل، حتى لا يُنَفِّرَ عقولَ القُرَّاءِ منها، ويَزرَعَ بداخِلِهم قيمةَ البحثِ في سَبيل فَهْم الحقيقة، ويُمكنُك في هذا الخصوصِ مُراجعةُ الحاشيةِ رقم (٥٢) من تفسيرِ سُورة يونُس (١٠) فيما يَتعلَّقُ بمَوْلِدِ النبيِّ ﷺ، والحاشيةِ رقم (٢٩) من تفسيرِ سورة النَّجم (٥٣) فيما يَتعلَّقُ بإيصالِ الثَّوابِ للموتَى.

١٠ـ تفسيرٌ يُقَدِّمُ أدلَّةً عقليَّةً بسيطةً سَهْلةَ الفَهْم، جنبًا إلى جَنْبٍ مَع الأدِلَّةِ من القرآنِ الكريم والسُّنَّةِ النَّبويَّة، بغَرَضِ توضيح حَقَّانيَّةِ العقائدِ والأحكام الإسلاميَّة، باعتبارِ أنّ المجتمعَ الأوروبيَّ الماديَّ العَقْلانيَّ قد أهمَلَ الدِّينَ والرُّوحانيَّات، وأصبحَ يقيسُ كلَّ شيءٍ بميزانِ العقل، ويُمكنُك في هذا الخصوصِ الرُّجوعُ إلى تعارُفِ سُورةِ الإخلاص (١١٢) فيما يَتعلَّقُ بعقيدةِ التوحيد، والحاشيةِ رقم (٨) من تفسيرِ سُورة يونُسَ (١٠) فيما يَتعلَّقُ بعقيدةِ القيامة، والحاشيةِ رقم (١٢٦) من تفسيرِ سُورةِ المائدةِ (٥) فيما يَتعلَّقُ بحُرمةِ الخَمْر، والحاشيةِ رقم (٦) من سُورة النِّساءِ (٤) فيما يَتعلَّقُ بتعدُّدِ الزَّوجات.

وقد بَذَلتُ غايةَ الجَهْدِ في ترجمةِ هذا السِّفْرِ العظيم إلى لغةٍ عربيَّةٍ حديثةٍ وسَهْلةٍ بِقَدْرِ الإمكان، لكي يستفيدَ منه أهلُ اللُّغةِ العربيَّةِ، بالاطِّلاع على أسلوبٍ حديثٍ ومنهج جديدٍ في تفسيرِ القرآنِ الكريم، وأدعو اللهَ تعالى أن يَجعَلَه في ميزانِ حسَناتِ المفسِّرِ الجليلِ العَلّامةِ «**محمَّد إمْداد حُسَين بِيْرزَادَه**»، وأن يشمَلَني ببركةِ ترجمةِ هذا التفسيرِ في عبادهِ الصَّالحين، والحمدُ لله ربِّ العالَمين.

القاهرة في أكتوبر ٢٠١٥م **أ.د. إبراهيم محمَّد إبراهيم السيِّد**

❋ ❋ ❋

المفسر في سطور

العَلَّامةُ الشَّيخُ «**محمَّد إمداد حُسَين بِيْرزَاده**» عالمُ دينٍ معتدِلٌ، وخطيبٌ عَصْريٌّ، ومؤلِّفٌ موضوعيٌّ، ومُعَلِّمٌ متمكِّن، وشيخٌ صُوفيٌّ، وقائدٌ محبوبٌ له مكانةٌ في قلوبِ عامَّةِ الناس، ألَّفَ عددًا كبيرًا من الكتُبِ باللُّغة العربيَّةِ والأُرْدِيَّةِ والإنجليزيَّة، في المجالاتِ التعليميَّةِ والدِّينيَّةِ وقضايا العصرِ الحاضر، وبعضُ هذه الكتُبِ يُدَرَّسُ ضِمنَ مناهج عدَدٍ من المدارسِ الدِّينيةِ والمساجدِ والمعاهدِ التعليميَّةِ الأخرى، ولفضيلتِهِ تفسيرٌ للقرآنِ الكريم من خمسةِ مجلَّداتٍ بعُنوان «**إمدادُ الكَرَم**»، وهو أولُ تفسيرٍ للقرآنِ الكريم يُكْتَبُ على أرضِ بريطانيا، وترجمتُه العربيَّةُ هي التي بينَ أيديكمُ الآنَ، بينَما يقومُ السيِّدُ «**بَخْتِيار حَيْدر بِيْرزَاده**» حاليًّا بترجمتِهِ إلى اللُّغةِ الإنجليزيَّة، وفي نفسِ الوقت يقومُ الشَّيخُ «**محمَّد إمْداد حُسَين بِيْرزَاده**» هذه الأيامَ بكتابةِ شَرْحٍ لصحيحِ البخاريِّ بعُنوانِ «**إمدادُ البخاريِّ**»، ويَجدُرُ بالذِّكْرِ أنّ الشَّيخَ قد أسَّس هيئةً خيريَّةً إسلاميَّةً عامَ **١٩٩٩**م باسم «**جمْعيَّةِ المسلم الخيريَّةِ لمساعدةِ المحتاجين**»، وتقدِّمُ هذه الجمعيَّةُ في وقتِنا الحاضر خِدماتِها للفقراءِ في سبعَ عشْرةَ دولةً، وفي نفسِ الوقتِ يُديرُ الشَّيخُ «**خمسةَ مستَشْفَياتٍ**» تعملُ في باكستان.

وُلِد العَلّامةُ الشَّيخُ «**محمَّد إمْداد حُسَين بِيْرزَادَه**» في الثانيَ عشَرَ من أبريلَ عام **١٩٤٦**م بقرية «**بَلو آنَه شريف**» مركز «**جَهنْك**» بباكستان، وتوفِّي والدُه «**سيِّدُنا خَواجه بِير حافظ كُل محمَّد**»، وكان الشَّيخُ إذْ ذاك لا يزالُ طفلًا، ولهذا اضْطَلعَ أخوهُ الأكبرُ «**سيِّدُنا خَواجَه بِير محمَّد كَرَم حُسَين القادِريُّ**» بِدَوْرٍ رئيسٍ في تربيتِهِ

وتعليمِه. وفي عام ١٩٦٤م حَصَل الشَّيخُ «**محمَّد إمْداد حُسَين بِيْرزَاده**» على شَهادةِ الثانويَّةِ العامَّة، ثم التَحقَ بـ «**دارِ العلومِ المحمَّديَّةِ الغَوْثِيَّة**» بمدينةِ «**بهيرَه الشَّريفة**» مركزَ «**سركودها**» بباكستانَ، وهناك اجتازَ بنجاح امتحانَ «**الأديبِ العَربيِّ**»، وامتحانَ «**العَالِمِ العربيِّ**»، وامتحانَ «**الفاضلِ العَربيِّ**»، كما حَصَل على شَهادةِ «**الثانويَّةِ العُليا**» ثم «**اللِّيسانْس**» في اللُّغة الإنجليزيَّة. وفي عام ١٩٧١م حَصَل الشَّيخُ على «**الماجِسْتيرِ**» في اللُّغةِ العربيَّة، وفي ١٩٧٢م حَصَل على «**الماجِستيرِ**» في العلوم الإسلاميَّةِ من «**جامعةِ البِنْجاب**» بباكستانَ.

في عام ١٩٧٤م رَشَّحه «**ضِياءُ الأُمَّةِ القاضي الشَّيخُ محمَّد كَرَم شاهِ الأَزْهَريُّ**» للعمَلِ إمامًا لأحدِ المساجدِ بمِنطقةِ «**هائى وَيكَمْب**» ببريطانيا، وفي عام ١٩٨٥م أنْشأَ فضيلتُه معهَدًا تعليميًّا في مَبْنًى صغيرٍ أُطلِقَ عليه اسمُ «**جامعةِ الكَرَم**» نسبةً إلى أستاذِه وشَيْخهِ، وبَدأتِ الدِّراسةُ فيه بخمسةِ طلابٍ فقطْ، وقد أصبحَ الآنَ صَرْحًا إسلاميًّا عظيمًا يقعُ على مساحةِ ثلاثينَ فَدَّانًا، وتخرَّج فيه مئاتٌ من العلماءِ الشَّبابِ البريطانيِّين رجالًا ونساءً، وجميعُهم يقومُ بخِدمةِ الإسلام في المساجدِ والمدارسِ والإداراتِ التعليميَّةِ المختلفة، وفي عام ١٩٩١م تمَّت معادلةُ مناهج «**جامعةِ الكَرَم**» بمناهج «**جامعةِ الأَزْهر**»، وهو ما أثْمَر عن حصُولِ عشَراتِ الطُّلَّابِ من خرِّيجي جامعةِ الكَرَم على شَهاداتٍ تعليميَّةٍ من «**جامعةِ الأَزْهَر**»، كما اعتَمدَ فضيلةُ الإمام الأكبرِ شَيْخِ الجامع الأَزْهَر «**الأُستاذِ الدُّكتورِ أحمَدَ الطيِّب**» ـ حَفظِه الله ـ جامعةَ الكَرَم لتكونَ مَقرًّا فرعيًا لـ«**الرابطةِ العالميَّةِ لخِرِّيجي الأَزْهَر**»، وَيرْأَسُ هذا المقرَّ الفَرْعيَّ في وقتِنا الحاليِّ «**فضيلَةُ الشَّيخ محمَّد إمْداد حُسَين بِيْرزَاده**».

* * *

المترجم في سطور

- الأستاذُ الدُّكتورُ إبراهيمُ محمَّد إبراهيمَ السيِّد أستاذٌ ورئيسُ قسم اللُّغةِ الأُرْدِيَّةِ بكلِّيةِ الدِّراساتِ الإنسانيَّة جامعةَ الأَزْهر، من مواليدِ مركز السِّنْبلاوين بمحافظةِ الدَّقَهْليَّة بجمهوريةِ مِصرَ العربيَّةِ عامِ ١٩٦٢م، وحاصلٌ على اللِّيسانْس (١٩٨٣م) من كلِّية اللُّغاتِ والتَّرجمةِ بجامعةِ الأَزْهَر، والماجِستير (١٩٨٩م) والدُّكتوراه (١٩٩٥م) من جامعةِ البِنْجابِ بلاهورَ بباكستان.

- عَمِلَ الدكتورُ إبراهيمُ محمَّد إبراهيمَ السيِّد أستاذًا زائرًا بِقسم دائرةِ المعارفِ الإسلاميَّةِ الأُرْدِيَّة بجامعةِ البِنْجاب من يوليو ٢٠٠٦م إلى يونيه ٢٠١١م.

- شارك الدكتورُ إبراهيمُ محمَّد إبراهيم السيِّد في العديدِ من المؤتمَراتِ المحلِّيةِ والدَّوليَّة، وله أبحاثٌ عديدةٌ منشورةٌ في المجَلّاتِ والدَّورِيَّاتِ المحَلِّيةِ والعالَميَّةِ أيضًا، ومن هذه الأبحاث:

١ - شخصيَّةُ النبيِّ ﷺ في الشِّعر الأُرْدِي.

٢ - المصطَلَحاتُ الأدبيَّةُ الأُرْدِيَّةُ وإشكاليةُ ترجمتِها إلى العربيَّة.

٣ - التَّرجماتُ العربيَّة المنظومةُ لأشعارِ العلّامة إقبالَ الأُرْدِيَّة.

٤ - تدريسُ اللُّغةِ العربيَّة في الجامعاتِ الباكستانيَّة.

- أشرفَ الدكتورُ إبراهيمُ محمَّد إبراهيمَ السيِّد - ولا يزالُ - على العديدِ من

الرسائلِ العلميَّةِ (الماجِستير والدُّكتوراه) في الجامعاتِ المِصْريَّةِ المختلِفة، كما ناقَشَ ـ ولا يزالُ ـ العديدَ من الرسائل العِلميَّةِ في مِصرَ وخارجِها.

شارَكَ الدكتورُ إبراهيمُ محمَّد إبراهيمَ السيِّد ـ ولا يزالُ ـ في مراجعةِ ترجماتِ القرآنِ الكريمِ إلى اللُّغةِ الأُرْدِيَّةِ تحتَ إشرافِ مَجْمع البحوثِ الإسلاميَّةِ بالقاهرة.

ـ للدكتورِ إبراهيمَ محمَّد إبراهيمَ السيِّد العديدُ من المؤلَّفاتِ بالعرَبيَّةِ والأُرْدِيَّة، كما قام بترجمةِ العديدِ من الكتُبِ من الأُرْدِيَّةِ إلى العرَبيَّة والعكسِ أيضًا، ومن مؤلَّفاتِه بالعرَبيَّة:

١ ـ شاعرُ الشَّرق محمَّد إقبال (١٩٩٧م).

٢ ـ البسيطُ في اللُّغةِ الأُرْدِيَّة (٢٠٠٢م، ٢٠٠٣م، ٢٠١٢م، ٢٠١٤م، ٢٠١٥م).

٣ ـ من علماءِ العربيَّةِ في شِبْه القارَّةِ الهنديَّة (٢٠٠٢م).

٤ ـ الشَّيخُ محمَّد كَرَم شاهِ الأَزْهَريُّ وترجمتُه للقرانِ الكريم (٢٠٠٩م).

ومن مؤلَّفاتِه بالأُرْدِيَّة:

ـ ليلى والمجنونُ بينَ الشِّعرِ العربيِّ والأُرْدِيِّ والفارسيِّ.

ومن ترجماتِه إلى العربيَّة:

١ ـ الجزءُ الثالثُ من سِيرةِ النبيِّ ﷺ لمَوْلانا شِبْلي النُّعمانيِّ وسيِّد سُليمانَ نَدوي (٢٠٠٤م).

٢ ـ رحلةٌ من البحثِ لممتاز مُفتي (٢٠٠٥م).

٣ ـ سِيرةُ خيرِ الأنام للدكتور محمَّد حَمِيد الله وآخَرين (٢٠٠٧م).

٤ ـ مقدِّمةُ القرآن لرَفيق أختَر (٢٠٠٨م).

ومن ترجماتِه إلى الأُرْدِيَّة:

١ ـ من حديثِ الشِّعرِ والنَّثرِ للدكتور طه حُسَين (١٩٩٧م).

٢ ـ أبطالُ الرِّمالِ الذَّهبيَّة لأحمدَ نَجيب (١٩٩٩م).

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمدُ للهِ ربِّ العالَمين، الرَّحمنِ الرَّحيم، والصَّلاةُ والسَّلامُ على سيِّدِ المرسَلين، وعلى آلهِ وأصحابهِ أجمَعين.

القرآنُ المَجيدُ هو كتابُ اللهِ تعالى الخاتَمُ الذي أنزَلَه على نبيِّنا الحَبيبِ سيِّدِنا محمدٍ ﷺ، وهو كتابٌ جامعٌ لجُملةِ العلوم وتعاليمهِ، هدايةٌ مجسَّدةٌ كاملة، وهو باللُّغةِ العربيَّةِ التي لا مثيلَ لها من حيثُ وُسْعَتِها.

لقد قَدَّم أهلُ العِلم خِدماتٍ جليلةً في مجالِ تفسيرِ القرآنِ الكريم، وغاصُوا في بحورِ ألفاظِه ومعانيه، فاستَخْرَجوا منها جواهرَ العلم والحِكمة، وتفَضَّلوا بها على الأُمَّةِ الإسلاميَّةِ في شكلِ تفاسيرَ مكتوبة، فلم يَملِكْ أهلُ العقل والفِكْر إلّا أن يَعترفوا بفَضْلِهم ويُشيدوا به، ولكنّ الفردَ العاديَّ لا يمتلكُ المقدِرةَ على استيعابِ المسائلِ اللُّغويَّةِ والنَّحْويَّةِ والصَّرفيَّة، ولهذا ظَهَرتِ الحاجةُ إلى تفسيرٍ يشرَحُ مفهومَ الآياتِ القرآنيَّةِ بألفاظٍ بسيطةٍ وسَهْلة من جانبٍ، ومن جانبٍ آخَرَ: يَترُكُ المباحثَ العلميَّةَ لأهل العلم، حتى يتمكَّنَ أولئك الذين دَخَلوا في الإسلام حديثًا ويجهَلُونَ تعاليمَه، أو أولئك الشَّبابُ الذين لا يَعرِفونَ اللُّغةَ العربيَّة، من إقامةِ علاقةٍ مَبْدئيَّةٍ معَ القرآنِ الكريم، ويتمكَّنوا من فَهْم تفاسيرِ أهل العلم، ولهذا فإنّ المقصودينَ بهذا التفسيرِ ليسوا أهلَ العلم، ولا يَملِكُ هذا العبدُ الضَّعيفُ من العِلم ما يُضيفُه إلى

معلوماتِ هؤلاءِ السَّادة، فإنّ مكانَة هذا الفقيرِ إلى الله في تاريخ المفسِّرينَ لا تَعْدو كونَه صاحَب عِلم قليلٍ وَضَع قَدَمَه لتَوِّه على الطريق، ولهذا فإنّ الذين استهدفتُهم بكتابي هذا بصفةٍ خاصَّة: أولئك المسلمونَ الذين يَودُّونَ فَهْمَ القرآنِ الكريم فَهْمًا أوَّليًا، ولأَجْلِ التسهيل على هؤلاءِ اخترتُ في بعضِ المواضع طريقَ التوضيح أيضًا بَدَلًا من طريقِ التَّرجمة.

والقرآنُ الكريمُ كذلك، رسالةُ الهِدايةِ الأَبدَيَّةِ العالَميَّةِ الشاملةِ غيرُ المقيَّدةِ بزمانٍ ولا مكان، لكنّ المفسِّرينَ كَتَبوا تفاسيرَهم وفي اعتبارِهم لُغةُ المناطقِ التي ينتمُونَ إليها، والعلومُ الرَّائجةُ في وقتهم، والمستوى العَقْليُّ لمَن يَكتُبونَ لهم، والحِكمةُ تقتضي أيضًا أنْ نُكلِّمَ الناسَ على قَدْرِ عقولِهم، ولقد سارَتْ أوروبا في أيّامِنا هذه على طريقٍ للتطوُّر لم تَسِرْ عليه من قَبْلُ، وطَغَت مادِّيَتُهم على الدِّينِ والرُّوحانيَّة، وتأثَّرتْ أجيالُنا الناشئةُ أيضًا بهذا المجتمع، لهذا ظَهَرتِ الحاجةُ هنا أيضًا لتفسيرٍ يُعطي أهميَّةً أكبرَ لتلك المسائلِ والدَّلائل التي يُمكنُ أن تؤثِّرَ في هذا المجتمع العَقْلانيِّ وتُعِينُه على فَهْم الإسلام.

إنّ طَمْأنَة القلبِ، من خلالِ التوجيهِ العَقْليِّ والتمثيل الظاهريِّ، أمرٌ تُحبُّه الفِطرةُ البَشريَّة، وهو ما حَدَث معَ سيِّدِنا إبراهيمَ عليه السلامُ الذي كان يؤمنُ إيمانًا كاملًا بالبَعْثِ بعدَ الموت، ومعَ ذلك فقد سَأَلَ اللهَ أن يَرى بنفسِه لِيطمئنَّ قلبُه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِيۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًاۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠][1].

وأمامَ هذا المقتضَى الفِطْريِّ، وبقَصْدِ التسهيلِ على القارئ، فإنّني قدَّمتُ في بعضِ المواضعِ بعضَ الأمثلة، ولكنْ ينبغي أن يكونَ وَاضحًا في الأذهانِ أنه إذا حَدَث

---

(١) القرآن: ٢: ٢٦٠.

أيُّ تصادُم لِما قَدَّمتُ من توجيهٍ عَقْليٍّ معَ القرآنِ الكريم أو الحديثِ الشَّريف، أو لم يَستطعْ هذا التوجيهُ العَقْليُّ توضيحَ مفهوم القرآن، فإنّ القصورَ حينَئذٍ يعودُ إلى فَهْمي أنا وليس إلى خطأٍ - والعياذُ بالله - في حُكم الإسلام؛ لأنَّ الأصلَ في الحُكم على صحَّةِ الأشياءِ هو قولُ اللهِ تعالى وقولُ رسولِه ﷺ؛ سواءٌ فَهِمْنا الحِكمَة منه أم لا.

يا إلهي العليمُ القديرُ الرَّحيمُ الكريم

لقد شَرَع هذا العبدُ الفقيرُ الضَّعيف، ذو العِلم القليل، متوكِّلًا على رحمتِكَ التي وَسِعَتْ كلَّ شيءٍ علمًا في تفسيرِ كلامِك العظيم، هذا الذي خَلا وِفاضُه ولا سَنَد لهُ ولا مُعينَ سواك، يُمسِكُ بأهدابِ رحمةِ حبيبِك المصطفى ﷺ وهو يُرَدّد: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي * وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي * وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي * يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي﴾ [طه: ٢٥-٢٨][1]. لقدِ استفَدتُ من تفاسيرَ عربيَّةٍ وأُرْدِيَّةٍ عديدة، لكنّ المصْدَرَ الأكبرَ لمعلوماتي كان تفسيرَ «**ضياءِ القرآن**» لسيِّدي ومُرشِدي سيِّدِنا ضياءِ الأُمَّة القاضي الشَّيخ محمَّد كَرَم شاهِ الأَزْهَريِّ رحمةُ الله عليه، ولهذا سمَّيْتُ هذا التفسيرَ «**إمدادَ الكَرَم**»، وأدعو اللهَ تعالى أن يُغدِقَ على قبرِه المُنير بآلافِ الرحَمات، آمين.

يا الله، يا غَفّار، يا تَوّاب

لقد حاولَ عبدُكَ الضَّعيفُ المُقصِّرُ هذا تبليغَ كلامِك المقدَّس إلى العقولِ البسيطة، ولا غَرَضَ لي من وراءِ ذلك سوى رضاكَ ورضَى حبيبِكَ المصطفى ﷺ، ولكنْ إنْ وَقع خطأٌ فيما قُمتُ به فمَرجِعُه إلى قلّةِ عِلمي، وها أنا ذا أتوبُ إليك ربِّي معترِفًا بتقصيري مُقدِّمًا، فاقبَلْ توْبتي، واهدِني، حتى أستطيعَ إصلاحَ خطأي.

يا الله، يا رحمنُ، يا رحيم

---

(١) القرآن: ٢٠: ٢٥- ٢٨.

إنه لَكرَمٌ عظيمٌ منكَ على هذا العبدِ المُذنِبِ أنْ وفَّقتَه إلى الشُّروع في تفسيرِ كلامِك العظيم، فاقبَلْه يا ربِّ بحقِّ كَرَمِك، واجعَلْه بفَضْلِك وسيلةً لنَجاتي ووالديَّ وأولادي وأساتذِتي الكرام وتلاميذي ومُريديَّ وأصدقائي والعاملينَ بجامعةِ الكَرَم والهيئةِ الخيريَّةِ الإسلاميَّةِ والقُرَّاءِ جميعًا. اللهمَّ ربَّنا اغفِرْ لي ولوالِدَيَّ وللمؤمنينَ يومَ يقومُ الحِساب. آمين، بجاهِ طٰهٰ ويٰسٓ عليه التَّحيةُ والتسليم.

الأول من رجب سنةَ ١٤٢١هـ الموافق
٣٠ سِبتمبر سنة ٢٠٠٠م
(يومَ السبت بعدَ صلاة المغرب)
جامعة الكَرَم ـ إيتِن هال ـ إنجلترا.

أضعفُ العباد:
محمَّد إمداد حُسَين بِيْرزَاده

❋ ❋ ❋

تعريف بالقرآن الكريم

القرآنُ المَجِيدُ هو: ذلك الكتابُ المُقدَّسُ الذي أنزَلَه اللهُ تعالى خاتَمًا للكتُبِ السَّماويَّة، على خاتَم الأنبياءِ والمرسَلينَ سيِّدِنا محمدٍ ﷺ.

والمعنى اللُّغويُّ لكلمةِ (قُرْآنٍ) هو: (القراءةُ) و(التِّلاوةُ).

وقد نَزَلَ باللُّغةِ العربيَّة وبلَهْجةِ قُريْشٍ، والقرآنُ إلى يومِنا هذا محفوظٌ بهذه اللُّغة وهذه اللَّهجة، في حينَ أنّ الكُتبَ السَّماويَّةَ السَّابقةَ لم تَعُدِ اليومَ محفوظةً أو موجودةً في لغتِها الأَصْليَّة ولا في حالتِها الأُولى.

إنَّ الفَهْمَ والإدراكَ الإنسانيَّ محدودٌ للغاية، واللهُ تعالى فَقطْ هو الذَّاتُ الوحيدةُ الكاملةُ المُنزَّهةُ عن الخطأِ، ولو كان العقلُ البشَريُّ كاملًا لَما ارتكَبَ خطأً أبدًا، لكنّ الواقعَ هو أنّه حتّى أذكَى الناسِ يَرتكبُ الأخطاءَ وتقَعُ منه الهَفَوات، وهذا هو السَّببُ في أنّ الإنسانَ لم يستطعْ حتّى اليومَ وَضْعَ دُستورٍ كاملٍ لحياتِه، وعلى الرُّغْم من أنه قدِ اجتَهدَ كثيرًا في ميدانِ الحياة، لكنّه لم يتمكَّنْ من الوصُولِ إلى هَدَفِه وتحقيقِ مَسْعاه، وعلى العكسِ من ذلك، فقد أدَّى هذا الاجتهادُ ببعضِ الأُمم إلى خَرابٍ ودمارٍ عظيم نَتَج عنه مَحْوُهم من هذه العالَم تمامًا.

وأمامَ نقطةِ الضَّعفِ الأساسيَّةِ هذه لدى الإنسان، أنزَلَ خالقُ الكائناتِ الكتُبَ والصُّحفَ التي تَهدي الشُّعوبَ وتقدِّمُ لها الرُّشدَ والفلاحَ، حتى تستطيعَ السَّيرَ على الطريقِ الصَّحيح للحياة، ولكنّ هذه الشُّعوبَ ـ عاجلًا أم آجِلًا ـ تجاهلَتِ التعاليمَ

الإلهيَّة، وَعبَثتْ يدُ البَشرِ في هذه الكتُبِ والصُّحفِ السَّماويَّة إلى درجةٍ توارَتْ معَها صورتُها الأَصْليَّة.

وفي نهايةِ المَطافِ نَزَلَ القرآنُ الحَكيم، وتعهَّدَ اللهُ تعالى بحِفظِه، وجَعَلَه دُستورَ حياةٍ دائمًا وثابتًا لكلِّ الأزمانِ والأوطان.

واليومَ، وبعدَ مرورِ أربعةَ عشَرَ قرنًا من الزَّمانِ لا يزالُ القرآنُ الكريمُ محفوظًا كما كان في صورتِهِ الأُولى التي نَزَلَ بها، ولو كانت مسئوليَّةُ الحِفاظِ عليه تَقعُ على عاتقِنا نحنُ لَكانت سورةُ (البقرة) قد قَضَتْ عليها بقرة، وأكَلَ النَّملُ سُورةَ (النَّمل)، ولهذا، لم يَترُكِ اللهُ الحَكيمُ العليمُ مسئوليَّةَ الحِفاظِ على القرآنِ الكريم لنا، وفي نَفْسِ الوقتِ لم يُعلِنْ تعهُّدَه بالحِفاظِ على التَّوراةِ والزَّبُور؛ لأنَ هذه الكتُبَ (التَّوراةَ والزَّبُورَ) نَزلَتْ لمناطقَ معيَّنةٍ من الأرض، ولوقتٍ محدودٍ من الزَّمن، بينَما جَعَلَ بركاتِ القرآنِ الكريم منزَّهةً ومُبرَّأةً عن القيودِ العِرْقيَّةِ والمكانيَّةِ والزَّمانيَّة، فالقرآنُ الكريمُ يقولُ بكلِّ وضوح: إنّ أصْلَ بني الإنسانِ واحد، وخُلِقَ من نَفْسٍ واحدة، ويتَّسعُ حِضنُ القرآنِ الكريم ليضمَّ كلَّ إنسانٍ يريدُ أن يحصُلَ منه على الهداية، وليس لأيَّةِ جماعةٍ حقُّ احتكارِ الدِّينِ الذي أخبَرَنا به. إنه طريقُ الحياةِ الرَّئيسُ الذي يدعو الجميعَ إلى السَّيرِ عليه، ويستطيعُ الإنسانُ، من كلِّ الأعمارِ والطبائع والأوطان، أن يتَّخذَ منَ طريقِ الحياةِ هذا طريقًا له.

ومِيْزةُ الأسلوبِ القُرآنيِّ أنّ كلَّ إنسانٍ ـ سواءٌ كان شخصًا عاديًّا أم عالِمًا ـ يستطيعُ بقَدْرِ حاجتِه واستطاعتِه، أن يستفيدَ منه، فالشَّخصُ العاديُّ يحصُلُ منه على ما يَحتاجُ إليه من التعاليم الخاصَّةِ بالعقيدةِ والعمل، بينَما يتيسَّرُ منه للعالِم نَبْعُ المعنَويَّةِ الأَبديِّ الذي يَنهَلُ منه نَهْلًا، فكلُّ لفظٍ من ألفاظِ القرآنِ العظيم بمَثابةِ كَنْزٍ منَ المعاني والأسرارِ لا تَفْنَى جواهرُه أبدًا.

إنّ أسلوبَ البيانِ القرآنيِّ جامعٌ لكلِّ أساليبِ البيانِ قاطبةً، ولكنَّه ليس واحدًا منها، فالقرآنُ ليس شِعرًا، ولكنّ فيه سِحرَ الشِّعر، وليس خَطابةً، ولكنَّه عامرٌ بحماسِ الخَطابة ومَدارجِها، وليس نثرًا، ولكنَّه غنيٌّ بقوَّةِ النَّثر وحُسنِ تعبيرِه. وباختصار، بيانُ القرآنِ ليس أسيرًا لأيِّ صنفٍ من أصنافِ البيان، ولكنَّه في نفسِ الوقتِ يمتلكُ مِيزاتِ كلِّ أصنافِ البيانِ وجَمالِها.

ونحن، حينَ نقرأُ القرآنَ، فإنَّنا نشعرُ أنّ اللهَ يُخاطِبُنا، وهو ما يَبعَثُ في النَّفس حالةً عجيبةً من الوَجْدِ والسُّرورِ والشُّعورِ بالذَّات، بحيثُ تتحطَّمُ سلاسلُ الأفكارِ المهمَلة، وتفورُ الدِّماءُ كراهيَةً للآلهةِ الباطلة، وعندَئذٍ لا يجدُ الإنسانُ أمامَه سوى التسليم بوجودِ الخالقِ الحقيقيِّ سبحانَه وتعالى.

والحقيقةُ، أنّ شخصيَّةَ كلِّ كَاتِبٍ تكونُ كامنةً فيما يكتُب، حتّى وإنْ لم تستطعْ أنظارُ العامَّةِ من النّاس التعرُّفَ على هذه الشخصيَّة، لكنّ بصيرةَ أهلِ البصيرةِ والفِطْنة، من النُّقّاد، تستطيعُ تحديدَ شخصيَّةِ الكاتبِ بشكلٍ كاملٍ، ممَّا كَتَب.

وهكذا، فإنّ جمالَ وجلالَ خالقِ الكائناتِ سبحانَه وتعالى أيضًا يتَجلَّيانِ عندَ تلاوةِ القرآن الكريم، وكلُّ آيةٍ منه تُعلنُ بلسانِ حالِها، أنّها ليست من كلام البشَر، وإنَّما كلامُ الخالقِ جلَّ وعلا، وإن كان لدى أحدٍ شكٌّ في هذا، فإنّ تحدِّيَ القرآنِ الكريم لا يزالُ قائمًا: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣].

لقد مضَى أربعةَ عشَرَ قرنًا من الزَّمان، ولا يزالُ هذا التَّحدِّي يُدَوِّي في الفضاءِ كما كان، ولم يجرُؤْ أحدٌ من الخُصُومِ على قَبُولِ هذا التحدِّي، ولا يزالُ هذا الإفحامُ للأعداءِ قائمًا وباقيًا، وادَّعى البعضُ النُّبوَّةَ كذِبًا، وحاولوا اختلاقَ الإلهام والوَحْيِ

لِيَنشُروا من خلالِهِ أكاذيبَهم، وبَذَلوا كلَّ ما في وُسْعِهم في اختراع بعضِ الفِقْرات، لكنَّها لا تزيدُ عن كونِها مجرَّدَ تُرَّهات.

لقد احتوى القرآنُ الكريمُ كلَّ التعاليم الأساسيَّةِ والمَبْدئيَّةِ التي جاءَتْ بها كلُّ الكتُبِ الإلهاميَّةِ التي سَبَقتِ القرآنَ الكريم، وهكذا فإنّ كلَّ حقائقِ الصُّحفِ السَّماويَّةِ السَّابقةِ كلُّها موجودةٌ ومحفوظةٌ في القرآنِ الكريم، فهُو مُهَيْمِنٌ على الكتُبِ السَّماويَّةِ (الحافظُ والحارسُ والراعي لها، والشاهدُ والأمينُ عليها)، وهو الضَّامنُ للفلاحِ الإنسانيِّ في المستقبَل. إنّه الجامعُ لكلِّ المبادئِ والقواعدِ والإرشاداتِ اللّازِمةِ للحياةِ الناجحة، ويَحْوي الأحكامَ والمسائلَ كلَّها: من القَطْرةِ إلى البحر، ومِن ذَرّةِ الرمالِ إلى الصَّحراء، ومن العبدِ إلى المعبود، ومن الحَيَاة إلى المَمات.

وباختصار، فإنّ القرآنَ المَجِيدَ كتابٌ جامع، يقدِّمُ الهدايةَ الكاملةَ في كلِّ مَيْدانٍ من ميادينِ الحياة، فالقرآنُ ليس مجرَّدَ كتابةٍ على ورق، وإنَّما أدَّى ـ ويؤدِّي ـ كلُّ لفظٍ من ألفاظِه دورًا مهمًّا للغاية في الحياة العَمَلية، والتاريخُ شاهدٌ على القرآنِ الكريم قد أَحْدثَ بدايةً تغييرًا جَذْرِيًّا في شَعْبٍ من الشُّعوب، ثم قام هذا الشَّعبُ بتغييرِ جزءٍ عظيم من العالم.

إنّ القرآنَ المجِيدَ ليس مجرَّدَ كتابِ عقائدَ وقَصَص، وإنَّما داعٍ للإصلاح والثَّورة، وإمكانيَّاتُه الثَّوريَّةُ لا تزالُ قائمةً فاعلةً حتى يومِنا هذا، بشَرْطِ أن يحاولَ الإنسانُ العملَ بما فيه بنيَّةٍ خالصة واستقامةٍ لا عِوَجَ فيها.

* * *

جمع القرآن الكريم

في القرآنِ المَجيدِ مائةٌ وأربعَ عشْرةَ سورةً، وعدَدُ آياتِ أكبرِ هذه السُّوَرِ يَبلُغُ مائتَيْنِ وستًّا وثمانينَ آيةً، وأصغرُ سُورةٍ تتكوَّنُ من ثلاثِ آياتٍ فقطْ، وقد نَزَلَ القرآنُ الكريمُ منجَّمًا بحسَبِ واقعِ الأحوال على مدى ثلاثٍ وعشرينَ سنةً (من عام ٦١٠م إلى عام ٦٣٢م).

وكان نبيُّ آخِرِ الزَّمانِ سيِّدُنا محمَّدٌ ﷺ قد عَيَّن جماعةً من المُجِيدينَ لفنِّ الكتابةِ من الصَّحابةِ الكِرام رِضوانُ الله عليهِم لكتابةِ القرآنِ الكريم، وهم الذين كان يُطلَقُ عليهم (كُتَّابُ الوَحْي)، وكان النبيُّ ﷺ كلَّما نَزَلتْ آيةٌ أخبَرَهم أنْ دوّنوا هذه الآيةَ في مكانِ كذا من سُورةِ كذا، وهكذا كُتِب القرآنُ الكريمُ كلُّه تحتَ الإشرافِ المباشِرِ للنبيِّ ﷺ، ولكنّ هذه الكتابةَ لم تكنْ في شكلِ كتاب، وإنّما كانت مجرَّدَ تدوينٍ على الأوراقِ والعظامِ والأحجارِ وما إلى ذلك.

لقد كانت أهمَّ وسيلةٍ للحِفاظِ على القرآنِ الكريم هي حِفْظُه في الصُّدور، وقد حَفِظَ النبيُّ ﷺ أيضًا القرآنَ الكريمَ، وحثَّ الصَّحابةَ الكِرامَ أيضًا على حِفظِه، ونَتَجَ عن ذلك أنْ حَفِظَ العديدُ من الصَّحابةِ رضوانُ اللهِ عليهمُ القرآنَ الكريم.

وبعدَ انتقالِ النبيِّ ﷺ إلى الرَّفيقِ الأعلى استُشهِدَ مئاتٌ من حُفّاظِ القرآنِ الكريم في الحروبِ والمعارك، فاستَشعَرَ الصحابةُ الكِرامُ الخَطَرَ في هذا الأمر، إذ إنه لوِ استمرَّ استشهادُ الحُفَّاظِ الكرام على هذه الوَتيرةِ فإنّ مهمَّةَ الحِفاظِ على القرآنِ

الكريم ستكونُ صعبةً، ولهذا أمَرَ سيِّدُنا أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رضيَ اللهُ عنه بجَمْعِ القرآنِ الكريم في شكلِ كتابٍ تحتَ إشرافِ كُتَّابِ الوَحْيِ، على أنْ يَتِمَّ الاحتفاظُ به عندَ خليفةِ المؤمنينَ في وقتِهِ.

لقد كان العربُ همُ المخاطَبِينَ الأوائلَ للقرآنِ الكريم، وكانت لكلِّ قبيلةٍ من القبائلِ العربيَّةِ لهْجةٌ مختلفةٌ عن لهْجةِ غيرِها، وكانت كلُّ قبيلةٍ تَقرأُ القرآنَ بلهْجتِها، ولكنْ، لأنّ اللُّغةَ الأُمَّ لكلِّ هؤلاءِ كانت هي اللُّغةَ العربيَّةَ، لذا لم يكنْ هناك خوفٌ من حدوثِ خطأٍ بسببِ اختلافِ اللَّهَجاتِ هذا، ولكنْ حين انتشَرَ الإسلامُ في مناطقَ أُخرى من العالم خارجَ حدودِ الجزيرةِ العربيَّة، وأخَذَ المسلمونَ، من غيرِ العربِ، يتعلَّمونَ القرآنَ الكريمَ باللَّهَجاتِ المختلِفةِ للقبائلِ العربيَّة، كان من الطبيعيِّ أن تَظهَرَ الاختلافاتُ، ولهذا أمَرَ سيِّدُنا عثمانُ بنُ عَفّانَ رضيَ اللهُ عنه بكتابةِ القرآنِ الكريم بلهْجةِ قُرَيْش، وإرسالِ نُسخةٍ منه إلى الأمصارِ المختلِفةِ في العالَم الإسلاميِّ، وهو ما نَراهُ في ربوعِ الدُّنيا في يومِنا هذا، وليس فيه ولو قَدْرُ ذَرَّةٍ من الاختلافِ أو التبديل.

الفقيرُ إلى الله

محمَّد إمْداد حُسَين بِيْرزَادَه

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) سُورَةُ الفَاتِحَة

إنّ الهدفَ من خَلْقِ الإنسانِ هو: عبادةُ اللهِ تعالى، والقرآنُ المَجيدُ هو ذلك الكتابُ الذي يَدُلُّنا على طريقِ عبادةِ اللهِ تعالى، وقد جاء إجمالُ هذا التفصيل في سورةِ الفاتحة، كمقدِّمةٍ تُرسِّخُ في ذِهن القارئ أنّ مقصودَ خَلْقِ الإنسانِ هو عبادةُ الله، وأنّ دُستورَ حياتِه هو اقتفاءُ أثَرِ خُطى أولياءِ الله، السائرينَ على الطريقِ المستقيم.

وسورةُ الفاتحة - في الحقيقة - دعاءٌ جامع، وتلاوتُها تفتَحُ أبوابَ رحمةِ اللهِ تعالى ونَصْرِه وفَهْم القرآنِ المَجيد وتدبُّرِه، ولهذا جاء موضِعُها في الصَّدارة، حتّى يَسهُلَ فَهْمُ القرآن.

ويمكنُنا أن نتعرَّفَ على عظَمةِ هذه السُّورةِ المباركةِ من أنّها نَزَلتْ مرَّتيْنِ (المرةَ الأُولى: في مكَّةَ المكرَّمة، والمرةَ الثانية: في المدينةِ المنوَّرة)، وقراءتُها واجبةٌ في كلِّ ركعة، وقد قال ﷺ في فَضْلِ سُورةِ الفاتحة:

«والّذي نفسي بيدِه، ما أُنزِلتْ في التَّوراةِ ولا في الإنْجيل ولا في الزَّبُورِ ولا فى الفُرقانِ مِثلُها، وإنّها سَبْعٌ من المَثاني»[(١)] «....... إنّها أعظمُ سُورةٍ»[(٢)].

---

(١) جامع الترمذي، أبواب فضائل القرآن، باب ١ برقم ٢٨٧٥.

(٢) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب ٩ برقم ٥٠٠٦.

سُورَةُ الفَاتِحَة (١)،

آياتها سبع، وركوعها واحد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٤﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٥﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴿٦﴾ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

﴿ٱللَّهِ﴾

١ـ ﴿ٱللَّهِ﴾ هو: اسمُ ذاتِ اللهِ تعالى الخالقِ الحقيقيِّ، ولا يُستعمَلُ لغيرِه، فالخالقُ الحقيقيُّ واحدٌ فقطْ، واسمُ ذاتِه، يعني ﴿ٱللَّهِ﴾ مفرَدٌ أيضًا ولا جَمْعَ له، وهو الجامعُ لأسماءِ اللهِ الحُسنى كلِّها (أي: لصفاتِ الباري تعالى)، ويقولُ الإمامُ أبو حنيفةَ رحمةُ اللهِ عليه: «الله» هو اسمُه تعالى الأعظمُ أيضًا.

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾

٢ـ يُعلِّمُنا الإسلامُ أنْ يَبدَأَ المسلمُ كلَّ عَملٍ جائزٍ باسم الله، حتّى تَسهُلَ المصاعبُ بَبركةِ اسمِه، ولهذا قدَّمتُ اسمَ الله في ترجمةِ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾[1] حتى

---

(١) المقصود: الترجمة الأُرْدِيّة للآية الكريمة، وكان من الممكن أن يأتيَ اسمُ الله في وسَط الجملة الأُرْدية، ولكنّ المفسِّرَ الجليل آثَرَ أن يأتيَ به في أول الكلام حتّى تتحققَ بدايةُ العمل به أملًا في أن يُسهِّلَ الله هذا العملَ المبارك، وأن يمكّنَه من التغلّب على صعابِه.

تَبدَأَ هذه التَّرجمةُ لمعاني القرآنِ الكريم باسم اللهِ تعالى، وهكذا يَعترِفُ الإنسانُ بضَعْفِه، ويُقوِّي توكُّلَه على تأييدِ اللهِ تعالى وعَوْنِه، وفي نَفْسِ الوقتِ، حينَ يعتادُ الإنسانُ على استهلالِ أيِّ عمَلٍ باسم اللهِ تعالى فإنه عندَئذٍ يتوقَّفُ عن أيِّ عَمل يُغضِبُ اللهَ تعالى؛ لأنه سيستحي من اللهِ أن يَعصيَه ذاكرًا اسمَه.

وقد نَزَلتْ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ باعتبارِها آيةً من الذِّكرِ الحكيم، وفي نَفْسِ الوقتِ لتفصِلَ بينَ السُّورةِ والتي تليها. يقولُ الإمامُ القُرطبيُّ رحمةُ اللهِ عليه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «**ضَعْ يَدكَ على الّذي تألَّمَ من جَسدِك وقُلْ: بسم الله، ثلاثًا، وقلْ سَبْعَ مرّاتٍ: أعوذُ بعزّةِ اللهِ وقُدرتِه من شرِّ ما أجِدُ وأُحاذِر**»[1]. ويقولُ الإمامُ عليٌّ كرَّم اللهُ وجهَه: «**بسم اللهِ إنّه شفاءٌ من كلِّ داء، وعونٌ على كلِّ دواء**»[2].

نُكتةٌ للتأمُّل: يستفيدُ الإنسانُ كلَّ لحظةٍ من نِعم اللهِ التي لا حَصْرَ لها، مثلَ: نعمةِ العَيْن والأُذُن والأَنْفِ والفم واليدِ والقَدَم والصِّحةِ والثَّروةِ وغيرِها، فإذا فَقَدَ منها واحدةً استحالتِ الحياةُ إلى عبْءٍ، فهل هناك نُكرانٌ للجميل أكثرُ من أن لا يَبدَأَ هذا الإنسانُ، الغارقُ في نِعمَ الله، عَملَه، بذِكْرِ اسم المُنعِم الحقيقيِّ عليه!

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

٣ـ كلاهُما صيغةُ مبالغةٍ، وقمَّةُ هذه المبالغةِ في «الرَّحمن»، أي: أنّه تعالى متفضِّلٌ إلى حدٍّ لا يُمكنُ تصوُّرُه، ولهذا لا يُطلَقُ لفظُ «رحمنَ» على غيرِ الله تعالى.

إنّ أوّلَ صفةٍ ذَكَرَها القرآنُ الكريمُ من صفاتِ اللهِ تعالى هي أنه «رحمنٌ»، وغَلَبتْ رحمتُه غَضَبَه، ولهذا إذا تابَ الإنسانُ توْبةً صادقةً من قلبِه فلا ينبغي أن

---

(١) تفسير القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري، ١: ٩٨.

(٢) المرجع السابق، ١٠٧.

يضْطرِبَ أو يخافَ مهما كان مُذنبًا؛ لأنّ رحمةَ اللهِ تعالى التي لا حدَّ لها على استعدادٍ كامل أن تَعْفوَ عن كلِّ ذنوبِه. إنّ الخالقَ المالكَ الرَّحمنَ الرَّحيمَ كريمٌ عَطَّاءٌ دائمًا، ليتَنا يتيسَّرُ لنا الصِّدقُ في طلبِنا منه ودُعائنا له.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾

٤ـ إنّ قراءةَ القرآنِ وتدبُّرَه والعَمَل بما فيه: عبادةٌ، ورُوحُ العبادةِ: حَمْدُ اللهِ والثناءُ عليه، ولهذا بَدَأ القرآنُ الكريمُ بالحمد.

إنّ اللهَ تعالى خالقُ كلِّ حُسْنٍ وجَمال، ولهذا فإنّ الثَّناءَ، سواءٌ كان على القرآنِ الكريم، أم على نبيٍّ من الأنبياء، أم على الكعبة، أم على وليٍّ من الأولياء، أم على القمر، أم على وردةٍ من الورود، كلُّ هذا ـ في الحقيقة ـ بمثابةِ الثَّناءِ على تلك الذّاتِ التي ليس كمِثلِها شيءٌ، والتي هي خالقةُ كلِّ حُسنٍ وجَمال، ولهذا قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، يعني: أنّ المستحقَّ الحقيقيَّ لكلِّ أنواع الحَمْدِ والثَّناء، بكل كمالِها، هو: اللهُ تعالى، ولا غيرُه، لكنّ هذا لا يعني ـ بالضَّرورة ـ عدَمَ الثَّناءِ على أصحابِ الكمالاتِ، فإنّ من حقِّ الصِّدقِ والصَّفاءِ المجسَّد، سيِّدِنا أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ رضيَ اللهُ عنه، أن يُلقَّبَ بلَقَبِ (الصِّدِّيقِ الأكبر)، والعَدْلُ والإنصافُ المجسَّمُ، سيِّدُنا عُمرَ رضي اللهُ تعالى عنه، يستحقُّ أن يُلَقَّبَ بلَقَبِ (الفاروقِ الأعظم)، وعلى هذا المِنوال يصبحُ تقديرُ وإجلالُ كلِّ صاحبِ فَضْل أمرًا ضَروريًّا، لكنّ من اللّازم حَمَدَ ذلك الخالقِ الحقيقيِّ، الذي خَلَق الفَضْلَ في كلِّ صاحبِ فَضْل.

وفي سُورة الفاتحةِ أيضًا نتعلَّمُ الدُّعاءَ وآدابَ الدُّعاءِ أيضًا، يعني: أنّ علينا أولًا أن نعترفَ بكلِّ النِّعم والأَفْضالِ والعِناياتِ التي لا تُحصَى لذلك المالكِ الكريم الذي نَمُدُّ له يدَ السؤال، وأن نُقدِّمَ إليه باقةً من الحَمْدِ والثناءِ على سبيلِ

الشُّكرِ والامتنان، وكلماتُ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ هي أفضَلُ شيءٍ في هذا الخصوص، ثم بعدَ ذلك ندعو بالمغفِرةِ لنا ونسألُ اللهَ من فَضْلِهِ وكرَمِه.

إنّ حمْدَ الباريِّ تعالى والثَّناءَ عليهِ يُعَدُّ أهمَّ جُزءٍ في حياةِ المؤمن، بمعنَى: أنه إذا أصابتْه نعمةٌ حَمِدَ اللهَ بشُكرِه، وإذا أصابتْه مصيبةٌ حَمِدَ اللهَ بالصَّبرِ عليها، يحمَدُ اللهَ إذا عَطَس أو رأى حُلُمًا أحبَّه، ويَحمَدُ اللهَ بعدَ الطعام والشَّراب، ويَحمَدُ اللهَ بعدَ الصَّلاة ... وباختصار، فإنّ المؤمنَ في كلِّ حالٍ يحمَدُ اللهَ تعالى ويُثْني عليه.

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

٥ ـ معنى كلمةِ ﴿رَبِّ﴾: المُربِّي، أي: «**تبليغُ الشَّيءِ إلى كمالِه بحسَبِ استعدادِه الأَزليِّ شيئًا فشيئًا**»[1]، ويُعلَمُ منه أنّ الإنسانَ الذي يريدُ أن يَحصُلَ على مقام الفَضْل، عليه أن يَرجِعَ إلى الله؛ لأن اللهَ تعالى هو ربُّه الحقيقيُّ.

و﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ جَمْعُ (عالَم)، أي: الدُّنيا، وفيه إشارةٌ لطيفةٌ هي: أنّ اللهَ تعالى ليس رَبًّا لمنطقةٍ معيَّنةٍ أو قَوْم أو عِرْقٍ بعَيْنِه، وإنّما هو ربُّ سائرِ الكائنات، والذي يكونُ رَبًّا لسائرِ الكائنات يكونُ هو المستحِقَّ الحقيقيَّ لكلِّ مَدْح وثناء.

﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾

٦ ـ مالكِ ذلك اليوم الذي سيَلقَى فيه كلُّ إنسانٍ أجملَ الثوابِ على أعمالِه الحَسَنة، والعذابَ الأليمَ على سيِّئاتِه.

وقد يَميلُ القارئُ لصفاتِ الرَّحمةِ عندَ اللهِ تعالى إلى التواكُل، لكنّ اللهَ تعالى نَبَّهَهُ إلى أنّه رَغْمَ أنّ رحمةَ اللهِ تعالى لا حدَّ لها ويُنعِمُ بها على مَن شاء، لكنَّه ـ في الوقتِ نفسِه ـ قادرٌ عادلٌ، ولا يُمكنُ أن يُفلِتَ مجرمٌ من قَبْضتِه، ولهذا، أيُّها

---

(١) تفسير روح المعاني، السيد محمود الآلوسي، ١ : ٧٧.

الإنسان، لا تغترَّ بهذه الحياةِ الفانية، وهذه الأيام القلائل من الرَّاحةِ والرَّفاهيَة، وتنسَى ذلك اليومَ الذي سيكونُ بمَثابةِ اليوم الأول في الحياة الأَبَديَّة والثواب والعقابِ الحقيقيَّيْنِ، فعليكَ أن تفعَلَ الخيرَ وتأمُلَ في قَبولِه برحمةِ الله، واخْشَ اللهَ فيما لا يجوزُ من الأعمال؛ لأنّ عدَمَ الخوفِ من غَضَبِ اللهِ تعالى يجعَلُ الإنسانَ مُتواكِلًا، واليأسُ من رحمتِه يجعَلُ الإنسانَ ظالمًا، ولهذا اعتَمِدْ على رحمتِه من جانب، ومن جانبٍ آخَرَ، يجبُ أن تخافَ من غَضَبِه، وهذه هي علامةُ الإيمان.

ولمزيدٍ من توضيح هذا الأمِر أُحيلُكَ إلى قولِ سيِّدِنا عُمرَ الفاروقِ رضيَ اللهُ عنه، والذي يستحقُّ التأمُّلَ: «**لو نادى مُنادٍ من السّماء: يا أيُّها النّاس! إنّكم داخِلونَ الجنّةَ كلُّكم إلّا رجلًا واحدًا لَخِفتُ (من غَضَبِه) أن أكونَ أنا هو، ولو نادى مُنادٍ: أيُّها النّاس! إنّكم داخِلونَ النّارَ إلّا رجلًا واحدًا لَرَجَوْتُ (من رحمتِه) أنْ أكونَ أنا هو**»[١]. وقد قال ﷺ «**لو يَعلَمُ المؤمنُ ما عندَ اللهِ من العقوبةِ ما طَمِع بجنَّتِه أحد، ولو يَعلَمُ الكافرُ ما عندَ اللهِ من الرَّحمةِ ما قَنَطَ من جنَّتِه أحد**»[٢].

إنّ اللهَ تعالى هو مالكُ الكائناتِ كلِّها اليومَ أيضًا، لكنّ تخصيصَ يوم الدِّينِ في هذه الآيةِ ربَّما لأنّ مَن لا يَعترفونَ باللهِ مالكًا في أيّامِنا هذه سيُضْطَرُّونَ إلى الاعترافِ بمالكيَّتِه يومَ القيامة، عندَما يشاهدونَ مُلكَه.

﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾

٧ - هنا تعليمٌ لعبَادةِ الله تعالى بعدَ أنْ سَبَقَ بيانُ ذاتِه تعالى وصفاتِه، ومن هذا الترتيبِ تظهرُ لنا حقيقةُ أنّ الاعتقادَ مقدَّمٌ على العمل، وأنّ قَبولَ العبادةِ متوقِّفٌ

---

(١) كنز العمال، علاء الدين علي الهندي، ١٢: ٦٢٠ برقم ٣٥٩١٦.

(٢) صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب ٤ برقم ٦٩٧٩.

على صحّةِ العقيدة. ويقالُ للعبادةِ في اللُّغة الإنجليزية (Worship)، وطبقًا لِما وَرَد في قاموسِ أُكسفوردَ، فإنّ التعبيرَ العمليَّ عن تعظيم اللهِ وإجلالِه اسمٌ للعبادة:

"The practice of showing respect for God"

ومفهومُ العبادةِ في الإسلام أيضًا قريبٌ من هذا، بمعنى: أنْ تعتقدَ في ذاتٍ ما أنَّها المعبودُ، وتُظهرَ العَجْزَ والانكسارَ أمامَ هذه الذَّات، وعلى سبيل المثال: بعدَ الوقوفِ من الرُّكوع في الصَّلاة يَترُكُ المصلِّي يدَيْه جانبًا، وهذه عبادةٌ أيضًا؛ لأنّ الذاتَ التي يقفُ من أجْلِها هي معبودُه الحقيقيُّ، وعلى العكسِ من ذلك، لو أنّ ابنًا وَقَف أمامَ والدِه عاقدًا بينَ يدَيْه فإنّ هذا ليس عبادةً، وإنّما هو احترامٌ وتعظيم، والابنُ المسلمُ لا يعتقدُ في والدِه معبودًا.

كما أنّ القرآنَ الكريمَ يُخبِرُنا أنّ الملائكةَ سَجَدوا لسيِّدِنا آدمَ عليه السَّلامُ، كما سَجَد إخوةُ سيِّدِنا يوسُفَ ـ عليه السَّلامُ ـ له، ومعَ ذلك، لم يُشرِكِ الملائكةُ بذلك ولا إخوةُ يوسُفَ عليه السَّلامُ؛ لأنّ هؤلاءِ جميعًا لم يعتقِدوا في المسجودِ له أنه معبودٌ، وإنَّما كان المقصودُ التعظيمَ ليس إلّا، وقد أمَرَ الإسلامُ بالاثنَيْنِ معًا: العبادةِ والتعظيم؛ العبادةِ للهِ تعالى، والتعظيم لأهلِ الله، ولهذا فإنّ عَدَمَ التفريقِ بيْنَ العبادةِ والتعظيم، واتِّهامَ من يُعظِّمُ بأنه يَعْبُد من يُعظِّمُه، وأنه ـ بذلك ـ قد أشْرَك، أمرٌ يخالفُ طبيعةَ القرآنِ الكريم.

إنّ الذَّاتَ الوحيدةَ التي تليقُ بالعبادة هي ذاتُ اللهِ تعالى لا غيرُها، والشَّخصُ الذي يَعبُدُ أيَّ مخلوقٍ آخَرَ (سواءٌ كان نبيًّا أم وليًّا أم شمسًا أم قمرًا أم حجرًا وما إلى ذلك) يتأثَّرُ من حُسنِه وجَمالِه، في حينَ أنّ هذا الحُسنَ والجَمالَ ليس شيئًا ذاتيًّا فيه، وإنّما هو عطاءٌ منَ اللهِ تعالى لا غيرُ، ولو أنّ اللهَ تعالى لم يضَعْ فيه هذا الحُسنَ لما تأثَّر به أيُّ إنسانٍ، ولهذا فإنّ المستحِقَّ للعبادةِ ليس صاحبَ الفَضْلِ والكمال، وإنّما خالقُ الفَضْلِ والكمال، والذي زَيَّن الكائناتِ بالحُسنِ والكمال.

وبخصوصِ العبادة، فإنّ ما قالتْه السيِّدةُ رابعةُ العَدَويةُ رحمةُ اللهِ عليها يَستحقُّ التمعُّنَ، فقد قالت: «**قسمًا يا إلهي، إنّي لا أعبُدك طَمَعًا في جنَّتِك ولا خوفًا من عذابِك، ولكنَّني أعبُدكَ يا ربِّي لأنَّك تستحقُّ العبادة**»

«**لو كان القلبُ يطمَعُ في حُورِ الجنَّة، فإنّ عبادتَه ليست عبادةً وإنّما تجارةً**».

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

٨ - خالُق الكائناتِ كلِّها ومالكُها ورازقُها هو اللهُ تعالى، ولا تستطيعُ ورقةٌ أن تتحرَّكَ من مكانِها دونَ رِضاه، ولا يُبرِقُ نجمٌ إلّا بإذْنِه، فهو الخالقُ والصَّانعُ الحقيقيُّ، وهو الذي يَليقُ أنْ يُطلَبَ منه العَوْنُ والمَدَد، ولهذا فإنَّنا نُردِّدُ كلَّ يوم - وبكلِّ أدبٍ وتواضُع وخضُوع - عشَراتِ المرَّاتِ قائلينَ: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، لكنْ هذا لا يعني أنْ لا نستعينَ بالطَّبيبِ على المرض، وألَّا نَلْجَأَ إلى السِّلاح في مُواجهةِ العدوِّ، وألَّا نذهَبَ إلى وليٍّ ليَدعوَ لنا، فالحقيقةُ هي أنّ هذه كلُّها أسبابٌ، واللهُ تعالى هو خالقُها، والمُعِينُ الحقيقيُّ هو اللهُ تأكيدًا، ولكنّ هذه الأسبابَ بمَثابةِ مظاهرِ قُدرتِه تعالى، وعلى سبيل المثال، فإنّ الصَّبرَ والصَّلاةَ ليسا إلهًا، لكنّ اللهَ تعالى أمَرَنا بالاستعانةِ بهما: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]. فالاستعانةُ بالأسبابِ إذًا هي في الحقيقةِ عَوْنٌ من اللهِ تعالى، ولو لم يَجعَلِ الله فيها إمكانيَّةَ العَوْنِ لما كانت لنا حاجةٌ في الاستعانة بها.

وكما أنّ حَمْدَ المخلوقِ والثَّناءَ عليه - هو في الحقيقة - حَمْدٌ للخالقِ تعالى فإنّ الاستعانَة بالمخلوقِ في الأصلِ عَوْنٌ من اللهِ تعالى؛ لأنه هو الخالقُ والمُبدِعُ الحقيقيُّ للكائناتِ كلِّها، فإذا اعتَقدَ أحمقُ أنّ دواءَ الطَّبيب سيَنجَعُ، وأنّ دعاءَ الوليِّ سيُرفَع، حتّى وإن لم يُرِدِ اللهُ تعالى ذلك، فإنّ هذا شِركٌ صريح، ويَكفُرُ من يعتقدُ مثلَ هذا الاعتقادَ.

﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾

٩ـ والمرادُ بالصِّراطِ المستقيم: الإسلام.

وتحديدُ هذا الدُّعاءِ متوقِّفٌ على حالِ القارئ:

فلو أنّ الدَّاعيَ ضالٌّ فإنّ المرادَ عندَئذٍ: أَرِني الصِّراطَ المستقيمَ، أيْ: أنّه ضلَّ الطريقَ ويَدعو بأنْ يُوفَّقَ إليه.

أمّا إذا كان مسلمًا عاديًّا فيكونُ المعنى: سَيِّرْنا على الصِّراطِ المستقيم، أيْ: أنّه يَعرِفُ الطريقَ المستقيمَ ويَدعو بالتوفيـقِ للسَّير عليه.

وإنْ كان متَّقيًا فيكونُ المرادُ: اجعَلْني قائمًا على الصِّراطِ المستقيم، أيْ: أنّه يسيرُ ـ بالفِعْل ـ على الصِّراطِ المستقيم، ويتوسَّلُ إلى اللهِ أن يوفِّقَه إلى الاستقامةِ عليه وتعظيم درجتِهِ فيه.

وباختصار، فإنّه أيًّا كان الهدفُ، يجبُ أن نَرفَعَ يدَ الدُّعاءِ إلى خالقِنا الحقيقيِّ قبْلَ أن نَخطوَ أيَّ خُطوة، حتّى يوفِّقَنا ويَحفَظَنا، فلا يستطيعُ الشيطانُ أن يُضِلَّنا.

﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾

١٠ـ وعلامةُ الطريقِ القَويم هي: أنّ عبادَ اللهِ تعالى (الأنبياءَ والصِّدِّيقينَ والشُّهداءَ والصَّالحينَ) يختارونَه، وتقليدُ هؤلاءِ والسَّيرُ على هُداهُم هُو الصِّراطُ المستقيم، كما أنّه لا توجَدُ لدى كلِّ إنسانٍ إمكانيَّةُ فَهْمِ القرآنِ الكريم والحديثِ الشَّريفِ بشكلٍ مباشر؛ لأنّ أكثرَ هؤلاءِ لا يَعرِفونَ اللُّغةَ العربيَّةَ، ولذا فإنّ صُحبةَ أهلِ الدِّين وتقليدَهم يَجعَلُ من اليسيرِ فَهْمُ الإسلام وتطبيقُه، ولهذا يُرغِّبُ الإسلامُ في صُحبةِ الطَّيِّبينَ والصَّادقين. يقولُ ﷺ «الوحدةُ خيرٌ من جليسِ السُّوء، والجليسُ الصّالحُ خيرٌ من الوحدة، وإملاءُ الخيرِ خيرٌ من السُّكوت، والسُّكوتُ خيرٌ من إملاءِ الشّرّ»[١].

---

(١) شعب الإيمان، البيهقي ٤: ٢٥٦ برقم ٤٩٩٣.

﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾

١١ـ يُعلَمُ منها أنّ تجنُّبَ أصحابِ العقائدِ الفاسدةِ والأعمالِ السِّيئة، والبُعدَ عن أهل الضَّلالِ وعن عاداتِهم وتقاليدِهم وطرائقِهم، أمرٌ في غاية الأهميَّة؛ لأنّ صُحبَتهم ضَلالٌ، وتكونُ سببًا في غضَبِ اللهِ تعالى.

ملحوظة: قولُ «آمينَ» بعدَ سُورةِ الفاتحة، وكذلك بعدَ كلِّ دعاء، هو من السُّنّة، بمعنى: أنّنا في النِّهاية نلتمسُ منَ اللهِ تعالى أن يَقبَلَ ما دعَوْنا به.

❋ ❋ ❋

بسم الله الرحمن الرحيم

(٢) سورة البقرة

هذه السُّورةُ مَدَنيَّةٌ؛ لأنّها نَزَلتْ بعدَ الهجرة، وكلُّ السُّوَرِ التي نَـزَلتْ بعدَ الهجرةِ يُطلَقُ عليها: سُوَرٌ مَدَنيّةٌ.

وهذه أطولُ سُورةٍ في القرآنِ الكريم، ولهذا فإنّ المضامينَ التي تشمَلُها هذه السُّورةُ أكثرُ من مثيلاتِها في السُّوَرِ الأخرى، وأطولُ آيةٍ في القرآنِ الكريم هي الآيةُ رقم (٢٨٢) من هذه السُّورة، وآيةُ الكُرسيِّ هي الآيةُ رقم (٢٥٥) من هذه السُّورةِ أيضًا، وهي سيِّدةُ آيِ القرآن[١].

كان الإسلامُ في المدينةِ المنوَّرة يتشكَّلُ في صُورةِ الدَّولة، ولهذا أُلقِيَ الضّوءُ في سُورةِ البقرةِ على الجوانبِ: السِّياسيَّةِ والاقتصاديَّةِ والاجتماعيَّةِ المختلِفة في الإسلام، جَنْبًا إلى جَنْبٍ معَ العقائدِ والعبادات، كما جاء فيها بيانٌ لأحوالِ ازدهارِ وانحدارِ الأُمم السَّابقة وخاصَّةً بني إسرائيلَ، حتى تَعتبِرَ بها الأُمَّةُ المسلمة، وجاءت فيها كذلك قصةٌ عجيبةٌ لبقرةٍ أمْكَنَ من خلالها التّعرُّفُ على قاتل، وسُمِّيتْ هذه السُّورةُ باسم البقرةِ بمناسبةِ هذه الواقعة.

دَرَس سيِّدُنا عُمرُ الفاروقُ رضيَ اللهُ عنه تفسيرَ سُورةِ البقرةِ في اثنَيْ عشَرَ

---

(١) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «وفيها آيةٌ هي سيدة آي القرآن [هي] آية الكرسيّ». جامع الترمذي، أبواب فضائل القرآن، باب ٢ برقم ٢٨٧٨.

عامًا، وفي اليوم الذي انتهى فيه من دراستِها ذَبَح ناقةً احتفالًا به، ودَعَا إليها الصَّحابةَ الكِرامَ رضيَ اللهُ عنهم جميعًا[١].

وهذه بعضُ الإرشاداتِ النَّبويَّةِ فيما يَتعلَّقُ بسُورةِ البقرة:

١ـ مَن قَرأَ سُورةَ البقرة تُوِّجَ بتاجِ الجنّة[٢].

٢ـ «لا تجعَلوا بيوتكم مقابِرَ، إنّ الشّيطانَ يَنفِرُ من البيتِ الّذي يُقرَأُ فيه سُورةُ البقرة»[٣].

٣ـ خاتمةُ سُورةِ (البقرة، أي: الآيتانِ الأخيرتانِ منها) فإنّها من خزائنِ رحمةِ اللهِ تعالى من تحتِ عَرْشِه، أعطاها هذه الأُمَّة، لم تترُكْ خيرًا من خيرِ الدّنيا والآخِرةِ الّا اشتَمَلتْ عليه[٤].

٤ـ «إنّ اللهَ عزَّ وجلَّ خَتَم سُورةَ البقرةِ بآيتَيْنِ أعطانيهُما من كَنْزه الّذي تحتَ العَرْش، فتعلَّموهُنَّ وعَلِّموهُنَّ نساءَكم وأبناءَكم فإنَّهما صلاةٌ وقرآنٌ ودُعاء»[٥].

٥ـ «إذا مات أحَدكم فلا تَحبِسُوه، وأسرِعوا به إلى قبرِه، ولْيُقرأْ عندَ رأسِه فاتحةُ البقرة، وعندَ رِجْلَيْهِ بخاتمةِ البقرة»[٦].

٦ـ «اقرَأوا سُورةَ البقرة، فإنَّ أخْذَها برَكةٌ وترْكَها حَسْرةٌ، ولا يستطيعُها البَطَلةُ»[٧].

---

(١) عن ابن عمر رضي الله عنه، قال: تعلّم عمر رضي الله عنه البقرة في اثنتي عشرة سنةً، فلمّا ختمها نحر جزورًا. تفسير القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري، ١: ٤٠.

(٢) شعب الإيمان، البيهقي، باب في تعظيم القرآن برقم ٢٣٨٤.

(٣) مشكاة المصابيح، كتاب فضائل القرآن، ١ برقم ٢١١٩.

(٤) المرجع السابق، ١ برقم ٢١٦٩.

(٥) شعب الإيمان، البيهقي، ٢: ٤٥٥ برقم ٢٣٨٤.

(٦) مشكاة المصابيح، كتاب الجنائز، باب دفن الميت، ١ برقم ١٨١٧.

(٧) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب ٤٢ برقم ١٨٧٤.

سُورَةُ البَقَرَةِ (٢)،

مدنية (٨٧)، آياتها (٢٨٦)، ركوعاتها (٤٠)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٧﴾

﴿الٓمٓ﴾

١ـ في القرآنِ الكريم تسعٌ وعشرونَ سُورةً تبدَأُ بمثلِ هذه الحروف، ويُطلَقُ على هذه الحروف (الحروفُ المُقطَّعة)، وتُكتَبُ هذه الحروفُ متَّصلةً ببعضِها هكذا (الـم)، لكنَّها تُقرَأُ منفصِلةً هكذا (ألف. لام. ميم).

ويجبُ علينا أن نؤمنَ بأنّ هذه الحروفَ جزءٌ من القرآن، وأنْ نَتْلُوهَا، لكنْ ليس من الضَّروريِّ أن نبحثَ عن معانيها؛ لأنّ عِلمَها الحقيقيَّ لم يُعطِه اللهُ تعالى إلّا لحبيبِه المصطفى ﷺ، وحينَ نَزَل جِبريلُ الأمينُ بهذه الحروفِ قال ﷺ: «**عُلِّمتُ (الحروفَ المقطَّعة)، فقال جِبريل: كيف عُلِّمتَ ما لم أُعلَّمْ؟ فقال النّبيُّ ﷺ: هي من أسرارِ المحبّةِ بَيْني وبَيْنَ الله**»(١).

بعضُ الحِكَم في الحروفِ المقَطَّعة:

١ـ لقد أَنْزلَ اللهُ تعالى القرآنَ الكريمَ عن طريقِ جِبريلَ عليه السَّلام، لكنَّ

---

(١) تفسير روح البيان، الإمام إسماعيل حقي، سورة يس(٣٦): المجلد ٧: ٣٦٥- ٣٦٦.

هناك بعضَ الأسرارِ في القرآنِ الكريم لم يكنْ جِبريلُ على عِلْم بها، ويُعلَمُ من هذا أنّ تحليقَ عِلم المصطفى ﷺ مرتفعٌ إلى درجةٍ لا يستطيعُ الوصُولَ إليها طائرُ خيالِ جِبريلَ الأمينِ عليه السَّلام.

٢ـ هناك ثوابُ عَشْرِ حَسناتٍ لتلاوةِ كلِّ حرفٍ من حروفِ القرآنِ المَجيد، والحروفُ المقَطَّعةُ من بَيْنِ تلك الحروف، ولا يَعلَمُ معناها سوى اللهِ تعالى وحبيبِهِ المصطفى ﷺ، وهو ما يُبيِّنُ لنا عَظَمةَ القرآنِ المَجيد، فهو الكتابُ الوحيدُ في العالَم الذي يَنالُ الثوابَ من يقرأُه مَع الفَهْم، وذلك الذي يقرأُه دونَ فَهْم أيضًا، كما قال عبدُ الله بنُ أحمدَ بن حَنْبلٍ: «**سمعتُ أبي يقول: رأيتُ ربَّ العِزّةِ في المنام، فقلتُ: يا ربِّ، ما أفضَلُ ما تَقَرَّب به إليكَ المتقرِّبونَ؟ قال: بكلامي يا أحمد. قلت: يا ربّ، بفَهْمٍ، أو بغيرِ فهمٍ؟ قال: بفهمٍ، وبغير فهمٍ**»[1].

٣ـ هناك إشارةٌ في الحروفِ المقَطَّعةِ أنّ الثَّوابَ يُنالُ بتطبيقِ أيِّ حُكم من أحكام القرآن، سواءٌ فَهِمْنا حِكمتَه أو لم نفهَمْها؛ لأنّ القرآنَ كلامُ الله، ذلك الرَّبِّ القُدُّوسِ الحكيم العالِم الذي لا يَخْلو عَملٌ من أعمالِه من حِكمة، على سبيل المثال: رَجْمُ الشَّيطانِ في ميدانِ مِنًى، والجَرْيُ بيْنَ الصَّفا والمَرْوةِ وأثناءَ الطَّواف، وحِكمةُ كلِّ هذا تخفَى عن أنظارِنا، ومعَ ذلك فإنَّنا نعمَلُ بهذه الأحكام، كما أنّ مقتضَى كمالِ الطَّاعةِ هو أن يُنفِّذَ العبدُ أيَّ حُكم يَنزلُ من اللهِ تعالى ويَحْني رأسَه خضوعًا له.

٤ـ سُئِلَ الشَّيخُ عبدُ الرَّحمن رحِمَه اللهُ تعالى ذاتَ مرَّة: هل يستفيدُ الشَّخصُ الذي يقرأُ القرآنَ الكريمَ وهو لا يدري معنى ما يقرأُه؟ فأجاب: يقينًا، مثلَ ذلك الشَّخصِ الذي يتناولُ الدَّواءَ وهو لا يَعلَمُ العناصرَ المكوِّنةَ لهذا الدَّواءِ الذي يتناولُه، لكنه ـ بالتأكيد ـ يستفيدُ منه، وكما أنّ الدَّواءَ يُعالجُ الأمراضَ الجِسْمانيَّةَ

---

(١) سير أعلام النبلاء، ٧: ٥٥٠.

لدى الإنسان، فإنّ تلاوةَ القرآنِ المَجيدِ تُعالجُ الأمراضَ الرُّوحيَّةَ لدَيْه، كما أنّه يَحصُلُ على ثوابِ عشْرِ حسَناتٍ لكلِّ حرف يقرأُه.

٥ـ إذا كان هناك عالِمٌ يأمُلُ في ثوابِ قراءةِ بعضِ أجزاءِ القرآنِ الكريم (الحروفِ المقَطَّعة) بغيرِ أنْ يفهَمَها، فإنّ من حقِّ المسلم الأُمِّيِّ أن يَأمُلَ في ثوابِ قراءةِ القرآنِ المَجيدِ وهو لا يَفهَمُه.

لكنّ هذا لا يعني أنْ لا نُحاولَ فَهْمَ القرآنِ الكريمِ، بالطَّبع لا، بل يجبُ على كلِّ مسلم أن يَبذُلَ قُصارَى جُهدِهِ وبقَدْرِ استطاعتِه في فَهْم القرآنِ الكريم؛ لأنّ الثَّوابَ على التدبُّرِ في معاني القرآنِ الكريم أكثرُ، وبالتالي فإنّ ثوابَ العملِ بهذه المعاني أكثرُ، كما قال الإمامُ محمدٌ الغَزَاليُّ: «**فقراءةُ آيةٍ بتفكُّرٍ وفَهْمٍ خيرٌ من خَتْمةٍ بغيرِ تدبُّرٍ وفَهْم**»[١].

٦ـ القرآنُ المَجيدُ هدايةٌ لبني البشَرِ جميعًا، وحينَ يُخاطبُ اللهُ تعالى الكُفَّارَ في بعضِ الآيات ويَدعُوهم إلى الإسلام فيها، فإنّه يبدو ـ في الظاهر ـ وكأنّه لا علاقةَ لهذه الآياتِ بنا، ولا فائدةَ لنا فيها في الظاهرِ أيضًا؛ لأننا بفَضْلِ الله تعالى وكرَمِه ـ مسلمونَ من البداية، ولكنْ، وبالرَّغْم من ذلك، فإنَّنا نقرأُ تلك الآياتِ لأنَّها كلامُ اللهِ تعالى، وبها وسائلُ هدايةِ الكُفَّار.

وهكذا، فإنّ اللهَ تعالى قد خاطَبَ حبيبَه المصْطفى ﷺ في هذه الحروفِ المقطَّعة (مثلَما يُصدِرُ السُّلطانُ إرشاداتٍ لوليِّ عهدِه، وشيخُ الطَّريقةِ لخليفتِه بقَصْدِ إرشادِهم وهدايتِهم)، ولأنه لا علاقةَ لنا نحن بهذا الخِطابِ بشكلٍ مباشِر؛ لهذا فإنّه من الطبيعيِّ أنْ لا نفهَمَ هذه الحروفَ، ولسنا مطالَبينَ بأنْ نُرهِقَ أنفُسَنا

---

(١) إحياء علوم الدين، كتاب التفكر، بيان مجاري الفكر، النوع الرابع، المنجيات، برقم ١٩٠٤.

في فهْمِها، كما أنّ خصوصيَّةَ هذا الخطابِ في هذه الحروفِ المقَطَّعةِ تصبحُ بلا معنًى إذا ما عَلِم معناها الجميعُ.

إلّا أنّ الأمورَ التي تَتعلَّقُ بعقائدِنا وأعمالِنا بيَّنَها القرآنُ الكريمُ بطريقةٍ تَجعَلُها أكثرَ وضوحًا من نُورِ النَّهار، وأكثرَ سطوعًا من نُورِ الشَّمس، ولم يبقَ فيها مجالٌ ولو لقليلٍ من الغموضِ والإبهام.

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾

٢ـ المرادُ بالكتابِ هو: القرآنُ المَجيد، وهو آخِرُ كتابٍ نَزَلَ من عندِ اللهِ تعالى، وتعاليمُه واضحةٌ وكاملةٌ بحيثُ لا يكونُ فيها أدنَى شكٍّ، ومعَ ذلك، فإنّ الذين يشُكُّونَ فيه، أو يحاولونَ التَّشكُّكَ فيه، فذلك إمّا أنَّهم لا يَتدبَّرونَه، أو أنهم مصابُونَ بتعصُّبٍ شديد.

﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

٣ـ المتَّقي، يقالُ لذلك السَّعيدِ الذي يَحمِلُ في قلبِه خوفَ اللهِ تعالى، ويجتنبُ كلَّ عَمَلٍ يضُرُّه في آخِرتِه.

وأحدُ معاني الهداية: إرشادُ شخصٍ ما إلى الطَّريق، والمعنَى الآخَرُ: تسييرُ هذا الشَّخصِ على الطَّريق وإيصالُه إلى الهدفِ المنشود، ولهذا فإنّ القرآنَ المَجيدَ ـ باعتبارِ الإرشادِ إلى الطَّريق ـ يُعَدُّ هدايةً لبني البشَرِ جميعًا (كافرِهم ومسلمِهم)، وباعتبارِ الإيصالِ إلى الهدفِ المنشودِ فإنّه هدايةٌ للمتَّقينَ فقطْ؛ لأنّ هؤلاءِ هم سُعداءُ الحظِّ الذين يَنالُونَ رضا اللهِ تعالى بالعمَلِ بالقرآنِ الكريم.

﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾

٤ـ مَن همُ المتَّقونَ؟ أولُ علامةٍ من علاماتِهم: أنَّهم يؤمنونَ بالغيب، والمرادُ

بالغَيْب: تلك الحقائقُ التي لا يُمكنُ الوصُولُ إلى كُنْهِها بالعقلِ الإنسانيِّ والحواسِّ الإنسانيَّة، ومنها ـ على سبيلِ المثال ـ حقيقةُ ذاتِ اللهِ تعالى والملائكةِ والقيامةِ والجنَّةِ والنّارِ وغيرِها، كلُّ هذه حقائقُ لا يُمكنُ أن تُرى بالعَيْنِ ولا تُفهَمُ بالعقل، وليس هناك سوى طريقٍ واحدٍ لمعرفتِها، وهو ذاتُ النبيِّ المصطفى ﷺ.

ويُعلَمُ من هذا أنّه لو جُمِع عِلمُ البَشَرِ جميعًا في الكائناتِ كلِّها، فإنّه لا يمكُن أن يَعدِلَ معَ ذلك عِلمَ نبيٍّ واحد، لأنّ كلَّ كلامٍ يخرُجُ من لسانِ النبيِّ فهو حقٌّ، ويَفيضُ منه نَهرٌ للأسرارِ والرموز.

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾

٥ـ والعلامةُ الثانيةُ من علاماتِ المتَّقينَ هي: أنّهم يُقيمونَ الصَّلاةَ، والمقصودُ بإقامةِ الصَّلاة: هو أداءُ الصَّلاةِ لوقتِها، جَنْبًا إلى جَنْبٍ معَ الحقوقِ الظاهرة، وأنْ تُؤدَّى الصَّلاةُ بخُشوعِ القلبِ لرِضا اللهِ تعالى فقطْ، وكلُّ صلاةٍ تؤدَّى على هذا النَّمطِ تستحقُّ أن يُطلَقَ عليها ركنُ الدِّين ومعراجُ المؤمن.

لقد جاء الأمرُ بالصَّلاةِ في القرآنِ الكريمِ، لكنْ لم يَرِدْ فيه تفصيلٌ لوقتِها ولا لعَددِ ركَعاتِها ولا لطريقةِ أدائها، ولهذا سَألَ الصَّحابةُ الكرامُ النبيَّ ﷺ: أنْ يا رسولَ الله، كيف نُصلِّي؟ فقال ﷺ: «**صَلُّوا كما رأيتُموني أُصلِّي**»(١).

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾

٦ـ والعلامةُ الثالثةُ من علاماتِ المتَّقينَ هي: أنَّهم يُنفِقونَ في سبيلِ الله من رزقِ الله عليهم، والمرادُ بالرِّزق: تلك النِّعمُ التي أنعَمَ اللهُ تعالى بها على الإنسانِ، مثلَ: المالِ والثَّروةِ والعِلم والعِرفانِ وغيرِها، واللهُ تعالى أيضًا هو الذي خَلَق الوسائلَ

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب ١٨ برقم ٦٣١ .

الظاهريَّةَ لهذه النِّعم، مثلَ: اليدِ والقَدَم والصِّحةِ والعافيةِ والقلبِ والذِّهنِ وغيرِها.

ورِضا اللهِ تعالى في أنْ يقومَ من أُنعِمَ عليه بمدِّ يدِ العَوْنِ لأولئك الذين حُرِموا من هذه النِّعم، فالغنيُّ يساعدُ المستحقَّ بثروتِه، والعالِمُ بعلمِه، والعارفُ بمعرفتِه.

كما يُعلَمُ من هذه الآيةِ أيضًا أنّ كلَّ ما عندَ الإنسانِ ليس مُلْكًا له، وإنّما هو عطاءٌ منَ اللهِ تعالى، ومَن يترسَّخْ بداخلِه اليقينُ على هذا الأمرِ يصبحْ منَ السَّهل عليه الإنفاقُ في سبيل الله، أمّا ذلك الذي يعتقدُ ـ مثلَ قارونَ ـ أنه قدِ استحقَّ هذه النِّعمَ بفَضْلٍ في ذاتِه، يصبحُ من الصَّعبِ عليه الإنفاقُ في سبيل اللهِ تعالى.

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ ﴾

٧ـ العلامةُ الرابعةُ من علاماتِ المتَّقينَ هي: أنَّهم يؤْمنونَ بالقرآنِ المَجيدِ الذي أُنزِل على نبيٍّ آخِرِ الزَّمان سيِّدِنا محمَّدٍ المصطفى ﷺ، كما يؤْمنونَ بالكتُبِ التي نَزَلتْ على الأنبياءِ من قَبْلِ محمَّدٍ ﷺ، إلَّا أنّه ليس من الضَّروريِّ العملُ بما جاء في الكتُبِ السَّابقةِ من الأحكام؛ لأنّنا ملتزِمونَ بالعملِ بالقرآنِ المَجيد فحسْبُ.

ولأنّ القرآنَ المَجيدَ هو آخِرُ الكتُبِ السَّماويَّة، وسيِّدُنا محمَّدٌ ﷺ هو آخِرُ الأنبياءِ والرسُل، لهذا فإنّ الإيمانَ بنبيٍّ بعدَه ﷺ أو بكتابٍ بعدَ القرآنِ الكريم كُفْرٌ، ولذا جاء في الآيةِ ذِكرُ ما أُنزِلَ على النبيِّ ﷺ، وعلى الأنبياءِ الذين جاءوا من قَبْلِه، ولم يأتِ ذِكْرٌ لنبيٍّ أو كتابٍ بعدَه ﷺ.

﴿ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴾

٨ ـ العلامةُ الخامسةُ من علاماتِ المتّقينَ هي: أنَّهم يؤْمنونَ بالآخِرة، والمرادُ بالآخِرة: حياةٌ جديدةٌ تبدأُ بعدَ الموت، وَيتِمُّ فيها الحسابُ على الأعمالِ التي ارتُكِبت في الحياةِ الحاليَّة، وطِبقًا لهذا الحسابِ يكونُ قرارُ الثَّوابِ والعقابِ (الجنَّةِ والنَّارِ)

والذي سيكونُ عَيْنَ العدلِ والإنصاف، فلن يُهضَمَ حقُّ أحدٍ، كما لن يُفلِتَ مُذنِبٌ من العقاب.

وهذه العقيدةُ تظَلُّ تُنبِّهُ الإنسانَ دائمًا إلى أنَّ هناك تسجيلًا كاملًا لكلِّ حركةٍ من حَركاتِه، وأنه سوف يُسألُ عن ذلك كلِّه في الآخِرة، ولهذا، فإنّ المتيقِّنَ على الآخِرة لا يمكنُ أن يُفكِّرَ في ظُلم أحدٍ أو الإساءةِ إليه، بينَما يكونُ مَن لا يؤْمنُ بهذا الحِسابِ الأُخْرَويِّ على استعدادٍ دائم لأنْ يتمَرَّدَ من أَجْلِ التَّنعُّم والعَرْبدة.

واليومَ، نحن نُخفي تقصيرَنا عن أصدقائنا حتّى لا نَشعُرَ بالخَجَل، ولكنْ ماذا سيحدُثُ لنا في ذلك اليوم حينَ تَظهَرُ أمامَ الجميع كلُّ سيِّئاتِنا؟ ليتنا اليومَ نتذكَّرُ ذلك اليومَ قبلَ أن نُقبِلَ على ارتكابِ معصية، ذلك اليوم الذي لن تَخفَى فيه عيوبُنا مهما صَغُرت.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾

٩ـ أولئك، الذين تتوفَّرُ فيهمُ العلاماتُ الخمسةُ السَّابقة، همُ المَهْدِيُّونَ والمُفلِحونَ في الدارَيْن.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾

١٠ـ الكافرُ هو: الذي يُنكِرُ وجودَ اللهِ تعالى أو ما هُو معلومٌ من الدِّينِ بالضَّرورة، وهناك أسبابٌ عدَّةٌ لكُفْرِه، منها ـ على سبيل المثال ـ الجَهْلُ بالإسلام، أو الشُّكوكُ والشُّبُهاتُ حولَ تعاليمِه وأحكامِه، وغيرُ ذلك، ولكنْ إذا بَلَغَتْه دعوةُ الإسلام، أوِ انتَفَتْ هذه الشُّكوكُ والشُّبُهاتُ، فإنّه عندَئذٍ يُسلِمُ.

وهناك نوعٌ آخَرُ من الكُفّار، وهم: الذين يعتقدونَ في حَقَّانيَّةِ الإسلام، ولكنّ تعصُّبَهم وعِنَادهم ألقَى حِجابًا على عقولِهم وأفهامِهم، بحيثُ لم يَدَعْهم على استعدادٍ

للدُّخولِ في الإسلام، وأمثالُ هؤلاءِ الكُفَّارِ هم الذين عَنَتْهما الآيتانِ المذكورتان، ومَثَلُ هؤلاءِ كمَثَلِ طبيبٍ يقولُ للمريضِ: إنّ مرضَه دَخَل في مرحلتِهِ الأخيرة، ولهذا سواءٌ لَجَأ إلى العلاج أو لم يَلْجَأْ إليه فلن يَتِمَّ شفاؤه، وهكذا فإنّ أولئكَ الذين دَخَل كُفُرهم في المرحلةِ الأخيرة (مثلَ أبي جَهْلٍ وأبي لَهَبٍ وغيرِهما) أعلَنَ اللهُ تعالى أنَّهم لن يؤْمنوا، ومعَ ذلك، فإنّ دعوةَ هؤلاءِ الكُفَّارِ إلى الإسلام يُقيمُ الحُجّةَ عليهم، حتّى لا يحتَجُّوا يومَ القيامة بعَدَم العِلم، كما يَنالُ الدُّعاةَ ثوابُ دعوتِهم على كلِّ حال، سواءٌ عَمِل المتلقِّي بدعوتِهم أم لا، مثْلَما يَنالُ المؤذِّنَ ـ بالضَّرورة ـ ثوابُ أذانِه، سواءٌ أقْبَلَ مَن سَمِع الأذانَ على الصَّلاةِ أم لم يُقبِلْ.

وهنا يُثيرُ بعضُ الناس قضيَّةَ القَدَرِ قائلينَ: إذا كان اللهُ تعالى قد خَتَم على قلوبِهم، وأصْدَر حُكمَه بأنَّهم لن يؤْمنوا، فكيف يؤْمنونَ إذًا؟ والحقيقةُ أنه إذا كان الطبيبُ قد أعلَنَ أنّ فلانًا المريضَ لا علاجَ لمرضِه، فهل أصبح المريضُ بإعلانِ الطَّبيبِ هذا يائسًا من الشِّفاء، أم أنّ المَرضَ كان قد دَخَل ـ بالفعل ـ في مرحلتِه الأخيرة؟ الجوابُ في غايةِ الوضوح، وهو: أنّ المريضَ كان قد أصبحَ بالفعلِ ميئوسًا من شفائه قبلَ إعلانِ الطَّبيب، ولم يَفعَلِ الطَّبيبِ سوى إعلانِ ذلك. وهكذا، فإنّ هذا النَّوعَ من الكُفَّارِ كان قد قَرَّر أنْ لا يَقْبَلَ الإسلامَ بسببِ تعصُّبه، واللهُ تعالى أخبَرَنا فقطْ بِنواياهُم.

والقصَّةُ هي أنّه اشتُهِر فيما يَتعلَّقُ بسيِّدِنا محمودٍ الغَزْنَويِّ، أنّ اللهَ تعالى قد أعطاهُ بصيرةً وفِراسةً، بحيث يستطيعُ أن يُخبرَ بما في قلوبِ الآخَرين، مثْلَما قال ﷺ «**اتَّقُوا فِراسَةَ المؤْمن، فإنّه يَنظُرُ بنُورِ الله**»[1]، فقام شابَّانِ بوَضْع برنامَج للتأكُّدِ من هذه الكَرامة خُلاصتُه: أنَّهما سليتقيانِ بمحمودٍ الغَزْنَويِّ عصرَ اليوم

---

(١) جامع الترمذي، أبواب تفسير القرآن، سورة الحجر (١٥): باب ١٥ برقم ٣١٢٧.

التالي في الحديقة، وهناك سُورٌ عالٍ حوْلَ هذه الحديقة، ويَتخلَّلُ هذا السُّورَ أربعةُ أبوابٍ مِن الجهاتِ المختلفِة للدُّخولِ إلى الحديقة، واتَّفقَ الشابَّانِ أنْ يَسألا محمودًا الغَزْنَويَّ: مِن أيّ بابٍ من أبوابِ الحديقةِ سَنخرُج؟ وبطبيعةِ الحال، سيُخبِرُهم ببابٍ من الأبواب، لكنَّهما سيَصعَدانِ على الشَّجرةِ الموجودةِ في الجانبِ الغَرْبيِّ، وَيقفِزانِ إلى الخارج من فوقِ السُّور، وهكذا يَثبُتُ خطأُ هذه الكَرامة.

وهكذا، ذَهَب الصَّدِيقانِ في اليوم التالي إلى تلك الحديقةِ للقاءِ محمودٍ الغَزْنَويِّ، وكان محمودٌ الغَزْنَويُّ في ذلك الوقتِ يسيرُ في الحديقة معَ وُزَرائه، فسَألَه الصَّدِيقانِ: هل يمكنُ أن تُخبِرَنا من أيِّ بابٍ من أبوابِ الحديقة سنَخرُج؟ فقال محمودٌ الغَزْنَويُّ: لو قلتُ: إنَّكما سَتخرُجانِ من البابِ الشِّماليِّ فنظرًا لأنَّكما قرَّرتُما مُعارَضتي فستحاولانِ الخروجَ من البابِ الجنوبيِّ بغَرَضِ تكذيبي، لكنَّني معَ ذلك سأكتُبُ على ورقةٍ من أينَ سَتخرُجان، وسأُعطيكُما الورقةَ، فاذْهَبا بها وافْتحاها في الخارج واقرءا ما فيها، وسآتي بنَفْسي إليكُما. وهكذا، كَتَب محمودٌ الغَزْنَويُّ في الورقة: إنَّكما لن تَخرُجا من أيِّ باب، وإنّما ستَقفِزانِ إلى الخارج بالصُّعودِ فوقَ الشَّجرةِ الموجودةِ في الجانبِ الغَرْبيِّ. ثم طَوَى الورقةَ وأعطاها لهما. وقام الشابَّان، طبقًا لِما خَطَّطا سابقًا بالخروج من الحديقة عن طريقِ الصُّعودِ فوقَ الشَّجرةِ الموجودةِ في الجانبِ الغَرْبيِّ فعلًا، وحين فَتَحا الورقةَ وَجَدا ما فيها.

وسؤالي الآنَ: هل أَجْبَرتِ الورقةُ المكتوبةُ هذَيْنِ الشابَّيْنِ على أنْ يَقفِزا خارجَ الحديقة عن طريقِ الشَّجرة؟ أم أنَّهما فَعَلا ذلك بمَحْضِ إرادتِهما وطِبقًا لما خَطَّطاه؟ لقد خَرَجا بالطَّبع برِضاهُما عن طريقِ الشَّجرة، ولم يكنْ للورقةِ دخْلٌ في الأمرِ مطلقًا، وهكذا، فإنَّ اللهَ تعالى ـ بعلمِه المُحيطِ بالمستقبَل ـ قد كَتَب تقديرَ كلِّ فردٍ بأنه بمَحْضِ إرادتِه وفي الوقتِ الفُلانيِّ سيقومُ بالعملِ الفُلانيِّ، وليس في هذا أيُّ إجبارٍ

من القَدَر، والقرارُ قرارُ العبدِ نفسِه، وهو المسئولُ عن عقابِه وثوابِه، وإنّما كَتَب اللهُ تعالى ما في عِلمِه المُحيطِ ليس إلَّا، وعِلمُ اللهِ كاملٌ بحيثُ لا مجالَ فيه مطلقًا للخطأ.

كما أنّ هؤلاءِ الكُفَّارَ المتعصِّبينَ كانوا على قَيْدِ الحياة حينَ نَزَلتْ هذه الآيةُ، وقد أعْلَمَ الله تعالى نبيَّه الكريمَ ﷺ بعَدَم إيمانِهم مستقبلًا، «**وفي الآية اخبارٌ بالغيبِ، فهي من المعجِزات**»[1]. وتوضيحًا لهذه النُّقطة، أشارَ الإمامُ محمَّد متولِّي الشَّعراوي إلى سُورةِ «المَسَد»، والتي تنبَّأتْ بسُوءِ عاقبةِ أبي لَهَبٍ وموتِه على الكُفر: ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ * فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴾ [المسد: ٣-٥][2].

وقد أعلَنتْ هذه السُّورةُ أنّ أبا لَهَبٍ سيموتُ على الكُفْر، وأنه سَيحترِقُ بنارِ جهنَّم، في حينَ أنه كان يمكنُه أن يأتيَ إلى النبيِّ ﷺ وَيقبَلَ الإسلامَ، حتّى ولو على سبيل التظاهُر، ثم بعدَ ذلك يُمكنُه تحدِّي نبوءةِ القرآنِ الكريم قائلًا: إنه أسْلَم، ولهذا، فإنّ القرآنَ مخطئٌ! وقد ذَكَر القرآنُ الكريمُ زوجةَ أبي لَهَبٍ بصفةٍ خاصَّة، ولم يَذكُرِ الكُفَّارَ الآخَرِين مثلَ: خالدِ بن الوليد وعَمْرِو بن العاص وعِكرمةَ بن أبي جَهْل وغيرِهم؛ لأنَّهم أسْلَموا بالفعلِ فيما بعدُ، وهنا تكونُ المعجِزةُ، بأنّ القرآنَ الكريمَ تحدَّى بأنّ أبا لَهَبٍ لن يُغيِّرَ من طريقِه الخاطئ، ولم يكنْ هذا من قَبِيل التحدِّي الذي لا دَخْلَ لعملِ أبي جهلٍ أو قرارِه اختيارٌ فيه، لكنّ اللهَ تعالى كان يَعلَمُ أنّ أبا لَهَبٍ سيموتُ على الكُفر، ولن يَقبلَ الإسلامَ ولو بشكلٍ عارضٍ على سبيل المراءاة[3].

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ

---

(١) تفسير البيضاوي، القاضي عبد الله بن عمر البيضاوي، المجلد ١ : ٢٢.

(٢) القرآن: ١١١ : ٣ – ٥.

(٣) معجزات الرسول، الإمام الشعراوي، ٣٠.

أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٠﴾

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾

١١- جاء في الآياتِ من الثامنةِ وحتّى العشرينَ ذِكرٌ لمختلِفِ أحوالِ المنافقين، والمنافقُ هو: ذلك الذي يُقِرُّ بالإسلام بلسانِه بينَما يُنكِرُه من قلبِه، وهؤلاءِ كُفّارٌ أيضًا، بل إنَّهم أشدُّ خطرًا من الكُفّارِ الظّاهرينَ، ولهذا، فبالرَّغم منَ ادِّعائهمُ الإيمانَ بأَلسنتهِم، إلّا أنّ اللهَ تعالى أعلَنَ أنَّهم ليسوا مؤْمنين، وأنّهم يحاولونَ إيذاءَ المسلمينَ بنِفاقِهم، لكنَّهم هم الخاسرونَ في الأصل، وإنْ كانوا لا يَشعُرونَ بما هم فيه من خسارة، حتى إنَّهم لا يَعلَمونَ أنّ عُمُرَ النِّفاقِ قصيرٌ، وما أنْ ينكشِفَ سِرُّ نفاقِ أحدٍ حتّى يصيرَ في المجتمع ذليلًا.

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗا﴾

١٢- حينَ تربَّعَ النبيُّ ﷺ على عرشِ السُّلطةِ في المدينةِ المنوَّرة، اغتاظَ

المُعارِضونَ كثيرًا، واشتَعَلتْ في قلوبِهم نيرانُ الحقدِ والعِناد، وعَبَّر القرآنُ الكريمُ عن تعصُّبِهم وحَسَدِهم هذا بالمرض، وقد أنْعَم اللهُ تعالى على حبيبِه المصطفى ﷺ بمزيدٍ من التقدُّم والتَّطوُّر، فزادَ بذلك في مرضِ هؤلاءِ؛ لأنّ من يغتاظُ عندَما يَرى الحقَّ ينتشرُ فدَعْه يغتاظُ، وستبقَى هذه السِّلسلةُ إلى يوم القيامة، وسيظلُّ شأنُ النبيِّ ﷺ يزدادُ رِفعةً وعَظَمةً، ويحترقُ من الغَيْظِ المُغْتاظون.

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾

١٣ـ لمّا ازْدهَر الإسلامُ في المدينـةِ المنوَّرةِ وانـتشَر، أظْهَر العديدُ من المتَسلِّقينَ أصحابِ المصالح الخاصَّةِ إسلامَهم، طَمَعًا في تحقيقِ أهدافٍ دُنيويَّة، وكذلك فَعَل العديدُ من مُثيري الفِتَنِ ذلك، بغَرَض التجسُّسِ على المسلمينَ في أنَّهم جميعًا كُفّارٌ من داخِلِهم، ولهذا فإنَّهم، وبسببِ هذا الكذبِ الصَّريح، سيَلقَوْنَ عذابًا أليمًا في الآخِرة.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ﴾

١٤ـ إنّ الاختلَاف بيْنَ الكُفرِ والإسلام حقيقةٌ واقعةٌ، ولأنّ المنافقينَ يكونونَ على علاقةٍ بالطَّرفَيْنِ، لهذا فإنَّهم كانوا يُفشُونَ أسرارَ المسلمينَ عندَ الكُفّار، ليَنفُخوا في نارِ الحربِ بينَهم، وَينَهمِكونَ ليلَ نهارَ في نَشْرِ الفِتنِ والفسادِ في الأرض.

فإذا قيل لهم: لا تُفسِدوا على النّاسِ أَمْنَهم وطُمَأْنينَتهم بمؤامَراتِكم الدَّنيئة. قالوا: إنَّما نحن نحاولُ الإصلَاح، والحقيقةُ أنّ مرضَ النِّفاقِ الذي تَرسَّخَ في قلوبِهم قد أماتَ ضمائِرَهم وعقولَهم، ومثْلَما يشعُرُ بعضُ المرضَى بالحُلْوِ مُرًّا وبالمُرِّ حُلْوًا، فإنّ المنافقينَ كذلك، يَرَوْنَ إفسادَهم إصلاحًا، ولا يوجَدُ مُفسِدٌ على

استعدادٍ أن يُقالَ له: مُفسِد، لكنّ القرآنَ الكريمَ أوضَحَ أنّ المُفسِدَ هو: الذي ينـشُرُ الفسادَ باسم الإصلاح، وَيزرَعُ بُذورَ التَّفرِقة بِاسم الاتِّحاد.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾

١٥ـ أولئكَ الذين يترُكونَ دِينَ آبائهم وأجدادِهم، ويعتَـنِقُونَ الإسلامَ، ثم يَنهَمِكونَ في تبليغ الإسلام والدَّعوةِ إليه والفَوْزِ برِضا اللهِ تعالى، يواجِهونَ دائمًا معارضةً من أُسَرِهم وعائلاتِهم، ويَصْطَدِمونَ بقُوى الباطلِ من أَجْل رِفعةِ الحقِّ، وتَحُلُّ بهم المصائبُ في الظَّاهر، لكنّ الأنانيِّـينَ المُغرَمِينَ بالعَرْبدةِ والانحلالِ يَعتبِرونَ هؤلاءِ المؤمنينَ المُخلِصينَ حَمْقَى! معَ أَنَّهم هم الحَمْقى أصلًا؛ لأَنَّهم يَحرِمونَ أنفُسَهم من الرَّاحةِ الأبَدِيَّةِ في الآخِرة، مقابلَ عدَّةِ أيام من المُتعةِ الزائلة.

ولذا، ينبغي على الصَّالحينَ أن لايتأَثَّروا حُزنًا بسُوءِ مقالِ أهل الباطل؛ لأنّ الضَّالِّينَ وأهلَ السُّوءِ دائمًا يستعمِلونَ مثْلَ هذا الأسلوبَ، كما أنّ هناك إشارةً في الإيمانِ مثلَ إيمانِ المخلِصينَ إلى أنه يجبُ علينا أن نختارَ صُحبةَ الصَّالحين، وأن نحاولَ أن نفعَلَ مثلَ ما يفعَلون.

﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

١٦ عندَما كان المنافقونَ يَلْتَقُونَ المسلمينَ، كانوا يَدَّعُونَ الإيمانَ، وعندَما كانوا يذهَبونَ عندَ مُخالفي الإسلام، كانوا يقولونَ لهم: إنَّنا في الحقيقةِ معَكم، ونَستهزئُ بالمسلمينَ لا أكثرَ، وعقابًا لهؤلاءِ المنافقينَ على هذا الاستهزاءِ بالمسلمين، فإنّ اللهَ تعالى تَرَكَهم إلى عِصيانِهم وتمَرُّدِهم، أي: إذا كنُتم تُحِبُّونَ هذا فلْتبقَوْا فيه إلى الأبَد.

على سبيل المثال، عندَما يَفِيضُ النَّهرُ، فإنّ الماءَ الذي ينفصلُ عن النّهرِ خارجًا منه تَنقطعُ صِلتُه بالنَّهرِ إلى الأَبَد، وَينشُرُ الخرابَ والدَّمارَ حيثُما اتَّجَه وسار، كالجَمَلِ الذي أَفْلتَ عِقالَه، ولا يكونُ لدَيْه مسارٌ محدَّد، وإنَّما الانتشارُ هنا وهناك كيفَما اتَّفَق، وإغراقُ الأرضِ في أيامٍ قليلة، وهكذا عندَما يتَجاوزُ الإنسانُ حدودَ الإنسانيَّة، فإنه يُصبحُ في فترةٍ قليلةٍ سببًا في الدَّمارِ والخَراب، وفي نهايةِ المطافِ يُغرِقُه سَيْلُ تمرُّدِه وعصيانِه، ويَصِلُ به إلى جهنَّمَ وبئسَ المَصِير.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴾

١٧ـ لقد أوضَحَ النبيُّ الكريمُ ﷺ الحقَّ والباطلَ تمامًا، ولو شاء المنافقونَ لَاختاروا طريقَ الهِداية فنالُوا بذلكَ الفلاحَ، لكنَّهمُ اختَارُوا الضَّلالَ بدَلًا منَ الهدايةِ بمَحْضِ إرادتِهم، وبالطَّبع لم يَستفيدوا شيئًا من هذه الصَّفقة، وفَقَدوا الهدايةَ شيئًا فشيئًا، والأكثرُ من ذلك، أنّهم عُوقِبوا على إعراضِهم عن الحقِّ عامِدينَ متعمِّدين، بأنْ فَقَدتْ إمكانيَّةُ قَبُولِ الهدايةِ داخلَ فِطرتِهم كلَّ فَعالِيَتِها.

﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴾

١٨ـ ومَثَلُهم كمَثَلِ مَن أشعَلَ نارًا في الظَّلام، فإذا أضاء ما حولَه أغْلقَ البعضُ عيونَه، ولم يَعُدْ يرى شيئًا بالرَّغم من وجودِ النُّور.

وهكذا، فإنّ عبدًا خاصًّا للهِ تعالى (سيّدَنا محمَّدًا ﷺ) قد أضاء شموعَ الإسلام في ظلامِ الكُفْر، وحينَ عَمَّ نُورُ الإسلام فيما حولَه، واتَّضحَ الحقُّ كما يَتَّضِحُ نُورُ النَّهار، وأَقْبلَ أهلُ العقلِ والفِكْرِ على الدُّخولِ في الإسلام، فإنّ هؤلاءِ المنافقينَ، فاقدي العقل، وَضَعوا على أعيُنِهم ضُمادةَ التعصُّب، وظَلُّوا يَتِيهُونَ في ظلام الكُفْر برَغْم رؤيتِهِم لنُورِ الإسلام.

وا أسفاهُ على عقولِ هؤلاء! فهم نوعٌ عجيبٌ من الصُّمِّ لا يَسمَعونَ قولَ الحقِّ، وبُكْمٌ لا شجاعةَ لَديْهِم على قولِ الحقِّ، وعُمْيٌ لا يتحمَّلونَ رؤيةَ الحقِّ، ولهذا يستحيلُ على مِثلِ هؤلاءِ الرجوعُ إلى الهداية؛ لأنّ التعصُّبَ قد قَضى على آذانِهم وأعْيُنِهم وألسنتِهم.

﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

١٩ـ أو أنّ مَثَلَهم كمَثَلِ قافلةٍ أحاطَتْ بها السُّحُبُ السَّوداءُ المُمطِرةُ من كلِّ جانب، وأخَذَتْ تُمطِرُها كلَّ يوم، فإذا ما رَعَدَ البرقُ مَشَوْا في ضوئِه، وإذا ما أظْلَمتِ السماءُ أخَذَتْهمُ الحَيْرةُ والدَّهشة، وإذا ما تَناهَى إلى سمْعِهم صوتُ الصَّواعقِ وَضَعوا أصابعَهم في آذانِهم خوفًا من الموت، وهكذا يعيشونَ في صراع بيْنَ الحياةِ والموت، فلا أملَ في أن يَصِلوا إلى حيثُ يريدونَ، ولا يَنعُمونَ في الطريقِ بالأَمْنِ والطُّمَأْنينة، وإنَّما قلقٌ واضطرابٌ متواصِل.

وعندَما ظَهَر النُّورُ بالفتوحاتِ الإسلاميَّة، وأخَذَت برَكاتُ الإسلام تَعُمُّ في صورةِ أمطارِ الرَّحمة، هَرْوَلَ المنافقونَ إلى المسلمين، وتَقدَّموا إليهم، طَمَعًا في المنافع الظاهريَّة، فإذا ما ظَهرتْ سُحُبْ البُغْضِ والعِنادِ من جانبِ الكُفّار، وحَلَّ وقتُ مجابهةِ جيوشِ المخالِفين، اختَبأ المنافقونَ في بيوتِهم، وهكذا كشَفَ هذا الكَيْلُ منهم بمِكيالَيْنِ نفاقَهم، ووُوجِهوا بسُوءِ السُّمعةِ من كلِّ جانب، وباختصار، ليس لهم في الدُّنيا والآخِرة سوى القلقِ غيرِ المحدود.

بَـيَّنتِ الآياتُ الثلاثةَ عشَرَ السَّابقةُ صفاتِ المنافقينَ وعلاماتِهم، وبالتمَعُّنِ فيها يَصِلُ الإنسانُ إلى نتيجةٍ مُفادُها: أنّ النِّفاقَ ضارٌّ على كلِّ حال، سواءٌ كان في

العقيدةِ أم في العمَل، وسواءٌ كان في الدِّين أم في الدُّنيا، وسواءٌ كان للمخلوقِ أم للخالق. يا الله نجِّنا جميعًا من النِّفاق، وارزُقْنا ثروةَ الإخلاص. آمين.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

٢٠ـ لقد خَلَقَ اللهُ الإنسانَ، وخَلَقَ الأرضَ والسماءَ لراحتِه وخِدمتِه، وهيَّأَ الماءَ والثِّمارَ ليحفَظَ عليه حياتَه، وليس مَع اللهِ شريكٌ في تدبيرِ كلِّ هذا، فإذا كان

وجودُ الإنسان، وكلٍّ وسائل حياتِه، هي خَلْقُ اللهِ تعالى وحدَه، فإنّ الذّاتَ الوحيدةَ التي تليقُ بالعبادة ـ إذًا ـ هي ذاتُه هو فقطْ، ولا مجالَ لِأنْ يكونَ له شريكٌ بأيٍّ صورةٍ من الصُّوَر.

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾

٢١ـ حينَ كان النبيُّ ﷺ يقرَأُ على الناسِ كلامَ اللهِ تعالى، كان الكُفَّارُ يقولونَ: إنّه يأتي بكلامٍ من عندِه ويَنسُبُه إلى اللهِ تعالى، ولهذا تَحدَّى اللهُ تعالى الكُفَّارَ أنْ إذا كنتُم في شكٍّ من أنّ القرآنَ الكريمَ كلامُ الله، فلْتأْتُوا أنتُم أيضًا بسُورةٍ من مِثلِه، وفي نفسِ الوقتِ أعلَنَ اللهُ تعالى أنكم أيُّها الكُفَّارُ، لو اجتَمَعتُم على أنْ تَأتُوا بمِثلِ هذا القرآنِ لن تَستطيعوا ذلك، ولو كان في استطاعةِ الكُفَّارِ ما انـتَظَروا للحظةٍ، ولجاءوا بمِثلِ القرآن، وأثبَتوا ـ بذلك ـ انتصارَهم، ولكنْ مضَى حتّى اليومَ ما يزيدُ على أربعةَ عشَرَ قرنًا من الزَّمان، ولم يستطع الكُفَّارُ مواجهةَ هذا التحدِّي الإلهيِّ، ولن يستطيعوا ذلك حتّى قيام الساعة؛ لأنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ تعالى، وليس في استطاعة بشَرٍ أن يأتيَ بمِثلِه.

وقد أعلَمَ اللهُ تعالى رسولَه الكريمَ ﷺ عن المستقبَل، بأنه لن يستطيعَ أيُّ كافرٍ أن يأتيَ ولو بمِثلِ أصغرِ سُورةٍ في القرآنِ الكريم، وهذا دليلٌ واضحٌ على أنّ القرآنَ كلامُ الله، وعلى أنّ سيِّدَنا محمدًا ﷺ رسولُ الله، وهو ـ كذلك ـ دليلٌ على أنّ بالقرآنِ خبرَ الغَيْب، وأنه المُعجِزةُ الباقيةُ للنبيِّ ﷺ، وفي حينَ توارَتْ مُعجِزاتُ الأنبياءِ السابقينَ عن الأنظارِ اليومَ، فإنّ مُعجِزةَ النبيِّ ﷺ هذه، أيِ: القرآنَ، باقيةٌ تُعجِزُ مُنكرِي الإسلام حتّى اليومَ وتُفحِمُهم.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾

٢٢ـ لن يحترقَ الكُفَّارُ فقطْ بنارِ جهنَّم، وإنَّما ستحترقُ معَهم أصنامُهم الحَجَريَّةُ التي كانوا يعبُدونَها من دونِ الله، وهنا طريقةٌ من طُرُقِ الإفهام، بأنّ الأصنامَ التي ظننْتُم أنها ستُنجِيكُم لا تستطيعُ أن تُنجِيَ حتّى نفْسَها من العذاب، فكيف تُنْجِيكم أنتُم؟ ولهذا، فإنه لا يزالُ أمامَكم وقتٌ حتّى اليوم لكي تتَخَلَّوْا عن هذه الآلهةِ الكاذبة، وتؤْمنوا بالخالقِ الحقيقيِّ، وتحفَظوا أنفُسَكم من نارِ جهنَّم.

ونارُ جهنَّمَ هذه غايةٌ في العَجَب، فوَقُودُها: الإنسانُ والأحجار، والفحمُ بطبيعةِ الحال يَخرُجُ من الأحجار، ويُستخدَمُ في إشعالِ النّار، لكنّ الإنسانَ أيضًا ليس بأقلَّ من أيِّ حَجَرٍ، فهو يَرى المُعجِزاتِ بعَيْنَيْه، لكنَّه ـ معَ ذلك ـ يظَلُّ محرومًا من الإيمان، ولهذا سوف يُستعَملُ فيما يُستعمَلُ فيه الفَحْمُ.

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

٢٣ـ بعدَ أن حَذَّرتِ الآياتُ السَّابقةُ مُنكِري القرآنِ من نارِ جهنَّم، جاءتْ هذه الآيةُ لِتُبشِّرَ أولئك السُّعَداءَ بالجَنّة، وهمُ الذين آمَنوا بالقرآنِ وعَمِلوا الصَّالحاتِ.

فما الجَنَّةُ؟

الجَنَّةُ: تُطلَقُ على تلك الحديقةِ الخاصَّةِ التي سيَدخُلُ فيها الصَّالحونَ يومَ القيامة، وتَجري فيها الأنهارُ، وتتشابَهُ ثمارُها ـ في الشَّكلِ والصُّورةِ الظَّاهريَّةِ ـ معَ ثمارِ الدُّنيا، لكنّ طعمَها ونكْهتَها تفُوقُها بمراحلَ، وفي هذه الجَنّةِ زوجاتٌ مُطَهَّراتٌ للرِّجال، وأزواجٌ أطهارٌ للنِّساء، وأعمارُهم جميعًا تتراوحُ ما بيْنَ ثلاثينَ وثلاثةٍ وثلاثينَ عامًا[1].

---

(١) عن معاذ بن جبلٍ انّ النّبيّ ﷺ قال: يدخل اهل الجنّة الجنّة جردًا مردًا مكحّلين أبناء ثلاثين أو ثلاثٍ وثلاثين سنةً. جامع الترمذي، أبواب صفة الجنة، باب ١٢ برقم ٢٥٤٥.

فما الذي ستحصل عليه النساء في الجنة؟

لقد أَوْدعَ اللهُ في المرأةِ الجَمالَ والجاذِبيَّة، والجمالُ يَطلُبُ مَن يرغَبُه، ولهذا فإنّ أقصى ما تتمنّاهُ أيُّ امرأةٍ أن تجدَ زوجًا مُحِبًّا لها، وسيكونُ زوجُ كلِّ امرأةٍ في الجَنَّةِ على قَدْرٍ عظيمٍ من الجَمال، بحيثُ يَسعَدُ قلبُها حينَ تراه، لأنّ هذا الزَّوجَ سيكونُ تفسيرًا لأحلامِها، ومَظْهَرًا تامًّا لأُمنياتِ قلبِها، مثْلَما قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣١]، ولهذا مثْلَما ستكونُ زوجةُ كلِّ رجُلٍ في الجنَّةِ مَظْهرًا تامًّا لما يُحبُّ، فإنّ زوْجَ كلِّ امرأةٍ في الجنَّةِ سيكونُ تفسيرًا وتحقيقًا لأحلامِها، وسيكونُ كلٌّ منهما مُحِبًّا للآخَرِ من كلِّ قلبِه.

وسيكونُ في الجنَّةِ حُورٌ، وغِلْمانٌ أيضًا، والذين سيكونونَ باعِثًا إضافيًّا على طُمَأْنينةِ القلبِ لدى الزَّوجِ والزَّوجة، ولكنّ هؤلاءِ (أي: الحُورَ والغِلمانَ) لن يكونوا من جِنسِ البشَر، وإنّما سيخلُقُهم اللهُ تعالى من رائحةِ الجنَّة، وسيكونونَ مُكرَّسِينَ لخِدمةِ الزَّوجِ والزَّوجةِ من أهلِ الجنَّة، وعلاوةً على الأنبياءِ الكرام والمُقرَّبينَ، سيكونُ لكلِّ رجُلٍ في الجنَّة زوجةٌ واحدةٌ فقَطْ من جِنسِ البشَر؛ لأنّ أزواجَ النبيِّ ﷺ في الدُّنيا سَيكُنَّ أزواجَه في الآخِرة، وهنَّ أكثرُ من واحدةٍ، ولن تستطيعَ الحُورُ العِينُ أن تَصِلَ في قلبِ الرَّجُل إلى نَفْسِ المحبَّةِ والرَّغبةِ التي يُكِنُّها الرَّجُلُ لزوجتِه، مثْلَما جاء في الحديثِ الشَّريف: **عن أُمِّ سَلَمةَ رضيَ اللهُ عنها، قالت: قلتُ: يا رسولَ الله! أنِساءُ الدُّنيا أفضَلُ أم الحُورُ العِيْن؟ قال: «بل نِساءُ الدُّنيا أفضَلُ منَ الحُورِ العِيْن، كفَضْلِ الظِّهارةِ على البِطانة». قلت: يا رسولَ الله! وبمَ ذاك؟ قال: «بصَلاتِهنَّ وصِيامِهنَّ وعبادتِهنَّ اللهَ أَلْبَسَ اللهُ وجوهَهُنَّ النُّورَ وأجسادَهُنَّ الحريرَ بيضَ الألوانِ خُضْرَ الثِّيابِ صُفْرَ الحُلِيِّ، مَجامِرُهُنَّ الدُّرُّ وأمشاطُهنَّ الذَّهَبُ، يقُلْنَ: ألَا نحن الخالِداتُ فلا نموتُ أبدًا، ألا ونحن النّاعِماتُ فلا نَبْؤُسُ أبدًا، ألا ونحن المُقيماتُ**

فلا نَظْعَنُ أبدًا، ألَا ونحن الرّاضِياتُ فلا نَسخَطُ أبدًا، طُوبى لمن كُنّا له وكان لنا»[١].

فالمرأةُ التي يَدخُلُ زوجُها الجنَّةَ سيكونُ زوجًا لها هناك بمحبَّةٍ جديدةٍ ورغبةٍ جديدة، والعيوبُ والمساوئُ التي كانت في الزَّوج في الحياةِ الدُّنيا ستزولُ عنه في الجنَّة، ولو أنّ امرأةً لم يَستطعْ زوجُها الدُّنيويُّ دخولَ الجنَّة ـ بسببِ ظُلمهِ لها ـ أو ماتَتِ امرأةٌ في الدُّنيا بغيرِ زواج، فسيكونُ واحدٌ من شبابِ الجنَّة، الذين ماتوا في الدُّنيا بغيرِ زواج، زوجًا لها، وسوف تُحِبُّه هذه المرأةُ من أعماقِ قلبِها، والأمرُ نفْسُه للأطفال (ذكورًا وإناثًا) الذين ماتوا في الدُّنيا صِغارًا، سيُبعَثُونَ في عُمْرِ الشَّباب، وسيتزوَّجونَ من بعضِهم البعض.

أمَّا المـرأةُ التي تـزوَّجـتْ أكثَـر مـن مرَّةٍ في الدُّنيـا، وطُلِّقتْ مـن كـلِّ مَـن تزوَّجتْهم، فإنْ ماتت ولـم تكنْ في عِصمةِ رجُل، خُيِّرتْ يومَ القيامةِ لتكونَ زوجةً لمَن كان أحسَنَ أزواجِها في الدُّنيا أخلاقًا؛ لأنّ الفلاحَ في الدُّنيا والآخِرةِ مُرتبطٌ بالأخلاقِ الحَسَنة. **عن أُمِّ سَلَمةَ رضيَ الله عنها، قالت: قلتُ: يا رسولَ الله! المرأةُ منّا تتزوّجُ زَوْجَيْن والثّلاثةَ والأربعةَ، ثمّ تموتُ فتَدخُلُ الجنَّةَ ويَدخُلونَ معَها، من يكونُ زوجَها؟ قال: «يا أُمَّ سَلَمَةَ! إنّها تُخيَّرُ فتختارُ أحسَنَهم خُلُقًا، فتقول: أيْ ربِّ، إنّ هذا كان أحسَنَهم معي خُلُقًا في دارِ الدُّنيا، فَزَوّجْنِيهُ. يا أمَّ سَلَمةَ! ذَهَب حُسنُ الخُلُقِ بخيرِ الدُّنيا والآخرة»**[٢]. لكنّ المرأةَ التي تزّوجتْ أكثَرَ من مرَّةٍ ولم يُطلِّقْها آخِرُ أزواجِها، وماتت وهي في عِصمتِه، فستكونُ في الآخِرةِ زوجةً له[٣].

وباختصار، سيكونُ الزَّوجانِ في الجنَّةِ في عُمُرِ الشَّباب، وستكونُ رائحةُ عَرَقِهما

---

(١) المعجم الكبير، ١٠: ١٠٥ برقم ١٩٣١٣، وراجع المعجم الكبير، ٢٣: ٣٦٨.

(٢) المعجم الكبير، ١٠: ١٠٥ برقم ١٩٣١٣.

(٣) تبيان القرآن، ١: ٣٣٨.

المِسكَ، وسيكونُ كلٌّ منهما في غايةِ الحُبِّ للآخَر، وسَيسعَدانِ إلى أبدِ الآبِدين.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾

٢٤- إذا كانت هناك ضرورةٌ للاستشهادِ بمِثالٍ من الذُّبابِ أو البَعُوضِ أو العنكبوتِ من أَجْلِ مزيدٍ من التَّوضيح، فإنّ اللهَ تعالى لا يَتغاضَى عن مِثْلِ هذا الاستشهاد، حتّى لا يبقَى لأحدٍ عُذرٌ في اعتراض، وأهلُ الإيمانِ يَعترِفونَ بحَقّانيَّةِ هذه الأمثِلة، نَظَرًا لإفادتِها، فيُواصِلونَ سَيْرَهم على طريقِ الهداية، بينَما يعترِضُ أهلُ الكُفْرِ على هذه الأمثِلةِ بدافع من بُغْضِهم وعِنادِهم، فيَغرَقُونَ في ضَلالِهم.

﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾

٢٥- إنّ من يترُكُ الصِّراطَ المستقيمَ، ويتَّخِذُ طريقَ الفِسْق، ويُخلِفُ وَعْدَه معَ الله بالإسلام (الطّاعة)، ولا يؤدِّي حقوقَ اللهِ تعالى ولا حقوقَ خَلْقِه، وَينشُرُ الفسادَ في الأرض، لا يُمكنُ أن يستفيدَ من القرآنِ الكريم، وسيبقَى في خسارةٍ دائمة؛ لأنّ مَن وُجِدتْ به هذه العيوبُ الأربعةُ السّابقةُ يَتعطَّلُ ذِهنُه وضميرُه بدرجةٍ تَحرِمُه من مَلَكةِ قَبولِ الحقِّ.

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾

٢٦- كان الإنسانُ لا رُوحَ فيه، فَمَنَحه اللهُ الحياةَ، ثم سيُميتُه ويُحييهِ، ثم سيُبعَثُ

أمامَ اللهِ تعالى من أَجْلِ الحساب، كما أنّ اللهَ تعالى خَلَقَ للإنسانِ كلَّ الأشياءِ في السَّماءِ والأرض، حتّى يَجعَلَ حياتَه أكثرَ سعادةً.

وباختصار، فإنّ الإنسانَ مُحاطٌ بنِعَمِ اللهِ تعالى من كلِّ جانب، ولهذا فإنّه من العجيبِ للغايةِ أن يُنكِرَ الكُفّارُ وجودَ اللهِ تعالى، رغْمَ هذه الأدِلّةِ القويَّة والنِّعَم الواضحة.

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾

٢٧ ـ الملائكةُ: مخلوقاتٌ نُورانيَّةٌ لا نَراها، واللهُ تعالى وحدَه هو الذي يَعلَمُ عددَها، وقد أَنْعَمَ اللهُ تعالى عليهم بقوَّةٍ تَجعَلُهم يستطيعونَ التشكُّلَ في الشَّكلِ الذي يريدون، والملائكةُ عبادُ اللهِ الطاهرونَ المُكْرَمُونَ، ويفعَلونَ ما يَأمُرُهم اللهُ به.

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾

٢٨ـ الخليفةُ هو: ذلك الذي يَعمَلُ نائبًا لمَن أعطاهُ السُّلطةَ في مُلكِه، والإسلامُ هو الدِّينُ الأوَّلُ والأخيرُ في الدُّنيا، والذي عَرَّفَ الإنسانَ بمكانتِه نائبًا للهِ تعالى، واللهُ تعالى لم يَخلُقْ أجملَ من الإنسان، وسَخَّر كلَّ شيءٍ في السَّماءِ والأرضِ لهذا الإنسان، فإذا لم يصبحْ إنسانٌ ما عبدًا لخالقِه الحقيقيِّ شاكرًا له بالرَّغْم من كلِّ هذه النِّعَم عليه، فليس هناك إذًا من هو أتعَسُ منه.

﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

٢٩ـ لقد خَلَق اللهُ الجِنَّ قبْلَ الإنسان، وأسْكَنَهم الأرضَ، وحين تَصادَموا فيما بينَهم بسببِ تباغُضِهم وعِنادِهم، واستَشْرَى الفسادُ وسَفْكُ الدِّماءِ في الأرض، أمَرَ اللهُ تعالى الملائكةَ فطارَدوهم إلى الجبالِ والغابات، وحينَ أعلَن اللهُ تعالى عن إرادتِه في اتِّخاذِ السيِّدِ الإنسانِ خليفةً له على الأرض، أبدَى الملائكةُ ـ بناءً على تجرِبتهم السَّابقة ـ تخوُّفَهم من أن يَعِيثَ الإنسانُ في الأرضِ فسادًا، بينَما نحن ـ أي: الملائكةُ ـ مُستَغْرِقونَ تمامًا في تنفيذِ أحكام اللهِ تعالى، ولا نكُفُّ عن تقديسِ اللهِ وحَمْدِه، وتسبيحِه والثَّناءِ عليه، وبالتالي ليس هناك نقْصٌ في شيءٍ يَجعَلُ لنا حاجةً في خليفة، ونحن لا نستطيعُ استيعابَ الحِكمة في ذلك، وإجابةً على هذا، قال تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

ولا شكَّ أنّ الحِكمَة الحقيقيَّةَ في ذلك يَعلَمُها اللهُ وحدَه، إلّا أنّ ما يَحتاجُ إلى التدبُّرِ هو: أنّ الملائكةَ مخلوقاتٌ نُورانيَّةٌ منزَّهةٌ عن تناولِ الطعام والشَّراب، ولذا فهم ليسوا في حاجةٍ إلى بَذْلِ الجُهد، فليس بداخلِهم إمكانيَّةُ فعلِ الشرِّ، وبالتالي لا خوْفَ

عليهم من مهاجمةِ الشيطان لهم، وفعلُ الخيرِ هو فِطرتُهم التي فَطَرَهم اللهُ عليها، وبفَضْلِ هذا لا يواجِهونَ أيَّةَ مَشَقَّةٍ أو نَصَب. وهنا، لك أن تتصوَّرَ أنّ الإنسانَ يُنهِكُه الجوعُ والعَطَش، وتَعُوقُ طريقَه إلى الخيرِ جبالٌ من الوَساوسِ الشَّيطانيَّة، وورودُ الرَّغَباتِ تتراءى له في كلِّ خُطوةٍ وفي أبهَى حُلّةٍ، لكنّ هذا الإنسانَ يتغلَّبُ على كلِّ هذه الصُّعوبات، ويَخِرُّ ساجدًا في حضرةِ اللهِ تعالى شاكرًا إياه، فهل هناك مَن هو أحقُّ منه بخلافةِ اللهِ تعالى في الأرض؟ ومن المعلوم أنّ الأنبياءَ الكرامَ أفضلُ من الملائكة.

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

٣٠ـ اللهُ تعالى هُو الذي عَلَّمَ الأنبياءَ الكرامَ عليهمُ السَّلامُ، ولا يَستغرِقُ تعليمُه لهم وقتًا، وإنّما يَجعَلُ مَن يشاءُ عالمًا بمجرَّدِ الإرادةِ فقط، وهكذا عَلَّم اللهُ آدمَ «**وألهَمَه معرفةَ ذواتِ الأشياء وأسمائها وخواصِّها ومعارفِها وأصولِ العِلم وقوانينِ الصّناعاتِ وتفاصيلِ آلاتِها وكيفيّاتِ استعمالاتِها**»[١]، كما أنه قد «**عَلَّم اللهُ تعالى آدمَ ألفَ حِرفةٍ من الحِرَف، وقال له: قُلْ لِوَلَدِك وذُرّيّتِك: إنْ لم تَصبروا فاطلُبوا الدُّنيا بهذه الحِرَف، ولا تَطلُبوها بالدِّين، فإنّ الدِّينَ لي وحدي خالصًا، وَيْلٌ لمَن طلَبَ الدُّنيا بالدِّينِ وَيْلٌ له**»[٢].

وبعدَ ذلك قَدَّم اللهُ تعالى الأشياءَ التي يستحِقُّ بها سيِّدُنا آدمُ عليه السلامُ خلافةَ الله، وسألَ الملائكةَ عن أسمائها، وعندَما اعترفَ الملائكةُ جميعًا، والشَّيطانُ كذلك، بعَدَم معرفتِهم بها، أنْبَأهم آدمُ عليه السلام بها، وعليه ذَكَّر اللهُ تعالى الملائكةَ قائلًا: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾. ولم يسألِ اللهُ تعالى الملائكةَ عن التوحيدِ والرِّسالةِ أو العبادة،

---

(١) تفسير روح المعاني، السيد محمود الآلوسي، ١: ٢٢٤.

(٢) البدر المنير، الإمام عبد الوهاب الشعراني، ٢٨٩، وكنز العمال، ١٠: ٢٠٦ برقم ٢٩٠٩١.

لكي يُثبِتَ أفْضَلِيَّةَ آدمَ عليه السلامُ على الملائكة، وإنَّما سألَهم عن أسماء وأسرارِ أشياءَ متعدِّدة، وهو ما يُعطينا إشارةً أيضًا إلى أنّ العبادةَ فقطْ (وهي المتوفِّرةُ لدى الملائكةِ بشكلٍ كبير) ليست كافيةً لحُكم بني الإنسان، وإنّما من الضَّروريِّ أيضًا العِلمُ التفصيليُّ بالكائنات، وهو ما نُطلِقُ عليه في أيامِنا بالعلوم التطبيقيَّةِ والتَّجريبيَّة؛ لأنّ العالِمَ التَّجريبيَّ يُطلَقُ على: ذلك الإنسانِ الذي يَدرُسُ حقيقةَ وخاصيَّةَ أيِّ شيءٍ في هذا العالَم الماديِّ، واكتَشَف - بالفعل - بعضَ خواصِّ هذا الشيء، لكنْ لا أحدَ من هؤلاءِ العلماءِ يَعلَمُ كم بقِيَ من خواصِّ هذا الشيء، بينَما كان آدمُ عليه السَّلامُ على عِلمٍ بكلِّ خواصِّ الأشياءِ في الكائناتِ وحقائِقها، بالإضافةِ إلى العلوم الدِّينيَّة، ولهذا فإنه لا يوجَدُ عالِمٌ واحدٌ في دُنيانا هذه يَبلُغُ عِلمُه ولو ذَرَّةً قليلةً مما بَلَغَه عِلمُ آدمَ عليه السلام، بل إنّ كلَّ عالِم مَدِينٌ لآدمَ عليه السَّلامُ، وذلك لأنّ أصلَ تلك الحقائِقِ ينتقلُ باستمرارٍ في أولادِ آدمَ، وكلُّ من يَبذُلُ جُهدًا يكتشفُ - بقَدْرِ جُهدِه - تلك الحقائقَ، ولأنّ هذه الحقائقَ تتعَلَّقُ بالتجارِبِ الماديَّةِ التي لا فَرْقَ فيها بينَ مسلم وكافر، لهذا فإنّ كلَّ مَن يقومُ بتجارِبَ أكثرَ يصبحُ - بنفسِ القَدْرِ - عالمًا في هذا المجال.

وكما جاء في الحديث الشَّريف: «**ما مِن مولودٍ إلّا يولَدُ على الفِطرة، فأبَواهُ يُهوِّدانِه أو يُنَصِّرانِه أو يُمَجِّسانِه**»[1]، ولا يبدو مثلُ هذا الشُّعورِ عندَ الولادة، ولذا نُضْطَرُّ إلى تعليمِه الإسلامَ في عُمْرِ عدَّةِ سنوات، لكنّ آدمَ عليه السَّلامُ لم يولَدْ طفلًا، وإنّما كان - عندَ ولادتِه - شابًّا مُستيقِظَ الشُّعور، وحينَ نَفَخَ اللهُ الرُّوحَ في جسدِ آدمَ عليه السَّلام، دَبَّتِ الرُّوحُ أولًا في الجزءِ العُلويِّ من الجسد، وكان الجزءُ السُّفْليُّ لا يزالُ بلا رُوح، ولذا لم تكنْ لدَيْه قدرةٌ على مجرَّدِ المَشْي، وقد

(١) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب ٧٩ برقم ١٣٥٩.

عَطَس آدمُ في ذلك الوقتِ فَبدأَ كلامُه بقولِه: «**الحمدُ لله ربِّ العالمين**»[١]، وهذا يعني أنه كان ـ بفطِرتِه ـ يعرِفُ حقيقةَ أنّ اللهَ تعالى هو المستحِقُّ للحمد. أمّا علومُ التوحيدِ والعبادةِ التي كانت لدى الملائكة، فقد وَضَعَها اللهُ تعالى في فِطرةِ آدمَ عليه السَّلام، بينَما كان أولَ عِلمٍ عَلَّمه اللهُ تعالى لآدمَ بعدَ خَلْقِه هو العِلمُ التَّجريبيُّ والدُّنيويُّ، لأنّ الإسلامَ ـ في الحقيقة ـ عبارة عن مجموع العلوم الدِّينيَّة والدُّنيويَّة.

وأرى أنّ العلومَ: التَّجريبيَّةَ والتطبيقيَّةَ أيضًا ضرورةٌ لتطبيقِ الدِّينِ الإسلاميِّ وتنفيذِ حكومةٍ ناجحة، حيثُ لا يمكنُ الآنَ مواجهةُ الطائراتِ المقاتِلةِ والقنابلِ النَّوَويَّةِ بالسَّيفِ والخَيْل، وهذا هو السَّببُ ـ غالبًا ـ في أنّ المسلمينَ ظَلُّوا قوَّةً عُظْمى على مستوى العالَم طالما اهتَمُّوا بالعلوم التَّطبيقيَّةِ والتَّجريبيَّة، كما أنّ أهلَ أوروبا أيضًا قدِ ارتقَوْا وتَطوَّروا حينَ تعلَّموا هذه العلومَ من المسلمين، واليومَ تقفُ أكثرُ من خمسينَ حكومةً إسلاميَّةً مادّةً يدَها متسوِّلةً؛ لأنها أفْلسَتْ في مجالِ العلوم التَّجريبيَّةِ والتَّطبيقيَّة.

ونستطيعُ أن نستوعبَ أهميَّةَ هذه العلوم من أنّ اللهَ تعالى عندَما خَلَقَ الإنسانَ الأولَ عَلَّمه هذه العلومَ، وكان أولُ لفظٍ أُوحيَ به إلى خاتَم الأنبياءِ سيِّدِنا محمَّدٍ عليه السَّلامُ يدعو إلى القراءة. وممَّا يدعو للأسفِ أنّ المسلمينَ أكثرُ الناسِ تراجُعًا في هذه العلوم، بالرَّغم من كلِّ هذا الترغيبِ في تعلُّمِها، وهم ـ لهذا ـ يعيشونَ أوضاعًا سيِّئةً في العالَم كلِّه. فيا شبابَ المسلمينَ الأحِبَّاء، تَعلَّموا الدِّين، حتّى

---

(١) لمّا اراد الله تعالى أن ينفخ فيه الرّوح، أمرها أن تدخل في جسد آدم فدخلت في يافوخه، فوصلت إلى عينيه، فجعل ينظر الى سائر جسده طينًا، فصارت إلى أن وصلت منخريه، فعطس، فلمّا بلغت لسانه قال: الحمد لله ربّ العالمين، وهى أوّل كلمةٍ قالها، فناداه الله تعالى: رحمك ربّك يا أبا محمّدٍ! ولهذا خلقتك ـ تفسير الخازن، سورة البقرة (٢): الآية ٣١، ١ : ٣٦.

تقْوَى علاقَـتُكم باللهِ تعالى، وتَقدَّموا في العلوم التَّطبيقيَّةِ والتَّجريبيَّة، حتّى تعيشوا في هذا العالَم بعزَّةٍ ووقار، وتُنفِّذوا نظامَ الله تعالى على هذه الأرض.

وهنا إشارةٌ أُخرى أيضًا، وهي أنّ عِلْمَ سيِّدِنا آدمَ عليه السَّلامُ كان واسعًا إلى درجةٍ أَفْحَمتِ الملائكةَ والشَّيطانَ أمامَه، فما بالُكم بمقام عِلم سيِّدِنا محمَّدٍ المصطفى ﷺ الذي هو حبيبُ اللهِ تعالى وسيِّدُ الأنبياءِ جميعًا، والذي وَصَل ليلةَ المِعْراج في القُربِ من الحَضْرةِ الإلهيَّة مقامًا لم يستطعْ جِبريلُ الأَمينُ أن يَبلُغَه؟ ولهذا، فإنّ مَن يحاولُ إثباتَ أنّ عِلمَ سيِّدِنا محمَّدٍ ﷺ كان أقلَّ من عِلم الملائكةِ والشيطان، فإنّ عليه أن يُعيدَ النَّظرَ في إيمانِه.

﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴾

٣١ ـ الظاهرُ أنّ الملائكةَ قالوا: إنّ الإنسانَ سَيسفِكُ الدِّماءَ، لكنَّهم أيضًا كانوا يعتقِدونَ أنَّهم أفضَلُ المخلوقاتِ جميعًا وأكثرُهم عِلمًا، ولهذا فهمُ الأكثرُ استحقاقًا للخلافة، كما قال مُحْيي الدِّين سيِّد عبدُ القادر الجِيلاني: «**فنحن أَوْلى بأمِر الخلافةِ والنِّيابةِ منهم**»[1]، وعليه قال اللهُ تعالى: إنَّني أعلَمُ ظاهرَكم وباطنَكم، ويمكنُ أن يكونَ المرادُ منه أيضًا: أنّه بما أنّ الشَّيطانَ كانُ يُعَدُّ من الملائكة، لهذا قال تعالى: أنْ يا أيُّها الملائكةُ، إنِّني أعلَمُ ما تقولونَه بألسنتِكم وما أخفاهُ الشَّيطانُ من تكبُّرٍ في قلبِه.

﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾

٣٢ ـ حينَ اعترفَتِ الملائكةُ بسَعةِ عِلم سيِّدِنا آدمَ عليه السَّلامُ وقلَّةِ عِلمِهم، أمَرَهمُ اللهُ تعالى أن يَسجُدوا لسيِّدِنا آدمَ، أي: أن يَحْنُوا جِباهَهم أمامَه، وبالفعل، سَجَد الجميعُ لآدمَ عليه السَّلامُ، إلّا الشَّيطانَ أنكَرَ وكَفَر.

---

(١) تفسير الجيلاني، الشيخ محيي الدين عبد القادر الجيلاني البغدادي، سورة البقرة (٢): الآية ٣٠.

ويُعلَمُ من هذا أنّ العِلمَ أفضَلُ من العبادة، ولهذا قال ﷺ: «**إنّ العلماءَ وَرَثةُ الأنبياء**»[1]، أي: أنّ مقامَ العالِم أرفعُ من مقام العابِدِ بقَدْرِ ما إنّ مقامَ النبيِّ أرفعُ من مقام عامَّةِ النّاس، والعلماءُ وَرَثةُ الأنبياءِ حقًّا. وفيه إشارةٌ أيضًا أنّ أوّلَ حُكمٍ منَ اللهِ تعالى ـ بعدَ خَلْقِ آدمَ ـ كان لتعظيم النبيِّ، وأنّ أولَ جُرمٍ ارتُكبَ كان رَفْضَ تعظيم النبيِّ، والذي أدَّى إلى أنْ أصبح الشَّيطانُ رَجيمًا إلى الأبد. ولهذا، ينبغي على كلِّ فردٍ أن يُجِلَّ أهلَ العِلم لِينالَ رضا اللهِ تعالى، وألَّا يتكبَّرَ مِثلَما فعَل الشَّيطانُ حتى لا يُحرَمَ من رحمةِ اللهِ تعالى.

﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾

٣٣ـ وهنا يتبادَرُ إلى الذِّهن سؤالٌ فَحْواهُ: هل يمكنُ أن يُذنِبَ الأنبياءُ عليهمُ السَّلامُ أيضًا؟ وقد عَلَّق على هذا الأمرِ بشكلٍ جامع شيخُ طريقتي سيِّدُنا ضياءُ الأُمَّةِ رَحِمَه اللهُ تعالى، وأُقدِّمُ هنا اختصارًا لِما كَتَب.

يقول: «الأنبياءُ الكرامُ منزَّهونَ عن ارتكابِ الصَّغائرِ والكبائر، والسَّببُ في ذلك هو: أنَّنا أُمِرْنا أن نُطيعَهم طاعةً مطلَقة، فإنْ كان ارتكابُهم للذَّنبِ مُمكنًا لَكان علينا طاعتُهم في الذَّنبِ أيضًا، وهو ما ينهارُ به نظامُ الهدايةِ رأسًا على عَقِب، وهناكَ شُبهةٌ تُطِلُّ برأسِها بناءً على هذا، وهي: أنّ القرآنَ الكريمَ ـ في مواضعَ متفرِّقةٍ منه ـ نَسَب إلى الأنبياءِ العديدَ من الأشياءِ التي تُعَدُّ ذُنوبًا، ثُم إنّه وَرَد أنّ الأنبياءَ عليهمُ السَّلامُ قد نَدِموا على هذه الأُمورِ نَدَمًا شديدًا، واستَغفَروا اللهَ منها، فكيف يمكنُ القولُ بالعِصمةِ المُطلَقةِ لهم؟ ولإزالةِ هذه الشُّبهةِ يجبُ أن نَضَعَ في أذهانِنا دائمًا شيئًا هامًّا، وهو

---

(١) جامع الترمذي، أبواب العلم، باب ١٩ برقم ٢٦٨٢.

أنّ الفعلَ يصبحُ ذَنْبًا إذا قُصِد منه العَزْمُ على عِصيانِ حُكمٍ، فإذا فَقَدَ العَزْمَ والقَصْدَ، وصَدَر الفعلُ نِسيانًا وبلا قَصْد، حتّى وإنْ بدَا مخالِفًا لحُكمٍ ما، فإنّ هذا الفعلَ لا يُعَدُّ ذَنْبًا، وصدورُ مثلِ هذه الأمورِ لا يُنافي عِصمةَ الأنبياءِ عليهمُ السَّلام، كما أنّ عِصمةَ الأنبياءِ عليهمُ السَّلامُ في رقَّةٍ ولِينِ العَيْن، يَثقُلُ عليها أخفُّ الأمورِ ولو كانت كمِثلِ شَعْرة[1]، أي: أنّ الأنبياءَ الكرامَ عليهمُ السَّلامُ يَعُدُّونَ النِّسيانَ العاديَّ والخطأَ في الاجتهادِ ذنبًا عظيمًا في حقِّهم، ويَبذُلونَ قُصارى الجُهدِ في التَّوبةِ والاستغفار.

ولأنّ الأنبياءَ عليهمُ السَّلامُ تَصوَّروا ـ بسببِ بلوغِهم غايةَ التَّقوى ـ أنّ الهَفْوةَ البسيطةَ منهم بمَثابةِ الذَّنب، فإنّ الله تعالى قدِ استعمَلَ نفْسَ اللَّفظِ عندما ذَكَرَ هَفْوتَهم، وإلّا فإنّ الحقيقةَ هي أنه لو أنّ النبيَّ يرتكبُ الظُّلمَ أو الذَّنبَ، فكيف يستطيعُ دعوةَ الآخَرينَ إلى فعلِ الخير؟

أَقْسَمَ الشَّيطانُ كذبًا، مؤكِّدًا لسيِّدِنا آدمَ وسيِّدِتنا حَوّاءَ، قائلًا: إنَّكما لو أكلْتُما من هذه الشَّجرة لَدام بقاؤكما في الجنَّةِ إلى الأبد، وهُو الأمرُ الذي اختَصَّ اللهُ تعالى به عبادَه المُقرَّبين المقبُولين، ولهذا فقد نَسِيا الحُكمَ الإلهيَّ في ثنايا تصوُّرِهما التقرُّبَ إلى الله، وأكَلا من الشَّجرة، ويُعلَمُ من هذا أنّه لا يجبُ أن يَظُنَّ أيُّ إنسانٍ أنه في مَأْمَنٍ من الشَّيطانِ مهما كان صالحًا؛ لأنّ الشَّيطانَ يتسلَّلُ في صورةِ الصَّدِيق، ويَخدَعُ الإنسانَ بحيثُ يَرى السيِّئةَ حَسَنةً، ولذا يجبُ على الإنسانِ أن يَحتاطَ دائمًا من وَساوسِ الشَّيطان، اللهمَّ احفَظْنا من مَكْرِ الشَّيطانِ وخِداعِه. آمين.

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾

٣٤ـ بعدَ هذه الهَفْوةِ بَكَى سيِّدُنا آدمُ بكاءً مُرًّا، وظَلَّ يَطْرُقُ بابَ رحمةِ اللهِ تعالى سنينَ عديدةً، لكنَّه لم يَحْظَ ببُشْرى المغفِرة، وفي النِّهاية، توسَّلَ سيِّدُنا آدَمُ

---
(١) تفسير ضياء القرآن.

إلى اللهِ ذاتَ يوم قائلًا: «**يا ربّ! اسألك بحقِّ محمَّدٍ إنْ غَفَرْتَ لي، فقال اللهُ تعالى: يا آدم! كيف عَرفْتَ محمَّدًا ولم أخْلُقْه بعدُ؟ فقال: يا ربِّ، لأنّك لمّا خلقتني بيَدِك ونفَخْتَ فيّ من رُوحِك، رَفعتُ رأسي فرأيتُ على قوائم العَرْشِ مكتوبًا: لا إلهَ إلّا الله محمَّدٌ رسولُ الله، فعَلِمتُ أنّك لم تُضِفْ إلى اسمِك إلّا أحبَّ الخَلْقِ إليك، فقال اللهُ تعالى: صَدقْتَ يا آدم! انّه لَأحَبُّ الخَلْقِ إليَّ، وإذْ سألتَني بحقّه فقد غَفَرتُ لكَ، ولوْلا محمَّدٌ ما خَلقْتك**»[1].

وكان سيِّدُنا عُمَرُ بنُ الخَطّابِ رضيَ اللهُ عنه في زمنِ القَحْطِ يدعو اللهَ تعالى متوسِّلًا بسيِّدِنا عَبّاس بن عبدِ المطَّلبِ قائلًا: «**اللّهمَّ إنّا كنّا نتوسَّلُ إليك بنبيِّنا ﷺ فتسقينا، وإنّا نتوسَّلُ إليك بعمِّ نبيِّنا فاسقِنا، قال: فيُسقَوْنَ**»[2].

﴿فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾

٣٥ـ لقد خَلَقَ اللهُ الإنسانَ ليَعهَدَ إليه بخلافةِ الأرض، لكنّ السُّؤالَ هو: لماذا تمَّ ابتلاؤه أوّلًا في الجنَّةِ بالشَّجرةِ الممنوعةِ ووَسْوَسةِ الشَّيطان؟ أظُنُّ أنّ هناك حِكمةً في ذلك، وهي: أنّه بما أنّ كلَّ إنسانٍ سيُواجِهُ على الأرضِ ممنوعاتٍ وتزيينَ الشَّيطانِ له، لهذا فإنّ اللهَ تعالى جَعَلَ سيِّدَنا آدمَ عليه السَّلامُ يمُرُّ بتجربةِ الابتلاءِ هذه ونتائجِها بشكلٍ عمَليّ، حتّى يَعلَمَ أهلُ الأرضِ أنّ مَن يُخطئُ ويتوبُ فإنّه يسيرُ على خُطَى سيِّدِنا آدمَ عليه السَّلامُ، وسيَدخُلُ الجنَّةَ، بينَما من يُخطئُ ولا يَتُوبُ فإنّه يتَّبعُ الشَّيطانَ وسيَدخُلُ جهنَّمَ في النِّهاية.

---

(١) المواهب اللدنية، المجلد ١، ٨٢، البداية والنهاية، المجلد ١، ٨١، شرح الزرقاني، المجلد ١، ١١٩.

(٢) صحيح البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب ١١ برقم ٣٧١٠.

يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾

٣٦ ـ كان لقَبُ سيِّدِنا يعقوبَ عليه السَّلامُ هو: إسرائيل (عبدَ الله)، وقد نَجَّى اللهُ تعالى أولادَ إسرائيلَ من فِرعَوْنَ، وأنْزَلَ عليهم المَنَّ والسَّلْوى، وجَعَل منهم آلافًا من الأنبياء، وأخَذَ عليهمُ العهدَ أن يعبُدوا اللهَ وحدَه، وحينَ يُبعَثُ سيِّدُنا محمَّدٌ ﷺ يؤْمنونَ به، وفي مقابلِ ذلك، يُدخِلُهمُ اللهُ الجنَّةَ. ولكنْ، حينَ بُعِثَ سيِّدُنا محمَّدٌ ﷺ رَفَض أولادُ إسرائيلَ الإيمانَ به، وعليه يُذكِّرُهم اللهُ تعالى هنا بنِعَمِه وبالوَعْدِ الذي قَطَعوهُ على أنفُسِهم، كما أنّ كلَّ إنسانٍ حينَ يُعلنُ إسلامَه كأنّه يَعِدُ اللهَ تعالى ويتعهَّدُ له أنْ «أنتَ ربِّي، وسأعيشُ حياتي طِبقًا لأحكامِك»، ومعَ ذلك، فكم من النَّاسِ اليومَ ملتزِمونَ بهذا العهد....؟ علينا جميعًا أن نتَّقيَ اللهَ؛ لأنّه يرانا في كلِّ لحظة، وسنقفُ بيْنَ يدَيْهِ يومًا ما.

﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾

٣٧ـ أي: أنّ القرآنَ الكريمَ يُصدِّقُ كتابَكم المُقدَّسَ (التَّوراةَ) الذي قرأْتُم فيه عن القرآنِ وصاحبِ القرآن ﷺ، ولهذا لا يَليقُ بكُم أن تُنكِروا القرآنَ، وأن

تَبيعوا الأوامرَ الإلهيَّةَ في سَبيل الأهدافِ الدُّنيويَّة؛ لأنّ متاعَ الدُّنيا كلَّه لا يمكنُ أن يكونَ ثمنًا للآياتِ الإلهيَّة.

﴿ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾

٣٨ـ المرادُ بالحقِّ هنا: صفاتُ النبيِّ ﷺ وعلاماتُه التي جاءتْ في التَّوراة، لكنّ علماءَ اليهودِ كانوا يحاولونَ إخفاءَها وإثارةَ الشُّكوكِ والشُّبُهاتِ حولَها، حتّى لا يُسلِمَ النّاسُ حينَ يَعلَمونَ بها، ولذا فإنّ مسئوليَّةَ أهلِ الإسلام أن يُعلِنوا بينَ الجميع ويُعلِّموهُم بعَظَمةِ النبيِّ ﷺ، حتّى تَعرِفَ الدُّنيا كلُّها أفضالَ ذاتهِ ﷺ، فيكونَ دافعًا لهم إلى الاقترابِ من الإسلام، فإنّ إخفاءَ الحقِّ وخَلْطَه بالباطلِ ممّا لا يليقُ بأهلِ العلم، سواءٌ كان مُسلمًا أم من أهلِ الكتاب.

﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

٣٩ـ رغْمَ أنّ القرآنَ هنا يُخاطبُ اليهودَ، إلَّا أنّ هذا يمثِّلُ لمحةً فِكْريَّة لكلِّ زعيم دينيٍّ، أي: أنَ يَدعوَ النّاسَ إلى الخيرِ بينَما هو نفسُه غارقٌ في الشرِّ، أن يُعلِّمَ النّاسَ الحقَّ والإيثارَ وهو نفْسُه مُبتَلىً بالباطلِ والأنانيَّة، وهو مرضٌ مُهلِكٌ لا يقلِّلُ من شأنِ الدَّاعي فقَطْ، وإنَّما يَزرَعُ الشكَّ في الدعوةِ نفسِها، فالنّاسُ يسمَعونَ بأُذُنِهم كلامًا جميلًا، لكنْ يرَوْنَ بأعيُنِهم أفعالًا أقبحَ ما تكون.

وهذا التَّناقضُ يضَعُ هؤلاءِ المساكينَ في حَيْرةٍ شديدةٍ من أمرِهم، وإذا انهارَ اعتقادُهم، واهتَزَّتْ ثقتُهم في زُعمائهم الدِّينيِّـينَ، فإنّ نتيجةَ ذلك ستكونُ اهتزازَ ثقتِهم في الدِّينِ نفسِه، ولذا فإنّ على الزُّعماءِ الدِّينيِّـينَ غير المخلِصينَ معَ دينِهم، والذين يوظِّفونَ الدِّينَ لأهدافِهمُ الدُّنيويَّة، أنْ يحذَروا من أَخْذِ اللهِ لهم، ويجبُ أن

يختارَ الإنسانُ الوسيلةَ الدُّنيَويَّةَ للحصُولِ على المنافع الدُّنيويَّة، ويَدَعَ الدِّينَ خالصًا لأهلِه، ففي هذا خيرُهم وخيرُ الدِّين.

﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾

٤٠ ـ كلُّ إنسانٍ في هذه الدُّنيا الفانيةِ يُواجهُ المصائبَ والمشاكلَ، وفي بعضِ الأحيانِ يُصابُ الإنسانُ باليأْسِ فينتحر، أو يتَّخِذُ الظُّلمَ طريقًا، لكنّ الإسلامَ يعلِّمُ هذا الإنسانَ المصابَ أن يَستعينَ بالصَّلاة؛ لأنّه حينَ يُخرجُ كلَّ أمورِ الدُّنيا من ذِهنِه، ويَخِرُّ ساجدًا في حضرةِ اللهِ تعالى، فإنّ رحمةَ اللهِ تعالى تفتحُ أمامَه أبوابَ الأمل، صحيحٌ أنّ الالتزامَ بالصَّلاةِ ليس أمرًا سهلًا، لكنّ سعيدَ الحظِّ الذي يوقِنُ بالآخِرة والرُّجوع إلى الله، تكونُ الصَّلاةُ مُحبَّبةً إليه، لأنّها وسيلةٌ للقاءِ اللهِ تعالى.

يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ

لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾

٤١ـ بَعَثَ اللهُ تعالى في بني إسرائيلَ آلافَ الأنبياءِ كانوا سببًا في أنْ سار بنو إسرائيلَ على طريقِ الهداية، ولهذا السَّببِ أعطَى اللهُ تعالى فضيلةً لبني إسرائيلَ على كلِّ أهلِ ذلك العصْرِ، لكنَّهم بعدَ ذلك حَرَّفوا في الصُّحُفِ السَّماويَّة، فأضاعوا تكريمَهم بالفَضْلِ على غيرِهم، وصار هذا الفَضْلُ تاجًا على رؤوسِ المسلمين، وهنا دعوةٌ لبني إسرائيلَ أن يَقبَلوا الإسلامَ، ويَدخُلوا في جماعتِهِ، والتي هي الأفضَلُ من أهلِ الدنيا جميعًا، فيستحِقُّونَ بذلك الفَضيلةَ ثانيةً.

ثُم قيلَ لهم أنْ تَذكَّروا أنَّكم إنْ لم تؤْمنوا فلنْ يُمدَّ أحدٌ لكم يدَ العَوْنِ يومَ القيامة، ولن تُقبَلَ شفاعةُ أحدٍ لكم؛ لأنَّ الشَّفاعَة يومَ القيامةِ تُقبَلُ للمُذنبِ الذي آمَنَ، وسيكونُ هذا بمثابةِ ثمرةِ إيمانِه، وسوف يَشفَعُ: الأنبياءُ والعلماءُ والشُّهداءُ والحُفَّاظُ وسُوَرُ القرآنِ والأطفالُ الأبرياءُ يومَ الحَشْرِ بإذْنِ اللهِ تعالى، ويَعكِسُ موضوعَ الشَّفاعةِ هذا صلاةُ الجَنازة والأدعِيةُ الكثيرةُ الواردة، على سَبيلِ المثال قولُه تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١].

بعضُ الأحاديثِ المتعلِّقةِ بالشَّفاعة:

*** عن أبي هُريرةَ رضيَ اللهُ تعالى عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: لكلِّ نبيٍّ دعوةٌ**

مستجابةٌ ـ فتَعجَّلَ كلُّ نبيٍّ دعوتَه، وإنّي اختَبأْتُ دعوتي شفاعةً لأُمّتي يومَ القيامة، فهي نائلةٌ، إن شاء الله، مَن مات من أُمّتي لا يُشرِكُ باللهِ شيئًا»(١).

* **عن أنسِ بن مالكٍ رضيَ اللهُ عنه، قال: سألتُ النّبيَّ ﷺ أن يَشفَعَ لي يومَ القيامة، فقال: «أنا فاعلٌ». [قال]: قلتُ: يا رسولَ الله! فأين أطلُبُك؟ قال: «اطلُبْني أوّلَ ما تَطلُبُني على الصِّراط»، [قال]: قلتُ: فإنْ لم أَلْقَكَ على الصِّراط؟ قال: «فاطلُبْني عندَ الميزان»، قلت: فإنْ لم أَلْقَكَ عندَ الميزان؟»، قال: فاطلُبْني عندَ الحَوْض، فإنّي لا أُخطِئُ هذه الثّلاثَ المواطنَ**(٢).

* **عن أبي أُمامةَ رضيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «وَعَدني ربِّي أن يُدخِلَ الجنَّةَ من أُمّتي سبعينَ ألفًا لا حسابَ عليهم ولا عذاب، معَ كلِّ ألفٍ سبعونَ ألفًا وثلاثُ حَثْيَاتٍ من حَثْيَاتِ ربِّي»**(٣).

* **عن عثمانَ بن عفّان، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يشفَعُ يومَ القيامةِ ثلاثةٌ: الأنبياءُ ثمّ العلماءُ ثمّ الشُّهداء»**(٤).

* **عن الحَسَن البَصْريِّ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يشفَعُ عثمانُ بنُ عفّانَ رضيَ اللهُ تعالى عنه يومَ القيامةِ بمِثْلِ ربيعةَ ومُضَرَ»**(٥).

* **عن عبدِ الله بن عَمْرِو بن العاصِ رضيَ اللهُ عنه، أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «الصّيامُ والقرآنُ يَشفَعانِ للعبدِ يومَ القيامة، يقولُ الصّيامُ: أيْ ربِّ! منَعتُهُ الطّعامَ**

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الايمان، باب ٨٦ برقم ٤٩١.
(٢) جامع الترمذي، أبواب صفة الجنة، باب ٩ برقم ٢٤٣٣.
(٣) جامع الترمذي، أبواب صفة الجنة، باب ١٢ برقم ٢٤٣٧.
(٤) سنن ابن ماجه، أبواب الزهد، باب ٣٧ برقم ٤٣١٣.
(٥) جامع الترمذي، أبواب صفة الجنة، باب ١٢ برقم ٢٤٣٩.

والشَّهواتِ بالنّهارِ فشفِّعْني فيه، ويقولُ القرآنُ: منَعتُه النَّومَ باللّيل فشفِّعْني فيه، قال: فيُشفَّعانِ»[١].

*** عن بعضِ أصحابِ النّبيِّ ﷺ، أنّه سَمعَ النّبيَّ ﷺ يقولُ: «يقالُ للولدانِ يومَ القيامة: ادخُلوا الجنّةَ. فيقولونَ: يا ربِّ! آباؤنا وأُمّهاتُنا. فيقولُ: ادخُلوا الجنّةَ أنتم وآباؤكم»[٢].**

*** عن عُمرَ رضيَ اللهُ عنه، قال: قال النّبيُّ ﷺ: «مَن زارَ قَبْري كنتُ له شفيعًا أو شهيدًا، ومَن مات في إحدى الحرَمَيْنِ بَعَثَه اللهُ منَ الآمِنينَ يومَ القيامة»[٣].**

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾

٤٢ـ يقولُ المفسِّرونَ: إنّ المُنجِّمينَ أخبَروا فِرعونَ أنّ هناك طفلًا سيولَدُ في بني إسرائيلَ وسيقضي على مُلكِك، ولهذا أصْدرَ حُكمَه بقَتْل كلِّ طفلٍ يولَدُ في بني إسرائيل، وذَبْحُ الأطفالِ الأبرِياءِ أمامَ والدِيهم ـ في الحقيقة ـ ابتلاءٌ عظيم.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

٤٣ ـ حين تَجاوَزَ الفَراعنةُ كلَّ حدٍّ في إيقاع الظُّلم ببني إسرائيلَ، اصْطَحَبَ سيِّدُنا موسى عليه السَّلامُ قومَه في ليلةٍ مُظْلمةٍ مُهاجِرًا من مصرَ، وحينَ وَصَلتْ قافلةُ

---

(١) مسند أحمد، ٢: ١٧٤ برقم ٦٦٢٦.

(٢) مسند أحمد، ٤: ١٠٥.

(٣) كنزالعمال، ٥: ١٣٥ برقم ١٢٣٧١.

المهاجِرينَ هذه إلى شاطئ نهرِ القُلزُم، تَعقَّبَهم من الخَلْفِ جيشُ فِرعونَ، فضَربَ سيِّدُنا موسى بعصاهُ البحرَ، فتوقَّفَ ماءُ البحرِ بشكلٍ مُعجِز، وظَهَر في وَسَطِهِ طريقٌ مشَى عليه بنو إسرائيلَ، ووَصَلوا إلى الشاطئ المقابِل، فتعقَّبَهم الفَراعنةُ بخيولِهم أيضًا، ولمَّا وَصَل الفراعنةُ إلى وَسَطِ البحرِ عادتِ المياهُ المتوقِّفةُ إلى حالتِها الأُولى، وغَرِقَ فِرعونُ بجيشهِ أمامَ أعيُنِ بني إسرائيل.

﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

٤٤ـ وبعدَ غَرَقِ الفراعنةِ عاد سيِّدُنا موسى عليه السَّلامُ ببني إسرائيلَ إلى مِصرَ، وأمَرَ اللهُ تعالى سيِّدَنا موسى عليه السَّلامُ أن يَصعَدَ جبلَ الطُّور، ويَمكُثَ فوقَه متعبِّدًا لأربعينَ يومًا، حتى يُنزِلَ عليه التَّوراةَ لهدايةِ بني إسرائيل، لكنْ ما أن صَعِدَ سيِّدُنا موسى عليه السَّلامُ فوقَ الجَبل، حتى اتَّخَذ بنو إسرائيلَ من العِجْل إلهًا يعبُدونَه. لقدِ اتَّخَذ الفراعنةُ من مَلِكِهم إلهًا فأغْرَقَهمُ اللهُ في البحر، أمّا بنو إسرائيلَ فقدِ ارتكَبوا حَماقةً أكبرَ من هذه بكثير؛ حيث اتَّخَذوا من عِجْلٍ لا عقْلَ له إلهًا، وكان يجبُ أن تُغلَقَ أبوابُ التَّوبةِ أمامَ بني إسرائيل، وأن يُغرَقوا في البحرِ جميعًا، ومعَ ذلك عَفَا اللهُ تعالى عنهم، وأَنْزلَ على سيِّدِنا موسى عليه السَّلامُ التَّوراةَ والمعجِزات، حتى يُمكِّنَ لبني إسرائيلَ أن يهتَدوا.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

٤٥ـ لمَّا عاد سيِّدُنا موسى عليه السَّلامُ من جَبَل الطُّور، أمَرَ بني إسرائيلَ بالتَّوبة، وأن يَقتُلوا كلَّ مَن عَبَد العِجلَ من قبيلتهِم؛ لأنَّ هذا هو العقابُ الذي يَستحِقُّه المُرتدُّ والمتمرِّد.

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

٤٦ـ ثُم اصْطَحبَ سيِّدُنا موسى عليه السَّلامُ سبعينَ رجلًا تابوا من بني إسرائيلَ إلى جَبَلِ الطُّور، وتَرَكَهم عندَ سَفْحِ الجَبل، ثم تقدَّم هو إلى الأمام؛ حيث كلَّم اللهَ تعالى، ثم عاد إليهم ليبشِّرَهم بقَبُولِ توبتِهم، لكنّ هؤلاءِ السبعينَ قالوا: إنَّنا لن نُصدِّقَك حتى يَتجلَّى اللهُ تعالى لنا فنَراه. وفَوْرَ هذا التطاولِ رَعَدتِ السَّماء رعدةً فصُعِقوا وماتوا، وهذا هو عقابُ كلِّ قوم لا يُطيعونَ نبيَّهم، ويَطلُبونَ منه أكثرَ مما يُطيقونَ هم، وعليه، قال سيِّدُنا موسى عليه السَّلامُ للهِ تعالى: أنْ يا إلهي، إنَّ بني إسرائيلَ يتَّهمونَني أنَّني قَتلتُهم، فأحيا اللهُ تعالى هؤلاءِ الموتَى، ويُعلَمُ من هذا أنّ الله تعالى يَقبَلُ الدُّعاءَ من عبادِهِ المقبولين، حتى أنه يُحيي الموتَى أيضًا تلبيةً لطلبِهم.

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

٤٧ ـ لقد تَرَكَ بنو إسرائيلَ مَنطقِةَ الشام، وسَكَنوا مِصرَ في عهدِ سيِّدنا يوسُفَ عليه السَّلام، واحتَلَّ العمالقةُ أرضَ الشام، وحين عاد بنو إسرائيلَ أُمِروا أن يُجاهِدوا العمالقةَ ويُحرِّروا وَطنَهم، لكنَّهم رَفضوا ـ ببجاحةٍ ـ الجهادَ، قائلينَ: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾، وعقابًا لهم على جُبْنِهم وعصيانِهم هذا، حُكِم عليهم بالتِّيهِ أربعينَ عامًا في الصَّحراء، وهنا أيضًا أكرَمَهم اللهُ تعالى كرمًا خاصًّا، فظَلَّل عليهمُ الغَمامَ لتحميَهم من حرارةِ الشَّمس، وأَنْزلَ عليهم المَنَّ والسَّلْوى لطعامِهم، و«المَنُّ»: نوعٌ من الحلوى الطبيعيَّةِ كانت تنزِلُ من السَّماء، أمَّا «السَّلوى» فهو: نوعٌ مما يُشبِهُ السمّانَ، كانوا يستمتعونَ

باصطيادِه ويأكلونَه مَشْوِيًّا، ولكنَّهم، بدلًا من أن يشكُروا اللهَ تعالى على هذه النِّعمةِ السَّماويةِ، تَبنَّوْا طريقَ الظُّلم، وعاقبةُ الظُّلم في النِّهاية تكونُ على الظالم نفسِه.

﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾

٤٨ ـ وحينَ ضاقَ بنو إسرائيلَ بالحياةِ القاسيةِ في الصَّحاري والجبال، أنْعَم اللهُ عليهم بفَتْح مدينةٍ خضراءَ يانِعة، وأمَرَهم أن يَدخُلوها بكلِّ تواضُع وعَجْز، إلّا أنّ هؤلاءِ الظَّالمينَ رَفَعوا رايةَ الفِسْقِ والفجورِ والتمرُّد، فأنزلَ اللهُ تعالى عليهم عذابًا من السَّماءِ عقابًا لهم على هذا.

۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾

٤٩ ـ حينَ اشتدَّ العطَشُ ببني إسرائيلَ أثناءَ فترةِ التِّيه في الصَّحراء، ضَرَب سيِّدُنا موسى عليه السَّلامُ الحَجَرَ بعصاهُ بأمْرِ اللهِ تعالى، فانْفَجرَتْ منه اثْنتا عشْرةَ

عَيْنًا، وهكذا كان لكلِّ قبيلةٍ من قبائلِ بني إسرائيلَ عَيْنٌ خاصَّةٌ بها، باعتبارِ أن قبائلَ بني إسرائيلَ كانت اثْنَتَيْ عشْرةَ قبيلةً.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾

٥٠ـ إنّ الذين أنكَروا آياتِ اللهِ تعالى من بني إسرائيلَ، وارتكَبوا جرائمَ قَتْلِ الأنبياءِ عليهمُ السَّلامُ، أذلَّهم اللهُ في الحياةِ الدنيا، عقابًا لهم على ما ارتكَبوا، وفي الآخِرةِ لهم عذابُ جهنَّمَ من غَضَبِ اللهِ تعالى، فإذا حَصَل اليهودُ المولودونَ فيما بعدُ على المالِ والسُّلطةِ فإنّ ذلك لا يَتنافَى معَ هذه الآية[(١)].

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهَا نَكَـٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا

---

(١) تفسير نور العرفان.

بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

٥١ـ ظَنَّ اليهودُ، خطأً، أنَّهم هم فقطْ أهلُ الجنَّة، وأنّ باقيَ النّاسِ جميعًا من أهلِ النّار، لكنّ هذه الآيةَ أوضَحَتْ أنّ الجنَّةَ ليست إرْثًا أو حُكْرًا على نَسْلٍ بعَيْنِه، وإنّما يستحِقُّها كلُّ صاحبِ إيمانٍ صحيح وعَمَلٍ صالح.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾

٥٢ ـ حين قَدَّمَ سيِّدُنا موسى عليه السَّلامُ التَّوراةَ إلى قومِه، ورأَوْا أحكامَها وقيودَها، قالوا: لن نستطيعَ العمَلَ بها، ولهذا عَلَّق اللهُ تعالى جبلَ الطُّور فوقَ رؤوسِهم، وبَدَا وكأنَّه واقعٌ فوقَهم لا مَحالَة، فخافَ بنو إسرائيلَ، وقَبِلوا التَّوراةَ، وتَعهَّدوا بالعمَلِ بأحكامِها، لكنَّهم بعدَ ذلك خالَفوا ما تعهَّدوا به، ولو لم يَرحَمْهُم اللهُ تعالى ويشمَلْهم بفَضْلِه عندَئذٍ لَقُضيَ عليهم تمامًا.

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهَا نَكَـٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

٥٣ـ كان يومُ السَّبتِ مخصَّصًا للعبادةِ لدى بني إسرائيل؛ حيث كانتِ التِّجارةُ والزِّراعةُ والصَّيدُ وغيرُها من الأعمالِ الدُّنْيويَّةِ كلُّها ممنوعةً في هذا اليوم، ولكنْ حينَ خالَفَ بنو إسرائيلَ حُكَم اللهِ هذا بالتحايُلِ عليه بالطُّرقِ المختلفة، عاقَبَهم اللهُ تعالى عقابًا رادعًا، ترتعدُ فرائصُ الإنسانِ لمجرَّدِ تصوُّرِه، أي: مَسَخَهم قِرَدةً، ثم أهلَكَهم بعدَ عدَّةِ أيام.

هذا، وينبغي على أولئك الذين يحتالونَ لتبديلِ الأحكام الإلهيَّة أن يتمعَّنوا في هذه الآيات، فقد جاء تِبيانُ هذه الأحداثِ لنَعتبِرَ نحن، واليومَ وإن لم تكنْ صُوَرُنا تُمسَخُ، إلّا أنه ما أصعبَه من عقابٍ أن يكونَ الشَّكلُ شكلَ إنسان والعمَلُ عمَل القرود.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

٥٤ـ في الآياتِ السبعة التاليةِ ذِكرٌ لقصَّةِ تلك البقرةِ التي سُمِّيتْ بها هذه السُّورة، فقد قَتَلَ شابٌّ من بني إسرائيلَ ابنَ عمِّه، وألقَى بجُثَّتهِ بعيدًا خارجَ بابِ

المدينة، وفي الصَّباح طالَبَ هو بالقِصَاصِ لدَمهِ! وعليه، أمَرَهمُ اللهُ تعالى أن يَذبَحوا بقرةً، ويُلقُوا بقطعةٍ من لحومِها على المقتول، وعندَئذٍ ستعودُ إليه الحياةُ، ويُرشِدُ إلى قاتلهِ، لكنّ المدَّعيَ لم يكنْ على استعدادٍ للذَّبح؛ لأنه هو القاتلُ، ولذا حاول أن يُسوِّف في الأمرِ بكلِّ ما استطاعَ من حِيلةٍ متسائلًا: كم عُمُرُ هذه البقرةِ؟ وما لونُها؟ وما إلى ذلك، وفي النِّهايةِ، عندَما تعيَّنتِ البقرةُ بشكلٍ كامل، وذُبِحت، وأُلقِيَ ببعضِ لحومِها على المقتول، عادَتْ إليه الحياةُ، فقال: إنّ ابنَ عمِّي هو الذي قتَلَني، وهكذا قُتِل القاتُل قِصَاصًا.

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

٥٥ ـ عادتِ الحياةُ إلى المقتولِ وحُدِّد القاتلُ، وكان المتوقَّعُ ـ بعدَ رؤيةِ هذه المعجِزة ـ أن تَرِقَّ قلوبُ بني إسرائيلَ، وأن يتولَّدَ بها خوفُ اللهِ تعالى، لكنّ قلوبَهم كانت أكثرَ قَسْوةً من الحجارة؛ لأنّ بعضَ الحجارةِ يَخرُجُ منها الماء، وتَرتعدُ خوفًا من اللهِ تعالى، لكنّ ذلك التَّعِسَ الذي يرى الحقَّ فيُغمِضُ عنه عينَيْه، لا يكونُ قلبُه قاسيًا كالحَجَرِ فقطْ، وإنّما يكونُ كالحديدِ أيضًا.

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

٥٦ـ سَمِع أهلُ المدينةِ من علماءِ اليهودِ أنّ وقتَ ظهورِ آخِرِ الأنبياءِ قدِ اقترَبَ، ولذا عندَما شَرَّفَ سيِّدُنا النبيُّ ﷺ المدينةَ بمجيئِه، قَبِلَ أهلُ المدينةِ الإسلامَ، وذَهَبوا إلى اليهودِ ليُخبِروهم بأنّ النبيَّ الذين كنتُم تنتظرونَه قد جاء فعلًا، فلْتؤْمنوا به، لكنّ اليهودَ غَيَّروا كلامَهم، وأخَذوا يُخْفُونَ أوصافَ النبيِّ ﷺ التي جاءت في التَّوراة، ولهذا قال اللهُ تعالى للمسلمينَ: أنْ لا تتوقَّعوا من هؤلاءِ اليهودِ أن يُؤْمِنوا؛ لأنّ علماءَهم حَرَّفوا في كلام الله بمَحْضِ إرادتِهم بعدَ أنْ عَرَفوه، وقد قَسَت قلوبُ عامَّةِ اليهودِ أيضًا بصُحبتِهم لهؤلاءِ العلماءِ قُساةِ القلوبِ المتمرِّدين.

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾

٥٧ ـ كان المنافقونَ من اليهودِ عندَما يلتقُونَ المسلمينَ يَدَّعُونَ الإيمانَ،

ويؤكِّدونَ لهم أنّ كلَّ أوصافِ نبيٍّ آخِرِ الزَّمانِ التي وَرَدتْ في التَّوراةِ تتوفَّرُ كلُّها في سيِّدِنا محمَّدٍ ﷺ، فلامَهم اليهودُ الآخَرونَ أنّكم - بهذا - تُخبِرونَ المسلمينَ بمحتوى كتابِكم، وسوفَ يُقيمُ هؤلاءِ الحُجَّةَ عليكم بما قلتُم، لكنْ كان ينبغي على اليهودِ أن يَعلَموا أنّ اللهَ تعالى يَعلَمُ كلَّ شيءٍ ممَّا يُخفُون، وقد أخبَرَ اللهُ تعالى أهلَ الإسلام - عن طريقِ حبيبِهِ المصطفى ﷺ - بهذا التآمُرِ الذي قام به اليهودُ.

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾

٥٨- كان اليهودُ الأُمِّيُّونَ محرومينَ - بطبيعةِ الحال - من عِلم الكتاب، وكانوا يَحْيَوْنَ معتمِدينَ على الآمالِ الكاذبةِ والأفكارِ المختلِقةِ التي تقولُ: إنّهم «شَعْبُ اللهِ المختار»، وأنّهم سيَنْجُونَ في نهايةِ الأمر، وسيكونُ الهلاكُ مصيرَ أهلِ العِلم من اليهودِ الذين كانوا يكتُبونَ رواياتٍ وأخبارًا كاذبةً بغَرَضِ إرضاءِ الأثرِياء، ثم يشمَلونَها في التَّوراة، وهكذا يَحصُلونَ على الثّروةِ الدُّنيويَّةِ من الأثرِياء.

﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

٥٩- كان اليهودُ مُبْتَلَيْنَ بفَهْمٍ خاطئٍ خلاصتُه: أنّ النارَ محرَّمةٌ عليهم حتّى وإن كانوا يفعَلونَ السُّوء، وعلى افتراضِ أنّهم سيُعاقَبون، فإنّ ذلك لن يَتعدَّى أيامًا قليلةً في جهنَّم، ثم يُخَلَّدونَ بعدَ ذلك في الجنَّة. وهنا، نَلمَسُ مدى حُمْقِهم ومنتهَى جَهْلِهم، لكنّ القرآنَ اتَّخذ أسلوبًا مُفْحِمًا في قمَّة التوبيخ والزَّجرِ لإبطالِ ما يقولون،

أي: أنّ مالكَ الجنَّةِ هو الله، فإن كنتُم صادقينَ في دَعْواكُم فأَظْهِروا ما يؤيِّدُ ذلك من مُعاهَداتٍ مَع اللهِ تعالى، في حينَ أنّ الحقيقةَ هي أنَّكم تكذِبونَ على الله، وإنْ لم تتوبُوا من هذا الاعتقادِ وتَرجِعوا عنه، وظَلَلتُم مُصِرِّينَ عليه، فإنَّكم لن تَجِدوا ريحَ الجنَّةِ بلْهَ دخولَها والخُلودَ فيها؛ لأنّ أمرَ اللهِ هو أنّ النَّجاةَ لا علاقةَ لها بالجِنس أو العِرْق، وإنّما من يَرتكبُ الذنبَ ولا يتوبُ من عقائدِهِ الباطلةِ فإنَّه سيُخَلَّدُ في جهنَّم، ومَن آمَن وعَمِلَ صالحًا، وتابَ مخلِصًا كلَّما صَدَر عنه ذنبٌ، فسوف يُخلَّدُ في الجنَّة.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾

٦٠ـ إنّ كلَّ الأُمورِ التي عاهَدَ عليها أنبياءُ بني إسرائيلَ عليهمُ السَّلامُ قومَهم فيما يتعلَّقُ بالعقائدِ والعباداتِ والمعامَلات موجودةٌ اليومَ في الإسلام، ويُعلَمُ من هذا أنّ الإسلامَ ليس دينًا جديدًا، وإنَّما هو الحَلَقةُ الأخيرةُ من دينِ الأنبياءِ جميعًا عليهمُ السَّلام.

هذا، ولم يُطالبِ القرآنُ الكريمُ بني إسرائيلَ بشيءٍ جديد، وإنَّما طالَبَهم بتنفيذِ نفْسِ الأحكام التي عاهَدوا عليها الأنبياءَ الكرامَ عليهمُ السَّلامُ من قبْلُ، والقرآنُ يُذكِّرُهم بها ويُطالبُهم بتأكيدِها ثانيةً، لكنّ اليهودَ شعبٌ عجيب، إذا كان

الأمرُ يتعلَّقُ بمنافعِهم الدُّنيويَّةِ بَحَثوا عن دليلٍ عليها من التَّوراة، وإذا كانت هناك شُبهةُ خسارةٍ ماديَّةٍ وَضَعوا التَّوراةَ خَلْفَ ظهورِهم، وأمثالُ هؤلاءِ الذين يُضَحُّونَ بالأحكام الإلهيَّةِ في سبيلِ منافعِهم ومصالحِهمُ الماديَّة، يُصيبُهم الخِزْيُ في هذه الحياةِ الدُّنيا، وفي الآخِرة لهم عذابٌ عظيم؛ حيثُ لن يستطيعَ أحدٌ أن يمُدَّ يدَ العَوْنِ لهم، ولنا في ذلك نحن المسلمينَ درسٌ وعبرة.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَـٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾

٦١ـ نستطيعُ أن نتصوَّرَ عِنادَ اليهودِ وصَلَفَهم من أنّ أسلافَهم كذَّبوا الأنبياءَ، بالرَّغْم من أنَّهم رأَوْا معجزاتِهم، بل وَقَتلوا بعضَ هؤلاءِ الأنبياءِ أيضًا، ويهودُ اليوم ليسوا أقلَّ من أجدادِهم في شيءٍ، فقد أنكَروا نُبوَّةَ نبيٍّ آخِرِ الزَّمان عليه الصَّلاةُ والسلامُ، وتَآمَروا على قَتْلِه، وقالوا بالرَّغْم من كلِّ هذا: إنّ عقائدَهم صحيحةٌ، وإنّها محفوظةٌ تمامًا في أعماقِ قلوبِهم، ولهذا لا يُمكنُ لأيِّ معجِزةٍ أو استدلالٍ قويٍّ أن يؤثِّرَ عليهم، وهذا ـ في الواقع ـ ليس أمرًا جديدًا، فكلُّ متعصِّبٍ عنيدٍ في كلِّ زمان، يعتقدُ بصحَّةِ موقفِه وخطأِ الآخَرين جميعًا، لكنّ الحقيقةَ هي أنّ لعنةَ اللهِ تعالى تُصيبُه من شدَّةِ كُفْرِه وتواصُلِه، فتعطَّلت قُواهمُ العَقْليَّةُ والقلبيَّةُ، ولهذا لا يؤمنُ من أمثالِ هؤلاء إلّا القليلون.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

٦٢ـ قبْلَ بَعْثةِ نبيِّ آخِرِ الزَّمان ﷺ اعتاد اليهودُ أنه إذا ما نَشِبتْ حربٌ بينَهم وبينَ الكُفَّارِ والمشركين، وتَقِلُّ فُرَصُهم في الانتصار، وَضَعوا التَّوراةَ أمامَهم، وفَتَحوها على الموضع الذي وَرَد فيه ذِكْرُ صفاتِ النبيِّ ﷺ، ويضَعُونَ أيديَهم عليه، ثم يَدْعُونَ اللهَ قائلين: «**اللّهمّ إنّا نسألُك بحقِّ نبيِّكَ الّذي وَعدتَنا أنْ تبعَثَه فى آخِرِ الزَّمانِ أن تَنصُرَنا اليومَ على عدوِّنا، فيُنصَرون**»[1].

---

(١) تفسير روح المعاني، سورة البقرة (٢): الآية ٨٩.

ثم يكونُ منتهى حُمْقِ هؤلاءِ ونُكرانِهم للجميل، أنّه حينَ بُعِثَتْ تلك الذَّاتُ العظيمةُ التي نالوا ببرَكةِ اسمِها النَّجاحَ، أنْ أنْكَروها، الحقيقةُ أنّ مِثلَ هؤلاءِ الناسِ يستحِقُّونَ - بالفعل - لعنةَ الله وسُخْطَه.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾

٦٣- كان اليهودُ يَعلَمونَ تمامًا أنّ سيِّدَنا محمَّدًا ﷺ نبيُّ اللهِ حقًّا، وللتدليل على ذلك لِنتدَبَّرْ حادثةً واحدةً فقطْ.

تقولُ أُمُّ المؤمنينَ السِّيدةُ صَفِيَّةُ رضيَ اللهُ عنها: إنّه حينَ شَرَّفَ النبيُّ ﷺ المدينةَ بقدومِه إليها ذَهَب أبي وعمِّي (وكانا عالِمَيْنِ من علماءِ اليهود) للقاءِ النبيِّ ﷺ، وبعدَ أنْ تحدَّثا إليه لوقتٍ طويلٍ وعادا إلى البيتِ سمِعتُهما بأُذُني يقولان:

* عمِّي أبو ياسر: أهو هو؟
* أبي حُيَيُّ بنُ أَخْطَب: نعم والله!
* عمِّي أبو ياسر: أتعرِفُه وَتُثْبِتُه؟
* أبي حُيَيُّ بنُ أَخْطَب: نعم
* عمِّي أبو ياسر: فما في نفسِكَ منه؟
* أبي حُيَيُّ بنُ أَخْطَب: عَداوتُه والله ما بَقِيتُ[١].

فما علاجُ هذا التعنُّتِ والصَّلَف؟ بمعنى: عَدَمُ الإيمانِ به ﷺ رَغْمَ معرفةِ أنّه هو النبيُّ فعلًا، أليس هذا بمثابة بَيْع النفسِ للكفر! أليست هذه صفقةً خاسرةً فعلًا! لكنّ هذا ليس جديدًا على بني إسرائيل؛ لأنَّهم - في الغالب - كانوا يسلُكونَ نفْسَ الطريقِ مع الأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلامُ.

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام، ٢: ١١٩.

﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾

٦٤ـ لقد كان السَّببُ الوحيدُ في إنكارِهم هُو الحَسَدَ، ليس إلّا، أي: لماذا أُرسِلَ النبيُّ الخاتَمُ من نَسْلِ سيِّدِنا إسماعيلَ عليه السَّلام، وكان يجبُ أن يكونَ هو الآخَرُ من بني إسرائيلَ؟ لكنَّ هذا هو حُكمُ اللهِ تعالى؛ حيث أَنْعَم بالنُّبوَّةِ على من شاء.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ ۖ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

٦٥ـ حين كان اليهودُ يُدْعَوْنَ للإيمانِ بالقرآنِ الكريم، فإنَّهم كانوا يقولون: إنَّنا آمَنَّا بما أُنزِلَ إلينا وهو يكفينا، ولسنا في حاجةٍ إلى الإيمانِ بأيِّ كتابٍ آخَرَ، ولكنّ القرآنَ رَدَّ ادِّعاءهم هذا أيضًا، قائلًا: إنَّهم إذا كانوا يؤْمنونَ بالكتابِ الذي أُنزِلَ إليهم، فما كانوا لِيقتُلوا الأنبياءَ الكرامَ، وما كانوا لِيعبُدوا العِجْلَ، الحقيقةُ أنَّهم يؤْمنونَ بهَواهُم النَّفْسيِّ فقط، ومن يتَّبِعْ هواهُ بَدَلًا منَ اللهِ فإنّه يكونُ بمثابةِ حيَوانٍ مفترِس في شكلِ إنسان، لا يَبعُدُ عليه أن يَقتُلَ حتَّى الأنبياءَ.

وفي هذه الآياتِ وَقْفةُ عِبرةٍ للمسلمين، فقد رَدَّ اللهُ تعالى ذلك الإيمانَ من اليهود، والذي لم يُعلِّمْهم العمَلَ بأحكام التَّوراة، فما قيمةُ إيمانِنا نحن إذا لم يَدفَعْنا نحو العمَلِ بأحكام القرآنِ الكريم، فهناك كثيرٌ من المسلمينَ يسمَعونَ الأذانَ بما لا يَدَعُ مجالًا للشكِّ، ومعَ ذلك لا يتقدَّمونَ إلى المسجدِ خُطوةً واحدةً للصَّلاة،

يؤْمَرونَ بفعل الخيرِ لكنّ قلوبَهم تبحَثُ عن طريق الشرِّ، ندعو اللهَ تعالى أن يَحفَظَ المسلمينَ جميعًا من مِثلِ هذا الإيمانِ الناقص، وأن يُنعِمَ عليهم بالإيمانِ الكامل الذي يقفُ عَقَبةً كالجَبلِ يحُولُ بينَهم وبينَ الشرِّ، آمين.

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾

٦٦- كان اليهودُ يقولونَ: إنَّهم أحِبَّاءُ اللهِ تعالى، ولهذا فإنّ الجنَّةَ مخصُوصةٌ لهم فقط، وقد فَضَحَ القرآنُ الكريمُ كذِبَهم هذا، قائلًا: إنَّكم إذا كنتُم أهلَ الجنَّةِ حقًّا، فماذا تنتظرونَ إذًا؟ عليكم أن تتمنَّوا الموتَ، حتى تَحصُلوا على النَّجاةِ من متاعبِ الدنيا، وتستمتعِوا بنَعيم الجنَّة، لكنَّهم لن يفعَلوا ذلك أبدًا؛ لأنَّهم حينَ يتَصوَّرونَ عقابَهم على عقائدِهم الفاسدةِ وأعمالِهم السيِّئة، يُصيبُهم الخوفُ، ويتمنَّونَ لو ظَلُّوا على قَيْدِ الحياةِ لآلافِ السِّنين، وعلى افتراضِ إعطائهم العُمرَ الطويلَ أيضًا، فإنَّهم لن يَنْجُوا أبدًا من عذابِ الله تعالى؛ لأنّ النَّجاةَ من عذابِ جهنَّم ليس بطُولِ العُمُر، وإنَّما بالإيمانِ والعمل الصالح.

نَقَل الإمامُ البَيْهقيُّ، في كتابه «الدَّلائل»، عن ابنِ عَبّاسٍ رضيَ اللهُ عنه، قولَه: إنّه حين نَزَلتِ الآيةُ رقم ٩٤ ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ﴾ جَمَع النبيُّ ﷺ اليهودَ جميعًا وقال لهم: **«إنْ كنتُم في مقالتِكم صادقِينَ قولوا: اللّهمَّ أمِتْنا، فوالّذي نَفْسي بيدِه، لا يقولُها رجلٌ مِنكم إلّا غُصَّ بريقهِ فماتَ مكانَه»، فأَبَوْا أن يفعَلوا وكَرِهوا ما قال لهم**[1]. ومثلُ هذه الدَّعوى لا يستطيعُها إلّا نبيٌّ صادق.

---

(١) الدر المنثور في التفسير المأثور، سورة البقرة (٢): الآية ٩٤، ١.

قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾

٦٧ ـ قالتِ اليهودُ: إنّ جِبريلَ عليه السَّلامُ عدوُّنا، لقد كان يَنزِلُ بالغضَبِ علينا، ونحن لا نعترفُ بما جاء به من وَحْيٍ، فنَزَلتْ هذه الآيةُ ردًّا عليهم بأنّ جِبريلَ عليه السَّلامُ لا يقولُ شيئًا من عندِه، وإنَّما يُنفِّذُ أمرَ اللهِ تعالى لا أكثرَ، ولهذا فإنّ مَن يعادي جِبريلَ عليه السَّلامُ فهو عدوٌّ لله تعالى.

﴿أَوَكُلَّمَا عَـٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

٦٨ـ رُويَ عن سيِّدِنا ابن عَبّاسٍ وسيِّدِنا عليٍّ رضيَ اللهُ عنهما، أنه «ما بَعَثَ اللهُ نبيًّا من الأنبياءِ إلَّا أَخذ عليه المِيثاقَ: لئنْ بَعَثَ اللهُ محمَّدًا وهو حيٌّ لَيُؤْمِنَنَّ به ولَيَنصُرَنَّه، وأمَرَه أن يأخُذُ المِيثاقَ على أُمَّتِه»[1]، وقد عاهَدوا ـ يعني اليهودَ ـ عهدًا لئنْ خَرَج محمَّدٌ ﷺ لَنُؤْمِنَنَّ به[2].

وكانت صفاتُ نبيِّ آخِرِ الزَّمانِ سيِّدِنا محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مذكورةً في التَّوراة، وحين شَرَّفَ النبيُّ ﷺ المدينةَ بقدومِه إليها شاهَدَ اليهودُ فيه هذه الصِّفاتِ، ومعَ ذلك لم يؤْمنوا به ﷺ، وهكذا ألقَوْا بتعاليم التَّوراةِ وراءَ ظهورِهم.

﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾

٦٩ـ أخَذَ اليهودُ يعمَلونَ بالسِّحرِ اتِّباعًا للشَّيطان، ثم ادَّعَوْا ـ مع ذلك ـ أنّ سيِّدَنا سُليمانَ عليه السَّلامُ أيضًا كان ساحرًا، وأنه كان يَحكُمُ بقوَّةِ السِّحر، ولهذا كَفَروا بسببِ عَملِهم بالسِّحر «والعياذُ بالله»، وقد أوضَحَ القرآنُ المَجيدُ أنّ سيِّدَنا سُليمانَ عليه السَّلامُ لا علاقةَ له بالسَّحَرة، وإنّما كان نبيَّ اللهِ الصّادقَ.

﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ﴾

٧٠ـ هناك قولٌ فيما يتعلَّقُ بهاروتَ وماروتَ، وهو: أنَّهما لم يكونا مَلَكيْن،

---

(١) تفسير روح المعاني وصفوة التفاسير: سورة آل عمران (٣): الآية ٨١.

(٢) التفسير المظهري، سورة البقرة (٢): الآية ١٠٠.

وإنما كان شيطانَيْنِ[١]، وأُطلِقَ عليهما مَلَكانِ لكثرةِ تعبُّدِهما، مِثلَما كان إبليسُ يُعَدُّ من الملائكةِ لكثرةِ تعبُّدِه.

وطِبقًا لقولٍ آخَرَ فإنّهما كانا مَلَكَيْنِ فعلًا، لكنْ حينَما أُنزِلا في صورةِ البشَرِ لابتلاءِ الناس، تَولَّدتْ فيهما خصائصُ البشَرِ أيضًا[٢]، ولذا فقد تعلَّما السِّحرَ باعتبارِهما بشَرًا وليسا مَلَكيْنِ، واللهُ تعالى قادرٌ مطلَقٌ، ومِثلَما يقدِرُ على مَسْخِ الإنسانِ قِرْدًا لعقابِه، فإنّه يستطيعُ كذلك أن يَجعَلَ من الملائكةِ بَشرًا بقصدِ الابتلاء.

على أيّةِ حال، فإنّه ـ باعتبارِ المعنى الظاهرِ للقرآنِ الكريم ـ كان هاروتُ وماروتُ مَلَكَيْنِ، وكانا من عبادِ الله المُكْرَمينَ الطّائعين، لكنَّ السِّحرَ كان قد عَمَّ في أهل بابِل، لدرجةِ أنّهم كانوا يَعتبِرونَ معجِزةَ النبيِّ من السِّحرِ أيضًا، وبناءً على ذلك، كانوا يُنكِرونَ النُّبوّةَ، ولهذا أَرسَلَ اللهُ تعالى هاروتَ وماروتَ في صُورةِ بني البشَر.

وكانوا يُخبِرونَ الناسَ بحقيقةِ السِّحر، ويمنَعونَهم من العمَل به، حتى تتَّضحَ لهم حقيقةُ السِّحر، ويستطيعوا التمييزَ بينَ المعجزةِ وشَعْوَذةِ السِّحر، وقد أخبرَ هذانِ المَلَكانِ الجميعَ بشكلٍ واضحٍ تمامًا أنّهما قد أُرسِلا إلى الناس لابتلائهم خِصِّيصًا، والسِّحرُ ـ في الحقيقة ـ فعلٌ شيطانيٌّ يَزْرَعُ الفتنةَ بينَ بني الإنسان، ولذا يجبُ أن لا تكونوا عُصاةً للهِ تعالى بارتكابِ الأفعال الشَّيطانيَّة، وعليكم أن تَفهَموا حقيقةَ السِّحر، وأن تتَّقُوا اللهَ وتبتعِدوا عنه.

ومِثالُ فتنةِ هاروتَ وماروتَ مَثَلُ الفتنةِ التي أثارَها المِرْزا القادْيانيُّ في الهند بادِّعائه الكاذب للنُّبوّة، ووَقَعَ الناسُ في خِداعِه، فقام علماءُ الإسلام بتعريفِ النّاس بأدّلةِ المِرْزا القادْيانيِّ الكاذبة، وأخبَروهم بسائرِ التَّعاليم التي حُكِم ـ بسببِها ـ بكفرِ

---

(١) «فهاروت وماروت بدل من الشياطين». تفسير القرطبي، سورة البقرة، الآية ١٠٢.

(٢) «وهما ملكان أنزلا لتعليم السحر ابتلاء من الله للناس». البيضاوي، سورة البقرة، الآية ١٠٢.

القاديانيِّ، حتّى لا يقتربَ النّاسُ منه، ولكنْ إذا اختارَ أحدٌ - بالرَّغم من ذلك - اتِّباعَ المِرْزا القاديانيِّ، فلا ذنْبَ لعلماءِ الإسلام في ذلك، والمُجرِمُ الحقيقيُّ هو ذلك الذي كَفَر بعدَ معرفتهِ الحقيقةَ.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّۖ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا﴾

٧١- كان الصَّحابةُ الكرامُ رضيَ اللهُ عنهم جميعًا حينَ يَستعصي عليهم فَهْمُ قولٍ من أقوالِ النبيِّ ﷺ جيِّدًا[١] يقولون: «راعِنا»، ومعناهُ الظَّاهريُّ: أنْ

(١) أي: فهمه فهمًا جيّدًا، نائب عن المفعول المطلق.

يا رسولَ الله ﷺ، لم نستطعْ فَهْمَ ما قُلتَ جيِّدًا، فنرجو مُراعاتَنا وإفهامَنا القولَ مرَّةً أُخرى، ولكنّ هناك احتمالاتٍ أخرى عديدةً في معنى هذا اللَّفظ، من بَيْنِها: إساءةُ الأدبِ والتطاول، وكان اليهودُ يفهَمونَ منه معنى إساءةِ الأدب، ولهذا أمَرَ اللهُ تعالى الصَّحابةَ الكرامَ رضيَ اللهُ تعالى عنهُم جميعًا أن يقولوا بعدَ ذلك: «انْظُرنا: أَلْقِ علينا نَظْرةَ كَرَم»؛ لأنه ليس في هذا اللَّفظِ أيُّ احتمالٍ لمعنًى فاسد، ويُعلَمُ من هذا أنه يُمنَعُ استخدامُ أيِّ لفظٍ فيه شُبهةُ إساءةِ أدبٍ فيما يتَعلَّقُ بسيِّدِنا محمَّدٍ ﷺ؛ لأنّ الإيمانَ يَضيعُ بالإساءةِ إلى النبيِّ ﷺ.

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾

٧٢ ـ حينَ يُلغي اللهُ تعالى أيَّ حُكمٍ ويُنزِلُ حُكمًا آخَرَ بَدَلًا منه، فإنّ هذا العمَلَ يُطلَقُ عليه «نَسْخٌ».

على سبيلِ المثال: كان زواجُ الأخ الشَّقيقِ بأُختِهِ جائزًا في عهدِ سيِّدِنا آدَمَ عليه السَّلامُ، ثم حُرِّم هذا فيما بعدُ. وكان المسجدُ الأقصى قِبلةً للمسلمينَ في البداية، ثم صار المسجدُ الحرامُ هو القِبلةَ فيما بعدُ. والتَّبديلُ في الأحكام يكونُ من أَجْلِ صالحِ بني الإنسان، وكلُّ هذا يكونُ طِبْقًا لبرنامَجٍ مقرَّرٍ من اللهِ سبحانَه وتعالى.

وهنا يمكنُ أن يُثوَر سؤالٌ في ذهنِ أحدٍ هو: لماذا لم يُنزِلِ اللهُ تعالى الحُكمَ الثانيَ بدايةً حتّى لا تكونَ هناك ضرورةٌ أصلًا للتبديل؟ ومثالُ ذلك مَثَلُ طبيبٍ يصفُ علاجًا لمريضٍ ويقول: استعمِلْ هذا الدَّواءَ لمدَّة أسبوع واحدٍ فقَطْ، وبعدَ ذلك سنبدَأُ العلاجَ الأصليِّ؛ لأنّ صحَّتَك لا تتحمَّلُ العلاجَ الأصليَّ في الوقتِ الحالي، والذي سيكونُ مُضِرًّا لك بَدَلًا من أن يُفيدَك، وهكذا راعَى اللهُ تعالى الفِطرةَ الإنسانيَّةَ، فأنْزَلَ حُكمًا لفترةٍ محدودة، وحينَ أصبحتِ الفِطرةُ الإنسانيَّةُ مستعِدَّةً لفَهْم الحُكم الأصليِّ تم تغييرُه، وهذا عيْنُ الحِكمة.

كما أنّ اللهَ تعالى مالكُ الأرضِ والسَّماء، وهُو القادرُ على كلِّ شيءٍ، فيُنفِذُ أيَّ حُكم وفي أيِّ وقتٍ بما يتطابَقُ معَ المصلَحة، ويَنسَخُ ما يريدُ، وليس لأحدٍ حقُّ الاعتراضِ عليه.

﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾

٧٣- كان بنو إسرائيلَ - من أَجْلِ أن يتخلَّصُوا من الأحكام الإلهيَّة - يسألونَ سيِّدَنا موسى عليه السَّلامُ أسئلةً تافهةً، فمَثَلًا: كانوا يقولون: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، وعندَما يكونُ المحرِّكَ لمِثلِ هذه الأسئلةِ هو سُوءُ النِّيَّة والعصيانُ، فإنّ النتيجةَ لن تكونَ سوى الكُفْر، وهكذا حُرِم اليهودُ من الإيمانِ بسببِ اعوِجاجِهم هذا، وكانوا يتمنَّوْنَ لو أنّ المسلمينَ أيضًا ساروا على هَدْيِهم وضَلُّوا، ولهذا كانوا يُحرِّضونَ المسلمينَ أيضًا على إثارةِ مِثْل هذه الأسئلةِ التافهة، لكنّ القرآنَ الكريمَ يُحذِّرُ المسلمينَ من مَغَبَّةِ مِثْلِ هذا السُّلوك، حتى لا يقَعوا في حبائلِ اليهودِ ويُضيِّعوا إيمانَهم، وإنَّما يَتبنَّوْنَ العَفْوَ والسَّماحَ في مقابلِ حَسَدِ وشرِّ اليهود، وينتظرونَ الوقتَ الذي يُنفِذُ اللهُ فيه أمرَه، أي: أنْ يأذَنَ للمسلمينَ بجهادِهم وإخراجِ اليهودِ من المدينة أذِلَّاءَ صاغِرين.

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾

وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًاۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾

٧٤ ـ يقولُ اليهودُ: إنَّهم على الصِّراطِ المستقيم، وإنّ المسيحيِّينَ قد ضَلُّوا، ويَدَّعي المسيحيُّونَ أنّ اليهودَ هم الذين ضَلُّوا، وهكذا يَدَّعي كلُّ كافرٍ ومُشركٍ أنّه هو فقَطْ على الطَّريقِ المستقيم، وأنّ الآخَرِينَ جميعًا على ضَلال، في حينَ أنّه ليس لدى أحدٍ من كلِّ هؤلاءِ دليلٌ على صِدقِ دعواه، وفي نفْسِ الوقتِ لا يخضَعُ لأيِّ منطِق، ولهذا يبدو من المناسبِ أنّه بدَلًا من مجادلةِ أمثالِ هؤلاء، أن نُفوِّضَ أمرَهم إلى اللهِ تعالى، وهو الذي يَفصِلُ بينَهم يومَ القيامة.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾

٧٥ـ لقدِ احتَلَّ المسيحيُّونَ بيتَ المقدِس وخرَّبوه، ومَنَع الكُفَّارُ المسلمينَ من دخولِ بيتِ الله، في حينَ أنه كان ينبغي عليهم احترامُ أماكنِ العبادةِ الدِّينيَّة، لكنَّهم تمَرَّدوا، وفي النِّهايةِ جاء الوقتُ الذي سَلَّم فيه المسيحيُّونَ بهزيمتهِم، وسَلَّموا مفاتيحَ بيتِ المقدسِ إلى سيِّدِنا عُمرَ الفاروقِ رضيَ اللهُ عنه، مثْلَما اعترَفَ كفّارُ مكةَ يومَ فَتْحِها بهزيمتِهم وخِزْيِهم، وسَلَّموا مفاتيحَ بيتِ الله تعالى إلى سيِّدِنا محمَّدٍ ﷺ.

ورَغْمَ أن هذه الآياتِ نَزَلتْ في مسيحيٍّ فِلَسطينَ وكُفّارِ مكةَ، إلّا أنّ كلَّ مَن يسعَى في خرابِ المساجدِ اليومَ أيضًا فهو ظالمٌ، وعليه أن يَحذَرَ من سُوءِ عاقبتِه. اللهمَّ وفِّقْنا إلى أن نَعمُرَ مساجدَك بعبادتِك، آمين.

﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِ ﴾

٧٦ـ كانتِ القِبلةُ الأُولى للمسلمينَ هي بيتُ المقدِس، وحينَ تقرَّرَ أنْ يكونَ بيتُ الله هو القِبلَةَ بدَلًا من بيتِ المقدِس، عَيَّر اليهودَ المسلمينَ قائلينَ: ما مصيرُ صلاتِكمُ السَّابقة؟ فوَضَّحَ القرآنُ الكريمُ هذا الأمرَ بأنّ المسلمَ لا يَسجُدُ لجُدرانِ بيتِ المقدِس أو بيتِ الله، وهذه الجُدرانُ لا تستحقُّ السُّجودَ، وإنَّما يَسجُدُ المسلمُ للهِ تعالى فَقَطْ، واللهُ ليس في بيتِ المقدِس أو بيتِ اللهِ فقطْ، وإنَّما يَعُمُّ نورُه كلَّ ذَرَّةٍ في الكائنات، وحيثُما اتَّجهتُم بوجوهِكم فهناك تجَلِّي اللهِ تعالى، لكنَّنا نتَّجِهُ في سجودِنا إلى تلك الناحيةِ التي أمَرَنا اللهُ بالاتِّجاهِ إليها، وكان أمرُ اللهِ أولًا بالاتِّجاهِ إلى بيتِ المقدِس، والآنَ جاء الأمرُ بالاتِّجاهِ إلى بيتِ اللهِ الحرام، واللهُ هو الحاكمُ الأعظمُ والأعلَم، ولذا فهو يَحكُمُ بما يَراهُ مناسبًا، ولا يستطيعُ أحدٌ أن يتَحدَّى حُكمَه.

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥ﴾

٧٧ـ يؤْمنُ المسيحيُّونَ بأنّ سيِّدَنا عيسى عليه السَّلامُ ابنُ الله، ويؤْمنُ اليهودُ بأنّ عُزَيْرًا ابنُ الله، ويعتقدُ الكُفّارُ أنّ الملائكةَ بناتُ الله (والعياذُ بالله)، لكنّ هذه الآيةَ وَضَّحت أنّ اللهَ تعالى لا وَلَدَ له، وأنّه هو الخالقُ الوحيدُ للكائناتِ كلِّها، وهو مالكُها بلا شَريك، وكلُّ شيءٍ في هذه الدُّنيا الفانية تابعٌ لحُكمِه.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞ ﴾

٧٨ـ طالَبَ المشركونَ أنْ يكلِّمَهم اللهُ، أو أنْ يُبيِّنَ لهم آيةً لا يبقى بعدَها أثَرةٌ لشكٍّ، وعليه قال اللهُ تعالى لحبيبِه الكريم مُطيِّبًا خاطرَه: إنّ هذه المطالبَ التَّافهةَ

التي يَطلُبُها المشركونَ ليست أمرًا جديدًا، وإنّما هذه هي الطبيعةُ المشتركةُ بيْنَ الضَّالِّينَ منذُ الأزَل، وكان اليهودُ أيضًا يُطالبونَ سيِّدَنا موسى عليه السَّلامُ بمثلِ هذه المطالب، لكنّ الحقيقةَ هي أنّ أهلَ العقلِ تكْفِيهم أقلُّ إشارةٍ لكي يَهتَدوا، بينَما أهلُ الحسَدِ لا يرَوْنَ المعجزاتِ البيِّنةَ، وسلوكُك الصَّادقُ في حياتِك (يا محمَّدُ ﷺ) الطاهرةِ مُنيرٌ كالشَّمس، ولكنْ ماذا سترَى العيونُ المُظلِمة!

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾

٧٩ـ دَعا النبيُّ ﷺ اليهودَ والنَّصارى إلى الإسلام، لكنّ غالبيَّتَهم لم تؤْمنَ، ولذا أنْزَلَ اللهُ تعالى هذه الآيةَ مُطيِّبًا خاطرَ حبيبِهِ المُكرَّم ﷺ بأنّك (يا محمَّدُ ﷺ) قد أدَّيتَ حقَّ تبليغ الدَّعوة، وتأكَّد اليهودُ والنَّصارى من أنَّك نبيٌّ حقًّا، وأنّ دعوتَك حقٌّ، لكنَّهم لن يَقبَلوا الإسلامَ أبدًا بسببِ عِنادِهم وصَلَفِهم وتمرُّدِهم، بل إنَّهم يتمنَّوْنَ لو تركتَ أنت أيضًا الإسلامَ واتَّبعتَ دينَهمُ المزعوم، وهو ما يَستحيلُ أن تفعلَه؛ لأنّ الحقَّ الآنَ على وَجْهِ الأرض هو في الإسلام فقَطْ، وكلُّ مَن يترُكُ الإسلامَ ويتَّبعُ رَغَباتِ اليهودِ والنَّصارى فلن تكونَ له علاقةٌ برحمةِ اللهِ تعالى، أمّا السَّعيدُ الذي آمَنَ ويؤدِّي حقَّ تلاوةِ القرآنِ الكريم فسيكونُ قريبًا من رحمةِ اللهِ تعالى.

يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ

ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾

﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾

٨٠ ـ مرَّ تفسيرُ هاتَيْنِ الآيتَيْنِ قَبْلًا فلْترجِعْ إليهما في الحاشية رقم ٤١.

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

٨١ ـ ابتَلى اللهُ تعالى سيِّدَنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ بنيرانِ النَّمرُودِ وذَبْح سيِّدِنا إسماعيلَ عليه السَّلامِ، حتّى تتَّضحَ للناس حقيقةُ أنّ سيِّدَنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ يستحِقُّ ـ بالفعل ـ الإمامةَ، وحين دَعا سيِّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ بدافع عاطفةِ الفطِرةِ بأنْ يكونَ من أَولادِهِ أنبياءُ، قال له اللهُ تعالى: إنّ من سيكونُ ظالمًا من ذُرِّيَّتِك لن يكونَ أهلًا لهذه النِّعمة، أمّا الصالحونَ الطائعونَ فسوفَ يُنعَمُ على بعضِهم بشَرَفِ النُّبوَّة. ويقولُ أهلُ العِلم فيما يَتعلَّقُ بهذه الآية: إنّ الأنبياءَ معصومون؛ لأنّ اللهَ تعالى لا يَجعَلُ مِن ظالمٍ نبيًّا.

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِۦمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾

٨٢ ـ وتطهيرُ بيتِ الله يعني: تنظيفَ مَبْناهُ من الغبارِ والأتربة، وتنظيفُ أجوائهِ من الكُفرِ والشِّرك، حتى تحظَى قلوبُ العابدينَ وأنظارُهم بالسَّكِينة، ويَسجُدوا للهِ

تعالى الخالقِ الحقيقيِّ بكلِّ طُمَأْنينة، ويُعلَمُ من هذا أنّ تطهيرَ المساجدِ وتنظيفَها حُكمٌ من اللهِ تعالى وسُنّةُ الأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلام، كما أنّ القائمينَ على أمرِ المساجدِ ينبغي أن يكونوا من الصَّالحين.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾

٨٣ ـ حاوِلْ أن تتخيَّلْ مكةَ قبلَ آلافِ السِّنينَ من اليوم؛ حيثُ لم يكنْ هناك أثَرٌ لخُضْرة، فمِن أين تأتي الفاكهةُ إذًا؟ لكنِ اليومَ، أيُّ فاكهةٍ من فواكهِ العالَم كلِّه لا تتوفَّرُ في مكَّة! ويُعلَمُ منه أنّ أولياءَ الله حين يرفَعونَ أكُفَّ الدُّعاءِ إلى اللهِ تعالى فإنّ القُدرةَ الإلهيَّةَ تُظهِرُ من المعجِزاتِ ما لا تتصوَّرُه عقولُنا.

﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾

٨٤ ـ قبلَ هذا كان السُّؤالُ عن النُّبوَّة، وأجابَ الله تعالى عن السُّؤالِ بأنّ الظَّالمَ لا يستحِقُّ أن يكونَ نبيًّا، لكنْ حينَ تَعلَّقَ الأمرُ بالرِّزقِ قال تعالى: إنّ الكافرَ هو الآخَرُ سيُعطَى رِزقَ هذه الأيام المعدودةِ في الحياةِ الدُّنيا مِثلَه مِثلُ المؤْمنِ أيضًا، ويُعلَمُ من هذا أنّ بابَ الرِّزقِ مفتوحٌ للمؤْمنِ والكافرِ على السَّواءِ، لأنّ اللهَ تعالى ربُّ العالَمينَ جميعًا، ولهذا فإنّه مَن كثُرَ رِزقُه في الدُّنيا فيجبُ أن لا يُخطئَ الظنَّ معتقِدًا أنّ اللهَ تعالى راضٍ عنه؛ لأنّ اللهَ تعالى يَرزُقُ الكُفّارَ أيضًا، لكنَّه يرضى فقَطْ عن ذلك الذي يؤْمنُ به ويعَملُ صالحًا.

﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾

٨٥ ـ كان سيِّدنا إبراهيمُ وسيِّدُنا إسماعيلُ عليهما السَّلامُ يَبْنِيانِ الكعبةَ سَويًّا، ويَدعُوانِ اللهَ تعالى، وفي النِّهاية الْتَمَسا منَ اللهِ قائلَيْنِ: أنْ يا الله، ابعَثْ مِن ذُرِّيتِنا نبيًّا

عظيمَ الشأن، وكان جزاءَ هذا الدُّعاءِ أنْ أرسَلَ اللهُ تعالى نبيًّا واحدًا فقَطْ اسمُه محمَّدٌ المصطفى ﷺ، ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «**أنا دعوةُ أبي إبراهيم**» (عليه السَّلام)[1].

﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾

٨٦ - تُرى، ما هي الفرائضُ المَنُوطُ تأديتُها بذلك النبيِّ جليلِ القَدْرِ ﷺ، والذي يدعو سيِّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلام ربَّه لبَعثتهِ؟

١ - أنْ يَتْلوَ على النّاسِ آياتِ الله؛ ويُعلَمُ منه أنّ التِّلاوةَ في حدِّ ذاتِها، أي: مجرَّدَ تلاوةِ ألفاظِ القرآنِ الكريم - هي بذاتِها عبادةٌ مستقِلَّة، ولهذا إذا بُدِّل أحدُ ألفاظِ القرآنِ الكريم، فإنَّنا لا يمكنُ أن نُطلِقَ عليها قُرآنًا، حتّى وإن لم تَتبدَّلِ المعاني، كما أنَّها لا يمكنُ أن تؤدَّى بها الصَّلاةُ، ولذا فإنّ ألفاظَ القرآنِ المَجيد مقصُودةٌ لذاتِها كما أنّ معانيَه مقصُودةٌ لذاتِها، ولكنّ هذا لا يعني أبدًا أنْ لا نحاولَ فَهْمَ القرآنِ الكريم، وإنَّما على كلِّ مسلم أن يُحاولَ - قَدْرَ استطاعتِه - العَمَل على فَهْم معاني القرآنِ الكريم ومَطالبِه؛ لأنّ في تدبُّرِ معاني القرآنِ ثوابًا عظيمًا.

٢ - وأن يُعلِّمهم القرآنَ، يعني: أنْ يُفهِمَهم معانيَ القرآنِ المَجيد وأحكامَه.

٣ - وأنْ يُعلِّمهم الحِكمةَ، والمرادُ بالحِكمة: الحديثُ، يعني: أنْ يُعلِّمَهم طريقةَ العمَلِ بأحكام القرآنِ الكريم، وعلى سَبيلِ المثال، فإنّ الأمرَ بأداءِ الصَّلاة وَرَد في القرآنِ الكريم، لكنّ طريقةَ تنفيذِ الأمرِ بالصَّلاة يَدُلُّنا عليها الحديثُ الشَّريفُ، والحِكمةُ ليست رأيًا شخصيًّا من عندِ النبيِّ ﷺ، وإنَّما هي أيضًا تَنزِلُ

---

(١) عن أصحاب رسول الله ﷺ أنّهم قالوا: يارسول الله! أخبرنا عن نفسك، قال: «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبُشرى عيسى، ورأت أمّي حين حملت بي كأنّه خرج منها نورٌ أضاءت له قصور بصرى من أرض الشّام». تفسير ابن كثير، الجزء الرابع، سورة الصف: الآية ٦. ومسند الإمام أحمد، ٤: ١٢٧.

عليه من اللهِ سبحانَه وتعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ﴾ [النساء: ١١٣].

٤ـ وأن يُطهِّر النَّاسَ، يعني: أنْ يُطهِّرَ عقائدَهم من الشُّكوكِ والشُّبُهاتِ بالدَّلائلِ الحَسَنة، حتى يتبيَّنَ الحقُّ من الباطل، وأنْ يُطهِّرَ قلوبَهم بتصرُّفِه الرُّوحيِّ مَعهم من الرَّغَباتِ النَّفْسيَّة، حتّى يُمكنَ لقلوبِهم أن تكونَ مرآةً للتَّجلِّياتِ الإلهيَّة، كما أنه يُطهِّرُ عاداتِهم وخصالَهم بتربيتهِ الظاهريَّةِ مما لا معنى له، حتّى يتأثَّرَ الكُفّارُ بحُسنِ سلوكِهم ويُقبِلوا على الإسلام.

ويتَصوَّرُ بعضُ النّاسِ أنّ النبيَّ إنّما هو مجرَّدُ حاملٍ لرسالةٍ يؤدِّيها كساعي البريد، لكنَّنا نَعلَمُ من هذه الآيةِ المباركةِ أنّ هناك فَرْقًا كبيرًا بينَ حاملِ الرِّسالة أو ساعي البريد وبينَ النبيِّ، فحاملُ الرِّسالةِ أو ساعي البريدِ لا يَعلَمُ على الإطلاقِ ماذا بداخلِ الرِّسالةِ التي يَحمِلُها، كما أنّ حاملَ الرِّسالةِ أيضًا يَجهَلُ تمامًا أسرارَ ورموزَ الرِّسالة، بينَما النبيُّ مرسَلٌ من اللهِ تعالى، وهو المعلِّمُ الأعظَمُ للخَلْق، وهو الذي يُطهِّرُ النّاسَ ويُفهِمُهم رسالةَ اللهِ تعالى، كما أنه هو الذي يُخبِرُهم بطريقةِ العمَلِ بهذه الرِّسالة.

وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ

وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ﴾

٨٧ ـ لقدِ اختار اللهُ تعالى سيِّدَنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ للنُّبوَّة، وأنْزلَ عليه من أَجْلِ هدايةِ النّاسِ ذلك الدِّينَ المُطابِقَ للفِطرةِ تمامًا، ولا يمكنُ أن يَرفُضَ ذلك الدِّينَ إلَّا المحرومُ من العَقْل والتفكير.

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ ﴾

٨٨ ـ لقدِ ادَّعتِ اليهودُ أنّ سيِّدَنا يعقوبَ عليه السَّلامُ، عندَ وفاتِه، أوصَى أولادَه أن يتمسَّكوا باليهوديَّة، والقرآنُ الكريمُ هنا يُردُّ هذا الادِّعاءَ قائلًا: بأنَّكم ـ أيُّها المُدَّعُونَ ـ لم تكونوا موجودينَ وقتَ الوصِيَّة، ولذا عليكمُ أن تُصحِّحوا معلوماتِكم، فإنّ سيِّدَنا يعقوبَ عليه السَّلامُ قد أوصَى بالتمسُّكِ بذلك الدِّينِ الذي هو دينُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ في ذلك الوقت، والذي يُسمَّى الإسلامَ الآنَ.

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

٨٩ ـ ادَّعتِ اليهودُ والنَّصارى أنّه، بما أنّهم من ذُرِّيَّةِ الأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلام، لهذا فإنّ نَجاتَهم أمرٌ يقينيٌّ، وقد أزالَ القرآنُ الكريمُ ـ في هذه الآية ـ سُوءَ

الفَهْم هذا، بمعنى: أنّه مع أنّكم ـ بالفعل ـ من ذُرِّيَّةِ الأنبياءِ، إلّا أنّ الحقيقةَ هي أنّكم لا علاقةَ لكم بهم، فقد ضَحَّت هذه الشَّخصيَّاتُ المُقدَّسةُ بأنفُسِها من أَجْل أوامرِ اللهِ تعالى، بينَما أنتم تُحرِّفونَ الأحكامَ الإلهيَّة من أَجْل هوى أنفُسِكم، ولهذا لا يمكنُ أن تكونَ لكم صِلةٌ بهم أبدًا، تلك الشَّخصيَّاتُ المُقدَّسةُ قدِ انتقَلَتْ إلى قُربِ اللهِ تعالى بعدَ أن أمضَتْ حياتَها الدُّنيا، ولن تُسألوا عنهم، لكنَّكم ستُسألونَ عما كنتُم تفعَلون، ولهذا عليكم أن تُفكِّروا في أنفُسِكم أنتم.

﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾

٩٠ـ كان اليهودُ يقولونَ للمسلمين: عليكُم أن تتَّبِعوا اليهوديَّةَ حتّى تهتَدوا، وكان المسيحيُّونَ يَدْعُونَهم لاتِّباع المسيحيَّةِ حتّى يُفلِحوا، وأَخَذَ كلُّ فريقٍ منهم يحاولُ إثباتَ أنّ سيِّدَنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ كان يهوديًّا ومسيحيًّا، وهنا كَشَف القرآنُ الكريمُ النِّقابَ عن الحقيقةِ قائلًا: إنّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ لا علاقةَ له بهذه اليهوديَّةِ أو المسيحيَّةِ المُحرَّفة، فلقد كان متَّبِعًا للحقِّ وبعيدًا عن الشِّركِ دائمًا.

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾

٩١ـ المسلمونَ جميعًا يؤْمنونَ بالأنبياءِ جميعًا عليهِمُ السَّلام، ولا يُنكِرونَ نُبوَّةَ أيِّ نبيٍّ منهم؛ لأن الأنبياءَ جميعًا عليهم السَّلامُ قد جاءوا بدِينٍ واحدٍ الذي يُعَدُّ الإسلامُ هو الشكلَ الأخيرَ له، ولهذا فإنّه يجبُ على اليهودِ والنَّصارى أيضًا اتِّباعُ هذا الدِّين والإيمانُ به بكلِّ إخلاص، مثْلَما آمَنَ به الصَّحابةُ الكرامُ رضيَ اللهُ عنهم، لأنّ سُلوكَهم هو مِعيارُ الإيمان، أمّا إذا عانَدوا ورَفَضُوا فليس على المسلمينَ حَرَجٌ من ذلك، ولا داعيَ لأنْ يُزعِجَهم هذا الأمرُ، فاللهُ تعالى مؤيِّدُ المسلمينَ وناصِرُهم، وقد رأى الصَّحابةُ الكرامُ رِضوانُ اللهِ عليهم أجمعين، هذا المنظَرَ بأعيُنِهم، إذِ اضْطُرَّ

اليهودُ إلى مغادرةِ المدينةِ المنوَّرة والرَّحيلِ عنها، ورَفْرَفَت رايةُ الإسلام على مناطقِ النَّصارى كذلك.

﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾

٩٢ـ إنّ من يتَّبعُ دينَ اليهودِ والنَّصارى يَتِمُّ غَسْلُه بمياهٍ ملوَّنة، ثم يُعلَنُ بعدَ ذلك أنّه قدِ اصْطَبَغ بصِبغةِ اليهوديَّةِ أو النَّصرانيَّة، وأصبح يهوديًّا أو نَصْرانيًّا راسخًا. وفي هذا يقولُ القرآنُ المَجيد: أيُّ صِبغةٍ هذه التي تَزولُ بعدَ عدَّةِ ساعات، ثم يعودُ الإنسانُ بعدَها كما كان من قبلُ؟ وإنّما يجبُ أن يُصبَغَ الإنسانُ بصِبغةِ توحيدِ الله تعالى التي هيَ أفضَلُ صِبغةٍ، وحينَ يَصطَبِغُ أحدٌ بصِبغةِ اللهِ تعالى، فإنّ هذه الصِّبغةَ لا تكونُ في الظَّاهرِ فقَطْ، وإنّما يتلألأُ بها باطنُه أيضًا، وتَهُبُّ على حياتِه ثورةً يبدو معَها القفزُ في نيرانِ النَّمرُودِ المتوهِّجة، ووَضْعُ السِّكِّين على رَقَبةِ الابنِ بغَرَضِ ذَبْحِهِ من أَجْلِ رضا اللهِ تعالى، أمرًا سهلًا ميسَّرًا، ومن المؤكَّد أنّ الملائكةَ حين تَرى هذا المنظرَ فإنّها تَغبِطُ هذا الإنسانَ على قَدَرِه ونصيبِه.

﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾

٩٣ـ (أي: يا أيُّها اليهودُ والنَّصارى) أتُجادِلونَنا وتُخالفونَنا لأنَّنا نعبُدُ ربًّا واحدًا ولا نشركُ به أحدًا؟ في حينَ أنّ عليكم أنتمُ أيضًا أن تعبُدوا هذا الإلهَ الواحدَ؛ لأنّه ربُّنا جميعًا، فإذا لم تعبُدوه فإنّكم ستَلقَوْنَ جزاءَ شِركِكُم هذا، وسَنَنالُ نحنُ ثوابَ توحيدِنا.

﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾

٩٤ ـ (يا عامَّةَ اليهودِ والنَّصارى) إنّكم تقولونَ: إن هؤلاءِ الأنبياءَ الكرامَ عليهمُ السَّلام وأولادَهم كانوا يهودًا أو نَصارى، معَ أنّ اللهَ تعالى ينفي هذا، والآنَ عليكُم أنتُم أن تُقرِّروا: أأنتمُ الأعلمُ أمِ الله!

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

٩٥ـ (يا علماءَ اليهودِ والنَّصارى)، إنّكم تَعلَمونَ أنّ هؤلاءِ الأنبياءَ الكرامَ عليهمُ السَّلام وأولادَهم، لم يكونوا يهودًا ولا نَصارَى؛ لأنّ بدايةَ اليهوديَّةِ والنَّصرانيَّةِ كانت مَع سيِّدِنا موسى وسيِّدِنا عيسى عليهما السَّلامُ، وأنتُم تَعلَمونَ ـ كذلك ـ أنّ صفاتِ النبيِّ ﷺ والآياتِ الدالَّةَ عليه موجودةٌ في كُتبِكم، لكنَّكم، بالرَّغْم من ذلك، تُخفُونَ هذه الأدِلَّةَ، فمَن إذًا أكثرُ منكم ظُلمًا؟ وتَذكَّروا أنّ اللهَ تعالى ليس بغافلٍ عن أفعالِكم وأعمالِكمُ السَّيِّئة.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

٩٦ـ انظر في هذا المعنى حاشية رقم ٨٩ من نفس السورة.

۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُ﴾

٩٧ ـ حين هاجَرَ النبيُّ ﷺ من مكَّةَ المكرَّمةِ إلى المدينةِ المنوَّرة، ظلَّ يتَّجهُ في صلاتِه تُجاهَ بيتِ المقدِس (المسجدِ الأقصى) لستةَ عشَرَ أو سبعةَ عشَرَ شهرًا، لكنّ النبيَّ ﷺ كان يتمنَّى من قلبِه أن تكونَ الكعبةُ المشرَّفةُ هي قِبلةَ المسلمين، وهي التي كانت قِبلةً لسيِّدنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ من قبْلُ، وهكذا فإنّ اللهَ تعالى قد أخبرَ النبيَّ ﷺ قبْلَ أن يُحقِّقَ له أُمنِيَّته هذه، أنّ السُّفهاءَ من النّاسِ سيعترِضُونَ على تحويلِ القِبلةِ هذا، وحينَئذٍ قُلْ لهم: إنه لا فَضْلَ لجهةٍ مُعيَّنةٍ في حدِّ ذاتِها بحيثُ يَتِمُّ اختيارُها قِبْلةً، وإنّما تعيينُ القِبلةِ أمرٌ يَتعلَّقُ باللهِ تعالى، والطريقُ المستقيم هو طريقُ ذلك الذي يتَّبعُ حُكمَ اللهِ تعالى، كما أنّ مالكَ المشرقِ والمغربِ هو اللهُ تعالى، وهو الذي يحدِّدُ إلى أيِّ اتِّجاهٍ تكونُ القِبلةُ، ولا يستطيعُ أحدٌ تحدِّيَ حُكمِ اللهِ تعالى.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾

٩٨ـ (أيَّتُها الأُمَّةُ المسلِمة) مثْلَما وفَّقناكُم إلى الصِّراطِ المستقيم فيما يَتعلَّقُ بموضوعِ القِبْلة، وقُمتُم أنتم بالاتِّباع الفَوْريِّ لحبيبي المُكرَّم ﷺ، فإنَّني قد جعَلتُكم خيرَ الأُمَم، وسُلوكُكم يُعَدُّ بمثابةِ المِعيارِ والنَّموذَجِ للنّاس جميعًا، وسيَثبُتُ ذلك عَمليًّا حينَ تُطيعونَ نبيَّ آخِرِ الزَّمان ﷺ بصِدق؛ لأنّ سُلوكَ حبيبي المُكرَّم ﷺ هو مِعيارُ الحقِّ بالنِّسبةِ لكم.

كما أنّ الكُفّارَ من الأُمَم السَّابقةِ حينَ يرَوْنَ مصيرَهم يومَ القيامة فإنّهم عندَئذٍ سيحاولونَ اختلاقَ الأعذارِ قائلين: يا الله، إنّ أحدًا لم يُبلِّغْنا رسالتَك. وعندَئذٍ ستَشهَدُ عليهم أُمَّةُ المصطفى ﷺ قائلينَ: يا الله، إنّ هؤلاءِ النّاسَ يكذِبون، فلقد أَبلَغَهم أنبياؤكَ عليهمُ السَّلامُ رسالتَك، ولكنْ حينَ يعترِضُ الكُفّارُ على هذا بأنّ المسلمينَ في ذلك

الوقتِ لم يكونوا موجودينَ أصلًا، فسوف يُجيبُهم المسلمونَ قائلين: يا الله، لقد أخبَرَنا حبيبُك المُكرَّمُ ﷺ أنّ رُسُلَك قد أدَّوْا رسالةَ الحقِّ وبَلَّغوها، وعليه سَيشهَدُ نبيُّ آخِرِ الزَّمان ﷺ على صِدق وعَدْلِ أُمَّتِه قائلًا: إنّ أُمَّتي صادقةٌ في شهادتِها.

إنّ النبيَّ ﷺ يَعرِفُ أحوالَ أُمَّتِه في هذه الدُّنيا أيضًا، وقد كَتَب سيِّدُنا الشاه عبدُ العزيز رحمه اللهُ في تفسيرِه يقول: «إنّ رسولَكم سَيشهَدُ عليكم؛ لأنّه يَعلَمُ ما هي درجةُ كلِّ مَن آمنَ بدِينِه، وما هو مقامُه، وما هي حقيقةُ إيمانِه، وما هو الحِجابُ الذي أوقَفَ تقدُّمَه فيه، أي: أنّه يَعرِفُ ذنوبَكم أيضًا، ويَعلَمُ جيِّدًا درَجاتِ إيمانِكم وأعمالِكم: الصَّالحةِ والسيِّئة، وكذا إخلاصُكم ونِفاقُكم»(١)؛ لأنّ النبيَّ ﷺ قال: **«عُرِضَت عَلَيَّ أُجورُ أُمَّتي حتَّى القَذَاةُ يُخرِجُها الرّجلُ من المسجد، وعُرِضَت عليَّ ذنوبُ أُمَّتي، فلم أرَ ذنبًا أعظمَ من سُورةٍ من القرآنِ أو آيةٍ أُوتِيَها رجلٌ ثمّ نَسِيَها»**(٢).

وفي موضعٍ آخَرَ، قال النبيُّ ﷺ **«إنّ للهِ ملائكةً سَيّاحينَ يُبلِّغُونَ عن أُمّتيَ السّلامَ». قال: وقال رسولُ الله ﷺ: «حياتي خيرٌ لكم تُحدِّثوني وأُحدِّثُ لكم، ووفاتي خيرٌ لكم تُعرَضُ عَلَيَّ أعمالُكم، فما رأيتُ من خيرٍ حَمِدتُ اللهَ عليه، وما رأيتُ من شرٍّ استَغفرتُ اللهَ لكم»**(٣).

فالشُّكرُ الجَزيلُ الذي لا حدَّ لهُ للهِ تعالى الذي خَلَقَنا من أُمّةِ نبيِّ الرَّحمةِ الكاملةِ ﷺ، فحينَ تحُلُّ بنا مصيبةٌ أو يَنزِلُ بنا خَطْبٌ يتألَّمُ لأَجلِنا ﷺ ﴿عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وحين نرتكبُ ذنبًا فإنّه ﷺ يستغفرُ لنا(٤)، ونحنُ اليومَ

---

(١) تفسير فتح العزيز.

(٢) جامع الترمذي، أبواب فضائل القرآن، باب ١٩ برقم ٢٩١٦.

(٣) مجمع الزوائد، ٩: ٢٤، البداية والنهاية، ٥: ٢٧٥، الجامع الصغير، ١: ٥٨٢.

(٤) مجمع الزوائد، ٩: ٢٤.

في حاجةٍ إلى أن تَتحلَّى الأُمَّةُ المسلمةُ بالحبِّ للنبيِّ ﷺ، مثْلَما يُحبُّها النبيُّ ﷺ.

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾

٩٩ ـ وهناك حِكمةٌ أخرى من وراءِ تحويل القِبْلة، وهي: أنْ يُعرَفَ مَن ذلك السَّعيدُ الذي سيُطيعُ النبيَّ ﷺ دونَ نقاشٍ أو جِدال، ومَن ذلك الذي سيُضيِّعُ الوقتَ في الجِدال، إذْ لم يكنْ تنفيذُ حُكمِ تحويلِ القِبْلةِ بالأمرِ السَّهلِ حينَذاك، ولكنَّه لم يكنْ أمرًا صعبًا بالنسبةِ لأولئك الذين هَدَى اللهُ.

﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾

١٠٠ـ لقد فكَّرَ بعضُ الصَّحابةِ الكرام فيما سيكونُ من أمرِ الصَّلَواتِ التي أدَّوْها متَّجِهينَ بالقِبْلةِ إلى المسجدِ الأقصى، وفي هذه الآيةِ يُطَمئنُهم اللهُ تعالى بأنّ هذه الصَّلواتِ أيضًا كانت لرِضا اللهِ تعالى، واللهُ تعالى هو الذي حدَّد تلكَ القِبْلةَ أيضًا، ولهذا فإنّ أجرَ هذه الصَّلواتِ لن يَضِيع.

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾

١٠١ ـ لقد جَعَل اللهُ الكعبةَ الحرامَ قِبْلةً للمسلمينَ، تحقيقًا لرغبةِ النبيِّ ﷺ، وكان النبيُّ ﷺ في ذلك الوقتِ يؤدِّي صلاةَ الظُّهرِ بالنّاسِ جماعةً في مسجدِ بني سَلِمةَ، وبعدَ ركعَتيْنِ من الصَّلاةِ نَزَل الأمرُ بتحويل القِبْلة، فاستدارَ النبيُّ ﷺ وهو في الصَّلاةِ تُجاهَ الكعبةِ بدَلًا من المسجدِ الأقصى، ولم يكنْ قد سَبَق الإعلانُ عن ذلك من قَبْلُ، ولكنِ انظُرْ مدى الطاعةِ الكاملةِ من الصَّحابةِ الكرام رضوانُ اللهِ عليهم للنبيِّ ﷺ، فما أنِ اتَّجَه النبيُّ ﷺ بوجهِه المُنيرِ إلى الكعبة، حتى حَوَّلَ الصَّحابةُ جميعًا وجوهَهم شَطْرَ الكعبة، اتِّباعًا لرسولِ الله ﷺ، ومنذُ ذلك الوقتِ عُرِف هذا المسجدُ (مسجدُ بني

سَلِمَةَ) بمسجدِ القِبْلتَيْنِ، وما أنْ وَصَل هذا الحُكمُ إلى المساجدِ الأخرى في المدينة، والتي كانتِ الصَّلاةُ تؤدَّى فيها في ذلك الوقتِ، حتى حوَّل الصَّحابةُ الكرامُ جميعًا وجوهَهم شَطْرَ الكعبةِ المشرَّفةِ على الفَوْر.

ولكي نَعرِفَ مدى رِفعةِ مقام المصطفى ـ عليه التَّحيَّةُ والثَّناءُ ـ حقَّ المعرفة، علينا أن نتدَبَّـرَ هذه الآيةَ ثانيةً، فإنّ أُمنِيَّةَ تحويلِ القِبْلة تتولَّدُ في أعماقِ القلب، والأنظارُ تتَّجهُ إلى السَّماءِ أملًا في تحقُّقِ هذه الأُمنِيَّةِ، رَغْمَ أنّ رَفْعَ الأنظارِ إلى أعلى أثناءَ الصَّلاةِ ممنوعٌ بشِدَّة، ولكنّ هذا التصرُّفَ من الحبيبِ المكرَّم ﷺ أحبَّه اللهُ كثيرًا، حتّى جَعَلَه جزءًا من القرآنِ الكريم، وهنا تفورُ رحمةُ الله تعالى، ويَنزِلُ الوعدُ بتحويلِ القِبْلة، وفي هذا الوعدِ تأكيدٌ أيضًا، أي: أنّ القِبْلةَ سيتمُّ تحويلُها تأكيدًا، وفي نفسِ الوقتِ مراعاةً لما يتَمنّاه النبيُّ ﷺ، أي: ستكونُ القِبلةُ هي التي أرادَها النبيُّ ﷺ.

وكان من الممكنِ أن يتمَّ تأخيرُ تحقيقِ الوعدِ إلى الصَّلاةِ التالية، حتى يمكنَ الإعلانُ بشكلٍ واضح عن تحويلِ القِبْلة، لكنّ اللهَ تعالى لم يُحبَّ أن يؤخِّرَ تحقيقَ ما يتمنَّاهُ النبيُّ ﷺ، ونَزَل الحُكمُ فورًا أن يتمَّ إكمالُ صلاتي فيما بعدُ، ولكنْ أولًا يتحقَّقُ ما يتمنَّاهُ الحبيبُ ﷺ، وهكذا، وبعدَ ركعتَيْنِ، وأثناءَ الصَّلاة، حوَّلَ النبيُّ ﷺ وجهَه إلى الكعبةِ المشرَّفة، ومن بعدِه حوَّلَ الصَّحابةُ الكرامُ وجوهَهمُ اتِّباعًا له ﷺ، وخلالَ كلِّ هذا لم يحدُثْ أيُّ خَلَل في الصَّلاة، بل إنّ العمَلَ بما تمنَّاهُ النبيُّ ﷺ صار جُزءًا من الصَّلاة، والآنَ، كيف يُمكنُ للإنسانِ أن يُبيِّنَ هذه الرِّفعةَ في درجاتِ النبيِّ ﷺ؛ حيث يكونُ فيها الخالقُ الحقيقيُّ طالبًا لرضا الحبيبِ ﷺ؟

*** العالَمين يتمنَّوْنَ رضا الله، واللهُ يتمنّى رضا محمدٍ (ﷺ).**

﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾

١٠٢ـ من بينِ صفاتِ النبيِّ ﷺ والتي ذكَرَتْها الكتُبُ السَّابقةُ: صفةٌ تقولُ: إنّ

النبيَّ ﷺ سيكونُ إمامَ القِبْلتَيْن[١]، ولهذا فإنّ أهلَ الكتابِ على يقينٍ من أنّ تحويلَ القِبْلةِ حقٌّ، ودليلٌ على صِدقِ النبيِّ ﷺ، لكنّ التعصُّبَ رَكِبَهم، وأظهَروا تعنُّتًا شديدًا، وبالتالي فإنّه مهما يُقدِمْ إليهم من دلائلَ فإنّهم سيظلُّونَ محرومينَ من الهداية.

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

١٠٣ ـ الظاهرُ أنّ الخطابَ في هذه الآيةِ للنبيِّ الكريم ﷺ، لكنَّه ـ في الأصل ـ تنبيهٌ للأُمَّةِ بأنّه لوِ اتَّبعَ أحدٌ أهلَ الكتابِ بالمخالفةِ لحُكمِ الله تعالى فإنّه سيكونُ ظالمًا[٢].

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾

١٠٤ ـ كما أنّ أهلَ الكتابِ يَعرِفونَ أبناءَهم، فإنّهم ـ كذلك ـ يَعرِفونَ النبيَّ ﷺ، لكنَّهم يُخفُونَ الحقَّ عامِدينَ بسببِ تعصُّبِهم، وعندما دَخَل أحدُ علماءِ اليهودِ في الإسلام ـ وهو: عبدُ الله بنُ سَلَام ـ سألهُ سيِّدُنا الفاروقُ رضيَ اللهُ عنه قائلًا: **إنّ اللهَ قد أنْزَلَ على نبيِّه: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ الآيةَ، فكيف هذه المعرفةُ؟ فقال عبدُ الله رضيَ اللهُ عنه: يا عُمر! لقد عَرَفتُه حين رأيتُه، كما أعرِفُ ابني، ومعرفتي بمحمّدٍ ﷺ أشدُّ من معرِفتي بابني. فقال عُمَرُ رضيَ اللهُ عنه: وكيف ذلك؟**

---

(١) تفسير روح المعاني.

(٢) الخطاب للنبي ﷺ، والمراد أمّته ممن يجوز أن يتّبع هواه فيصير باتباعه ظالمًا، وليس يجوز أن يفعل النبي ﷺ ما يكون به ظالمًا؛ فهو محمول على إرادة أمّته لعصمة النبي ﷺ، وقطعنا أنّ ذلك لا يكون منه. وخوطب النبي ﷺ تعظيمًا للأمر، ولأنّه المنزّل عليه. تفسير القرطبي، المجلد ١، سورة البقرة (٢): الآية ١٤٥.

فقال: أشهدُ أنّه رسولُ الله حقًّا، وقد نَعَتَه الله في كتابِنا، ولا أدري ما يصنَعُ النّساءُ. فقال عُمر: وفَّقك اللهُ يا ابنَ سلَام، فقد صدقتَ، فقبَّل رأسَه[1].

﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾

١٠٥ ـ الظاهرُ أنّ الخطابَ في هذه الآيةِ للنبيِّ ﷺ، لكنّ الأصلَ أنّه تأكيدٌ للأُمَّةِ بأنّ رسالةَ النبيِّ ﷺ حقّ، ولهذا يجبُ أن لا تخدَعنا مُؤامراتُ اليهودِ وتُوقِعَنا في الشَّكّ.

وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾

١٠٦ ـ لكلِّ أُمَّةٍ جهةٌ معيَّنةٌ تَتَّجِهُ إليها في عباداتِها، وبنفسِ الطريقةِ جَعَل اللهُ تعالى الكعبةَ المشرَّفَة قِبلةً للأُمَّةِ المسلمة، ولكنّ الخلافَ ليس فيما يتعلَّقُ بالجهةِ التي نتّجِهُ إليها، وإنّما الأصلُ هو أنْ نجتهدَ في الأعمالِ الصَّالحة، ونحاولَ التقدُّمَ في أعمالِ الخير، حتى يرضَى اللهُ تعالى عنّا، لأنّنا ـ في نهايةِ الأمر ـ سنَمثُلُ بيْنَ

---

(١) البحر المحيط فى التفسير، أبي حيّان الأندلسي، الجزء ٢، سورة البقرة (٢): الآية ١٤٦، تفسير الحسنات.

يدَي اللهِ تعالى، وهو القادرُ على بَعْثِنا وجَمْعِنا يومَ القيامة، ولن يكونَ السُّؤالُ في ذلك اليوم عن الجهةِ التي كانتِ القِبْلةُ إليها، وإنّما سيكونُ السُّؤالُ إلى أيِّ مدًى اتَّبعْنا أحكامَ اللهِ تعالى.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾

١٠٧ ـ لم يكنِ الحُكمُ بتحويلِ القِبْلة أمرًا عاديًّا، ولهذا تكرَّرَ هذا الحُكمُ ثلاثَ مرَّاتٍ نظرًا لأهميَّتِه، وحتّى لا يبقَى فيه شكٌّ لدى أحدٍ، إلّا أنّ الظَّالمينَ سيَعترِضُونَ قائلينَ: أيُّ دينٍ هذا الإسلامُ، هذا الذي تتغَيَّرُ فيه القِبْلةُ من جهةٍ إلى أخرى؟ ولكنْ، لا يُخيفُكم هذا كلُّه، وإنّما يجبُ عليكم الخوفُ منَ اللهِ تعالى فقطْ، حتّى يزيدَ من نِعَمهِ عليكم.

﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾

١٠٨ ـ لقد تفضَّلَ اللهُ تعالى على المسلمينَ كثيرًا، ومن هذه الأفضالِ: فَضْلٌ عظيمٌ يتمثَّلُ في ذاتِ النبيِّ ﷺ الذي يَتْلو عليهم آياتِ القرآنِ المَجيد، ويُطهِّرُهم من الشِّركِ والذُّنوب، ويُعلِّمُهم الكتابَ والحِكمةَ، ويُعلِّمُنا ما لم نكنْ نَعلَمُ، ولمزيدٍ من الاطِّلاع على شَرْحٍ لهذه الآية راجعْ حاشيةَ رقم ٨٦ في هذه السُّورة.

﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾

١٠٩ـ إذا لم يَذكُرِ العبدُ الضَّعيفُ، الذي تفضَّلَ عليه اللهُ تعالى بنِعَمِه التي لا تُحصَى، ربَّه، فماذا يفعَلُ إذًا! إنّ ذِكْرَ اللهِ تعالى فَرْضٌ عليه، ولا بدَّ أن يؤدِّيَ هذا الفَرْضَ على أيِّ حال، ومعَ ذلك، فإنّ سُحُبَ الكرَم التي تُمطِرُ على العبدِ تذكيرًا له،

لا يمكنُ أن تَصدُرَ إلّا عن اللهِ تعالى، أي: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾، فهل يمكنُ أن يكونَ هناك تكريمٌ للعبدِ أكبرَ من أن يُنعِمَ اللهُ تعالى عليه بذِكرِه له؟

وهذه لؤلؤةٌ أُخرى من بحرِ كرَمِه الزَّاخِرِ على عبادِه، جاءت في شكلِ الحديثِ القُدُسيِّ التالي: **«أنا عندَ ظنِّ عَبْدي بي، وأنا معَه اذا ذَكَرني، فإنْ ذَكَرني في نفسِه ذَكَرتُه في نفسي، وإنْ ذَكَرني في ملأٍ ذكرتُه في مَلأٍ خيرٍ منهم، وإنْ تقرَّبَ اليَّ بشِبرٍ تقرَّبتُ اليه ذراعًا، وإنْ تقرَّبَ إليَّ ذراعًا تقرَّبتُ إليه باعًا، وإنْ أتاني يمشي أتَيْتُه هَرْولةً»**[1].

هذا هو الفَضْلُ والكَرَمُ الذي لا يُمكنُ التعبيرُ عنهُ بالكلمات، وهذا هو أسلوبُ الترغيبِ الذي ليس في مقدورِ بشَرٍ أن يأتيَ بمِثلِه، وهذا هو الوعدُ الذي لا يتطرَّقُ الشكُّ إليه. لقد رأى تاريخُ الإنسانيّةِ ذلك الوقتَ الذي ذَكَر فيه المسلمونَ اللهَ تعالى فذَكَرَهمُ اللهُ تعالى أيضًا، وعليه سادَ المسلمونَ العالَمَ كلَّه وذاع صِيتُهم فيه، ثُم جاء وقتٌ نَسِيَ فيه المسلمونَ ربَّهم، فنَسِيَهم اللهُ تعالى أيضًا، ومَن ينساهُ اللهُ تعالى يكونُ مصيرُه نفسَ المصيرِ الذي نُواجِهُه اليومَ، فليْتَنا نُعيدُ قراءةَ هذا الإرشادِ الرَّبّانيِّ بقلوبِنا وعيونِنا ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾.

ذاتَ مرَّة، قال سيِّدُنا أبو عثمانَ رحِمَه الله: إنِّي أعرِفُ الوقتَ الذي يَذكُرُني فيه اللهُ تعالى، فسألَه النّاسُ في دَهْشةٍ: كيف تعرِفُ هذا؟! فقال: لقد وَعَدَ اللهُ تعالى بهذا في هذه الآية، ولذا فإنّه كلَّما ذَكَر أحدٌ من أهلِ الإيمان اللهَ تعالى، عليه أن يكونَ على يقينٍ من أنّ خالقَه ومالكَه يَذكُرُه في ذاتِ الوقت، ويزدادُ اللُّطفُ والمُتعةُ بذِكرِ اللهِ من هذا اليقين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ ١٥٤ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب ١٥ برقم ٧٤٠٥.

ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾

١١٠ - إنّ كلَّ إنسانٍ في هذه الحياةِ الفانيةِ يُواجِهُ المصاعبَ والمصائب، وفي بعضِ الأحيان ييْأَسُ الإنسانُ فينتحرُ أو يَسلُكُ طريقَ الظُّلم، لكن الإسلامَ يُلقِّنُ مثلَ هذا المصابِ الصَّبرَ والصَّلاة؛ لأنه إنْ صَبَر على المصائبِ، عاملًا بحُكم اللهِ تعالى، فإنّ عَوْنَ اللهِ ومدَدَه يُظِلّانه، وحينَ يطرُدُ كلَّ مشاكلِ الدُّنيا من عقْلِهِ وفِكرِه، ويَخِرُّ ساجدًا للهِ تعالى، فإنّ الرَّحمةَ الإلهيَّةَ ستفتحُ أبوابَ الأملِ أمامَه، وقد جاء في الحديثِ الشَّريف، أنّ النبيَّ ﷺ كان يَلجأُ إلى الصَّلاة كلَّما واجَهَ أزمةً(١).

﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ ﴾

١١١ - لقدِ استُشهِدَ العديدُ من المسلمينَ في غزوةِ بَدْر، وتأسَّفَ بعضُ النّاسِ على فُقْدانِهم، باعتبارِ أنّهم قُتِلوا فحُرِموا من مُتَعِ الحياة، وعندَئذٍ نزَلتْ هذه الآية،

(١) قال حذيفة رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ اذا حزبه أمرٌ صلّى. مسند أحمد ٥: ٣٨٨.

لتُرشِدَنا إلى أنّ مَن يُضحّي بحياتهِ الفانيةِ من أَجْلِ رِفعةِ الإسلام، فإنّ اللهَ تعالى يُنعِمُ عليه بحياةٍ طاهرةٍ مخصُوصةٍ يَعجِزُ شعورُنا عن إدراكِها، ولهذا لا تقولوا عنهم أمواتًا، كما أنّ الشُّهداءَ لا يُغسَّلُونُ ولا يُكفَّنُونَ، لأنّ الشَّهادةَ قد طَهَّرت أجسامَهم وملابَسهم أيضًا.

وانظُرْ إلى هذا الحديثِ الشَّريفِ الذي يُمجِّدُ عَظَمةَ الشُّهداء. يقولُ النبيُّ الكريم ﷺ: «**ما أَحَدٌ يَدخُلُ الجنَّة، يحبُّ أن يَرجِعَ الى الدُّنيا، وله ما على الأرض من شيءٍ الّا الشَّهيدَ، يتمنَّى أن يَرجِعَ إلى الدُّنيا فيُقتَلَ عشْر مرّاتٍ، لِما يَرى من الكَرامة**»(١).

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴾

١١٢ ـ إنّ أولئك الذين يتوجَّهونَ إلى اللهِ تعالى، مالكِهمُ الحقيقيِّ وقتَ الشِّدَّة، ويتَّخذونَ طريقَ الصَّبرِ لهم طريقًا، هم السُّعَداءُ الذين يُنزِّلُ اللهُ تعالى عليهم رَحَماتِه الخاصَّة.

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾

١١٣ـ لقد سَعَتِ السيِّدةُ هاجَر، بينَ الصَّفَا والمَرْوة، بحثًا عن الماءِ لابنِها سيِّدِنا إسماعيلَ عليه السَّلام، وقد أحبَّ اللهُ تعالى من أَمَتِه هاجَرَ هذا السُّلوكَ، فجَعَلَ السَّعيَ بينَ الصَّفا والمَرْوةِ جزءًا لا يتجزَّأُ من الحجِّ والعُمرة، وكان الكفَّارُ في عَصْرِ الجاهليَّةِ يعبُدونَ الأصنامَ على الصَّفا والمَرْوة، ولذا فقد ثَقُل على بعضِ المسلمينَ ما رأَوْهُ من تعظيم لهذَيْنِ الجَبَلَيْنِ؛ لأنّ فيه بعضَ التشابُه مَع الأفعال الشِّركيَّةِ للكفَّار، وعليه أنْزَلَ اللهُ تعالى هذه الآيةَ لطَمْأَنتِهم، حتى لا يَتصوَّرَ المسلمونَ في أذهانِهمُ الأصنامَ، وإنّما يَسِيرونَ على سُنّةِ السيِّدةِ هاجَرَ، ويَسْعَوْنَ بينَ الصَّفا والمَرْوةِ

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب ٢١ برقم ٢٨١٧.

لرضى اللهِ تعالى فقطْ، ورَغْمَ أنّ الكفّارَ كانوا يضَعونَ الأصنامَ في الكعبة، لكنّ هذا لم ينقُصْ من عَظَمةِ الكعبةِ شيئًا، ولا يزالُ المسلمونَ يطُوفونَ بها.

إنّ الصَّفا والمَرْوةَ من آياتِ اللهِ تعالى، والسَّببُ الحقيقيُّ في تعظيمِهما لا يَعلَمُه إلّا اللهُ تعالى، ولكنّ الظاهرَ هو أنّ تعظيمَ هذَيْنِ الجَبَلَيْنِ يعودُ إلى أنّ السيِّدةَ هاجَرَ قد وَضَعتْ قدمَيْها الطاهرتَيْنِ عليهما، فإنْ كان هذا السَّببُ صحيحًا فعلًا فمنَ الأَجْدرِ إذًا أن تكونَ كلُّ الأماكنِ التي وَطِئها الأنبياءُ الكرامُ عليهمُ السَّلامُ بأقدامِهم الشَّريفة، أو دُفِنت فيها أجسادُهم الطَّاهرة، من آياتِ الله، ومن حُسنِ الطَّالع أنَّني أكتُبُ تفسيرَ هذه الآيةِ الكريمة وأنا أجلسُ في المسجدِ الأقصى بفِلَسطينَ[1]، وهو من آياتِ الله العُظمَى؛ حيث شارَكَ في بنائهِ عديدٌ من الأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلامُ، وقد أَمَّ نبيُّ آخِرِ الزَّمانِ سيِّدُنا محمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ الأنبياءَ جميعًا في الصَّلاةِ بهذا المسجدِ ليلةَ المعراج.

ولكنّ من سُوءِ الطالع أنّ هذا المسجدَ يقَعُ في قَبْضةِ اليهودِ في هذا الوقت، ويقفُ على كلِّ بابٍ من أبوابه دائمًا جنودٌ يهودٌ مسلَّحون، ولا يمكنُ دخولُ المسجدِ إلَّا بإذْنِهم، وندعو اللهَ تعالى أن يتَّحِدَ المسلمونَ في العالَم، ويُكوِّنوا وحدةً مشتركةً وجيشًا مشتركًا، ويُحرِّروا القُدسَ ثانية، عملًا بسُنَّةِ الصَّحابةِ الكرام رضوانُ اللهِ عليهم أجمعين، آمين.

﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾

١١٤- إنّ كلَّ عَملٍ صالحٍ يقومُ به الإنسانُ، سواءٌ كان فَرْضًا أم نَفْلًا، وسواءٌ كان صغيرًا أم كبيرًا، فإنّ اللهَ تعالى يَأجُرُه على هذا العمَل، ولا يُضِيعُ العمَلَ الصَّالحَ أبدًا، بل إنه في يومٍ من الأيام لا بدَّ أن يُثمِرَ وتَظهرَ ثمارُه.

---

(١) المسجد الأقصى - فلسطين - بعد صلاة فجر يوم الجمعة المبارك الأول من شهر ذي القعدة عام ١٤٢١هـ الموافق ٢٦ يناير عام ٢٠٠١م.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾

١١٥ـ تتحدَّثُ هذه الآيةُ عن علماءِ بني إسرائيلَ، الذين أخفَوْا عَظَمةَ نبيٍّ آخِرِ الزَّمانِ سيِّدِنا محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وأنكروها، وحَرَّفوا الأحكامَ الإلهيَّةَ طِبقًا لرغَباتِهم، ومن الظَّاهرِ أنّ أمثالَ هؤلاءِ العلماءِ يستحِقُّونَ نارَ جهنَّم، ولو قام أحدُ العلماءِ في أيّامِنا هذه وأخفَى أفضالَ النبيِّ ﷺ وأنكَرها، وحرَّفَ أحكامَ الشَّريعة، فإنّ حُكمَه هو نفْسُ الحُكم السَّابقِ أيضًا، لكنَّه إنْ تابَ توبةً صادقةً فإنّ اللهَ رحيمٌ دائمًا.

إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾

﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾

١١٦ـ جاء الإعلانُ بتوحيدِ الله تعالى في الآيةِ الأُولى بأنّه الواحدُ الذي لا يستحِقُّ العبادةَ سواه، وفي هذه الآيةِ جاء ذِكرٌ للأدِلّةِ الواضحةِ يسيرةِ الفَهْم على التوحيدِ الإلهيِّ، وهي الأدِّلةُ التي نُشاهدُها كلَّ يوم بأنفُسِنا، يعني: خَلْقَ السَّماءِ والأرض، وتعاقُبَ اللَّيل والنَّهار، ونُورَ الشَّمس والقمر، وماءَ المطر، ويُنوعةَ الزُّروع

في الأرض، والنُّظُمَ والضَّبطَ الذي لا مثيلَ له في الكائناتِ كلِّها، كلُّ هذه دلائلُ واضحةٌ تدُلُّ على خالقٍ واحدٍ حقيقيٍّ(١).

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا ﴾

١١٧- إنّ الأحمقَ الذي لا يتمَعَّنُ في هذه الدَّلائلِ الواضحة، ويترُكُ خالقَه الحقيقيَّ لِيسبِّحَ بحَمْدِ محبَّةِ الأصنام والزُّعماءِ المزيِّفِين، سيعترفُ مضْطَرًّا يومَ القيامة بقُدرةِ اللهِ تعالى حين يَرى عذابَه، لكنّ اعترافَه في ذلك الوقتِ لن يُجْديَ شيئًا، ليتَه آمَنَ بخالقهِ الحقيقيِّ في هذه الدُّنيا.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾

١١٨- إنّ حُبَّ الإنسانِ لوالدَيْهِ وأهلِهِ وعيالِهِ، وكذا المالُ والجاهُ، لَهو أمرٌ فِطْريٌّ، والإسلامُ يحُضُّ على حبِّها، ولكنّ حُبَّ المؤمنِ للهِ تعالى أكبرُ وأشَدُّ.

وحِكمةُ هذا أنه عندَما تقفُ محبَّةُ هذه الأشياءِ عَقَبةً في طريقِ طاعةِ اللهِ تعالى، فإنّ حُبَّ المؤمنِ لله يَغلِبُ عليه، فيتَّجِهُ بكلِّ رغبةٍ إلى إطاعةِ اللهِ تعالى دونَ أن يُباليَ بحبِّهِ لكلِّ هذه الأشياءِ السَّابقة، كما أنّ حُبَّ المؤمنِ للأنبياءِ عليهم السَّلام، وآلِ بيتِ النبيِّ الكرام، والصَّحابةِ العِظام، والصَّالحينَ رضوانُ اللهِ عليهم جميعًا، جزءٌ من الإيمان، وحُبُّ المؤمنِ لكلِّ هؤلاءِ يُرسِّخُ حُبَّ اللهِ تعالى في قلبِه ويزيدُه.

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ ﴾

١١٩- يومَ القيامة ستُعلِنُ الأصنامُ وزُعماءُ المشركينَ الكذّابونَ براءتَهم من متَّبِعيهم، وعندَئذٍ سيقولُ أتباعُ الآلهةِ الزّائفة: ليتَنا نُعادُ إلى الدُّنيا مرةً أخرى، لكنّا

(١) انظر كتاب «العقائد الإسلامية» لهذا العبد المتواضع لمزيد من العلم بالأدلة العقلية على التوحيد الإلهي.

أعلنَّا نحن أيضًا تبرُّؤنا منهم، لكنّ هذه الدُّنيا كلَّها ستفنَى قبلَ يوم القيامة، فكيف سيعودونَ إليها إذًا! ولهذا سيظَلُّ هؤلاءِ الظَّالمونَ يندَمُونَ على أعمالِهم الدُّنيويَّة، وسيظَلُّونَ يُحرَقُونَ بنارِ جهنَّم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿١٧٦﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾

١٢٠ـ المرادُ بالحلال: تلك الأشياءُ التي لم تُحرِّمها الشَّريعةُ، والمرادُ بالطيِّبِ: تلك الأشياءُ الجيِّدةُ التي لا تكونُ قَذرةً ولا عَفِنةً.

إنّ الرُّوحانيَّةَ لدى الإنسانِ تكون أقوى بأكْلِ الحلال، ولا تتأثَّرُ صحّةُ الإنسانِ الجِسْمانيَّةِ بالآثارِ السَّلبيَّةِ بفَضْل أكلِ الطيِّب.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

١٢١ـ إنّ الشَّيطانَ عدُوٌّ صريحٌ للإنسان، ولهذا على الإنسانِ أن يتجنَّبَ اتِّباعَ الشَّيطان؛ لأنّ الشَّيطانَ يدعو الإنسانَ إلى السُّوءِ والفحشاء، ويُرغِّبُهُ في أن ينسُبَ إلى اللهِ تعالى الكذِبَ.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾

١٢٢ـ لو كان الآباءُ والأجدادُ مهتدِينَ فإنّ اتّباعَهم والاقتداءَ بهم هو سُنَّةُ الأنبياءِ الكرام والصَّالحين، وسيأخُذُ بيدِ الإنسانِ إلى الجنَّة، أمّا إن كان الآباءُ والأجدادُ من الضَّالِّين، فإنّ اتِّباعَهم والاقتداءَ بهم ـ عندَئذٍ ـ هو خُدعةٌ من الشَّيطان، وسيأخُذُ بيدِ الإنسانِ إلى جهنَّم.

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾

١٢٣ـ إنّ مَثَلَ الكفَّارِ كمَثَلِ الحيَواناتِ التي تسيرُ خلفَ راعيها وتتحرَّكُ طِبقًا لصوتهِ (لأوامره) دونَ فَهْمٍ أو تفكيرٍ منها، فحينَ يُدعَى هؤلاءِ الكفَّارُ إلى الحقِّ يبدو وكأنّ الدَّعوةَ موجَّهةٌ إلى مجرَّدِ حيَواناتٍ لا تسمعُ سوى الصَّوتِ فقطْ، لكنَّها لا تَعقِل، وبالتالي فإنّ وَضْعَ الكفَّارِ هكذا كمَثَلِ الصُّمِّ الذين لا يَملِكونَ الشَّجاعةَ على سَماع القولِ الصَّادق، إنّهم بُكْمٌ ليست لديهِم الشَّجاعةُ على قولِ الحقِّ، وإنّهم عُمْيٌ لا يجرُؤون على رؤيةِ الحقِّ، وهم أيضًا لا عَقْلَ لهم فلا يحاولونَ فهْمَ الحقِّ.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾

١٢٤ـ في هذه الآية جاء ذِكْر أربعةِ أشياءَ محرَّمةٍ هي:

(١) المَيْتةُ، وهي: ذلك الحيَوانُ الميِّتُ الذي لم يُذبَحْ بطريقةٍ شَرْعيةٍ.

(٢) الدَّمُ المسفوح.

(٣) الخِنزير.

(٤) ذلك الحيَوانُ الذي لم يُذكَرِ اسمُ الله عليه عندَ ذَبْحِه، أو أنه ذُبِح لغيرِ الله تعالى، فإنّ تناوُلَ لحم مِثْلِ هذا الحيَوانِ حرام، أمّا إنْ ذُبِح باسم اللهِ تعالى، ولم يُقصَدْ من وراءِ ذَبْحِهِ عبادةُ غيرِ الله، فإنّ تناوُلَ لحم مِثْلِ هذا الحيَوانِ حلال، حتى وإن كان صدقةً أو عقيقةً أو وَليمةً أو أُضحِيَةً، أيًّا كان الاسمُ الذي يُطلَقُ عليها بغَرَضِ إيصالِ الثواب.

﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ﴾

١٢٥ـ إذا اضْطُرَّ شخصٌ وتعرَّضتْ حياتُه للخَطَر بسببِ الجُوعِ، فيُمكنُه أن يأكُلَ من هذه الأشياءِ المحرَّمةِ بقَدْرِ حاجتِه، حتى يستطيعَ الحِفاظَ على حياتِه، وسوفَ يَغفِرُ اللهُ له هذا بسببِ اضْطِرارِه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾

١٢٦ ـ رَغْمَ أنّ نزولَ هذه الآيةِ كان متعلِّقًا باليهود، لكنْ إذا كانت هناك أُمَّةٌ في أيّامِنا هذه تُخفي الأحكامَ التي أنْزَلَها اللهُ تعالى وتُنكِرُها، وفي مقابلِ ذلك تَحصُلُ على النَّفع الدُّنيَويِّ، فإنّ جزاءَها أيضًا هو هذا؛ أي: أنّها ستُحرَمُ من رحمةِ الله تعالى وتَستحِقُّ عذابَه، وذلك لأنَّها اختَلَفت في الأحكام الإلهيَّةِ عامدةً متعمِّدة، واشتَرتِ الضَّلالَ بالهداية. إنّه لَأمرٌ محيِّر، أيُّ شيءٍ ذلك الذي جَعَلَه يترُكُ الجنَّةَ ويَصبِرُ على عذابِ النار؟

۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾

﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾

١٢٧ـ لقد عَيّنَ اللهُ تعالى جهةً ما لكلِّ أمَّةٍ تتَّجهُ إليها في صلاتِها، حتى تظَلَّ المركزيَّةُ والاجتماعيَّةُ قائمةً لديها، ولكنّ البِرَّ ليس أن يتَّجِهَ الإنسانُ في صلاتِه إلى جهةِ المشرقِ أو المغرِبِ فقطْ، صحيحٌ أنّ هذا أيضًا بِرٌّ، ولكنّ أصلَ البرِّ هو اتِّباعُ أحكام اللهِ كلِّها، بمعنى: أنّ الإنسانَ ـ بالتزامِه بالعقائدِ والمعامَلاتِ والأخلاقيَّاتِ والعباداتِ التي ذُكِرتْ في هذه الآية ـ يستحِقُّ أنْ ينالَ أصلَ البِرّ.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ﴾

١٢٨ـ كان العربُ قبْلَ الإسلام إذا قُتِلَ منهم أحدٌ فإنّ وَرثَته كانوا يقومونَ بقَتْلِ العديدِ من الأبرياءِ من أهلِ القاتل أيضًا، وبنفْسِ الطَّريقةِ إذا قَتَل عبدٌ حُرًّا فإنه كان يُقتَصُّ من رجُلٍ حرٍّ بدَلًا من الاقتصاصِ من العبدِ القاتلِ، وهو أمرٌ في

غاية الظُّلم من أوّلِه إلى آخِرِه، ولهذا فإنّ القرآنَ الكريمَ أمَرَ بوَقْفِ هذا التقليدِ والقضاءِ عليه، وأمَرَ بأنْ يُقتَصَّ من القاتلِ فقطْ، سواءٌ كان رجُلًا أم امرأةً، وسواءٌ كان عبدًا أم حُرًّا، لكنّ الحقَّ في القِصَاصِ في الإسلام وإقامةِ الحدودِ الأخرى يكونُ للحكومةِ القائمة فقَطْ، ولا يحِقُّ لأيِّ إنسانٍ أن يقومَ هو بتنفيذِ القانون.

﴿فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ﴾

١٢٩ـ إنّ القاتَل حينَ يَقتُلُ يقومُ بقَطْع كلِّ أواصرِ المحبَّةِ والوُدّ، وبالتالي لا يستطيعُ وَرَثةُ المقتولِ أن يَقبَلوا ببقائه حيًّا، وغَضَبُهم أيضًا ليس بدونِ سبب، لكنّ القرآنَ الكريمَ ـ باستعمالِه لفظَ (أخٍ) للقاتل ـ ذكَّر وَرَثةَ المقتولِ الغاضبينَ بأنّ القاتلَ مُجرِمٌ بالتأكيد، لكنّه ـ في نهايةِ الأمر ـ أخوكم في الإسلام، ولذا فإنْ أخَذتُم عِوَضًا (دِيَةً) عن المقتول، أو لم تأخُذوا عِوَضًا وعَفَوتُم عن أخيكم المُخطِئ، فإنّ هذا سيكونُ فضلًا منكم، وبالتالي سيعودُ الأمنُ والوِئامُ من جديدٍ بيْنَ العائلتَيْنِ (عائلةِ القاتلِ وعائلةِ المقتول).

﴿فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖ﴾

١٣٠ـ فإنْ رَضِيَ وَرَثةُ المقتولِ بالعِوَض عن القَتْل (الدِّيةِ)، وتَركوا القِصَاصَ (القَتْلَ بدَلًا من القَتْل)، فإنّ عليهم حينَئذٍ أن يَطلُبوا الدِّيةَ بطريقٍ حَسَن، وعلى القاتل أيضًا أن يُقدِّرَ هذا الإحسانَ والفَضْلَ من هؤلاءِ الوَرَثة، ويؤدِّي إليهمُ الدِّيةَ المتَّفقَ عليها عن طِيبِ خاطر وفي أسرع وقتٍ مُمكن؛ لأنّ هذا رعايةٌ وتخفيفٌ من الله تعالى ورحمةٌ خاصَّةٌ منه.

﴿ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾

١٣١ـ وإذا اعتَدَى أحدٌ بعدَ أن يتَصالحَ الفريقانِ، أي: بعدَ أن يَعفُوَ وَرَثةُ

المقتولِ عن القَتْل، ويأخُذوا الدِّيَة، ثم يقومونَ - برَغْم ذلك - بقَتْلِ القاتل، فإنّهم عندَئذٍ يستحِقُّون القَتْلَ في الدُّنيا، ولهم في الآخِرةِ عذابٌ أليم.

﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾

١٣٢- في القِصَاصِ حياةٌ للمجتمع كلِّه، ولو قُتِلَ قاتلٌ قِصَاصًا مِن قَتْلِه لغيرِه لَما تجرَّأَ مجرمٌ آخَرُ على ارتكابِ جريمةِ القَتْل حينَ يَرى نهايتَه السيِّئةَ، وبهذِه الطريقة فإنَّنا - بقَتْل قاتلٍ واحد - نُنقذُ أرواحًا بريئةً لا حَصْرَ لها من القَتْلِ والتَّدمير، وفي نفسِ الوقت نَرى أنّ معدّلَ جرائم القَتْل والنَّهب والسَّلبِ في البلاد التي أَلْغَتْ عقوبةَ الإعدام في تزايُدٍ مستمرٍّ، وذلك لأنّهم - بإنقاذِهم لمُجرمٍ واحدٍ قاتل - (يستحِقُّ القَتْل) - يضَعُونَ أرواحًا بَريئةً كثيرةً في معرِض الخَطَر.

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾

١٣٣- كان السائدُ عندَ العربِ أنَّهم يُوصُونَ لمَن يشاءون، ولا يُفرِّقونَ في هذا بيْنَ قريبٍ وغريب، أو بيْنَ غنيٍّ وفقير، وإذا لم تُتَحْ للعربيِّ فُرصةُ الوصِيَّةِ فإنّ أبناءه - في الغالب - يكونونَ بمثابةِ الوَرَثة، ويبقَى والداه وباقي أقاربهِ محرومينَ منَ الميراث، وفي بعضِ الأحيان يضْطَرُّونَ - لسُوءِ حالتِهم الماليَّة - إلى التسوُّل، ولهذا فَرَض القرآنُ الكريمُ على المسلمينَ حينَ الموتِ أن يُعِدُّوا وصيَّةً لوالديهِم وأقاربِهم، ولكنْ حينَ نَزَلتْ آياتُ الميراثِ في سُورةِ النِّساء، وحَدَّد اللهُ تعالى نصيبَ كلِّ فردٍ من التَّرِكة، نُسِخَ الحُكمُ في هذه الآيةِ الكريمة، والآنَ لم تَعُدِ الوصيَّةُ فرضًا كما كانت، إلّا أنّ للموصي الحَقَّ في أن يُوصيَ بثُلُثِ تركتهِ للأعمالِ الخيريَّة، أو لأولئك الذين لن يَرِثوه شرعًا، ولمزيدٍ من التَّفصيل راجِعْ تفسيرَ الآياتِ من ٧ إلى ١٢ من سورة النِّساء.

﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ﴾

١٣٤ ـ فإذا أوصَى الميِّتُ وصِيَّتَه طِبقًا للقاعدة، ثم جاء مِن بعدِه مَن بدَّلَها، فإنّ إثْمَ ذلك يكونُ على الذي بَدَّلَها، ولن يسألَ أحدٌ آخَرُ عن ذلك.

﴿ فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ ﴾

١٣٥ ـ فإنْ خاف أحدٌ من أن يُخطئَ الموصِي أو يتَجاوزَ، فإنه يُمكنُه أن يُوجِّهَ الموصيَ إلى العدلِ والإنصاف، ولكنْ إذا أوصَى المُوصي بالرَّغم من ذلك وصيَّةً خاطئة، فإنّ الذي يقومُ بتصحيح هذه الوصِيَّةِ ويَجعَلُها مُطابِقةً للشَّريعةِ الإسلاميَّة ويُصلِحُ ـ بذلك ـ بيْنَ الورَثةِ لا ذَنبَ عليه؛ لأنه حقَّق مقتَضياتِ العدلِ والإنصاف.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ وَعَفَا عَنكُمۡۖ فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ

ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٨﴾

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾

١٣٦ـ فُرِض الصِّيامُ في العام الثاني للهجرةِ النَّبويَّة.

وتعريفُ الصِّيام في الشَّريعةِ الإسلاميَّة هو: أن يمتنِعَ الإنسانُ، بِنيَّةِ العبادة، عن الطَّعام والشَّرابِ والمُعاشَرةِ الزَّوجيَّة، من وقتِ الصُّبح الصَّادقِ وحتّى غروبِ الشَّمس.

وكان الصِّيامُ فرضًا على الأُمم السَّابقةِ أيضًا، لكنّ الاختلافَ في عَددِ أيامهِ وكيفيَّتهِ.

﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾

١٣٧ـ إنّ قوَّةَ ضَبْطِ النفسِ لدى الإنسانِ تزدادُ في حالةِ الصِّيام وامتناعِه عن تناولِ الأشياءِ الحَلال، ويزدادُ عَزْمُه على تجنُّبِ الأشياءِ المحرَّمة، وفي نهايةِ الأمرِ يؤدِّي ذلك إلى أن يسيرَ الإنسانُ في طريقِ التَّقوى، كما أنّ المرورَ بتجربةِ الجُوع والعَطَش يولِّدُ المواساةَ والتعاطُفَ معَ الفقراءِ في قلبِ الإنسان.

﴿ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ ﴾

١٣٨ ـ الصِّيامُ فَرْضٌ في أيام رمضانَ فقطْ، ولكنْ إذا مَرِض أحدٌ في أيام رمضانَ، أو كان على سَفَرٍ (يزيدُ على ٩٧ كيلومترًا)، فإنه يجوزُ له الإفطارُ وقضاءُ نفسِ العدَدِ من الأيام التي أفْطَرَها صَوْمًا في غيرِ رمضانَ، أمّا إذا لم يكنْ من الصَّعبِ على المسلم أن يَصُومَ في أيام سَفَرِه أو مَرَضِه فإنّ من الأفضلِ أن يَصُوم.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ﴾

١٣٩ـ أمّا الذين يَصعُبُ عليهم الصِّيامُ، مثلَ: كبارِ السِّنِّ وأصحابِ الأمراضِ المُزمِنة، فإنه يجوزُ لهم أن لا يَصُوموا، وأن يُطعِموا مِسكينًا وجبتَيْنِ عن كلِّ يوم لم يصُوموه، وإنْ أطعَموا أكثرَ من مِسكينٍ عن كلِّ يوم لم يصُوموهُ فإنّ ذلك أفضَل.

﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ﴾

١٤٠ـ القرآنُ الكريمُ هدايةٌ كاملةٌ لكلِّ البشَر، وهو الذي أوضَح طريقَ الحقِّ وميَّزَه تمامًا عن طريقِ الباطل، وقد بَدَأَ نزولُ هذه النِّعمةِ العظيمة (القرآنِ الكريم) في شهرِ رمضانَ المعظَّم، وبفَضْلِ وبركةِ هذه النِّعمةِ العظيمة ارتَفَعت مكانةُ شهرِ رمضانَ أيضًا، لهذا فإنّ مَن يَبلُغُ في حياتهِ شهرَ رمضانَ فإنه يَصُومُ الشَّهرَ كلَّه، وهو ـ بهذه الطَّريقة ـ يؤدِّي الشُّكرَ للهِ تعالى المتفضِّلِ الحقيقيِّ عليه، ويَخلُقُ بداخلهِ التقوى ببركةِ الصِّيام.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ﴾

١٤١ ـ سَألَ بعضُ الصَّحابةِ الكرام رضيَ اللهُ عنهمُ النبيَّ ﷺ قائلين: أين ربُّنا؟ فنَزَلتْ هذه الآيةُ: أنْ أيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، قُلْ لهم: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌۖ﴾.

كم هي جملةٌ تزيدُ الرُّوحانيَّةَ! فما أن يَعلَمَ الإنسانُ الذي تُحاصرُه المصائبُ والآلامُ أنّ ربَّه قريبٌ منه تمامًا، وأنه يَعلَمُ ما هو خافٍ في أعماقِ قلبه، ويسمعُ ما يجري على اللِّسانِ من ألفاظٍ، وما يصيبُ الجسمَ من أحداثٍ، وأنه رحيمٌ، ويَقدِرُ على جَعْلِ الصَّعبِ سهلًا، فإن سُحُبَ اليأسِ تنقشعُ من ذِهن هذا الإنسانِ البائسِ الحائر، وتُمطِرُ سُحُبُ الكرم بالآمال، ويظَلُّ يتقدَّمُ على الطَّريقِ المستقيم برَغْم زِحام المصائبِ من حولِه.

﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾

١٤٢- في بعضِ الأحيان، يدعو الإنسانُ ربَّه، لكنْ لا تبدو له آثارٌ تدُلُّ على قَبولِ دعائه، وقد بيَّن النبيُّ ﷺ أحدَ أسبابِ هذا الأمرِ قائلًا: «**الرّجُلُ يُطيلُ السَّفَر، أشعَثَ أغْبَرَ، يمُدُّ يدَيْه الى السّماء، يا ربِّ! يا ربِّ! ومَطعَمُه حرامٌ، ومَشرَبُه حرامٌ، ومَلبَسُه حرامٌ، وغُذِيَ بالحرام، فأنَّى يُستجابُ لذلك؟**»[١]. كما أنّ الدُّعاءَ المقبولَ يَظهَرُ في أشكالٍ متعدِّدة، على سبيل المثال، أن يتحقَّقَ لكَ ما طلبتَهُ في دعائك تمامًا، أو أنْ تنالَ شيئًا أفضَلَ منه في هذه الدُّنيا، أو أن يُجنِّبَك اللهُ مصيبةً كبرى كانت لتُصيبَك لولا الدُّعاءُ، أو أن يحتفظَ اللهُ تعالى لكَ في الآخِرة بمِثلِ هذا القَدْرِ ثوابًا (تصوَّر إلى أيِّ مدًى اللهُ تعالى رحيمٌ بمخلوقاتِه)، وفي بعضِ الأحيان يدعو الإنسانُ بشيءٍ يكونُ في النِّهاية مُضِرًّا له، ولهذا فإنّ اللهَ تعالى لا يحقِّقُ له ما طَلَبه، وإنّما - بدَلًا منه - يحفَظُه اللهُ تعالى من مصيبةٍ كانت لاحِقةً به، أو يحفَظُ له ثوابَ ذلك في الآخِرة، ولكثرةِ هذا الثَّوابِ فإنّ الإنسانَ عندَما يراه، يتمنَّى لو أنّ اللهَ تعالى لم يَقبَلْ له دُعاءً في الدُّنيا، حتى يُنعِمَ في الآخِرة بأجْرِه العظيم[٢].

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾

١٤٣- لقد عَبَّر القرآنُ الكريمُ عن العلاقةِ الزَّوجيَّةِ بيْنَ الزَّوج والزَّوجةِ باللِّباس، واللِّباسُ يُعلِمُ عيوبَ الإنسان الجَسَديَّةَ، لكنَّه يُخْفيها عن أنظارِ الناس، واللِّباس يزيدُ من حُسنِ الإنسانِ ويُظهِرُ جمالَه، واللِّباسُ يَحمي الإنسانَ من آثارِ الحَرِّ والبرد، كما

(١) صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب ١٩ برقم ٢٣٤٦.

(٢) قال رسول الله ﷺ: «فلا يدع الله دعوةً دعا بها عبده المؤمن إلاّ بيّن له: إمّا أن يكون عجّل له في الدّنيا وإمّا أن يكون ادّخر له في الآخرة، قال: فيقول المؤمن في ذلك المقام: يا ليته لم يكن عجّل له في شيءٍ من دعائه». المستدرك للحاكم ١:٦٧١ برقم ١٨١٩.

أنه يُريحُ الإنسانَ أيضًا، والزَّوجُ والزَّوجةُ يُحقِّقُ كلٌّ منهما للآخرَ مقتَضَياتِ اللِّباس، يعني: يَستُرُ كلٌّ منهما عيوبَ الآخَر، ويُثْني على ميزاتِه، ويَحفَظُ عِفَّتَه، ويُنقِذُه من المشاكل، وبهذا يصبحُ بيتُهما بمثابةِ الجنَّة، والإسلامُ يريدُ أن يرى كلَّ بيتٍ مثلَ هذا البيتِ المِثاليِّ.

﴿ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ ﴾

١٤٤ـ كان الحُكمُ في البدايةِ أنْ لا يُسمَحَ للرجالِ بالاقترابِ من النِّساءِ في ليالي رمضانَ أيضًا، لكنّ بعضَ الصَّحابةِ الكرام رضيَ اللهُ عنهم وَقَع منهُ خطأُ المباشرةِ الزَّوجيَّة، فنَدِمَ على ذلك، وجاء إلى النبيِّ ﷺ، وبيَّن له حالَه وحقيقةَ ما وَقَع منه، فنَزلت هذه الآيةُ بأنّ اللهَ تعالى قد عَفَا عمَّا وَقَع منكم، وسَمَح لكم بعدَ ذلك بأنْ تُباشِروا زوجاتِكم في ليالي رمضانَ وحتى الصُّبح الصَّادق، حتى تستمتِعوا بزوجاتِكم، وتستطيعوا تحقيقَ ما طَلَبتُم من اللهِ تعالى أن يَرزُقَكم به من الأولاد.

﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ ﴾

١٤٥ـ في هذه الآيةِ بيانٌ لبدايةِ وقتِ الصِّيام ونهايتِه، فبدايتُه تكونُ من الصُّبح الصَّادق، يعني: حينَ يَظهَرُ بياضُ الصُّبحِ في ظلام الليل، أمّا نهايةُ وقتِ الصَّوم فهي حتى يَحُلَّ اللَّيلُ، يعني: حينَ تغرُبُ الشَّمس، ولهذا فإنّ وقتَ الصِّيام: من الصُّبح الصَّادقِ حتى غروبِ الشَّمس، وفيما عدا ذلك يجوزُ للإنسانِ أن يأكُلَ ويشربَ ويُباشِرَ زوجتَه، أمّا من يعتكفُ فإنه لا يُسمَحُ له أيضًا بمباشرةِ زوجتِه، ولكنْ يُسمَحُ له بالطَّعام والشَّرابِ فقطْ.

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾

١٤٦ـ إنّ القواعدَ والأُصولَ التي قرَّرها اللهُ تعالى للصِّيام والاعتكافِ لا يجبُ تجاوُزُها؛ لأن الالتزامَ بها يُولِّد التَّقوى بداخلِ الإنسان، وهذه التَّقوى هي المقصِدُ الأصْليُّ من وراءِ الصِّيام ونزولِ القرآن.

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

١٤٧ـ إنّ الاستيلاءَ على أموالِ الآخَرِينَ بطُرُقٍ غير شَرْعيَّة حرامٌ في كلِّ حال، سواءٌ كان ذلك في صُورةِ اغتصابِ حقِّ آخَرَ بشكلٍ مباشر، أو في صُورةِ رِشْوةٍ للمسئولينَ للاستيلاءِ على حقِّ آخَرَ.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓاْ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ

مِنَ ٱلْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾

١٤٨ـ في هذه الآيةِ بيانٌ لحِكمةِ تناقُصِ القمرِ واكتمالِه بأنّ هذا تقويمٌ محلِّيٌّ وعالَميٌّ يستطيعُ النّاسُ عن طريقِه تعيينَ تواريخِهم ومواقيتِهم، وخاصّةً فيما يتَعلَّقُ بمواقيتِ أشهُرِ الحجِّ؛ لأنه على قَدْرٍ كبيرٍ من الأهميَّة بالنِّسبةِ للعرب، لأنّهم كانوا يتوقَّفونَ عن الحروبِ في هذه الأشهُر، ولا يَظلِمونَ أحدًا فيها، فكانتِ القوافلُ التّجاريَّةُ تَأمَنُ في هذه الأشهُر، وتَزدهرُ التِّجارةُ والأعمالُ فيها بسببِ الأمنِ والأمان.

﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

١٤٩ـ كان السائدُ لدى العربِ أنَّهم، حينَ يُحرِمونَ للحجِّ، ويُضْطَرُّونَ إلى الدُّخولِ للبيتِ لحاجةٍ من الحوائجِ الضَّروريَّة، فإنّهم لم يكونوا يَدخُلونَ البيوتَ من الأبواب، وإنّما كانوا يَقفزونَ إليها من فوقِ الجُدرانِ الخَلْفيَّة، أو يقومونَ بإحداثِ فتحةٍ فيها ليَدخُلوا منها، ويعتقدونَ أنّهم ـ بذلك ـ يقومونَ بعملٍ طيِّبٍ للغاية، وقد رَدَّ اللهُ تعالى عليهم هذا التصرُّفَ الذي لا معنى له، وأنكَرَه، مؤكِّدًا أنه لا علاقةَ لمِثلِ هذه التقاليدِ التّافهة بِالبرِّ والتقوى، وإنّما أصلُ البِرِّ والتَّقوى هو خوفُ اللهِ تعالى وتجنُّبُ معصيتهِ، ولهذا فإنّ عليكُم أن تدخُلوا البيوتَ من أبوابِها، واخشَوا اللهَ تعالى وخافوه حتى تُفلِحوا.

﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ﴾

١٥٠ـ ظلَّ كفَّارُ مكةَ يُهِيلونَ جبالَ الظُّلم الشَّديدِ فوقَ رؤوسِ المسلمينَ لثلاثةَ عشَرَ عامًا، لكنّ المسلمينَ ظَلُّوا يتحمَّلونَ سقوطَ جبالِ الظُّلم هذه فوقَ

رؤوسِهم، إلى أن هاجَرَ المسلمونَ من مكَّةَ إلى المدينةِ المنوَّرة، وهناك لم يَقِلَّ ظُلمُ الكفَّارِ لهم، وعليه أَذِنَ اللهُ تعالى للمسلمينَ أن يَرُدُّوا ظُلمَ الكفَّارِ لهم بالقوة.

ولو تدَبَّرْنا في الأماكنِ التي جَرَتْ فيها أحداثُ الحروبِ الثلاثةِ الأُولى في الإسلام، لاتَّضحَتْ حقيقةُ أنّ الكفَّارَ وحُلَفاءهم هم الذين هاجَموا بيوتَ المسلمينَ بقَصْدِ القضاءِ عليهم، وأنّ المسلمينَ قدِ اضْطَرُّوا إلى حَمْلِ السِّلاح دفاعًا عن أنفُسِهم.

على سَبيلِ المثال: وَقَعت غزوةُ بَدْرٍ على بُعدِ تسعينَ ميلًا من المدينةِ المنوَّرة، وغـزوةُ أُحُدٍ على بُعدِ أميالٍ قليلة، وغزوةُ الأحزابِ وَقَعتْ على أبوابِ المدينة، وقد أَذِنَ اللهُ تعالى للمسلمينَ بحَمْلِ السِّلاح نظرًا للنَّوايا العِدائيَّةِ للكفَّارِ تُجاهَ المسلمين، ومعَ ذلك، فقد كان هذا الإذْنُ بحَمْل السَّيفِ في أسلوبٍ ما أروعَهُ:

١ـ الإذْنُ بالجهادِ ولكنْ فقَطْ من أجْلِ رِفعةِ الـحقِّ، أمّا النَّهبُ والسَّلبُ والتعصُّبُ العِرْقيُّ وجنونُ الحُكم وما شابَهَ ذلك، فكلُّها أدنَى بكثيرٍ من نظَريَّةِ الجهادِ في الإسلام.

٢ـ الإذنُ بالجهادِ، ولكنْ ضدَّ أولئك الذين يُحاربونكم أو يُجَهِّزونَ لحَرْبِكم.

٣ـ الإذْنُ بالجهادِ، ولكنْ بشَرْطِ أن لا يقعَ ظُلمٌ على أحد، يعني: لا يقَعُ ضرَرٌ على النِّساءِ والمرضَى والأطفالِ وكبارِ السِّنِّ والزُّعماءِ الدِّينيِّين، حتى الحيَوانِ والأشجارِ المثمِرة أيضًا.

إنّ على الذين يُلصِقُونَ تُهمةَ الإرهابِ واستخدام العُنفِ بالإسلام أن يُنعِموا النَّظَرَ في هذه الآيةِ مرَّة ثانية، وسيَجدونَ أنّ الإسلامَ هو أولُ دينٍ في هذا الوجودِ يَأمُرُ بمُراعاةِ العدلِ والإنصافِ حتى أثناءَ قتالِ العدوِّ، وذلك حتّى لا يُقتَلَ بريءٌ، وهذا هو السببُ في أنّ عددَ القتْلَى في كلِّ الحروبِ التي وَقَعتْ في عهدِ نبيِّ الإسلام ﷺ،

من الجانبَيْنِ، كان ألفًا وأربعةَ عشَرَ (١٠١٤) قتيلًا فقَطْ، من بيْنِهم مائتانِ وخمسةٌ وخمسونَ (٢٥٥) من المسلمين، وسبعُمائةٍ وتسعةٌ وخمسونَ (٧٥٩) من الكفَّار[١].

ولكنْ، على الجانبِ الآخَر، انظُرْ إلى ما تفعَلُه الشُّعوبُ المتقدِّمة، فخلالَ الحربِ العالميَّةِ الأُولى (من ١٩١٤م إلى ١٩١٨م)، والحربِ العالميَّةِ الثانية (١٩٣٩م - ١٩٤٥م)، أي: خلالَ عشرِ سنواتٍ فقَطْ، قُضِي على خمسةٍ وستِّينَ مليونًا من البشَر[٢]. في حينَ أنّ عددَ الجَرْحى والمشرَّدينَ أكثرُ من هذا العدَدِ بكثير.

وعليك أنت أن تُقرِّر، هل الإسلامُ، الذي لا يَسمَحُ برَفْعِ السَّيفِ على أعزلَ هو الإرهابي، أو أولئك الحُكَّام القاسيةِ قلوبُهم الذين يَقضُونَ على القُرى والمُدنِ والأطفالِ الأبرياءِ وكبارِ السِّنِّ العاجِزينَ، من أَجْل جنونِ الحُكم؟!

كما أنّ الإسلامَ ينتشرُ في أيّامِنا هذه في الـدُّوَلِ المتقدِّمة، مثلَ: أمريكا وأوروبا، والسُّكّانُ الأَصْليُّونَ لهذه الدُّول أيضًا يَدخُلونَ في الإسلام ويَقبَلونَه دينًا لهم، والسُّؤالُ الآنَ هو: لو أنّ الإسلامَ انتشَر بالقوَّةِ والثَّروة، فإنّ الطاقةَ والثَّروةَ في أيّامِنا هذه لدى أمريكا وأوروبا، والمسلمونَ جاءوا إلى هذه البلادِ عُمّالًا محكومينَ لا حِيلَةَ لهم، فأيُّ شيءٍ في الإسلام إذًا قدِ استمالَ أهلَ هذه البلاد الأَصْليِّينَ إليه فدَخَلوه؟ ومن البديهيِّ أنّ هذا الشَّيءَ ليس القوَّةَ أو الثَّروةَ، وإنّما هو تعاليمُ الإسلام الفِطْريَّةُ القيِّمةُ التي تَجذِبُ العقلَ السَّليمَ إليها.

---

(١) «The battle of the Prophet in the 10 years of military activities in the Madinan period, the total loss of life incurred was 255 Muslims only as against 759 enemies of Islam» (Shari'ah the Islamic Law by Abdul Rahman Doi, Page 444).، شريعت، إسلامي قانون، عبد الرحمن دوئي، ٤٤٤.

(٢) «An estimated 10 millions lives were lost in world war 1 (1914 to 1918) and an estimated 55 millions lives were lost in world war 2 (1939 to 1945)».(The Hutchinson Encyclopedia edition 1999).، موسوعة هيتشن سن.

﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾

١٥١ـ وإذا أشعَلَ كفَّارُ مكةَ الحربَ فاقتُلوهم حيثُما وَجدتُّموهم، ومِثلَما أجبَروكم على الخُروج من مكةَ أخرِجُوهم أنتم أيضًا من هناك؛ لأنهم أشاعوا الفسادَ والفِتنَ في مدينةٍ مقدَّسةٍ مثلَ مكةَ المكرَّمة، وهو الأمرُ الذي يَفُوقُ القَتْلَ سوءًا، ولكنّ عليكم ـ مع ذلك ـ مُراعاةَ حُرمةِ المسجدِ الحرام، فلا تَرفَعوا سيوفَكم على الكفَّارِ بالقُربِ منه، ولكنْ إن بَدَأُوكم بالقتالِ هناك أيضًا فاحمِلوا أسلحتَكم دفاعًا عن أنفُسِكم، ولا تتوقَّفوا حتى ينتهيَ هذا الفسادُ وهذه الفتنُ، أمّا إذا تخلَّى الكفَّارُ عن الحرب، وعادُوا عن كُفرِهم هذا وتابُوا إلى الله، فإنّ بابَ رحمةِ الله مفتوحٌ أمامَهم، بالرَّغم ممَّا ارتكبوهُ من ذنوب.

﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ﴾

١٥٢ـ كانتِ القبائلُ العربيَّةُ ـ في الغالبِ ـ تظَلُّ في حروبٍ معَ بعضِها، ولكنّ شهورَ: المُحرَّم ورَجَبٍ وذي القَعْدة وذي الحِجَّة كانت مخصَّصةً لزيارةِ الكعبة، ولهذا كانوا يحترمونَ هذه الشُّهورَ، ويتوقَّفونَ عن الحربِ والنِّزاع والسَّلبِ والنَّهب، حتى يستطيعَ زُوّارُ الكعبةِ إتمامَ زيارتِهم وسَفَرِهم في أمنٍ وأمان، ولكنْ، حين ذَهَب المسلمونَ في ذي القَعْدةِ من السَّنَةِ السادسةِ للهجرة لزيارةِ الكعبة، اعترَضَ كفَّارُ مكةَ طريقَ المسلمينَ عندَ موضِع الحُدَيْبِيَة، على أن يَسمَحوا لهم بالقُدوم للزِّيارة في العام التالي، وهكذا عاد المسلمونَ لزيارةِ الكعبةِ في ذي القَعْدةِ من العام السابع، فإذا بكفَّارِ مكةَ يستعِدُّونَ للحرب، فقال اللهُ تعالى للمسلمينَ: إنّ الأشهُرَ الحرامَ: سواءٌ بالنِّسبة للجميع، فإذا احترَمَها الكفَّارُ كان بها، وإن لم يُراعوا حُرمتَها وبادَروكم بالحربِ فاستعِدُّوا أنتم أيضًا للدِّفاع عن أنفُسِكم.

﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾

١٥٣ـ أَنْفِقوا في سبيلِ الله من مالِ الله الذي أعطاكم، ولا تبخَلوا فتَهلِكوا، واحذَروا من كلِّ أمرٍ يجرُّ الإنسانَ إلى الهلاك.

﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِ﴾

١٥٤ـ يجبُ أن يكونَ أداءُ الحجِّ والعُمْرةِ لأَجْل رِضا اللهِ تعالى فقَطْ، وإذا أحرَمتُم فعليكُم الإتمامُ حتى وإن كان حجُّكم أو عُمرتُكم من بابِ النَّفْل.

﴿فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥ﴾

١٥٥ـ والمسلمُ الذي يَعقِدُ الإحرامَ للحجِّ والعُمرة، ثم يُصيبُه المرضُ في الطَّريق، أو يَعترِضُ العدوُّ طريقَه، ويبدو له أنّ ذهابَه إلى مكّةَ المكرَّمةِ في أيام الحجِّ أمرٌ صعبٌ، يُمكنُه عندَئذٍ أن يُرسِلَ الهَدْيَ، أو ثمنَه معَ أحدٍ إلى الحَرَم الشَّريف، ويُحدِّدَ ـ مَع هذا الذاهِب ـ يومًا يَذبَحُ فيه الهَدْيَ، وفي نفْسِ اليوم يقومُ هو بحَلْقِ رأسِه أو يُقصِّرُ ثم يتَحلَّلُ من إحرامِه، وهذا هو مذهبُ الإمام أبي حَنيفةَ النُّعمان، أي: يُرسلُ الهَدْيَ للذَّبْح عندَ الحَرَم الشَّريف، إلّا أنّ مذهبَ الأئمةِ الثلاثِ (الإمام مالكٍ والإمام الشافعيِّ والإمام أحمدَ بن حَنْبل) هو: أن يَذبَحَ الهَدْيَ في الطَّريقِ ويتَحلَّلَ من الإحرام.

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖ﴾

١٥٦ـ يكونُ حَلْقُ الرَّأسِ بعدَ الفراغ من أداءِ مناسكِ الحجِّ، ولكنْ إذا اضْطُرَّ أحَدٌ إلى الحَلْق قَبْلَ ذلك لمرضٍ أو بَرْدٍ فلْيفعَلْ، ولْيَصُمْ ثلاثةَ أيامٍ فديةً، أو يُطعِمْ ستةَ مساكينَ، أو يَذْبَحْ شاةً، وله أن يقومَ بأيسَرِها بالنِّسبةِ له.

﴿فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ﴾

١٥٧ـ الحجُّ على ثلاثةِ أقسام:

١ـ الإفراد، ويعني: أن يؤدِّيَ الحجَّ فقطْ، والذَّبحُ ليس واجبًا فيه، وهذا هو حجُّ أهل مكّةَ، ولا يجوزُ لهم حَجُّ التمتُّع أو حَجُّ القِران.

٢ـ التَّمتُّع، أي: أن يؤدِّيَ العُمرةَ أوّلًا، ويَتحلَّلَ من الإحرام، ثم بعدَ ذلك يُحرِمُ ثانيةً في الثامنِ من ذي الحِجّة ويَحُجَّ.

٣ـ القِرَانُ، أي: أن يُحرِمَ للحجِّ والعُمرةِ معًا، فيعتمرَ أولًا، ثم لا يَتحلَّلَ من الإحرام حتى يَحُجَّ.

والقرآنُ الكريمُ ـ في هذه الآية ـ يشيرُ إلى الحالتَيْنِ الأخيرتَيْنِ من الحَجِّ، حيثُ يُستفادُ من الحجِّ والعُمرةِ معًا، وهذه الرُّخصةُ فقطْ لأولئكَ الذين لا يَسكُنونَ مكّةَ، وإنّما يقطَعونَ مسافاتٍ طويلةً للوصُولِ إليها، والذَّبحُ في هاتَيْنِ الصُّورتَيْنِ الأخيرتَيْنِ واجب، وذلك لكي يؤدِّيَ الشُّكرَ على استفادتِه من العُمرةِ معَ الحجِّ.

وإذا لم يستطعْ أحَدٌ أن يَذْبحَ يصومُ في أيام الحجِّ ثلاثةَ أيام قبْلَ العاشِر من ذي الحِجَّة وسبعةَ أيام بعدَ فراغِه من أداءِ الحجِّ، سواءٌ كان ذلك في مكَّة أم بعدَ عودتِه إلى وطنِه، وبهذا يكونُ قد صام عشَرةَ أيام بدلًا من الذَّبح الواجبِ عليه.

ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ فَإِذَآ

أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ۞ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾

﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾

١٥٨ـ المرادُ بشهورِ الحجِّ: شوّالٌ وذو القَعْدة وعشَرةُ أيام من ذي الحِجَّة.

﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾

١٥٩ـ إنّ ارتكابَ الذُّنوبِ ومفاسدِ الأخلاقِ والتنازُعَ أمورٌ ممنوعةٌ في كلِّ وقتٍ وحين، وفي كلِّ مكانٍ كذلك، ولكنّ الذَّنبَ بارتكابها في حالةِ الإحرام

مشدَّد، وسعيدُ الحظِّ الذي يؤدِّي الحجَّ لِرِضا الله تعالى، ويتجنَّبُ الفُجْرَ والفُسوقَ في أيام الحَّج، فإنه يَطهُرُ من الذُّنوبِ بعدَ الحجِّ ويكونُ كيومَ وَلَدتْه أُمُّه[1].

﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾

١٦٠ـ كان أهلُ اليمَن ـ في زمنِ الجاهليَّة حينَ يخرُجونَ إلى الحجِّ ـ لا يأخُذونَ معَهم زادًا للطَّريق، وكانوا يعتقدونَ أنّ هذا عمل طيِّبٌ وعلامةٌ على التوكُّل على الله، ولكنْ حينَ يَصِلُونَ إلى مكّةَ يأخُذونَ في التسوُّل، فنَزَلت هذه الآيةُ بأنِ احمِلوا معَكم زادَ طريقِكم، ولا تجعَلوا من أنفُسِكم عِبْئًا على الآخَرين، وعليكم أيضًا أن تتَّقوا اللهَ وتتَّخِذوا من التَّقوى منهَجًا، وكما أنّ إعدادَ الزّادِ من طعام وشرابٍ لسَفَرِ الدُّنيا أمرٌ ضروريٌّ، فإنّ التقوى هي أفضَلُ زادٍ لسَفَرِ الآخِرة.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾

١٦١ـ العمَلُ أو التِّجارةُ في أيام الحجِّ من أَجْل كَسْبِ المَعاشِ أمرٌ جائز، ولا يترتَّبُ عليه أيُّ نقصٍ في أَجْر الحجِّ وثوابِه، بمعنى: أنه لا حَرَجَ في أن يَذهبَ الشَّخصُ إلى الحجِّ، وفي تلك الأثناءِ يُتاجرُ أو يعمَلُ، لكنّ الحجَّ بقَصْدِ التِّجارةِ أو العملِ أمرٌ لا يَليقُ بالمسلم التقيّ.

﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَـٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾

١٦٢ـ إنّ الوقوفَ في عَرَفاتٍ في التاسع من ذي الحِجَّة هو أهمُّ رُكنٍ من أركانِ الحجِّ، وقد أمَرَ اللهُ تعالى بالعَوْدةِ من هناك بعدَ غروبِ الشَّمس إلى المَشْعَرِ الحرام،

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت النبيّ ﷺ يقول: «من حجّ لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمّه». صحيح البخاري، كتاب الحج، باب ٤ برقم ١٥٢١.

أي: في المُزْدَلِفة، وهناك يؤدِّي الحاجُّ صلاةَ المغربِ والعشاءِ جَمْعًا، ويَشكُرُ اللهَ تعالى الذي أنقَذَه من الضَّلال ووَضَعَه على طريقِ الهداية.

﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾

١٦٣ـ الطَّريقةُ المعروفةُ للحجِّ هي: الذَّهابُ من مِنًى إلى عَرَفاتٍ يومَ التاسع من ذي الحِجَّة، والعودةُ من هناك ليلًا والقيامُ في المُزْدَلفةِ، ولكنّ أهلَ قُريشٍ لم يكونوا يذهَبونَ إلى عَرَفاتٍ معَ الآخَرين، وإنّما كانوا يَمكُثُونَ في المُزْدَلِفةِ فقطْ، ثم يعودونَ من هناك، ويعتقدونَ أنّ في هذا تميُّزًا وعَظَمةً لقبيلتِهم، وعليه أمَرَ اللهُ تعالى أهلَ قُريشٍ أن يذهَبوا هم أيضًا إلى عَرَفاتٍ معَ النّاس جميعًا؛ لأنّ الجميعَ في حضرةِ اللهِ سواءٌ.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾

١٦٤ـ في أيام الجاهليَّةِ كان العربُ بعدَ الفراغ من الحجِّ يعمَدونَ إلى بيانِ إنجازاتِ آبائهم وأجدادِهم، والحديثِ عن عَظَمتِهم، ولهذا قال اللهُ تعالى للمسلمينَ: أنْ إذا فَرغتُم من الحجِّ فاذكُروا كِبرياءَ الله وعَظَمتَه بدَلًا من الحديثِ عن عَظَمةِ آبائكم وأجدادِكم، بلِ اذكُروا اللهَ تعالى أكثرَ ممّا كنتُم تَذكُرونَ هؤلاءِ الآباءَ والأجدادَ.

﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴾

١٦٥ـ المشركونَ لا يؤْمنونَ بالآخِرة، ولا يَسألونَ أصلًا عنها، ولهذا ليس لهم في الآخِرة نصيبٌ، وإنّما يُعطَوْنَ أَجْرَ ما يفعَلونَ من خيرٍ في هذه الدُّنيا فقطْ.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً ﴾

١٦٦ـ هذا دعاءٌ مختصَرٌ وجامع، يشمَلُ خيرَ الدُّنيا والآخِرة وصَلاحَهما

وعزَّهما وفَضْلَهما، وقد سَأل سيِّدُنا قَتادةُ رضيَ اللهُ عنه سيِّدَنا أنسًا رضي اللهُ عنه قائلا: أيُّ دعاءٍ كان النبيُّ ﷺ يُكثِرُ منه؟ قال: كان النبيُّ ﷺ يُكثِرُ من هذا الدُّعاء: **«اللّهمّ آتِنا في الدّنيا حَسَنةً وفي الآخِرةِ حَسنةً وقِنا عَذابَ النّار»**[١].

ويَروي سيِّدُنا أنسٌ رضي اللهُ عنه، أنّ النبيَّ ﷺ ذهبَ ذاتَ يوم لعيادةِ صحابيٍّ في مرضِه وقال له: **«هل كنتَ تدعو بشيءٍ أو تسألُه إيّاه؟»، قال: نعم. كنتُ أقولُ: اللهمَّ! ما كنتَ مُعاقبي به في الآخِرة، فعجِّلْه لي في الدُّنيا، فقال** رسولُ الله ﷺ: **«سبحانَ الله! لا تُطِيقه، أو: لا تستطيعُه، أفلا قلتَ: اللهمَّ! آتِنا في الدُّنيا حسَنةً وفي الآخِرةِ حسَنةً وقِنا عذابَ النّار؟»، قال: فَدعا اللهَ له، فشَفَاه**[٢].

﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ﴾

١٦٧- يتَحلَّلُ الحاجُّ من الإحرام يومَ العاشِر من ذي الحِجَّة بعدَ أن يَذبَحَ الهَدْيَ، ويَرمي الجَمَراتِ حتى الثالثَ عشَرَ من الشَّهر، ولكنْ إذا عاد أحَدٌ إلى مكة بعدَ يومَيْنِ فقطْ، يعني: في الثانيَ عشَرَ من ذي الحِجّة، فذلك صحيحٌ أيضًا، فإذا بَقِيَ يومًا آخَرَ على سبيل التَّقوى وعادَ إلى مكَّة في الثالثَ عشَرَ من ذي الحِجَّة فهو أمرٌ جائزٌ أيضًا، ولكنّ الأفضَلَ عندَ الإمام أبي حنيفةَ هو العَوْدةُ إلى مكّةَ في الثالثَ عشَرَ من ذي الحِجَّة بعدَ رَمْي الجِمَار. على أيّةِ حال، على الحاجِّ أن يُكثِرَ من ذِكرِ الله في الأيام التي يبقاها في مِنًى، فيُعَدُّ بذلك زادًا لسَفَرِ الآخِرة.

---

(١) سنن أبي داوود، كتاب الوتر، باب ٢٦ برقم ١٥١٩.

(٢) الإمام البخاري، الأدب المفرد، ٢١٤، مسلم، كتاب الذكر، باب ٧ برقم ٦٨٣٥، كنز العمال، المجلد ٢: ٦١٩ برقم ٤٩٠٤.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾

١٦٨ـ في هذه الآياتِ الثلاثةِ بيانٌ لأحوالِ المنافقينَ من أنَّهم حينَ يواجِهونَ أحدًا يتكلَّمونَ بكلام معسُول، ويُقسِمونَ باللهِ لإظهارِ إسلامِهم وإثباتِ إخلاصِهم، لكنَّهم ـ في الحقيقة ـ هم ألدُّ أعداءِ الإسلام، وحين يُمكَّنُ للمنافق أو يَعودُ إلى المنافقينَ أمثالِه فإنّه يَبذُلُ كلَّ جُهدِهِ لنَشْر الفتنةِ والفسادِ والقَتْل والنَّهبِ والسَّلب، فإذا ما أوْقَفَه أحدٌ من هذا فإنّه يلجَأُ إلى وسائلَ دنيئةٍ غير مشروعةٍ للحفاظِ على وَقارِهِ الكاذب، وعقابُ أمثالِ هؤلاءِ هو جهنَّم. وعلى العكسِ من هؤلاء المُخلصِونَ في إسلامِهم، تَجِدُهم مستعدِّينَ دائمًا لبَذْلِ الغالي والثَّمين والتَّضحية بأنفُسِهم وأموالِهم رغبةً في رضا اللهِ تعالى، واللهُ تعالى بهؤلاءِ رحيم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾

١٦٩ـ المرادُ بالسِّلْم هو: الإسلامُ، والإسلامُ نظامٌ كاملٌ للحياة، يضمَنُ الرُّقيَّ العَقْليَّ والرُّوحيَّ والماديَّ للإنسان، ولكنّ بركاتِه تَظهَرُ حينَ يَعمَلُ كلُّ فردٍ يؤْمِنُ به طبقًا لأحكامِه كلِّها، ولا يتَّبِعُ خُطُواتِ الشيطان؛ لأنّ الشيطانَ للإنسانِ عدوٌّ مُبين، يَبذُلُ قُصارى جُهدِه لإضلالِه في كلِّ وقتٍ وحين.

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾

١٧٠ـ بالرَّغْم من وضوح الدَّلائلِ على حَقّانيَّةِ الإسلام وسُطوعِها، فإنّ الذين

لا يؤْمنونَ به كأنّهم ينتظرونَ أن يَعُمَّهم اللهُ بعذابٍ من عندِه، وأن تنزِلَ الملائكةُ مأمورينَ بإهلاكِهم والقضاءِ عليهم.

سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾

﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾

١٧١ـ لقد أعطى اللهُ تعالى بني إسرائيلَ كتابًا، وأظهَرَ العديدَ من المعجِزاتِ الواضحةِ على يدِ سيِّدِنا موسى عليه السَّلامُ، ولكنْ حينَ لم تُقدِّرْ بنو إسرائيلَ هذه النِّعمةَ حقَّ قَدْرِها، وحرَّفوا أحكامَ الله تِبْعًا لأهوائهم، نَزَلَ عليهم العذابُ بأشكالٍ عديدة، حتّى أنّ اللهَ مَسَخَ بعضَهم قِرَدةً وخنازيرَ. واللهُ تعالى، من خلال هذه الآيةِ، يُحذِّرُ المسلمينَ ويُنَبِّهُهم إلى أنّ عليهم التأمُّلَ في تاريخ بني إسرائيلَ وأَخْذِ العِبرةِ منه.

﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾

١٧٢ـ الكفَّارُ لا يؤمنونَ بالآخِرة، ولهذا فإنّ الحياةَ الدُّنيا هي كلُّ هدفِهم، يُحبُّونَها، ويعمَلونَ دومًا على تحسينِها، وفي غَمْرةِ غرورِهم بهذا الأمرِ يَسخَرونَ من المسلمينَ، في حينَ أنّ منزِلةَ أهلِ الإيمان عندَ الله يومَ القيامةِ أعلى بمراحلَ من الكفَّار.

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾

١٧٣ـ في البدايةِ كان النّاسُ جميعًا يؤمنونَ بدينٍ واحد، وهُو الدِّينُ الذي جاء به سيِّدُنا آدمُ عليه السَّلام، وحينَ زاد النَّسْلُ الإنسانيُّ ظَهرتِ الاختلافاتُ بينَهم، ولهذا أرسَلَ اللهُ تعالى الأنبياءَ والمرسَلينَ، وأنزَلَ الكُتبَ السَّماويَّةَ، حتّى تقضيَ على هذه الاختلافاتِ بينَهم، ولكنّ الأمرَ المُحيِّرَ هو أنّ أولئك الذين كانوا يَزرَعونَ الاختلافاتِ هم أنفُسُهم الذين كانوا يَفهَمونَ الكُتُبَ السَّماويَّة، ولم يكنْ سببَ الاختلافِ سوءٌ في الفَهْم مثلًا، وإنّما حسَدًا وتمرُّدًا جَعَلَهم يَحِيدونَ عن الطريقِ المستقيم، ويُعلَمُ من هذا أنّ الهدايةَ من الكتُبِ السَّماويَّةِ تُكتَبُ لأولئك الذين يؤمنونَ من أعماقِ قلوبِهم، ويَنْأَوْنَ بأنفُسِهم عن الحسَدِ والتمرُّد.

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ ﴾

١٧٤ـ هنا تنبيهٌ للمسلمينَ أنْ لا يعتقِدوا أنّهم حينَ أسْلَموا صاروا من أهل الجنَّة، وأنّه لا حاجةَ لهم ـ بعد ذلك ـ إلى مزيدٍ من العَمل، وإنّما عليهم أن يتأمَّلوا

حياةَ الأنبياءِ السَّابقينَ والذين آمَنوا بهم، وكيف أنّهم - للحِفاظِ على إيمانِهم - واجَهوا جبالَ الباطل واصْطَدموا به، وقُطِّعت أجسادُهم بمناشيرَ من حديد، لكنَّهم ظَلُّوا ثابتينَ على إيمانِهم، مِثلَما يَروي سيِّدُنا خَبّابُ بنُ الأرَتّ قائلًا: **أتيتُ النّبيَّ ﷺ وهو متوسِّدٌ بُردةً وهو في ظلِّ الكعبة، وقد لَقِينا من المشركينَ شدّةً، فقلت: ألا تَدعو الله؟ فقعَد وهو مُحمَرٌّ وجهُه، فقال: «لقد كان مَن قَبْلَكم لَيُمشَطُ بِمِشاطِ الحديد ما دونَ عِظامِه من لحمٍ أو عَصَبٍ، ما يَصرِفهُ ذلك عن دينِه، ويُوضَعُ المِنشارُ على مَفرِقِ رأسِه، فيُشَقُّ باثنَيْنِ ما يَصرِفهُ عن دينِه، ولَيُتِمَّنَّ اللهُ هذا الأمرَ حتَّى يسيرَ الرّاكبُ من صنعاءَ إلى حَضْرَمَوتَ ما يخافُ إلّا الله»**[1]. وهكذا ستواجِهونَ أنتم أيضًا في سَبيل رِفعةِ الحقِّ مصائبَ ومشاكلَ كثيرةً، ولئن ثبتُّم في هذه الابتلاءاتِ وصَبَرتُم عليها فإنّ مَدَدَ اللهِ معَكم، وتستقبِلُكم جنّتُه.

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٖ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۗ ﴾

١٧٥- المرادُ هنا هو الصَّدَقاتُ التَّطوُّعيَّة، أي: أنفِقوا في سَبيلِ الله ما زادَ عن حاجتِكم من المالِ الحلالِ الطَّاهر، وفي هذا الصَّدَد فإنّ الأَوْلويَّةَ تكونُ لخِدمةِ الوالدَيْن، ثم لرعايةِ الأقرَبينَ واليتامَى والمساكينِ وأبناءِ السَّبيل، ولو أنّ المسلمينَ جميعًا عَمِلوا بهذه المبادئِ العظيمةِ لَما بقِيَ في العالَم كلِّه فقيرٌ أو محتاج.

ويَعلَمُ من تأمَّل هذه الآيةَ أنه يجبُ على الإنسانِ أن يمُدَّ يدَ المساعدةِ بعدَ والدَيْه لأقرِبائه الفقراء، ثم إلى اليتامَى والمساكينِ وأبناءِ السَّبيل من بقيَّةِ النّاس، إذْ تَصوَّرْ أنّ هناك أخًا تقفُ على بابِه سيَّارة، وأخوهُ لا يملِكُ مجرَّدَ درّاجة، تُرى ماذا تكونُ الحالةُ النَّفسيَّةُ لهذا الأخ الفقيرِ وأهلِه وعيالِه؟ ولذا، فإنه لا يليقُ بالأخ

---

(١) البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب ٢٩ برقم ٣٨٥٢.

الغنيِّ أن يكونَ أقاربُه في أمسِّ الحاجةِ حتى لِنفقاتِ العلاجِ، بينَما هو يُغدِقُ على الآخَرينَ من خيراتِه.

﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ﴾

١٧٦- راجِعْ وِجهةَ النَّظرِ الإسلاميَّةَ - فيما يتعلَّقُ بالجهادِ - في الحاشيةِ رقم ١٥٠ على الآية رقم ١٩٠، أي: أنه حينَ يَهجُمُ العدوُّ، أو يَستعِدُّ للهجوم، فإنَّ الجهادَ حينَئذٍ يكونُ فرضًا حتّى وإنْ بدا لكَ صعبًا.

وهو هنا يقولُ لأهلِ الإيمان: إنه يجبُ العَملُ بكلِّ حُكم من أحكام اللهِ تعالى حتّى وإنْ لم تتقبَّلوه؛ لأنَّ الذي يَعلَمُ النَّتيجةَ والمصيرَ هو اللهُ تعالى فقطْ، وسيُثابُ المؤمنُ في الآخِرة أجرًا عظيمًا لقاءَ كلِّ أذًى تحمَّلَه في الدُّنيا من أَجْلِ رِفعةِ الحقِّ، ولكنّ هذه التَّضحيةَ ستُثمرُ في الدُّنيا أيضًا. على سبيل المثال، يبدو الجهادُ لكم صعبًا، ولكنْ من الممكنِ جدًّا أن تكونَ نتيجتُه لكم هي النَّصرَ والفَتْحَ والعزَّةَ والرِّفعة. والقعودُ في البيتِ بدَلًا من الجهادِ قد يَبدو لكم أمرًا محبَّبًا، ولكنْ من الممكنِ جدًّا أن تكونَ نتيجتُه هي أن يَغلِبَكم العدوُّ وتواجِهوا بسببِهِ الذلَّ والمَهانة.

يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢١٨﴾ ۞ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ

مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ﴾

١٧٧- كان العربُ يحترِمونَ الأشهُرَ الأربعةَ: محرَّمًا ورجبًا وذا القَعْدة وذا الحِجَّة، ولا يُقاتلونَ فيها أحدًا، حتى يتمكّنَ زُوّارُ الكعبةِ منَ استكمالِ رحلتِهم في أمنٍ وأمان، وقد أكَّد الإسلامُ أيضًا على حُرمةِ هذه الأشهُر.

وذاتَ مرَّةٍ في الأولِ من رَجَبٍ، قُتِل أحَدُ الكفَّارِ على يدِ فرِقةٍ عسكريَّةٍ من المسلمينَ، كان المسلمونَ يعتقدونَ أنّ هذا اليومَ هو المتمِّمُ للشهرِ السابقِ على رَجَب، أي الثلاثونَ منه، لكنّه كان - في الحقيقة - غُرَّة شهرِ رَجبٍ الشهرِ الحرام، ولهذا أَخَذ كفَّارُ مكةَ يُمطِرونَ المسلمينَ باللَّوم والإساءةِ والتَّوبيخ؛ أيُّ مسلمينَ هؤلاءِ الذين لا يَتورَّعونَ عن القَتْل في الشَّهرِ الحرام؟

وقد نَزَلت هذه الآيةُ ردًّا على كفَّارِ مكةَ بأنّ القتْلَ في الشهرِ الحرام ذنبٌ بالفعل، وقد حَدَث قتْلٌ من المسلمينَ في الشَّهرِ الحرام على سَبيلِ الخطأ، فأثَرتُم ضجَّةً كبرى، لكنَّكم - معَ ذلك - لا ترَوْنَ ما ترتكبونَ أنتم من جرائمَ، فالأرضُ التي لا يجوزُ فيها مجرَّدُ إيذاءِ الحيَوان، قمتُم أنتم بإيذاءِ سُكَّانِها الأصْليِّينَ وإيقـاعِ الظُّلم بهم، لدَرجةِ أنّهم اضْطُرُّوا إلى ترْكِ بلادِهم والهجرةِ منها، والكعبةُ ليست مُلكًا لأحَدٍ، إنّها بيتُ الله، ولم يَحدُثْ أنْ مُنِع أحدٌ من زيارتِها منذُ أنْ بُنِيت وحتى يومِنا هذا، لكنَّكم

أنتُم الذين مَنعتُم المسلمينَ من زيارتِها، ومثلُ هذه الأفعالِ التي تثيرُ الفِتنَ والفسادَ تكونُ أعظمَ ذنبًا من القَتْل، ولهذا فأيُّ حقٍّ لأولئك الذين يرتكبونَ هذه الجرائمَ الشَّنيعةَ عامدينَ متعمِّدينَ في أن يحتَجُّوا بسببِ قَتْلٍ بغيرِ عَمْد وحدَثٍ بالخطأ؟

وفي نفسِ الوقت، هنا تنبيهٌ للمسلمينَ أيضًا، بأنّ كفَّارَ مكةَ لا يَعترِضُونَ من أَجْل حُرمةِ الشَّهرِ الحرام، ولكنْ بسببِ عداوتِهم للإسلام، ولذا فإنّهم يَبذُلونَ قُصارى جُهدِهم لكي يُبعدوكم عن دينِكم، فَتذكَّروا جيِّدًا أنّ مَن خَرَج من الإسلام ومات على الكُفرِ سيُخلَّدُ في جهنَّم، وكما أنّ الدُّخولَ في الإسلام يَغفِرُ ما سَبَقَ من الذُّنوب، فإنّ الارتدادَ عنهُ يضيّعُ كلَّ الحسَنات، فإذا ارتَدَّ حاجٌّ عن الدِّين ثم تابَ وعاد إليه فعليه أن يحُجَّ ثانيةً؛ لأن حجَّةُ الأولَ ضاعَ بارتدادِه.

﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾

١٧٨ـ المرادُ بالخَمرِ: كلُّ شرابٍ يُذهِبُ عقْلَ الإنسان ويُفقِدُهُ توازنَ حواسِّه وإدراكَه، والمرادُ بالمَيسِرِ: نوعٌ من القِمار يحوزُ الإنسانُ من خلاله مالًا كثيرًا دونَ بَذْلِ مجهود، في حينَ أنّ الكثيرينَ من الحَمْقَى يُضيِّعونَ كلَّ ما اكتَسَبُوهُ في حياتِهم (في لعبِ القمار)، ثم يَقْضُونَ ما بقِيَ من عُمُرِهم في التَّسوُّل، وفي النَّدَم على ما فَعَلوه من سُوء.

كان العربُ في القديم يشربونَ الخمرَ كما يشربونَ الماءَ، ولذا كان من الصَّعبِ عليهم التخَلِّي عن شُربِ الخمرِ دَفْعةً واحدةً، ومن هنا نَزَل تحريمُ شُربِ الخمرِ متدرّجًا، وكان هذا هو **أولَ حُكم** في هذا الخصُوص، أي: تنفيرُ النّاسِ من الخمر، حتى يستعِدَّ الذِّهنُ لقَبولِ تحريمِه.

وكان سببَ نُزولِ هذه الآية: أنّ سيِّدَنا عُمرَ بنَ الخطّاب وسيِّدَنا معاذَ بنَ جَبَل وبعضَ الأنصارِ رضيَ اللهُ عنهم جميعًا جاءوا إلى رسولِ الله ﷺ وقالوا: **أَفْتِنا في الخَمرِ والميسِر، فإنَّهما مَذْهَبةٌ للعقل ومَسْلَبةٌ للمال. فأنزَلَ اللهُ تعالى هذه الآية**[1]، وهكذا نَزَلت هذه الآيةُ التي تُخبِرُنا أنّ الخمرَ والميسِرَ فيهما إثمٌ كبير، ورَغْمَ أنّ فيهما بعضَ الفوائدِ العارضة، إلّا أنّ ضرَرهما في الدِّينِ والدُّنيا عظيم. وما أن نَزَلت هذه الآيةُ حتّى تَرَكَ بعضُ النّاسِ شُربَ الخمر.

وذاتَ مرَّةٍ، في إحدى دَعَواتِ الطَّعام، وبعدَ أنْ تناولَ الحاضرونَ الخمر، وَقَفوا للصَّلاة، فقَرأَ الإمامُ الذي كان في حالةِ سُكرٍ آياتِ القرآنِ بصورةٍ خاطئةٍ لو قَرأَ بها وهو في كاملِ وَعْيِهِ لكانت سببًا في خروجِه من الدِّين، ولهذا نَزَل **الحُكمُ الثاني** أن ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء: ٤٣].

وبعدَ ذلك، قلَّ استعمالُ الخمرِ كثيرًا، ثم ذاتَ مرَّةٍ وفي دعوةِ طعام قُدِّم الخمرُ، وشربَه الحاضرونَ، وحَدَث شِجارٌ شديدٌ بينَهم، لدرجةٍ جُرح معَها البعضُ، فلمَّا أُخبرِ رسولُ الله ﷺ بما حَدَث نَزَل **الحُكمُ النِّهائيُّ** فيما يَتعلَّقُ بالخمر، أنْ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٌ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ ﴾ [المائدة: ٩٠][2].

---

(١) تفسير روح المعاني، سورة البقرة (٢): الآية ٢١٩.

(٢) حدّث مصعب بن سعدٍ عن أبيه، أنّه قال: أتيت على نفرٍ من الأنصار والمهاجرين، فقالوا: تعال نطعمك ونسقيك خمرًا، وذلك قبل أن تحرّم الخمر، قال: فأتيتهم في حشٍّ (والحشّ: البستان) فاذا رأس جزورٍ مشويٌّ عندهم، وزقّ من خمرٍ، قال: فأكلت وشربت معهم، قال: فذكرت الأنصار والمهاجرون عندهم، فقلت: المهاجرون خيرٌ من الأنصار، قال: فأخذ رجلٌ أحد لحيي الرّأس فضربني به فجرح بأنفي، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته، فأنزل الله عزّ وجلّ فيّ. يعني نفسه. شأن الخمر: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٌ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ ﴾. صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب ٥ برقم ٦٢٣٨.

وحينَ نَزَلت هذه الآيةُ **أمَرَ النّبيُّ ﷺ مُناديَه أن يُنادي فى سِكَكِ المدينة، ألا إنّ الخمرَ قد حُرِّمت؛ فكُسِرتِ الدِّنانُ، وأُريقَتِ الخمرُ حتّى جَرَتْ في سِكَكِ المدينة**[١].

ولا يمكنُ أنْ نجدَ مثيلًا لهذه الطَّاعةِ التي قام بها الصَّحابةُ الكرامُ للقرآنِ والسُّنـةِ في أيِّ مـكانٍ آخَرَ في الـعالَم. انظُرْ إلى ما قـالتْه «دائرةُ المعـارفِ» في هذا الخصوص: «لقد قام الإسلامُ بخُطوةٍ متميِّزة للغايةِ في القرن السابع الميلاديِّ بمَنْعِه شُربَ الخمر، فحرَّم القرآنُ شُربَ الخمر، وعلى الفَوْرِ تخَلَّى عنه تمامًا متَّبِعو المصطفى عليه الصَّلاةُ والسلام»[٢].

"Quite a different kind of religious control was adopted in the 7th century in Islam: The Qur'an simply condemned wine, and the result was an effective prohibition wherever the devout followers of Muhammad (pbuh) in Arabia and other lands prevailed".

والآنَ، تعالَوْا بنا نرى ماذا قالت «دائرةُ المعارِف» هذه نفسُها عن أمريكا وحكوماتها:

«ظلَّتْ (هذه الحكوماتُ) تضَعُ القيودَ على شُربِ الخمرِ منذُ قديم الزَّمن، ولكنّ هذه الجهودَ فَشِلتْ ـ في أغلبِ الأحيان ـ في تحقيقِ النتائج المَرْجُوّة، وأشهَرُ فَشلٍ في هذا الخصُوص كان للحكومة الأمريكيَّة التي حاولتْ ـ وبكلِّ قوة ـ فَرْضَ حَظْرٍ على شُربِ الخمر من عام ١٩١٩م حتى عام ١٩٣٣م، ولكنها في النِّهاية فَشِلت»

"Governmental efforts to control alcoholic beverages go back as far as recorded history. The laws often failed to produce the desired

---

(١) تفسيرالقرطبي، سورة المائدة (٥): الآية ٩١.

(٢) دائرة معارف برتانيكا، الطبعة الخامسة عشرة، ١٩٩٥م.

effects. The most resounding failure was that in the United States from **1919** to **1933**".

إنّ الإنسانَ لَيحصُلُ على مُتعةٍ مؤقَّتةٍ بشُربه الخمرَ، ويتخلَّصُ ـ بشكلٍ مؤقَّت ـ من الهموم والأحزانِ والإرهاق، لكنَّه إنْ تحدَّث إلى أحدٍ في حالةِ السُّكرِ كان حديثُه بلا معنى، وإذا أَبْرمَ أمرًا معَ أحدٍ لحِقَتْه الخسارةُ، وإنْ ذهَبَ إلى بيتِه صَعُبَ عليه التمييزُ بينَ زوجتِه وابنتِه، وإنْ كان في مجلسٍ دَبَّ الشِّجارُ فيه، وإنْ قاد سيارةً أصابَه حادثٌ، وإنْ وَقَف للصَّلاةِ أخطَأَ في تلاوةِ القرآن، وإذا لم يتوفَّرْ له المالُ الذي يشتري به الخمرَ لم يتورَّعْ عن السَّرِقة، وباختصار، يمكنُ توقُّعُ أيِّ فعلٍ حيَوانيٍّ منه في حالِ زوالِ عقلِه بالخمر.

ولْتقرَأْ ما وَرَد في «دائرة معارفِ بريتانيكا» عن الأضرارِ: الفَرْديَّةِ والاجتماعيَّةِ للخمر، وسوف تصيبُك الدَّهشةُ من أنّ متعاطيَ الخمورِ لا يضُرُّ صحَّتَه ومالَه فقطْ، وإنّما يَخلُقُ مشاكلَ لا حصْرَ لها لأُسرتِه وحكومتِه ومجتمعِه، فكيف يتحمَّلُ الإسلامُ مثلَ هذه الخبائثِ وهو دينُ الشَّرف والعِفّةِ والأمنِ والسَّلام! ولهذا، فإنّ حُكمَ الإسلام ـ فيما يتَعلَّقُ بالخمرِ ـ واضحٌ وصريح، فقد قال نبيُّ الإسلام سيِّدُنا محمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلام: «**كلُّ مُسْكرٍ خمرٌ، وكلُّ مسكرٍ حرامٌ**»[1].

ذاتَ مرَّة، دُعِيتُ لإلقاءِ محاضرةٍ عن الإسلام في كُلِّيةِ (وِنْدسُر) بالقُربِ من لندن، وفي الوقتِ المحدَّد للأسئلةِ والردِّ عليها سألَتْني سيِّدةٌ مسيحيَّة: لماذا يُحرِّمُ الإسلامُ الخمرَ؟ فقلتُ لها: شُربُ الخمرِ ليس ممنوعًا في هذه البلاد (بريطانيا)، ولكنْ لم لا يشرَبُ سائقُ السيّارةِ الخمرَ قبلَ قيادتِها؟ فقالت السيِّدةُ: لأنه مسئولٌ عن الحفاظِ على روحِه وروح الرُّكّابِ معَه وسلامةِ المَرْكَباتِ الأخرى في الشارع.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الأشربة، باب ٧ برقم ٥٢١٩.

ولأنّ الخمرَ يُزيلُ العقلَ، ويُعجِزُ الإنسانَ عن القيام بمسئوليَّاتِه حال سُكرِه، لهذا غيرُ مسموح للسائقِ أن يشربَ الخمر. قلتُ لها: أنتِ تعتقدينَ أنّ مسئوليَّةَ الإنسانِ تكونُ عندَما يقودُ السيَّارةَ فقطْ، ولكنّ الإسلامَ يَرى أنّ الإنسانَ مسئولٌ في كلِّ وقت، سواءٌ كان في البيتِ أو في السُّوق أو في السيّارة أو في الكُلِّية. وهنا قالتِ السيِّدة: ليس على الإنسانِ مسئوليَّةٌ حين يَخلُدُ إلى النَّوم ليلًا، ومعَ ذلك فالإسلامُ لا يَسمَحُ له بشُربِ الخمرِ في مِثل هذا الوقتِ أيضًا. قلت: لو أنّكِ احتَسَيْتِ الخمرَ ثم نِمتِ في الحاديةَ عشْرةَ ليلًا، وفي الثانيةَ عشْرةَ ليلًا شَبَّ حريقٌ ـ لا قَدَّر الله ـ في بيتِكِ، أخبريني، ماذا ستفعلينَ عندَئذٍ؟ أنتِ نفسُكِ لستِ في وَعْيِك، لا تشعُرينَ حتى بنفسِك، وقد تحترقينَ عندَئذٍ، ويحترقُ أطفالُكِ كذلك، وبيتُكِ أيضًا، أمّا إنْ لم تكوني في حالةِ سُكر، فإنّكِ عندَئذٍ قد تنتبهينَ عندَما يشِبُّ الحريقُ فتشعُرينَ بتسرُّبِ الدُّخانِ أو حرارةِ النّار، وعندَئذٍ ستَنهضِينَ وتُحاولينَ الهروبَ خارجَ البيت، وتَصيحينَ طالبةً العَوْنَ والمساعدةَ، وسيجتمعُ النّاسُ، وسيأتي رجالُ المطافئ، فتنجينَ بنفسِك، وينجو أطفالُكِ، وكذا بيتُكِ. وعندَئذٍ وقَفَت السيِّدةُ وسَطَ الاجتماع قائلةً: "It does make sense"، حقًّا، إنّ حُكمَ الإسلام صحيح.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾

١٧٩ـ إنْ كان عندَ أحدٍ فائضٌ من المالِ بعدَ أداءِ الزَّكاةِ المفروضةِ عليه فعليه أن يمُدَّ يدَ المساعدةِ للفقراءِ والمحتاجينَ، لكنّ عليه أنْ يُراعيَ الاعتدالَ، فيُعطيَ بقَدْرِ ما تَسمحُ به نفْسُهُ وهُو راضٍ، بمعنى: أنْ لا يُنفقَ بالقَدْرِ الذي يجعَلُه في اليوم التالي يمُدُّ يدَ السؤالِ إلى الآخَرينَ، وفي نفْسِ الوقتِ لا يبخَلُ إلى الحدِّ الذي تمتلئُ خزائنُه بالمالِ في الوقتِ الذي يموتُ فيه جارُه الفقيرُ من الجوع.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾

١٨٠ـ بعضُ النّاسِ يُشرِكونَ اليتامَى معَهم بقَصْدِ الاستيلاءِ على أموالِهم.

وحين جاء الوعيدُ الشَّديدُ لهؤلاءِ في القرآنِ الكريم خافَ الصَّحابةُ الكرامُ رضيَ اللهُ عنهم جميعًا، وفَصَلوا كلَّ ما يخُصُّ اليتامَى عمّا يخُصُّهم، حتّى أنّهم كانوا إذا تَبَقَّى من طعام اليتيم شيءٌ لم يَستعمِلوهُ، حتّى وإن كان سَيفسُدُ، وهكذا كانت هناك مشَقَّةٌ كبيرةٌ في طَبْخ وإعدادِ الطَّعام لكلٍّ على حِدَةٍ.

ومن هنا نَزَلتْ هذه الآيةُ الكريمةُ: أنْ إذا أردتُم خيرَ اليتامَى بمُشاركتِهم في العمَل والطَّعام فلا حَرَجَ، والوعيدُ الشَّديدُ في القرآنِ الكريم لأولئك الذين يأكُلونَ مالَ اليتيم بغيرِ حقٍّ، ولو شاء اللهُ لَشقَّ عليكُم بالأمرِ بجَعْلِ كلِّ ما يخُصُّ اليتيمَ منفصِلًا، لكنه تعالى حكيمٌ ويعلَمُ ما في الصُّدور.

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾

١٨١ـ لقد ظَهَر الاختلافُ الفِكْريُّ بيْنَ الإسلام والكُفرِ ـ بوضوح ـ وقتَ ظهورِ الإسلام، ولكنْ لم يكنْ من المناسبِ قطْعُ العلاقاتِ الأُسَريَّةِ هكذا دَفْعةً واحدة، ولهذا ظلَّت علاقاتُ الزَّواج قائمةً بيْنَ المسلمينَ والكفَّارِ في الفترةِ الأولى، ولكنْ حينَ تأسَّستِ الدَّولةُ الإسلاميَّةُ في المدينةِ المنوَّرة، نَزَلتْ هذه الآيةُ قائلةً: إنه لا يجوزُ لأيِّ رجلٍ مُسلم أن يتزوَّجَ بامرأةٍ كافرة، وكذلك لا يجوزُ لأيِّ امرأةٍ مسلمةٍ أن تتزوّج بكافر؛ لأنّ الكفَّارَ يحُضُّونَ على الأعمالِ التي تقودُ إلى جهنَّم، بيْنَما يدعو الإسلامُ إلى الأعمالِ التي تَجعَلُ الإنسانَ مستحِقًّا للجنَّة، وبالتالي فإنّ الطريقَيْنِ مختلفان، والتقاؤهما غيرُ مُمكن.

ملحوظة: راجعْ حُكمَ الإسلام في الزَّواج بالمرأةِ الكِتابيَّةِ، في تفسيرِ الآية الخامسة من سُورة المائدة.

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾

نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾

١٨٢ ـ كان اليهودُ إذا حاضَتِ المرأةُ يعتزلونَها بالكُلِّيَّة! حتّى إنّهم لم يكونوا يتناولونَ الطَّعامَ الذي تَطهُوهُ بنفسِها، أمّا المسيحيُّونَ فلم يكونوا يتجنَّبونَ النِّساءَ بالكُلِّيَّة، حتى أنّهم كانوا يُجامعونَها في حالةِ الحَيْضِ أيضًا.

ولمّا سُئلَ النبيَّ ﷺ عن هذا الأمرِ نَزَلتْ هذه الآيةُ، وفيها قال النبيُّ ﷺ موضِّحًا: «**اصنَعوا كلَّ شيءٍ غيرَ النّكاح**»[1]، أي: أنّ جلوسَ الزَّوج معَ زوجتِه وهي في حالةِ الحَيْض، وتناوُلَ الطَّعام والشَّرابِ معَها، كلُّها أمورٌ جائزة، والممنوعُ فقَطْ هو الجِماع.

---

(١) عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه، قال: إنّ اليهود كانت إذا حاضت منهم المرأة أخرجوها من البيت ولم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجامعوها في البيت، فسئل رسول الله ﷺ عن ذلك، فأنزل الله تعالى ذكره: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾. إلى آخر الآية، فقال رسول الله ﷺ: «جامعوهنّ في البيوت، واصنعوا كلّ شيءٍ غير النّكاح». سنن أبي داود، كتاب الطهارة، باب ١٠٢ برقم ٢٥٨.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾

١٨٣ ـ على سبيل المثال، إذا أقْسَم أحدُ الحَمْقَى بالله أنْ لا يتحدَّثَ معَ فلانٍ قريبِه، أو أنه لن يفعَلَ الخيرَ مع فلانٍ بعَيْنِه، أو لن يتصالحَ معَ أخيه الغاضبِ منه، وقام أحدٌ بِحثِّه على إعادةِ النَّظرِ في هذا التفكيرِ ثانيةً فَردَّ عليه قائلًا: لقد أقْسمتُ ألاّ أفعلَ هذا، ولئنْ فعلُته لَحَنِثْتُ في قَسَمي.

فجاءت هذه الآيةُ لتُخبرَنا أنْ **لا نستعملَ اسمَ الله في عَدَم فِعل الخير**، بل إنّه إذا أقْسَم أحدٌ على فعلِ أمرٍ يَضُرُّ أحدًا أو يُغضِبُ اللهَ تعالى فعليهِ أن يَحنَثَ في قَسَمِه ويؤدِّيَ كفّارةَ اليمين، وهي إطعامُ عشَرةِ مساكينَ أو كُسوتُهم أو صَوْمُ ثلاثةِ أيام.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾

١٨٤ـ يعني: أنّ اليمينَ الذي يُقسِمُه الشَّخصُ، غيرَ عامدٍ، وبحُكم العادة: لا يؤاخِذُه اللهُ عليه، لكنّ القَسَمَ الكاذبَ، الذي يكونُ متعمَّدًا، هو الذي يُحاسبُه اللهُ عليه.

﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾

١٨٥ـ لو أقْسَم شخصٌ على أنْ لَا يقرَبَ زوجَته، وحَنِثَ في قَسَمِه خلالَ أربعةِ أشهُر: لا يَبطُلُ نِكاحُه، وعلى الزَّوج حينَئذٍ أن يؤدِّيَ كفّارةَ اليمين، أمّا إن مضَتْ أربعةُ أشهُرٍ ولم يَعُدْ في قَسَمِه، فهذا يعني أنه عازمٌ على تطليقِ زوجتِه، ولهذا يَبطُلُ زواجُه تلقائيًا، والإسلامُ لا يرضَى بهذا الظُّلم للمرأة، بمعنى: أنْ تبقَى على ذِمّةِ الرجُلِ وفي الوقتِ نفسِه تبقَى محرومةً من الحقوقِ الزَّوجيَّة.

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾

١٨٦ـ المرأةُ التي تُطلَّق لا يجوزُ لها أن تتزوَّجَ على الفَوْر ثانيةً، وإنّما يجبُ

عليها أن تنتظرَ حتّى تَحِيضَ ثلاثَ حَيْضات، لتَعرِفَ على وجهِ اليقين حقيقةَ أمرِها (إن كانت حاملًا أم لا)، فإنْ كانت حاملًا يُنسَبُ المولودُ إلى والدِهِ.

والشَّريعةُ تُطلِقُ على هذه الفترةِ من الانتظارِ اسمَ (العِدَّة)، وإن تَبدَّلتْ إرادةُ الزَّوج خلالَ فترة العِدَّة، وأراد الرجوعَ عن الطَّلاقِ فهُو أمرٌ طيِّبٌ بشَرْطِ أن لا يكونَ قد طَلَّقَ الطلقةَ الثالثةَ.

ومُدّةُ العِدّةِ المذكورةِ تخُصُّ تلك المرأةَ التي جامَعَها زوْجُها، وكانت شابّةً وغيرَ حامل، أمّا عِدّةُ بقيَّةِ النِّساءِ فهي مختلِفةٌ، فعلى سبيل المثال:

* لو طُلِّقت المرأةُ قبلَ أن يُجامعَها زوْجُها فلا عِدّةَ لها، وتستطيعُ الزَّواجَ ثانيةً وقتَما تشاء[1].

* لو كانتِ المطلَّقةُ لا تَحِيضُ لصِغَرِ سنِّها أو لِكِبَرِه، فإنّ عِدَّتَها ثلاثةُ أشهر[2].

* لو كانتِ المطلَّقةُ حاملًا فعِدَّتُها: وَضْعُ الحَمْل (حتى وإنْ وَضَعتْ في اليوم التالي لطلاقِها)[3].

* المرأةُ التي مات عنها زَوْجُها عِدَّتُها أربعةُ أشهُرٍ وعشَرةُ أيام[4].

وينبغي على المرأة، أيًّا كانت، أن تَقضيَ هذه المُدةَ حُزنًا على زوجِها، إلّا أن تكونَ حاملًا فإنّ عِدَّتَها: وَضْعُ الحَمْل.

---

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَا﴾ [الأحزاب: ٤٩].

(٢) ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَ﴾ [الطلاق: ٤].

(٣) ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ﴾. [الطلاق: ٤].

(٤) ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗا﴾ [البقرة: ٢٣٤].

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

١٨٧ـ مثلَما أنّ للأزواج على الزَّوجاتِ حقوقًا، فإنّ للزَّوجاتِ أيضًا حقوقًا على الأزواج، وعلى كلِّ فريقٍ أن يحترمَ حقوقَ الآخر، فيَحرِصُ الزَّوجُ على حُسنِ المعاملة، وتَحرِصُ الزَّوجةُ على حُسنِ الطَّاعة.

إلّا أنّ للرِّجالِ على النِّساء أفْضَليَّةً، ولكنّ هذا لا يعني أن يَستعمِلَ الرَّجلُ أفْضَليَّتَه بصورةٍ خاطئة، على العكسِ من ذلك، نَبَّهه القرآنُ الكريمُ أنّ اللهَ تعالى غالِبٌ وحكيم، ولئنْ ظَلَم زوجتَه فمَن يُنجِيه من عقابِ اللهِ تعالى؟

ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا﴾

١٨٨ـ في زَمَنِ الجاهليَّةِ لم يكنْ هناك حَدٌّ للطَّلاقِ والرُّجوع عنهُ، فالمرأةُ التي يَغضَبُ منها زوجُها يُطلِّقُها مرَّاتٍ ومرَّات، ويُراجِعُها قبلَ مرورِ العِدَّة، وبهذا لم يكنْ يجعَلُها تستقرُّ في بيتِها، وفي نفسِ الوقت، لا يَدَعُها حُرّةً طَليقة.

وقد أغْلقَ القرآنُ الكريمُ طريقَ الظُّلم هذا، وحَدَّد حقَّ الطَّلاقِ للرجُلِ بثلاثِ مرَّات، فبعدَ أن يُطلِّقَ زوجتَه للمرَّةِ الأولى له الحقُّ في أن يُراجعَها، وكذلك بعدَ أن يُطلِّقَها في المرَّةِ الثانية، وفي هذا وقتٌ كافٍ تمامًا لكي يُعيدَ الزَّوجُ النظَرَ في قرارِه، لكنّه إنْ طَلَّقَها للمرَّةِ الثالثةِ فهذا دليلٌ على أنه ليس مستعِدًّا لأنْ يُبقِيَ على هذه المرأةِ في عِصمتِه بأيِّ حالٍ من الأحوال، ولذا لا يجوزُ له مراجعتُها.

وفي هذا الوَضْع الحَسَّاسِ أيضًا يُرشِدُ القرآنُ الكريمُ الزَّوجَ إلى أن يتبنَّى السلوكَ الطيِّبَ مَع زوجتِه حينَ الطَّلقةِ الثالثة، فإنْ طَلَّقَها فلا يَستعيدُ منها ما أعطاها إيّاهُ أثناءَ فترةِ زواجِه بها من صَداقٍ أو هدايا، بل عليه ـ إنْ أمكَنَ ـ أن يُقدِّمَ لها ما يُهدِّئُ من رَوْعِها ويُطمئنُ قلبَها.

﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦ﴾

١٨٩ـ فإنْ ضايَقَ أحدٌ زوجتَه، وفي نفسِ الوقتِ لم يُطلِّقْها، أو كَرِهتِ المرأةُ زوجَها بحيثُ لم يبقَ هناك أملٌ في أن يتَصالَحا، بل وأصبح هناك خوفٌ من أنْ لا يُقيما حدودَ اللهِ ويَلتزِما بها، فإنّ المرأةَ ـ في هذه الحالة ـ تستطيعُ أن تنفصلَ عن زوجِها.

ويُطلَقُ على هذا الطلاقِ في الفقهِ مصطلحُ (الخُلْع)، يعني: أنْ تطلُبَ المرأةُ من حاكم الوقتِ (الجهةِ المسئولةِ عن هذا الأمرِ في البلاد) أن يَخلَعَ عنها زوجَها، وعلى حاكمِ الوقتِ أن يُحاولَ أولًا الصُّلحَ بينَهما، وفي حالةِ فَشَلِه في هذا يَستردُّ من الزَّوجةِ الصَّداقَ لزوجِها، ثم يُفرِّقُ بينَهما، وفي طلاقِ الخُلْع هذا لا يَحِقُّ للرَّجلِ الرُّجوعُ فيه؛ لأنّ المرأةَ طَلُقَتْ منه بعدَ أن دَفَعتْ عِوَضًا لذلك، ولكنْ يمكنُ لهذا الرَّجُل إنْ أراد أن يتزوَّجَ ثانيةً بهذه المرأةِ عن رضًى، فله ذلك.

﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ﴾

١٩٠- المرادُ بالطَّلاقِ في هذه الآيةِ: الطَّلاقُ الثالثُ، أي أنه بعدَ الطَّلقةِ الثَّالثةِ لا يجوزُ للرَّجُلِ مراجعةُ المرأة، ولا يجوزُ أن يَنكِحَها ثانيةً، إلّا أنْ تتزوَّجَ هذه المرأةُ برَجُلٍ آخَر، وتَعيشَ هيَ معَ هذا الآخَرِ حياةً طبيعيَّةً يُجامعُها فيها، ثم يقومُ الزَّوجُ الثاني - بمَحْضِ إرادتِه - بتطليقِها، أو أنْ يُقدِّرَ اللهُ له الوفاةُ، وفي هذه الحالةِ يجوزُ أن تتزوَّجَ بزوجِها الأول، ولكنْ بشَرْطِ أن يَغلِبَ على ظَنِّهما أنّهما سيؤدِّيانِ الحقوقَ الشَّرعيَّةَ للزَّواج، أمّا أن يقومَ شخصٌ بتزويج مطلَّقتِه لآخَرَ بغَرَضِ تحليلِها لنفسِه فيما بعدُ، مشترِطًا أن يُطلِّقَها زوجُها الثاني، فإنّ هذا أمرٌ لا يجوزُ من الأساس، ولا يمكنُ أن يَقبَلَه إنسانٌ حُرٌّ ذو كرامةٍ على نفسِه.

﴿ وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖۚ وَلَا تُمۡسِكُوهُنَّ ضِرَارٗا لِّتَعۡتَدُواْۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا ﴾

١٩١- يعني: إذا انتهتْ عِدّةُ الطَّلاقِ الرَّجْعي، وأردتَ أن تُقيمَ حياتَكَ الزَّوجيَّةَ بنِيَّةٍ حَسنةٍ، فلكَ أن تُراجعَ زوجتَك، وإلّا فطلِّقْها بالمعروف، ولا تُراجِعْها لمجرَّدِ أنك تريدُ أن تنتقمَ منها أو تَظلِمَها؛ لأنّ مثلَ هذا الأمرِ سيكونُ بمثابةِ السُّخْريةِ من أحكام الله عزَّ وجلّ، ومن يفعَلْ ذلك فإنّه حينَئذٍ يكون ظالمًا لنفسِه وليس للمرأة، ويكونُ مستحِقًّا للعذابِ الشديد.

﴿ وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ ﴾

١٩٢- يعني: إذا أتمَّتِ المرأةُ المُطلَّقةُ طلاقًا رَجْعيًّا فترةَ عِدَّتِها، وأرادتْ أن

تَنكِحَ زوجَها الأولَ، وكلٌّ من الزَّوجِ والزَّوجةِ راضٍ بهذا الزَّواج وبنيَّةٍ حسَنة، فعلى أهل هذه المرأةِ أن يَسمَحوا لها بالزَّواج منه، ولا يحاولوا منْعَها منه.

۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾

﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ ﴾

١٩٣ـ المرأةُ المُطلَّقةُ التي لدَيْها طفلٌ رَضِيع إنْ لم يستطعْ والدُه أن يُهيِّئَ له مُرضِعةً تُرضِعُه فيجبُ على المطلَّقةِ أن تُرضِعَ ولدَها، وفي هذه الفترةِ على الزَّوج أيضًا أن يُهيِّئَ للمرأةِ طعامَها وشرابَها وكُسوتَها بقَدْرِ استطاعتِه، وإن مات أبو الطِّفل يتحمَّلُ هذه النَّفقاتِ مَن يحُلُّ محلَّه مِن وَرَثتِه.

﴿ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ ﴾

١٩٤ـ على سبيل المثال، إنْ أرادتِ الأُمُّ أنْ تُرضِعَ وَلَدَها بنفسِها: فلا

يجوزُ أخْذُ الولَدِ منها عَنْوةً، وإذا كان والدُ الطِّفل يستطيعُ أن يتحمَّلَ نفَقاتِ امرأةٍ أخرى تُرضِعُه لا يجوزُ له إجبارُ الأُمِّ على إرضاع وَلَدِها على غيرِ رغبتِها، وبنفسِ الطريقةِ، إذا لم يَستطعِ الرجُلُ أن يتدبَّرَ أمرَ امرأةٍ أخرى للرَّضاعةِ فلا ينبغي أن تمتنعَ الأُمُّ عن إرضاعِ وَلَدِها، ولا أن تَطلُبَ من الرَّجُلِ أجرًا فوقَ طاقتِه.

وباختصار، على الأُمِّ والأبِ أن يتَعاملا معًا معاملةً حسنةً، وأن يتَسامَح كلٌّ منهما معَ الآخَر ويُراعيَ ظروفَه وأحوالَه.

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾

١٩٥ـ أي: يمكنُ للرَّجُلِ أن يُرضِعَ طفلَه منَ امرأةٍ أخرى غيرِ أُمِّه، بشَرْط أن يكونَ الأَجْرُ طِبقًا لِما هو متعارَفٌ عليه، وبنفسِ الطريقة إذا انتَهتْ عِدّةُ أُمِّ الطِّفلِ يمكنُها أن تتقاضَى أجرًا على إرضاعِها طفلَها من مُطلِّقِها؛ لأنَّها ـ في هذه الحالةِ ـ لم تَعُدْ زوجةً له.

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾

١٩٦ـ المرأةُ التي يموتُ عنها زَوْجُها عِدَّتُها أربعةُ أشهُرٍ وعشرةُ أيام، وخلالَ هذه المُدّةِ لا تستطيعُ أن تتزوَّجَ ولا أن تتزيَّن، وإنّما تقومُ بالحِدادِ على زوجِها، ولا تَخرُجُ من بيتِها إلّا لضَرورةٍ.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾

١٩٧ـ المرأةُ التي يُتَوفَّى عنها زوجُها لا يجوزُ لأحدٍ أن يتحدَّثَ معَها في أمرِ الزَّواج منها بشكلٍ صريح، ولا يجوزُ كذلك أن يتَّفقَ معَها خُفْيةً على أمرِ هذا الزَّواج،

ولكنْ إن أظهَرَ الرَّجلُ هذه الرَّغبةَ بالإشارةِ أو الكنايةِ فلا حَرَجَ في ذلك، وإن كان من الأفضَل الانتظارُ حتى تنتهيَ العِدَّة.

لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾

﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾

١٩٨ـ لو أنّ أحَدًا تَزَوَّجَ بغيرِ أن يُحدِّد صَداقًا بعَيْنِه، ثم طَلَّقَ زوجتَه قبْلَ الجِماع، فلا يَلزَمُه أن يَدفعَ مهرًا، لكنّ الرَّجلَ يُقدِّمُ للمرأةِ من عندهِ بقَدْرِ استطاعتِه؛ لأنه يَلزَمُ الطيِّبينَ أن يتعاملوا بحُسنِ السُّلوك.

﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾

١٩٩ـ لو أنّ أحدًا حدَّدَ الصَّداقَ عندَ النِّكاح وطَلَّق قبْلَ الجِماع، فيجبُ عليه

أداءُ نصفِ هذا الصَّداق، ويمكنُ للمرأةِ أن تَعْفوَ عن هذا النِّصفِ إنِ استطاعت، كما يمكنُ للرَّجُلِ أن يُعطيَ أكثرَ من النِّصفِ إنِ استطاع، بل إنّ الأَوْلى من بابِ التَّقوى أن يؤدِّيَ الرَّجلُ الصَّداقَ كاملًا بدَلًا من النِّصف.

﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾

٢٠٠- اللَّفظُ الأوّلُ والأخيرُ في هذه الآيةِ يشمَلانِ كلَّ الآدابِ: الظَّاهرةِ والباطنةِ للصَّلاة، يعني: أدُّوا الصَّلاةَ، وكلَّ الصَّلوات ..... أدُّوا الصَّلاةَ دائمًا، وفي أوقاتِها الصَّحيحة .... بقلبٍ حاضرٍ ونيَّةٍ خالصة ..... بخشوعٍ وتواضُع ...... وأن يكونَ الجسمُ مُزْدانًا بالطَّهارةِ الظَّاهرة ..... والنفْسُ معتادةٌ على الأكلِ الحلال ..... واللِّسانُ معتادًا على ذِكرِ الله ... والقلبُ يملأُهُ الخوفُ من الله ..... وأن يكونَ كلُّ هذا طِبقًا لسُنَّةِ المصطفى ﷺ .... فما هو شأنُ مثلِ هذه الصَّلاةِ التي تؤدَّى بهذا الشَّكل؟ .... هذه الصَّلاةُ رُكنُ الدِّين[1] .... دليلُ الإيمان[2] .... نورٌ يومَ القيامة[3] .... مِفتاحُ الجنَّة[4] ..... ووسيلةٌ للقُربِ من الله[5]. يا الله، وفِّقْنا إلى مِثل هذه الصَّلاةِ التي تكونُ مقبولةً في حضرتِك، آمين.

﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾

٢٠١- المرادُ بالصَّلاة الوُسطَى: صَلاةُ العصر، ويُمكنُ أن يكونَ أحدَ أسبابِ ذِكرِ اللهِ لها هنا أنّ النّاسَ عمومًا يكونونَ مشغولينَ في تجارتِهم وأعمالِهم

(١) شعب الإيمان.

(٢) مسند الإمام أحمد.

(٣) مسند الإمام أحمد.

(٤) مسند الإمام أحمد.

(٥) القرآن الكريم.

الدُّنيَويَّةِ عندَ العصر، ولهذا يُنبِّهُهم اللهُ تعالى إلى أنّ كلَّ هذه الأعمالَ عارضةٌ مؤقَّتة، وستتركونَها وراءكم في الدُّنيا، فانهَضُوا وصَلُّوا، فإنّ الصَّلاةَ هي التي ستَصحَبُكم في قبورِكم ويومَ حشرِكم.

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾

٢٠٢ـ إذا رأى الشَّخصُ عندَ الصَّلاة عدوًّا أو مفترسًا أو ما إلى ذلك ممَّا يُمثِّلُ خطَرًا على النفْس، فإنّه ـ في هذه الحالة ـ يستطيعُ أن يؤدِّيَ الصَّلاةَ راكبًا أو راجلًا، ويؤدِّيَ الركوعَ والسُّجودَ بالإشارةِ حتّى يتجنَّبَ الخَطَرَ ويحتاطَ له، وإنْ لم يكنْ في وَضْع يَسمَحُ له بالاتِّجاهِ إلى القِبلة فلْيُصَلِّ حيثُ وَجهُه.

وهذه الآيةُ تدُلُّ ـ من ناحية ـ على أهميَّةِ الصَّلاة، بأنّ الإنسانَ لا يُعفَى منها حتّى في وقتِ الخَطَر، ومن ناحيةٍ أخرى، تشهَدُ على مرونةِ الإسلام، بأنْ يؤدِّيَ الإنسانُ صلاتَه كيفَما تيسَّرَ له، ولكنْ حين تنتهي حالةُ الخَوْف عليه أن يؤدِّيَ الصَّلاةَ كما أمَرَ اللهُ بها.

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾

٢٠٣ ـ في بدايةِ الإسلام كانت عِدّةُ المرأةِ المتوفَّى عنها زوْجُها عامًا كاملًا، وهو ما نُسِخ في السُّورةِ نفسِها بالآية رقم ٢٣٤، فأصبحتْ أربعةَ أشهُرٍ وعَشْرًا، ونَفقةُ المطلَّقةِ أثناءَ عِدَّتِها واجبةٌ على مطلِّقِها، كما أنّ نفَقةَ المتوفَّى عنها زوجُها واجبةٌ على وَرَثتِه.

وللعِدّةِ حِكمةٌ أخرى أيضًا هي: أن يَعلَمَ إن كانت المرأةُ حاملًا أم لا، ولأنّها إن كانت حاملًا فإنّها تبقَى بغيرِ زَواج حتى تَضَعَ حَمْلَها، حِفاظًا على نَسَبِ الزَّوج، لهذا يتحمَّلُ هذا الزَّوجُ نفَقاتِها.

۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَـٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَـٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَـٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ﴾

٢٠٤ـ الموتُ حقيقةٌ عالميَّةٌ لا يمكنُ لأحدٍ الفِرارُ منه، ولكي يُبيِّنَ لنا القرآنُ الكريمُ هذه الحقيقةَ ضَربَ لنا مثَلًا بقوم سابِقين، هَرَبوا من ديارِهم فِرارًا من الموتِ تاركينَ خَلْفَهم كلَّ ما يَملِكونَ، لكنّ اللهَ تعالى سَلَّط عليهمُ الموتَ، وبعدَ فترةٍ أحياهُم موضِّحًا لهم أنّ الفِرارَ من الموتِ مستحيل.

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾

٢٠٥ـ وبعدَ توضيح أنّ الفِرارَ من الموتِ غيرُ ممكنٍ، بدَأ يُرغِّبُ المسلمينَ هنا في الجهادِ قائلًا بأنّ الرُّوحَ إنْ عاجلًا أو آجلًا ستصعَدُ إلى بارئها، لكنْ كم هو سعيدُ الطَّالع ذلك الشَّخصُ الذي يُضحِّي بروحِه في سبيل رِفعةِ الدِّين!

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ﴾

٢٠٦ـ الإنسانُ الذي يُقدِّمُ لله ـ بنيّةٍ خالصةٍ ـ من كَسْبه الحلالِ قرضًا حسَنًا، أي: ينفقُ في سَبيل الله، فإنّ اللهَ تعالى يُعطيه أضعافَ أضعافِ قَرْضِه، ويُغنيه ببركاتِه في الدُّنيا والآخِرة، وسَعةُ الرِّزق وضِيقُهُ في يدِ اللهِ تعالى، فلْتُنفِقْ في سبيلِ اللهِ بسَعةِ صَدْر؛ لأنّ اللهَ تعالى وَعَد بالزِّيادةِ أضعافًا مضاعَفةً، ولا تبخَلْ، فمنَ الممكنِ أن يُغضِبَه بُخلُك، فيجَعلَك محتاجًا مُفلِسًا.

أمّا كم من الأَجْرِ والثوابِ يَنالُه من يُنفقُ في سبيل الله فهذا ما يوضِّحُه مفهومُ الحديثِ الشَّريفِ التالي:

عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَن تصدَّقَ بِعَدْلِ تمرةٍ، من كسبٍ طيّبٍ، ولا يَقبَلُ اللهُ إلّا الطّيّبَ، وإنّ اللهَ يتقبَّلُها بيمينِه، ثمّ يُربِّيها لصاحبِه كما يُربِّي أحدَكم فُلُوَّه، حتّى تكونَ مِثلَ الجَبَل»[١].

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡ﴾

٢٠٧ـ بعدَ وفاةِ موسى عليه السَّلامُ حَدَثَ أنْ هَجَم العَمالقةُ على بني إسرائيلَ

---

(١) البخاري، كتاب الزكاة، باب ٨ برقم ١٤١٠. ويتكرر الحديث في الحاشية (٢٢٧)

واسَتْولَوْا على مُعظَم أراضي فِلَسطين، فقالت جماعةٌ من أسيادِ بني إسرائيلَ لسيِّدِنا شمويلَ عليه السَّلامُ: أنِ اجعَلْ علينا أميرًا نُجاهدِ العمالقةَ تحتَ قيادتِه ونحرِّرْ أرضَنا، فقال سيِّدُنا شمويلُ لهم، واضعًا في اعتبارِه سلوكَهم السابقَ: أخشَى أنْ يَفرِضَ اللهُ عليكم الجهادَ ثم تُعرِضوا عنه. فقالوا: هذا مستحيلٌ، لقد أخرَجَنا العمالقةُ من بيوتِنا، وفرَّقوا بينَنا وبينَ أطفالِنا، ولذا سنُحاربُهم تأكيدًا. ولكنْ عندما فُرِضَ الجهادُ عليهمُ امتَنَعوا جميعًا عن الجهادِ باستثناءِ عددٍ قليل للغاية.

واللهُ تعالى يقُصُّ هذه الواقعةَ على المسلمينَ هنا حتى يعتبروا من جُبْنِ بني إسرائيلَ وجِدالِهم الذي لا طائلَ من ورائه، ومن صَلَفِهم البغيضِ كذلك.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾

٢٠٨- وحينَ جَعَل اللهُ طالوتَ أميرًا على بني إسرائيلَ حسَبَ رغبتِهم، اعترَضوا عليه قائلينَ: إنه رجلٌ فقيرٌ ومن عامَّةِ النّاس! فكيف يكونُ أميرًا علينا؟ عندَئذٍ قال لهم سيِّدُنا شمويلُ: إنَّني لم أختَرْه لكم، ولكنّ اللهَ تعالى هو الذي جَعَلَه أميرًا عليكم، واللهُ تعالى عليم، يُعطي مُلكَه من يشاء، أمّا الإمارةُ والقيادةُ فتَحتاجُ إلى الأفضَليَّةِ في العِلم والشَّجاعة، ولا في العِرْقِ والمال، ومن هذا الجانِب فإنّ طالوتَ - بالفعل - متميِّزٌ عنكم جميعًا.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾

٢٠٩- وحين طالبتْ بنو إسرائيلَ بآيةٍ على اختيارِ طالوتَ، قال لهم سيِّدُنا شمويلُ: إنّ آيتَه أنّ الملائكةَ ستأتي أمامَكم عندَ طالوتَ بذلك الصُّندوقِ الذي

اغتَصَبه العَمالقةُ منكم، وفي هذا الصُّندوقِ بعضُ آثارٍ ممَّا تَرَكَ موسى وهارونُ عليهما السَّلامُ، والتي كانت قلوبُكم تطمئنُّ بفضلِها. وحينَ جاءتِ الملائكةُ بعَرَبةِ الثَّورِ التي وُضِع عليها الصُّندوقُ هَتَف بنو إسرائيلَ مُكبِّرين، وارتَفَعت معنويَّاتُهم، وتأكَّدوا من أنَّ طالوتَ أصبح مَلِكًا عليهم(١).

كان الصُّندوقُ يحتوي على عِصِيِّ موسى وهارونَ عليهما السَّلام، وعلى ملابسِهما، وقِطَع من التَّوراة، وحين كان بنو إسرائيلَ يحاربونَ الأعداءَ كانوا يضَعونَ الصُّندوقَ أمامَهم، ويتوسَّلونَ به إلى اللهِ تعالى أن يمُنَّ عليهم بالنَّصرِ على الأعداء(٢).

ويتَّضحُ من هذه الآيةِ أيضًا، أنَّ الأشياءَ التي تتعلَّقُ بعبادِ الله المقبولينَ عندَه يَقبلُ اللهُ ببركتِها الدُّعاءَ، ويُنجِّي من المصائب، ويَنصُرُ على الأعداء، ويؤيِّدُ ذلك ما جاء في سُورةِ يوسُفَ أيضًا، من أنّه «حين أُلقِيَ بقميصِ سيِّدِنا يوسُفَ عليه السَّلامُ على عَيْنَيْ يعقوبَ عليه السَّلامُ عاد إليه بصَرُه»(٣).

وكان الصَّحابةُ رضوانُ اللهِ عليهم أيضًا يُقدِّسونَ الأشياءَ المنسُوبةَ إلى سيِّدِنا محمَّدٍ رحمةِ العالَمينَ عليه الصَّلاةُ والسلام، ويعتبرونَها وسيلةً للحصُولِ على البَرَكة، وعلى سبيل المثال:

١ـ كانت أُمُّ المؤمنينَ السيِّدةُ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها تَغسِلُ جُبّةَ النبيِّ ﷺ،

---

(١) ووقف على بني إسرائيل، فكبّروا وحمدوا، وجدّوا فى حربهم واستوثقوا على طالوت. تفسير جامع البيان، ابن جرير الطبري، سورة البقرة (٢): الآية ٢٤٨.

(٢) وفى التّابوت: العصا وكسر الألواح والنّعلان والثّياب (تفسير الطبري، سورة البقرة (٢): الآية ٢٤٨)، فكانوا إذا اختلفوا فى شيء تكلّم وحكم بينهم، وإذا حضروا القتال قدّموه بين أيديهم يستفتحون به على عدوّهم. التفسير الكبير للإمام فخرالدين الرازي: السورة والآية نفسها.

(٣) القرآن: ١٢: ٩٣.

وتسقي المرضَى من ماءِ غسيلِها داعيةً لهم بالشِّفاء(١).

٢ـ في يوم معركةِ اليرموكِ ضاعتْ قَلَنْسُوةُ سيِّدِنا خالدِ بن الوليد رضيَ اللهُ عنه، فقال للمجاهدينَ: اطلُبوها، فلم يجِدوها، ثم طَلَبوها فوجَدوها، واذا هي قَلَنْسُوةٌ خَلِقَةٌ. فقال خالد: اعتَمَر رسولُ الله ﷺ فحَلقَ رأسَه وابتَدرَ النّاسُ جوانبَ شعرِه، فسبقتُهم إلى ناصيته فجعَلتُها في هذه القَلَنْسُوةِ، فلم أشهَدْ قتالًا وهي معي إلّا رُزِقتُ النَّصْرَ(٢).

٣ـ كانت شَعَرةٌ من شَعَرِ النبيِّ ﷺ الطَّاهر عندَ سيِّدِنا الإمام محمَّدِ بن إسماعيلَ البخاريِّ رحمةُ الله عليه، وكان يضَعُها في ملابسِه(٣).

٤ـ يقولُ سيِّدُنا ابنُ سيرين: قلتُ لسيِّدِنا عُبيدةَ: عندَنا شَعَرةٌ من شَعَرِ النبيِّ ﷺ، وقد حَصَلْنا عليها من سيِّدِنا أنسٍ رضيَ اللهُ عنه أو من أهل بيتِه. فقال: إنّ وجودَ شَعَرةٍ من شَعَرِ النبيِّ ﷺ عندي أحبُّ إليَّ من الدُّنيا وما فيها(٤).

٥ـ قال عِصمةُ بن عصام: حدَّثنا حَنْبلٌ، قال: أعطَى بعضُ وَلَدِ الفَضْل بن الرَّبيع أبا عبدِ الله ـ وهو في الحَبْس ـ ثلاثَ شَعَراتٍ، فقال: هذه من شَعَرِ النّبيِّ ﷺ، فأوصَى أبو عبدِ الله (أحمدُ بنُ حَنْبل) عندَ موتِه أن يَجعَلَ على كلِّ عينٍ شَعَرَةً، وشَعَرةً على لسانِه، ففعَلَ ذلك به عندَ موتِه(٥).

---

(١) عن أسماء بنت أبي بكرٍ قالت: هذه جبّة رسول الله ﷺ، هذه كانت عند عائشة رضي الله عنها حتّى قبضت، فلمّا قبضت قبضتها، وكان النّبيّ ﷺ يلبسها، فنحن نغسلها للمرضى لنستشفي بها. مسلم، كتاب اللباس، باب ٢ برقم ٥٤٠٩.

(٢) المستدرك، الإمام الحاكم ٣: ٣٣٩، برقم ٥٢٩٩، مناقب خالد بن الوليد رضي الله عنه.

(٣) وكان معه شيء من شعر النبي ﷺ فجعله في ملبوسه. فتح الباري في شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، المقدمة، ٤٨١.

(٤) البخاري، كتاب الوضوء، باب ٣٣ برقم ١٧٠.

(٥) سير أعلام النبلاء، ٧: ٥٤٤.

٦ـ أوصَى عُمر بنُ عبدِ العزيز الأُمويُّ القُرَشيُّ، الإمامُ العادلُ، أن يُدفَنَ معَه شيءٌ كان عندَه من شَعَرِ رسولِ الله ﷺ وأظْفارِه، وقال: إذا مِتُّ فاجعَلوه في كفَني، ففعلوا ذلك[1].

٧ـ عندما عاد عُروةُ بن مسعودٍ الثَّقَفيُّ إلى مكّةَ في إطارِ صُلح الحُدَيْبيَة، قال لقُرَيْش: **أيْ قوم، واللهِ لقد وَفَدتُ على الملوكِ ووَفَدتُ على قَيْصرَ وكِسْرى والنَّجاشيِّ، واللهِ إن رأيتُ مَلِكًا قطُّ يُعظِّمُه أصحابُه ما يُعظِّمُ أصحابُ محمَّدٍ ﷺ محمّدًا، واللهِ إن يَتنخَّمْ نُخامةً إلّا وَقَعتْ في كفِّ رجلٍ منهم فدَلَك بها وجهه وجِلدَه، واذا أمَرَهمُ ابتَدَروا أمرَه، واذا توضَّأَ كادوا يقتَتِلون على وضوئه، وإذا تكلَّموا خَفَضوا أصواتَهم عندَه، وما يُحِدُّونَ النَّظَرَ اليه تعظيمًا له**[2]. ولهذا لا قِبَلَ لكم بالمسلمين، إلّا أنّ أهلَ مكَّةَ كانوا مُصِرِّينَ على عِنادِهم.

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ۞ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، كتاب الإيمان، المجلد ١، ١١٣.

(٢) البخاري، كتاب الشروط، باب ١٥ برقم ٢٧٣١.

وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾

٢١٠ـ من الضَّروريِّ للمجاهدينَ، أثناءَ الحربِ، أن يتحمَّلوا معاناةَ الجُوع والعطَش وغيرَها مما يُشبِهُها، كما أنّ طاعةَ الأميرِ في كلِّ حالٍ ضروريَّةٌ أيضًا، ولكنّ أهميَّةَ كلِّ هذا تتضاعَفُ حالَ لقاءِ العدوِّ، ولهذا قال طالوتُ ـ على سبيل التدريبِ على هذه الأمورِ والاختبارِ كذلك ـ: غيرُ مسموح بالشُّربِ من هذا النَّهَر، ومَن شرِبَ منه فلا علاقةَ له بي، إلّا أنه في حالةِ العطَشِ الشَّديدِ يمكنُكَ شُربُ مقدارِ كفٍّ واحدٍ من الماء. ولكنّ الذي حَدَث هو أنّ الأكثريَّةَ شربوا حتى ارتوَوْا، واعتزَلوا جيشَ طالوتَ، ولم يَنجَحْ في هذا الاختبارِ سوى بعضِ المخلِصينَ الذين بَلَغَ تَعدادُهم ٣١٣ فردًا، وهو نفسُ عددِ أصحابِ بَدْر.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾

٢١١ـ وحين رأى هؤلاءِ المخلِصونَ جيشَ جالوتَ الجَرّارَ، ونَظرًا لعدَدِهم القليل، قالوا: إنَّنا لن نستطيعَ مواجهةَ هذا الجيشِ الكبير، لكنّ الأقوى إيمانًا من بيْنِهم قالوا: إنّ النَّجاحَ لا يتوقَّفُ على كثرةِ العدَد، وإنَّما على مشيئةِ الله، وقد حَدَثَ في التاريخ الإنسانيِّ مرَّاتٍ عديدةٍ أنِ انتصَر قليلونَ من أهل الإيمانِ على أعدادٍ كبيرةٍ من الكفَّار.

﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾

٢١٢ـ انظُرْ إلى دعاءِ أهل الإيمانِ في ميدانِ الجهاد، أولًا: يَدعُونَ لأنفُسِهم بالصَّبر والاستقامة، ثم يَسألونَ اللهَ أن يَهزِمَ الأعداءَ.

وبتأمُّلِ هذا الترتيبِ في الدُّعاءِ يتبيَّنُ أنه ينبغي لأهلِ الإيمانِ أن يتوجَّهوا أولًا إلى اللهِ تعالى بالدُّعاءِ وبِنِيَّةٍ خالصةٍ أن يَمُنَّ عليهم بالصَّبرِ والاستقامة، وعندَئذٍ تَغْشاهُم نُصرةُ اللهِ تعالى ويكونُ النَّصرُ على الأعداءِ من نصيبِهِم.

وقد كانت هذه هي شِيَمَ أهل الإيمان دائمًا، أي: طلَبُ النُّصرةِ الإلهيَّةِ من اللهِ تعالى بجانبِ الأسبابِ الماديَّة، وما أنْ يدعو أهلُ الإيمانِ حتى تتَولَّدَ بداخلِهِم شجاعةٌ وجُرأةٌ يواجِهونَ بها الجبالَ الرَّواسيَ للحصُولِ على النَّصر أو الشَّهادةِ في سبيل الله.

والدُّعاءُ من أسلحةِ المؤمنِ التي لا مثيلَ لها عندَ الكفَّار، وهذه هي سُنَّةُ نبيِّ آخِرِ الزَّمان ﷺ؛ لأنَّ الدعاءَ سلاحُ المؤمن، وعمادُ الدِّين ونُورُ السَّماءِ والأرض. **عن أبي هريرةَ رضيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «الدّعاءُ سلاحُ المؤمنِ وعمادُ الدِّين ونورُ السّمواتِ والأرض»**[1].

يقول سيِّدُنا أبو هريرةَ رضيَ الله عنه، إنّ رسولَ الله ﷺ قال: **«مَن سرَّه أن يَستجيبَ اللهُ له عندَ الشّدائدِ والكُرَبِ فلْيُكثِرِ الدُّعاءَ في الرَّخاء»**[2].

---

(١) الترغيب والترهيب، الإمام زكي الدين المنذري، الجزء ٢، كثرة الدعاء، ٤٧٩، المستدرك للحاكم، المجلد ١، ٦٦٩.

(٢) جامع الترمذي، أبواب الدعوات، باب ٩ برقم ٣٣٨٢.

﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ ﴾

٢١٣ـ وهكذا نَزَل هؤلاءِ المجاهدونَ القلائلُ إلى ميدانِ القتالِ بصبرٍ واستقامة، وهَزَموا جيشَ الأعداءِ الجَرَّارَ بتأييدِ ونُصرةِ اللهِ تعالى.

وكان الدَّورُ الأعظمُ في هذه الحربِ لسيِّدِنا داودُ عليه السَّلامُ، الذي قَتَلَ قائدًا عسكريًّا قويًّا مُسلَّحًا بالأدواتِ الحربيَّةِ مثلَ جالوتَ، رميًا بالحجارةِ من المَجانيق، معَ أنّ سيِّدَنا داودَ عليه السَّلامُ - في ذلك الوقت - كان صغيرًا وقد أضعَفَه المرض، وهذه العاطفةُ لا تزالُ موجودةً واضحةً هذه الأيامَ أيضًا في أطفالِ فِلَسطينَ الذين يواجِهونَ - بشجاعةٍ - الدَّباباتِ الإسرائيليَّةَ والرَّصاصَ الإسرائيليَّ بقِطَعٍ من الحِجارة.

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾

٢١٤ـ سُنَّةُ اللهِ منذُ الأَزلِ أنه إذا بَلَغَ شَعبٌ في ظُلمِه المدى فإنّ اللهَ يُسلِّطُ عليه شعبًا آخَرَ يقضي على ظُلمِه، وهذا من فَضْلِ اللهِ تعالى على أهلِ الأرض؛ لأنه إذا ظَلَّ الظالمُ في سُدّةِ الحُكم دائمًا فإنّه سيُحيلُ حياةَ الضُّعفاءِ إلى جحيم، ويُشيعُ الفسادَ في الأرض(١).

﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴾

٢١٥ـ كما أنّ البشَرَ جميعًا سَواءٌ في أصلِ الإنسانيَّة، لكنّ مَرْتبةَ كلِّ واحدٍ منهم مختلفةٌ حسَبَ مواهبِه وإمكانيَّاتِه، فإنّه - بنفس الطريقة - الأنبياءُ جميعًا سواءٌ في أصلِ النُّبوَّة، لكنّ بعضَهم يَفضُلُ بعضَهم باعتبارِ المراتبِ والكمالات.

---

(١) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ۞ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۞ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٣٨ - ٤٠].

وأفضَلُ الأنبياءِ جميعًا هو نبيُّ آخِرِ الزَّمان سيِّدِنا محمَّدٍ ﷺ؛ لأنّ الله تعالى:

* رَفَعَ ذِكْرَه ﷺ(١).

* أعطاه الكَوْثَر(٢).

* كَتَب له المِعراجَ(٣).

* جَعَله نبيًّا للعالَمينَ جميعًا(٤).

* جَعَله نبيَّ آخِرِ الزَّمان(٥).

* جَعَله رحمةً للعالَمين(٦).

* جَعَلهُ شهيدًا على النّاس(٧).

* أعلَن أنه يُحبُّ رضاه(٨).

* أعطاه عِلمَ القرآنِ الذي فيه بيانُ كلِّ شيء(٩).

* أرسَلَه نُورًا(١٠).

---

(١) ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤].

(٢) ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١].

(٣) ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

(٤) ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

(٥) ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

(٦) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

(٧) ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الفتح: ٨].

(٨) ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ [البقرة: ١٤٤].

(٩) ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

(١٠) ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥].

* جَعَل أُمَّتَه أفضَلَ من سائرِ الأمم[١].

* جَعَل دِينَه ناسخًا للأديانِ السَّابقة[٢].

* جَعَل كلَّ سُورةٍ من سُوَرِ القرآنِ الذي أنزَلَه عليه (بل كلَّ آيةٍ منه) مُعجِزةً لم يستطعْ أحدٌ أن يأتيَ بمِثلِها، ولن يأتيَ بمِثلِها في المستقبَل أحدٌ[٣].

وجاء في الحديثِ الشَّريف، أن:

* سيِّدَنا محمَّدًا ﷺ هو حبيبُ اللهِ تعالى[٤].

* سيِّدَنا محمَّدًا ﷺ إمامُ الأنبياءِ جميعًا عليهمُ السَّلام[٥].

* سيِّدَنا محمَّدًا ﷺ سيِّدُ الرُّسُلِ جميعًا[٦].

* سيِّدَنا محمَّدًا ﷺ كان نبيًّا منذُ أنْ كان سيِّدُنا آدمُ عليه السَّلامُ بينَ الرُّوح والجَسَد[٧].

* سيِّدَنا محمَّدًا ﷺ سيكونُ أولَ مَن يشفَعُ يومَ القيامة، وستكونُ أولُ شفاعةٍ تُقبَلُ هي شفاعتُه ﷺ[٨].

---

(١) ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

(٢) ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

(٣) ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣].

(٤) «أنا حبيب الله ولا فخر». جامع الترمذي، أبواب المناقب، باب ١ برقم ٣٦١٦.

(٥) «اذا كان يوم القيامة، كنت إمام النّبيّين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم غير فخر». سنن ابن ماجه، أبواب الزهد، باب ٣٧ برقم ٤٣١٤، ومسند أحمد، المجلد ١، ١٣٨.

(٦) «اللهمّ اجعل صلاتك ورحمتك وبركاتك على سيّد المرسلين وإمام المتّقين وخاتم النّبيّين محمّدٍ عبدك ورسولك إمام الخير». سنن ابن ماجه، برقم ٩٠٦، أبواب إقامة الصلوات، ٢٥.

(٧) قلت: يا رسول الله، متى جعلت نبيًّا؟ قال: «وآدم بين الرّوح والجسد». مسند أحمد، المجلد ٤، ص ٦٦.

(٨) «وأنا أوّل من تنشقّ الأرض عنه يوم القيامة ولا فخر، وأنا أوّل شافعٍ وأوّل مشفّعٍ ولا فخر». سنن ابن ماجه، أبواب الزهد، باب ٣٧ برقم ٤٣٠٨.

* سيِّدَنا محمَّدًا ﷺ جُعِلت له الأرضُ مسجدًا، أي: أنّ المسلمَ يمكنُ أن يصلِّيَ في أيِّ مكانٍ طاهر(١).

وباختصار، فإنّ اللهَ تعالى قد جَمَع كلَّ الكمالاتِ التي مَنَحَها متفرِّقةً بيْنَ الأنبياءِ جميعًا في ذاتِ النبيِّ ﷺ مثلَما قال ابنُ عبَّاس رضيَ اللهُ تعالى عنه، من أنّه حينَ وُلِد النبيُّ ﷺ قال رضوانُ خازنُ الجنَّة: أبشِرْ يا محمَّد، لقد أعطاكَ اللهُ كلَّ العِلم الذي أعطاهُ للأنبياءِ جميعًا موزَّعًا بينَهم بصورةٍ فَرْديَّة، ولهذا فإنّ عِلمَك يَفُوقُ عِلمَ الأنبياءِ جميعًا عليهم السَّلام(٢)، كما أعطاهُ تعالى مزيدًا من العَظَمةِ التي لا يشاركُه فيها أحدٌ، ولا شكَّ أنّ الأنبياءَ الكرامَ جميعًا عليهمُ السَّلامُ ينشُرونَ نُورَ الهداية، ولكنْ ـ باعتبارِ الفضيلةِ ـ فإنّ النبيَّ ﷺ كمَثَل الشَّمس وباقي الأنبياءِ عليهم السَّلامُ كمَثَل النُّجوم(٣).

تنبيه: لا ينبغي بيانُ فَضْل نبيٍّ من الأنبياءِ بطريقةٍ تقلِّلُ من شأنِ نبيٍّ آخَرَ؛ لأنّهم جميعًا أنبياءُ الله، وتعظيمُهم جميعًا واجبٌ.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾

٢١٦ـ اللهُ تعالى قادرٌ مطلَقٌ، ولو شاء لَما اختَلَفَ أحدٌ معَ أحدٍ ولا تَشاجَرَ معَه، لكنّ اللهَ تعالى لم يُجبِرْ أحدًا، وإنّما بيَّنَ طريقَ الحقِّ والباطل بشكلٍ كامل،

---

(١) «وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا». صحيح البخاري، كتاب التيمم، باب ١ برقم ٣٣٥.

(٢) عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: لمّا ولد النّبيّ ﷺ قال في أذنه رضوان خازن الجنان: أبشر يا محمّد، فما بقي لنبيٍّ علمٌ إلّا وقد أعطيته، فأنت أكثرهم علمًا وأشجعهم قلبًا. المواهب اللدنية، الإمام أحمد القسطلاني، ١: ١٢٧.

(٣) فإنّه شمس فضلٍ هم كواكبُها ... يُظهِرنَ أنوارَها للنّاس في الظُّلَمِ
من قصيدة البردة للإمام البوصيري.

وأعطى كلَّ إنسانٍ الحُرِّيةَ في أن يَختارَ الطَّريقَ الذي يشاء، فيَختارُ البعضُ الطريقَ الصَّحيحَ ويؤمنُ، ويَختارُ البعضُ الطَّريقَ الخاطئَ ويكفُر.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ (٢٥٤) ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ (٢٥٥) لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦) ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ (٢٥٧)﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ﴾

٢١٧ـ الحياةُ والثَّروةُ كلاهما ابتلاءٌ، فلا الحياةُ خالدة، ولا الثَّروةُ دائمة، ولهذا يجبُ على مَن يُنعِمُ اللهُ عليه بثروةِ الدُّنيا أن يَجمَعَ الحسَنات، وذلك بأنْ يُنفِقَ في سبيلِ الله جُزءًا من هذه الثَّروةِ قبلَ وفاتِه، وهكذا ينالُ القُربَ من عبادِ اللهِ الطيِّبينَ؛ لأنَّ الصَّداقةَ معَ أهلِ الله تبقَى حتى في يوم القيامةِ أيضًا[١]، وسيَشفَعونَ بإذْنِ الله كذلك[٢].

لكنّ الذين كفَروا واختاروا طريقَ الظُّلمِ لن تنفعَهم يومَ القيامةِ صَداقةُ أحدٍ، ولن تُفيدَهم شفاعةُ أحدٍ[٣].

---

(١) ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

(٢) ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

(٣) ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَـٰعَةُ ٱلشَّـٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨].

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾

٢١٨ـ اسمُ هذه الآية هو آيةُ الكُرسيِّ، وهي أفضَلُ آياتِ القرآنِ الكريم[١]؛ لأنّ فيها بيانًا جامعًا لصفاتِ اللهِ تعالى، يعني: أنه لا أحَدَ سوى الله مستحِقٌّ للعبادة، فهو الحَيُّ القائمُ الدائم بنفسِه، مُنزَّهٌ عن النَّوم ومقدِّماتِه، وكُرسِيُّه (عرشُه) مُحيطٌ بالسَّمواتِ والأرض، ونظامُ الكائناتِ يسيرُ بتدبيرِه، وليس يَصعُبُ عليه مراقبةُ هذه الكائنات، ولا يستطيعُ أحدٌ أن يَشفَعَ في حضرتِه إلَّا مَن أَذِنَ له، واللهُ تعالى هو المالكُ الحقيقيُّ للكائنات، وعِلمُه مُحيطٌ بكلِّ ذَرَّةٍ فيها، ولا يَملِكُ المخلوقُ من العِلم إلَّا بقَدْرِ ما يعُطيه اللهُ منه.

قال النبيُّ ﷺ في فَضْل آيةِ الكُرسيِّ: «**مَن قرأَ آيةَ الكرسي دُبُرَ كلِّ صلاةٍ لم يمَنْعه من دخولِ الجنَّة إلّا الموتُ**»[٢].

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ﴾

٢١٩ـ ليس في الدِّين إجبارٌ أو إكراه، بمعنى: أنْ يُجبَرَ أحدٌ على اعتناقِ الإسلامِ؛ لأنّ القرآنَ الكريمَ قد بيَّن طريقَ الحقِّ والباطل تمامَ التبيين، فمنِ ابتَعدَ برضاهُ عن الشَّيطانِ واتَّبع دينَ الحقِّ فإنّ اللهَ تعالى يسيِّرهُ على طريقٍ من النُّورِ يقودُه إلى الجنَّةِ في نهايةِ الأمر، ومنِ اتَّبعَ الشَّيطانَ فإنه يَضِلُّ في الظُّلُماتِ وَيتيهُ فيها حتى يقَعَ في جهنَّمَ في نهايةِ الأمر.

أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ

---

(١) تفسير ابن كثير.

(٢) شعب الإيمان، البيهقي ٥: ٤٥٨ برقم ٢٣٩٥.

بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ﴾

٢٢٠ـ لقدِ ادَّعى النَّمرُودُ مَلِكُ العراق الأُلوهيَّةَ، ورَفَضَ سيِّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ أن يَعترِفَ به إلهًا، فقال له النَّمرُود: لو لم أكنْ ربَّك، فمن يكونُ ربَّكَ إذًا؟ قال سيِّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلام: ربِّي هو ذلك الذي يُحيي ويُميت. فقال النَّمرُود: هذا أيضًا أنا قادرٌ عليه. وجاء بمسجونٍ محكوم عليه بالإعدام وأَفْرجَ عنه، ثم جاء برجُلٍ بريءٍ وقتَلَه. فلمَّا رأى سيِّدُنا إبراهيمُ هذا الفَهْمَ الذي يتقاطَرُ منه الظُّلْمُ والبعيدَ كلَّ البُعدِ عن العقل، قال: إنّ اللهَ تعالى يأتي بالشَّمس من المشرِق، فأْتِ بها أنتَ من المغرِبِ! وهنا، أصابَتِ الدَّهشةُ والحَيْرةُ النَّمرُودَ ولم يُحْرِ جوابًا.

﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ﴾

٢٢١ ـ مرَّ نبيٌّ (سيِّدُنا عُزَيرٌ عليه السَّلامُ) على قريةٍ كانت مُدمَّرةً ومهجورةً، فتبادَرَ إلى ذِهنِه سؤالٌ مُفادُه: كيف يُحيي اللهُ هؤلاءِ الذين أهلَكَهم؟ ولا يعني هذا

أنه لا يؤْمنُ بيوم القيامة، وإنَّما أرادَ أن يُشاهِدَ هذه الحقيقةَ، وهكذا أماتَ اللهُ تعالى هذا النبيَّ، ثم أحياهُ بعدَ مائةِ عام وقال له: كم من الوقتِ أمضَيْتَ هنا؟ فقال: يومًا أو بعضَ يوم. فقال اللهُ تعالى: بل لقد مَرَّ على موتِكَ أنت وحِمارِك مائةُ عام، وتآكَلَ لحمُ الحمارِ من على عِظامِه التي تناثَرتْ أمامَك. ولكنّ الطَّعامَ والشَّرابَ كان طَازجًا تمامًا. وبعدَ ذلك أحيا اللهُ تعالى ـ أمامَ النبيِّ ـ ذلك الحمارَ الذي لم يكنْ قد بَقِيَ منه سوى عظامِه. وبعدَ هذه المشاهدة، لم يَطمئنَّ قلبُ هذا النبيِّ فقطْ، وإنّما أبْرَزَت هذه الواقعةُ أمامَ الآخَرين حقيقةَ أنّ اللهَ تعالى قادرٌ على كلِّ شيء، ومن يُحيي مَن مات بعدَ مائةِ عامٍ من موتِه، يستطيعُ أيضًا أن يُحييَ من ماتَ يومَ القيامة بعدَ آلافِ السِّنينَ من موتِه.

مثال آخر على قدرة الله تعالى وسنته:

خلالَ هذه المائةِ عام تَبدَّلتِ الفصُولُ والمواسم، وتعاقَبَت البرودةُ والحرارة، ونَزَلتِ الأمطارُ وهبَّت العواصفُ، ومرَّت من المكانِ الحيَواناتُ المفترِسةُ والطُّيورُ الجارحة، وقد تأثَّر جسَدُ الحمارِ من كلِّ هذه العوامل وتآكَلَ، لكنْ، كيف بَقِيتِ المأكولاتُ والمشروباتُ طازَجةً! معَ أنّ تآكُلَ جسدِ الميِّت يَحتاجُ إلى وقتٍ طويل، بينَما تَفسُدُ الأطعمةُ والأشربةُ خلالَ ساعات؟ الحقيقة، أنّ سُنّةَ اللهِ تعالى هي أن يَحدُثَ مِثلُ ما حَدَث مَع الحمار، لكنَّه تعالى إذا شاء فإنّ مِن قُدرتِه أيضًا أن يُبقيَ على الطَّعام طازَجًا تمامًا برَغْم عواملِ الزَّمن.

وبنفسِ الطريقة، فإنّ أجسادَ الموتى من البشَرِ العاديِّين تتآكَلُ وتتحَلَّلُ في قبورِها، لكنّ أجسادَ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ الطاهرةَ لا يأكُلُها التُّرابُ ولا يؤْذيها، وتبقَى سليمةً تمامًا، والدَّليلُ على ذلك موجودٌ في العديدِ من كتُبِ الحديثِ، ومنها ما قالهُ النبيّ ﷺ: **عن شَدّادِ بنِ أوسٍ رضيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ:**

«إنّ من أفضَلِ أيّامِكم يومَ الجُمعة، فيه خُلِقَ آدم، وفيه النَّفخةُ، وفيه الصَّعْقةُ - فأكثِروا عَليَّ من الصّلاةِ فيه، فإنّ صلاتَكم معروضةٌ عَليَّ» - فقال رجل: يا رسولَ الله، كيف تُعرَضُ صلاتُنا عليك وقد أَرِمْتَ؟ يعني: بَلِيت، فقال: «إنّ الله قد حَرَّم على الأرضِ أن تأكُلَ أجسادَ الأنبياء»[1].

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾

٢٢٢- مرَّ سيِّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ بجُثّةٍ أكَلَتِ الوحوشُ الكاسرةُ والطُّيورُ الجارحةُ لحمَها، ولم يبقَ منها سوى عظامِها متناثرةً هنا وهناك، فتوَجَّه سيِّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ إلى الله تعالى قائلًا: يا الله، إنِّي في شوْقٍ إلى أنْ أرى كيف تُحيي الموتى، فقال اللهُ تعالى: ألا تؤمنُ بهذا؟ قال سيِّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلام: إنَّني أومنُ به إيمانًا كاملًا، ولكنِّي - فقطْ - أريدُ أن أشاهدَه. كان اللهُ تعالى يَعلَمُ - بالطَّبع - إيمانَ سيِّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلام، لكنّه - معَ ذلك - سألَهُ ليَعلَمَ الآخَرونَ أنّ سيِّدَنا إبراهيمَ يؤمنُ بالآخِرة، وأنه فقطْ يريدُ مشاهدةَ كيفيَّةِ إحياءِ الموتى، ولهذا قال اللهُ تعالى: أحضِرْ أربعةً من الطَّير، واجعَلْها تألَفُك، حتّى يمكنَ لكَ أن تتعرَّفَ عليها بسهولةٍ بعد إحيائها، ثم اذبَحْ هذه الطُّيورَ الأربعةَ، ثم قَطِّعْها وضُمَّها إلى بعضِها، ثم ارْمِ هذه الأجزاءَ المضمومةَ إلى بعضِها فوقَ الجبال، ثم نادِها لتأتيَ إليك. وحين قام سيِّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ بتنفيذِ حُكم اللهِ تعالى ونادى على الطُّيور المقطَّعةِ إرْبًا، رأى بعينَيْه أنّ لحمَ الطَّيرِ وعظامَه وأجنحتَه قدِ اجتمَعَتْ إلى بعضِها وعادت إلى الحياةِ ثانيةً، ثم جاءت ساعيةً إلى سيِّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلام.

وبنفْسِ الطَّريقة، حين يرتفعُ النِّداءُ يومَ القيامة - بأمْرِ الله تعالى - سيَحْيَا كلُّ

---

(١) ابن ماجه، أبواب إقامة الصلاة، باب ٧٩ برقم ١٠٨٥.

البشَرِ من كلِّ أرجاءِ الأرض وسيجتمعونَ سَوِيًّا.

ويُعلَمُ من هذه الواقعةِ أنّ إيمانَ النبيِّ قياسًا بإيمانِ متَّبعهِ قويٌّ للغاية؛ لأنّ المتَّبعَ يسمعُ كلامَ النبيِّ ويؤمنُ لا أكثرَ، بينَما النبيُّ لا يسمعُ منَ اللهِ فقط، وإنّما يجعَلُه اللهُ تعالى يشاهدُ أيضًا. وقد قال النبيُّ الكريمُ ﷺ: **«ليس الخَبَرُ كالمُعاينة»**[1].

مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾

٢٢٣ـ في هذه الآيةِ نجدُ إشارةً على أنّ أيَّ مبلَغ يُنفقُه الإنسانُ في سَبيل اللهِ يبدَأُ ثوابُه عندَ الله تعالى من سبعِمائةِ ضِعف، بينَما يبدَأُ ثوابُ الحسَناتِ العاديَّةِ

---

(١) مسند أحمد، المجلد ١، ٢٧١.

الأخرى من عَشرةِ أضعاف[1]، ومن هنا يمكنُ أن تَعرِفَ فضْلَ الإنفاقِ في سبيل الله تعالى.

صحيحٌ أنّ إنفاقَ ما اكتَسَبه الإنسانُ بجَهْدٍ وعَرَق أمرٌ صعب، لكنّ هذا الإنفاقَ سيُسهِمُ في حَلِّ المشكلاتِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّة للمجتمع، بمعنى: أنه من جانبٍ سيُمكِّنُ من تلبيةِ احتاجاتِ الفقراءِ والمساكينِ والمحتاجينَ والمضْطَرِّين، ومن جانبٍ آخَرَ سيُمكِّنُ من الإنفاقِ على المصلحةِ العامَّة من جهادٍ وتعليم للدِّين ونَشْرِ الإسلام والمساجدِ والمدارس. على أيّةِ حال، هذا هو الثوابُ المَبْدئيُّ للإنفاقِ في سبيل الله تعالى، ثم بقَدْرِ ما يكونُ الشَّخصُ مُخلِصًا فيما يُنفقُ، بقَدْرِ ما يزدادُ أَجْرُه وثوابُه، ومن لا حدَّ لإخلاصِه لا حدَّ لأَجْرِه وثوابِه؛ لأنّ اللهَ واسع، وفي خزائنِه وعطائه متَّسعٌ كبير، وهو العليم، يَعلَمُ إخلاصَ كلِّ إنسانٍ ونيَّتَه وإرادتَه، وهو يعطي الأَجْرَ والثوابَ بناءً على كلِّ هذا.

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

٢٢٤ـ الذينُ ينفقونَ أموالَهم في سَبيل الله تعالى، ويُنفقونَها بنيَّةٍ أنْ يرضَى اللهُ عنهم، ولا يَمُنُّونَ على أحدٍ بعدَ إنفاقِ هذه الأموال، ولا يَسلُكونَ سلوكًا تتأذَّى منه مشاعرُ الفقير، أمثالُ هؤلاءِ السُّعداءِ لهم أَجْرٌ عظيمٌ عندَ ربِّهم، وهم في أَمْنٍ من كلِّ خوفٍ وغَمّ.

وهناك حديثٌ شريفٌ قريبٌ في معناه من هذا المفهوم نُدرِجُه فيما يلي:

في مَوْقِعةِ اليرموكِ جاء سيِّدُنا عثمانُ رضيَ اللهُ عنه بألفِ دينار وقدَّمه إلى

---

(١) [الأنعام: ١٦٠].

النبيِّ ﷺ، فحرَّك النبيُّ ﷺ هذه الدنانيرَ وقال: **«ما ضَرَّ عثمانَ ما عَمِل بعدَ اليوم»** مرّتين(١). ودعا النبي ﷺ قائلًا: **«يا ربّ! عثمانُ، رَضِيتُ عنه فارْضَ عنه»**(٢).

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾

٢٢٥ـ الحديثُ بوَجْهٍ بَشُوش معَ سائل، والعفْوُ عنه إن أساءَ القولَ، أفضَلُ من صَدَقةٍ وخيراتٍ يُتبِعُها المتصدِّقُ بالمَنّ على من تصدَّقَ عليه أو بجَرْحِ مشاعرِه، ولذا فمنَ الأفضَل أن نستقبلَ السائلَ ببشاشةٍ، وأن نُلبّيَ حاجتَه بقَدْرِ استطاعتِنا ولا نَمُنَّ عليه، وإن لم يكنْ في استطاعتِنا مساعدتُه ماليًّا فلْنُعاملْه معاملةً حسَنةً، فإنّ المعاملةَ الحَسَنة أيضًا صَدَقةٌ؛ لأنّ النبيَّ ﷺ قال: **«الكلمةُ الطّيّبةُ صَدَقةٌ»**(٣)، وقال أيضًا: **«بَشُّكَ في وجْهِ أخيكَ صَدَقةٌ»**(٤).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾

٢٢٦ـ إنّ مَثَلَ صدقاتِ المرائينَ والمنافقينَ كمَثَلِ ذلك التُّرابِ الذي تَراكَم على صخرةٍ في شكلِ غُبار، ولكنْ ما أنْ نَزَل المطرُ حتى زالَ وانتهى، وأصبحتِ الصَّخرةُ خاليةً منه تمامًا، وبنفْسِ الطَّريقة، حينَ ينزِلُ مطرُ العدلِ والإنصافِ يومَ القيامة، تزولُ صَدَقاتُ المُرائينَ والمنافقين، وتَخْلو صحائفُهم منها تمامًا، وقد قال النبيُّ ﷺ عن أهل الرِّياء: **«يقولُ اللهُ تعالى يومَ القيامة: إنّما كانت عبادتُك**

---

(١) الترمذي، أبواب المناقب، باب ١٨ برقم ٣٧٠١.

(٢) التفسير الكبير.

(٣) «لا تحقرنّ من المعروف شيئًا، ولو أن تلقى أخاك بوجهٍ طلق» مسلم، كتاب الزكاة، باب ١٦ برقم ٢٣٣٥.

(٤) مسلم، كتاب البر، باب ٤٣ برقم ٦٦٩٠.

الّتي كنتَ ترائي بها لا يَصعَدُ إليَّ منها شيءٌ ولا ينفَعُك اليومَ»[١]، **«فاذهَبوا إلى الذين كنتمُ تُراءونَ في الدُّنيا، فانظُروا هل تَجِدونَ عندَهم جزاءً؟»**[٢]، بمعنى أنك لم تقُمْ بهذه الأعمال لوَجْهي، ولا أَجْرَ لها عندي.

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ﴾

٢٢٧ـ ومَثَلُ صَدَقاتِ المؤمنِ المخلِص كمَثَل حديقةٍ ذاتِ أرض خَصْبة تقَعُ على مرتفَع من الأرض، وسواءٌ نَزَل المطرُ قليلًا أم كثيرًا فإنّ هذه الحديقةَ تؤْتي ثمارَها، وبنفْس الطريقة، فإنّ صَدَقةَ المؤْمنِ المخلِص سواءٌ كانت كثيرةً أم قليلةً فإنّ حديقةَ أَجْرِها وثوابِها عندَ الله مثمِرةٌ دائمًا وخَضْراءُ يانعةٌ إلى الأبد.

وفي هذه الآية طَمْأَنةٌ لقلوبِ أولئك المسلمينَ المخلِصينَ الذين لا يتمكَّنونَ من التصَدُّق كثيرًا بسببِ ضِيق ذاتِ اليد، ولهذا قال النبيُّ ﷺ فيما رواه سيِّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: **«مَن تصَدَّق بعِدْلِ تَمْرةٍ من كَسْبٍ طيّبٍ - ولا يَقبلُ اللهُ إلّا الطّيّب - وإنّ اللهَ يقبّلُها بيمينِه، ثمّ يُربّيها لصاحبِه كما يُربِّي أحدُكم فُلُوَّه، حتّى تكونَ مثْلَ الجَبل»**[٣].

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ﴾

٢٢٨ـ هنا مثالٌ آخَرُ لتوضيح أضرارِ الرِّياء، كرجُل يَزرَعُ حديقةً جميلةً بجَهْدٍ جَهيد مُنفِقًا من مالِه، ويَشُقُّ فيها أنهارَ الماء، ويهيِّئُ لها الأشجارَ المُثمرةَ، وفي

---

(١) شعب الإيمان، البيهقي، برقم ٦٨٠٨.

(٢) شعب الإيمان، البيهقي ٥: ٣٣٣ برقم ٦٨٣١.

(٣) مضى تخريجه في الحاشية (٢٠٦) من هذا الكتاب.

تلك الأثناءِ يَشِيخُ الرجُلُ، وتَضعُفُ أعضاءُ بدنهِ ولا تَعودُ قادرةً على العملِ، ولا يزالُ أطفالُه صغارًا لا يَقدِرونَ على مساعدةِ والدهِم المُسِنّ، وإنّما يحتاجونَ إلى الرِّعايةِ والتَّربية، لكنّ الأبَ المُسِنَّ مُطمئنٌّ إلى أنه سيَجْني الآنَ ثمرةَ جُهدهِ، وأنّ شيخوختَه ستمُرُّ بأمانٍ وراحةٍ بما تُدِرُّه الحديقةُ من دَخْل، ولن تكونَ هناك مشكلةٌ في رعايةِ أبنائه والإنفاقِ عليهم، ولكن، في مِثْلِ هذه الأحوال، لو ثارَ إعصارٌ فيه نارٌ أحرقَ الحديقَة، فأحالَ شقاءَ عُمرِه كلَّه (الحديقةَ) إلى كَوْمةٍ من رماد، ولم تَعُدْ لدى الرَّجُل طاقةٌ على إعادةِ تعميرِ الحديقةِ من جديد، كما أنّ الأطفالَ ليسوا في عُمرٍ يسمَحُ لهم بالعَمل وكَسْبِ الرِّزق، عندَئذٍ تَخيَّلْ كيف ستكونُ حياةُ هذا الرَّجُل، وإلى أيِّ مدًى ستكونُ حسرتُه؟

هذا بالضَّبطِ هو حالُ ذلك الشَّخصِ الذي يأتي يومَ القيامةِ عاقدًا الأملَ في نَجاتِه على صَدَقاتِه، ثم يتبيَّنُ له فَجْأَةً أنّ صَدَقاتِه قد ضاع أَجْرُها وثوابُها بسببِ ريائه ومَنِّه على النّاس، ولم يعُدْ هناك إمكانٌ بأنْ يعودَ إلى الحياةِ فيعمَلَ صالحًا، أو أن يُحَصِّلَ حسَنَةً مِن أحدٍ في يوم الحَشْر، فتخيَّلْ كيف ستكونُ حسرتُه؟

إن الطَّريقَ الوحيدَ الذي يُنْجي من مِثل هذه الحَسْرة يوم القيامة هو أن تُنْقِيَ أعمالَك منَ الرِّياءِ فورًا، حتى تنالَ أَجْرَها وثوابَها يومَ القيامة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ

وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ﴾

٢٢٩- هنا تدريبٌ وتربيةٌ لأهلِ الإيمانِ، بأنّ الله تعالى قد أَنْعَم عليكم بأفضَلِ العطاء، ولذا عندَما يأتي دوْرُكم في الإنفاقِ في سَبيل الله عليكم أن تَحرِصوا على نَيْلِ رضا الله تعالى بالإنفاقِ من أطهَرِ وأفضَلِ ما لدَيْكم، ولا تُنفِقوا من الرَّديءِ أو مما اكتسبتُموه بطريقٍ خاطئ، إذْ كيف تَرضَوْنَ للهِ تعالى من الأشياءِ ما لا ترضَوْنَه لأنفُسِكم؟ ومن المنطِق أنه لا يَليقُ بعاقلٍ أن يأخُذَ من أحدٍ هديّةً ممتازةً ومفيدةً ثم يقدِّمَ له هديَّةً رديئةً وغيرَ مُفيدة.

﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾

٢٣٠- كثيرًا ما يَحدُثُ، عندما يهُمُّ الإنسانُ للإنفاقِ في سبيلِ اللهِ تعالى، فإن الشَّيطان يُخوِّفُه من الفقرِ مُوسوِسًا له: لماذا تُنفقُ هكذا؟ عليكَ أن تتعقَّلَ ولا تفعَلْ، فسوف ينفَعُكَ هذا في المستقبَل. وعلى الجانبِ الآخَر، يُزيِّنُ الشَّيطانُ للإنسانِ أعمالَ

السُّوءِ ويدعوهُ إليها بحيثُ يُنفِقُ في سبيلِها دونَ تردُّد. ومن هنا، علينا أن نَنْجوَ بأنفُسِنا من وساوسِ الشَّيطان، وأن نتَحرّى فَضْلَ الله وكَرمَه، حتى يفتحَ اللهُ تعالى لنا أبوابَ الحِكمة والبصيرة.

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾

٢٣١ـ لو قال شخصٌ: لقد تحقَّق العمَلُ الفُلانيُّ لي، أو: لقد نجَوْتُ من المشكلةِ الفُلانيَّة، ولذا فإنَّني سأتصَدَّقُ في سبيلِ الله بكذا، أو سأفعَلُ الخيرَ كذا، فهذا ممَّا يقالُ له: نَذْر، والوفاءُ به واجبٌ، لكنْ إذا نَذَر شخصٌ أن يفعَلَ معصيةً أو أن يقومَ بعملٍ غيرِ مشروع فعليهِ أن يتوبَ إلى اللهِ تعالى ولا يوفيَ بهذا النَّذر.

﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾

٢٣٢ـ يقولُ المفسِّرون:

* إنّ إظهارَ الصَّدَقاتِ المفروضةِ عندَ إعطائها أفضَلُ، بينَما الأفضَلُ في الصَّدَقاتِ التَّطوُّعيَّة أن يَتِمَّ إخفاؤها[1].

* التَّصدُّقُ خُفْيةً يَحفَظُ المتصدِّقَ من خَطَرِ الرياء، كما يحفَظُ على متلقّي الصَّدَقةِ كرامتَه، بالإضافةِ إلى أنه ـ في يوم القيامة ـ سيكونُ من بين أولئك الذين يُظِلُّهُم اللهُ بظلِّه يومَ لا ظِلَّ إلّا ظلُّه، ذلك الشَّخصُ الذي تَصدَّقَ خُفْيةً حتى لم يَعلَمْ شِمالُه ما أنفَقَت يمينُه[2].

---

(١) «ذهب جمهور المفسرين إلى أن هذه الآية فى صدقة التطوّع؛ لأن الإخفاء فيها أفضل من الاظهار، وكذلك سائر العبادات الإخفاء أفضل فى تطوعها لانتفاء الرياء عنها، وليس كذلك الواجبات ـ قال الحسن: إظهار الزكاة أحسن، وإخفاء التطوع أفضل». تفسير القرطبي، سورة البقرة (٢): الآية ٢٧١.

(٢) «ورجل تصدّق أخفى حتّى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه». البخاري، كتاب الأذان، باب ٣٦ برقم ٦٦٠.

* لكنْ، لو تصادَفَ أنْ وُجِد واقعٌ لم يستطعْ بعضُ السَّادةِ إخفاءَ الصَّدقةِ فيه، فإنّ من الأفضَل التصَدُّقَ علانيَةً، والتسابُقَ في فعلِها، حتّى يتحقَّقَ ترغيبُ الآخَرِين إلى التصَدُّق، مثلَما حَدَث في إحدى الغَزَواتِ، حيث دَعا النبيُّ ﷺ، وتسابَقَ الصَّحابةُ الكرامُ رضيَ اللهُ عنهم إلى البَذْلِ كلٌّ أكثرَ منَ الآخَر[1].

وبنَفْسِ الطريقة، فإنّ من الأفضَلِ ـ في أيامِنا هذه ـ التَّسابُقَ إلى التصَدُّقِ علانيَةً في المشاريع العظيمةِ التي تَخدُمُ الجهادَ وتعميرَ المساجد وبناءَ المدارسِ ونَشْرَ الدِّين وخِدمةَ النّاس، بشَرْطِ أن لا يكونَ في النِّيَّةِ رياءٌ، وإنّما يكونُ المقصودُ ترغيبَ الآخَرينَ في الإنفاق.

* هناك حِكَمٌ كثيرةٌ في إخراج الصَّدَقاتِ المفروضةِ علانيَةً، وأوَّلُها: أن يؤدِّيَ الشخصُ ما عليه من الزَّكاةِ فيَطهُرَ مالُه، وأن يُرغِّبَ الآخَرينَ في إخراج الزَّكاة، وأن يَصِلَ إليه ثوابُ كلِّ من يتأثَّرُ بأدائه الزَّكاةَ علانيَةً فيؤدِّيَ هو الآخَرُ زكاتَه، وفي نفْسِ الوقتِ تعودُ إلى النّاسِ ثقتُهم، ولا يتَسلَّلُ سوءُ الظنِّ إلى نفوسِهم، بمعنى: أنّ الناسَ سيَرَوْنَ بأعيُنِهم أنّ اللهَ تعالى قد أنعَمَ عليه بالمال فلم يَبخَلْ به، وإنّما أدَّى شُكرَ المُنعِم الحقيقيِّ بإخراجِه الزَّكاةَ.

* هذه الحِكَمُ نفْسُها تكونُ من وراءِ أداءِ باقي العباداتِ والأعمالِ المفروضة، مثل الصَّلاةِ والصِّيام والحجِّ، والغالبُ أنه لهذا قال الرسولُ ﷺ: «**فإنّ خيرَ صلاةِ المرءِ في بيتِه إلّا الصّلاةَ المكتوبةَ**»[2]. أي: الخروجَ من البيتِ من أَجْلِ الصَّلاة، والذهابَ إلى المسجد، والمشاركة في صلاةِ الجماعةِ أمامَ النّاس، وغيرَ ذلك مما يُعَدُّ إظهارًا للصَّلاةِ ولكنّه أمرٌ ضروريٌّ. وباختصارٍ، القيامُ بأعمال الخير خُفْيةً

---

(١) الصحاح الستة.

(٢) مسلم، صلاة المسافرين، باب ٢٩ برقم ١٨٢٥.

وعلانِيَةً أمرٌ طيِّب، وأحيانًا يكونُ الإخفاءُ أفضَلَ من الإظهار، وأحيانًا أخرى يكونُ الإعلانُ أفضَلَ من الإخفاءِ، وهذا كلُّه خاضعٌ للظروف.

﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾

٢٣٣ـ لم يكنِ المسلمونَ يَعتبرونَ إعطاءَ الصَّدَقاتِ لأقاربِ المسلم الذين لم يؤْمنوا ـ برَغْم دعوتِهم ـ جائزًا، ولهذا نَزَلتِ الآيةُ بأنكم أدَّيتُم ما عليكمُ بدعوتِهم، أمّا قَبولُهمُ الهدايةَ من عَدَمِهِ فلستُم مسئولينَ عنه، وأمّا أن نترُكَ أحدًا يموتُ جوعًا لمجرَّدِ أنه كافرٌ فهذا ممَّا لا يليقُ بعَظَمةِ الإسلام، فلا تَنظُروا إلى كُفرِه، وإنّما ساعِدوهُ بدافع الإنسانيَّةِ لإرضاءِ خالِقِكمُ الحقيقيِّ، وسوف يُعطيكمُ اللهُ تعالى أَجْرَ هذه المواساةِ الإنسانيَّة كاملًا، ولكنْ تَذكَّروا أن هذا مسموحٌ به في الصَّدَقاتِ التَّطوُّعيَّةِ فقط، أمّا الصَّدَقاتُ المفروضةُ فهي حقٌّ للمسلمينَ فقطْ، ولا يجوزُ أن تُعطَى لغيرِ المسلم.

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾

٢٣٤ـ كان هناكَ عِدّةُ مئاتٍ من المهاجِرينَ في العهدِ المبارَكِ للنبيِّ ﷺ يُعرَفونَ في التاريخ بأصحابِ الصُّفَّة، وكان هؤلاءِ السُّعَداءُ يقيمونَ في المسجدِ النَّبويِّ، ومستعدِّينَ تمامًا وفي كلِّ وقتٍ لخدمةِ الدِّين، فإذا نُوديَ للجهادِ كانوا في الصُّفوفِ الأُولى للمجاهدين، وفي وقتِ السِّلْم يُحصِّلونَ العِلمَ ويُبلِّغُونَه إلى النّاس، وكانوا مُنهمِكينَ في عَمِلِهم هذا بصُورةٍ كبيرة، وبحيثُ لم تكنْ لديهِم فرصةٌ للعملِ من أَجْلِ كَسْبِ قوتِهِم، ولكنَّهم ـ بالرَّغم من حالةِ الفقرِ والعُسرةِ التي كانوا يعيشونَها ـ إلّا أنّهم لم يكونوا يمُدُّونَ يدَ السُّؤالِ إلى أحد، وكانوا يَقْضُونَ حياتَهم صابرينَ شاكرين.

وقد لَفَتَ اللهُ تعالى بهذه الآيةِ نَظَر المسلمينَ عمومًا إلى أنّ الإنفاقَ على هؤلاءِ السَّادةِ المخلَصينَ يُعَدُّ من المصارفِ الممتازةِ لصَدَقاتِكم، لكنّ هذا الحُكمَ ليس خاصًّا بأصحابِ الصُّفَّةِ فقطْ، ولهذا فإنّ من يوقِفونَ حياتَهم في أيامِنا هذه لخِدمة الدِّين، وليس لدَيْهِم الفُرصةُ لكَسْبِ قُوتِهم، فإنّ هذا الحُكمَ يَسْري عليهم أيضًا، وأولئك الذين يتفرَّغونَ لدراسةِ العلوم الدِّينيَّة أو تدريسِها يَدخُلونَ ضِمنَ هذه الآية.

ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾

٢٣٥ـ أن تُعطيَ شخصًا محتاجًا قَرْضًا على أساسِ أن يَرُدَّه في وقتٍ مُعيَّن معَ زيادةٍ معيَّنة، بمعنى: أن تُعطيَ أحدًا مائةَ (١٠٠) جُنَيهٍ قَرْضًا على شَرْطِ أن يُعيدَها إليكَ بعدَ عام مائةً وعشرينَ (١٢٠) جُنيهًا، فإنّ هذه العشرينَ جُنَيهًا الزيادة يقالُ لها: رِبًا.

﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾

٢٣٦ ـ عندَما يَجمَعُ آكِلُ الرِّبا أموالًا كثيرةً وهو جالسٌ في بيتِه فإنّ الشَّيطانَ

يُزيِّنُ له المعصية، وهكذا ينغَمِسُ في الأعمالِ الشَّيطانيَّة (الخمرِ والمعاصي والفِسق)، ويَعرِفُ مَن يراهُ في أحوالِه أنّ الشَّيطانَ قد تَغلَّبَ عليه، وسوف يَعرِفُه النّاسُ يومَ القيامة في مَيْدانِ الحَشْرِ من بعيدٍ بسببِ حالتِه غيرِ الطَّبيعيَّة وحَركاتِهِ غيرِ المهذَّبة، بأنّ هذا هو ذلك التَّعِسُ الذي كان يأكُلُ الرِّبا في الحياة الدُّنيا، مُخالِفًا أحكامَ الله وأوامرَه.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾

٢٣٧ـ لقد أَحَلَّ اللهُ البيْعَ وحرَّم الرِّبا، ولكنّ آكلي الرِّبا يُسَوُّونَ بينَ البَيْعِ والرِّبا مخالِفينَ بذلك حُكمَ الله تعالى.

ولتوضيح هذا الفَرْق أكتفي هنا بذِكرِ ما قاله شيخُ الطَّريقة سيِّدُنا الشَّيخُ محمَّدُ كَرَم شاهِ رحمَه اللهُ تعالى في هذا الخصُوص، قال:

«يَستثمِرُ الإنسانُ الأموالَ في التِّجارة، ويجتهدُ فيها، ويُعمِلُ كلَّ إمكانيَّاتِه العَقْليَّةِ في ذلك، كما أنّه يُنفِقُ فيها الوقتَ أيضًا، وبالرَّغم من ذلك فإنّ المَكسَبَ ليس مضمونًا، فقد يَكسَب، وقد يخسَرُ كذلك، لكنْ لماذا يَطلُبُ آكِلُ الرِّبا الرِّبحَ اليقينيِّ وهو الذي لا يُعطي سوى الفائضِ من مالِه فقطْ، ولا يَبذُلُ جُهدًا أو وقتًا أو غيرَه! لقدِ اقترح الإسلامُ لصاحبِ رأسِ المال طريقَيْنِ فقطْ هما؛ إمّا أن تُقرِضَ أخاك قَرْضًا حَسنًا من فائضِ مالِك، أو تُشرِكَه في التِّجارة فيكونَ له نصيبٌ من المكسَبِ والخسارة، وليس هناك طريقٌ ثالث»[1].

ربا البنوك في العالم الإسلامي:

هذه هي آراءُ المُفكِّرينَ الجُدُد فيما يَتعلَّقُ بالرِّبا:

---

(١) تفسير ضياء القرآن، سورة البقرة (٢): الآية ٢٧٥.

١ـ أن يُعطَى القَرْضُ بغيرِ فوائدَ لتلبيةِ الاحتياجاتِ الخاصَّة.

٢ـ أن تؤخَذَ الفوائدُ على إقراضِ رجالِ الأعمال والتِّجارة؛ لأنّهم يُحقِّقونَ أرباحًا طائلة.

٣ـ أن يحصُلَ من يودِعُ أموالَه في البنكِ، لمدَّةٍ طويلةٍ، على فوائدَ على أموالِه؛ لأنّ قيمةَ العُمْلة تقِلُّ معَ التّضخُّم الماليِّ، وستصبحُ قيمةُ هذه الأموالِ أقلَّ من نصفِها بعدَ عشْرِ سنوات.

وهذا رأيُ العبدِ لله في مخالَفةِ الرِّبا:

١ـ أن يعُطَى القرضُ الحَسَنُ لتلبيةِ الاحتياجاتِ الخاصَّة (مثلَ: شراءِ الجَرّاراتِ الزِّراعيَّةِ لخِدمةِ الزِّراعة وتوسيع البيوتِ السَّكَنِيَّة أو ترميمِها أو ما شابَهَ ذلك). أمّا الفقراءُ الذين لا يستطيعونَ الإنفاقَ على تعليم أبنائهم أو علاج أطفالِهم فيُنشِئُ البنكُ صُندوقًا خاصًّا من أموالِ الفوائدِ يساعَدُ من خلالِه أمثالُ هؤلاءِ المُضْطَرِّينَ في شكلِ صَدَقاتٍ وتبرُّعات.

٢ـ يُعطَى رجالُ الأعمالِ مبالغَ ماليّةً للتِّجارةِ الإسلاميَّة (المُضارَبةِ) يكونُ البنكُ فيها شريكًا أساسيًّا، وبهذه الطَّريقةِ يستطيعُ البنكُ، من خلال أرباح المشروعاتِ التجاريَّة، أنْ يُلبِّيَ مصروفاتِه، ويُعطيَ لصاحبِ رأسِ المال أيضًا فوائدَ.

٣ ـ أصلُ القوَّةِ الشِّرائيَّةِ في الإسلام ليس هذه العُمْلةَ الورَقيَّةَ، وإنّما الذهَبُ والفضَّة، ولذا فإنّ الدُّولَ التي تكونُ عُملتُها ضعيفةً يمكنُ لها أن تتجنَّبَ الرِّبا بصورةٍ ما، وهي أنّ من أودَعَ ألفَ جُنَيْهٍ قبلَ عشْرِ سنوات، وكانت قيمةُ الجُنَيْهِ إذْ ذاك تسعينَ بَنْسًا، وأصبحتِ اليوم أربعينَ فقطْ، تُعطَى لهذا المودِعِ فوائدُ بنسبةِ خمسينَ بالمائة من التسعينَ بَنْسًا.

وهناك صورةٌ أخرى، وهي: أنّ مَن أودَعَ ألفَ جُنَيْه قبلَ عشْرِ سنوات، يُكتَبُ في حسابِه نفْسُ المقدارِ من الذَّهَبِ الذي كان الألفُ جُنَيْهٍ يساويهِ وقتَ الإيداع، وبعدَ عشْرِ سنواتٍ، عندَ السَّحب، يُعطَى قيمةَ ما يساويه ذلك المقدارُ من الذَّهبِ بسعرِ السُّوق، على سبيل المثال: لو أنّ الألفَ جُنَيْهٍ كانت تَشتري قبْلَ عشْرِ سنواتٍ مقدارَ عشرينَ جرامًا من الذَّهَب، واليومَ تَبلُغُ قيمةُ العشرينَ جرامًا من الذَّهَب هذه ثلاثةَ آلافِ جُنَيْهٍ، فَنرُدُّ للمودِعِ ثلاثةَ آلافِ جُنَيْهٍ بدَلًا من ألفٍ، وبهذه الطَّريقةِ يتجنَّبُ الإنسانُ مخاطرَ الرِّبا والتضخُّم الماليِّ في نفْسِ الوقت (واللهُ أعلمُ بالحقيقة).

ربا البنوك في الدول غير المسلمة:

المسلمونَ في الدُّولِ غيرِ المسلمةِ، سواءٌ كانوا في حالةِ السِّلْم أو في حالةِ الحرب، مضْطَرُّونَ إلى دَفْع الرِّبا على القروضِ التي يَحصُلونَ عليها لتمويل تجارتِهم (في حالةِ المسلمينَ الأغنياءِ) أو شراءِ مساكنِهم (في حالةِ المسلمينَ الفقراء)، ولا يُعفِيهم غيرُ المسلمينَ من الرِّبا ولو كان بَنْسًا واحدًا، وعلى العكسِ من ذلك، إذا لم يأخُذِ المسلمُ فوائدَ البنوكِ على أموالِه فإنّ المسئولينَ فيها يتبرَّعونَ بها للأعمالِ الخَيْريّةِ لغيرِ المسلمينَ بما يمكنُ استخدامُه أيضًا ضدَّ الإسلام، وأموالُ المسلمينَ العربِ في البنوكِ الأوروبيَّةِ والأمريكيَّةِ عليها فوائدُ بمئاتِ الآلاف من الدُّولاراتِ تستفيدُ بها الجمعيَّاتُ الخَيْريَّةُ لغيرِ المسلمينَ، بينَما لو أُعطِيَتْ هذه الفوائدُ لأيِّ بلدٍ مسلم لَأمكنَ من خلالِها التخَلُّصُ من كثيرٍ من القروضِ التي تُثقِلُ كاهلَ هذه الدَّولة، ومن هنا، فلو أنّ علماءَ الإسلام اجتَهدوا في البحثِ عن طريقةٍ شَرْعيَّةٍ تُتيحُ أخْذَ الفوائدِ من البنوكِ في الدُّولِ غيرِ المسلمة وإعطاءَها لدولةٍ مسلمةٍ فقيرة أو للجمعيَّاتِ الخَيْريَّةِ الإسلاميَّة، فسيكونُ في ذلك فائدةٌ عظيمةٌ لفقراءِ المسلمينَ (واللهُ تعالى أعلمُ بالحقيقة).

﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾

٢٣٨ـ مَن تابَ فَوْرَ أنْ نَزَلَ حُكمُ تحريم الرِّبا فإنّ ما أخَذَه من رِبًا قبْلَ ذلك أصبح حلالًا له، ولا يَلزَمُه رَدُّه، إلّا أن يكونَ ميسورَ الحالِ ويقومَ بردِّه على سبيلِ التَّقوى والتحرُّج، فإنّ ذلك من عَزْمِه وهِمَّتِه العالية، ومعَ ذلك فأمرُهُ إلى الله، أمّا من أكَلَ الرِّبا معتقِدًا بحِلِّهِ فإنه سيَخلُدُ في جهنَّم بكُفرِه، وإنْ أكَلَهُ معتقِدًا بحرُمتِهِ يكونُ مستحِقًّا للعقابِ طِبقًا لجُرمِه.

﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾

٢٣٩ـ آكِلُ الرِّبا إنسانٌ أنانيّ، ولذا لا كرامةَ له في المجتمع، وينتهي ذِكرُه بموتِه، وآكِلُ الرِّبا عاصٍ للهِ تعالى أيضًا، ولذا يظَلُّ محرومًا من طُمَأْنينةِ القلبِ في الدُّنيا، وسيُحرَمُ في الآخِرةِ من رضا اللهِ تعالى، وعلى العكسِ من ذلك، فإنّ المتصدِّقَ وفاعلَ الخيرِ يَحظَى بدعاءِ الفقراءِ له في الدُّنيا، ويحيا حياةً كريمةً، ويبقَى ذِكرُه حيًّا في قلوبِ النّاسِ بعدَ موتِه، ويستحقُّ في الآخِرةِ أجرًا عظيمًا، وقد قال ﷺ: «**إنّ أوّلَ النّاسِ يَستظِلُّ في ظلِّ الله يومَ القيامة لَرَجُلٌ أَنْظَر مُعسِرًا حتّى يَجِدَ شيئًا، أو تصَدَّقَ عليه بما يطْلُبه**»[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾

٢٤٠ ـ يقتضي الإيمانُ أن يَتِمَّ إعفاءُ المَدِينينَ من فوائدِ القروضِ بعدَ نزولِ حُرمتِها، وإلّا فسيكونُ هذا إيذانًا من اللهِ تعالى ورسولِه ﷺ بالحَرْب، ولم يُعلنِ اللهُ تعالى أيَّ مُجرمٍ آخَرَ بالحربِ غيرَ آكِلِ الرِّبا، إذْ إنّ أكْلَ الرِّبا جُرمٌ عظيم، فعليكم

---

(١) الترغيب والترهيب، المجلد ٢، ٤٦.

بالتَّوبةِ منه فورًا، وأن تَستَرِدّوا من المَدِينينَ لكم أصلَ المالِ فقطْ، وبعدَ هذا الحُكم لن تَظلِموا المَدِينينَ بأَخْذِ الرِّبا منهم، ولن يَظلِمَكم المَدِينُونَ بأكلِ أموالِكم، وإنَّما يُصبحُ فَرْضًا على المَدِينِ أن يُعيدَ القَرْضَ كاملًا غيرَ منقوص، فإنْ كان المَدِينُ مُعْسِرًا ولا يستطيعُ سدادَ القَرْضِ في موعدِه، فلْيُعطَ مُهلةً أخرى، وإنْ تنازَلتُم عن هذا القَرْضِ لهذا المسكينِ فسيكونُ هذا من الأفضَلِ في حقِّكم، فإذا أَعفَيْتُم المُعسِرَ اليومَ فإنّ اللهَ تعالى سيعفو عنكُم يومَ القيامةِ ببركةِ هذه الصَّدَقةِ فيما لو قَلَّت الحسَناتُ في صحيفةِ أعمالِكم؛ لأنّ النبيَّ صلى اللهُ تعالى عليه وسلَّم قال: «**مَن أَنْظَر مُعسِرًا أو وَضَعَ له، أظَلَّه اللهُ يومَ القيامة تحتَ ظلِّ عَرْشِه يومَ لا ظلَّ إلّا ظِلُّه**»[١].

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٨٢﴾ ۞ وَإِن كُنتُمۡ عَلَىٰ سَفَرٖ وَلَمۡ تَجِدُواْ كَاتِبٗا فَرِهَٰنٞ مَّقۡبُوضَةٞۖ فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٢٨٣﴾

---

(١) الترمذي، أبواب البيوع، باب ٦٧ برقم ١٣٠٦.

٢٤١- التعامُلُ بالدَّيْنِ في الحياةِ الدُّنيا من ضَروراتِ الإنسان، لكنّ عَدَمَ الاحتياطِ في التعامُل بهذا الأمرِ يُولِّدُ سُوءًا في الفَهْم يكونُ - في النِّهاية - سببًا في النِّزاع والشِّجار، ولهذا فإنّ القرآنَ الكريمَ في هذه الآية (وهي أطولُ آيةٍ في القُرآنِ كلِّه) قد بيَّن الإرشاداتِ الضَّروريَّةَ فيما يَتعلَّقُ بالقَرْض، وفيما يلي خُلاصتُها:

١- أن يَتِمَّ تحديدُ مدَّةِ القَرْضِ بحيثُ يَعلَمُ الفريقانِ موعدَ سَدادِ القَرْض.

٢- يجبُ كتابةُ تفاصيلِ القَرْض وتوثيقُه، سواءٌ كان صغيرًا أم كبيرًا، وأنْ يُعطَى كلُّ فريقٍ صُورةً من هذه الوثيقة، حتى يمكنَ الاستفادةُ بها في حالِ وفاةِ الشاهدِ أو حدوثِ أيِّ شكّ، ومحتوى هذه الوثيقةِ مسئوليَّةُ المَدِين؛ لأنّها بمثابةِ الإقرارِ منه وهو مُلتزِمٌ به، ولكنْ إنْ لم يكنْ في استطاعةِ المَدِينِ - لسببٍ أو لآخَرَ - الكتابةُ، فعلى وَليِّه القيامُ بذلك.

ومن الضَّروريِّ للكاتبِ أيضًا أن يَكتُبَ كلَّ شيءٍ بألفاظٍ واضحةٍ وبإنصافٍ وعدل، بحيثُ لا يكونُ في الوثيقة أيُّ مجالٍ لإبهامٍ أو غموض، ولا ينبغي لأيِّ فريقٍ أن يُجبِرَ الكاتبَ على كتابةِ غيرِ الحقيقة.

٣- أن يشهَدَ على هذه الوثيقةِ شاهدانِ من الرِّجالِ أو شاهدٌ رجُلٌ وامرأتانِ، حتى يمكنَ الاستعانةُ بالشُّهودِ في حالِ ضَياع الوثيقةِ أو تَلَفِها، وامرأتانِ لكي يُستعانَ بالثانيةِ في طَمْأَنةِ الأُولى فيما لوِ اضْطَرَبَتْ، أو تذكيرِها فيما لو نَسِيَت، وعندَ اختيارِ الشُّهداءِ ينبغي العمَلُ على أن يكونوا موثوقًا بهم، صادقِينَ في شهادتِهم؛ لأنّ الشَّهادةَ الزُّورَ من الكبائر، كما أنّ من الضَّروريِّ للشُّهودِ أيضًا: أن لا يَرفُضوا الشهادةَ بغيرِ سببٍ وَجِيه، لأنّ الحُكمَ يَعتمدُ - بشكلٍ أساسيٍّ - على شهادتِهم، ولا ينبغي أن يُجبِرَ أحدُ الفريقَيْنِ الشهودَ على الكذبِ والتزويرِ في الشهادة.

٤ـ وإن كان مِثلُ هذا التعامُلِ التِّجاريِّ في أثناءِ السَّفَر، ولم يتيسَّر الكاتبُ أو الشُّهودُ، فإنّه ـ في هذه الحالة ـ يمكنُ للمشتري أن يَرهَنَ شيئًا عندَ البائع، ويَستردَّ الشيءَ المرهونَ عندَ سَدادِ القيمة، والرَّهنُ هنا المقصودُ به: في حالةِ السَّفَر، لكنْ إنْ حَدَث مِثلُ هذا الأمرِ في حالة القيام، فإنّ الشِّراءَ بالرَّهنِ جائزٌ أيضًا.

٥ـ جَعَل القرآنُ الكريمُ في التعامُل بالدَّينِ هنا شهادةَ امرأتَيْنِ بشهادةِ رجُلٍ واحد، ويَعترِضُ البعضُ على هذا التفريقِ والتمييز، ولمعرفةِ سببِ هذا التفريقِ علينا، أولًا: أن نُلقيَ نظرةً على الأبحاثِ الحديثةِ في هذا المجال، فقد نَشَر المتخصِّصونَ بحثًا مفصَّلًا في مجلةِ (التَّايْمز) عن الفوارقِ النَّفْسيَّةِ والجِسْمانيَّةِ بيْنَ الرَّجلِ والمرأةِ نَذكُرُ هنا بعضًا من نقاطِه:

١ـ رَغْمَ أنّ البناتِ ـ بصفةٍ عامَّة ـ يكُنَّ أقلَّ مهارةً من الأولادِ في المناقشاتِ الرِّياضيَّةِ والفضائيَّة، إلّا أنَّهنَّ يتَعلَّمنَ العدَّ والإحصاءَ والحديثَ بلباقةٍ وسَليقةٍ أسرعَ من الأولاد.

٢ـ عندَ وَضْع عوائقَ بيْنَ الأطفالِ الصِّغارِ وأُمَّهاتِهم فإنّ الأطفالَ الذُّكورَ يحاولونَ إزاحةَ هذه العوائق، بينَما تضْطَرِبُ الإناثُ ويَشْرَعْنَ بالبكاء.

٣ـ في حالةِ التعرُّضِ للضُّغوطِ فإنّ النِّساءَ يكُنَّ أكثرَ اضْطِرابًا قياسًا بالرِّجال، والسببُ في ذلك هِرمونٌ خاصٌّ يوجَدُ في جسم المرأة.

وباختصار، فإنّ الفَيْصَل في هذا الأمرِ هو أنّ هذا الفَرْقَ بينَ الرَّجُلِ والمرأةِ ليس نقصًا في المرأة، فنحن جميعًا بشَرٌ، ونحن سواءٌ من هذا الاعتبار، ويمكنُ أن نكونَ عادلِينَ فقَطْ إذا عَرَفْنا هذا الفرقَ الجَوْهريَّ واحترَمْناه[1].

---

(١) (Time Megazine, New York, **1972**, Male & Female: Differences between them).

يقولُ محرِّرُ «دائرةِ المعارف برتانيكا»: إنّ هناك فرقًا بينَ الرَّجلِ والمرأةِ من ناحيةِ التكوينِ الجسْمانيِّ، مثلًا في حالة الفَشَل فإنّ النِّساءَ أكثرُ عُرضةً للإحباطِ من الرِّجال(١).

هذا الضَّعفُ الفِطريُّ الذي أشارتْ إليه الأبحاثُ الحديثةُ أعلَنَها الإسلامُ قبْلَ أربعةَ عشَرَ قرنًا من الزَّمان، أي: أنّ المرأةَ تضْطَرِبُ أسرعَ من الرَّجُل وأكثرَ منه، ولهذا تَحتاجُ إلى رفيقٍ في كلِّ وقتٍ يَحمِيها ويُطمْئنُها عندَ اضطرابِها، كما أثبتَت الأبحاثُ الحديثةُ أيضًا أنّ المرأةَ أضعَفُ من الرَّجلِ في العلوم الرِّياضيَّة، ولهذا فإنّ القرآنَ الكريمَ جَعَل شهادةَ الرَّجلِ بشهادةِ امرأتَيْنِ في المعامَلاتِ الماليَّةِ فقطْ، بينَما في معاملاتٍ أخرى كثيرة تكونُ شهادةُ المرأةِ الواحدةِ فيها مُجْزئةً وكافيةً معتبرَة، على سبيل المثال، قال الحَسَنُ والزُّهْريُّ فيما يتَعلَّقُ بالرَّضاعة: تكفي شهادةُ امرأةٍ واحدةٍ فيما يَتعلَّقُ برَضاعةِ الطِّفل(٢).

والسَّببُ الذي أبدَاهُ القرآنُ الكريمُ - فيما يَتعلَّقُ بشهادةِ امرأتَيْنِ - يتوافقُ تمامًا معَ فِطرةِ الجِنسِ اللَّطيف، وتعالَوْا بنا نحلل هذا الأمرَ في ضوءِ الحقائقِ الواقعيَّةِ وبعيدًا عن التعصُّب:

لو لم يحدُثِ اختلافٌ فيما يَتعلَّقُ بمعاملاتِ القروضِ فلن تكونَ هناك حاجةٌ إلى الشُّهودِ أصلًا، لكنْ إنْ حَدَث اختلاف فإنّ كلَّ فريقٍ يعتقدُ أنه على حقٍّ، وأنّ تنازُلَه عن موقفِه فيه إهانةٌ له، وفي بعضِ الأحيانِ تأخُذُ الأحداثُ منحىً آخَرَ، حيثُ يتشاجَرُ الفريقانِ، في مِثلِ هذا الجوِّ المشتعلِ والمتأزِّم إذا استَدعَيْنا امرأةً للشَّهادةِ،

---

(١) (Encyclopedia Britanica, **1984**, women).

(٢) «تجوز شهادة المرأة الواحدة في الرّضاع». مصنّف عبد الرازق، المجلد ٨: **٣٣٤** برقم **١٥٤٣٣**.

فمنَ الفِطريِّ والطَّبيعيِّ أن تَضْطَرِبَ وأن تَنْسى، والإسلامُ ـ في مِثل هذه الحالاتِ (أي بأنْ تكونَ معَها امرأةٌ أخرى للشَّهادة) ـ لم يُهِنِ المرأةَ، وإنّما لبَّى مقتضى فِطرتِها، حتى يمكنَ للمرأةِ الثانية أن تُذكِّرها بالحقائقِ الأصْليَّة، فهذا التفريقُ (بيْنَ الرَّجُل والمرأةِ في الشَّهادة) إذًا يكونُ بمقتضَى الضَّرورةِ وليس بسببِ فَضْلٍ للرَّجُل، وفي أيامِنا هذه، عندَما يَستجوِبُ محامي الخَصْم المرأةَ ويَنتقدُها بغَرَضِ تضليلِها وإرباكِها، فإنّ انفعالَها واضطرابَها عندَئذٍ يكونُ أمرًا فِطْريًّا.

لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾

٢٤٢ ـ لو نَوى الإنسانُ بداخِله أن يفعَلَ السُّوءَ، وعَزَم على القيام به وتنفيذِه، لكنَّه ـ في نهايةِ الأمر، ولظروفٍ خارجةٍ عن إرادتِه ـ لم يقُمْ بالتنفيذ، فإنه يؤاخَذُ على هذه النِّية، ومثالُه: ذلك الشَّخصُ الذي نَوى قَتْلَ خصمِه، وتناوَلَ المسدَّسَ وتوَجَّه إلى بيتِه، وهناك عَرَف أنّ خصمَه هذا مات قبْلَ يوم واحد، أو وَجَد حولَ بيتِه حراسةً مشدَّدةً بحيث لم يتمكَّنْ من تنفيذِ إرادتِه، في مِثل هذه الحالةِ سيُحاسَبُ على نيَّةِ القَتْل هذه، رَغْمَ أنه لن يُعاقَبَ على جريمةِ القتل. وعلى العكسِ من ذلك:

إذا وَسْوَس الشَّيطانُ إلى أحدٍ، لكنَّه لم يُعجِبْه هذا، أو خَطَر ببالِه فعْلُ السُّوءِ لكنَّه امتَنَع خوفًا من اللهِ تعالى، فلا مؤاخَذةَ على مِثل هذه الأفكار، وإنّما نأمُلُ الإثابةَ على تَرْكِها؛ لأنّ النبيَّ ﷺ قال [على لسانِ ربِّ العزّة]: «**إذا أراد عَبْدي أن يعمَلَ سيّئةً فلا تكتُبوها عليه حتّى يعمَلَها، فإذا عَمِلَها فاكتُبوها بمِثلِها، وإنْ تَرَكها مِن أَجْلي فاكتُبوها له حسَنةً - وإذا أراد أن يعمَلَ حسَنةً فلم يعمَلْها فاكتُبوها له حسَنةً، فإذا عَمِلَها فاكتُبوها له بعَشْرِ أمثالِها إلى سبعِمائة**»[1].

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾

٢٤٣- أنزَل اللهُ تعالى القرآنَ الكريمَ، وآمَن به النبيُّ ﷺ والمؤمنونَ الآخَرونَ؛ لأنّ هذا القرآنَ هو كلامُ الله الصَّادقُ الذي أنزَلَه، والمؤمنونَ جميعًا يؤمنونَ باللهِ تعالى وملائكتِه وكُتبِه ورُسُلِه، ولا يُفرِّقونَ بيْنَ الرُّسُل في إيمانِهم بهم، فلا يؤمنونَ ببعضِ الرُّسُل ويكفُرون ببعضِهم، وإنّما يؤمنونَ بهم جميعًا.

كما أنّ المؤمنينَ جميعًا يسمَعونَ كلامَ الله بعقيدةٍ تامَّة، ويحاولونَ قَدْرَ استطاعتِهم العمَلَ به، ويرغَبونَ بصفةٍ دائمة في عَفْوِ الله تعالى، كما أنّ أهلَ الإيمانِ جميعًا يؤمنونَ بأنّ الجميعَ سيقفونَ أمامَ اللهِ تعالى يومًا ما، وهو اليومُ الذي سيَلقَى فيه كلُّ شخصٍ ثوابَ حسَناتِه وعقابَ سيِّئاتِه.

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾

٢٤٤- اللهُ تعالى رحيمٌ إلى أقصَى حَدّ، ولتقسيم رحمةِ اللهِ تعالى أحيانًا يُرغِّبُنا في الدُّعاء، وأحيانًا يَزرَعُ فينا الأمَلَ في قَبولِ الدُّعاء، وفي هذه الآية يُخبِرُنا بآدابِ

---

(١) البخاري، كتاب التوحيد، باب ٣٥ برقم ٧٥٠١.

الدُّعاء وسَليقتِه، وكيف يُرفَعُ السُّؤالُ في حضرةِ اللهِ تعالى، وماذا نسأل. وفي هذا الدُّعاءِ خيرُ الدُّنيا والآخِرة، ولهذا قال النبيُّ ﷺ:

«**إنِّي أوتيتُهما من كَنْزٍ من بيتٍ تحتَ العَرْش، ولم يُؤْتَهما نبيٌّ قَبْلي**»، يعني: **الآيتَيْنِ من آخِرِ سُورةِ البقرة**(١).

وكلَّما كان سيِّدُنا جِبريلُ عليه السَّلامُ يَتْلو هذه الأَدعِيَة كان النبيُّ ﷺ يقولُ: «**آمين ربّ العالمين**»، أي: فلْتَقْبَلْ هذا الدُّعاءَ يا ربَّ العالَمين(٢).

* يا إلهي، اليومَ هو الثانيَ عَشَر من شهرِ ربيعٍ الأول، يومُ الاثنين، وصباحُه يُطِلُّ علينا، وفي مِثْل هذه الساعة قبل ١٤٧٥ عامًا أَتَيْتَ بحبيبِك الكريم الرسُول ﷺ إلى هذه الدُّنيا، وجَعَلتَ شمسَ الإسلام تُشرقُ في ظُلُماتِ الكُفرِ على يَديْه.

وحازَ عبدُك الفقيرُ العاصي هذا بفَضْلِك وكرَمِك شرَفَ إكمالِ كتابةِ تفسيرِ سورةِ البقرة في هذه الساعةِ المباركة، وها هو يقولُ: آمين، على الدُّعاءِ في آخِرِ هذه السُّورة، ويُردِّدُ الجُملَة الأخيرةَ طالبًا الثوابَ منكَ قائلًا:

* ربَّنا، بجاهِ هذا النبيِّ العظيم المبارَك، الذي وُلِد في مِثْلِ هذه الساعةِ المباركة، ارحَمْ أُمَّةَ الإسلام، واعْفُ عن أخطائنا، وامنَح الحُرِّيَّةَ للمسلمينَ المظلومين، واجعَل الاتِّفاقَ والاتِّحادَ من نصيبِ العالَم الإسلاميِّ كلِّه، حتى يَحيا المسلمونَ حياةً كريمة، ويستطيعوا تقديمَ أفضَلِ صورةٍ للإسلام في القرنِ الحادي والعشرين.

أنتَ مولانا فانصُرْنا على القوم الكافرين، آمينَ يا ربَّ العالَمين، بجاهِ حبيبِكَ الكريم عليه التَّحيَّةُ والتسليم.

---

(١) مسند أحمد ٥: ١٥١.

(٢) التفسير بالمنثور.

*** بدأْتُ كتابةَ تفسيرِ سُورةِ الفاتحة بعدَ صلاةِ المغربِ من يوم السَّبت الثلاثينَ من سِبتمبر عام ٢٠٠٠م (غُرَّة رجبٍ المُرجَّب عام ١٤٢١هـ) بجامعة الكَرَم (بإنجلترا)، وأكمَلتُ كتابةَ تفسيرِ سُورة البقرة اليومَ الاثنين الرابعَ من يُونِيَه عام ٢٠٠١م (١٢ ربيع الأول عام ١٤٢٢هـ) وقتَ طلوع الصُّبح الصَّادق قبْلَ صلاةِ الفجرِ، بجامعةِ الكَرَم (بإنجلترا).**

*** والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصَّلاةُ والسَّلامُ على سيِّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.**

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

(٣) سورة آل عمران

هذه السُّورةُ مَدَنيَّةٌ؛ لأنّها نَزَلتْ بعدَ الهجرة، وكلُّ السُّورِ التي نَزَلتْ بعدَ الهجرة تُسمَّى سُورًا مَدَنيَّةً.

واسمُ هذه السُّورة هو: (آلُ عِمْرانِ)؛ لأنها تَقُصُّ علينا قصَّةَ زوجةِ عِمْرانَ (حَنّةَ)، وابنتِهِ سيِّدتِنا مَرْيَم وحفيدهِ منَ ابنتِه سيِّدنا عيسى عليه السَّلامُ.

نظرة على مضامين السورة

جاء التَّصريحُ بشكلٍ واضح في هذه السُّورةِ بأنّ الدُّستورَ الذي أنزَلَه اللهُ تعالى لهدايةِ الإنسانِ واحدٌ فقط، واسمُه: الإسلامُ، والأنبياءُ السَّابقونَ كذلك كانوا دُعاةً لهذا الدِّين.

في هذه السُّورة كان الاهتمامُ كبيرًا بإصلاح أعمالِ اليهود والعقائدِ المسيحيَّة، واحتَوتِ السُّورةُ كذلك على مُناظَرةٍ معَ علماءِ المسيحيَّة، فلمَّا عَجَزوا عنها مالوا إلى المُباهَلة، وفي نهايةِ الأمرِ تخلَّوْا عن المُباهلةِ أيضًا؛ لأنّهم يَعلَمونَ أنّ النبيَّ ﷺ صادق.

وفي السُّورةِ أيضًا جاء الحديثُ عن التَّوحيد، ونُبُوَّةِ النبيِّ الكريم ﷺ، وصَدقَ القرآنُ الكريمُ، كما جاء الإعلانُ في هذه السُّورةِ عن فَرْضيَّة الحجِّ، وفيها قال اللهُ

تعالى عن الأُمَّةِ المسلمة: إنّها خيرُ أُمَّة، وفي نفْسِ الوقتِ أشعَرَها بالمسئوليَّةِ العظيمة المُلقاةِ على عاتقِها بأنْ يَحيا أبناؤها متَّحدينَ معًا، وأنْ يأمُروا النّاسَ بفعلِ الخير، ويمنَعوهم من فعلِ السُّوء.

كما تحدَّثتِ السُّورةُ باختصارٍ عن غزوةِ بَدْر، وبالتفصيل عن غَزْوةِ أُحُد. لقد خالَفَ أربعونَ صحابيًّا فقطْ من بينِ سبعِمائةِ صحابيٍّ أمرَ النبيِّ ﷺ، فعاقَبَ اللهُ تعالى المسلمينَ بأنْ بَدَّل نَصْرَهم هزيمةً، وتَغلَّبَ الكفَّارُ عليهم، واليومَ، نحنُ نخالفُ اللهَ تعالى ورسولَه الكريمَ ﷺ في مئاتِ الأحكام، ونتيجةُ ذلك واضحةٌ ماثلةٌ أمامَ أعيُنِنا، وهي: أنّ الكُفرَ أصبح غالبًا، وأصابَ المسلمينَ الذُّلُّ وسُوءُ السُّمعةِ في كلِّ مكان، ومن الضَّروريِّ، لكي نتخلَّصَ من هذا الواقع المؤلِم، أن نُحدِثَ ثورةً في حياتِنا الفَرْديَّةِ والاجتماعيَّة، وأن نعمَلَ بأحكام الإسلام، وأن نُحقِّقَ مُقتَضَياتِ الإيمان مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

وقد قال رسولُ الله ﷺ عن فَضْل هذه السُّورةِ فيما رَواهُ أبو أُمامةَ الباهِليُّ من أنه سَمِع رسولَ الله ﷺ يقول: «**اقرَأُوا القرآنَ، فإنّه يأتي يومَ القيامةِ شفيعًا لأصحابِه، اقرَأُوا الزَّهْراوَيْنِ: البقرةَ وسُورةَ آلِ عِمْران، فإنّهما يَأتيانِ يومَ القيامة كأنَّهما غَمامتان، أو كأنّهما غَيَايَتان، أو كأنّهما فِرْقانِ من طيرٍ صَوافَّ، تُحاجّانِ عن أصحابِهما**»[1]، (أي: تُجادلانِ من أَجْل الشَّفاعة لمن يقرأُهما، ولا تسمحانِ لملائكة جهنَّم بالاقترابِ منه).

* * *

(١) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب ٤٢ برقم ١٨٧٤.

سورة آل عمران (٣)،

مدنية (٨٩)، آياتها (٢٠٠)، ركوعاتها (٢٠)

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٩﴾

﴿الٓمٓ﴾

١ـ أَلِفْ لامْ مِيمْ: هذه حروفٌ مقَطَّعةٌ، وهي سِرٌّ للحُبِّ بيْنَ الله تعالى وحبيبِه المكرَّم سيِّدِنا محمَّدٍ ﷺ لا يَعلَمُه حتّى جِبريلُ عليه السَّلام، ولمزيدٍ من الشَّرح راجِع الحاشيةَ رقم (١) من سُورة البقرة.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَ﴾

٢ـ اللهُ تعالى حَيٌّ منذُ الأَزل، وسيبقَى حيًّا أبدًا، والكائناتُ كلُّها محتاجةٌ له في

حياتِها ونشأتِها، لكنه لا يَحتاجُ إلى أحدٍ، وقد أنزَلَ اللهُ تعالى الكُتُبَ من قَبْلُ لهدايةِ الإنسان، وهو الذي أنزَلَ القرآنَ الكريمَ أيضًا، والقرآنُ المَجيدُ كلامُ اللهِ تعالى الخاتَم، والذي يُصدِّقُ ما سَبَقَه من الكتُبِ السَّماوية، ويُبيِّنُ الفَرْقَ بيْنَ الحقِّ والباطل.

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴾

٣ـ الآيات المُحْكَماتُ:

هي: تلك الآياتُ التي تتميَّزُ بمفهومِها الواضح تمامًا، وليس هناك أيُّ مجالٍ للتأويل أو الإبهام في ألفاظِها أو معانيها، مثلَ: أنّ اللهَ واحدٌ، وأنّ القرآنَ الكريمَ كتابٌ صادق، وأنّ الصَّلاةَ فَرْضٌ وغيرِ ذلك. والآياتُ المُحْكَماتُ هي أساسُ القرآنِ الكريم ومَنْبَعُ فَهْمِ الإسلام.

الآيات المتشابِهات:

هي: تلك الآياتُ التي تتميَّزُ بعَدَم وضوح مفهومِها وضوحًا تامًّا، وهناك مجالٌ للتأويلِ أو الإبهام في ألفاظِها أو في معانيها، مثلَ: كيفيَّةِ يدِ الله تعالى ووَجْهِه والعَرْش والكُرسيِّ، ووقتِ القيامة ومجيءِ الدّجَّال وغيرِها، وإدراكُ مِثل هذه الأشياءِ ليس في مقدورِ حواسِّنا، ولهذا فليس من العقلِ والحِكمةِ التطرُّقُ إلى تفاصيلِها والنِّقاشُ فيها، ولهذا يقولُ أهلُ العِلم: «إنّنا نؤمنُ بالآياتِ المَتَشابِهاتِ سواءٌ استوعبَتْها عقولُنا أم لا؛ لأنّ الآياتِ سواءٌ كانت مُحْكمةً أم متشابهةً، كلُّها أنزَلَها اللهُ تعالى». ولكنّ مثيري الفِتَنِ من البشَرِ يُؤَوِّلونَ هذه الآياتِ تأويلًا يتنافى معَ الآياتِ المُحكَمة، وبهذه الطَّريقةِ يقومونَ بدَوْرٍ كَريهٍ في زراعةِ الشُّكوكِ والشُّبُهاتِ في قلوبِ البُسَطاءِ من المسلمين.

وأريدُ هنا، لمزيدٍ من التَّوضيح، أن أضرِبَ مثالًا لهذا الأمر: أحدُ الرُّعاةِ يقِفُ على قمَّةِ جبل، ويُنادي على أهلِ قريتِه أنّ حيَوانًا مفترِسًا، كالأَسَد، قادمٌ مِنَ الجانبِ الآخَرِ للجَبل، ولهذا تَدبَّروا أمرَ حمايةِ أنفسِكم منه، فأمّا الذين سَمِعوا ما قال الراعي، وأخَذوا في تدبُّرِ أمرِ حمايةِ أنفُسِهم فَوْرًا فقد نَجَوْا، بينَما انشَغلَ الحَمْقَى الآخَرونَ عن تدبُّرِ أمرِ حمايةِ أنفُسِهم بنقاشاتِهم التَّافهةِ التي لا طائلَ من ورائها، مثْلَ: تُرى أيُّ حيَوانٍ مفترسٍ هذا؟ وما السُّرعةُ التي هو قادمٌ بها؟ وما لونُه يا تُرى؟ أليس من المحتَملِ أن يكونَ حمارًا وَحْشيًّا؟ وما إلى ذلك ممَّا لا فائدةَ منه، وبينَما هم منشغِلونَ بهذه التَّفاهاتِ إذْ جاء الحيَوانُ المفترِسُ ومزَّقَهم إرْبًا.

وبنفْسِ الطَّريقة، فإنّ المسلمينَ الذين يؤْمنونَ بالآياتِ المتَشابهاتِ، بمجرَّدِ قراءتِها، ويَنْهمِكونَ في العملِ بالآياتِ المُحكَماتِ، يُكتَبُ لهم النَّجاحُ والفلاح، أمّا الذين يَشغَلونَ أنفُسَهم بتأويلِ الآياتِ المتَشابهاتِ، ويَغفُلونَ عن الآياتِ المُحكَمات، فلن يَنالوا عندَ موتِهم سوى الحَسْرة.

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾

٤ـ المفهومُ الحقيقيُّ للآياتِ المتَشابِهاتِ لا يَعلَمُهُ إلّا اللهُ، ولا يمكنُ لبشَرٍ أن يُحيطَ عِلمُه وفِكرُه بحقيقتِها، لكنّ اللهَ تعالى ـ بفَضْلِه وكَرَمِه ـ قد مَنَّ على حبيبِه المصطفى ﷺ، والأولياءِ الكرام رحمةُ الله عليهم، بعِلم هذه الآيات[1].

ولتأكيد هذا الكلام انظُرْ إلى هذا الدُّعاءِ للنبيِّ ﷺ، والذي دَعا به لسيِّدِ المفسِّرينَ

---

(١) «المتشابه مما استأثر الله تعالى بعلمه لا يمنع تعليمه للنبي ﷺ بواسطة الوحي مثلاً ولا إلقاءه في روع الوليّ الكامل مفصلًا، لكن لا يصل إلى درجة الإحاطة ـ كعلم الله تعالى ـ وإنّما المنع من الإحاطة ومن معرفته على سبيل النظر والفكر». تفسير روح المعاني.

سيِّدنا عبدِ الله بن عَبّاس رضيَ اللهُ عنه: «**اللّهُمَّ فقّهْهُ في الدِّين وعَلِّمْه التّأويلَ**»[(١)]، وكان من أثرِ هذا الدُّعاءِ أنْ قال سيِّدُنا عبدُ الله بنُ عَبّاس: «**أنا ممَّن يَعلَمُ تأويلَه**»[(٢)].

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَاۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾

---

(١) مسند أحمد، ١: ٢٦٦.

(٢) تفسير روح المعاني.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾

٥ـ سينالُ الكفّارُ عقابَ كُفرِهم يقينًا، ولن تُنجيَهم أموالُهم ولا أولادُهم من عذابِ الله تعالى، مثلَما لم يَستطعْ جيشُ فِرعَوْنَ ولا كنوزُهُ أنْ تُنجيَه من عذابِ الله، وغَرِقوا جميعًا في الماءِ بذنوبِهم.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ﴾

٦ـ المرادُ بالكفّارِ هنا: اليهودُ الذين تورَّطُوا في مؤامراتٍ ضدَّ الإسلام، ولهذا سُرعانَ ما تحقَّقت نُبوءةُ القرآنِ الكريم هذه، وانهَزمَ اليهودُ في كلِّ مكان.

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَاۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾

٧ـ كان جيشُ الكفَّارِ في غزوةِ بدرٍ يتكوَّنُ من ألفِ فَرْد، بينَما كان عدَدُ المسلمينَ إذْ ذاكَ ثلاثَمائةٍ وثلاثةَ عَشَر (٣١٣) فردًا، وبالرَّغْم من ذلك انهَزمَ الكفَّارُ، وهذه من آياتِ قُدرةِ الله تعالى، ويُعلَمُ من هذا أيضًا أنَّ النَّصرَ لا يتوقَّفُ على الكثرةِ العدَديَّة، وإنّما على نُصرةِ الله وتأييدِه.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾

٨ـ إنّ حبَّ الأولادِ والأهل والمالِ والثّروةِ من الأمور الفِطْريَّة، ولكنْ يجبُ أن نتذكَّرَ دائمًا أنّ هذه الحياةَ الدُّنيا حياةٌ مؤقَّتةٌ وعارِضة، ولا ينبغي أن ننشغلَ بها انشغالًا

تامًّا، وأن الجنَّةَ هي خيرُ المصير، ونِعَمُها أبَديَّة، وخيرٌ من كلِّ هذا رضا اللهِ تعالى الذي هو أصلُ مقصِدِ خَلْقِ البشَر، ولهذا علينا أن نستفيدَ من أسبابِ ومتاع الحياةِ الدُّنيا، حتى تمرَّ هذه الحياةُ العارِضةُ المؤقَّتةُ في أحسنِ حال، ولكنّ علينا في الوقتِ نفسِه أنْ نختارَ طريقَ التَّقوى والعبادةِ والسَّخاءِ والجُودِ والطاعةِ والصَّبرِ والاستقامة، حتى ننالَ رضا اللهِ تعالى، ويُمتِّعَنا بنِعَمِه الخالدة.

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾

٩ـ إنّ الدِّين الذي جاء به الأنبياءُ جميعًا ودَعَوا النّاسَ إليه هو الإسلامُ، وقدِ اختَلَفت بعضُ الأحكام (لدى كلِّ نبيٍّ فيما يَدعو إليه) طِبقًا للواقع الذي أُرْسِلَ فيه كلُّ نبيٍّ، لكنّ التعاليمَ الأساسيَّةَ والمبدَئيَّةَ ظلَّت واحدةً دائمًا، إلى أنِ اختُتِمت سِلسلةُ النُّبوَّة بمجيءِ سيِّدِنا المصطفى ﷺ، فأصبح اسمُ طاعتِه واتّباعِه ﷺ هو الإسلامَ، والآنَ، فإنّ تَرْكَ اتِّباعِ النبيِّ ﷺ واختيارَ أيِّ دينٍ آخَرَ ليس مقبولًا عندَ اللهِ تعالى.

وهنا يبرُزُ سؤالٌ فَحْواهُ: أنه لو أنّ دينَ الأنبياءِ جميعًا واحدٌ، فكيف أصبحتْ لدَيْنا أديانٌ مختلفة؟ والإجابةُ عن هذا السُّؤالِ تضمَّنَتْه هذه الآيةُ، وهي: أنّ اختلافَ أهلِ الكتاب لم يكنْ نتيجةً لسوءٍ في الفَهْم، وإنّما فَرَّقَهم بُغضُهم وعِنادُهم، وعلى سبيل المثال، لو لم يُصَبِ اليهودُ بالحسَد، وآمَنوا بسيِّدِنا عيسى عليه السَّلام، لَما كان في الدُّنيا اليومَ يهوديٌّ واحدٌ، وبنفْسِ الطَّريقة، لو آمنَ المسيحيُّونَ بسيِّدِنا محمَّدٍ ﷺ لَما كان في الدُّنيا اليومَ مسيحيٌّ واحدٌ ولا يهوديّ، وإنّما كانوا جميعًا مسلمينَ، لكنّ تحاسُدَنا وتباغُضَنا فيما بينَنا فَرَّقنا عن بعضِنا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ

أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾

١٠- لقد أوْغَلَ اليهودُ في ضَلالِهم وتمرُّدِهم، إلى درجةٍ كانوا يقتُلونَ معَها أنبياءَ اللهِ تعالى، وبالرَّغم من ذلك يعتقدونَ أنَّهم أهلُ الجنةِ وأحبّاءُ الله، وأنّ نارَ جهنَّم لن تقتربَ منهم، لكنّ القرآنَ الكريمَ أعلَنَ في وضوح أنّ أعمالَ أولئك الذين يرتكبونَ أحطَّ الذنوبِ ستضيعُ هباءً، ولن يَدخُلوا الجنَّةَ، وإنّما سيلقَوْنَ عذابًا أليمًا.

قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ ﴾

١١- يعني: أنّ اللهَ تعالى قادرٌ مطلَقٌ، يجعَلُ المَلِكَ متسوِّلًا، أو يجعَلُ المتسوِّلَ سُلطانًا، ويُنعِمُ على أحدٍ بالعِزَّةِ والكرامة، أو يُسلِّطُ عليه الذُّلَّ والمَهانة، فهو صاحبُ السُّلطانِ الحقيقيِّ، ومالكُ السُّلُطاتِ كلِّها، ولكنّ سُنّتَه أنّ قمَّةَ العزِّ والفَخار تُكتَبُ لأولئك القوم الذين لا ينقطعونَ عن الكفاح والعمَل أبدًا، وأنّ قعْرَ المذَلّةِ يكونُ من

نصيبِ أولئك الكُسالَى الغافلينَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾

١٢ـ المرادُ منه التغيُّراتُ الفَصْليَّةُ والمَوْسِميَّة، بمعنى: أنّ اللَّيلَ يطُولُ أحيانًا بحيث يَدخُلُ فيه جزءٌ من النَّهار، وأحيانًا يطُولُ النَّهارُ بحيث يَدخُلُ فيه جزءٌ من اللَّيل، وهكذا يستمتعُ الإنسانُ بالفصُولِ المختلفة، إذ إنه لوِ استمرَّ الفصْلُ الواحدُ بلا نهايةٍ لأصابَ الإنسانَ المَلَلُ، ولم يكنْ هناك تنوُّعٌ في الحاصِلاتِ الزِّراعية.

﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾

١٣ـ تَضُمُّ هذه الكائناتُ بداخلِها آياتٍ لا حَصْرَ لها على القُدرةِ الإلهيَّة، ونشاهدُها نحن بأعيُننا ليلَ نهارَ، ومِن بيْنِ هذه الآياتِ مثالٌ واحدٌ بسيطٌ، وهو: أنّ اللهَ تعالى يُخرِجُ البَيْضةَ الميِّتةَ من الدَّجاجةِ الحيَّة، ويُخرِجُ الدَّجاجةَ الحيَّةَ من البَيْضةِ الميِّتة.

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

١٤ـ أولئك الكفَّارُ الذين يُبغِضُونَ الإسلام، ويَبذُلونَ قُصارى جُهدِهِم في إيذاءِ أهلِ الإيمان، يمتنعُ إقامةُ أيّةِ صَداقةٍ مَعهم؛ لأنّهم ـ بهذه الطَّريقة ـ يَعرِفونَ الأسرارَ أو يقدِّمونَ المَشُوراتِ المضَلِّلةَ، فيُضاعفونَ من خسارةِ المسلمين، لكنّ الكفَّارَ المعتدِلينَ، والذين لا يُضايقونَ المسلمينَ من قريبٍ أو بعيد، علينا أن نُعاملَهم معاملةً حسَنةً وعادلةً: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]، كما أنّه من المسموح للمسلمينَ أن يتعاونوا معَ أمثالِ هؤلاءِ ويشاركوهم في التِّجارةِ والأعمالِ التَّنمويَّة، وأن يَرتبِطوا معَهم بمعاهداتِ دفاع مشتَركٍ ضدَّ العدُوِّ المشتَرك، بل إنّ التعامُلَ

معَهم يجبُ أن يكونَ بحُسنِ أخلاقٍ لدرجةٍ تجعَلُهم يتأثَّرونَ بالتعاليم الإسلاميَّةِ فيُسلِموا في نهايةِ الأمر.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾

١٥- يعني: لو أنّ أيَّ مسلم وَقَع في قَبْضةِ الكفَّار، وتخوَّفَ بشكلٍ مؤكَّدٍ من إيذاءٍ يصيبُه، فإنّ الإسلامَ قد سَمَح له - في حالةِ العَجْز هذه - أنْ يتخيَّر طريقًا يستطيعُ من خلاله أن يتجنَّبَ شرَّ الكفَّار.

قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾

١٦- كان كلٌّ من النَّصارى واليهودِ يَدَّعونَ أنهم يُحِبُّونَ اللهَ تعالى، وأنّ اللهَ

تعالى يُحِبُّهم، ولهذا قال النبيُّ ﷺ: **«لو كان موسى حيًّا بينَ أَظْهُرِكم ما حَلَّ له إلّا أن يتَّبِعني»**[1]، بمعنى: أنه لو أنكم تُحِبُّونَ اللهَ فعلاً فاعمَلوا بأحكامِه، ومن أحكامِه تعالى أنِ اتَّبِعوني؛ لأنّه تعالى هو الذي أرسَلَني، وأنتم تَعرِفونَ جيّدًا ـ من خلالِ كتُبكم ـ أنَّني نبيٌّ صادق، ولهذا فإنّ الذين لهم حقُّ ادِّعاءِ حُبِّ اللهِ تعالى هم الذين يتَّبعونَني، ولو أنّ موسى عليه السَّلامُ كان حيًّا لاتَّبَعَني، و**«كيف أنتم إذا نَزَلَ ابنُ مَرْيَم فيكم وإمامُكم مِنْكم؟»**[2].

لمحة فكرية لليهود والنصارى

إذا كان اتِّباعُ النبيِّ ﷺ واجبًا على سيِّدِنا موسى وسيِّدِنا عيسى عليهما السَّلامُ، فإنّ اتِّباعَه ﷺ أوجَبُ على اليهودِ والنَّصارى وأَوْلى.

لمحة فكرية للمسلمين

يستطيعُ اليهودُ والنَّصارى أن يكونوا أحبابَ الله تعالى باتِّباع سيِّدِنا محمَّدٍ ﷺ، فلو أنّ المسلمينَ أصلًا أخْلَصوا في اتِّباع سيِّدِنا محمَّدٍ ﷺ لكانوا ـ من بابِ أَوْلى ـ أحبابَ اللهِ تعالى، وهل هناك مقامٌ لأيِّ مخلوقٍ أعلى من هذا وأرفَعُ، أن يصبحَ محبوبًا لخالقِه ومالكِه؟! يا إلهي، مُنَّ علينا بأنْ نكونَ خَدَمًا صادقينَ مخلِصينَ لحبيبِكَ المكرَّم ﷺ، آمين.

﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾

١٧ـ أوضَحَتِ الآيةُ السَّابقةُ أنّ من الضَّروريِّ ـ لكي نُصبحَ أحبابًا للهِ تعالى ـ علينا أن نُطيعَ رسولَه المحبوبَ ﷺ، بينَما حَكَمتْ هذه الآيةُ بالكُفرِ على الإعراضِ

---

(١) مسند أحمد، ٣: ٣٣٨.

(٢) البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ٤٩ برقم ٣٤٤٩.

عن طاعةِ النبيِّ ﷺ، ولهذا فإنّ مَن يُنكِرُ الحديثَ الشَّريفَ والسُّنَّةَ النَّبويَّةَ، عليه أن يُنعِمَ النَّظرَ في هذه الآيةِ ثانيةً؛ لأنه يُنكِرُ حُكمَ القرآنِ ويَرفُضُه.

الحاجةُ إلى الحديثِ الشَّريفِ والسُّنّة النَّبويَّة:

لقد قرّر اللهُ تعالى أنّ النبيَّ ﷺ هو أفضلُ أُسوةٍ للاتِّباع: ﴿ **لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا** ﴾ [الأحزاب: ٢١]، كما أنّ ذاتَ النبيِّ ﷺ وحركاتِه وسَكَناتِه هي الصُّورةُ العَمليَّةُ للقرآنِ الكريم «**فإنّ خُلُقَ نبيِّ الله ﷺ كان القُرآنَ**»[١].

سَأل رجُلٌ سيِّدَنا عبدَ الله بنَ عُمرَ رضيَ اللهُ عنهما قائلًا: جاء في القرآنِ ذِكْرُ صلاةِ الحَضَر وصَلاةِ الخَوْف، لكنْ لم يَرِدْ فيه ذِكرُ صَلاةِ السَّفَر (لأنّ الآيةَ رقم ١٠١ من سورة النساء قد تحدَّثتْ عن صلاةِ السَّفَر حالَ الخَوْفِ من ظُلم العدِّو، ولكنْ ليس عن صَلاةِ السَّفَر في حالةِ السِّلْم)، فرَدَّ عليه سيِّدُنا عبدُ الله بنُ عُمَر بقولِه: إنَّنا لم نكنْ نَعلَمُ شيئًا، وقد أرسَلَ اللهُ تعالى نبيَّه ﷺ إلينا، ونحن نفعَلُ ما رأَيْناه ﷺ يفعَلُ[٢].

يعني: أنه رَغْمَ أنّ صلاةَ السَّفَرِ لم يَرِدْ لها ذِكرٌ مطلَقًا في القرآنِ الكريم، لكنْ يكفينا أنّ النبيَّ ﷺ قد صَلَّى صلاةَ السَّفَر، وأَمَرنا أن نُصَلِّيَها.

فكلُّ ما يقولُه النبيُّ ﷺ هو من عندِ الله ﴿ **إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ** ﴾ [النجم: ٤]، وطاعةُ النبيِّ ﷺ هي - في الحقيقةِ - طاعةٌ لله تعالى: ﴿ **مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا** ﴾ [آل عمران: ٨٠].

---

(١) مسلم، صلوة المسافرين، باب ١٨ برقم ١٧٣٩.

(٢) عن أميّة بن عبد الله ابن خالدٍ، أنّه قال لعبد الله بن عمر: إنّا نجد صلاة الحضر وصلاة الخوف في القرآن، ولا نجد صلاة السّفر؟ فقال له عبد الله: إنّ الله بعث إلينا محمّدًا ﷺ ولا نعلم شيئًا، فإنّما نفعل كما رأينا محمّدًا ﷺ يفعل. ابن ماجه، أبواب إقامة الصلاة، باب ٧٣ برقم ١٠٦٦.

فلو أَخْرَجْنا حديثَ النبيِّ ﷺ وسُنَّته الشَّريفَة من الإسلام، لَأصبح من المستحيل العمَلُ بالقرآنِ الكريم، على سَبيل المثال: ورَدَت أحكامُ الصَّلاةِ والصِّيام والحجِّ في القرآنِ الكريم، لكنّ العَمَل بها ـ بصُورةٍ صحيحة ـ لا يمكنُ أن يَتِمَّ بغيرِ السُّنَّةِ النَّبويَّة.
ما أحسَنَ ما قال العَلّامةُ محمَّد إقبال:

*** صِلْ نفْسَكَ بالمصطفى ﷺ فهذا هو الدِّين،**

*** وإلّا فكُّل شيءٍ كُفْرُ أبي لَهَب.**

أي: يا أيُّها الإنسان، فلْتَنْحَنِ أمامَ بابِ المصطفى ﷺ؛ لأنه ﷺ هو النَّبعُ العَمَليُّ لدينِ الإسلام، ولئنْ تَخلَّى أحمَقُ عن النبيِّ ﷺ، وأراد أن يَفهَمَ الإسلامَ من غيرِه، فإنه يُمكنُ أن يصبحَ أبا لَهَب، لكنّه لا يمكنُ أن يَعرِفَ لَذَّةَ الإيمان.

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾

١٨ـ عندما شَعَرتْ (حَنّةُ) زوجةُ عِمرانَ بثِقْلِ الحَمْل، نَذَرتْ أنّها ستُعفي مولودَها من أعمالِ البيت، وتوقِفُه لخدمةِ بيتِ المقدِس، فقد كانت تتوقَّعُ أنْ يَرزُقَها اللهُ بوَلَد، ولكنْ حينَ رُزِقت بابنةٍ قالت متحسِّرة: يا إلهي، لقد وَلَدتُ طفلةً (مَرْيَم)، فكيف يمكنُ أن تقومَ هذه الأُنثى الضَّعيفةُ بخدمةِ بيتِكِ؟ فقال اللهُ تعالى لها: إنّ الوَلَدَ الذي دَعَوتِ اللهَ أن يَرزُقَكِ به لا يستطيعُ أن يكونَ مِثلَ هذه الطِّفلةِ أو يَعدِلُها؛ لأنّ هذه الفتاةَ ـ في المُستقبَل ـ ستصبحُ أفضَلَ سيِّداتِ نساءِ زمانِها جميعًا، وستكونُ أُمًّا لسيِّدنا عيسى عليه السَّلامُ.

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًاۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾

١٩ـ جَعَل اللهُ تعالى نبيَّه سيِّدَنا زكريا عليه السَّلامُ كفيلًا للسيِّدة مَريَم رضيَ اللهُ

عنها ووَليًّا لأمرِها، وكان عليه السَّلامُ كلَّما ذَهَب إلى السيِّدة مريمَ ليسألَ عنها، وَجَد في مكانِ تعبُّدِها أنواعًا عديدةً من الفاكهة في غيرِ موسمِها - يعني: فاكهةَ الصَّيف في الشِّتاء، وفاكهةَ الشِّتاءِ في الصَّيف، وكانت هذه فاكهةُ الجنة -[1]، ولأنّ هذه الفاكهةَ غيرُ موجودةٍ في الأسواق، لهذا سَألَها في دهشةٍ وتعجُّب: يا مَرْيمُ، من أين لكِ بهذهِ الفاكهة؟ فقالت: إنَّها تأتيني من عندِ الله.

وتُثبِتُ هذه الآيةُ كراماتِ أولياءِ الله الصَّالحين؛ لأنّ السيِّدةَ مَرْيمَ لم تكنْ نبيَّةً، ووجودُ الفاكهةِ في غيرِ موسمِها عندَها هو كرامةٌ لها.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾

٢٠- كان سيِّدُنا زكريَّا عليه السَّلامُ وزوجتُه قد كَبِرا في العُمرِ بحيثُ لم يكنْ من الممكنِ أن يُنجِبا أولادًا، ولكنْ حينَ رأى الفاكهةَ في غير موسمِها عندَ السيِّدةِ مريمَ، توَلَّدتْ بداخلِهِ الرغبةُ البريئةُ في إنجابِ الأولاد، فدَعا ربَّه قائلًا: «يا إلهي، أنت القادرُ المطلَق، وكما أنعَمْتَ على مَرْيمَ بالفاكهةِ في غير موسمِها، أنعِمْ علينا بالأولادِ الصَّالحينَ في هذا العُمرِ المتقدِّم». وهكذا، استجابَ اللهُ تعالى دعاءه، وبشَّره بابنِهِ

---

(١) «ضمّها (مريم عليها السلام) الله تعالى إليه (زكريّا عليه السلام) وجعله كافلاً لها وضامنًا لمصالحها ... أنّه كان لا يدخل عليها غيره وإذا خرج أغلق عليها سبعة أبوابٍ، فكان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف، وأنّ ذلك من ثمار الجنة». تفسير روح المعاني.

يحيى، وأعطاهُ آيةً على ذلك ليطمئنَّ بها قلبُه، وفي نهايةِ الأمرِ علَّم الإنسانيَّةَ كلَّها ـ عن طريقهِ ـ أنه حينَ تتحقَّقُ الأُمنيَةُ القَلْبيَّةُ لأحدٍ، عليه أن يُقبِلَ على شُكرِ المتفضِّلِ الحقيقيِّ عليه، حتى يَحفَظَ اللهُ تعالى عليه هذه النِّعمةَ، ويمُنَّ عليه بمزيدٍ من نِعَمِه.

ويُعلَمُ من هذه الآيةِ أنّ التوجُّهَ إلى الله بالدُّعاء في مكانٍ مقدَّس، أو أن يَطلُبَ من أحدِ عبادِ الله الصَّالحين أن يَدعوَ اللهَ له، فإنّ ذلك أدعَى إلى أن يستجيبَ اللهُ له؛ لأنّ سيِّدَنا زكريَّا عليه السَّلامُ دعا اللهَ تعالى عندَ السيِّدةِ مريمَ في نفسِ المكانِ الذي نَزَلتْ فيه الفاكهةُ في غيرِ موسمِها، وقد أَنْعمَ اللهُ تعالى على سيِّدِنا زكريَّا عليه السَّلامُ بالوَلَدِ رَغْمَ بلوغِه سنَّ الشَّيخوخة، ولذا لا يجبُ أن نَمْنَع أحدًا من الدُّعاءِ في الأماكن التي لها علاقةٌ ما بعبادِ الله المقرَّبين، مثلَ المكانِ الذي وُلِد فيه سيِّدُنا محمَّدٌ ﷺ، وغارِ حِراء، وأضرِحةِ الأنبياءِ الكرام والشُّهداءِ العظام وأولياءِ اللهِ الصَّالحين.

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾

وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾

﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

٢١- لقد فَضَّل اللهُ تعالى السيِّدةَ مريمَ على نساءِ زمانِها، وأكَّد عليها أنْ تطيعَ اللهَ وتعبُدَه شكرًا على هذه النِّعمة، لهذا كلّما كان الفَضْلُ على الإنسانِ كبيرًا كان عليه أن يشكُرَ اللهَ كثيرًا.

ولقد أنزَلَ اللهُ الوحيَ على: السيِّدةِ مريمَ، والسيِّدةِ سارةَ زوجةِ سيِّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ، ووالدةِ سيِّدِنا موسى عليه السَّلامُ، بصُورةٍ مباشرة وعن طريقِ الملائكة، وهذا دليلٌ على عَظَمةِ وقَدْرِ هؤلاءِ النِّسوةِ السَّعيدات، ولكنْ لا يعني هذا أن نتصوَّرَ أنهنَّ نَبِيَّاتٌ، لأنّ اللهَ تعالى قد خَصَّ الرِّجالَ فقطْ بالنُّبوَّة، وأوضَحَ هذا للنبيِّ ﷺ في ثلاثةِ مواضع:

١- ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٩].

٢- ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤٣].

٣- ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنبياء: ٧].

وجمهورُ المسلمينَ على أنّه لم تُبعَثِ امرأةٌ قطُ نبيَّةً أو رسولةً[١]. وقد وَرَدتْ أسماءُ خمسةٍ وعشرينَ نبيًّا في القرآنِ الكريم، وليس من بينهِم اسمُ امرأة، كما أنّ النبيَّ ﷺ لم يَذكُرْ أبدًا أنَّ امرأةً بُعثِتْ نبِيَّةً أو رسولةً، واللهُ تعالى حكيمٌ خبير، ولا يَخْلو أيُّ فعلٍ من أفعالِه من حِكمة، ولا نستطيعُ أن نُحيطَ بحِكمتِه، لكنّ هناك أمرًا يَرِدُ إلى الذِّهن بخصوص حِكمتِه سبحانَه وتعالى، وهو أنّ الأنبياءَ الكرامَ عليهم السَّلامُ يقومونَ بتبليغ الأحكام التي تنزلُ عليهم مِثلَما قال اللهُ تعالى:

١ـ ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥].

٢ـ ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩].

والوَحيُ الذي نَزَل على هؤلاءِ النِّسوةِ السَّعيداتِ لا علاقةَ له بالتبليغ، وإنّما كان لإرشادِهنَّ وإكرامِهنَّ، وكذلك لو أنّ والدةَ سيِّدِنا موسى عليه السَّلامُ أخبَرتِ النّاسَ بالوحيِ الذي نَزَل عليها من أنّ ابنَها في قصُورِ فِرعونَ، لَحدثتْ مشاكلُ كثيرة، ولتعرَّضتْ حياةُ سيِّدِنا موسى عليه السَّلامُ للخَطَر.

كما أنّ المرأةَ لو خَرَجتْ وحدَها للتبليغ يمكنُ أن تُحدِثَ مشاكلَ كثيرةً أيضًا بسبب ضَعْفِها الجِسْمانيِّ وجاذبيَّتِها الجِنْسيَّة، والنبيُّ يكونُ إمامَ وخطيبَ قومِه، فلو وَقَفتِ امرأةٌ جميلةٌ في هذا الموقفِ، لَكان من الطبيعيِّ أن تتولَّدَ الوساوسُ الشَّيطانيَّةُ في بعضِ الأذهان، وهو ما يُشتِّتُ الذِّهنَ عن العبادة، كما أنّ في حياةِ المرأة مراحلَ يمكنُ أن تؤثِّرَ سلبًا على أنشِطتِها التَّبليغيَّة، مثلَ: أيام الحَمْل والوَضْع وتربيةِ الأطفال وغيرِها، ولو أنّ الزَّوجَ في هذه الحالةِ لم يَسمَحْ لزوجتِه

---

(١) تفسير ابن كثير، سورة يوسف (١٢): الآية ١٠٩.

بالخروج أصلًا، فماذا سيكونُ مصيرُ التبليغ عندَها؟ بينَما الرَّجلُ لا تطرَأُ عليه هذه الأمورُ كلُّها، فيكونُ أمرُ تبليغ الأحكام أسهلَ وأيسَرَ بالنِّسبة إليه.

أمّا فيما يتَعلَّقُ بنزولِ الملائكةِ على غيرِ الأنبياء، فإنَّهم ينزِلونَ بأمرِ اللهِ تعالى على أهلِ الاستقامةِ من المسلمينَ أيضًا، ويؤكِّدونَ لهم على محبَّتِهم وتعاونِهم معهم، في الدُّنيا والآخرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۞ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣٠-٣١]، وبنفسِ الطَّريقةِ فيما يتَعلَّقُ بالوَحْي المطلَق فإنّ اللهَ تعالى قد أنزَلَ الوحيَ إلى النَّحل وإلى الأرضِ كذلك: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥]، ولا يمكنُ أن يُفهَمَ من هذه الآياتِ أن النَّحلةَ والأرضَ أنبياءُ أيضًا.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾

٢٢- ويُعلَمُ من هذا أنّ اللهَ تعالى يُوحي إلى النبيِّ بأمورِ الغَيْب، وهذا هو معنى لفظِ «نبيٍّ» أيضًا، أي: الإخبارِ بخبَرِ الغيبِ من اللهِ تعالى عن طريقِ الإلهام[1].

﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾

٢٣- لقد خَلَق اللهُ تعالى كلَّ شيءٍ في الكائناتِ بكلمةِ ﴿كُن﴾، ورَبَطَ هذا بالأسبابِ في الغالب، لكنَّه خَلَق سيِّدَنا عيسى عليه السَّلامُ بدونِ سببٍ ظاهريٍّ (الأبِ)، وبكلمةِ ﴿كُن﴾ فقطْ، ولهذا قال عنه: (كلِمةُ الله)، وكان المريضُ يشفَى بمجرَّدِ أن يمسحَ عيسى عليه السَّلامُ بيدِهِ عليه، ولهذا قيل له: (المَسِيحُ)، ولأنّ مولدَه كان بغيرِ أبٍ لذا كانت نسبتُه إلى أُمِّه: (ابنَ مَرْيم).

(١) «المخبر عن الغيب أو المستقبل بإلهامٍ من الله». المنجد.

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾

٢٤ـ المرادُ من الكتابِ هنا: الكتابةُ، والمرادُ من الحِكمة: عِلمُ الفِقه، أي: الشَّريعةُ المسيحيَّة، ويمكنُ أن يكونَ المرادُ بالكتابِ هو القرآنَ المَجِيد، والمرادُ من الحِكمة: الحديثَ الشَّريف؛ لأنّ سيِّدَنا عيسى عليه السَّلامُ حينَ يعودُ إلى الأرضِ من السَّماء، سيكونُ عالمًا بالقرآنِ والحديث، وفقيهًا مجتهِدًا في الشَّريعةِ الإسلاميَّة، معَ أنه لن يَتعلَّمَ هذا من أحدٍ[١].

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾

٢٥ـ يُعلَمُ من هذا أنّ سيِّدَنا عيسى عليه السَّلامُ لم يكنْ نبيًّا للبشَرِ كافّةً، وإنّما كانت دائرةُ نبوَّتِه محدودةً على بني إسرائيلَ فقط، وقد أمَرَ سيِّدُنا عيسى عليه السَّلامُ حَوارِيِّيه أيضًا أنْ لا يُبلِّغوا أحدًا خارجَ بني إسرائيلَ، والإنجيلُ الحاليُّ يصدِّقُ القرآنَ في هذا:

١ـ «لقد أُرسِلتُ إلى الخِرافِ الضَّالة من بني إسرائيل»[٢].

٢ـ أمَرَ سيِّدُنا عيسى عليه السَّلامُ حَوارِيِّيه بقولِه: «لا تذهَبوا إلى الأقوام الأخرى، ولا تدخُلوا أيَّ مدينةٍ من مُدُنِ السَّامِرِيِّين، وإنّما اذهَبوا إلى الخِرافِ الضَّالَّة من بني إسرائيل»[٣].

---

(١) تفسير نعيمي.

(٢) "I am not sent but unto the lost sheep of the house of Israel" – إنجيل متّى: ١٥: ٢٤.

(٣) "These twelve Jesus sent forth, and commanded them, saying, Go not into the way of the Gentiles, and into any city of the Samaritans enter ye not: But go rather to the lost sheep of the house of Israel" ـ إنجيل متّى: ١٠: ٥-٦.

ويتَّضحُ من هذه الاقتباساتِ من الإنجيل أنّ النَّصارى ليس لهم حقُّ تبليغ ودعوةِ أحدٍ غيرِ بني إسرائيل؛ لأنّ هذا هو ما قاله سيِّدُنا عيسى عليه السَّلامُ وأمَرَ به حَوارِيِّيه، ولكنّ هذا الحُكمَ ظلَّ ساريًا طالما لم يُبعَثْ نبيُّ آخِرِ الزَّمان سيِّدُنا محمَّدٌ ﷺ؛ لأنه بعدَ إعلانِ نبَّوةِ سيِّدِنا محمَّدٍ ﷺ وَجَب على الجميع الإيمانُ به.

﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾

٢٦- لقد وُلِد سيِّدُنا عيسى عليه السَّلامُ بغيرِ أبٍ، وهو ما عَرَّض السيِّدةَ مَرْيمَ للطَّعنِ في شَرَفِها من كلِّ اتِّجاه، ولهذا أعطَى اللهُ تعالى سيِّدَنا عيسى عليه السَّلامُ معجِزاتٍ عظيمةً وصريحةً لا يتمكَّنُ النَاسُ - معَها - من إنكارِ عَظَمتِه، وتطمئنُّ معَها السيِّدةُ مريمُ أيضًا بأنه كما حَدَثتْ ولادةُ ابنِها بطريقةٍ معجزةٍ فإنّ شأنَه أيضًا شأنٌ عظيم، فهو يَنفُخُ الرُّوحَ في طيورٍ من طِين ويجعَلُها تَطير، ويشفي من وُلِد أعمى، ويُخلِّصُ الأبـرصَ من بَرَصِه، ويُحيي الموتَى، ويخبِرُ بأمـورِ الغَيْب، وكان هناك تخوُّفٌ كبيرٌ معَ كلِّ هذه المعجِزاتِ العظيمة أن يعتبرَه النّاسُ إلهًا، ولهذا أعلنَ سيِّدُنا عيسى عليه السَّلامُ - بوضوح - أنّ هذه المعجِزاتِ العظيمةَ التي تَظهَرُ على يَدْيه، الفاعلُ الحقيقيُّ لها هو اللهُ تعالى، وهو يقومُ بها بإذْنِه تعالى ليس إلّا.

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾

٢٧- أي: أنّ سيِّدَنا عيسى عليه السَّلامُ قال لبني إسرائيلَ: لقد جئتُ إليكم من اللهِ تعالى حاملًا آياتِ نُبوَّتي، لهذا، عليكم أن تتَّقوا اللهَ وتُطيعوني، وأنا أومنُ بالتَّوراةِ لأنّها كتابٌ صادقٌ نَزَل من اللهِ تعالى، لكنِّي أُيسِّرُ عليكمُ الأمرَ بأنْ أُحِلَّ

لكم ما كان قد حُرِّم ـ بشكل مؤقَّت ـ على بني إسرائيلَ عقابًا لهم على تمرُّدِهم، أو ما كان قد حَرَّمه علماءُ بني إسرائيلَ من عندِ أنفُسِهم ونَسَبوه إلى التَّوراة[١].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ﴾

٢٨ـ كلُّ زمانٍ له أحوالُه ومُقتَضَياتُه المختلفةُ، ولهذا ظَلَّ هناك اختلافٌ في شرائع الأنبياءِ الكرام (العباداتِ والمعامَلات)، لكنّ الدَّعوةَ الأساسيَّةَ للأنبياءِ جميعًا كانت واحدةً فقط، وهي التي جمَعتْها هذه الآيةُ باختصار، يعني: «ربُّ النّاسِ جميعًا هو اللهُ تعالى، سواءٌ في ذلك عامَّةُ النّاس وأنبياؤهم، والطَّريقُ المستقيمُ هو طريقُ أولئك الذين يَعبُدونَ اللهَ فقطْ»، والإنجيلُ الحاليُّ أيضًا يُصدِّقُ هذا الكلام؛ قال سيِّدنا عيسى عليه السَّلامُ: «ابتعِدْ أيُّها الشَّيطانُ؛ لأنّ الصُّحُفَ المقدَّسةَ تقولُ أن تعبُدَ اللهَ فقطْ، وأن تُطيعَه هو فقطْ»[٢].

وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ

(١) «إنّ الأحبار كانوا قد وضعوا من عند أنفسهم شرائع باطلةً ونسبوها الى موسى عليه السلام أو أنّ الله تعالى قد حرّم بعض الأشياء على اليهود عقوبةً لهم على بعض ما صدر عنهم من الجنايات، ثمّ بقي ذلك التحريم مستمرًّا على اليهود، فجاء عيسى عليه السلام ورفع تلك التشديدات عنهم». التفسير الكبير، روح المعاني.

(٢) "Get out of here, Satan, Jesus told him, The scriptures say, «Worship only» the Lord God, Obey only him" ـ إنجيل متى: ٤: ١٠.

خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾

﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ﴾

٢٩ـ المرادُ بالمَكْر: التدابيرُ السِّرِّيَّة، وهذه التدابيرُ يمكنُ أن تكونَ جيِّدةً ويمكنُ أن تكونَ سيِّئةً، وعلى سبيل المثال: لو أنّ ظالمًا خَطَّط لقَتْلِ أحدٍ فهو مُجرِمٌ ويُخطِّطُ رجالُ البوليس لإلقاءِ القَبْض عليه ومحاكمتِه، وهذا هو عَيْنُ العدل، وبنفسِ الطريقة، خَطَّط اليهودُ سِرًّا لقَتْلِ سيِّدِنا عيسى عليه السَّلام، لكنّ اللهَ تعالى نَجَّى سيِّدَنا عيسى عليه السَّلامُ ودَبَّر رَفْعَه إلى السماءِ حيًّا.

وبين المفسرين بعضُ الاختلافِ في هذا الأمر، وأنا هنا أَنقُلُ مفهومَ هذا الموضوع باختصارٍ عن «تفسيرِ الخازِن» و«تفسيرِ القُرطبيِّ» و«روح المعاني» و«رُوح البيان»:

لقد رَفَض اليهودُ الإيمانَ بسيِّدِنا عيسى عليه السَّلام، وتآمَروا ضدَّه كذلك معَ الحاكم في وقتِه، بل وأرسَلوا جماعةً لقتلِه عليه السَّلامُ ليلًا، وفي هذه الليلةِ قال سيِّدُنا عيسى عليه السَّلامُ لحَوارِيِّيه: إنّ واحدًا من الحَوارِيِّينَ سيَبيعُني الليلةَ قبلَ الصُّبح الصَّادقِ بدراهمَ معدودةٍ، وحينَ عاد الحَوارِيُّونَ إلى بيوتِهم قام أحَدُ الحَوارِيِّينَ بالاتِّفاق على قَتْلِه عليه السَّلامُ ـ معَ بعضِ اليهودِ ـ بثلاثينَ درهمًا، واصْطَحبَ هؤلاءِ اليهودَ إلى البيتِ الذي يوجَدُ فيه سيِّدُنا عيسى عليه السَّلام، وهذا ليس بالأمرِ المستغرَب، فكثيرًا ما يتواجَدُ الشَّوكُ معَ الورود، ويتواجَدُ المنافقونَ

مع المخلِصين، وهكذا جَعَل هذا الحَواريُّ اليهودَ يقِفونَ حوْلَ هذا البيت، ودَخَل هو إلى البيتِ بقَصْدِ قتلهِ عليه السَّلام، فرَفَعَ اللهُ تعالى سيِّدَنا عيسى عليه السَّلامُ إلى السَّماء، وألقَى شَبَهَه على وَجْهِ ذلك المنافقِ وجَعَلَه شَبيهًا لسيِّدنا عيسى عليه السَّلامُ، وهنا أصابتِ المنافقَ دهشةٌ كبيرة، تُرى ماذا سيحدُثُ الآن؟ وأمضى وقتًا طويلًا في التفكيرِ والتدبير، أمّا اليهودُ الذين كانوا خارجَ البيتِ فقد ظَنُّوا أنّ معركةً تدورُ بالداخل بينَ الاثنين، ولهذا تأخَّر الرجُلُ بالداخل، وحينَ خَرَج هذا المنافقُ من البيتِ قَتَلَه اليهودُ ظنًّا منهم أنه سيِّدُنا عيسى عليه السَّلامُ.

لقد صَرَخَ الرَّجلُ كثيرا قائلًا: إنَّني رَفيقُكم، لكنَّهم قالوا: إنكَ عيسى! وقد قَتلتَ رفيقَنا داخلَ البيت، والآنَ تريدُ أن تَخدَعَنا، وهكذا صَلَبَه اليهودُ، وبعدَ ذلك قالوا: إنّ وجهَه كان مُشابِهًا لوَجْهِ عيسى عليه السَّلام، لكنّ بَدَنَه كان مُشابِهًا لبَدَنِ رفيقِنا، فلو أنّ هذا هو رفيقُنا فعلًا فأين ذَهَب عيسى؟ ولو أنّ هذا كان عيسى فأين ذَهَب رفيقُنا إذًا؟ وهكذا نَشِبَ الصِّراعُ بينَهم، وقَتَل بعضُهم بعضًا، وهكذا دبَّر اللهُ تعالى أحسَنَ التدبيرِ بأنْ عاقَبَ اليهودَ العقابَ الذي يستحِقُّونَه، فصَلَبَ الذي دَخَل البيتَ بقَصْدِ القتل، كما قَتَلَ المتآمِرونَ بعضُهم بعضًا.

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾

٣٠ـ حينَ تآمرَ اليهودُ على قَتْل سيِّدِنا عيسى عليه السَّلام، قال اللهُ تعالى له: «**إنّي مُتمِّمٌ عُمُرَك، فحينَئذٍ أتوَفّاك، فلا أترُكُهم حتّى يقتُلوك، بل أنا رافِعُك إلى سمائي**»(١) . وقد قال النبيُّ ﷺ: «**إنّ عيسى عليه السَّلامُ لم يَمُتْ، وإنّه راجعٌ إليكم قبلَ يوم القيامة**»(٢)، كما أنّ اللهَ تعالى قد أبطَلَ ـ بواسطةِ سيِّدِنا محمَّدٍ ﷺ ـ كلَّ

---

(١) التفسير الكبير.

(٢) جامع البيان.

الاتِّهاماتِ التي ألصَقَها اليهودُ بسيِّدِنا عيسى عليه السَّلام، وجَعَل المسيحيِّينَ يتغلَّبونَ على اليهودِ غَلَبةً ستستمرُّ حتى يوم القيامة.

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ﴾

٣١ـ يعتقدُ النَّصارى ـ في عيسى عليه السَّلامُ ـ أنه إلهٌ، وأنّه ابنُ الله! ويَستدِلُّونَ على ذلك بأنّ ولادَته كانت بغيرِ أبٍ، وقد رَدَّ القرآنُ الكريمُ بطريقةٍ واضحةٍ وبسيطة، وهي أنّه إذا كان مولِدُ عيسى عليه السَّلامُ بغيرِ أبٍ دليلًا على أنّه إلـهٌ، فما ظنُّكم بسيِّدِنا آدمَ عليه السَّلامُ وهو الذي وُلِـد بغيرِ أبٍ وأُمٍّ؟ فمثالُهما ـ في الحقيقة ـ واحد، وكلاهُما آيةٌ من آياتِ قدرة الله عزَّ وجَلَّ التامَّة، وكلٌّ منهما ليس إلهًا، ولا ابنًا لله، وإنما نبيُّ اللهِ تعالى، ولهذا يجبُ على المسلم أن لا يسمحَ للشكِّ أن يَتسلَّلَ إلى نفسِه في هذا الأمر.

﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ ﴾

٣٢ـ يا حبيبي يا نبيَّ الله ﷺ، لو أنّ النَّصارى ـ بالرَّغْم من الدَّلائل الواضحةِ التي أتَى بها القرآنُ المَجيد ـ لا يزالونَ يُصِرُّونَ بعِنادِهم وصَلَفِهم على أنّ عيسى عليه السَّلامُ إلهٌ أو ابنُ الله، فلا تُناظِرْهم أو تُناقِشْهم أكثرَ من ذلك، وإنّما ادْعُهم إلى المُباهَلة، بمعنى: أن يأتيَ كلُّ فريقٍ بأهلِه وأولادِه إلى ميدان، ويَبتهِلَ الجميعُ إلى اللهِ يَدعونَه بكلِّ تواضُع وعَجْزٍ أن يَلعَنَ الكاذبَ منهم.

وهكذا جاء سيِّدُنا محمَّدٌ ﷺ بالإمام الحُسَين والإمام الحَسَن والسيِّدةِ فاطمةَ الزَّهراءِ رضيَ اللهُ عنها وسيِّدِنا عليٍّ حَيْدرِ الكرّارِ رضي اللهُ عنهم جميعًا، وقال لهم: «**إذا دَعوتُ فأَمِّنوا**»، **فلمّا رآهم أسقُفُ نَجْرانَ قال: يا معشرَ النَّصارى،**

إنّي لَأرى وجوهًا لو سَألوا اللهَ أن يُزيلَ جبلًا لَأزالَهُ من مكانِه، فلا تَبتهِلوا فتَهلِكوا ولا يبقى على وَجْهِ الأرض نَصْرانيٌّ إلى يوم القيامة[1]. وهكذا، رَفَض المسيحيُّونَ المُباهلةَ، ورَضُوا بالصُّلح على الجِزْية، فقال النبيُّ ﷺ: «**والّذي نفسي بيدِه، إنّ العذابَ تَدَلَّى على أهلِ نَجْران، ولو تَلاعَنوا لَمُسِخوا قِرَدةً وخنازير، ولَاضْطَرَمَ عليهمُ الوادي نارًا ولَاسْتَأْصَلَ اللهُ نجرانَ وأهلَه حتّى الطَّيْرَ على الشَّجر، ولَما حال الحَوْلُ على النَّصارى كلِّهم حتَّى هَلَكوا**»[2].

وتُعتبَرُ هذه الواقعةُ بمثابةِ مَعْلَمَ الطَّريقِ في تأكيدِ وتصديقِ الإسلام، وردٍّ وإبطالِ المسيحيَّة، ودليلًا لا يَقبَلُ الشكَّ على نُبوَّةِ سيِّدِنا محمَّدٍ ﷺ، يعني: لو كان النبيُّ ﷺ يُشكُّ ـ ولو للحظة ـ في نُبُوَّتِهِ لَما جاء إلى مَيْدانِ المُباهلة، ولو أنّ المسيحيِّينَ كانوا واثقينَ من صِدقِ عقيدتِهم لَما رَفَضوا المُباهَلة.

هذه الواقعةُ حَدَثت معَ وَفْدِ نَجْرانَ في السَّنةِ العاشرةِ للهجرة، وقد جاءت السيِّدةُ فاطمةُ الزَّهراءُ رضيَ اللهُ عنها ـ وحدَها ـ للمُباهَلة؛ لأنّ بناتِ النبيِّ ﷺ الأُخرياتِ كُنَّ قدِ انتقَلن إلى رحمةِ الله تعالى حتّى ذلك الوقت، فقد توفِّيت السيِّدةُ رُقَيَّةُ رضيَ اللهُ عنها في السَّنةِ الثانية للهجرة، وتوفِّيت السيِّدةُ زَيْنبُ رضيَ اللهُ عنها في السَّنةِ الثامنة للهجرة، وتوفِّيتِ السيِّدةُ أُمُّ كُلثوم رضيَ اللهُ عنها في السنةِ التاسعةِ للهجرة.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ

---

(١) تفسير الخازن.

(٢) تفسير الخازن.

عِلْمٌ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾

٣٣- هنا توجيهٌ للدَّعوةِ إلى أهل الكتابِ أنْ تعالَوْا نتَّفقْ على عقيدةٍ مشتركةٍ بينَنا وبينَكم، أي: التي تتَّفقُ عليها الكتُبُ السَّماويَّةُ السَّابقةُ والقرآنُ المَجِيد، وهي أن يُعبَدَ اللهُ تعالى وحدَه، وألّا يُشرَكَ معَه أحدٌ في العبادة.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

٣٤- ادَّعى اليهودُ أنّ سيِّدَنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ كان يهوديًّا، وكانتِ النَّصارى تقولُ: إنه نَصْرانيٌّ، في حينَ أنّ بدايةَ اليهوديَّةِ والنَّصرانيَّةِ كانت بعدَ نزولِ التَّوراةِ والإنجيل، وسيِّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ قد انتقَلَ إلى الرَّفيق الأعلى قبلَ نزولِ هذَيْنِ الكتابَيْنِ بكثيرٍ، فكيف يكونُ يهوديًّا أو نَصْرانيًّا؟ وهذه حقيقةٌ واضحةٌ وضوحَ الشمس، يفهَمُها بسهولةٍ ويُسرٍ كلُّ مَن لدَيْهِ ذَرَّةٌ من العقلِ والفَهْم.

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾

٣٥- يُنبِّهُ القرآنُ الكريمُ هنا أهلَ الكتابِ بأنَّكم كنتُم تَعلَمونَ بعضَ الشيءِ عن دينِكم، ومعَ ذلك فقد أضَفْتُم إلى هذا الدِّين عقائدَ لا أساسَ لها ممَّا لا يَستسيغُه

العقلُ ولا يَقبَلُه، فلماذا تختلفونَ في أمرِ سيِّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ وهو الذي لا تَعرِفونَ عنه شيئًا؟

﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

٣٦ـ كان اليهودُ يَعتبِرونَ عُزَيرًا عليه السَّلامُ ابنَ الله، وكان النَّصارى يَعتبِرونَ سيِّدَنا عيسى عليه السَّلامُ ابنَ الله، وكان مشركو العربِ يعبُدونَ الأحجار، لكنّ سيِّدَنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ كان يَعبُدُ اللهَ الواحدَ المُنزَّهَ عن كلِّ شِرك، لهذا فإنّ أحبابَ سيِّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ والقريبينَ منه هم فقطْ أولئك الذين يتَّبِعونَه، والمتَّبِعونَ الحقيقيُّونَ لدِينِ سيِّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ اليومَ هم المسلمونَ الذين يَعبُدونَ إلهًا واحدًا، ولهذا أمَرَ اللهُ تعالى المسلمينَ أن يتَّبِعوا دينَ إبراهيمَ عليه السَّلام؛ لأنه دينُ التوحيدِ الخالصِ والمُنزَّهِ عن كلِّ شِرْكٍ: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٣].

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾

٣٧ـ يُنبِّهُ القرآنُ المَجيدُ هنا أهلَ الكتابِ بأنّ المعلوماتِ المذكورةَ في كُتبِكم عن سيِّدِنا محمَّدٍ ﷺ قد شاهدتُّموها بأنفُسِكم، وعَرفتُم النبيَّ الكريمَ ﷺ، وهذا يعني أنكم أصبحتُم شُهودًا على نُبوَّتِه ﷺ، وبالرَّغم من ذلك لماذا تُخْفُونَ الحقَّ؟ بماذا تُجيبونَ يومَ القيامة حين تُسألونَ عن هذا النِّفاق؟

وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْ أَهْلِ

ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾

﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾

٣٨ـ تشاوَرَ اليهودُ فيما بينَهم واتَّفقوا بأنْ يُسْلِمَ بعضُ اليهودِ عندَ الصَّباح، ثم يُعلنوا خروجَهم من الإسلام عندَ المساء، حتى تتولَّدَ الشُّكوكُ في قلوبِ المسلمين: لماذا تَرَكَ هؤلاءِ الإسلامَ؟ هل من الممكِن أن يكونَ في الإسلام عيوبٌ اكتَشَفَها هؤلاءِ فعادوا عن الإسلام إلى دينِهم ثانيةً؟ هذا من ناحية، ومن ناحيةٍ أخرى، فإنّ أولئك الذين يُفكِّرونَ في الدُّخولِ في الإسلام سيُسيئونَ الظنَّ به، فإنّ الدِّينَ الذي يَترُكه مُعتنِقوهُ ربَّما لا يكونُ صادقًا.

أمّا أولئك الذين أعَدَّهم اليهودُ لهذه المؤامرةِ فقد أفْهَموهم أنّ عليهم القيامَ بثلاثةِ أشياءَ كما يلي:

١ـ أن يَدخُلوا الإسلامَ في الظاهرِ فقَطْ، وألاّ يؤْمنوا بدينٍ آخَرَ غيرِ دينهِم.

٢ـ أنّ النِّعَمَ التي أُعطِيتُموها لم تُعْطَ لقوم آخَرينَ غيرِكم.

٣ـ أنّ عليكم التَّيقُّنَ من أنَّكم لن تؤاخَذوا يومَ القيامة؛ لأنكم أولادُ اللهِ المحبوبون المُدَلَّلون.

لقد كانت مؤامرةً خطيرة، وكان من الممكنِ أن تكونَ لها نتيجةٌ سيِّئةٌ على المستوى النَّفسي، لكنّ اللهَ تعالى أطْلعَ المسلمينَ في الوقتِ المناسبِ على المؤامرة، وهكذا لم ينجَحْ هذا المَكْرُ من اليهودِ أيضًا، وأعلنَ القرآنُ المَجِيدُ أنّ الهدايةَ والفَضْلَ في يدِ الله تعالى، وقد مَنَّ اللهُ تعالى على بني إسرائيلَ بالهدايةِ والفَضْل كما شاء، وحينَ شاء نَقَل هذا الفَضْلَ وهذه الهدايةَ إلى بني إسماعيل.

﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

٣٩ـ كان بعضُ اليهودِ يقول: «**نحن أبناءُ الله وأحِبّاؤه والخَلْقُ لنا عَبيدٌ، فلا سبيلَ لأحدٍ علينا إذا أكلنا أموالَ عَبيدِنا**». وقيل: إنهم قالوا: «**إنّ اللهَ أباحَ لنا مالَ مَن خَالفَ دينَنا**»[(١)]، أي: أنّهم أحبّاءُ الله، وأنّ أموالَ غيرِ اليهودِ حلالٌ لهم؛ لأنّ الخَلْقَ كلَّهم عَبيدٌ لهم، فلو أنّ أحدًا أكَلَ مالَ عبدٍ عندَه فليس من حقِّ أحدٍ أن يُحاسبَه على ذلك.

وقد أبطَلَ القرآنُ الكريمُ ادَّعاءهم هذا بأنَّهم يكذِبونَ على الله، فلم تسمَح التَّوراةُ ـ في أيِّ موضع منها ـ بمِثْلِ انعدام الضَّميرِ هذا، وإنَّما الحقيقةُ هي أنّ

---

(١) صفوة التفاسير.

أحبّاءَ اللهِ هم: أولئك الأُمَناءُ أصحابُ الضَّمائر الحَيَّة الذين يُوفُونَ بعَهْدِهم، وقد قال النبيُّ ﷺ حين سَمع ادِّعاءَ اليهودِ هذا: «**كذَبَ أعداءُ الله، ما من شيءٍ كان في الجاهليّةِ إلّا وهُو تحتَ قَدميَّ هاتَيْنِ، إلّا الأمانةَ فإنّها مؤدّاةٌ الى البَرِّ والفاجر**»(١)، كما رُوِي عن أنَسِ بن مالكٍ رضيَ اللهُ عنه، **قال: ما خَطَبَنا نبيُّ الله ﷺ إلّا قال: «لا إيمانَ لمَن لا أمانةَ له، ولا دينَ لمَن لا عهدَ له»**(٢).

ويُعلمُ من هذا أنّ التعامُلَ معَ الناس يجبُ أن يكونَ بأمانةٍ وصِدقٍ ووفاءٍ للوعد، أيًّا كان مَن نتعاملُ معَه؛ مسلمًا أو كافرًا. إنّ الأمانةَ والاستقامةَ اللتيْنِ أبداهُما النبيُّ ﷺ في ليلةِ الهجرة - على صعوبتِها - نَعجزُ عن العثورِ على مَثيلٍ لهما في التاريخ، فقد كان الكفّارُ المتعصِّبونَ يقفونَ على بابِ النبيِّ ﷺ حاملينَ سيوفَهم، متربِّصينَ لقتلِه، بينَما كان النبيُّ ﷺ يعمَلُ على التأكّدِ من إعادةِ أماناتِهم إليهم. لقد كان لأمانةِ النبيِّ ﷺ وصِدقِه دَوْرٌ بارزٌ في نَشْرِ الإسلام، واليومَ نحن في أمسِّ الحاجةِ إلى أن يُحييَ المسلمونَ هذه السُّنةَ الطيِّبةَ لحبيبِهم المصطفى ﷺ، وأن يقدِّموا للبشَريّةِ نموذَجًا عمَليًّا للأمانة والصِّدق، يتأثّر به الآخَرونَ فيُقبِلوا على الإسلام، لأنه إن كان المسلمونَ مخادِعينَ غَشّاشينَ لا يحترمونَ المعاهَداتِ التي يُبرمونَها معَ الدُّول غيرِ المسلِمة فما مصيرُهم يا ترى؟!

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْأَٰخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

٤٠- إنّ الذين يُضَحُّونَ بالوفاءِ بالوعودِ والعَمل بالأحكام في سَبيل مَنفَعةٍ دُنْيويَّة، ويَحلِفونَ كذبًا لخِداع النّاس، فإنّ القرآنَ المَجيدَ قد تَوعَّدَهم بخمسةِ

(١) ابن كثير.

(٢) مسند أحمد ٣: ١٣٥.

أنواع من العقابِ نَذكُرُها فيما يلي، وكلُّ واحدٍ من هذه الأنواع من العذابِ كافٍ تمامًا لتنبيهِ أهل الإيمان:

١ـ سيُحرَمونَ من رحمةِ الله تعالى في الآخرة.

٢ـ سيُحرَمونَ من حديثِ الله المَلِيءِ بالحبِّ معهم.

٣ـ سيُحرَمونَ من نَظَرِ الله إليهم برحمة.

٤ـ لن يُطهَّروا من نَجَسِ الذُّنوب.

٥ـ ولهم ـ فوقَ ذلك ـ عذابٌ أليم.

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾

٤١ـ في هذه الآية ذِكرٌ لخيانةٍ أخرى من خياناتِ بعض اليهود، أقصِدُ: تلك الآياتِ من التَّوراة والتي لا تتَّفقُ معَ مصالحِهم، وخاصَّةَ الآياتِ التي جاء فيها ذِكرُ أوصافِ سيِّدنا محمَّدٍ ﷺ، حيث كانوا يُحرِّفونَها ويتعمَّدونَ الخَلْطَ فيها وتشويهَ إعرابِها، حتى يتغيَّرَ معنى تلك الآيات، وفي نفْسِ الوقت يَشعُرُ السَّامعُ لها أنّها حُكمٌ من أحكام الله أيضًا، معَ أنه لا علاقةَ لمعانيها بالتَّوراةِ من قريبٍ أو بعيد، وإنّما هم الذين يكذِبونَ على اللهِ عامدينَ متعمِّدين.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾

٤٢ـ إنّ الإنسانَ الذي مَنَّ اللهُ عليه بالكتابِ والحِكمةِ والنُّبوَّة لا يمكنُ أن يأمُرَ أحدًا أن يعبُدَه، وإنّما سيَدعو الجميعَ إلى أن يكونوا من أولياءِ الله، وهذه تعاليمُ كلِّ الكُتبِ السَّماويَّة.

وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾

٤٣ـ يُروى عن سيِّدِنا عليٍّ كرَّم اللهُ وجهَه، وعن سيِّدِنا ابن عبّاس رضيَ اللهُ عنه، أنه «**ما بَعَثَ الله نبيًّا من الأنبياءِ إلّا أُخِذ عليه الميثاقُ: لئن بَعَثَ اللهُ محمَّدًا وهو حيٌّ لَيُؤْمِنَنَّ به ولَينصرُنّه، وأمَرَه أن يأخُذَ الميثاقَ على أُمَّتِهِ**»(١). فإذا لم يبعثِ اللهُ تعالى سيِّدَنا محمَّدًا بعدَ ذلك كلِّه فإنّ هذا سيُكذِّبُ الكتُبَ السَّماويَّةَ السَّابقةَ،

(١) تفسير روح المعاني، وصفوة التفاسير.

ولن يكونَ لدى أهلِ الكتابِ أيُّ ردٍّ على هذه النُّبوءة، ومن هنا فإنّ الإيمانَ بنبيِّ آخِرِ الزَّمانِ ﷺ ضرورةٌ خاصّةٌ بأهل الكتاب، حتى يُمكنَ تصديقُ الأنبياءِ السَّابقينَ وكتُبِهم المقدَّسة، أمّا أهلُ الكتابِ الذين لم يؤْمنوا بنبيِّ آخِرِ الزَّمان ﷺ فإنّهم ـ في الحقيقة ـ يكذِّبونَ أنبياءهم الذين أُرسِلوا إليهم وكذا كُتُبهم.

وقد قال النبيُّ الكريمُ ﷺ: «**لو كان موسى حيًّا بيْنَ أظهُرِكم ما حَلَّ له إلّا أن يتَّبعني**»[1]، «**ومن هنا ذَهَب العارفونَ إلى أنه ﷺ هو النبيُّ المطلَقُ والرسُولُ الحقيقيُّ والمُشرِّعُ الاستقلاليُّ، وأنّ مَن سواهُ من الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ فى حُكم التَّبَعيَّةِ له ﷺ**»[2].

في ليلة المِعراج اجتَمَع الأنبياءُ جميعًا عليهم السَّلامُ في بيتِ المقدِس، وقد أدَّوْا جميعًا الصَّلاةَ طِبقًا للشَّريعةِ الإسلاميَّةِ خلْفَ النبيِّ ﷺ، فأكَّدوا ـ بذلك ـ عمَليًّا على ذلك العهد، وكلُّ أمّةٍ لنبيٍّ أعرَضَتْ عن هذا العهد وتَجاهلَتْه، ولم تؤمنْ بسيِّدِنا محمَّدٍ ﷺ، فهي أُمَّةٌ عاصيةٌ لله.

وقدَ استدَلَّ أهلُ العلم بهذه الآيةِ على جَوازِ الاحتفالِ بمولدِ النبيِّ ﷺ؛ لأنّها ذَكَرتْ مَقْدَمَه ﷺ والعهدَ الموَثَّقَ بالإيمان به، والذي كان الهدفُ منه أن يَعلَمَ الأنبياءُ السَّابِقونَ بعَظَمةِ النبيِّ ﷺ ومكانتِه، ولا يزالُ الهدفُ من عَقْدِ محافلِ الميلاد في أيامِنا هذه هو أن يَجتمعَ المسلمونَ ويتَذاكروا معًا عَظَمةَ النبيِّ الكريم ﷺ، ويؤدُّوا الشُّكرَ للهِ تعالى جماعةً على أن أُرسِلَ إليهم هذا الرسُولُ العظيمُ عليه الصَّلاةُ والسَّلام.

وفي هذه الآيةِ أمرٌ يستحِقُّ التمعُّنُ والتأمُّلُ وهو: أنّ اللهَ تعالى قال للأنبياءِ جميعًا: إنه يجبُ عليهم أن يؤْمنوا بسيِّدِنا محمَّدٍ ﷺ إنْ بُعِثَ في زمانِ أيٍّ منهم،

---

(١) مسند أحمد، ٣: ٣٣٨.

(٢) روح المعاني.

لكنّ اللهَ عليمٌ وخبير، فهو يَعلَمُ أنّ النبيَّ ﷺ لن يُبعَثَ في زمنِ أيِّ نبيٍّ من الأنبياءِ عليهم السَّلامُ، فماذا كانتِ الحِكمةُ إذًا من هذا العهدِ والميثاق؟ الحقيقةُ أنّ الهَدَف من هذا الميثاقِ كان أن يَعرِفَ الأنبياءُ الكرامُ عليهم السَّلامُ بالمكانةِ الخاصَّة والمقام الرَّفيع الذي مَنَحَه اللهُ تعالى لسيِّدِنا محمَّدٍ ﷺ.

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾

٤٤- المسلمونَ يؤمنونَ بكلِّ الأنبياء، ولا يُنكِرونَ أحدًا منهم؛ لأنّ الأنبياءَ الكرامَ جميعًا قد جاءوا بدِينٍ واحدٍ ودَعَوا النّاسَ إليه، والإسلامُ هو اسمُ الشَّكلِ الأخير لهذا الدِّين، وهذا هو الدِّينُ المقبولُ عندَ الله، ولذا فإنّ الشَّخصَ الذي يَترُكُ الإسلامَ ويتَّبعُ دينًا آخَرَ فلن يكونَ دينُه الذي اتَّبَعه مقبولًا عندَ الله تعالى، ولن ينالَ في الآخِرة سوى الخُسرانِ المُبين.

﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾

٤٥- الذين شَاهدوا آياتِ نُبوَّةِ سيِّدِنا محمَّدٍ ﷺ بأنفُسِهم، وبالرَّغْم من ذلك أصرُّوا على الكُفْر، فإنه من العَبَثِ توقُّعُ الإيمانِ منهم، وإنّما هم يستحِقُّونَ اللَّعنةَ، وسيبقُونَ دائمًا في عذابِ هذه اللَّعنة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾

٤٦- إنّ الذين يُتوبونَ إلى اللهِ بصِدْق، يغفِرُ اللهُ تعالى لهم ذنوبَهم، وقد قال النبيُّ ﷺ: «التّائبُ من الذَّنبِ كمَن لا ذَنْبَ له»[1].

---

(١) ابن ماجه، أبواب الزهد، باب ٣٠ برقم ٤٢٥٠. والحديث عن سيدنا عبد الله رضي الله عنه.

لكنّ الغافلينَ عن المصير، والمُنهمِكينَ ليلَ نهارَ في ارتكابِ المعاصي بلا خَوْفٍ من اللهِ تعالى إلى أن يَأتيَهم مَلَكُ الموت، ويَيْأَسُونَ من الحياة، فإنّ أعيُنَهم ستُفتَح، ويوَدُّونَ التَّوبةَ حينَئذٍ، ولكنْ لن تُقبَلَ توبتُهم: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨]. وقال النبيُّ ﷺ، فيما رَواهُ ابنُ عُمر رضي الله عنه: «**إنّ اللهَ يَقبَلُ تَوْبةَ العبدِ ما لم يُغَرْغِرْ**»[١]، ولهذا يجبُ على الإنسانِ الإسراعُ في التَّوبة، فلا يَدري أحدٌ أيأتيهِ الموتُ من ساعتِه، فلا يجدُ فرصةً للتوبة؟

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾

٤٧ـ الذين اختاروا الكُفرَ وماتوا حالَ كُفْرِهم سيُواجِهونَ عذابًا أليمًا، ولو أرادوا تقديم فِديةٍ قَدْرُها ملءُ الأرضِ ذهبًا مقابلَ أن يَنْجُوا بأنفُسِهم من عذاب جهنَّم فلن يكونَ ذلك مُمكنًا؛ وذلك لأنه أولًا: لن يكونَ لدى أحدٍ ذهبٌ هناك، ولو افترَضْنا أنه سيكونُ عندَ أحدهِم خزائنُ الدُّنيا العامرةُ فسوف تُرَدُّ عليه، ولن يَشفَعَ له أحدٌ؛ لأنّ الشَّفاعةَ تُقبَلُ في حقِّ أهلِ الإيمان، والكافرُ والمشركُ لا يستحِقّانِ الشَّفاعةَ. وقد قال النبيُّ ﷺ: «**يقالُ للكافرِ يومَ القيامة: أرأيتَ لو كان لك ملءُ الأرض ذهبًا، أكنتَ تفتدي به؟ فيقول: نعَمْ، فيقال له: كذَبْتَ، قد سُئلتَ أيسَرَ من ذلك**»[٢] (يعني: الإيمانَ بالله، ولكنَّك لم تؤمنْ، فكيف ستُنفِقُ ملءَ الأرض ذهبًا؟).

لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ

---

(١) الترمذي، كتاب الدعوات، باب ٩٨ برقم ٣٥٣٧.

(٢) مسلم، كتاب المنافقين، باب ١٠ برقم ٧٠٨٥/ ٧٠٨٦.

ٱلتَّوۡرَىٰةُۗ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٠١﴾

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ﴾

٤٨ـ كلُّ عَمَلٍ يَجعَلُ من الإنسانِ مستحِقًّا لرحمةِ الله تعالى ورضاهُ فهو حسَنةٌ، سواءٌ كانت هذه الحَسَنةُ متعلِّقةً بالعقائدِ أم بالأعمال، بالفرائضِ أم بالنَّوافل. أمّا أعلى درجاتِ الحسَناتِ فيُحقِّقُه الإنسانُ حينَ يُنفِقُ في سبيل الله أفضَلَ ما لدَيْه، سواءٌ كان هذا الشيءُ الذي يُنفِقُه مما يتعَلَّقُ بذاتِ الإنسانِ أم بمالِه ومتاعِه، بمعنى: أنه إذا نُوديَ للجهادِ في سبيل الله حَمَل رُوحَه على كفِّه، وإذا مسَّتِ الحاجةُ إلى الإنفاقِ في سبيل الله فإنه يُنفقُ من أحسنِ مالِه.

ولكنْ، هذا لا يعني أنه لا يجوزُ إنفاقُ أقلَّ من ذلك، أو أنّ الأقلَّ من ذلك لا يَنالُ عليه أجرًا، فالشَّيءُ الذي يُفيدُ أحدًا يكون التصدُّقُ به أمرًا محمودًا ولا شكَّ، وسوف ينالُ صاحبُه الأَجْرَ والثوابَ طِبقًا لمعيارِه، ولكنّ علينا أن نتذكَّرَ دائمًا أنه يجبُ أن يكونَ الهدفُ ممَّا ننفق ـ سواءٌ كان قليلًا أم كثيرًا، وسواءٌ كان شيئًا عاديًّا أم قيِّمًا ـ هو نَيْلُ رضا الله تعالى، فإنْ كان في النِّية رياءٌ أو الرَّغبةُ في الظُّهور، فلن ينالَ المُنفِقُ ثوابًا، لأنّ الله تعالى يَعلَمُ جيِّدًا حقيقةَ المالِ ونيَّةَ الإنسانِ الذي يُنفِقُه.

﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ ﴾

٤٩ـ اعتَرضَ اليهودُ على النبيِّ ﷺ قائلين: إنّك تَدَّعي اتِّباعَ دينِ إبراهيمَ عليه السَّلام، وفي نفسِ الوقت تأكلُ لحمَ الإبِل، في حينَ أنّ لحْمَ الإبِل ولَبَنَها كان محرَّمًا في دِين إبراهيم.

وفي هذه الآية إبطالٌ لاعتراضِ اليهودِ هذا بأنّ هذه الأشياءَ لم تكنْ حرامًا في دينِ إبراهيمَ عليه السَّلام، وإنّما تَرَك سيِّدُنا إسرائيلُ (يعقوبُ) أكْلَ لحم الإبِل وشُربَ لَبنِها بسببِ المرض، وحَرَّم أولادُه هذا على أنفسِهم على سبيلِ الفَهْم الخاطئ، بينَما لم تكنْ هذه الأشياءُ محرَّمةً في الأصل، وإذا كنتُم لا تعترفونَ بهذا الأمر فأْتُوا بالتَّوراة، وأثبِتوا من خلالِها ما تدَّعون. ولكنَّهم خافوا، ولم تُسعِفْهم هِمَّتُهم في إحضارِ التَّوراة؛ لأنهم يَعلَمونَ أنّ المكتوبَ في التَّوراةِ هو نفسُه الذي أخبَرَ به النبيُّ ﷺ، وفيها كذلك دليلٌ على صِدقِ النبيِّ ﷺ؛ لأنه ﷺ كان أُمِّيًّا باعتبار التعليم الظاهريِّ، فلم يقرَأِ الكتُبَ السَّماويَّةَ، ومعَ ذلك فإنّ مطالبتَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لهم بهذا اليقين، وتأكيدَه على أنّ هذا الكلامَ غيرُ موجودٍ في التَّوراة لَهو دليلٌ قاطعٌ على نُبُوَّته ﷺ.

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ﴾

٥٠ـ عن أبي ذرٍّ رضيَ اللهُ عنه، قلتُ: يا رسول الله، أيُّ مسجدٍ وُضِع أوّلَ؟ قال: «المسجدُ الحرام»، قلت: ثمّ أيٌّ؟ قال: «ثمّ المسجدُ الأقصى»، قلت: كم كان بينَهما؟ قال: «أربعونَ»[1].

ويُعلَمُ من هذا أنّ أولَ مهندسٍ للمسجدِ الحرام كان سيِّدَنا آدمَ عليه السَّلام، وأولُ مهندسٍ للمسجدِ الأقصَى كان أبناءَ سيِّدِنا آدمَ عليه السَّلام، وقد تهَدَّمتْ

---

(١) البخاري، كتاب الأنبياء، باب ٤٠ برقم ٣٤٢٥.

هذه المساجدُ في طُوفانِ نُوح عليه السَّلام، فقام سيِّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ بإعادةِ بناءِ الكعبةِ بأمرِ اللهِ تعالى، بينَما قام سيِّدُنا سُليمانُ عليه السَّلامُ بإعادةِ بناءِ المسجدِ الأقصى.

بناء سيدنا إبراهيم عليه السلام للكعبة

لقد تَهدَّمتِ الكعبةُ في طُوفانِ نُوح عليه السَّلام، ثم أعاد إبراهيمُ عليه السَّلامُ بناءَها بحُكمٍ منَ اللهِ تعالى، في ذلك الوقتِ كان للكعبة بابانِ؛ واحدٌ ناحيةَ الشَّرق، والثاني ناحيةَ الغَرْب، وتُلامِسُ عتَبتا البابَيْنِ الأرض، وكان الناسُ يَدخُلونَ الكعبةَ من أحدِ البابَيْنِ، ويَخرُجونَ من الآخَر.

بناء قريش للكعبة

حينَ بَنت قُريشٌ الكعبةَ في الجاهليَّةِ كان عُمُرُ النبيِّ ﷺ خمسةً وثلاثينَ عامًا، وقد شارك عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في البناءِ بكلِّ قوة، وحَمَل الأحجارَ على كَتِفيْهِ الشَّريفتَيْنِ أثناءَ البناء، وكانت قبائلُ قُرَيْشٍ كلُّها مُنهمِكةً - بكلِّ حبٍّ - في بناءِ الكعبة، ولكنْ حينَ جاء وقتُ وَضْع الحَجَرِ الأسودِ في مكانِه حَدَث اختلافٌ شديدٌ بينَهم جميعًا، فقد كانت كلُّ قبيلةٍ تريدُ أن يَنالَ سادتُها هذا الشَّرفَ، وهكذا توتَّرتِ الأمورُ وتعقَّدت لدرَجةٍ كان خَطَرُ نشُوبِ الصِّراع بينَ القبائل يزدادُ بيْنَ لحظةٍ وأخرى. وفي النِّهاية اجتَمع سادةُ القبائل جميعًا في المسجدِ الحرام ذاتَ يوم لحلِّ هذه المشكلة، واتَّفَقوا على أن يَقْضُوا جميعًا ليلتَهم في المسجدِ الحرام، وأولُ شخصٍ سيدخُل من البابِ في الغدِ سنوكِّلُ إليه بأنْ يتَّخِذَ قرارًا لحلِّ المشكلة، وفي الصَّباح التالي كان أولَ مَن دَخَل من بابِ المسجد هو نبيُّنا المحبوبُ ﷺ، وحينَ رآه النّاسُ فَرِحوا جميعًا، وقَصُّوا عليه الأمرَ كلَّه، وعندَئذٍ طَلَبَ النبيُّ ﷺ منهم إحضارَ

رداء، وفَرْشِه على الأرض، ووَضَعَ الحَجَرَ الأسودَ في وسَطِه، ونادى على سادةِ القبائل وقال لهم: احمِلوهُ جميعًا كلٌّ من أحدِ أطرافِ الرِّداء، وهكذا حَمَلَه الجميعُ معًا، وحينَ وَصَلوا به إلى مكانِهِ على الارتفاع المحدَّدِ له حَمَله النبيُّ ﷺ ووَضَعَه في مكانِه. وهكذا ـ وبفَضْل هذا القرارِ الحكيم من النبيِّ ﷺ ـ دُفِنت الفِتنةُ في مَهْدِها، وسَرَتْ موجَةٌ من الفرحةِ والسُّرور في قلوبِ النّاسِ جميعًا.

وقد أحَدثتْ قُرَيْشٌ في هذا البناءِ الجديد تغييرَيْن، أوَّلُهما: أنّها أغْلقتِ البابَ الغَرْبيَّ للكعبةِ حفاظًا على امتيازاتِها وحقوقِها، والثاني: أنّها رَفَعتْ عَتبةَ البابِ الشَّرقيِّ للكعبةِ عن الأرض ونَصَّبتْ عليه حارسًا، حتى لا يَدخُلَ أحدٌ إلى الكعبةِ بغير إذْنٍ من قُرَيش، في حينَ أنّ النّاسَ جميعًا كانوا يَدخُلونَ من بابٍ ويَخرُجونَ من بابٍ آخَرَ.

التفكير في إعادة بناء الكعبة

طِبقًا لِما جاء في الحديثِ رقم (١٢٦) من «البخاريِّ»، فقد أراد النبيُّ ﷺ بعدَ فَتْح مكةَ إعادةَ بناءِ الكعبةِ بما يَتوافقُ معَ البناءِ الذي قام به سيِّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ قائلًا: إنّ ذلك لكي تَدخُلَ الحَطيمُ ضِمْنَ الكعبة، وأن يكونَ للكعبةِ بابان، يَدخُل النّاسُ من أحدِهما ويَخرُجونَ من الآخَر، لكنّ النبيَّ ﷺ تخَلّى عن هذه الإرادةِ بسببِ فكرةِ أنّ قُريشًا لا تزالُ قريبةَ العهدِ من الكُفر، وحديثةَ العهدِ بالإسلام، ولم يَصِلوا ـ بعدُ ـ إلى الدَّرجةِ التي يَستوعبونَ معها حِكمةَ الأفعالِ الإسلاميَّة، ويَعرِفونَ الفَرْقَ بيْنَ الأفضَل والأدنَى، كما أنَّهم يُعظِّمونَ الكعبةَ كثيرًا منذُ عهدِ الجاهليَّة، ويَفخَرونَ أيضًا بأنّ قُريشًا (يعني: آباءهم وأجدادَهم) هم الذين بَنَوْها، لهذا إذا تمَّ هَدْمُ هذا البناءِ فسيقولونَ: إنَّنا قضَيْنا على آثارِ آبائهم وأجدادِهم، وربَّما ينتِجُ عن هذا انحرافُهم عن الإسلام.

ويُعلَمُ من هذا أنه حينَ القيام بالأعمالِ الكبيرة إذا خِيفَ أنْ لا يَفهَمَ النّاسُ مميِّزاتِها، وأن تَحدُثَ فتنةٌ عظيمة، فمنَ الأفضَل التخَلِّي عن القيام بهذا العمل، ولكنّ الشَّرطَ في ذلك هو أنْ لا يكونَ هذا العمَلُ فرضًا أو واجبًا؛ لأنّ الأمورَ الواجبةَ أو المفروضةَ لا بدَّ من القيام بها في كلِّ حال.

بناء سيدنا عبد الله بن الزبير للكعبة

حين قامت خلافةُ سيِّدِنا عبدِ الله بن الزُّبَير رضيَ اللهُ عنه في مكةَ، فكَّر في أنّ النبيَّ ﷺ كان يَرغَبُ في بناءِ الكعبةِ بما يتَوافقُ معَ بناءِ سيِّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ لها، ولأنّ قُريشًا في ذلك الوقتِ كانت حديثةَ عهدٍ بالإسلام، وكان يُخشَى من انحرافِهم عن الإسلام فيما لو تَمَّ هَدْمُ الكعبة، لذا لم يتمَّ تنفيذُ الأمرِ، أمّا الآنَ فقد زال هذا الخَوْفُ، ولهذا قام سيِّدُنا عبدُ الله بنُ الزُّبَير رضيَ اللهُ عنه بهَدْم الكعبةِ وبنائها طِبقًا لما كان يرغَبُه النبيُّ ﷺ.

وحينَ هاجَمَ الحَجَّاجُ بن يوسُفَ الثَّقَفيُّ مكةَ، واستُشهِدَ على إثرِ ذلك سيِّدُنا عبدُ الله بنُ الزُّبَير رضيَ الله عنه، وأصابتِ الشُّقوقُ جُدرانَ الكعبة، قام الحَجَّاجُ بن يوسُفَ بإعادةِ بناءِ الكعبة طِبقًا لبناءِ قُرَيشٍ لها، وبناءُ الكعبةِ الموجودُ اليومَ مبنيٌّ على هذا الأساس. يقولُ العلَّامةُ العَيْنيُّ: «**ويُروى أنّ هارونَ سَأل مالكًا عن هَدْمِها وردِّها الى بناءِ ابنِ الزُّبَيْر، للأحاديثِ المذكورة، فقال مالكٌ: نشَدتُكَ اللهَ يا أميرَ المؤمنينَ أن لا تَجعَلَ هذا البيتَ لُعبةً للملوكِ لا يشاءُ أحدٌ إلّا نَقَضَه وبناه فتذهَبَ هيْبَتُه من صدورِ الناس**»[1].

كم مرةً بنيت فيها الكعبة؟

هناك رواياتٌ مختلِفةٌ فيما يَتعلَّقُ ببناءِ الكعبة؛ هل بُنِيت خمسَ مرَّاتٍ أم

(١) عمدة القاري ٢: ٢٠٤ برقم ١٢٦.

عشْرًا؟ لكنّ العلَّامةَ العَيْنيَّ يقولُ: إنّها بُنِيت سبعَ مرات:

١ـ بُنِيت الكعبةُ لأولِ مرَّةٍ بيدِ الملائكة (وطِبقًا للرِّواياتِ الأُخرى كان أولَ منَ بنَى الكعبة هو سيِّدُنا آدمُ عليه السَّلام، وقد شاركتِ الملائكةُ في هذا البناء، فقد كانوا هم الذين يَحمِلونَ الأحجارَ ويأتونَ بها، ويُعلَمُ من هذا أنّ أولَ بناءٍ للكعبة شارَكَ فيه سيِّدُنا آدمُ عليه السَّلامُ والملائكة. على أيّةِ حال، كان سيِّدُنا آدمُ عليه السَّلامُ هو أولَ مَن بنَى الكعبةَ من بني الإنسان).

٢ـ ثم بناها سيِّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلام.

٣ـ ثم بناها العَمالقةُ.

٤ـ ثم بَنتْها جُرْهُم.

٥ـ ثم بنَتْها قُرَيْشٌ وشارك فيها النبيُّ ﷺ.

٦ـ ثم بناها سيِّدُنا عبدُ الله بنُ الزُّبَير.

٧ـ ثم بناها الحَجَّاجُ بن يوسُفَ الثَّقَفي[1].

الحجر الأسود

بيْنَ الرِّواياتِ ـ فيما يتَعلَّقُ بالحَجَرِ الأسَود ـ اختِلاف، فالبعضُ يقول: إنّه حينَ نَزَل سيِّدُنا آدمُ عليه السَّلامُ من الجنَّة إلى الأرض جاء معَه بالحَجَرِ الأسودِ حاملًا إياه تحتَ إبطِه، ويقولُ البعضُ الآخَر: إنّ الحَجَرَ الأسوَدَ أُنزل على سيِّدِنا آدمَ بعدَ نزولِه من الجنَّة إلى الأرض، وكان لامعًا برّاقًا كاللُّؤلؤةِ البيضاء، وحين

---

(١) «بنته الملائكة أوّلاً، ثم إبراهيم عليه السلام، ثم العمالقة، ثم جرهم، ثم قريش ورسول الله ﷺ يومئذٍ رجل شاب، ثم ابن الزبير، ثم حجاج». عمدة القاري.

بنَى سيِّدُنا آدمُ عليه السَّلامُ الكعبةَ وَضَعَ الحَجَرَ الأسودَ في موضعِه طِبقًا لِما أخبَره به سيِّدُنا جِبريلُ الأمين(١).

ثم حينَ اجتاحَ طُوفانُ نُوح الأرضَ رُفِع الحَجَرُ الأسودُ إلى السَّماء، وحين رَفَع سيِّدُنا إبراهيمُ جُدرانَ الكعبةِ نَزَل جِبريلُ الأمينُ بالحَجَرِ الأسود، وعُهِد به إلى سيِّدِنا إبراهيم(٢).

كسوة الكعبة

كان أولَ مَن كَسَا الكعبةَ هو السيِّدُ عدنانُ(٣)، والذي كان من أبناءِ سيِّدِنا إسماعيلَ عليه السَّلام، ومن أجدادِ نبيِّنا المصطفى عليه الصَّلاةُ والسَّلام.

﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾

٥١ـ عن أنسِ بن مالكٍ رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «صلاةُ الرّجُل في بيتِه بصلاةٍ، وصَلاتُه في مسجدِ القبائل بخمسٍ وعشرينَ صلاةً، وصَلاتُه في المسجدِ الّذي يُجمَّعُ فيه بخمسِمائةِ صلاةٍ، وصَلاتُه في المسجدِ الأقصى بخمسينَ ألفَ صلاةٍ، وصَلاتُه في مسجدي بخمسينَ ألفَ صلاةٍ، وصَلاتُه في المسجدِ الحرام بمائةِ ألفِ صلاة»(٤).

---

(١) «إنّ آدم نزل من الجنّة ومعه الحجر الأسود متأبّطه ... أنزل عليه الحجر الأسود وهو يتلألأ كأنّه لؤلؤةٌ بيضاء ... لمّا بنى البيت أمره جبريل عليه السلام أن يجعل تلك الجوهرة في الرّكن ففعل». السيرة الحلبية، ١: ٢١٨.

(٢) «وكان (الحجر الأسود) قد رفع إلى السماء حين غرقت الأرض لمّا رفع البيت، فنزل به جبريل عليه السلام فوضعه إبراهيم عليه السلام موضع الركن». سبل الهدى والرشاد، ١: ١٨٢.

(٣) «أوّل من كساها عدنان». السيرة الحلبية، ١: ٢٥٠، وضياء النبي، ١: ٤٠١.

(٤) ابن ماجه، إقامة الصلوات، باب ١٩٨ برقم ١٤١٣.

وللتعرُّفِ على بركاتِ الكعبةِ المشرَّفة تأمَّلْ هذه الحكايةَ التي جاء فيها أنّ الكعبةَ سَتشفعُ لثلاثةِ أشخاص وتُدخِلُهمُ الجنَّةَ، أوَّلُهم: شخصٌ حَجَّ، والثاني: شخصٌ خَرَج بِنيّةِ الحجِّ، ولكنّه لم يتمكَّنْ من الوصُولِ للكعبة، والثالث: تمنَّى أن يَحُجَّ، ولكنْ لم تساعِدْه إمكانيَّاتُه[1].

﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ﴾

٥٢ـ المرادُ بالآياتِ البيِّناتِ هنا: مقامُ إبراهيمَ والحَجَرُ الأسوَدُ وماءُ زَمْزمَ والصَّفا والمَرْوةُ ومنًى وعَرَفاتٌ وغيرُها، والمرادُ من البيتِ هنا ليس الكعبةَ فقطْ، وإنّما الحَرَمُ الشَّريفُ بأكملِه؛ لأنّ حَجَر مقامِ إبراهيمَ آيةٌ أيضًا، وهو ليس بداخلِ الكعبةِ وإنَّما خارِجَها.

﴿مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَ﴾

٥٣ـ المرادُ بمقام إبراهيمَ هنا هو: ذلك الحَجَرُ الذي وَقَفَ فوقَه سيِّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ وبنَى الكعبةَ، وعلى هذا الحَجَر أثرُ قَدَم سيِّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلام، وهو محفوظٌ الآنَ في حُجرةٍ زُجاجيَّةٍ على بُعدِ عدَّةِ أقدام من الكعبة، وتؤدَّى أمامَ هذه الحُجرةِ ركعتانِ بعدَ الطَّوافِ سبعَ مرات، واللهُ تعالى يحبُّ ما يفعَلُه عبادُه المقرَّبون، وكذا كلُّ الأشياءِ التي لها علاقةٌ بهم، وفي الآية رقم ١٢٥ من سورة البقرة جاء الأمرُ باتِّخاذِ مقام إبراهيمَ مسجدًا: ﴿وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ

---

(١) «روي أن الكعبة تقول: ايذن لي يا ربّ في زيارة قبر رسول الله ﷺ، قال: فيؤذن لها، فإذا جاءت إلى قبر رسول الله ﷺ تقول لرسول الله ﷺ: لا تهتمّ لثلاثةٍ فانّي أشفع لهم: من طاف بي، ومن خرج من البيت ولم يصل إليّ، والثالث: من اشتهى أن يقصدني فلم يجد سبيلًا إلى ذلك». نزهة المجالس، ١: ١٥٣.

وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾، وقد أكّدت هذه الآيةُ على أنّ مقامَ إبراهيمَ آيةٌ بيّنةٌ، ولو تأمّلْنا هذا الأمرَ لَعَلِمْنا أنّ كلَّ عباداتِ ومناسكِ الحجِّ هي في الحقيقة تذكيرٌ وتخليدٌ لِما قام به أولياءُ الله المقرَّبون، بدايةً من الذَّبْح والتَّضحية، ومرورًا برَمْي الجَمَرات وحتّى الوقوفِ بعَرَفةَ والسَّعي بيْنَ الصَّفا والمَرْوة.

﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾

٥٤ـ المرادُ بالضَّمير في ﴿دَخَلَهُۥ﴾ هنا ليس مجرَّدَ مبنى الكعبةِ أو المسجدِ الحرام فقطْ، وإنّما الأرضُ المُحيطةُ بالكعبةِ والمُمتدَّةُ لأميالٍ عديدةٍ فيما يُعَدُّ حَرَمًا، والأمنُ في هذه المنطقة وَصَل إلى درجةِ أنه لا يجوزُ حتّى مجرَّدُ صيدِ حيَوانٍ فيها، بَلْهَ قَتْلَ إنسان، ومَن يَدخُلُ حدودَ الحَرَم لا يَخشَى حتّى من ألدِّ وأشرسِ الأعداء، ويستطيعُ الانهماكَ بكلِّ اطمئنانٍ في ذِكرِ اللهِ تعالى، وحتّى في زمنِ الجاهليَّة كان الكفَّارُ يحترمونَ الحَرَمَ الشَّريف، ولا يَظلِمونَ أحدًا في هذه المنطقة.

﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾

٥٥ـ يُعلَمُ من هذا أنّ الحِجَّ فَرْضٌ على كلِّ مسلم يَملِكُ مقوّماتِ الذَّهابِ إلى الكعبة، يعني: يستطيعُ السَّفَرَ وتحمُّلَ نفقاتِه، والطَّريقُ آمنٌ، وتتحمَّلُ صحَّتُه مصاعبَ الطريق. **عن عبدِ الله بن مسعودٍ رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «تابِعوا بيْنَ الحجِّ والعُمرةِ فإنّهما يَنْفِيانِ الفقرَ والذُّنوبَ كما ينفي الكِيرُ خَبَثَ الحديدِ والذّهَبِ والفضّة، وليس للحَجّةِ المبرورةِ ثوابٌ إلّا الجنّة»**[1].

(١) الترمذي، أبواب الحج، باب ٢ برقم ٨١٠.

كما أن النبيَّ ﷺ قال، فيما رَواهُ سيِّدُنا عليُّ بنُ أبي طالبٍ كرَّم اللهُ وجهَه: «**مَن مَلَكَ زادًا وراحلةً تُبلِّغُه إلى بيتِ الله ولم يَحُجَّ فلا عليه أن يموتَ يهوديًّا أو نَصْرانيًّا**»(١).

وقد عبَّر القرآنُ الكريمُ عن عَدَم الحجِّ برَغْم الاستطاعةِ بلفظِ ﴿كَفَرَ﴾، وهو ما لا يبقَى معَه أيُّ شكٍّ في فرضيةِ الحجِّ والتأكيدِ عليها، وقد فُرِض الحجُّ في السَّنةِ السادسةِ للهجرة(٢)، وفَرْضيَّتُه قَطْعيَّة، وهي مرّةً في العُمُر.

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ﴾

٥٦ـ كان أهلُ الكتابِ على عِلم، من خلالِ التَّوراةِ والإنجيل، أنّ الإسلامَ هو الدِّينُ الحقُّ، وأنّ سيِّدَنا محمَّدًا ﷺ نبيُّ الله ورسُولُه الصَّادق، ولكنَّهم ـ معَ ذلك ـ أنْكَروا كلَّ هذا، وبَذَلوا قُصارى جُهدِهم في زَرْع الشُّكوكِ والشُّبُهاتِ في قلوبِ المسلمين البُسَطاء، واللهُ تعالى في هاتَيْنِ الآيتَيْنِ يُنَبِّهُ أهلَ الكتابِ بأنّكم قد تستطيعونَ خِداعَ بعض النّاس بإخفائكمُ الحقَّ عامدينَ متعمِّدين، لكنْ بماذا تُجيبونَ اللهَ تعالى يومَ الحَشْرِ حين يَسألُكم؟ إنّه يَعلَمُ ظاهِرَكم وباطِنَكم على السَّواء.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾

٥٧ـ بعدَ أنْ ذَكَر اللهُ تعالى مكْرَ أهلِ الكتابِ وخِداعَهم ووساوِسَهم، يُنَبِّهُ المسلمينَ هنا إلى أنّ أهلَ الكتابِ يحاولونَ بكلِّ ما يَملِكونَ من قوَّةٍ أن يُعيدوكم

---

(١) الترمذي، أبواب الحج، باب ٣ برقم ٨١٢.

(٢) «اختلف العلماء في السنة التي فرض فيها الحجّ، والمشهور أنها سنة ستٍّ». حاشية الطحطاوي، كتاب الحج.

إلى الكُفر، لكنّ عليكم أن تَحذَروا مؤامراتِهم، وأن تتمسَّكوا بدِينِ الإسلام بقوَّة، فهذا هو الصِّراطُ المستقيم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٥﴾ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿١٠٩﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾

٥٨ـ أكَّدتْ هذه الآيةُ على الخَوْفِ من اللهِ واتِّقائه، والقَصْدُ هنا: أن نَبذُلَ كلَّ جُهدِنا وبقَدْرِ استطاعتِنا في العمَل بالأحكام الإلهيَّة وتجنُّبِ نَواهيه سبحانه وتعالى، والآياتُ التاليةُ أيضًا تؤكِّد هذا المفهومَ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن: ١٦]، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾

٥٩ـ يعني: أنْ يأتِيَكم الموتُ حينَ يأتيكم وأنتم مُطِيعونَ للهِ تعالى، ونحن لا نَعلَمُ عن وقتِ الموتِ شيئًا، ولذا لا ينبغي أن نُخاطرَ بالعِصيانِ في أيِّ لحظةٍ من اللَّحظات.

﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾

٦٠ـ المرادُ به: القرآنُ المَجِيد، وفي القرآنِ الهدايةُ، وفي الاتّحاد القُوَّة، والأُمَّةُ التي تمتلكُ القوَّةَ فقطْ تصبحُ ظالمةً، في حينَ أنّ الأُمَّةَ التي تمتلكُ الهدايةَ فقطْ تصبحُ مظلومةً.

وفي هذه الآيةِ أمَرَ اللهُ تعالى المسلمينَ أن يتَّحِدوا بعدَ أنْ أنزَلَ إليهم كتابًا كلُّه هدايةٌ هو القرآن، وذلك حتى لا يتحوَّلَ المسلمونَ إلى ظالمينَ أو مظلومين، وإنّما لينشُروا نُورَ الهداية بكلِّ كرامةٍ ووقار.

وقد أكَّد القرآنُ الكريمُ والحديثُ الشَّريفُ كثيرًا على الاتّحادِ والاتِّفاق، واجتماعاتُ صلاةِ الجُمعة والحجِّ والعيدَيْنِ ما هي إلّا نماذجُ عَمَليَّةٌ لهذا الاتّحاد، والتي يجلسُ فيها العبدُ والسُّلطانُ والأبيضُ والأسودُ جنبًا إلى جنْبٍ في صفٍّ واحد، فيعيدونَ إلى الأذهانِ المساواةَ والاتّحادَ في الإسلام من جديد.

﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَا ﴾

٦١ـ قبلَ الإسلام كانتِ القبائلُ العربيَّةُ متفرِّقة، لا يتورَّعُونَ عن قَتْل بعضِهم بعضًا لأتفهِ الأسباب، ثم يتمادَوْنَ في هذه العداوةِ بعضِهم لبعض لقرونٍ عديدة، وقد أحدثَ الإسلامُ في قلوبِهم ثورةً من المحبَّة بحيثُ عادوا إلى بعضِهم إخوةً مُتَحابِّينَ. كما أنّهم كانوا على وَشَكِ الوقوع في نارِ جهنَّم بسببِ الكُفر والشِّرك، لكنّ الإسلامَ وَضَع أقدامَهم على طريقِ الجنة، ونحن ـ وإن كنا نستوعبُ مسألةَ تفرُّقِ العربِ قبلَ الإسلام ونتفهَّمُها ـ إلّا أنّ تفرُّقَ المسلمينَ بعدَ نزولِ القرآنِ يُعَدُّ لمحةً فكْريَّةً تستحِقُّ التوقُّفَ عندَها.

*** لو أنَّنا لم نَنْسَ درْسَ القرآن، لَما أرانا الزَّمانُ مثلَ هذا الوقتِ الذي نراهُ.**

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾

٦٢ـ الأمرُ بالمعروفِ والنَّهيُ عن المنكَر فَرْضُ كفاية، ومن أهمِّ واجباتِ الأُمَّةِ الإسلاميَّة أن تُعِدَّ طائفَةَ من أبنائها بتسليحِهم بالعلوم الدِّينيَّة، ويكونونَ من العاملينَ بالتعاليم الإسلاميَّة، وعلى معرفةٍ بمقتَضياتِ العَصْرِ الحاضر، وقادرينَ على استخدام العِلم والحِكمة، ومتمكِّنينَ من تقديم رسالةِ الإسلام إلى النّاسِ في صُورةٍ سَهْلةٍ مفهومة، وفي نفْسِ الوقتِ قابلةٍ للتطبيق، وذلك حتَّى لا يَفتُرَ حَماسُ المسلمينَ في العمل بالإسلام، وفي نفسِ الوقت يؤدِّي ذلك ـ في نهايةِ الأمر ـ إلى دخول غير المسلمينَ في الإسلام، أو على أقلِّ تقديرٍ يحترمونَ الإسلام.

١ـ قال رسولُ الله ﷺ، فيما رَواهُ سيِّدُنا حُذَيْفةُ بنُ اليَمَان رضيَ اللهُ عنه: **«والّذي نفْسي بيدِه، لَتأْمُرُنَّ بالمعروف ولَتنْهَوُنَّ عن المنكَرِ أو لَيُوشِكَنَّ اللهُ أن يَبعَثَ عليكم عقابًا منه ثمّ تدعونَه فلا يستجيبُ لكم»**[1].

٢ـ عن أبي ثَعْلبةَ الخُشَنيّ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: ... ائْتمِروا بالمعروفِ وتناهَوْا عن المنكَر، حتّى اذا رأيتَ شُحًّا مُطاعًا، وهوًى متَّبعًا، ودنيا مؤْثَرةً، وإعجابَ كلِّ ذي رأيٍ برأيه، فعليكَ بخاصّةِ نفْسِك ودَع العَوامَّ»[2].

والهدَفُ من هذه الأحاديثِ هو التأكيدُ على أنّ الأمرَ بالمعروفِ والنَّهيَ عن المنكرِ من المسئوليَّاتِ الجَماعيَّةِ للأُمَّةِ المسلمة، فإذا قصَّرَتْ في أدائها أصابَهم عذابٌ من الله وتدهوُرٌ، بحيث لا يُقبَلُ لهم دعاءٌ أبدًا. أمّا إذا كان الأمرُ غيرَ ذلك، ولم يَقبَلِ النّاسُ الهدايةَ، وأصبحوا عَبيدًا لشَهواتِهم، وعَرَّضوا الدُّعاةَ للمشاكل والمخاطر، فعلى الدّاعي عندئذٍ أن يهتمَّ بأمرِ نفسِه، ويترُكَ الآخرينَ على ما هم عليه.

---

(١) الترمذي، أبواب الفتن، باب ٩ برقم ٢١٦٩.

(٢) الترمذي، تفسير القرآن، باب ١٨ برقم ٣٠٥٨.

﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ ﴾

٦٣- حَصَل أهلُ الكتابِ على التعاليم الواضحةِ لدينِ الحقِّ من أنبيائهم، ولكنْ بعدَ مُضِيِّ فترةٍ من الزَّمنِ تَركوا مبادئَ الدِّين، وتفرَّقوا شِيَعًا على أساسٍ من القضايا غيرِ الضَّرورية، وهو ما سوف يُعاقَبونَ عليه يومَ القيامة بعذابٍ عظيم، وبهذا المثال في هذه الآية يَمنَعُ اللهُ تعالى المسلمينَ من التَّفرُّقِ أحزابًا وشِيَعًا، ولِيتَّخِذوا من المثالِ عِبرةً، لكنْ للأسفِ الشَّديد، قرَأْنا في التاريخ سقوطَ سَمَرْقَنْدَ وبُخارى وطَشْقَنْدَ وقُرطُبَةَ، وشاهَدْنا بأعيُنِنا على شاشاتِ التلفازِ المأساةَ التي عاشَتْها وتعيشُها البوسْنة والشِّيشان وكِشْمِير وفِلَسطينُ وأفغانستان، وبالرَّغْم من ذلك لم يَدفَعْنا هذا كلُّه إلى جَمْع شتاتِنا، والتقليل من فُرقتِنا، وأعمَتْنا مصالحُنا الشَّخصيَّةُ وحبُّ الذّات، إلى درجةِ أننا نتصارعُ داخلَ بيوتِنا، بينَما العدوُّ يقفُ على أبوابِنا، فهل من عذابٍ أكثرَ من هذا؟

*** وا أسفاهُ على فشَلِنا! فقد فَقَدَتِ القافلةُ متاعَها، وفقَدتْ معَه قلوبُ أبنائها الإحساسَ بالخَسارةِ التي ألمَّتْ بهم.**

﴿ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞ ﴾

٦٤- ستكونُ وجوهُ المؤمنينَ يومَ القيامةِ مضيئةً، وسيبقَوْنَ مطمئِّنِّينَ دائمًا في نورِ الإيمانِ والثَّواب، بينَما ستكونُ وجوهُ أهلِ الكُفرِ سوداءَ، وسيبقَوْنَ مضْطَرِبينَ دائمًا في ظُلُماتِ الكُفرِ والعقاب.

﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾

٦٥- اللهُ تعالى مالكُ كل شيءٍ في السَّماءِ والأرض، وليس في حاجةٍ إلى أن يَظلِمَ أحدًا أو أن يُضيِّعَ حقَّ أحد، على العكسِ من ذلك، فهو رحيمٌ، ويَتْلو عليهم الآياتِ ويَهديهم إلى الصِّراطِ المستقيم، حتّى يختارَ البشَرُ طريقَ الهدايةِ فيَنْجُونَ من

العذاب، ولكنْ بالرَّغْم من ذلك إذا اختار البعضُ الطَّريقَ الخطأَ عامدًا متعمِّدًا، فإنهم بذلك يَظلِمونَ أنفسَهم، والذين يَظلِمونَ لا بدَّ أن يواجِهوا مصيرَ الظُّلم في نهايةِ الأمر.

كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ اللَّهِ ءَانَآءَ الَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى الْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌۢ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْـًٔا وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْـَٔايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾

٦٦ـ في هذه الآيةِ الكريمة أكَّد اللهُ تعالى أنّ المسلمينَ خيرُ أُمَّة، وذَكَر السببَ في ذلك، وهو أنَّهم يؤمنونَ باللهِ تعالى، ويأمُرونَ النّاسَ بالمعروف، ويَنْهَوْنَهم عن المنكَر.

بمعنى: أنّ أفضَلَ النّاسِ هم أولئك الذين يؤمنونَ بالله أولًا، ويكونونَ تجسيدًا للأمنِ والسَّلام، ويقضُونَ على الشرّ فيُهيِّئونَ للنّاس أيضًا الأمنَ والأمان، وكما أنّ القضاءَ على الظَّلام والأمراضِ يترتَّبُ عليه أن يعودَ النُّورُ والصِّحةُ بطبيعةِ الحال، فإنه ـ بالقضاءَ على المنكر ـ تكونُ النتيجةُ الحَتْميَّةُ له انتشارَ المعروف، ولهذا قال النبيُّ ﷺ: **«مَن رأى منكم مُنكرًا فلْيُغيِّرْه بيدِه (بالقوة)، فإنْ لم يستطعْ فبلسانِه، فإنْ لم يستطعْ فبقلبِه، وذلك أضعَفُ الايمان»**[١].

وهذا يعني: أن مُقتضَياتِ الإيمانِ الأُولى هي أن يَكرَهَ الإنسانُ المُنكَرَ من كلِّ قلبِه، وأن يعمَلَ على القضاءِ عليه. والدرجةُ الوُسطى للإيمانِ هي: أن يحاولَ الإنسانُ القضاءَ على المنكَرِ بلسانِه، وهو ما يُمكنُ أن نُطلِقَ عليه الدَّعوةَ، مثلَما دَعا النبيُّ ﷺ إلى الإسلام في مكةَ المكرَّمة. أمّا أعلى درجاتِ الإيمانِ فهي القضاءُ على المنكَر بالقوَّة، ولهذا السبب ـ في الغالب ـ قيل للأُمَّةِ الإسلاميَّة: خيرُ أُمَّة.

ولكنْ لا بدَّ لهذه الخَيْريَّةِ من تفوُّقٍ سياسيٍّ ورُقيٍّ مادِّيٍّ، حتى يُمكنَ تنفيذُ أحكام الإسلام، والتي من خلالِها يمكنُ لأيِّ إنسانٍ من أيِّ دِين أن يعيشَ في أمنٍ وأمان، ولا يتجَرَّأَ أحدٌ على ارتكابِ المنكر، وخيرُ مثالٍ على هذا: قيامُ الدَّولةِ الإسلاميَّةِ في المدينةِ المنوَّرة، والتي هاجَرَ النبيُّ ﷺ من مكّةَ المكرَّمةِ في سَبيل تحقيقِها، وجُرِحت جَبْهتُه الشَّريفةُ في أُحُدٍ، ورَبَطَ الحَجَرَ على بطنِه الشَّريفةِ في غزوةِ الخَنْدق من أَجْلِها. ما أحسَنَ ما قال العلّامةُ محمد إقبال:

*** تعالَ أُخْبِركَ ما هو تقديرُ الأُمم، السَّيفُ والرَّمحُ أولًا، والموسيقى والغناءُ فيما بعد.**

*** أرائكُكَ إفْرَنْجِيَّة، وسجّادُكَ إيرانيٌّ، إنّ مَيْلَ الشَّبابِ للراحة يُبكيني دمًا.**

---

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب ٢٠ برقم ١٧٧. والحديث عن أبي سعيد رضي الله عنه.

وفي الآية رقم **١٣٩** من هذه السُّورة قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

فأين هذه الغَلَبةُ، وأين هذا الإيمانُ الكاملُ لدى المسلمينَ في أيامِنا هذه؟ إنّهم ليسوا أحرارًا حتى في بلادِهم أيضًا، ويُنفَّذُ في بلادِ المسلمينَ ما تريدُه الحكوماتُ القويَّة، والسببُ في ذلك واضحٌ ظاهر، وهُو أنّ المسلمينَ أصبحوا محرومينَ من أعلى درجاتِ الإيمان، بمعنى: أنّهم يُمكنُ أن يَدْعوَ النّاسَ إلى المعروف، ولكنَّهم لا يَملِكونَ القوَّةَ على الأمرِ به، ممَّا كان من نتيجتِه أنّ خيرَ أُمّةٍ أصبحتْ مشهورةً اليومَ بالإرهاب؛ لأنه - كما يقولُ المثَلُ «الجاموس لمَن مَعه العصا»[1] -، وعصا اليوم ليست مجرَّدَ القنبلةِ النَّوويَّة والصَّواريخ فقَطْ، وإنّما هي - في الأصل - القوةُ الاقتصاديَّةُ والتطوُّرُ العِلميُّ، والمسلمونَ في هذا الميدان يرتكبونَ خطأً لا يُغتفَرُ في شكلِ غَفْلتِهم التي تَصِلُ إلى حدِّ الجريمة، فالمسلمونَ اليومَ يملِكونَ رُبعَ الأرض ورُبعَ مصادرِها الماديَّةِ بالتالي، وقوَّتُهم العَدديَّةُ تفُوقُ المليارَ نسمةٍ، ويُشكِّلونَ سبعًا وخمسينَ دولةً، ورجالُ الدِّين في مساجِدِهم، والمسئولونَ الحكوميُّونَ على كراسيِّ السُّلطة، وإمامُ الكعبةِ في اجتماعاتِ الحج، كلٌّ في موقعِه يَدعو إلى عملِ المعروفِ والبُعدِ عن المنكَر، وبالرَّغْم من كلِّ هذا فلا المعروفُ ينتشر، ولا المُنكرُ ينتهي؛ لأنّ افتقادَنا للعلوم التطبيقيَّة والفنيَّة جَعَل كلَّ وسائلِنا ومصادرِنا بلا أثَر، ولم نستطع الحصُولَ على القوَّة التي تكونُ مؤثِّرةً في تحقيقِ المعروف والقضاءِ على المنكر، ولهذا فإنَّه من الضَّروريِّ للغايةِ لنا في هذه الأيام أن يعودَ المسلمونَ إلى القرآن، وأن يَخلُقوا جوًّا من الاتِّحاد والمحبَّة فيما بينَهم، وأن يُحقِّقوا التفوُّقَ العلميَّ والتكنولوجيَّ، ويَصِلوا ليلَهم بنهارِهم اجتهادًا لاستعادةِ مَجْدِهم السابق؛ لأنّ اللهَ

---

(١) مثل باللغة الأردية «جس كي لاٹھی اس كي بهينس» يعني: أن القوي هو الذي يسيطر، فالذي معه العصا «القوة» يستطيع أن يسوق الجاموس أمامه.

تعالى يساعدُ أولئك الذين يساعدونَ أنفسَهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

*** إنّ اللهَ لم يغيِّرْ إلى اليوم حالَ قومٍ لم يَخطُرْ ببالِهم تغييرُ حالِهم.**

ملحوظة: راجِعْ أيضًا حاشيةَ رقم ٦٢ في هذه السورة.

﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾

٦٧ـ لو أنّ أهلَ الكتاب آمَنوا لَكان ذلك خيرًا لهم؛ لأنَّهم ـ في هذه الحالة ـ سينضَمُّونَ إلى خيرِ أُمَّة، مثلَما آمَنَ عبدُ الله بنُ سَلام وثَعْلبةُ بن سَعْية وغيرُهما، لكنّ غالبيَّةَ أهلِ الكتاب رَفَضوا الدُّخولَ في الإسلام.

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾

٦٨ـ كان اليهودُ يسيطرونَ على مناطقِ يثربَ وخَيْبَر، وكانت لهُم مكانةٌ كبيرةٌ في هذه المناطقِ بسببِ أموالِهم، ولكنْ حينَ أَخَذ نفوذُهم في التراجُع والزَّوالِ بعدَ قدوم المسلمين، بدَأوا يتآمرونَ ضدَّهم، ثم طَمْأنَ اللهُ تعالى المسلمينَ بأنه لا ينبغي لهم أن يَخشَوُا اليهودَ، فهم قد يؤْذونكم بألسنتِهم السَّليطةِ وباتِّهاماتِهم الكاذبة، ولكنّهم إن تَجرَّأُوا على مُحاربتِكم عمَليًّا فسيُهزَمونَ ويَفِرُّونَ من الميدان، والتاريخُ شاهدٌ على صحَّةِ نبوءةِ القرآنِ الكريم هذه، فقدِ انهَزَم اليهودُ في المدينةِ وخَيْبَر هزيمةً مُنكَرة.

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾

٦٩ـ لقد سَلَّط اللهُ تعالى الذُّلَّ والمهانةَ على اليهودِ بسببِ أفعالِهم وجرائمِهم النَّكراء، إلّا أنّ القرآنَ الكريمَ ذَكَر صُورتَيْنِ يمكن لليهودِ ـ من خلالِهما ـ النَّجاةُ من هذا الذُّلِّ وهذه المَهانة، الصُّورةُ الأولى هي: أن يَرجِعوا عمّا يَرتكِبونَ من جرائمَ

ويَلْجَأوا إلى الله تعالى، والصُّورة الثانية هي: أن يُساندَهم ويَحميهُم الآخَرون.

﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ﴾

٧٠- الذين أنكَروا آياتِ الله من اليهود، وقَتَلوا الأنبياءَ بغيرِ حقٍّ، عاشُوا في هذه الحياة الدُّنيا في فَقْر مُدقِعٍ وإفلاسٍ كعقابٍ على جرائمِهم هذه، وسوف يَدخُلونَ جهنَّمَ وبئسَ المصير، ويَبوءونَ بغضبٍ من الله تعالى في الآخِرة.

﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ ﴾

٧١- هناك تفسيرانِ لهذه الآيةِ الكريمةِ فيما يتَعلَّقُ بأهلِ الكتاب:

١- **أهلُ الكتابِ الأُوَلُ**: بمعنى أنّ أهلَ الكتابِ لم يكونوا جميعًا سواءً، ورَغْمَ أنّ أكثريَّتَهم قد عَصَتِ اللهَ تعالى، وقَتَلوا الأنبياءَ بغيرِ حقٍّ، لكنّ البعضَ من أهلِ الكتابِ كانوا من الصَّالحين، وكانوا يَسيرونَ على هَدْيِ تعاليم الأنبياءِ الكرام، ولذا فإنّ هؤلاءِ لنْ يُضيعَ أجْرَهم.

٢- **أهلُ الكتابِ في عهدِ النبيِّ ﷺ**: بمعنى أنّ أهلَ الكتابِ لم يكونوا جميعًا سواءً، فالبعضُ منهم واقعيٌّ، وهو الذي آمَنَ بالنبيِّ الكريم ﷺ، واتَّبع التعاليمَ الإسلاميَّةَ، وهؤلاءِ لن يُضيعَ أَجْرَهم، لكنّ الذين لم يؤْمنوا بالنبيِّ ﷺ من أهلِ الكتابِ لن يكونَ إيمانُهم بالله تعالى أيضًا صحيحًا؛ لأنَّهم أنكَروا نبيَّ الله المُرسَلَ الخاتَم ﷺ، ولهذا لا يمكنُ أن يكونوا على حقٍّ.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ﴾

٧٢- في هذه الآيةِ بَيَّن اللهُ تعالى نهايةَ الظالم والكافرِ من خلال مثالٍ جاء

به فيها، بمعنى: أن الظَّالِمَ يُجهِّزُ حقلًا للزِّراعة، ويَزرَعُه، ثم لا تَسَعُه الفرحةُ حينَ يرى الحقلَ قد أثمَر وأيْنَع، لكنَّه في الوقتِ ذاتِه لم يُجهِّزْ لهذا الحقلِ ما يَحميه من البرودة، وحينَ حان وقتُ عقابِه على المظالم التي ارتكبَها، هَبّت ريحٌ باردةٌ عاتيةٌ، فأتْلفَتْ محصولَ حقلِه، ولم ينَل الظالمُ في نهايةِ الأمرِ سوى الحسرةِ والنَّدامة، وبنفسِ الطريقة فإنّ الكافرَ الذي يتصَدَّق بمالِه لمجرَّدِ الظُّهورِ والشُّهرة، أو لرفاهيَةٍ وخيرِ النّاس، فإنّه يُعلِّقُ آمالًا كبيرةً في مستقبَلٍ زاهرٍ واطمئنانٍ قلبيّ، ولكنه لم يتدبَّرْ أمرَ ما يُحافظُ على هذه الأعمال بصفةٍ أبَديَّة، يعني: لم يؤْمنْ باللهِ تعالى، ولذا حينَ يأتي وقتُ عقابِه على كُفرِه (يومُ القيامة)، فإنّ هذا الكُفرَ يُضيّعُ ثوابَ كلِّ ما فعَلَه من خيرٍ؛ لأنّه وإن تصَرَّف في مالِ الله الذي أعطاه إياه، لكنّه لم يؤْمنْ بنظام هذا المُعطي، ومثالُه كخادِم يقومُ بتقسيم مالِ سيِّدِه بينَ النّاسِ دونَ إذْنٍ منه، فهذا الخادمُ ـ بهذا ـ لا يكونُ سَخِيًّا، وإنّما يكونُ مجرمًا، وعقابُه في هذه الحالة لا يُعَدُّ ظُلمًا، وإنّما هو الذي يستحِقُّ ذلك، وقد شَبَّه القرآنُ الكريمُ أعمالَ الكفَّارِ بالسَّرابِ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُ﴾

٧٣ـ في هذه الآيةِ أمَرَ اللهُ تعالى أهلَ الإيمانِ أن لا يتَّخِذوا من غيرِ المسلمينَ أُمَناءَ على أسرارِهم، أي: أصدقاءَ مقرَّبين؛ لأنّهم ـ بهذه الطريقة ـ سيَعرِفونَ أسرارَهم، ثم يقدِّمونَ لهم مَشُوراتٍ خاطئةً فيزيدون من خسارةِ المسلمين وإيذائهم، وليس في هذه الآيةِ حُكمٌ بقَطْع العلاقاتِ معَ الكفَّار، وإنَّما مَنْعٌ من الصَّداقةِ العميقةِ معَهم، إذ إنّه على المستوى الإنسانيّ يجبُ أن تكونَ لنا علاقاتٌ

طيِّبةٌ بكلِّ بني الإنسان، حتى ينتهيَ سوءُ الظنِّ، ويَسودَ جوٌّ من الأمنِ والسلام، ولمزيدٍ من التفصيل في هذا الخصوص راجِعْ تفسيرَ آية رقم ٢٨ من هذه السورة.

﴿هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔا﴾

٧٤ـ يعني: أنّ المنافقينَ لا يُحبُّونَ المسلمينَ أبدًا، وإنّما يُظهِرونَ الإسلامَ لخداع المسلمين، والبُسَطاءُ من المسلمينَ عندَما يرَوْنَ إيمانَهم الظاهريَّ هذا يعتبرونَهم إخوةً لهم ويحبُّونَهم، واللهُ تعالى يُنبِّهُ المسلمينَ في هذه الآيةِ حتى يحتاطوا لأنفسِهم من مكائدِ المنافقينَ الخطيرة، ويخشَوا اللهَ تعالى، ويصبِروا على العقباتِ التي تواجِهُهم في طريقِ الحق.

وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢٩﴾

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾

٧٥- جمهورُ المفسِّرينَ على أنّ المرادَ هنا غزوةُ أُحُد، ففي شوَّالٍ من السَّنةِ الثالثةِ للهجرة هاجَمَ كفَّارُ مكّةَ المدينةَ بجيشٍ من ثلاثةِ آلافِ رجُل، وخَرَج النبيُّ ﷺ من المدينةِ للقائهم في ألفِ رجُل، ولكنْ في الطريق انفَصَل عبدُ الله بنُ أُبَيٍّ عن الجيشِ الإسلاميِّ ومعَه ثلاثُمائةِ رجُلٍ من أمثالِه، وهكذا تَراجَعَ تَعدادُ جيش المسلمينَ بسببِ هذا التصرُّفِ من المنافقين، وقدِ ارتَبَك بعضُ المسلمينَ بسببِ هذا لبعضِ الوقت، حتى أنّ بني حارثَة وبني سَلِمةَ قَرَّروا التَّراجُعَ أيضًا، لكنّ اللهَ تعالى ساعَدَهم وألهَمَهم فنَجَّاهم منَ ارتكابِ هذا الخطأ، وهكذا واصَلَ السَّبعُمائةِ فدائيٍّ الباقونَ تقَدُّمَهم معَ رسُولِ الله ﷺ، واصطَفُّوا استعدادًا للحربِ في وادي جَبَل أُحُد، بحيث يَحمي الجَبلُ ظهورَهم، ويواجهونَ جيشَ الكفَّارِ من أمامِهم.

وكان في الجَبلِ منفَذٌ خلْفَ جيشِ المسلمينَ يخشَى أن يُهاجمَهم الكفَّارُ من خلالِه بشكلٍ مفاجىء، فأرسَلَ النبيُّ ﷺ خمسينَ من الرُّماةِ بقيادةِ سيِّدِنا عبدِ الله بن جُبَير رضيَ اللهُ عنه لتأمينِه، وأكَّد عليهم أن لا يترُكوا أماكنَهم سواءٌ انتَصَر المسلمونَ أم انهزَموا، حتّى لا يهاجمَ الكفَّارُ المسلمينَ من ناحيتِها.

وبدأتِ الحرب، وحارَبَ المسلمونَ ببَسالةٍ منقطِعةِ النَّظير، رَغْمَ أن عدَدَهم يقِلُّ عن رُبع عددِ الكفَّار، وكانتِ النتيجةَ أن ارتَعَد الكفَّارُ وأخَذوا يفِرُّونَ من الميدان، وبَدَأَ المسلمونَ في جَمْع الغنائم التي خَلَّفَها الكفَّار، وعندَئذٍ اعتَقَد الخمسونَ راميًا الذين عيَّنَهم النبيُّ ﷺ عندَ المنفَذِ الجبَليِّ أنّ المسلمينَ قدِ انتصَروا، وأنه لم تَعُدْ من ضرورةٍ لاستمرارِ وقوفِهم هناك، وأنّ عليهم أن يتَقدَّموا هم أيضًا إلى الميدانِ ليجمَعوا مال الغنائم معَ زملائهم، وبالرَّغْم من مَنْع سيِّدِنا عبدِ الله بن جُبَيرٍ رضيَ اللهُ عنه لهم، إلّا أن أربعينَ من هؤلاءِ تَرَكوا أماكنَهم واتَّجهوا إلى الميدان، وهكذا بَدَّل تسرُّعُهم هذا نَصْرَ المسلمينَ إلى هزيمةٍ، حيث قَتَل الكفَّارُ العشَرةَ الباقينَ من الرُّماة، وهاجَموا المسلمينَ

من الخَلْف، بحيث تَزَلْزَلتْ أقدامُ المسلمينَ من جانبٍ، ومن جانبٍ آخَرَ انتشَرت شائعةٌ تقولُ: إنّ النبيَّ ﷺ قدِ استُشهِد، وهو ما أطار صوابَ المسلمين، ولكنْ حين أُعلِن أنّ النبيَّ ﷺ حيٌّ، وأنه يشاركُ بنفسِه في المعركة، عَمَّتِ الفرحةُ بهذه البُشرى، والْتَأَمَ شمْلُهم ثانيةً بعد تفرُّقِهم، وامتَطى الكفّارُ نُوقَهم وتحرَّكوا إلى مكّةَ.

وجاء النبيُّ ﷺ إلى قبور شُهداءِ أُحُدٍ وقال ـ فيما رواهُ عبدُ الله بنُ أبي فَرْوةَ رضي الله عنه ـ : «**اللّهمَّ إنّ عبدَك ونبيَّك يشهَدُ أنّ هؤلاءِ شُهَدُاءَ، وأنّه مَن زارَهم أو سَلَّم عليهم إلى يوم القيامة رَدُّوا عليه**»[1].

﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾

٧٦ـ هنا إشارةٌ إلى بني حارثةَ وبني سَلِمة، اللَّذَيْنِ ثَبَّطَ انسحابُ المنافقينَ من جيشِ المسلمينَ هِمَمَهم، لكنّ اللهَ تعالى عاونَهم ولَطَفَ بهم حتّى تَمالَكوا أنفسَهم وثَبَتوا.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾

٧٧ـ التوكُّلُ على اللهِ تعالى جزءٌ من الإيمان، بمعنى: أن يكونَ هناك يقينٌ راسخٌ بأنّ أمرَ اللهِ نافذٌ وقاطع، وأنّ النَّجاحَ والفَشَلَ في يدِ اللهِ تعالى، ووراءَ كلٍّ منهما حِكمةٌ لله تعالى، وأنّ الاعتمادَ على الأسبابِ الماديَّةِ بشكل كامل ـ باعتبارِ أن هذا هو كلُّ شيءٍ للحصُولِ على الهدف ـ يُعَدُّ عقيدةَ كُفْر، كما أنّ التخَلِّيَ عن الأَخْذِ بالأسبابِ هكذا بدونِ داعٍ ـ بدعوى التوكُّلِ يُعَدُّ ذنبًا أيضًا.

ولهذا، فإنّ مفهومَ التوكُّل هو: الاجتهادُ الكاملُ أولًا في الأَخْذِ بالأسبابِ الماديَّةِ الضَّرورية، ولكنْ على ألّا نعتمدَ في النتائج على الأسباب، وإنّما على اللهِ

(١) دلائل النبوة، البيهقي ٣: ٣٠٧.

تعالى، وبهذا تَظلُّ همَّةُ المسلمينَ مرتفعةً، ويشمَلُهم اللهُ تعالى برحمتِه ونَصْرِه، في حينَ أنّ الكافرَ يعتمِدُ على الأسبابِ فقطْ، ويَشعُرُ بالقلقِ النَّفسيِّ دائمًا بسببِ فُقدانِه للرُّوحانيّات، ونُقدِّمُ هنا ثلاثةَ أمثلةٍ للنبيِّ ﷺ في هذا الخصُوص:

١ـ حين كان النبيُّ ﷺ يَنوِي الخروجَ للحربِ كان يَستعِدُّ لها، ويُشكِّلُ مجلسًا استشاريًّا لهذا الأمر، ويتخيَّرُ الزَّمانَ والمكانَ والطريقَ والمجاهدينَ، وكذلك يتدبَّرُ أمرَ المطايا، وفي ميدانِ الحربِ يتمُّ تشكيلُ الجنودِ في صفوف، وباختصار، فإنه ﷺ كانَ يتدبَّرُ كلَّ الأسبابِ الضروريَّةِ لتحقيق الانتصارِ في الحرب، ثم يَرفَعُ يدَ السُّؤالِ إلى اللهِ تعالى قائلًا: «**اللّهمَّ ... اهزِمْهم وانصُرْنا عليهم**»(١).

٢ـ عندَ الهجرةِ من مكَّةَ المكرَّمةِ إلى المدينةِ المنوَّرة أعَدَّ النبيُّ ﷺ الناقةَ للركوب، وكذا زادُ السَّفَر، كما اختارَ رفيقَ السَّفَرِ أيضًا، ثم اصْطَحبَ سيِّدَنا أبا بكرٍ الصِّدِّيقَ رضيَ اللهُ عنه، في ظلام اللَّيل، ولَجَأَ إلى غارِ ثَوْر، حتّى لا يراهُ كفَّارُ مكّةَ، وهكذا، بعدَ الأَخْذِ بكلِّ الأسبابِ الماديَّةِ الضَّروريَّة، دَعا اللهَ قائلًا: «**اللّهُمَّ أعِنّي على هَوْلِ الدُّنيا وبوائقِ الدَّهرِ ومصائبِ اللّيالي والأيّام، اللّهُمَّ اصْحَبْني في سَفَري ... وإلى النّاس فلا تكِلْني**»(٢).

وهكذا عندَما خَرَجتْ جماعةٌ من كفَّارِ مكَّةَ تبحثُ عن النبيِّ ﷺ، ووَصَلتْ إلى بابِ غارِ ثَوْر، قال سيِّدُنا أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنه للنبيِّ ﷺ: **لو أنّ أحدَهم نَظَر تحتَ قدَمَيْهِ لَأبصَرَنا، فقال: «ما ظَنُّك يا أبا بكرٍ باثنَيْنِ، اللهُ ثالثُهما»**(٣)، أي: فقال ﷺ مبيِّنًا التوكُّلَ على اللهِ بألفاظٍ قاطعة: «**ما ظنُّك يا أبا بكرٍ باثنَيْنِ، اللهُ ثالثُهما؟**»، يعني:

---

(١) البخاري، كتاب الجهاد، باب ١١٢ برقم ٢٩٦٦.

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير، المجلد ٢، ٣: ١٧٨.

(٣) البخاري، فضائل الأصحاب.

إنّنا قد أكمَلْنا الأَخْذَ بكلِّ الأسبابِ الممكِنة وتوكَّلنا على الله، وهو الذي يحفَظُنا، وهكذا خَلَقَ اللهُ أسبابًا رآها الكفَّارُ فعادوا من حيثُ جاءوا، وذلك حينَ قيَّض حمامتَيْنِ ببَيْضِهما، وكذا شِبَاكُ العنكبوتِ على بابِ الغار، وبالتالي أنْقذَ اللهُ تعالى سيِّدَنا محمَّدًا ﷺ وسيِّدَنا أبا بكرٍ الصِّديقَ رضيَ اللهُ تعالى عنه من أيدي الكفَّار.

٣ـ عن أنسِ بن مالكٍ رضي اللهُ عنه، قال: قال رجُلٌ: يا رسولَ الله، أَعْقِلُها وأتوَكَّلُ أو أُطلِقُها وأتَوكَّل؟ قال: «**اعْقِلْها وتوَكَّلْ**»[١].

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾

٧٨ـ في هذه الآياتِ ذِكرٌ لغَزْوةِ بَدْر، وقد كانت هذه الغَزْوةُ هي الحربَ الأُولى للإسلام، وقد وَقَعتْ في السابعَ عشَرَ من شهرِ رمضانَ من العام الثاني للهجرة في مقام بَدْر، وكان تَعدادُ المسلمينَ فيها ثلاثَمائةٍ وثلاثةَ عشَرَ (٣١٣) رجلًا، بينَما كان تَعدادُ الكفَّارِ ألفَ رجُلٍ مسَلَّح، وبالرَّغْم من ذلك قُتِل سبعونَ كافرًا، وأُسِر مِثلُهم، بينَما انهَزَم الباقونَ وفَرُّوا من أرضِ المعركة، وقد رَفَعَ اللهُ تعالى الرُّوحَ المعنَويَّةَ للمسلمينَ في هذه الحربِ وأنزَلَ عليهمُ الملائكةَ لِطَمْأنتهِم.

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾

٧٩ـ عندما كُسِرت سِنُّ النبيِّ ﷺ المباركةُ في غَزْوة أُحُد، وجُرِحت رأسُه الطاهرةُ كذلك، قال ﷺ فيما رواه سيِّدُنا أنسٌ رضيَ اللهُ عنه: «**كيف يُفلِحُ قومٌ شَجُّوا نبيَّهم؟**»[٢].

في ذلك الوقتِ أرادَ النبيُّ ﷺ أن يَدعُوَ على الكفَّار، فنَزَلتْ هذه الآيةُ، بمعنى: أنّ اللهَ تعالى مَنَعَ النبيَّ ﷺ من أن يَدعُوَ بهلاكِ الكفَّار، رَغْمَ أنّ دعاءَ النبيِّ ﷺ بالهلاكِ

(١) جامع الترمذي، أبواب صفة القيامة، باب ٦٠ برقم ٢٥١٧.

(٢) البخاري، كتاب المغازي، باب ٢٢.

على الكفَّارِ أمرٌ صحيحٌ في ذاتِه، مثلَما دعا الأنبياءُ السَّابقونَ على الكفَّارِ في زمانِهم، وكان من نتيجتِه هلاكُ الكفَّارِ فعلًا، لكنْ مَنْعُ اللهِ تعالى من القيام بعملٍ جائزٍ لا يمكنُ أن يَخْلُوَ من حِكمة، أي: أيُّها الرسُولُ الحبيبُ المُكرَّم، إنّ الدُّعاءَ على الكفَّارِ بالهلاكِ انتقامًا للمظالم التي ارتكبوها ضدَّك أمرٌ صحيح، وهو حقٌّ لك، ولكنْ إنْ صَبَرْتَ وعَفَوْتَ فإنّ درجةَ ذلك رفيعةٌ؛ لأنّ الذي سيبقى منهم على كُفرِه وظُلمِه لن يَنْجوَ من عذابِ جهنَّمَ على أيةِ حال، أمّا الذي سيتوبُ منهم فسيكونُ بمثابةِ القوَّةِ للإسلام، مثلَما حَدَث معَ خالدِ بن الوليد وعِكرِمةَ بن أبي جَهْل وعَمْرِو بن العاصِ وغيرِهم حين أسْلَموا.

ويُعلَمُ من الحُكم في هذه الآية، ومن عَمَلِ الأنبياءِ الكرام عليهم السَّلام، أنه ينبغي أن يوضَعَ الواقعُ الرَّاهنُ في الاعتبارِ حينَ نُقرِّرُ الانتقامَ من الظالمينَ والكافرينَ أو العَفْوَ عنهم، فإنْ كان هناك أَمَلٌ في أن تَقِلَّ مظالمُ الكفَّارُ أو أن يَقتربوا من الإسلام فإنّ الأفضَلَ عندَئذٍ هو العَفْوُ عنهم، وإنْ لم يكن هناك أَمَلٌ في أن تَقِلَّ مَظالمُهم فإنّ الانتقامَ منهم أو الدُّعاءَ عليهم بالهلاكِ هو الأفضَل، مثلَما فَعَل الأنبياءُ الكرامُ حينَ دَعَوْا على الكفَّارِ الظالمينَ بالهلاك، واستجابَ اللهُ تعالى دعاءَهم وأهْلَكَ الكفَّار.

ولكنْ لا يعني هذا أنْ نستنتجَ من هذه الآيةِ الكريمةِ أنّ دُعاءَ النبيِّ ﷺ بالخيرِ أو بالضَّررِ لا أثَرَ له، فهذا يُخالفُ الواقعَ ويُنافي التعاليمَ الإسلاميَّةَ، فإذا كان دُعاءُ الأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلام قد تَحقَّق واستجابَ اللهُ لهم، فكيف لا يتحقَّقُ دعاءُ سيِّدِ الأنبياءِ والمرسَلينَ ﷺ؟! لا شكَّ أنّ اللهَ تعالى إذا لم يُرِدْ فإنّ أحدًا لا يستطيعُ أن يفعَلَ شيئًا، ولكنْ لا شكَّ أيضًا في أنه إذا رَفَعَ النبيُّ ﷺ يدَه بالدُّعاءِ فإنّ رحمةَ الله وكَرَمه يستجيبانِ كاملَ الاستجابة، ويَعُمُّ الرَّبيعُ الرَّوضةَ الخَربةَ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٣٠ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ١٣١ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢﴾

۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗ ﴾

٨٠ ـ كان التعامُلُ بالرِّبا شائعًا في العَصْرِ الجاهليِّ، أي: أن يُعطيَ أحدٌ أحدًا قرضًا على فائدة، وعندما لا يستطيعُ المَدِينُ سدادَ القَرْضِ بعدَ عام مثلًا، فإنَّ الدائنَ يزيدُ في الفائدةِ على الدَّيْن، وهكذا تستمرُّ هذه السِّلسلةُ لسنواتٍ طويلة، إلى أن يتضاعفَ مبلَغُ الدَّيْن أضعافًا مضاعَفةً، وهو ما يُعرَفُ بالفائدةِ المُركَّبة، وقد قَضَى الإسلامُ على هذا النِّظام الظالم، إذْ كيف يمكنُ لشخصٍ لا يستطيعُ أن يسدِّدَ أصلَ الدَّيْن أن يدفعَ فوائدَ فوقَه؟ وفي هذه الآية يُنبِّهُ اللهُ تعالى المسلمينَ أنْ تجَنَّبوا الرِّبا وإلّا ستكونُ النَّجاةُ من نارِ جهنَّمَ في غايةِ الصُّعوبة.

ملحوظة: لمزيدٍ من التفصيل فيما يتَعلَّقُ بالرِّبا راجِعْ آيةَ رقم **٢٧٥** من سورة البقرة، والتي قرَّرتْ أنَّ الرِّبا حرامٌ مطلَق، سواءٌ كان قليلًا أم كثيرًا.

﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾

٨١ ـ المرادُ: الإسراعُ في القيام بالأعمالِ الطيِّبةِ التي تَجلُبُ مغفرةَ اللهِ تعالى، وتكونُ سببًا في الإنعام عليكم بالجنَّةِ التي لا تستطيعونَ تصوُّرَ سَعتِها.

والذين يستحِقُّون هذه الجنَّةَ هم: المتَّقُونَ الذين سَترِدُ صفاتُهم في الآياتِ القادمة، يعني: أنّهم يُنفِقُونَ في سبيل اللهِ تعالى لإرضائه، سواءٌ كانوا في يُسْرٍ من العيش أم في ضِيقٍ منه، ويَكظُمونَ غَيْظَهم حينَ يَظلِمُهم النّاسُ، ولا يَدَعُونَ أثَرًا لذلك في أيِّ مكانٍ من قلوبِهم، وإنّما يَعْفُونَ عنهم، وإذا وَقَع منهم الخطأُ ذاتَ مرَّةٍ فإنّهم لا يُصِرُّونَ عليه، وإنَّما يتوبونَ إلى الله بإخلاص، وأصحابُ هذه الصِّفات هم أولئك السُّعداءُ الذين سيُكتَبُ لهم ربيعُ الجِنان. يا إلهي، وفِّقْنا للسَّيرِ على خُطى عبادِك المقرَّبين، آمين.

﴿ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾

٨٢ ـ لِنَتَمعَّنْ في أحوالِ الأُمم السَّابقة، وفي أحداثِ ازدهارِهم وتدهوُرِهم، والأُمَّة التي تُنكِرُ دعوةَ نبيِّها لا بدَّ أن تفشَلَ في نهايةِ الأمر ولا تحقِّقَ شيئًا.

﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾

٨٣ ـ السَّببُ الظَّاهرُ في الضَّررِ الذي لَحِقَ بالمسلمينَ في غزوةِ أُحُد هو تَعجُّلُ المجاهدينَ المُعيَّنِينَ على المنفَذِ الجَبَلي، والذي هَيَّأَ للكفَّارِ فُرصةَ مهاجمةِ المسلمينَ فَجْأةً من الخَلْف، ولكنْ بالرَّغْم من ذلك، كان من الممكنِ أن تتراجعَ همّةُ المسلمينَ وتنخفِضَ معنويَّاتُهم، ولهذا فإنّ اللهَ تعالى قال لهم: أنْ لا تخافوا، فأنتم الغالبونَ لو كنتُم مؤمنينَ صادقينَ حقًّا.

ويشهَدُ التّاريخُ أنّ النَّصرَ والفلاحَ ظلَّ حليفَ المسلمينَ في العهدِ المباركِ للنبيِّ ﷺ وفي عهدِ الصَّحابة الكرام، وحتّى عهدِ بني أُميَّةَ، ولكنْ بعدَ ذلك حينَ تفرّقَ المسلمونَ، ولم يستطيعوا المحافظةَ على مستوى الإيمانِ بشكلٍ صحيحٍ تَراجَعوا تراجُعًا كبيرًا، ولا يزالونَ متراجِعينَ حتّى يومِنا هذا، ولمزيدٍ من الشَّرح والتَّوضيح راجِع الآيةَ رقم ١١٠ من هذه السُّورة.

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾

٨٤ ـ أيامُ الانتصاراتِ والهزائم تتعاقَبُ في حياةِ الأُمم، فأحيانًا ينتصرُ المسلمون، وأحيانًا ينتصرُ الكفَّار، لكنّ أهلَ الإيمانِ حتّى وإن قُتِلوا يفوزونَ بمقام الشَّهادة وخلودِه، بينَما لو قُتِل الكفَّارَ لكان ذلك مَحْوًا لهم من الوجود. سبحان الله، القتلُ واحدٌ والمصيرُ مختلِف.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾

٨٥ ـ يعني: أنّ دخولَ الجنَّةِ ليس بالأمرِ السَّهل أو الهَيِّن، فلا بدَّ من المرورِ بالابتلاءاتِ أولًا، ولا بدَّ من الاختبارِ في ميدانِ الجهاد، ومن يُلبِّي كلَّ مقتَضياتِ الإيمان ويحقِّقُها هو الذي يكونُ مستحِقًّا للجنَّة.

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾

٨٦ ـ لقد تحمَّستْ قلوبُ المسلمينَ لنَيْل الشَّهادةِ حينَ سَمِعوا بدرجاتِ شُهداءِ بَدْر، وهكذا واجَهوا الموتَ بشجاعةٍ بالغةٍ في ميدانِ أُحَد، وحاربَوا بقوَّةٍ حتّى نالوا عَظَمةَ الشَّهادة ومقامَها الرَّفيع.

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ﴾

٨٧ ـ اسمُ النبيِّ ﷺ الذاتيُّ هو «مُحمَّدٌ» و«أحمَدُ»، أمّا باقي أسمائه ﷺ فهي أسماءُ صفات، ويقولُ أهلُ اللُّغة: إنّ الذَّاتَ التي تَجمَعُ صفاتِ الخير كلَّها، والتي يُثْنَى عليها مرَّاتٍ ومرَّاتٍ هي ذاتُ مُحمَّدٍ ﷺ، وكلَّما ازدادَ الزَّمانُ رُقِيًّا وتطوُّرًا اتَّضحَتْ كَمالاتُ المصطفى ﷺ أكثرَ وأكثر، ولهذا تزدادُ سلسلةُ مَدْح النبيِّ ﷺ، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤]، أي: أنّ كلَّ لمحةٍ هي بمثابةِ إضافةِ مزيدٍ من العَظَمةِ إلى عَظَمتِك يا رسولَ الله.

﴿إِلَّا رَسُولٌ﴾

٨٨ ـ حينَما هاجَمَ الكفّارُ المسلمينَ من الخَلْفِ فجْأةً في غزوةِ أُحُد، تَزَلْزَلتْ أقدامُ المسلمين، وفي نفسِ الوقتِ انتشَرت شائعةٌ تقول: إنّ رسولَ الله ﷺ قد استُشهِد، وبسببِ هذا الخبَرِ اهتزَّت ثقةُ بعضِ المسلمينَ ضِعافِ القلوبِ وتَراجَعتْ معنويَّاتُهم، وأخَذوا يَفِرُّونَ من ميدانِ الجهاد.

وفي هذه الآيةِ تنبيهٌ لهم أنّ سيِّدَنا محمَّدًا ﷺ ليس إلهًا، بحيثُ لا يَجري عليه الموتُ، إنَّما له وقتٌ محدَّدٌ في هذه الدُّنيا مَثَلُه مَثَلُ الأنبياءِ السَّابقينَ عليهم السَّلام، فهل تَترُكونَ دينَكم إذا انتقَلَ الرسولُ الكريمُ إلى الرَّفيقِ الأعلى؟ تَذكَّروا أنّ الذي يُعرِضُ عن الإسلام ويتَخلَّى عنه إنَّما يَضُرُّ نفسَه، ولن يَضُرَّ دِينَ اللهِ شيئًا.

في هذه اللَّحظاتِ الحَرِجة، في غَزْوةِ أُحُدٍ، كان بعضُ الفدائيِّينَ أيضًا ممَّن ثبتَتْ أقدامُهم، فهذا هو سيِّدنا أنسُ بنُ النَّضْر يُنادي بأعلى صوته: «هيَّا لِنُقدِّمْ رُءوسَنا فداءً للهدفِ الذي قَدَّم سيِّدُنا محمَّدٌ ﷺ رُوحَه فداءً له، فما الفائدةُ في البقاء على قَيْد الحياةِ بعدَ النبيِّ ﷺ؟ أيُّها النّاس، ماذا لو أنّ النبيَّ ﷺ قد استُشهِد، إنّ اللهَ حيٌّ لا يموت. قال أنسُ بنُ النَّضْرِ هذا وحَمَل على الكفَّار يُقاتلُهم ببسالةٍ حتّى شربَ كأسَ الشَّهادةِ رضيَ اللهُ عنه»[1].

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾

٨٩ ـ ليس من الضَّروريِّ أنّ كلَّ مَن يحاربُ ببسالةٍ بينَ تدافُع السُّيوفِ نحوَه يُقتَلُ، كما أنه ليس من الضروريِّ أنَّ كلَّ من فَرَّ من ميدانِ الجهادِ سيبقَى حيًّا، فللموتِ موعدٌ محدَّدٌ لا يمكنُ أن يأتيَ قبلَه أو بعدَه، فإذا كان وقتُ الموتِ حتميًّا لايُقدَّمُ ولا يُؤخَّر، فكم يكونُ الشَّخصُ الذي لا يشاركُ في الجهادِ خوفًا من الموتِ قليلَ العقل!

﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾

٩٠ـ الأعمالُ بالنِّيّات، والشَّخصُ الذي يقومُ بعمَل الخَيْر بنيَّةِ الحصُول على الفوائدِ الدُّنيويَّةِ فقطْ، ويشاركُ في الجهادِ بنيَّةِ الفَوْز بالغنيمة، فإنّ اللهَ تعالى قد يُحقِّقُ

(١) تفسير ضياء القرآن.

له بعضَ المنافع الدُّنيَويَّة، لكنَّه سيبقَى محرومًا من ثوابِ الآخرة، أمّا الشَّخصُ الذي يُقبلُ على فعلِ الخيرِ بنيَّةِ الحصُولِ على الثوابِ في الآخِرة، ويشاركُ في الجهادِ بنيَّةِ الحصولِ على الشَّهادة، فسوفَ ينالُ الثوابَ في الآخِرة تأكيدًا، ولكنْ ـ بالإضافة إلى ذلك ـ سيَنظُرُ الجميعُ إليه نظرةَ احترام وتقدير في الدُّنيا؛ لأنه عبدٌ شاكرٌ لله تعالى.

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ﴾

٩١ـ المسلمونَ الذين اضْطَربوا في غزوةِ أُحُد وخافوا وفَرُّوا من الميدان، يُنبِّهُهم اللهُ تعالى هنا إلى أنّ أصحابَ الأنبياءِ السَّابقينَ عليهم السَّلامُ، أيضًا جاهَدوا الكفَّارَ في زمانِهم، وواجَهوا مصائبَ كبيرةً جرَّاءَ ذلك، لكنَّهم معَ ذلك لم يُظهِروا ضعفًا، وإنّما تقَدَّموا في جهادِهم بشجاعةٍ وبَسالةٍ وهم يَدعُونَ اللهَ تعالى، وظَلُّوا صابرينَ شاكرينَ على كلِّ حال، وقد أثابَهم اللهُ تعالى على ذلك بالفلاح في الدُّنيا والآخِرة، بينَما أنتم ـ خيرَ أُمَّةٍ ـ تضْطَرِبونَ وتخافون! هذا الضَّعفُ لا يليقُ بالأُمَّةِ المسلمة.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِيٓ

أُخۡرَىٰكُمۡ فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿١٥٥﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾

٩٢- بعدَ الهزيمةِ الوَقْتيَّةِ في غزوةِ أُحُد كان بعضُ الكفَّارِ يأتونَ إلى المسلمينَ يُظهِرونَ لهم قَدْرًا من المواساة، وفي نفسِ الوقت يُحاولونَ زَرْعَ الشُّكوكِ والشُّبُهاتِ حولَ الإسلام بداخِلِهم.

وفي هذه الآية مَنَعَ اللهُ تعالى المسلمينَ من إطاعةِ الكفَّار قائلًا: إنّكم لو أطعتُموهم فسوف يعودونَ بكم مرَّةً أخرى إلى الكُفْر والعياذُ بالله، وتَرْكُ الإيمانِ واتِّباعُ الكُفرِ خسارةٌ عظيمة، ولذا عليكم أن تتذكَّروا جيدًا أنّ الكُفَّارَ لن يساعدوكم، وأنّ أفضَلَ مُعِينٍ هو اللهُ سبحانَه وتعالى.

﴿سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ﴾

٩٣- حين هاجَمَ جيشُ الكفَّارِ جيشَ المسلمينَ من الخَلْف في غَزْوةِ أُحُد، خاف المسلمونَ واضْطَربوا وفَرُّوا من ميدانِ المعركة، ولو أنّ الكفَّارَ - في هذه

الحالة ـ تَعقَّبوا المسلمينَ، لَكانوا ـ في ظاهرِ هذه الحالة ـ استَوْلَوْا على المدينةِ المنوَّرة، وقَضَوْا على المسلمينَ إلى الأبد، ولكنّ اللهَ تعالى أخاف الكفَّارَ بسببِ شركِهم، وأدخَلَ الرُّعَب إلى قلوبِهم، بحيثُ تَركوا وراءَهُم انتصارًا غيرَ مكتمِل، وعادوا إلى مكَّةَ، ولأنّ الكفَّار يعتمِدونَ بشكلٍ كامل على الأسبابِ الماديَّةِ الظاهرة، ومن الممكنِ أن يُرعِبَهم أمرٌ بَسِيطٌ أو مجرَّدُ شكٍّ عابر، لأنّهم لا يؤْمنونَ باللهِ تعالى، ولهذا لا تجدُ قلوبُهم ما يرفَعُ من همَّتِهم، ولأنّهم لا يؤمنونَ بالآخِرة فإنّ الشَّهادةَ في سبيلِ اللهِ لا تُمثِّلُ لهم أمرًا جاذبًا، لهذا يفتقِدونَ إلى الجُرْأةِ ليتقدَّموا في ميدانِ المعركة، وهذا فيما يخُصُّ أمرَ الدنيا، أمّا في الآخِرة فمصيرُهم أكثرُ سوءًا من ذلك.

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ﴾

٩٤ـ وَعَدَ اللهُ تعالى أهلَ الإيمانِ الكامل بالفَتْح والنَّصر، وقد وَفَّى بهذا الوعْدِ في معركةِ أُحُدٍ أيضًا، وهو ما أدَّى إلى انتصارِ المسلمينَ في بدايةِ الأمر، ولكنّ خريطةَ المعركةِ تبدَّلتْ بعدَ ذلك بسببِ أخطاءِ بعضِ المسلمين، ولأنّهم فَشِلوا في العَمَل بأمرِ رسُولِ الله ﷺ، وبالرَّغم من ذلك أكرَمَهم اللهُ تعالى وألقَى في قلوبِ الكفَّارِ الخوفَ من المسلمينَ بحيث تَرَكَ الكفَّارُ أنفُسُهم الميدانَ وفرّوا هارِبين.

﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾

٩٥ـ المرادُ بطالبِ الدُّنيا: أولئك الرُّماةُ الذين تَركوا أماكنَ تَمَرْكُزِهم في أُحُدٍ وهَرْوَلوا لجَمْع الغنائم، والمرادُ بطالب الآخِرة: أولئك الرُّماةُ الذين ثَبَتوا في أماكِنهم ولم يترُكوها إلى أنِ استُشهِدوا.

﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ﴾

٩٦ـ هنا بُشرى تزُفُّها الآيةُ إلى أولئك الرُّماةِ المكلَّفينَ بالوقوفِ على المَنفَذِ

الجَبَليِّ، وارتكَبوا خطأَ التخَلِّي عن أماكنِهم، وكذلك أولئك الرُّماةُ الذين ارتَبَكوا من هجوم الكفَّارِ عليهم فجْأةً، وتَرَكوا ميدانَ المعركةِ خوفًا، بأنّ اللهَ تعالى ـ بفَضْلِه وكَرَمِه ـ قد عَفَا عن خطأِهم وضَعْفِهم، لأنّ نيَّتَهم في خطأِهم وارتباكِهم وخَوْفِهم هذا لم تكن سيِّئةً، وإنّما كان مجرَّدَ خطأٍ في الاجتهادِ وضَعْفٍ بشَريّ.

وعقيدةُ أهل السُّنةِ والجماعةِ هي أنّ الصحابةَ الكرامَ جميعًا رضيَ اللهُ عنهم هم نجومٌ عدولٌ للهداية، وإجلالُهم واجبٌ، ومَن عَفَا اللهُ عنه لا يحِقُّ لأحدٍ ـ بحالٍ من الأحوال ـ أن يَطعَنَ فيه، إذْ إنَّ اختلافَاتِهم وتنازُعَهم فيما بينَهم كان مبنيًّا كلُّه على أمور اجتهاديَّة، كما أنّ اللهَ تعالى قال: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ [هود: ١١٤].

هذا، ولا يمكنُ أن تَعدِلَ حسَناتُ أحدٍ حسَناتِ الصَّحابةِ الكرام رضيَ اللهُ عنهم، ولذا فإنّه لا يمكنُ أن يكونَ أحدٌ مستحِقًّا لعَفْوِ الله ومَغْفرته بالقَدْرِ الذي يستحِقُّه الصَّحابةُ الكرامُ رضيَ اللهُ عنهم، وعلينا، بَدَلًا من أن نَنتقدَهم، أن نَطلُبَ من اللهِ تعالى العَفْوَ عن أخطائنا نحن، فيا الله، أكرِمْنا واغفِرْ لنا ذنوبَنا بحقِّ جاهِ مجاهدي الإسلام يا ربَّ العالَمين، آمين.

﴿ ۞ إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ ﴾

٩٧ـ حين أَخَذ المسلمونَ يفِرُّون من المَيْدانِ في الساعاتِ الحَرِجةِ من غزوةِ أُحدٍ، كان رسولُ الله ﷺ ثابتًا في المَيْدان مَع اثْني عشَرَ صحابيًّا يَدعو النّاسَ إلى العودةِ إلى الجهاد.

﴿ فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡ ﴾

٩٨ـ اختَلَف الرُّماةُ المكلَّفونَ بالوقوفِ عندَ المنفَذِ الجبَليِّ في حُكم رسُولِ الله ﷺ، ونَزَلَ أكثرُهم إلى مَيْدان أُحُدٍ لجَمْع مالِ الغنائم، كما أنّ أكثرَ الصَّحابة فَرُّوا من المَيْدان

عندَما حَمَل عليهمُ الكفَّارُ من الخَلْف فَجْأةً، وهو الذي آلَمَ رسولَ الله ﷺ وأحزَنَه كثيرًا، ولهذا فإنّ اللهَ تعالى ـ في مقابِل هذا ـ جَعَلَكم تُواجِهونَ الألمَ والحُزنَ أيضًا، أي: خسارةَ معركةٍ كنتُم منتصِرينَ فيها، واستُشهِدَ كثيرٌ من المسلمين، وكلُّ هذا كان لكي تَشعُروا بخطِأكم بدلًا من الاغتمام، ولكي تَثبُتوا في المستقبَل على أمرِ رسولِ الله ﷺ ولا تُخالفوهُ أبدًا تحتَ أيِّ ظرفٍ من الظروف.

ويمكنُ أن يكونَ المرادُ هنا أيضًا: أننا أعطَيْناكم في مَيْدانِ أُحُدٍ غمًّا على غَمٍّ حتى تتولَّدَ بداخلِكم المقدرةُ على تحمُّل المصائبِ وتَقْوَى همَّتُكم، فلا ترتبِكوا إذا ما واجهتُم ـ في المستقبل ـ واقعًا كهذا، وإنّما تكونونَ أكثرَ صبرًا واستقامةً.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾

٩٩ـ حين حَدَثت الفَوْضَى في غزوةِ أُحُد، وانتشَر الخَوْفُ والهَرَجُ والمَرَجُ في كلِّ مكان، عندَئذٍ أنزَلَ اللهُ تعالى سَكِينتَه وأمْنَه على عبادِه المؤمنينَ المخلِصين، وهو ما أبعَدَ الخوفَ من العدوِّ عن قلوبِهم تمامًا، وجَعَل حالةً من النُّعاسِ تَغْشاهم أدَّت إلى تخَلُّصِهم من الحُزنِ والإرهاق، ثم دبَّ الحماسُ فيهم من جديد، فأَقْبَلوا ثانيةً على الجهادِ منهمِكينَ فيه.

يقولُ سيِّدُنا أبو طلحةَ رضيَ اللهُ عنه فيما رَواهُ سيِّدُنا أنسٌ رضي الله عنه: «**غَشِيَنا النُّعاسُ ونحن في مصافِّنا يومَ أُحُدٍ،قال: فجَعَلَ سَيْفي يسقُطُ من يدي وآخُذُه، ويَسقُطُ وآخُذُه**»[1]، وأنْ يطْرَأَ النَّومُ على الإنسانِ في مِثل هذه الحالة هو ـ في الحقيقة ـ بمثابةِ النِّعمةِ الخاصَّة من اللهِ تعالى.

---

(١) البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب ١١ برقم ٤٥٦٢.

﴿وَطَآئِفَةٌ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡ﴾

١٠٠ـ عاد ثلاثُمائةِ منافقٍ من الطَّريق منفصِلينَ عن جيشِ رسولِ الله ﷺ، بينَما بقيَ بعضُ المنافقينَ معَه طَمَعًا في أموالِ الغنائم وخَوْفًا من أهل الإيمان، وهؤلاءِ حُرِموا من أنْ يَغْشَاهم النُّعاسُ ومن نعمةِ السَّكِينة والطُّمَأْنينة؛ لأَنَّهم لم يكونوا مخلِصينَ معَ الإسلام، وإنّما كان كلُّ الذي يَهُمُّهم هو سَلامتُهم الشَّخصيَّةُ ليس إلّا، ولكنْ حينَ تبَدَّلتْ خريطةُ المعركة أَخَذوا يتكلَّمونَ عن اللهِ تعالى بكلامِ زمنِ الجاهليَّة، ورَغْمَ أنهم أَخْفَوْا كثيرًا من أمورِ النِّفاقِ في قلوبِهم، لكنَّهم قالوا: «إنّ الحربَ بدَأَتْ على غيرِ رغبتِنا ورضانا، ولو كان أُخِذَ برأينا واستُمِعَ إلينا وبقيَ جيشُ المسلمينَ في المدينةِ لما أصابَتْه هذه الخسارةُ الفادحة، ولَما قُتِل كلُّ أولئك الذين قُتِلوا»، وهنا أوضَحَ القرآنُ الكريمُ بأنّ المالكَ الحقيقيَّ لكلِّ الاختياراتِ والسُّلطاتِ هو اللهُ تعالى، ولو كنتُم بَقِيتُم في بيوتِكم لَوصَلَ الذين قُدِّر الموتُ عليهم في أُحُدٍ إلى هذا المكانِ بطريقةٍ أو بأخرى؛ لأنّ وقتَ الموتِ ومكانَه مقرَّرٌ ومحدَّدٌ، وحينَ يحينُ أجَلُ أحَدٍ فإنّ اللهَ تعالى يسبِّبُ الأسبابَ بحيث يصلُ مَن كُتِب عليه الموتُ إلى مكانِ موتِه.

﴿وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡ﴾

١٠١ـ الحديثُ هنا موجَّهٌ إلى أهل الإيمانِ بأنَّكم ابتُلِيتُم بمصائبِ غزوةِ أُحُدٍ حتّى يُظهِرَ اللهُ تعالى إيمانَكم، ويكشفَ نِفاقَ الكفَّار، ويَجْزِيَكم على هذا بتطهيرِ قلوبِكم من كلِّ الوساوسِ التي يمكنُ أن تكونَ سببًا في ضَعْفِكم أو خَوْفِكم واضْطِرابِكم.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ﴾

١٠٢ـ أهْل الإيمانِ الذين نَجح الشَّيطانُ في أن تَزِلَّ أقدامُهم فترَكوا المَيْدانَ وفرُّوا، عَفَا اللهُ تعالى عن خطأِهم هذا. (لمزيدٍ من التفصيل راجِع الحاشيةَ رقم ٩٦ من هذه السُّورة).

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ ۖ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ

أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٧١﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾

١٠٣ـ عندما كان أحدُ المسلمينَ يموتُ خلالَ سَفَرِه للجهاد، أو يُستشهَدُ في مَيْدان الحرب، فإنّ المنافقينَ كانوا يذهَبونَ إلى أهلِه وأقاربِه، ويُظهِرونَ لهم مواساتَهم قائلينَ: لو لم يذهَبْ أخونا إلى هذه المهمَّة، وبقِيَ هنا في البيتِ مِثلَنا لَما قُتل، ولَبقيَ على قَيْدِ الحياة حتّى يومِنا هذا.

هذه ـ في الحقيقة ـ عقيدةُ كُفرٍ لا علاقةَ لها بالإسلام من قريبٍ أو بعيد؛ لأنّ أمرَ الموتِ والحياةِ في يدِ اللهِ تعالى لا غيرُ، ولو شاء لَأبقاهُ حيًّا في السَّفَرِ وفي الحَرْبِ أيضًا، ولو شاء لَأماتَه في البيتِ وفي مَأْمَنِه كذلك، وبفَضْل هذا اليقينِ الرَّاسخ يَتحلَّى المسلمونَ بشجاعةٍ فائقة، ويَرُدُّونَ على المنافقينَ اقتراحَهم الكُفْريَّ، ولهذا قضَى المنافقونَ حياتَهم كلَّها في قَلَقٍ بسببِ حَسْرتِهم هذه من أنّ المسلمينَ لا يستمِعونَ إليهم ولا يطيعونَهم، وأكبرُ حسرةٍ ستُصيبُهم يومَ القيامة، إذْ سيتمنَّوْنَ لو أنَّهم لم يُنافقوا في الإسلام حالَ الحياةِ الدُّنيا حتّى تُكتَبَ لهم النَّجاةُ من جهنَّمَ في الآخِرة، ولكنْ هيهاتِ.

﴿وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمۡ أَوۡ قُتِلۡتُمۡ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ﴾

١٠٤ـ وقتُ الموتِ ومكانُه محدَّد، ولا يمكنُ أن يتقدَّمَ أو يتأخَّر، ونحن جميعًا سنترُكُ الحياةَ الدُّنيا ذاتَ يوم ونَمثُلُ في حضرةِ الله تعالى، فالعقلُ والمنطِقُ يقتَضيانِ

أن نُوقفَ حياتَنا على اسم اللهِ تعالى ورسالتِه، وعندَئذٍ سواءٌ أتانا الموتُ في الحربِ أم في البيت، فإنّنا سنكونُ من المستحِقِّينَ لرحمةِ الله تعالى، وهذا أفضَلُ بمراحلَ من مالِ الدنيا ومتاعِها؛ لأنّ مالَ الدُّنيا فانٍ، وسيبقَى في هذه الدُّنيا فقطْ، بينَما رحمةُ الله تعالى باقيةٌ، وهي في كلِّ مكان.

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾

١٠٥ـ في غزوةِ أحُدٍ خالَفَ الرُّماةُ أمرَ النبيِّ ﷺ أولًا، وتَرَكوا أماكنَهم على المنفَذِ الجَبَليِّ ونَزَلوا لجَمْع الغنائم، وهو ما بَدَّلَ خريطةَ المعركة، ثم إنَّهم ارتبَكوا حينَ هاجَمَهم الكفَّارُ من الخَلْف، وفرُّوا من المَيْدانِ تاركينَ النبيَّ ﷺ، وهو ما نَتَج عنه خسارةٌ كبيرةٌ لا تُعوَّض، ولكنَّهم عادوا بعدَ ذلك إلى رسولِ الله ﷺ.

ومن ناحيةِ قواعدِ وقوانينِ الحرب فإنّ هذَيْنِ الخطَأَيْنِ يستحِقّانِ العقابَ والمؤاخَذةَ، ولكنْ ربَّما كان هذا هو المثالَ الأولَ والوحيدَ في تاريخ الحروب، حيثُ لم يؤاخِذْهم النبيُّ ﷺ، بل ـ على العكسِ من ذلك ـ عامَلَهم بكلِّ شَفَقةٍ ولِين، وهذا من فَضْل الله تعالى وكَرمِه الخاصِّ على سيِّدِنا النبيِّ ﷺ بأنْ خَلَقَه رقيقَ القلب، وهو من جانبٍ آخَرَ إحسانٌ خاصٌّ منَ اللهِ تعالى على الأُمَّةِ المسلِمة أيضًا بأنْ أرسَلَ إليها نبيًّا رحيمًا هو النبيُّ ﷺ، ولو كان النبيُّ ﷺ حادَّ المِزاج لَما اقترَبوا منه. إنّها أخلاقُ النبيِّ ﷺ العظيمةُ وحَقَّانيَّةُ الإسلام التي جَعَلتْ مائةً وأربعةً وعشرينَ ألفًا (١٢٤٠٠٠) من النّاس يَدخُلونَ في الإسلام حتّى انتقالِه ﷺ إلى الرَّفيقِ الأعلى.

﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾

١٠٦ـ تأمَّلْ قليلًا كم أنّ اللهَ سبحانَه وتعالى رحيمٌ بالصَّحابةِ الكرام! فقد عَفَا اللهُ تعالى عن أخطائهم أولًا، ثم هو هنا يَطلُبُ لهم العَفْوَ عنهم من النبيِّ ﷺ أنْ أيُّها الحبيبُ، مثلَما تَسلُكُ سلوكًا حَسنًا مع الصَّحابةِ الكرام رضيَ اللهُ عنهم،

فاعْفُ عن أخطائهم كذلك، واشفَعْ لهم في حَضْرتي لكي أغفِرَ لهم، ورَغْمَ أنّ اللهَ تعالى قد أعلَن العَفْوَ عنهم بدايةً، لكنّ شفاعةَ النبيِّ ﷺ لهم طَمْأنةٌ لقلوبِهم، وستَشفي قلوبَهم من جِراح الخطأِ والزَّلَل.

ويُعلَمُ من هذه الآيةِ أنّ دعاءَ النبيِّ ﷺ بمثابة وسيلةٍ أمَرَ اللهُ بها للعَفْوِ عن المخطئين، ولذا فإنّ اعتبارَ النبيِّ ﷺ وسيلةً، والالتجاءَ إلى حَضْرتِه طلبًا لشفاعتِه، لا يُعَدُّ من الشِّركِ أبدًا، وإنّما هو عَيْنُ الإسلام ومن تعاليم القرآنِ المجيد.

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾

١٠٧ـ كلُّ ما يقولُه النبيُّ ﷺ إنّما هو وَحْيٌ من اللهِ تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤]، وبالرَّغْم من ذلك أمَرَ اللهُ تعالى النبيَّ ﷺ أن يَستشيرَ الصَّحابةَ الكرامَ رضوانُ الله عليهم، حتّى يَعرِفَ المسلمونَ أهميَّةَ الشُّورى، كما أنّ استشارتَه ﷺ لهم ستكونُ باعثًا على طَمْأنةِ قلوبِهم وإسعادِها.
يقولُ العَلّامةُ القُرطبيُّ فيما يتَعلَّقُ بهذهِ الآية: «**ما أمَرَ اللهُ تعالى نبيَّه بالمشاورةِ لحاجةٍ منه إلى رأيِهم، وإنّما أراد أن يُعلِّمَهم ما في المُشاورةِ من الفَضْل، ولِتَقتدِيَ به أُمّتُه من بعدِه ... قال ابنُ عَطِيَّة: والشُّورى من قواعدِ الشَّريعةِ وعزائم الأحكام؛ مَن لا يَستشيرُ أهلَ العِلم والدِّين فعَزْلُه واجبٌ، هذا ما لا خلافَ فيه**»[١].

وقال النبيُّ ﷺ، فيما رَواهُ سيِّدُنا عليٌّ كرَّم اللهُ وجهَه: «**سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: المُستشارَ مؤتمَنٌ، فإذا استُشيرَ فلْيُشِرْ بما هو صانعٌ لنفسِه**»[٢]، وهذه الآيةُ تُعَدُّ دليلًا على جَوازِ الاجتهادِ وحُجِّيَّةِ القياس[٣].

---

(١) تفسير القرطبي.

(٢) تفسير مظهري، سورة الشورى (٤٢): ٣٨.

(٣) «وفيه دلالة جواز الاجتهاد وبيان أنّ القياس حجّةٌ» ـ (تفسير النسفي: مدارك التنزيل وحقائق التأويل).

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾

١٠٨ـ المَشُورةُ تُطلَقُ على معرفةِ رأيِ النّاس في أمرٍ هامٍّ، وطالبُ المَشُورةِ يُمعِـنُ النَّظَر في الآراءِ المختلفة، ثم يَنوي عـازمًا الأَخْذَ بالرأيِ الذي يتَّفقُ معَ القرآنِ الكريم والحديثِ الشَّريف، ويكونُ أكثرَ مناسبةً للظروفِ والواقع، ويتوكَّلُ على الله ويأخُذُ خُطوةً إلى الأمام، بمعنى: أن التشاوُرَ البَيْنيَّ يتِمُّ أولًا، ويتِمُّ دراسةُ الظُّروفِ والواقع بشكل جيِّد، ثُم يكونُ التوكُّلُ على الله؛ لأنّ أمرَ النَّصرِ والفَوْز والفلاح بيدِ الله تعالى فقَطْ، ولهذا على أهل الإيمانِ بعدَ التشاوُرِ أن لا يعتمِدوا على الأسبابِ من أَجْل النَّجاح، وإنَّما عليهم التوكُّلُ على اللهِ تعالى. (لمزيدٍ من التفصيل عن التوكُّل على الله راجِع الحاشيةَ رقم ٧٧ من هذه السُّورة).

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾

١٠٩ـ حين رأى الرُّماةُ المكلَّفونَ بتأمينِ المنفَذِ الجَبَليِّ في غَزْوةِ أُحُدٍ أنّ العدوَّ يفِرُّ منهزِمًا، وأنّ المسلمينَ يجمَعونَ الغنائمَ، خَطَر ببالِهم أنّ من الممكن أن يقولَ الرسولُ ﷺ: إنّ مَن أَخَذ شيئًا من الغنائم يكونُ له، وإذا حَدَث هذا فمنَ المؤكَّدِ أنَّنا سنكونُ من المحرومين. وأمامَ هذا التفكير تَرَك أكثريَّةُ هؤلاءِ حراسةَ المنفَذِ الجَبَلي، ونَزَلوا إلى الوادي لجَمْع الغنائم، ممَّا أدَّى ـ في النِّهاية ـ إلى تغييرِ خريطةِ المعركة، وأصابتِ المسلمينَ خسارةٌ من الصَّعبِ تعويضُها. وحينَ سأَلَهم النبيُّ ﷺ بعدَ انتهاءِ الحربِ عن سببِ هذه المخالفة وعِصْيانِ الأوامرِ، لم يستطيعوا تقديمَ سببٍ معقول، وهنا أخبَرَهم النبيُّ ﷺ بما يَدُورُ في خَلَدِهم قائلًا: «هل تصوَّرتُم أنَّنا يمكنُ أن نَخُونَ، ولا نُعطِيَكم شيئًا؟» وحينَئذٍ نَزَلتْ هذه الآيةُ بأنّ من غيرِ الممكنِ أن يَخُونَ نبيٌّ، بل لا يجوزُ تصوُّرُ أنه يمكنُ أن يَخُونَ نبيٌّ أصلًا؛ لأنّ كلَّ نبيٍّ هو ـ في الحقيقة ـ أمينٌ على وَحْي اللهِ تعالى، فكيف يمكنُ أن يَخُونَ في الأشياءِ التَّافهةِ هذه؟ لذا، لا يمكنُ أن تجتمعَ النُّبوَّةُ والخيانةُ معًا، والنبيُّ معصومٌ،

في حينَ أنّ الخيانةَ ذنبٌ عظيم، ومَن يَخُنْ يأْتِ يومَ القيامة ومعَه الشيءُ الذي خانَ فيه، وسيُفتضَحُ أمرُه أمامَ الجميع في مَيْدانِ الحشر.

عن زَيْدِ بن خالدِ الجُهَنيِّ، قال: توفِّي رجلٌ من أشْجَعَ بخَيْبَر، فقال النّبيُّ ﷺ: «صَلُّوا على صاحبِكم»، فأنكرَ النّاسُ ذلك - وتغيَّرتْ (له) وجوهُهم، فلمّا رأى ذلك قال: «إنّ صاحَبكم غَلَّ في سبيل الله»، قال زيدٌ: فالتَمَسُوا متاعَه فإذا خَرَزاتٌ من خَرَزِ يهودَ، ما تساوي درهمَيْنِ[1].

ويُعلَمُ من هذا أنّ الخيانَة البسيطَة في مالِ الغنيمة تُمثِّلُ جُرمًا كبيرًا، بحيثُ أنّ النبيَّ ﷺ - وهو الرَّحيمُ - لم يُصَلِّ على مُرتكبِها صلاةَ الجَنازة، ويَثبُتُ من هذا أيضًا أنه حتّى هذه الأمورُ البسيطةُ للغاية لم تكنْ خافيةً على عَيْنِ النُّبوَّة.

﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾

١١٠- منَ النّاسِ في الدُّنيا قسمانِ؛ قسمٌ يظَلُّ دائمًا في طلبِ رضا الله تعالى، فيستحِقُّ بذلك الجنَّةَ، والقسمُ الآخَرُ هو: الذي يستحِقُّ غضَبَ اللهِ تعالى عليه ومصيرُه جهنَّمُ بسببِ عِصيانِه. هذان القسمانِ منَ النَّاسِ لا فَرْقَ بينَهما من ناحيةِ الشَّكل الظَّاهرِ لهما، ولكنّ الفَرْقَ بينَهما في المكانةِ والدَّرجاتِ، كالفَرْقِ بيْنَ السَّماءِ والأرض؛ لأنّ أهلَ الجنَّة سيَسعَدونَ بالنِّعم، بينَما أهلُ جهنَّمَ سيحترقونَ بنارِ جهنَّم.

﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ ﴾

١١١- من المؤكَّدِ أنّ فَضْلَ الله تعالى وإحسانَه على أهل الإيمان عظيمٌ بأنْ بَعَثَ فيهم رسولًا عظيمَ الشَّأن هو سيِّدُنا محمَّدٌ ﷺ، الذي تَلا عليهم آياتِ القرآن الكريم، وطَهَّر قلوبَهم، وعلَّمَهم الكتابَ والحِكمة، وهو ما أدَّى إلى خروجِهم

(١) ابن ماجه، أبواب الجهاد، باب ٣٤ برقم ٢٨٤٨.

من ظُلُماتِ الضَّلال إلى نُورِ الهداية، وابتعادِهم عن حافَةِ جهنَّم، واستقامتِهم على طريقِ الجنَّة.

ولمزيدٍ من الشَّرح والتَّوضيح حولَ هذه الآية راجِع الآيةَ رقم ١٢٩، والحاشيةَ رقم ٨٢ من سُورةِ البقرة. وقد ذَكَر القرآنُ الكريمُ هذه الألفاظَ في أربعةِ مواضعَ منه، هي: الآيتان رقم ١٢٩، و١٥١ من سورة البقرة، وهذه الآيةُ من سورة آلِ عِمران، والآيةُ رقم ٢ من سورة الجمُعة.

﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

١١٢ـ أيُّ ضَلالٍ كانتِ العربُ تعيشُ فيه قبْلَ بَعْثةِ النبيِّ ﷺ، وأيُّ ثورةٍ حدَثَتْ بَبعْثتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلام؟ تأمَّلْ ـ كتعارُفٍ مختصَر ـ ما قاله سيِّدُنا جعفرُ بنُ أبي طالبٍ في هذا الخصُوص أمامَ ملِكِ الحبَشةِ في وجود سُفَراءِ مكّةَ أيضًا: «**أيّها الملك! كنّا قومًا أهلَ جاهليَّةٍ نعبُدُ الأصنامَ ونأكُلُ المَيْتةَ ونأتي الفواحشَ ونقطَعُ الأرحامَ ونسيءُ الجِوارَ، يأكُلُ القويُّ منّا الضَّعيفُ، فكنَّا على ذلك حتّى بَعَثَ اللهُ إليْنا رسولًا منَّا نَعرِفُ نَسَبَه وصِدقَه وأمانتَه وعفَافَه، فدَعانا إلى الله لنُوحِّدَه ونعبُدَه ونَخْلَعَ ما كنّا نحن نَعبُدُ وآباؤنا من دونِه من الحجارةِ والأوثان، وأمَرَنا بصِدقِ الحديثِ وأداءِ الأمانة وصِلَةِ الرَّحِم وحُسنِ الجِوار، والكفِّ عن المَحارم والدماء، ونَهانا عن الفواحِش وقَوْلِ الزُّور وأكْلِ مالِ اليتيم وقَذْفِ المُحصَنة، وأمَرَنا أن نعُبَد الله وحدَه لا نُشرِكُ به شيئًا، وأمَرَنا بالصَّلاةِ والزَّكاةِ والصِّيام**»[1].

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾

١١٣ـ قَتَل المسلمونَ سبعينَ كافرًا في غَزْوةِ بدر، وأسَروا منهم سبعينَ أيضًا،

---

(١) مسند أحمد، ١: ٢٠٢.

وبعدَ ذلك حينَ استُشهِد سبعونَ من المسلمينَ في غزوةِ أُحُدٍ أصابتِ الحَيْرةُ بعضًا من المسلمينَ فقالوا: لماذا تنزِلُ هذه المصيبةُ علينا نحن معَ أَنَّنا مسلمون؟ نحن على الحقِّ، ورسُولُ الله ﷺ موجودٌ بينَنا، ومعَ ذلك هُزِمْنا من أولئك الذين يعبُدونَ الأصنام. وحينَئذٍ نزَلَتْ هذه الآيةُ ردًّا على هذا الكلام بأنّ الذين استُشهِدوا منكم سبعونَ، بينَما قُتِل من الكفَّارِ في بَدْرٍ سبعونَ، وأُسِرَ منهم سبعونَ فوقَ ذلك، أيْ أنّ خسارةَ الكفَّارِ مضاعَفةٌ، ولكنّ وراءَ هذه الهزيمةِ العارِضة لكم ضَعْفَكم أنتم أيضًا، فقد خالَفَ بعضُكم أمرَ رسولِ الله ﷺ، وترَكوا المنفَذَ الجَبَليَّ وانشَغَلوا بجَمْع مالِ الغنيمة، فأصابَكم جميعَكم بذلك ضرَرٌ فائق، واللهُ قادرٌ على كلِّ شيء، ولو شاء عفَا عن تقصيرِكم هذا، ولو شاء عاقَبَكم عليه مثلَما أصابَكم الضَّررُ في أُحُد.

وفي بعضِ الأحيان يتَصوَّرُ المسلمونَ أنّ نصْرَهم محتومٌ باعتبارِ أَنَّهم على حق، ولا يهتمُّونَ بالأسبابِ الظَّاهريَّة أو بالقواعدِ أو الضَّوابطِ المعمولِ بها، وهذه الآيةُ بمثابةِ اللَّمحةِ الفكْريَّة لهم، بأنَّه إذا كانت جماعةٌ مقدَّسةٌ ـ كالصَّحابةِ الكرام رضيَ الله عنهم ـ يمكنُ أن تُهزَمَ ـ في الظَّاهر ـ بسببِ هَفَواتٍ بسيطة، فمنَ الضَّروريِّ أن يحتاطَ عامَّةُ المسلمين، ولذا ينبغي أن يُعِدُّوا كلَّ الأسبابِ الظَّاهريَّة قبْلَ القيام بأيِّ عمل، ثم بعدَ ذلك يتوكَّلونَ على الله تعالى ويأمُلونَ في النَّصرِ والنَّجاح.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْ﴾

١١٤ـ يعني: أنّ الخسارةَ التي أصابتِ المسلمينَ في غَزْوةِ أُحُدٍ كانت كلُّها بقضاءِ الله تعالى وقَدَرِه، وكان لهذه المعركةِ هدفٌ آخَرُ أيضًا، وهو أن يتَّضحَ الفَرْقُ بينَ المسلمينَ والمنافقين، أي: نَزَل المسلمونَ إلى مَيْدان الحربِ يدفَعُهم إيمانُهم باللهِ تعالى حتّى وإنْ لَحِقتْ بهمُ الخسارة، بينَما المنافقونَ رَفَضوا القدومَ إلى مَيْدان الحرب أصلًا، وعادوا أدراجَهم من الطريق.

﴿قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَٰكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾

١١٥ـ عندَما أراد عبدُ الله بنُ أُبَيٍّ يومَ غزوةِ أُحُدٍ العودةَ والانسحابَ معَ ثلاثِمائةٍ من أصحابِه، حاوَلَ بعضُ المسلمينَ إفهامَه وإقناعَه أنْ لا يَتخلَّى عن رسولِ الله ﷺ، وأن يُقاتلَ في سَبيل اللهِ تعالى، أو ـ على الأقل ـ يُدافعَ عن المدينة، لكنَّه أجابَ قائلًا: أعتقدُ أنه لن تكونَ هناك حربٌ اليومَ، ولهذا نحن عائدونَ من حيث جئْنا، ولو أنَّنا على يقينٍ من وقوع الحربِ لَواصَلْنا السَّيرَ معَكم يقينًا. في حينَ أنّ العدوَّ كان قد وَصَلَ بالقُربِ من المدينةِ فعلًا، وكانت الحربُ مؤكَّدةً! لكنّ تمَلُّصهم وتَذرُّعَهم بالأعذار، واستدلالَهم الكُفْريَّ أظْهَرَ نفاقَهم؛ لأنّ نيَّتَهم كانت الإضرارَ بالإسلام، لكنَّهم لم يكونوا يريدونَ إظهارَ الكُفرِ الذي أخفَوْه في قلوبِهم.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾

١١٦ـ لم يشتركِ المنافقونَ في معركةِ أُحُد، لكنَّهم معَ ذلك قالوا عن المسلمينَ الذين استُشهِدوا فيها: إنّهم لو أطاعوا ما قُلناه، ولم يَخرُجوا من بيوتِهم مثلَنا، لَما قُتِلوا، فنَزلت هذه الآيةُ ردًّا عليهم بأنَّكم لو كنتُم صادقينَ في ادِّعائكم بأنّ الموتَ لا يأتي لمن يجلسُ في البيت، فأخِّروا الموتَ حينَ يأتيكم إذًا، وأرُونا ماذا أنتم فاعلونَ معه.

جاء في الرواياتِ، أنه في اليوم الذي نَزَلتْ فيه هذه الآيةُ مات سبعونَ منافقًا وهم جالسونَ في بيوتِهم، ولم يستطيعوا إنقاذَ أرواحِهم منه[1]. الحقيقةُ أنّ زمانَ ومكانَ الموتِ محدَّدٌ ومقرَّر، ولا يمكنُ لأحدٍ أن يقدِّمَه أو يؤخِّرَه، سواءٌ كان ذلك في حربٍ أم في بيت.

---

(١) ورد أنّه نزل بهم الموت وهم في دورهم، فمات منهم سبعون من غير قتالٍ في يوم أحد. (حاشية العلامة الصاوي وتفسيرالكشاف وتفسير روح المعاني).

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾

١١٧ـ قال اللهُ تعالى في الآيةِ رقم **١٥٤** من سُورةِ البقرة: أنْ لا تقولوا عن الشُّهداءِ موتَى، وهنا جاء الحُكمُ التأكيديُّ بأنْ لا تعتقِدوا ـ بداخِلكم ـ أنَّهم موتَى، بل إنّهم أحياءٌ ويأتيهم رِزقُهم من الله تعالى، وهم سُعَداءُ بنِعِمَ اللهِ عليهم.

الشُّهداءُ يُعطَوْنَ بعدَ الموتِ حياةً من نوع خاصٍّ لا تُعطَى لعامَّةِ الموتَى، ولمزيدٍ من التوضيح تأمَّلْ معي هذه الرِّوايةَ لسِّيدِنا ابن عَبّاس رضيَ اللهُ عنه، حيث قال رسولُ الله ﷺ: «**لمّا أُصيبَ إخوانُكم بأُحُدٍ جَعَلَ الله أرواحَهم في جَوْفِ طيرٍ خُضْرٍ تَرِدُ أنهارَ الجنّةِ تأكلُ من ثمارِها، وتَأْوي إلى قناديلَ من ذهبٍ معلَّقةٍ في ظلِّ العرش، فلمّا وَجَدوا طِيبَ مأكَلِهم ومشرَبِهم ومَقِيلِهم قالوا: مَن يُبلِّغُ إخوانَنا عنّا أنّا أحياءٌ في الجنّة نُرزَقُ لئلّا يَزْهَدوا في الجهادِ ولا يَنكُلوا عندَ الحرب؟ فقال اللهُ تعالى: أنا أُبلِّغُهم عنكم، قال: وأنْزَلَ الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۚ ﴾ ... إلى آخِرِ الآية**»[١]، أي الآيةِ رقم **١٦٩** من سُورة آل عِمران.

﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

١١٨ـ الشُّهداءُ ليسوا فَرِحينَ بنِعَم الله المتعدِّدةِ عليهم فقطْ، وإنَّما هم سُعَداءُ أيضًا بأنّ رِفاقَهم في الجهادِ والذين لم يُستشهَدوا بعدُ، لن يُواجِهوا أيَّ غمٍّ أو حُزنٍ عندَما يَصِلُونَ هنا، وسوف يَستمتِعونَ هم أيضًا بهذه النِّعَم الكثيرة؛ لأنّ اللهَ تعالى لا يُضيعُ أجْرَ أهلِ الإيمان.

---

(١) أبو داود، ٢٥٢٠.

ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١٨٠﴾

﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُ﴾

١١٩ـ كان أبو سُفيانَ عائدًا من غَزْوةِ أُحُدٍ مع جيشِه، وفي الطَّريقِ تذكَّر أنه أخطأَ، وأضاعَ فرصةً ذهبيَّةً، فقد تَراجعتْ معنَويّاتُ المسلمينَ وهِمَمُهم بسببِ الهزيمةِ في الحرب، ولذا كان عليه أن يستغلَّ هذه الفُرصةَ ويُقاتلَ المسلمينَ حتّى القضاءِ عليهم، وهنا أراد أبو سُفيانَ أن يعودَ للقتالِ ثانيةً، ولمّا وَصَل هذا الخبَرُ إلى النبيِّ ﷺ أمرَ المسلمينَ أن يَخرُجوا لتعقُّب الكفَّار، ورَغْمَ أنّ الوضْعَ كان في غايةِ الحَرَج، وكانت جِراحُ المسلمينَ لا تزالُ تنزِفُ من معركةِ أُحُد، لكنَّهم لَبَّوْا ـ على الفَوْر ـ أمرَ رسولِ الله ﷺ، وتوجَّهوا للقاءِ الكفَّار، وعلى الجانبِ الآخَر، حينَ عَلِم الكفَّارُ بأنّ المسلمينَ قادِمونَ في تعقُّبِهم أصابَهم الهَلَعُ والخوف، فواصَلوا سَيْرَهم عائدينَ إلى

مكَّةَ، وتعقَّبَ النبيُّ ﷺ وصَحابتُه الكرامُ الكفَّارَ لمسافةِ ثمانيةِ أميالٍ حتى بَلَغوا حَمْراءَ الأَسَد، لكنّ الكفَّارَ كانوا قد فرُّوا.

وفي هذه الآيةِ أثْنَى اللهُ تعالى على رُوح الطّاعةِ والإحسانِ والتَّقوى لدى الصَّحابةِ الكرام، فقد جُرِحَ بعضُ الصَّحابةِ الكرام جِراحًا أقعَدتْهم عن الحركة إلّا بمساعدةٍ، ولكنْ بالرَّغْم من ذلك خَرَجوا مُطِيعينَ لأمرِ رسولِ الله ﷺ. اللهمَّ اشمَلْهُم برضاكَ ورحمتِك، آمين.

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا﴾

١٢٠- عندَ العودةِ من معركةِ أُحُدٍ تحَدَّى أبو سُفيانَ المسلمينَ أنّنا سنَلْقاكُم العامَ القادمَ في بَدْر، وحينَ اقترَبَ الموعدُ اصْطَحبَ أبو سُفيانَ الجيشَ واتَّجَه إلى بَدْر، لكنّ اللهَ تعالى أدخَلَ الرُّعبَ في قلبِه بحيث تخَلَّى تمامًا عن إرادةِ الحرب، وأرسَلَ شخصًا إلى المدينةِ المنوَّرةِ سرًّا لكيْ ينشُرَ إشاعاتٍ كاذبةً تُخيفُ المسلمينَ، مثلَ: إنّ قُريشًا هذه المرَّةَ أعدَّتْ جيشًا جَرّارًا، جيشًا كبيرًا للغايةِ ومسلَّحًا بأسلحةٍ ثقيلة، وهي قادمةٌ إليكم به، فإنْ توجَّهتُم إلى بدرٍ فتأكَّدوا أنه لن يعودَ أحدٌ منكم إلى بيتِه حيًّا، ولكنّ المسلمينَ، بدَلًا من أن يَخافوا من هذه الشَّائعاتِ زاد حماسُهم للقاءِ العدوِّ، وتوكَّلوا على اللهِ تعالى وتوجَّهوا إلى بَدْر، وأقام رسولُ الله ﷺ في المَيْدانِ ثمانيةَ أيام كاملةً، لكنّ الكفَّارَ لم يَأْتوا للقائهم كما وَعَدوا، وفي تلك الفترةِ استفادَ المسلمونَ كثيرًا من الناحيةِ الماليَّةِ عن طريق التِّجارة، ولم تَقُمْ حربٌ، ولم يَحدُثْ ضَرَرٌ، بل - على العكس - أَرْعَبوا الكفَّارَ وعادوا سالمين.

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾

١٢١- يعني: أنّ الشَّيطانَ يضَعُكم في هذه الوَساوسِ بأنّ قُرَيْشًا لدَيْها جيشٌ قويٌّ للغاية، وأنّكم لا تستطيعونَ مواجهَتهم، ولهذا من الأفضَلِ أنْ تبقَوْا في بيوتِكم،

وألّا تتَّجهوا إلى مَيْدانِ بَدْر، وهنا نَزَلتْ هذه الآيةُ بأنَّ المسلمينَ لا يخافونَ إلَّا من اللهِ تعالى، وليسوا في حاجةٍ إلى أن يخافوا من الكفَّار.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

١٢٢ـ أظهرَ عددٌ من المنافقينَ عقائدَهم الكُفْريَّةَ بسببِ الهزيمةِ الظَّاهريَّةِ التي حَلَّتْ بالمسلمينَ في معركةِ أُحُد، كما أنّ الكفَّارَ لم يترَاجَعوا عن كُفرِهم رَغْمَ دعوةِ النبيِّ ﷺ لهم، وهو ما أحزَنَ قلوبَ الصَّحابة الكرام رضيَ اللهُ عنهم.

وفي هذه الآيةِ الكريمةِ يُسَرِّي اللهُ تعالى عن النبيِّ ﷺ بأنْ لا تحزَنْ يا رسولَ الله؛ لأنَّك أدَّيْتَ حقَّ الدَّعوةِ تمامًا، فإذا لم يَعودوا عن كُفْرِهم برَغْم كلِّ هذا فهو من شُؤْم أعمالِهم، ومهما يفعَلوا فلن يستطيعوا إلحاقَ الضَّررِ بدِين الله، كما أنّ اللهَ تعالى لا يريدُ لهم أن يَنالوا شيئًا من نِعَم الآخِرة؛ لأنّهم كذَّبوا الحقَّ عامدينَ متعمِّدين، واختاروا طَريقَ الضَّلال، وهم ـ لهذا ـ يستحِقُّون العذابَ العظيم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

١٢٣ـ أولئك الذين تَركوا الإيمانَ واختارُوا الكُفْرَ لا يستطيعونَ إلحاق أي ضَرَرٍ بالإسلام، وإنّما سيكونُ كُفرُهم سببًا في أن ينالوا العذابَ الأليم.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾

١٢٤ـ الذين يُنكِرونَ اللهَ تعالى ومعَ ذلك يعيشونَ عُمرًا طويلًا في عزٍّ وشَأْن، يجبُ أن لا يستمرُّوا في هذا الوَهْم والفَهْم الخاطئ بأنّ حياةَ الكُفرِ خيرٌ لهم، بل على العكس، كلَّما طالت حياتُهم في الكُفرِ زادَتْ ذنوبُهم، وذاقُوا في الآخِرة عذابًا

مُهينًا. سأل رجُلٌ رسولَ الله ﷺ فقال: **يا رسولَ الله! أيُّ النّاس خيرٌ؟ قال: «مَن طال عُمُرُه وحَسُنَ عَمَلُه»، قال: فأيُّ النّاسِ شرٌّ؟ قال: «مَن طال عُمُرُه وساء عمَلُه»**[1].

﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾

١٢٥ـ كان في المدينةِ العديدُ من الذين تَظاهَروا بقَبُولِ الإسلام وانضَمُّوا إلى المسلمين، ولكنّ هدَفَهم كان إلحاقَ الضَّرر بهم، معَ أنّ المسلمينَ يعتبرونَهم إخوةً لهم، وحينَ ظَهر نِفاقُ هؤلاءِ في غَزْوةِ أُحُدٍ تَفَكَّر المسلمونَ كثيرًا؛ أيُّ نوع من المسلمينَ هؤلاء؟ وهنا نَزلتْ هذه الآيةُ، أنّ الأمرَ لن يبقَى هكذا دائمًا بأنْ يظَلَّ المنافقونَ مُستَخْفِينَ في صفوفِكم، بل إنّ الوقتَ، الذي سيُعرَفُ فيه المسلمونَ من المنافقين، قدِ اقترَب. وقد نَقَل العلَّامةُ الخازنُ في هذا الخصوصِ هذه الرِّواية:

قال رسولُ الله ﷺ: **«عُرِضَتْ علَيَّ أُمَّتي في صُوَرِها فى الطِّين كما عُرِضَتْ على آدمَ، وأُعلِمتُ مَن يؤمنُ بي ومَن يكفُرُ بي»، فَبلَغ ذلك المنافقينَ، فقالوا استهزاءً: زَعَم محمَّدٌ أنه يَعلَمُ مَن يؤمنُ به ومن يكفُر ممَّن لم يُخلَقْ بعدُ، ونحن معَه وما يَعرِفُنا. فَبلَغ ذلك رسولَ الله ﷺ، فقام على المِنبر فحَمِد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال: «ما بالُ أقوامٍ طَعَنوا في عِلْمي؟ لا تسألوني عن شيءٍ فيما بينَكم وبينَ السّاعةِ إلّا نبّأتُكم به»، فقام عبدُ الله بنُ حُذافةَ السَّهْميُّ فقال: من أبي يا رسولَ الله ﷺ؟ فقال: حُذَافة»، فقام عُمر رضي اللهُ عنه فقال: يا رسولَ الله! رَضِينا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبالقرآن إمامًا وبكَ نبيًّا فاعْفُ عنّا عَفَا اللهُ عنك، فقال النبيُّ ﷺ: فهل أنتم منتَهُون، فهل أنتم منتَهُون؟»، ثم نَزَل عن المِنبر فأَنزَل الله هذه الآيةَ**[2].

---

(١) الترمذي، برقم ٢٣٣٠.

(٢) تفسير الخازن.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾

١٢٦ـ اللهُ تعالى لا يُطْلِعُ عامَّةَ النّاسِ على الغَيْب؛ لأنّ الرجلَ العاديَّ لو اطَّلعَ على الغَيْب لَتوقَّف كفاحُه واجتهادُه، وظلَّ طيلةَ الوقتِ قلقًا ينتظرُ ما سيقعُ من أحداث، على سبيل المثال: لو عَلِم أحدٌ أنّ حادثًا سيقعُ له بعدَ عشْرِ سنوات، سيموتُ فيه ابنُه الشابُّ الذي يبلُغ من العُمرِ عشرينَ عامًا، وسوف تصابُ فيه ابنتُه البالغةُ من العُمر ثمانيةَ عشَرَ عامًا بالعمَى، وستصابُ فيه زوجتُه بالشَّلَل، تَصوَّرْ أنت أيَّ كربٍ وحُزن وغمٍّ ستعيشُه الأسرةُ على مدى العَشْرِ سنواتِ القادمة؟ ولو أنه لم يَعلَمْ ذلك لأمضى هذه السنواتِ العَشْرَ في سكونٍ وطُمَأْنينةٍ على الأقل، ولهذا اختارَ اللهُ تعالى أنبياءه الكرامَ عليهم السَّلامُ ليُطلِعَهم على الغَيْب، لأنّ مقامَهم ومنصِبَهم أعلى بكثير، فهم الأُمناءُ على وَحْي الله تعالى، والمطمئنُّونَ برضاهُ جلَّ وعلا، وذلك مثلَما كان الرسولُ يَعلَمُ بأمرِ المنافقين، لكنّه ـ ولحكمةٍ ما ـ ظلَّ صامتًا في انتظارِ الوقتِ المناسب.

وعلمُ اللهِ تعالى ذاتيٌّ، لم يُعْطَهُ أحدٌ إيَّاه، وهو عِلمٌ محيطٌ بالكائناتِ من الأزَل إلى الأبَد، ولا يخفَى عليه شيءٌ، ولكنّ عِلمَ رسولِ الله ﷺ ليس ذاتيًّا كعِلم الله تعالى، وليس لا نهائيٍّ أيضًا، وإنّما هو عطاءٌ من اللهِ تعالى، وهو بالقَدْرِ الذي أعطاهُ اللهُ إيّاه، ولكنّ عِلمَه ﷺ ـ قياسًا بعِلم الخلائقِ جميعًا ـ أوسَعُ وأكبرُ، إلى درجةٍ لا يستطيعُ المخلوقُ تصوُّرَها، وإليك بعضَ الأحاديثِ في هذا الخصُوص:

١ـ عن أبي موسى رضيَ الله عنه، قال: سُئل النّبيُّ ﷺ عن أشياءَ كرِهَها، فلمّا أُكثِرَ عليه غَضِبَ، ثمّ قال للنّاس: «سَلُوني عمّا شئتُم»، قال رجلٌ: من أبي؟ قال: «أبوك حُذافةُ»، فقام آخَرُ فقال: «من أبي يا رسولَ الله؟! فقال: «أبوك سالمٌ مَوْلى شَيْبةَ»، فلمّا رأى عُمرُ ما في وَجهِه، قال: يا رسولَ الله! إنّا نتوبُ إلى الله عزَّ وجلّ[1].

(١) البخاري، كتاب العلم، باب ٢٨.

٢ـ قال رسولُ الله ﷺ: «أتاني اللَّيلَة ربِّي تبارك وتعالى في أحسنِ صورةٍ ـ قال: أحسَبُه قال: في المنام ـ فقال: يا محمَّد! هل تدري فيمَ يختصِمُ الملأُ الأعلى؟ قال: قلت: لا، قال: فوَضَع يَده بيْنَ كتِفَيَّ حتّى وَجَدتُ بَرْدَها بيْنَ ثديَيَّ، فعَلِمتُ ما في السّماواتِ وما في الأرض»[1].

٣ـ قال رسولُ الله ﷺ: «إنّ الله زوَى ليَ الأرضَ، فرأيتُ مشارقَها ومغاربَها»[2].

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾

١٢٧ـ قال أكثرُ المفسِّرين: إنّ المرادَ بالبُخل: عدَمُ إخراج الزَّكاة، فالذين لا يؤدُّونَ الزكاةَ ليس ذلك من مصلحتِهم، بل إنّ ذلك سيكونُ باعثًا على فضيحتِهم يومَ القيامة؛ لأنّ كلَّ من يراهُم والطَّوقُ في أعناقِهم سيَعرِفُ أنّ هؤلاءِ كانوا بُخَلاء، بمعنى: أنَّهم لم يكونوا يُخرِجونَ الزَّكاة، وقد قال ﷺ: **«مَن آتاه اللهُ مالًا فلم يؤدِّ زكاتَه مُثِّل له يومَ القيامة شجاعًا أقْرعَ له زَبيبتان، يُطَوَّقُه يومَ القيامة، ثمّ يأخُذُ بلَهْزَمتَيْه، يعني: بشِدْقَيْه، ثمّ يقول: أنا مالُك، أنا كَنْزُك»**[3]، وبعدَ ذلك تلا النبيُّ ﷺ هذه الآيةَ (يعني رقمَ ١٨٠ من سُورةِ آلِ عِمران).

لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ

(١) الترمذي، تفسير القرآن، ٣٢٣٣، ٣٢٣٤، ٣٢٣٥.

(٢) مسلم، برقم ٢٨٨٩.

(٣) البخاري، كتاب الزكاة، باب ٣ برقم ١٤٠٣.

قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾

١٢٨- جاء في الآية رقم ٢٤٥ من سورة البقرة: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، وكان الهدفُ أنّ أولئك الذين يُنفِقونَ الأموالَ لمساعدةِ الفقراءِ ولرِفعةِ الدِّين فإنّهم يومَ القيامة سينالونَ ثوابًا وأجرًا أضعافَ أضعافِ ما قَدَّموا، وهنا قال اليهودُ ساخرين: إنّ إلَه المسلمينَ يَطلُبُ القَرْضَ، وهذا يعني أنَّنا أغنياءُ واللهُ محتاج، كما أنّ اللهَ يمنَعُنا من أَخذ الرِّبا، بينَما هو يرغِّبُ في القرضِ الحَسَن بالرِّبا. وفي إحدى الجلَساتِ كان سيِّدُنا أبو بكرٍ موجودًا، وحين قال اليهوديُّ فنحاصُ بن عازُوراءَ هذا الكلامَ، غَضِبَ أبو بكرٍ فضربَ وجْهَ فنحاصَ ضربةً شديدة، وقال: والذي نفسي بيدِه، لولا العهدُ الذي بينَنا وبينَك لَضربتُ عُنقَك يا عدوَّ الله! فأكْذِبونا ما استطعتُم إن كنتُم صادقين. فذهَب فنحاصُ إلى رسولِ الله ﷺ فقال: يا محمَّد، انظُرْ ما صنَعَ بي صاحبُك! فقال

رسولُ الله ﷺ لأبي بكر: «ما حَمَلَك على ما صنعَت؟»، فقال: يا رسولَ الله، إنّ عدوَّ الله قال قولًا عظيمًا، زَعَم أنّ اللهَ فقيرٌ وأنّهم عنه أغنياء! فلمّا قال ذلك غَضِبتُ لله ممّا قال، فضربتُ وجَهه. فجَحَد ذلك فنحاصُ وقال: ما قلتُ ذلك! فأنزَلَ اللهُ تبارك وتعالى فيما قال فنحاصُ، ردًّا عليه وتصديقًا لأبي بكر[1].

أي: أنّ اليهوديَّ ـ حقيقةً ـ قال هذا الكلامَ، وهذا ليس بجديدٍ، فلقد كان أسلافُهم يقتُلونَ الأنبياءَ عليهم السَّلامُ بغير حقٍّ. فالإساءةُ إلى الذاتِ الإلهيَّة ولو بمجرَّدِ اللِّسان جُرمٌ عظيمٌ بحيث سيُكتَبُ مُرتكبُه معَ قَتْل الأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلام، وحين سيُلقَى باليهودِ في نار جهنَّم سيُذكِّرُهم اللهُ تعالى بأنّ هذا العقابَ لهم ليس ظلمًا من الله، ولكنه عذابٌ لذنوبِ كذا وكذا ارتكبتُموها، واللهُ تعالى لا يظلِمُ أحدًا.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ﴾

١٢٩ـ اختَلقَ اليهودُ عُذرًا آخَرَ يبرِّرونَ به عَدَمَ إيمانِهم بسيِّدِنا محمَّدٍ ﷺ، وهو أنّ اللهَ تعالى أمَرَهم في التَّوراةِ أن يؤْمنوا بذلك النبيِّ الذي يُقدِّمُ قُربانًا من اللُّحوم، ونارٌ من السَّماء تأكُل هذا القُربانَ، لكن النبيَّ ﷺ لم يقدمْ مِثلَ هذه المعجزة، لهذا ليس من الضَّروريِّ لهم أن يؤْمنوا به ﷺ، وهنا نَزلَتْ هذه الآيةُ بأنّ هذا ليس بالعُذرِ الجديد، ولكنّ الأنبياءَ الكرامَ السَّابقينَ قد أرَوْا أسلافَكم هذه المعجزةَ أيضًا، لكنَّهم معَ ذلك لم يؤْمنوا بهم، على العكسِ من ذلك قَتَلوهم، بينَما لو كان أسلافُهم صادقينَ في دعواهُم لآمنوا بالأنبياءِ وما قَتَلوهم.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ جَآءُو بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾

١٣٠ـ طريقَةُ منكري الحقِّ واحدةٌ في كلِّ زمان، وإذا كان هؤلاءِ يُنكرونَ

---

(١) ابن جرير الطبري، سورة آل عمران (٣): الآية ١٨١.

نُبوّةَ النبيِّ ﷺ اليومَ، فقد كَذَّبوا من قبلُ العديدَ من الأنبياءِ عليهم السَّلام، وهم الذين جاءوا لهم بالآياتِ البيِّنات.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾

١٣١ـ الموتُ حقيقةٌ عالميَّةٌ لا يمكنُ لأحدٍ إنكارُها، كما أنّ الموتَ أيضًا بمثابةِ الجِسْرِ الذي يَجمَعُ الصَّديقَ بصديقِه، بمعنى: أنّ كلَّ إنسانٍ بعدَ الموتِ يواجِهُ نتائجَ أعمالِه سواءٌ كانت حسَنةً أم سيِّئة، فلو كان حبُّه في الدنيا للأعمال الصَّالحة، فسيبقَى سعيدًا في الآخِرة بفَضْل بُشْراهُ بالجنَّة، وإن كان حبُّه في الدُّنيا للأعمال السيِّئة، فسيبقَى في اضطرابٍ متواصِل بسببِ الخَوْف من العذاب، فكلُّ إنسانٍ بعدَ الموتِ يتعرَّفُ على مصيرِه الأصلي؛ لأنّ النبيَّ ﷺ قال: «**إنّما القبرُ روضةٌ من رِياضِ الجنّة أو حُفرةٌ من حُفَر النّار**»[١].

عن ابنِ عُمر، أنّه قال: كنتُ معَ رسول الله ﷺ، فجاءه رجلٌ من الأنصار، فسَلَّم على النّبيِّ ﷺ، ثمّ قال: يا رسولَ الله، أيُّ المؤمنينَ أفضَل؟ قال: «أحسَنُهم خُلُقًا» قال: فأيُّ المؤمنينَ أكيَس؟ قال: «أكثرُهم للموتِ ذكرًا، وأحسَنُهم لِما بعدَه استعدادًا، أولئك الأكياس»[٢].

﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾

١٣٢ـ هذه الدُّنيا متاعٌ زائف، فمَن وَقَع فريسةً لخِداعِها، واستَغرقَ في ملَذَّاتِها، ونَسِي الأحكامَ الإلهيَّةَ، فقد خابَ، وله في الآخِرة جهنَّم، وعلى العكس من ذلك، مَن نَجا بنفسِه من خِداعِ هذه الدُّنيا، وظلَّ متَّبِعًا للأحكام الإلهيَّة، فقد فاز، وستكونُ له الجنَّةُ في النِّهاية.

---

(١) الترمذي، برقم ٢٤٦٠.

(٢) ابن ماجه، أبواب الزهد برقم ٤٢٥٩.

بعضُ الرِّواياتِ المتعلِّقة بهذه الدُّنيا

١ـ عن أبي هريرةَ رضيَ الله عنهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «الدُّنيا سِجْنُ المؤمن وجنَّةُ الكافر»(١).

٢ـ عن سَهْل بن سَعدٍ رضيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لو كانتِ الدُّنيا تَعدِلُ عندَ الله جناحَ بَعُوضةٍ ما سقَى كافرًا منها شَرْبةَ ماءٍ»(٢).

٣ـ عن مجاهدٍ، عن ابن عُمَر رضيَ اللهُ عنه، قال: أخَذ رسولُ الله ﷺ ببعض جَسَدي، قال: «كنْ في الدُّنيا كأنّك غريبٌ (حيث يقيمُ مَن يعمَلُ في بلدٍ أجنبيٍّ بشكل مؤقَّت) **أو عابرُ سبيلٍ** (أي: في سَفَرٍ دائم) **وعُدَّ نفسَك من أهل القُبور»، فقال ليَ ابنُ عُمر: إذا أصبحتَ فلا تُحدِّثْ نفسَك بالمساء، وإذا أمسَيْتَ فلا تُحدِّثْ نفسَك بالصّباح، وخُذْ من صحّتِك قبلَ سَقَمِك، ومن حياتِك قبلَ موتِك، فإنّك لا تدري يا عبدَ الله ما اسمُك غدًا** (أي: هل تكونُ حيًّا أو ميّتًا)**»**(٣).

٤ـ قال عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي اللهُ عنه: ارتَحَلتِ الدُّنيا مُدبِرةً، وارتَحَلتِ الآخرةُ مُقبلةً، ولكلٍّ واحدةٍ منهما بَنُونٌ، فكونوا من أبناءِ الآخِرة ولا تكونوا من أبناءِ الدّنيا، فإنّ اليومَ عمَلٌ ولا حساب، وغدًا حسابٌ ولا عمَل»(٤). وقال سيِّدُنا عليٌّ رضيَ اللهُ تعالى عنه أيضًا: **«ليّنٌ مسُّها قاتلٌ سُمُّها»**(٥).

---

(١) الترمذي، برقم ٢٣٢٤.

(٢) الترمذي، برقم ٢٣٢٠.

(٣) الترمذي، أبواب الزهد، باب ٢٥ برقم ٢٣٣٣.

(٤) البخاري، كتاب الرقاق، باب ٤.

(٥) التفسير الكبير.

﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾

١٣٣ـ هنا يقالُ للمسلمينَ: إنّ ابتلَاءكم في أنفُسِكم وأموالِكم مستمرٌّ، كما أنّ أهلَ الكتابِ سيُحاولونَ دائمًا إيذاءَكم نفسيًّا، ولن يَألُوا جُهدًا في الافتراءِ عليكم، والحديثِ عنكم بسُوء، ونَشْر الدِّعاياتِ الكاذبةِ عنكم، وهنا كذلك يَتِمُّ تلقينُ المسلمينَ التَّقوى والصَّبرَ في مقابلِ هذا كلِّه، حتّى لا يقَعَ من المسلمينَ ما يُخالفُ الحقَّ والصِّدقَ والوَقارَ والهَيْبة، ويؤدِّي ـ في نهاية الأمر ـ إلى رَواج الفتنة وانتشارِ الفساد، ولكنّ هذا لا يعني أنْ يهاجِمَ العدوُّ المسلمين، ويقفَ المسلمونَ مكتوفي الأيدي، فهذا الجُبْنُ في الحقيقةِ يُنافي الوقارَ الإنسانيَّ، واستئصالُ الظُّلم واقتلاعُه من جذورِه مسئوليَّةٌ جماعيَّةٌ للأُمَّةِ المسلمة.

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾

١٣٤ـ أخَذَ اللهُ تعالى العهدَ من أهل الكتابِ أن يُبيِّنوا للنّاسِ بشكلٍ واضح التعاليمَ التي وَرَدت في الكتابِ المقدَّس، وألّا يخُونوا فيه، لكنّ علماءَ أهلِ الكتابِ خَلَفُوا الوعدَ، وباعوا التعاليمَ المقدَّسةَ من أَجْل المصالح الدُّنيويَّة. وفي هذا عِبرةٌ لعلماءِ الإسلام أيضًا، حتّى لا يَخُونوا أحكامَ الإسلام من أَجْل الأهدافِ الدُّنيويَّة.

﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾

١٣٥ـ لم يُشاركِ المنافقونَ في الجهاد، وكانوا فَرِحينَ بأنَّهم نجَوْا من أضرارِ الحرب، وكان علماءُ اليهودِ أيضًا يخُونونَ التعاليمَ المقدَّسة، ويَفرَحونَ بأنّهم حقَّقوا

المكاسبَ الدُّنيويَّة، وبرَغْم كلِّ هذه الأعمال المَشِينة، إلّا أنّ اليهودَ والمنافقينَ كانوا يوَدُّونَ أن يقالَ عنهم: إنّهم شُجعانٌ مخلِصون يحبُّونَ الحقَّ، لكنّ هؤلاءِ حتّى ولو أخفَوْا خيانتَهم ونفاقَهم وراءَ ألفِ ستار، لن يَنجُوا من العذابِ الأليم جزاءً على ما اقترفوهُ من الجرائم، وفي هذا عِبرةٌ للمسلمينَ أيضًا؛ لأنّ الأُمَّةَ التي تتهرَّبُ من العمَلِ والكفاح، وتخُونُ التعاليمَ المقدَّسةَ، وفي نفسِ الوقت تريدُ أن يُثْنِيَ عليها الناسُ، لن يستطيعَ أحدٌ أن يُنقِذَها من العذابِ الأليم.

إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

١٣٦ـ عندَما يتأمَّلُ عاقلٌ في خَلْق السمواتِ والأرض وتعاقُبِ اللَّيل والنَّهار، يتأكَّدُ تمامًا أنّ لهذه الكائناتِ خالقًا واحدًا قادرًا مُطلَقًا، وهو الذي يُسيِّرُ هذه الكائناتِ بحِكمتِه وتدبيرِه، ولا يمكنُ أن يقعَ منه خلَلٌ فيها، فلكلِّ شيءٍ دائرةٌ محدَّدةٌ لعملِه، يؤدِّي هذا الشيءُ عمَلَه بداخلِها في نشاطٍ كامل وبنظام وضَبْطٍ مُحكَم، لهذا لا يمكنُ أن يَقبَلَ عاقلٌ بتصوُّرِ أنّ هذا النظامَ الفائقَ المُحكَم لا خالقَ له، وأنه ظَهَر إلى الوجودِ هكذا بنفسِه، فهذه كذبةٌ كبرى، مثلَما يقولُ أحَدٌ: إنّ انفجارًا ضخمًا وقَعَ في مطبعةٍ فطَبَعت مُعجَمًا، في حينَ أنّه لا بدَّ ـ لإخراج المعجَم ـ من ترتيبِ ألفاظِه طِبقًا لحروفِ الهجاء، وهو ما لا يمكنُ أن يحدُثَ هكذا دونَ أن يقومَ به أحدٌ، والواقعُ أنّ نظامَ الكائناتِ أكثرُ تعقيدًا وغموضًا من مسألةِ المعجَم هذه، والحقيقةُ أنّ الحِكمَة من وراءِ كلِّ هذا لا يَعلَمُها إلّا الله؛ لأنه هو الخالقُ، وهُو المالك.

مناظرة حول وجود الله

تقرَّر عَقْدُ مناظرةٍ للإمام أبي حنيفةَ رحمه اللهُ معَ أحدِ الدَّهريِّين، حولَ وجودِ الله تعالى، ووَصَل الإمامُ إلى المكانِ المحدَّد للمناظَرةِ متأخِّرًا، فسأله الدَّهريُّ عن سببِ التأخير، فقال له: إنّني أسكُنُ في الجانبِ الآخَر من النَّهر، وقد وصَلتُ إلى النَّهرِ قبْلَ الوقتِ المحدَّد للمناظَرة، لكنّ الملَّاحينَ جميعًا كانوا قد وَصَلوا إلى هنا لمشاهدةِ المناظَرة، ولهذا لم يكنْ هناك ولو مَلَّاحٌ واحد. فقال الدَّهريُّ: إنّ المناظَرة لم تبدَأْ بعدُ، والمَلَّاحونَ جميعًا هنا الآنَ، فكيف عَبرتَ أنت النَّهر؟ قال الإمامُ أبو حنيفةَ رحمه الله: كنتُ أقفُ قلِقًا منزعِجًا، وإذْ بي أرى شجرةً على شاطئِ النَّهرِ تَسقُط، وتتحوَّلُ ـ من نفسِها ـ إلى ألواح من الخشَب، ثم اتَّصلتْ هذه الألواحُ ببعضِها وصارت مَرْكَبًا، وتحرَّكَ هذا المركَبُ من نفسِه على سطح

الماءِ ودونَ مَلّاح إلى أنِ اقترَبَ منِّي، فأركَبَني المركَبُ فوقَه وأوصَلَني إلى الشاطئِ الآخَر. وعندئذٍ صاحَ الدَّهريُّ: هذا الكلامُ يتنافَى مَع الفِطرة! فكيف يمكنُ أن تَسقُطَ الشجرةُ من نفسِها وتتحوَّلُ إلى ألواح من الخشَب دونَ أن يكونَ هناك صانعٌ لها، ثم تتحوَّلَ الألواحُ الخشَبيَّةُ إلى مركَبٍ من نفسِها، وتَعبُرَ بك النَّهرَ بغير مَلّاحٍ؟ إنّ هذا مستحيلٌ. وعليه قال الإمـامُ أبو حنيفة رحمه الله: إذا كان مركَبٌ صغيرٌ لا يستطيعُ أن يتشكَّلَ من نفسِه، وإنَّما يَحتاجُ إلى صانع ليُشكِّلَه ويَصنَعَه، فكيف يمكنُ أن لا يكونَ لهذه الكائناتِ العظيمةِ صانعٌ؟ ونظامُ العالَم كلُّه يسيرُ طِبقًا لقوانينَ وقواعدَ معيَّنة، ولا يوجَدُ أيُّ خَلَل فيه، فإذا طَلَعتِ الشَّمسُ اليومَ الساعةَ السابعةَ في منطقةِ لندن، فإنّها ستَطلُعُ بعدَ عشْرِ سنواتٍ أيضًا في نفسِ التاريخ وفي نفسِ الوقت، ونَظْمُ هذه الكائناتِ وترتيبُها شاهدٌ على أنّ مِن خَلْفَها ذاتًا مدِّبرةً تُسيِّرُ الكائناتِ طبقًا لقاعدةٍ بعَيْنِها، وهذه الذاتُ المدبِّرةُ هي اللهُ تعالى.

﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾

١٣٧- يُعلَمُ من الآيةِ السَّابقةِ أنّ العُقَلاءَ هم أولئك الذين يتأمَّلونَ في الكائناتِ ليتوصَّلوا إلى معرفةِ اللهِ تعالى، وفي هذه الآيةِ مزيدٌ من الحديثِ عن صفاتِ أولئك السَّادة، أي: أنَّهم في كلِّ حال يَذكُرونَ اللهَ تعالى، ويتفكَّرونَ في خَلْقِ السَّماواتِ والأرض، وهو ما يَنتُجُ عنه - في نهاية الأمر - نُضْجٌ ورسوخٌ في الإيمانِ بالله تعالى، وعلى الجانبِ الآخَر، حينَ تتكشَّفُ - بسببِ التفكُّرِ في الكائنات - بعضُ حِكَم اللهِ تعالى، فإنّها تُعلِنُ - بشكلٍ فِطْريٍّ وبلسانِ حالِها - أنّ اللهَ لم يَخلُقْ شيئًا عَبثًا أو بلا هدف، وأنّ لكلِّ شيءٍ عملًا ومَقصِدًا، وأنّ اللهَ منزَّهٌ عن أن يَخلُقَ شيئًا بلا فائدة. يقولُ العَلّامةُ البَيْضاويُّ: «وهو (أي: **التفكُّرُ في الكائنات**) **أفضَلُ العباداتِ كما قال عليه الصَّلاةُ والسلام: لا عبادةَ كالتّفكُّر**»[1].

---

(١) تفسير البيضاوي.

أمّا حالُنا اليومَ فيما يتَعلَّقُ بأفضلِ العباداتِ هذه، فإنَّنا وصَلْنا في غَفْلتِنا عنها إلى درجةٍ أنّ غيرَ المسلمين يدَّعُونَ أنّهم قد وَصَلوا إلى القمر، بينَما رؤيةُ هلال العيدِ بالنِّسبة لنا لا تزالُ تُمثِّلُ مشكلةً، والأُممُ الأخرى وَصَلتْ إلى سماءِ العِلم والتكنولوجيا بتفكُّرِها في الكائنات، ولا نزالُ نحن على الأرض يشُدُّ بعضُنا بعضًا إلى الخَلْف.

*** وا حسَرْتاهُ على فَشلِنا! فالقافلةُ تَفقِدُ متاعَها، ولا تَشعُرُ من قلبِها بالخسارةِ التي تَلحَقُ بها.**

طالَما كان المسلمونَ يتفكَّرونَ في الكائناتِ ويتدبَّرونَ فيها، استطاعوا أن يُثْرُوا الحياةَ باختراعاتٍ جديدةٍ ومُفيدة، وكانت الدُّنيا كلُّها تتغنَّى بعظَمتِهم، ولكنْ حينَ حُرِمَ المسلمون من هذا الجانب، وتخَلَّوْا عن التفكُّرِ والتدبُّرِ في الكائنات، فقد ذَلُّوا وهانوا، وصار التهميشُ قَدَرًا لهم.

فيا أعزَّائي الشبابُ، إنِّني أضَعُ أمامَكم بعضَ وَمَضاتٍ من الماضي من الناحيةِ التاريخيَّة:

*** مَن يدري؟ لعلَّ قولي يَدخُلُ قلوبَكم**

كَتَب الأميرُ تشارْلزُ وليُّ عهدِ بريطانيا يقول: «لعِب الإسلامُ دورًا بارزًا في نَشْر العِلم وحمايتِه، وحين كان سوقُ القَتْل والسَّلب والنَّهب رائجًا في بريطانيا في القرنِ العاشر، كان المسلمون في أسبانيا يُفجِّرونَ أنهارَ العِلم والمعرفة، وكانت قُرطُبةُ في ذلك الوقتِ أكثرَ مدُنِ أوروبا تحضُّرًا وتمدّنًا، وكانت مكتبةُ الخليفةِ ـ وحدَها في ذلك الوقتِ ـ تضُمُّ بينَ جنَباتِها ثروةً من أربعِمائةِ ألفِ كتاب، بينَما كانت كلُّ مكتباتِ أوروبا آنَذاك لا تصلُ كتُبُها إلى هذا الرقم. إنّ للإسلام دورًا بارزًا وهامًّا في ظهورِ أوروبا الحديثة؛ لأنّ الأوروبيِّين تَعلَّموا السياسةَ والتخطيطَ والتِّجارةَ الحُرَّةَ والحدودَ المفتوحةَ والآدابَ والطبَّ وصناعةَ الأدويةِ وطُرُقَ البحثِ العلميِّ، من

المسلمين، ولا يزالُ الإسلامُ حتّى يومِنا هذا يُعلِّمُنا أسلوبَ الحياةِ في هذه الدُّنيا وكيفيَّـةَ فَهْمِها، بينَما أضاعت المسيحيَّةُ كلَّ ما كان لديها»[١].

إنَّني أعتقدُ أنّ المسلمين، لكي يَنصُروا الإسلامَ في عصرِنا الحاضر، ليسوا في حاجةٍ فقطْ إلى الحصُولِ على التكنولوجيا والعلوم الحديثة، وإنّما عليهم أن يَعتبِروا هذا فرضًا مقدَّمًا عليهم؛ لأنّ التفكُّرَ في الكائنات، والبحثَ العلميَّ من أَجْل علاج الأمراضِ المُهلِكة والقضاءِ عليها، وصناعةِ الأسلحة للدِّفاع عن الأوطانِ وحمايتِها، والتفكُّرَ والبحثَ من أجْل مزيدٍ من الاستفادةِ من الزِّراعة والثّروةِ المعدِنيَّة، كلُّها ـ في الحقيقة ـ عبادةٌ عظيمة، ولهذا قال رسولُ الله ﷺ:

١ـ «تَفكَّروا في الخَلْقِ ولا تتفكَّروا في الخالق، فإنّكم لا تَقدُرونَ قَدْرَه»[٢].

٢ـ «تفكُّرُ ساعةٍ خيرٌ من عبادةِ سنة»[٣].

٣ـ «ويلٌ لمَن قرأَها ولم يتفكَّرْ فيها»[٤]، (أي: الآيات رقم **١٩٠**، **١٩١** من سورة آلِ عِمران).

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾

١٣٨ـ حين يُلقَى بالظَّالمينَ يومَ القيامة في نارِ جهنَّمَ جزاءً لظُلمِهم، فسيكونُ ذلك قمّةَ الإذلالِ لهم، ولن يستطيعَ أحدٌ أن يُساعدَهم في شيء، أمّا المؤمنونَ والذين عَمِلوا الصَّالحات، سواءٌ كانوا رجالًا أم نساءً، فلن يَضِيعَ لهم أجرٌ، وسيستجيبُ اللهُ

---

(١) الإسلام والغرب، ص ١٨ - ١٩.

(٢) القرطبي.

(٣) المرجع السابق.

(٤) تفسير روح المعاني.

دعاءهم، وسيَدخُلونَ الجنَّةَ، ولو أنه وَقَع منهم خطأٌ بمقتضَى البشَريَّة فسيغفِرُه الله لهم بسببِ أعمالِهم الصَّالحة.

﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ ﴾

١٣٩ـ فَرَّقَ الإسلامُ بينَ الرجُلِ والمرأةِ في بعض المعاملاتِ بسببِ بعض الصِّفاتِ الفِطْريَّةِ المختلفة، مثلَما جَعَل نصيبَ المرأةِ في الميراثِ نصفَ نصيبِ الرَّجُل وغيرَها، لكنَّه لم يفرِّقْ بينَهما في جزاءِ الأعمالِ الصالحة، فتحصُلُ المرأةُ لقاءَ العمل الصَّالح الواحدِ على نفسِ الأجرِ الذي يَحصُلُ عليه الرَّجُلُ على نفسِ العمل؛ لأنّ الرَّجلَ والمرأةَ كلاهما أولادُ آدمَ عليه السَّلام، وأبناءُ نوع إنسانيٍّ واحد، وقد جاء في الرِّواياتِ، أنّ أُمَّ المؤمنين السيِّدَة أُمَّ سَلَمةَ رضيَ الله عنها سألتِ النبيَّ ﷺ ذاتَ مرَّةٍ قائلةً: **يا رسولَ الله، لا نَسمَعُ الله ذَكَرَ النّساءَ في الهجرة بشيءٍ، فأنزَلَ الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ ...﴾ إلى آخرِ الآية**[1]. يعني: أنه لا فَرْقَ مطلَقًا في الثَّواب بيْنَ الرجُلِ والمرأة.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ﴾

١٤٠ـ لا ينبغي للمسلم أن تخدَعَه مظاهرُ العَظَمةِ والجاهِ لدى الكفَّار؛ لأنّ هذا كلُّه بمثابةِ ربيع لن يَدومَ إلّا أيامًا معدودةً، ثم يكونُ المصيرُ بعدَ ذلك جهنَّمَ وبئسَ المصير، فلو أنّ أحدًا قُدِّم له أفضَلُ الطَّعام وأفضَلُ اللِّباس وأفضَلُ السكَن لعدَّةِ أيام، ثم وُضِعَ بعدَها في السِّجنِ المؤبَّد مع الأشغالِ الشَّاقّة، فما فائدةُ تلك الرَّفاهيَةِ التي لم تَدُمْ إلّا أيامًا؟ إنّ الرَّفاهيَةَ الحقيقيَّةَ هي التي تكونُ لشخصٍ يتحمَّلُ المَشقَّةَ والمصاعبَ والتعبَ أيامًا، ثم يَحصُلُ بعدَها على الراحةِ والأمنِ

---

(١) تفسير ابن كثير.

والطُّمَأْنينةِ للأبَد، والعقلاءُ هم الذين لا يُبالونَ بالراحةِ أو المتاعبِ العارضة، وإنما يُفضِّلونَ عليها العواقبَ والمصير.

يقولُ سيِّدُنا عُمر رضيَ اللهُ عنه: إنه حَضَر عندَ رسولِ الله ﷺ، وكان ﷺ مستلقيًا على حَصِير ليس عليه شيءٌ (يعني: ليس على الحصيرِ شيءٌ من فراشٍ أو رداءٍ ونحوه)، وتحتَ رأسِه الشَّريف وسادةٌ محشُوَّةٌ بسُعفِ النَّخيل، وعندَ قدمَيْهِ الشريفتَيْنِ كَوْمةٌ من أوراقِ شجرة. فلمّا رأيتُ آثارَ الحَصِير على جَنْبِ الرَّسول ﷺ دَمَعتْ عيناي، فقال رسولُ الله ﷺ: «ما يُبكيكَ يا عُمر؟»، قلت: يا رسولَ الله، إنّ قَيْصر وكِسرى يعيشونَ في راحةٍ ورفاهيَة، وأنت رسولُ الله؟! فقال ﷺ: «ألا تحبُّ أن تكونَ الدُّنيا نصيبَهم، والآخِرةُ نصيبَنا نحن؟»(١).

﴿ لَكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٌ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ ﴾

١٤١ـ الذين يخشَوْنَ اللهَ تعالى في كلِّ حالٍ ويتَّـقونَه سيكونونَ ضيوفًا على الله تعالى في الجنَّة، والضَّيفُ ليس مسئولًا عن التفكيرِ في الطَّعام والشراب، وإنّما يُستقبَلُ باحترام ويُقيمُ في راحة، ويُقدَّمُ له كلُّ شيءٍ جاهزًا مُعَدًّا، والإنسانُ السَّعيدُ هو الذي سيكونُ اللهُ تعالى مُضيفَه، ومكانُ ضِيافتِه هو الجنَّةَ التي يَصعُبُ علينا ـ في هذه الدنيا ـ تصوُّرُ نِعَمِها وعَظَمتِها، مثلَما قال النبيُّ ﷺ [على لسانِ ربِّ العالمين] فيما رواه سيِّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: **«قال اللهُ عزَّ وجلّ: أعدَدْتُ لعبادي الصّالحينَ ما لا عَيْنٌ رأَتْ، ولا أُذنٌ سَمِعتْ، ولا خَطَر على قلبِ بشَر»**(٢).

---

(١) «وإنّه لعلى حصيرٍ ما بينه وبينه شيءٌ، وتحت رأسه وسادةٌ من أدمٍ حشوها ليفٌ، وإنّ عند رجليه قرظًا مصبورًا، وعند رأسه أهبًا معلّقةً، فرأيت أثر الحصير في جنب رسول الله ﷺ، فبكيت، فقال: ما يبكيك؟ فقلت: يا رسول الله! إنّ كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: أما ترضى أن تكون لهم الدّنيا ولك الآخرة؟». مسلم، برقم ١٤٧٩.

(٢) مسلم، برقم ٢٨٢٤.

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾

١٤٢ـ قبلَ عدّةِ آياتٍ ذَكَر اللهُ تعالى أهلَ الكتابِ وافتراءاتِ عُلمائهم الكاذبةَ، وبَيْعَهم للدِّين، ومؤامراتِهم ضدَّ الإسلام، ولكنّ أهلَ الكتابِ جميعًا ليسوا سواءً، فمنهم الأتقِياءُ والمخلِصونَ ومحِبُّو الحقِّ والذين آمَنوا برسولِ الله ﷺ، وأهلُ الكتاب هؤلاء سيَحظَوْنَ من الله تعالى بأَجْرٍ خاصٍّ عظيم.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

١٤٣ـ في نهايةِ هذه السُّورةِ ينصَحُ اللهُ تعالى المسلمينَ بعِدّةِ أمورٍ يَكمُنُ فيها سرُّ فلاحِهم في الآخِرة، يعني: فعلَ الخير، واجتنابَ السُّوء، والتحكُّمَ في النّفس، والثَّباتَ في لقاءِ العدوِّ، والاستعدادَ الدائمَ لخدمةِ الدِّين، والخوفَ الدائمَ من اللهِ تعالى. ندعو اللهَ تعالى أن يوفِّقَ المسلمينَ جميعًا إلى العَملِ بهذه الأمور، آمين.

الفقير إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزَادَه، جامعةَ الكَرَم، بريطانيا

بفَضْلِ اللهِ تعالى وبإحسانِه اكتَملَ تفسيرُ سورةِ آلِ عِمرانَ بعدَ عصرِ يوم الأحد الرابعَ عَشَر من أبريلَ عام ٢٠٠٢م، الموافقِ الثلاثينَ من محرَّم الحرام عام ١٤٢٣هـ، والحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسَّلامُ على سيِّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(٤) سُورَةُ النِّسَاءِ

هذه السُّورةُ مدَنيَّة؛ لأنها نزَلَتْ بعدَ الهجرة، وقد جاءت فيها الأحكامُ المتعلِّقةُ بالنِّساءِ بكثرةٍ، ولذا سُمِّيت سُورةَ «النِّساء».

ولهذه السُّورةِ أهميَّةٌ عظيمة؛ لأنّ فيها تحديدًا لحقوقِ وواجباتِ أفرادٍ مختلِفينَ في المجتمع، وجاء فيها الحُكمُ بالتعامُل معَ الآخَرين بتسامُح وحُسنِ خُلُق، حتّى يستطيعَ كلُّ فردٍ من أفرادِ المجتمَع أن يعيشَ حياتَه في أمنٍ وسَلام وسعادةٍ وسُرور، ولا يَجُورَ خلالَ ذلك على حقٍّ أحد.

* في السُّورة تحذيرٌ للذين يأكُلونَ مالَ اليتيم بأنَّهم - بفِعلِهم هذا - كأنَّهم يملَأونَ بطونَهم بنارِ جهنَّم.

* في السُّورةِ بيانٌ لمَن تُقبَلُ توبتُه، وما أفضَلُ الأوقاتِ للتَّوبة؟

* في السُّورةِ الإذْنُ للرِّجال بالزَّواج بأكثرَ من واحدةٍ، وكذا جَوازُ اقتناءِ الإماء.

* في السُّورةِ الحُكمُ بحُسن معاملةِ الوالدَيْنِ والأقاربِ والخَدَم والعَبيد.

قبلَ الإسلام كان على كاهلِ المرأة عِبءٌ ثقيلٌ من الواجبات، بينَما خَلا وِفاضُها من الحقوق، إنّها جزءٌ هامٌّ من بني الإنسان، لكنَّها - معَ ذلك - كانت تُعامَلُ معاملةَ الحيَوانات! وتُستَخدَمُ على أنَّها من المتاع والممتلَكات. أمّا

الإسلامُ فقد أبْرزَ حقَّ المرأةِ في إبداءِ رأيِها، وكذا حقُّها في التملُّك، وأعلنَ بوضوحٍ أنّ للمرأةِ حقوقًا على الرَّجل مثلَما أنّ للرَّجلِ حقوقًا على المرأة.

* * *

سُورَةُ النِّسَاءِ (٤)،

مدنية (٩٢)، آياتها (١٧٦)، ركوعاتها (٢٤)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴿٣﴾ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾

١ـ خَلَقَ اللهُ تعالى سيِّدَنا آدمَ عليه السَّلامُ من طِين، ثُم خَلَق من ضِلعِه الأيسَرِ السيِّدةَ حوَّاءَ عليها السَّلام، ثم خَلَق من هذَيْنِ الاثنَيْنِ كلَّ الرِّجال والنِّساء، فالحقيقةُ إذًا هي أنّ اللهَ تعالى خَلَق بني الإنسانِ جميعًا من نفسٍ واحدة، يعني: من سيِّدِنا آدمَ عليه السَّلام.

وهذه الآيةُ تشيرُ إلى الأمورِ التالية:

١ـ اللهُ تعالى هو خالقُ الإنسانِ من عَدَم، وهو متعهِّدُه بالرِّعاية حتَى بلوغِه مراتبَ الكمال، ولهذا فإنّ مقتضَى العَدْلِ والتقديرِ أن يتَّقيَ الإنسانُ ربَّه وخالقَه، وألا يُقصِّرَ في طاعتِه.

٢ـ لو أنّ الإنسانَ نَظَر إلى أكثرَ من مائةِ فردٍ من أهلِه وأقاربِه (يعني: إخوتَه وأخواتِه وأبناءَ إخوتِه وأحفادَه وأعمامَه وأبناءَ وبناتِ أعمامِه وغيرَهم) قبْلَ خمسينَ عامًا، أي: نَظَر إلى الماضي، لَوصَلَ في النِّهاية إلى جَدٍّ واحدٍ فقط، وهو أبو هؤلاءِ جميعًا، وبنفسِ الطَّريقة، فإنَّ كلَّ الأشرافِ المنتشِرينَ في كلِّ أرجاءِ العالَم هم من ذاتٍ واحدة، يعني: السيِّدَة فاطمةَ الزَّهراءَ رضيَ اللهُ عنها. وبنو إسرائيلَ ـ أيضًا ـ يعودونَ إلى ذاتٍ واحدةٍ هي سيِّدُنا يعقوبُ عليه السَّلام، وهؤلاءِ جميعًا خَلَقَهم اللهُ من تراب.

٣ـ أصلُ كلِّ البشَرِ واحد، بمعنى: أنّهم جميعًا أبناءُ أبٍ واحد، وهم جميعًا مشترِكونَ في اللَّحم والدَّم، ولهذا ينبغي لهم أن يتَعايَشوا في أمنٍ وسَلام ومحبَّةٍ وودّ.

٤ـ بنو الإنسانِ في العالَم كلِّه أولادُ أبٍ واحد، ولذا ـ باعتبارِ الإنسانيَّة ـ لا أفضَليَّةَ لأحدٍ على آخَر، فالناسُ جميعًا سواءٌ، لكنّ المستحِقَّ للأفضَليَّةِ هو ذلك

السَّعيدُ الذي يكونُ أكثرَ صلاحًا وأحسَنَ أخلاقًا، ولتوضيح هذه الحقيقة بشكلٍ أفضَلَ، قال رسولُ الله ﷺ في حَجّةِ الوداع:

«يا أيُّها النّاس! ألَا إنّ ربَّكم واحدٌ، وإنّ أباكم واحدٌ، ألا لا فَضْلَ لعربيٍّ على أعجَميٍّ، ولا لعَجَميٍّ على عربيٍّ، ولا لأحمرَ على أسودَ، ولا أسودَ على أحمرَ، إلّا بالتّقوى»[١].

٥- خَلَق اللهُ تعالى السيِّدةَ حوَّاءَ عليها السَّلامُ من ضِلع آدمَ الأيسَر، لكي تمنَحه الراحةَ والسَّكِينة، وقد أحبَّ سيِّدُنا آدمُ عليه السَّلام السيِّدةَ حَوَّاءَ عليها السَّلام، ولمّا أراد مقاربتَها، قالت الملائكة: قَدِّمْ للسيِّدة حَوَّاءَ صَداقَها قبْلَ أن تلمسَها، فسألَهم سيِّدُنا آدمُ عليه السَّلام: وما هو صَداقُ السيِّدة حَوّاءَ عليها السَّلام؟ قالتِ الملائكة: أن تُصلِّيَ على النبيِّ ﷺ ثلاثَ مرَّات[٢].

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾

٢- جاء الأمرُ بالتَّقوى في بدايةِ هذه الآية، وبيَّنت الآيةُ السببَ في ذلك، وهو أنّ اللهَ تعالى خالِقُكم. والآنَ، جاء الأمرُ بالتَّقوى مرةً ثانيةً، وبيَّنتِ الآيةُ السبَب في ذلك، وهو أنّكم تسألونَ بعضَكم متوسِّلينَ باسم الله تعالى، مثلَما تقولون: أعطِني هذا الشيءَ لأَجْل الله، أو لله، أو تقولون: اتَّقِ اللهَ وأعطِني حقِّي، وكذلك تُقسِمونَ

(١) مسند أحمد ٥: ٤١١.

(٢) «إنّ الله تعالى لمّا خَلَق آدمَ عليه السلام ألقى عليه النومَ، ثم خلق حواء عليها السلام من ضلع من أضلاعه اليسرى، فلما استيقظ رآها جالسة عند رأسه، فقال لها: من أنتِ؟ قالت: امرأة، قال: لماذا خلقت؟ قالت: خلقت لتسكن إليَّ، فألفها لأنها خلقت منه ومال إليها وأراد أن يمد يده إليها، فقالت له الملائكة: مه يا آدم! حتى تؤدي مهرها، قال: فما مهرها؟ قالوا: حتى تصلي على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثلاث صلوات». تفسير الخازن، وحاشية العلامة الصاوي على تفسير الجلالين.

باسم الله تعالى وتجعَلونَ من عهودِكم ووعودِكم أمورًا يوثَقُ فيها ويُعتمَدُ عليها، فإذا كنتمُ في تعامُلاتِكم اليوميَّة تتوسَّلونَ باسمِه تعالى، فهل يليقُ بكم إذًا أن تعصُوه؟

﴿وَٱلْأَرْحَامَ﴾

٣ـ أي: عامِلوا أقارَبكم معاملةً حسَنة، واخشَوا اللهَ تعالى واتَّقوه فيما يَتعلَّقُ بقَطْع الأرحام؛ لأنّ اللهَ تعالى يقينًا يرى أحوالَكم وأعمالَكم، وقد قال النبيُّ ﷺ فيما يَتعلَّقُ بصِلةِ الرَّحِم:

١ـ «الرَّحِمُ (صِلةُ الدَّم) مُعلَّقةٌ تحت العَرْشِ تنادي: اسمَعوا جيِّدًا، لِيَصِلِ اللهُ مَن وَصَلني، ويَقْطَعْ من قَطَعني»[١].

٢ـ «تغشَى رحمةُ الله قومًا ليس بينَهم قاطعُ رَحِم»[٢].

٣ـ «مَن لم يَرْعَ حقوقَ القَرابة لم يَدخُل الجنَّةَ»[٣].

ملحوظة: راجِع الحاشيةَ رقم ٥٢ للآية رقم ٣٦ من سُورةِ النِّساء.

﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾

٤ـ اليتيمُ يقالُ: لذلك الطِّفلِ أو الطِّفلةِ التي مات أبوها ولم تَبلُغْ بعدُ، وفي الآيةِ أمرٌ لوليِّ أمرِ اليتيم بأنّ المالَ الذي وَرِثَه اليتيمُ من أبيه المتوفَّى أمانةٌ عندَك،

---

(١) عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «الرّحم معلّقةٌ بالعرش تقول: من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه الله». مسلم، كتاب البر برقم ٢٥٥٥.

(٢) المشكاة: عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تنزل الرّحمة على قومٍ فيهم قاطع الرّحم». ٤٢٠: باب البر.

(٣) عن جبيرٍ رضي الله عنه، أنّ رسول الله ﷺ قال: «لا يدخل الجنّة قاطع رحم». مسلم، كتاب البر برقم ٢٥٥٦.

فلا ينبغي مثلًا أن تَستبدِلَ أسوأَ ما تملِكُ أنت بأحسنِ ما يَملِكُ اليتيم، أو أن تَخلِطَ مالَ اليتيم بمالِك وتستوليَ عليه، فمِثلُ هذه الخِيانة ذنبٌ عظيم، وقد قال اللهُ تعالى في الآيةِ رقم ١٠ من هذه السُّورة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾، ولهذا يجبُ على وليِّ أمرِ اليتيم أن يعهَدَ إليه بمالِه كاملًا ـ وبكلِّ أمانةٍ ـ عندَما يَبلُغ مبلغَ الرجال؛ لأنّ اليتيمَ أكثرُ مَن يستحِقُّ الشَّفقةَ بسببِ عجزِه وقلّةِ حيلتِه.

رعاية اليتامى

١ـ عن أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه، عن النّبيِّ ﷺ، قال: «خيرُ بيتٍ في المسلمين بيتٌ فيه يتيمٌ يُحسَنُ إليه، وشرُّ بيتٍ في المسلمين بيتٌ فيه يتيمٌ يساءُ إليه»[١].

٢ـ عن أبي أُمامةَ رضي اللهُ عنه، أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «من مَسَح رأسَ يتيمٍ لم يمسَحْه إلّا لله كان له بكلِّ شَعَرةٍ مرَّتْ عليها يدُه عشْرُ حسَناتٍ، ومَن أحسنَ إلى يتيمةٍ أو يتيمٍ عندَه كنتُ أنا وهو في الجنّة كهاتَيْن»، وفرَّقَ بينَ أصبعَيْه: السَّبّابةِ والوُسطى[٢].

٣ـ أَخرج ابنُ جَرير وابنُ أبي حاتم، عن السُّدِّيِّ، في الآية (١٠)، قال: «إذا قام الرَّجلُ يأكلُ مالَ اليتيم ظُلمًا يُبعَثُ يومَ القيامة ولهَبُ النار يَخرجُ مِن فيه ومِن مَسامعِه ومِن أُذُنَيْه وأنفِه وعينَيْه، يَعرِفُه مَن رآه بأكلِ مالِ اليتيم»[٣].

﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾

٥ـ كثيرًا ما يتزوَّجُ القائمُ على أمرِ يتامَى البناتِ منهُنَّ، حتى يبقَى مالُ هؤلاءِ

---

(١) ابن ماجه، أبواب الأدب، باب ٦ برقم ٣٦٧٩.

(٢) مسند أحمد ٥: ٢٥٠.

(٣) تفسير الدر المنثور، سورة النساء (٤): الآية: ١٠.

اليتيماتِ عندَه هو، وفي نفسِ الوقت لا يُعطيهِنَّ الصَّداقَ الذي يناسبُ وَضْعَهنَّ، ولا يَعدِلُ معَهنَّ في الحقوقِ الزَّوجيَّة، ولهذا جاء الأمرُ من الله تعالى أنْ لو كنتُم تخشَوْنَ أنْ لا تؤدُّوا حقوقَ هؤلاءِ اليتيماتِ اللَّائي لا سَنَد لهُنَّ فلا تتزوَّجوا مِنهُنَّ، وإنَّما تزوَّجوا ممَّن تُحِبُّونَ حتّى أربعًا من النِّساء الأُخْرَيات، ويجوزُ لكم أن تَجمَعوا بينَ أربع نِسوةٍ في وقتٍ واحد، سواءٌ كُنَّ من اليتامَى أو من غيرِهنَّ من حرائرِ النِّساء، ولكنْ بشرطِ العَدْلِ بينَهنَّ، إلّا أنه ليس هناك تحديدٌ لعددِ الإماءِ اللائي يمكنُ لكم الاحتفاظُ بِهنَّ.

﴿مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾

٦ـ سَمَح الإسلامُ للرَّجل أن يَجمَعَ بينَ أربع زَوْجاتٍ في وقتٍ واحد؛ لأنّ هذه الطَّريقةَ تَحُلُّ كثيرًا من المشاكل والمُعضِلات، وتأمَّل الحِكمةَ من وراءِ هذا، والأسبابَ والشروطَ فيما يلي:

١ـ لم يضَعْ أيُّ كتابٍ سَماويٍّ سابقٍ حدًّا لعددِ الزَّوجاتِ اللائي يُمكنُ أن يَجمَعَ بينَهنَّ الزَّوجُ، ولذا كان كلُّ رجل حرًّا يتزوَّجُ بأيِّ عددٍ شاء، وكان القرآنُ الكريمُ هو أولَ كتابٍ يأمُرُ بالاكتفاءِ بزوجةٍ واحدة، وأجازَ ـ عندَ الضَّرورة ـ الزَّواجَ بأكثرَ من واحدةٍ وحتى أربعة، وقد أمَرَ النبيُّ ﷺ كلَّ من كان متزوِّجًا بأكثرَ من أربعةٍ في وقتِه بأنْ يحتفظَ بأحبِّ أربعةٍ إلى نفسِه، ثم يُطلِّقَ الباقيات[1].

٢ـ الإسلامُ لا يُجبرُ المرأةَ على الزَّواج من رجُل متزوِّج، وإنّما يتوقَّفُ هذا على رغبتِها هي، حتّى أنه بعدَ الزَّواج يجوزُ للمرأةِ أن تطلُبَ الطلاقَ عن طريقِ المحكمةِ إذا رأَتْ أنّ الزَّوَج لا يقومُ بواجباتِه الزَّوجيَّة، وتستطيعُ أن تتزوَّجَ من أيِّ رجُلٍ آخَرَ بمَحْض اختيارِها بعدَ انقضاءِ العِدَّة.

---

(١) «عن ابن عمر رضي الله عنه: أنّ غيلان بن سلمة الثّقفيّ أسلم وله عشر نسوةٍ في الجاهليّة، فأسلمن معه، فأمر [ه] النّبيّ ﷺ أن يتخيّر أربعًا [منهنّ]». الترمذي، برقم ١١٢٨.

٣ـ لم يأمُرِ الإسلامُ بالزَّواج بأكثرَ من واحدة، أي: لم يُلزِم المسلمَ بالزَّواج من أربعة، كما أنَّ الإسلامَ لم يُرغِّبْ في ذلك، أي: لم يقُلْ بأنَّ مَن يتزوَّجُ بأكثرَ من واحدٍ أفضَلُ ممَّن يتزوَّجُ بواحدةٍ فقط، وإنّما أجاز الإسلامُ التعدُّدَ عندَ الضَّرورةِ فقطْ، ووَضَع لهذه الضَّرورةِ أيضًا شرطًا قاسيًا، وهو: أنّ الشَّخصَ الذي يجوزُ له التعدُّدُ هو ذلك الذي يستطيعُ أن يُساويَ بينَ زوجاتِه ويَعدِلَ بينَهنَّ، ومَن يخشَى ألّا يَعدِلَ وَجَب عليه الاكتفاءُ بزوجةٍ واحدة فقطْ، وهذا هو الرائجُ بينَ المسلمين بشكلٍ عامّ، فالأكثريَّةُ منهم تكتفي بزوجةٍ واحدة، وعلى أكثرِ تقدير، لا يُعدِّدُ سوى نسبةٍ لا تتعدَّى اثنَيْنِ أو ثلاثة في المئة، ويكونُ ذلك بسببِ ضرورةٍ من الضَّروريَّات.

ملحوظة: المرادُ بالإنصافِ بينَ الزَّوجات: هو أن يُساويَ الزَّوجُ بينَهنَّ في الإنفاقِ والمعاملة وحُسن السُّلوك والجِماع، ولا يُنافي العدلَ أن يكونَ لديهِ مَيْلٌ قلبيٌّ لواحدةٍ منهنَّ أكثَر من الباقيات؛ لأنّ هذا أمرٌ فِطريٌّ لا يَملِكُ الإنسانُ من أمرِه شيئًا، وقد تحدَّثتِ الآيةُ رقم **١٢٩** من هذه السُّورة عن هذا المَيْل القلبي.

٤ـ في كثيرٍ من الدُّول تزيدُ نسبةُ المواليدِ الإناثِ على نسبةِ المواليد من الذُّكور، وبالإضافةِ إلى ذلك يموتُ آلافٌ مؤلَّفةٌ من الرِّجالِ في الحروبِ والمعارك، وهو ما يضيفُ إلى تَعدادِ النِّساء، ولو لم يتزوَّج الرَّجلُ بأكثَر من واحدةٍ فأين تذهبُ بقيَّةُ النِّساء؟ أمامَهن عندَئذٍ صورةٌ من اثنتَيْنِ، إمّا أنْ تبقى طُولَ عُمرِها بغير زواج، وهو ما يُخالفُ الفطرةَ ويُعَدُّ ظلمًا لها، وإمّا أن تُلبِّي حاجاتِها النَّفسيَّةَ بطريقةٍ غيرِ شرعيَّة، وهو ما لا يَسمَحُ به الإسلام؛ لأنّ مثلَ هذه المرأةِ إن أقامت علاقةً غيرَ شرعيَّة معَ رجُل متزوِّج، فماذا يكونُ مصيرُ زوجتِه وأولادِه؟

٥ـ البلادُ التي لا تَسمحُ بالزَّواج بأكثَر من واحدةٍ تنتشرُ فيها الفحشاء، وهذا هو السَّببُ ـ في الغالب ـ في الزِّيادةِ المستمرَّة في أعدادِ الأطفال غير القانونيِّينَ والأُمَّهاتِ غيرِ المتزوِّجاتِ في أوروبا وأمريكا، وأمثالُ هؤلاءِ الأطفال والأُمَّهاتِ

يعيشونَ في حِرمانٍ من المحبَّة والشَّفَقةِ والتعليم والتَّربية والاهتمام والرِّعاية، وفي نهايةِ الأمر ينحرفونَ عن الطَّريقِ ويصبحونَ وَبالًا على مجتَمعاتِهم وحكوماتِهم.

٦ـ طِبقًا لإحدى الإحصائيَّاتِ، يفُوقُ عددُ النِّساء في بريطانيا وحدَها عدَدَ الرِّجال بأربعةِ ملايينَ امرأةٍ، فلو أنّ كلَّ رجُل في بريطانيا لم يتزوَّجْ بأكثرَ من واحدة، فماذا يكونُ مصيرُ هؤلاءِ الملايين الأربعةِ من النِّساء، واللَّائي لا زَوْجَ لهنَّ؟

* ألا تقتضي فِطرتُهنَّ ما تقتضيه فِطرةُ النِّساءِ المتزوِّجات؟

* ألا تتولَّدُ في قلوبِهنَّ الرغبةَ في أن يكونَ لهُنَّ أزواجٌ يعيشونَ مَعهنَّ ويحبُّونَهنَّ؟

* ألا يَرغَبْنَ في أن يكونَ لهنَّ أولاد، ويتحمَّلَ أحدُهم مسئوليَّةَ هؤلاءِ الأولاد؟

* أليس من الواجبِ على المجتمع أن يتفكَّرَ في أمرِ هؤلاءِ النِّسوةِ اللَّائي لا زَوْجَ لهنَّ؟

٧ـ قانونُ تعدُّدِ الزَّوجات من الأهميَّة بمكانٍ للمجتمَع الإنسانيِّ بحيثُ يسيرُ العالَمُ كلُّه وِفقًا له، والفارقُ فقطْ هو: أنّ المسلمَ يقومُ به علانيَةً باعتبارِه جائزًا ومشروعًا، وغيرُ المسلم يقومُ به في الخفاءِ مُخادِعًا بذلك زوجتَه، وقد تحطَّمت أُسرٌ عريقةٌ ورؤساءُ كبارٌ في العالَم جَرَّاءَ هذه الخِيانة، وتفتَّحت أعيُنُ العالَم على الحقيقة حين اعتَرفَ أولئك الرُّؤساءُ بارتكابِ الخيانةِ على شاشاتِ التلفاز.

٨ ـ في حياةِ المرأة مراحلُ حَسّاسةٌ، مثلَ: أيام الحَيْضِ والنِّفاس والحَمْل والولادةِ وتربيةِ الأولاد وغيرِها تَقِلُّ فيها الرَّغبةُ الجِنسيَّةُ عندَ المرأة، بينَما الرَّجلُ بعيدٌ عن مثلِ هذه المراحلِ الطبيعيَّة، ولذلك يكونُ في حاجةٍ إلى طريقٍ بديل

لإشباع رغبتِه، وأفضَلُ هذه الطُّرقِ وأكثرُها اعتدالًا وشرعيَّةً هو: الزَّواجُ الثاني؛ لأنه لو أشبَعَ رغبتَه بطريقةٍ غيرِ شرعيَّة وافتُضح أمرُه فسوف يَتضرَّرُ زواجُه الأول، ويواجِهُ خَطرَ التحطُّم.

٩ـ تبقَى إمكانيَّةُ إنجابِ الأولاد في الرَّجل حتّى سنِّ السبعينَ (٧٠) تقريبًا، في حينَ أنّ هذه الإمكانيَّةَ في المرأةِ تنتهي عندَ سنِّ الخمسين (٥٠) في الغالب، ولو أنّ الرَّجلَ رَغِبَ في الأولادِ خلالَ هذه السَّنواتِ العشرينَ، فكيف يُلبِّي رغبتَه هذه دونَ زواج آخَر؟

١٠ـ لو أنّ زوجةَ أحدِهم كانت عاقرًا لا تُنجب، وطلَّقها زوجُها في هذه الحالة، فمَن يتزوَّجُ من هذه المرأةِ العقيم بعدَ ذلك؟ لكنْ لو سُمِح لزوجِها بالزَّواج من ثانيةٍ فتستمرُّ رعايةُ الزَّوجةِ الأولى (العقيم) من جانب، وتحقَّقتْ رغبةُ الزَّوج في الأولادِ من جانبٍ آخَر.

١١ـ لو أُصيبتْ زوجةُ أحدِهم في حادثٍ بإعاقةٍ جسَديَّة أو ذِهنيَّة، فسيكونُ من الصَّعبِ على الزَّوج أن يَرعَى الأولادَ، وفي نفسِ الوقت يعمَلُ لكسبِ المَعاش، ويتحكَّم في رغبتِه الجِنسيَّة طالما بقيَ له من العُمرِ بقيَّة، ولذا فإنّه في مثلِ هذه الحالة يكونُ الزَّواجُ الثاني بمَثابةِ العَوْنِ لأطفالِه ولزوجتِه أيضًا، وفي نفسِ الوقت تَحُلُّ مشكلةَ إشباع الرَّغبةِ لدى الرَّجل.

١٢ـ لوحظَ أنّ الزَّوجَيْنِ المحرومَيْنِ من الأطفال يقومونَ بتبنِّي أطفالِ الآخَرينَ ليشعُروا بذلك بالرَّاحةِ النفْسيَّة، أليس أفضَلُ من هذا أنْ تَقبَلَ الزَّوجةُ الأُولى بالزَّواج الثاني لزوجِها، وبدَلًا من تبنِّي أولادِ الآخَرين تتبنَّى أولادَ زوجِها وتمنَحُهم الحبِّ الحقيقيَّ للأُمِّ، وبهذه الطَّريقةِ تصبحُ مِحوَرًا لحبِّ ضَرَّتِها وزوجِها وأولادِهما؟

١٣ـ إنّ فُرصَ الزَّواج ثانيةً للمرأةِ الأرملة أو المطلَّقة عادةً تكونُ محدودةً، وأمثالُ هؤلاء النِّساء يَعِشْنَ بقيَّةَ حياتِهنَّ وحيدات، فلو كان هناك إذنٌ بالزَّواج الثاني لَأصبحت هذه المرأةُ ـ بمَحْض رغبتِها ـ زوجةً ثانيةً لأيِّ زوج، وبالتالي تنتهي وحدتُها.

١٤ـ الرَّغبةُ الجِنْسيَّةُ في الرَّجل أكبرُ من مثيلتِها عندَ المرأة، والدَّليلُ العمَليُّ على ذلك هو: أنّ الرَّجلَ عادةً هو الذي يُنفِقُ لقاءَ إشباع هذه الرَّغبة، وسواءٌ كان الرَّجلُ صالحًا أم طالحًا، كلاهما يَخرُجُ من بيتِه لتلبيةِ هذه الرَّغبة، لكنّ واحدًا منهما (الصَّالح) يبحَثُ عن أُسرةٍ طيِّبة، ويَطلُبُ الزَّواجَ من ابنتِها، فإنْ وافقَتِ الأُسرةُ قَدَّم الصَّداقَ وأتمَّ الزَّواجَ، بينَما الطَّالح يَخرُجُ من بيتِه لإشباع هذه الرَّغبة، فيذهبُ إلى بيوتِ الدَّعارة، فإنْ صادَفَ امرأةً دفَعَ إليها المقابلَ الماديَّ وقضَى وَطَرَه منها، وفي الحالتَيْنِ (حالةِ الصَّالح والطالح) الرَّجلُ هو الذي يبحَث، وهو الذي يُنفِقُ من مالِه ويُضحِّي به، بينَما لا تَخرُجُ المرأةُ بحثًا عن هذا الأمر، ولا تُضحِّي في سبيل ذلك بمالِها، وإذا خَرَجتِ امرأةٌ من بيتِها لفعل الفحشاءِ، فإنّ هَدفَها ـ في الغالب ـ يكونُ الحصولَ على المال.

وبناءً على ما سَبَق من أسبابٍ، فإنّ الإسلامَ أجاز الزَّواجَ بأكثرَ من واحدةٍ عندَ الضَّرورة، وهو ما يناسبُ الفِطرةَ والحِكمةَ تمامًا، ويضمَنُ الصَّلاحَ والفلاحَ للمجتمع، بحيث لا يَملِكُ كاتبٌ مثلَ منتوجمري وات، الذي لا يَتوانى عن تشويهِ الإسلام، إلّا أن يعترفَ بإفاديَّةِ تعدُّدِ الزَّوجات قائلًا:

«لقد عالج قانون تعدد الزوجات بعض المظالم التي نتجت عن زيادة حب الانفرادية، فقد وفر هذا القانون فرص الزواج الكريم للنساء الزائدات، وأنقذهن من ظلم القائمين على أمرهن، ولقد قلل هذا القانون من الترغيب في العلاقات الجنسية الذي يقوم على غير زواج والذي كان مسموحًا به عند العرب، ولذا فإن

هذا القانون يعدّ بمثابة خطوة إصلاحية هامة في تنظيم المجتمع إذا وضعنا في الاعتبار العادات والتقاليد التي كانت قائمة آنذاك»[١].

أكثر من زوج!

يقولُ بعضُ النّاس: إذا كان الرَّجلُ يستطيعُ أن يَجمَعَ بينَ أكثرَ منَ امرأةٍ في وقتٍ واحد، فيجبُ أن يُسمَحَ للمرأةِ ـ أيضًا ـ أن تحتفظَ بأكثرَ من زَوْج في وقتٍ واحد، وكانت هناك بعضُ المجتمعات قبلَ الإسلام تتزوَّجُ فيها المرأةُ بأكثرَ من رجُلٍ في وقتٍ واحد، لكنّ الإسلامَ مَنَع هذا، بمعنى: أنه لا يجوزُ للمرأةِ أن تَجمَعَ بينَ زوجَيْنِ أو أكثَر في وقتٍ واحد؛ لأنّ هذا يَخلُقُ مشاكلَ كثيرةً، تُدمِّرُ أمنَ المجتمع وسلامتَه، فعلى سبيل المثال:

١ـ بهذه الطَّريقةِ يصبحُ نسَبُ الأبناءِ مشكوكًا فيه، ولن يتأكَّدَ زوجٌ ممَّا إذا كان هذا الابنُ له أم لا؟ وإذا قلنا: إنه يمكنُ تحديدُه عن طريقِ إجراءِ تحليل إثباتِ النَّسَب (دي إن آيه: D.N.A)، فإنّ الزَّوجَ الثانيَ سيَحقِدُ على هؤلاءِ الأبناء، ممَّا سيكونُ باعثًا على قَلَق الزَّوجة، التي ستقولُ لنفسِها: أيُّ زَوْج هذا الذي يَستقبِلُني لإشباع رغبتِه الجِنسيَّة، لكنّه يحقِدُ على فَلْذةِ كَبِدي (الابن)، وستكونُ نتيجةُ هذا أن يَعُمَّ الأُسرةَ البُغضُ والكراهيَةُ والعِناد، ممَّا سيُحيلُ حياةَ الجميع إلى جهنَّم.

٢ـ من الفِطرة الإنسانيَّةِ أنّ أحدًا من الزَّوجَيْنِ لن يتحمَّلَ وجودَ علاقاتٍ جِنسيَّةٍ لآخَرَ مَع رفيقتِه، بينَما تتحمَّلُ المرأةُ المريضةُ مرضًا مُزمِنًا، أو المرأةُ العاقرُ هذا الأمرَ معَ ضَرَّتِها بسببِ اضْطِرارِها.

٣ـ الزَّوجُ الذي سيكونُ قويًّا من الناحية الجَسَديَّة سيَصطحبُ الزَّوجةَ وقتَما يحب، بينما يَنظُرُ إليه الآخَرُ بحسرة، وهكذا يسودُ الأُسرةَ قانونُ الغاب.

---

(١) محمد في المدينة، ٢٧٧.

٤ـ لو أنّ أحدَ الزَّوجَيْنِ لَزِمَ الفراشَ لحادثٍ ألمَّ به، وكان في حاجةٍ ماسَّةٍ لرُفقةِ زوجتِه من أَجْل رعايتِه في تقديم الدَّواءِ إليه ومساعدتِه في رَفْع حاجتِه، وفي هذه الأثناءِ يكونُ من الصَّعب التغاضي عن الحاجةِ الجِنسيَّةِ للزَّوج الآخَر. على العكس من ذلك، إذا حَدَث نفسُ الأمرِ مع إحدى الزَّوجات، فإنّ باقيَ الزَّوجاتِ سوف يُسارِعْنَ إلى خِدمتِها إرضاءً للزَّوج وتخفيفًا للأعباءِ عنه.

٥ـ حين تنشغلُ المرأةُ بحَمْلِها من أحدِ زوجَيْها، ثم ولادةِ الطِّفل وتربيتِه، فإنّ أبا الطِّفل سيشعُر بطُمَأْنينةٍ بسببِ الطِّفل، ولكنْ كيف سيصبِرُ الزَّوجُ الآخَرُ كلَّ هذه المدة؟

٦ـ في حالة الحَيْضِ الذي يستمرُّ أيامًا، والنِّفاس الذي يستمرُّ أسابيعَ، والحَمْل الذي يستمرُّ شهورًا، لا تستطيعُ الزَّوجةُ تلبيةَ احتياجاتِ زوج واحد، فلو كان لها أكثرُ من زَوْج، فكيف ستؤدِّي حقوقَهم؟

٧ـ أحدُ المقاصِد الأساسيَّة للزَّواج هو إنجابُ الأولاد، والذي يؤدِّي إلى استمراريَّةِ النَّسْل البشَريِّ، ويُمكنُ لأكثرَ من زوجةٍ أن يَحمِلْنَ من رجُلٍ واحدٍ في يوم واحد، بينَما لا يمكنُ ذلك في حالةِ المرأةِ المتزوِّجة بأكثرَ من رجل، فهي لن تحملَ إلّا من رجُلٍ واحد، وهذا الفرقُ الفِطريُّ ـ بيْنَ الرجُلِ والمرأةِ ـ دليلٌ على أنّ الرَّجُل يستطيعُ أن يَجمَعَ بينَ أكثرَ من زوجة، بينَما المرأةُ لن تحمِلَ إلّا من رجُلٍ واحد، حتّى وإن جامَعَها في اليوم الواحد عشَرةُ رجال، ولهذا فإنّ المرأةَ لا تَحتاجُ إلّا إلى زَوْج واحدٍ بفِطرتِها.

ملحوظة: طِبقًا للأبحاثِ الطِّبيَّة الحاليَّةِ تُفرِزُ المرأةُ بصفةٍ عامَّةٍ بُويْضةً واحدةً فقط، بينَما يُفرِزُ الرَّجلُ في كلِّ مرةٍ أكثرَ من خمسِمائةِ مليونِ حيَوانٍ مَنَويّ، وما أنْ يلتقيَ الحيَوانُ المَنَويُّ للرَّجل ببُويْضةِ المرأةِ حتّى تُحاطَ هذه البُويْضةُ

بغشاءٍ لا يسمَحُ بدخولِ أيِّ حيَوانٍ مَنويٍّ آخَرَ. وبشكلٍ عامٍّ يولَدُ من هذه البُويْضةِ طفلٌ واحد، ولكنْ في بعض الأحيان يولَدُ أكثرُ من طفل، لكنّ والدَهم يكونُ واحدًا؛ لأنَّهم يولَدونَ من حيَوانٍ مَنويٍّ واحد.

في بعضِ الأحيان تُفرِزُ المرأةُ أكثرَ من بُويْضةٍ واحدة، وإذا تَلَقَّحت كلُّ بُويْضةٍ بحيَوانٍ مَنَويٍّ من الرَّجل، وأخَذ يَنتُجُ عن كلِّ واحدةٍ منها وجودُ جنين، فإنّ الأطفالَ الذين سيولَدونَ من هذه البوَيْضاتِ كلِّهم يمكنُ أن يكونوا لأبٍ واحد، ويمكنُ أن يكونوا لأكثرَ من أب؛ لأنّ الحيَواناتِ المَنويّةَ هنا مختلفة، لكنّ الاحتمالَ الأكبرَ أن يكونَ هؤلاءِ الأطفالُ جميعًا لأبٍ واحد، لأنّ المرأةَ تُفرِزُ البوَيْضاتِ كلَّها في وقتٍ واحد، وتنتهي صَلاحَيةُ هذه البوَيْضاتِ بعدَ أربع وعشرينَ ساعةً، ثم لا تُفرَزُ بُويْضاتٌ أُخرى أثناءَ الحمل.

اعتراضات المستشرقين على تعدد أزواج النبي ﷺ

مَنَح النبيُّ الكريمُ ﷺ شَرَفَ زَوْجيَّتِهِ لإحدى عشْرةَ سيِّدةً، بينَما يَذكُرُ الكتابُ المقدَّسُ أنّ سيِّدَنا سُليمانَ عليه السَّلام كان له سبعُمائةِ زوجةٍ وثلاثُمائةٍ من الإماء(١).

وفي ضوءِ هذه الخَلْفيَّة نَرى أن زواجَ النبيِّ ﷺ بإحدى عشْرةَ سيِّدةً ليس أمرًا عجَبًا أو بِدْعًا من عندِ نفسِه، وإنّما هي سُنّةُ الأنبياءِ الكرام عليهم السَّلام، لكنّ المستشرقينَ يعترِضونَ قائلينَ: إذا كان قد تحدَّدَ لأُمَّته ﷺ أربعُ زوجاتٍ في وقتٍ واحد، فلماذا جَمَع هو بينَ أكثرَ من ذلك؟ والحقيقةُ أنّ في حياةِ الأنبياءِ عليهم السَّلام أمورًا عديدةً تُعَدُّ من خصائصِهم، ولم تؤمَرْ أُمّةُ أحدِهم باتِّباعِهم في هذه الأمور، مثلَما أنّ عيسى عليه السَّلام لم يتزوَّجْ، ولا بدَّ أنّ وراءَ ذلك حِكمةً على

---

(١) "He had seven hundred wives and three hundred concubines" – (The Living Bible: **1**Kings: **11**:3).

وَجْهِ اليقين يَعلَمُها اللهُ تعالى، فهذا الأمرُ إذًا من خصائصِه هو عليه السَّلام، لكنْ لا يمكنُ أن نَعُدَّه من سُنَّتِهِ التي يَلزَمُ متَّبِعيه العمَلُ بها، لأنه لو عَمِلت أُمَّتُه كلُّها بمقتضَى هذه السُّنَّة لانْتهَى نَسْلُه، ولَما وُجِد في الدُّنيا اليومَ نَصْرانيٌّ واحد، وللنبيِّ الكريم ﷺ بعضُ الخصائص أيضًا لم تكنْ لنبيٍّ من الأنبياءِ غيرِه، مثلَما أنّ زمنَ نُبوَّةِ الأنبياءِ جميعًا محدَّدٌ بفترةٍ معيَّنة وبقوم معيَّنينَ وأرضٍ معيَّنة، لكنّ النبيَّ ﷺ مبعوثٌ للبشَرِ كافّةً حتى قيام الساعة، وللنبيِّ ﷺ بعضُ الخصائص لا تشاركُه فيها أُمَّتُه، مثلَ: أنّ الزَّكاةَ ليست فَرْضًا عليه ﷺ، وأنّ زوجاتِه ﷺ أمّهاتٌ للمؤمنينَ جميعًا: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، بمعنى: أنّ على كلِّ مؤمنٍ أن يَحترِمَهُنَّ كأُمِّه، ولا يجوزُ أن يتزوَّجَ منهُنَّ أحدٌ، كما أنّ الصَّومَ المتواصِل كان من خصائصِه ﷺ، حيث مَنَع صحابتَه الكرامَ من مُواصلةِ الصَّوم مثلَه، فقال الصَّحابةُ رضوانُ الله عليهم: إنّك تواصلُ الصَّومَ يا رسولَ الله (ونحن بمواصلةِ الصَّوم نَتَّبعُ سُنَّتَك)، فقال ﷺ: «إنّي لستُ مثلَكم، فربِّي هو الذي يُطعمني ويَسقيني»(١). ومن هذه الخصائِص أيضًا: أنّ أحدًا غيرَه من أُمَّتِه لا يجوزُ له أن يَجمَعَ بينَ أكثرَ من أربع زوْجاتٍ في وقتٍ واحد، وعلى هذا إجماعُ الأُمَّةِ واتِّفاقُها(٢). والمستشرقونَ لا يعترِفونَ بهذه الخاصيَّةِ للنبيِّ ﷺ، ويعتقدونَ أنه ﷺ ـ معاذَ الله ـ لم يستطع التحَكُّمَ في رَغَباتِه وشَهَواتِه فتزوَّج كثيرًا.

---

(١) عن عائشة رضي الله عنها، قالت: نهى رسول الله ﷺ عن الوصال رحمةً لهم، فقالوا: إنّك تواصل، قال: «إنّي لست كهيئتكم، إنّي يطعمني ربّي ويسقين». البخاري، كتاب الصوم، باب ٤٨ برقم ١٩٦٤.

(٢) «وهذا عند العلماء من خصائصه صلى الله عليه وآله وسلم دون غيره من الأمة ـ لا يجوز لأحد غير رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يجمع بين أكثر من أربع نسوة، وهذا الذي قاله الشافعي مجمع عليه بين العلماء». تفسير ابن كثير.

فإذا ما ألقَيْنا نظرةً عابرةً على سِيرةِ المصطفى ﷺ لنرُدَّ على هذا الكلام لم يستطعْ صاحبُ فطرةٍ عادلة أن يَحمِلَ تعدُّدَ أزواج النبيِّ ﷺ على إشباع الرَّغبةِ الجِنْسيَّة؛ لأنّ هذه الرَّغبةَ تكونُ في أَوْجِها بصفةٍ عامَّةٍ من سنِّ الخامسةَ عشْرةَ حتى الخمسين، وقد قَدَّم ﷺ نموذجًا رائعًا للتحكُّم في الرَّغَباتِ من سنِّ الخامسةَ عشْرةَ حتى سنِّ الخامسةِ والعشرين، بحيثُ لم يستطعْ حتّى العدوُّ أن يَنبِسَ ببِنتِ شَفَةٍ عن عِفَّتِه ﷺ، وفي سنِّ الخامسةِ والعشرين تزوَّجَ ﷺ للمرَّة الأُولى بزَوْجةٍ واحدةٍ وكانت أرملةً (السيِّدةِ خديجةَ رضيَ اللهُ عنها)، وكانت أكبرَ منه بخمسةَ عشَر عامًا، وقضَى النبيُّ ﷺ معَ هذه السيِّدة الجليلةِ الأرملة خمسةً وعشرينَ عامًا، ولكَ أن تتصوَّرَ أنه حين كان عُمُرُ النبيِّ ﷺ خمسينَ عامًا كانت زوجتُه في الخامسةِ والستِّينَ من عُمرِها، يعني: أنّ النبيَّ ﷺ لم يُفكِّرْ مجرَّدَ التفكير في أن يتزوَّجَ عليها برَغْم شيخوختِها، فإذا اتَّهمه أحدٌ بأنه لم يستطعْ أن يَضبِطَ رغبتَه الجِنسيَّةَ فتلك كذبةٌ عظيمةٌ لم تسمع الدُّنيا بمثلِها من قبْلُ.

كانت هذه الخمسونَ سنةً من عُمرِه ﷺ ومعَها عُنفُوانُ شبابِه أمامَ أنظار أهل مكَّةَ، ولم يَحدُثْ أبدًا أنْ تَفوَّهَ أحدُ المشركينَ بكلمةِ سُوءٍ عن حياتِه ﷺ الطَّاهرة يتَّهمُه فيها بالانحرافِ الجِنسيِّ، وإنّما لقَّبوه بالصَّادقِ الأمين، ولو كان السَّببُ في تعدُّدِ أزواجِه ﷺ هو الرَّغَباتِ النَّفْسانيَّةَ والشَّهواتِ الجِنسيَّةَ لكان أَوْلى به أن يُعدِّدَ في شبابِه لا في كِبَرِ سنِّه ﷺ.

«رُوِيَ أنّ سادات قُريشٍ اجتمَعوا وقالوا: يا محمَّد! إن كنتَ إنّما جئتَ بهذا الحديثِ (الإسلام) تَطلُبُ به مالًا جمَعْنا لكَ من أموالِنا حتّى تكونَ أكثرَنا مالًا، وإن كنتَ إنّما تَطلُبُ الشَّرفَ فينا فنحن نُسوِّدُك ونُشرِّفُك علينا، وإن كنتَ تريدُ مُلكًا مَلَّكْناك علينا، وإن كان أنّ ما بكَ الباءةُ، فاختَرْ أيَّ نساءِ قُريشٍ فنزوِّجكَ عشْرًا، ولكنِ

ارجِعْ إلى دينِنا واعبُدْ آلهتَنا واترُكْ ما أنت عليه، فقال صلى الله عليه وآلِه وسلَّم: ما جئتُ بما جئتُكم به أطلُبُ أموالَكم ولا الشَّرفَ فيكم ولا المُلكَ عليكم، ولكنّ اللهَ بعثَني إليكم رسولًا، واللهِ! لو وضَعتُم الشَّمسَ في يميني والقمرَ في يساري على أنْ أترُكَ هذا الأمرَ حتّى يُظهِرَه اللهُ أو أهلِكَ فيه ما تركتُه»[1]. فهل في هذه الحياةِ الماديَّة أُمنيَةٌ أكبرُ من أن يكونَ الإنسانُ حاكمًا لبلدِه وأغنَى أغنيائها؟ فلو كان خَطَر على بالِ النبيِّ ﷺ مجرَّدُ خاطرٍ أن يُعدِّدَ الزَّوجاتِ، وأن يَحكُمَ ويَملِكَ، لَما كان عرضٌ أفضلَ من هذا العَرْض بالنِّسبةِ له، لكنّ مُهمَّتَه ﷺ كانت الدَّعوةَ إلى التوحيدِ فقطْ، وقد واجَه بسببِها مصائبَ كالجبال، ولكنَّه لم يتخَلَّ عن مُهمَّةِ الدَّعوة إلى التوحيدِ أبدًا.

وبعدَ انتقال السيِّدةِ خديجةَ رضيَ اللهُ عنها إلى جِوار ربِّها، تزوَّجَ النبيُّ ﷺ للمرَّةِ الثانية من السيِّدةِ سَوْدةَ بنت زَمْعةَ رضيَ الله عنها، وظلَّ النبيُّ ﷺ حتّى عمُرِ الرابعةِ والخمسينَ ليس لدَيْه سوى زوجةٍ واحدة في وقتٍ واحد، أمّا زيجاتُه الأُخرى فقد أتمَّها في سنٍّ ما بيْنَ الرابعةِ والخمسينَ والتاسعةِ والخمسين، ولم يتزوَّج النبيُّ ﷺ بعدَ عمُرِ التاسعةِ والخمسين، وهنا لا يستطيعُ عاقلٌ أن يقتنعَ أنّ أحدًا لم يَجمَعْ بيْنَ زوجتَيْنِ حتى سنِّ الرابعةِ والخمسين، واكتفَى بزوجةٍ واحدةٍ في وقتٍ واحد، وفَجْأَةَ تَهِيجُ رَغَباتُه الجِنسيَّةُ كالطُّوفان، بحيث تُجبرُه على الزَّواج من عدَّةِ زوجاتٍ، في حينَ أنه ﷺ كان يتحَلَّى بصفةِ ضَبْطِ النفس في أعلى مستوى، بحيث كان يواصلُ الصَّومَ لأيام عديدةٍ لا يَقرَبُ فيها طعامًا أو شرابًا، فكيف بهذه الشَّخصيَّةِ في عدَّةِ سنواتٍ من كِبَرِ سنِّها لا تستطيعُ الاكتفاءَ بزوجةٍ واحدة؟

*** جَعلتَ من العقلِ جنونًا ومن الجنونِ عَقْلًا، حقًّا إنّ جمالَك يَصنَعُ كما يشاءُ المعجِزاتِ.**

---

(١) سيرة ابن كثير، ١: ٤٧٤، والسيرة الحلبية، ١: ٤٣٠.

لقد كانتِ السيِّدةُ عائشةُ رضيَ الله عنها الوحيدةَ بيْنَ زوجاتِه الطَّاهراتِ التي تزوَّجها بِكْرًا، والباقياتُ كنَّ سيِّداتٍ مُسِنّاتٍ ثَيِّبات، سواءٌ كنَّ مُطلَّقاتٍ أم أراملَ، وقد بدَأتْ سِلسلةُ الجَمْع بينَ أكثرَ من زوجةٍ في وقتٍ كان فيه النبيُّ ﷺ هو الحاكمَ الوحيدَ للدَّولةِ الإسلاميَّة، وآلافٌ كثيرةٌ من البشَرِ على استعدادٍ تامٍّ للتَّضحية بأرواحِهم بإشارةٍ منه ﷺ، فلو كان للرَّغبةِ الجِنسيَّةِ دَخْلٌ في زواجِه ﷺ لَاختار البِكْرَ من النِّساء، لكنّه ﷺ تزوَّجَ من المُسِنَّاتِ الذَّكِيَّاتِ ذواتِ الحِنْكةِ الأَمينات، حتّى يمكنَ لهُنَّ تبليغُ وتوضيحُ الأحكام الخاصَّةِ بالنِّساء، والتي قد يقفُ الحياءُ حائلًا في طريقِ تبليغِها بشكلٍ مباشر، فيَصعُبُ القيامُ به (مثلَ مسائلِ الحَيْض والنِّفاس والعلاقاتِ الزَّوجيَّة وغيرِها).

أسباب تعدد أزواج النبي ﷺ

المرأةُ وحدةٌ هامَّةٌ من الوحداتِ المكوِّنةِ للمجتمع، ولا يمكنُ أن نَبْنيَ مجتمعًا صالحًا دونَ أن نُربِّيَ المرأَة ونُعلِّمَها تعليمًا حسنًا، والمجتمعُ الذي أضاء فيه النبيُّ ﷺ مصباحَ الإسلام، كان مجتمعًا يَهيمُ في ظُلمُاتِ الجهالةِ منذُ قرونٍ كثيرة، والمجتمعُ الذي يريدُ الإسلامُ تأسيسَه يمتنعُ فيه الاختلاطُ بيْنَ الرِّجالِ والنِّساء، ولذا كانت هناك ضرورةٌ مُلِحّةٌ لكثيرٍ من النِّساء اللَّائي يَقُمْنَ بإرشادِ هذه الوحدةِ الهامَّة من مكوِّناتِ المجتمع، يكونُ النبيُّ ﷺ قد عَلَّمهُنَّ ورَبَّاهن وأعدَّهنَّ بنفسِه، ولهذا أجاز اللهُ تعالى للنبيِّ ﷺ الزَّواجَ بأكثرَ من أربعة، حتى لا يَشعُرَ النبيُّ ﷺ بأيِّ قلّةٍ أو تقصيرٍ في مجالِ الإرشادِ الدِّينيِّ للنِّساء.

لقد حَجَّ النبيُّ ﷺ مرَّةً واحدةً في حياتِه، وهي التي تُعرَفُ بحَجَّةِ الوداع، وفي هذا الحجِّ اصْطحبَ النبيُّ ﷺ كلَّ زوجاتِه المطهَّراتِ رضيَ الله عنهنَّ معَه،

حتى يتعرَّفْنَ جميعًا ـ وبشكلٍ عَمليٍّ ـ على مناسكِ الحجِّ، فلا يَجِدْنَ صعوبةً في تعليمِها النِّساءَ الأُخْرَيات.

وفي حياةِ كلِّ إنسان جانبانِ، أحدُهما: الجانبُ الخارجيُّ وهو الذي يَظهَرُ أمامَ الجميع، والجانبُ الآخَر هو: حياتُه الأُسَريَّة، والتي يحاولُ كلُّ إنسانٍ أن يُخفيَ أحداثَها عن الآخَرينَ، وهذانِ الجانبانِ في حياةِ النبيِّ ﷺ يَغبِطُه الجميعُ عليهما، ولهذا جَعَل اللهُ تعالى من حياةِ النبيِّ ﷺ بجانبَيْها نَموذجًا لنا نقتدي به، وأَنْعمَ عليه ﷺ بجماعتَيْنِ مخلِصتَيْنِ بيَّنتا جانبَيْ حياةِ النبيِّ ﷺ بأمانةٍ شديدةٍ أمامَ الأُمّةِ المسلمة، الجماعةُ الأُولى هي: الصَّحابةُ الكرامُ رضيَ اللهُ عنهم، الذين بيَّنوا الجانبَ الخارجيَّ من حياتِه المباركةِ ﷺ، والجماعةُ الثانية هي: أزواجُه المطهَّراتُ رضيَ الله عنهنَّ، واللَّائي وَضَّحْنَ الجانبَ الأُسَريَّ من حياتِه ﷺ، وكأنّ نصفَ الدِّين أخَذْناهُ مباشرةً عن الصَّحابةِ الكرام، والنِّصفَ الآخَرَ عن أُمَّهاتِ المؤمنينَ الطَّاهرات، وهناك ثروةٌ كبيرةٌ من الأحاديثِ النَّبويَّةِ الشَّريفةِ وَصَلتْ إلى الأُمّةِ الإسلاميَّة عن طريقِ أُمّهاتِ المؤمنينَ رضيَ اللهُ عنهنَّ، فمثلًا: رَوَتِ السيِّدةُ عائشةُ رضيَ الله عنها، عن النبيِّ ﷺ ألفَيْنِ ومئتينِ وعشرةَ (٢٢١٠) أحاديثَ، ورَوَت السيِّدةُ أُمَّ سَلَمةَ رضيَ اللهُ عنها ثلاثَمائةٍ وثمانيةً وسبعينَ (٣٧٨) حديثًا موجودًا كلُّها في كُتبِ الأحاديثِ النَّبويَّة.

كما أنّ النبيَّ ﷺ قد تزوَّجَ من قبائلِ العربِ المختلفة، حتى يُقيمَ معَها علاقاتٍ طيِّبةً، ممَّا يَنتُجُ عنه مزيدٌ من الانتشارِ والفعالَية للإسلام.

على أيّةِ حال، وراءَ تعدُّدِ أزواج النبيِّ ﷺ أهدافٌ كثيرةٌ: تعليميَّةٌ واجتماعيَّةٌ وعائليَّةٌ ودَعَويَّةٌ وسياسيَّةٌ، وعلى سبيل المثال، كانت هناك بعضُ القبائل المحاربةِ للإسلام، ولكنْ حينَ تزوَّجَ النبيُّ ﷺ من نساءِ هذه القبيلةِ تراجَعتْ هذه العداوةُ بفَضْل علاقةِ القَرابةِ هذه، إلى أنْ أسلَمتْ هذه القبائلُ في نهايةِ الأمر، ويمكنُ

الاطِّلاعُ على تفصيل ذلك بالرُّجوع إلى حياةِ السيِّدة صَفِيَّةَ رضيَ اللهُ عنها، والسيِّدة جُوَيْرِيَةَ رضيَ اللهُ عنها، والسيِّدة مَيْمونةَ رضيَ الله عنها في كتابي: «الزَّوجاتُ المُطهَّرات لنبيِّنا الحبيبِ ﷺ» وهو باللُّغة الإنجليزيَّة.

تحليل المستشرق المعروف منتوجمري وات

وآخِرُ أمرٍ يجبُ وَضْعُه في الأذهانِ، عندَ الحديثِ عن زِيجاتِ النبيِّ ﷺ، أنه ﷺ كان يستخدمُ زواجَه وزواجَ أصحابِه الكرام المقرَّبينَ منه رضيَ اللهُ عنهم جميعًا لأهدافٍ سياسيَّة، وكان هذا تقليدًا منتشِرًا عندَ العربِ من قبْلُ.

ويبدو لنا أن كلَّ زِيجاتِ النبيِّ ﷺ وراءها هدفٌ هو: تعميقُ العلاقاتِ السياسيَّة، فزواجُه ﷺ من السيِّدةِ خديجةَ رضيَ الله عنها مَنَحَه المالَ، وبه بَدَأ نفوذَه في سياسةِ مكَّةَ، بينَما كان الهدفُ الأكبرُ من زواجِه ﷺ من السيِّدةِ سَوْدةَ بنت زَمْعةَ والسيِّدة زَيْنبَ بنتِ خزيمةَ رضيَ اللهُ عنهما هو توفيرَ ملجأٍ محترَم لأراملِ المسلمينَ المخلِصين، لكنّ أخا السيِّدةِ سَوْدةَ رضيَ اللهُ عنها كان شخصًا لا يريدُ النبيّ ﷺ أن يُعاديَه، وكان زوجُ السيِّدة زينبَ رضيَ الله عنها ينتمي إلى قبيلةِ بني المطَّلب، والتي كان النبيُّ ﷺ يتكفَّلُ بمسئوليَّاتٍ خاصَّةٍ تُجاهَها، وبالإضافةِ إلى ذلك فقد كان النبيُّ ﷺ يؤسِّسُ لعلاقةٍ طيِّبة معَ قبيلةِ «عامر بن صَعْصَعةَ» التي تنتمي إليها السيِّدةُ زَيْنبُ رضيَ اللهُ عنها. وكانت أوّلُ زوجتَيْنِ له ﷺ في المدينةِ هما السيِّدةَ عائشةَ رضيَ الله عنها والسيِّدةَ حَفْصةَ رضيَ اللهُ عنها بناتِ سيِّدِنا أبي بكرٍ وسيِّدِنا عُمرَ رضيَ اللهُ عنهما، حيث كان للنبيِّ ﷺ علاقةٌ خاصَّةٌ بهما، ثم (بعدَ ذلك وبناءً على هذه العلاقةِ الخاصَّة) تزوَّج سيِّدُنا عُمرُ رضيَ اللهُ عنه من السيِّدة أُمِّ كلثومٍ بنتِ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهما حفيدةِ النبيِّ ﷺ. أمّا السيِّدةُ أُمُّ سَلَمةَ رضيَ اللهُ عنها فلم تكنْ مجرَّدَ أرملةٍ فقطْ، وإنّما كانت تَمُتُّ بقرابةٍ إلى سيِّدِ قبيلةِ بني مخزوم

المكِّية، والسيِّدةُ جُوَيْرِيَةُ رضيَ اللهُ عنها كانت ابنةَ سيِّدِ قبيلةِ بني المُصْطَلِق، والتي كانت علاقةُ النبيِّ ﷺ معَهم متوتِّرةً بشكلٍ كبير، أمّا السيِّدةُ زَيْنبُ بنتُ جَحْش رضيَ الله عنها فقد كانت ابنةَ عمِّ النبيِّ ﷺ من جانبٍ، وواحدةً من قبيلةٍ حليفةٍ لقبيلةِ بني عبدِ شَمْسٍ من جانبٍ آخَرَ، ولكنّ العواملَ الاجتماعيَّةَ تفوَّقتْ على العوامل السياسيَّة فيما يتَعلَّقُ بزواجِها من النبيِّ ﷺ؛ لأن النبيَّ ﷺ كان يريدُ ـ من خلال هذا الزَّواج ـ أن يؤكِّدَ أنه قَطَع علاقتَه بالتقاليدِ البالية، وكانت قبيلةُ بني عَبْدِ شَمْسٍ المكِّيةُ وأبو سُفيانَ في ذِهنِ النبيِّ ﷺ بصفةٍ خاصَّة، وكان لأبي سُفيانَ ابنةٌ مسلمةٌ هي السيِّدةُ أُمُّ حِبيبةَ رضيَ اللهُ عنها، وكانت متزوِّجةً بأخي السيِّدةِ زَيْنبَ بنت جَحْش رضيَ الله عنها، فلمَّا مات زوجُها في الحبشةِ أرسَلَ النبيُّ ﷺ رسولًا إليها في الحبشةِ لكي يُجهِّزَ التجهيزاتِ النِّهائيَّةَ لزواج النبيِّ ﷺ منها. وأمّا السيِّدةُ ميمونةُ رضيَ الله عنها فكان الزَّواجُ منها لتقويةِ العلاقة معَ سيِّدِنا العَبّاس رضيَ الله تعالى عنه والذي كان أخًا لها في الصِّهْرِ، وفي نفسِ الوقت كان عمَّ الرسولِ ﷺ، أمّا زواجُه ﷺ من السيِّدتَيْنِ اليهوديَّتَيْنِ، يعني: السيِّدةَ صَفِيَّةَ رضيَ الله عنها، والسيِّدةَ رَيْحانةَ رضيَ الله عنها، فربَّما كانت وراءه أسبابٌ سياسيَّةٌ أيضًا[1].

تصور العبيد والإماء (الرق) في الإسلام

﴿فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾

٧ـ الرَّقيقُ يقالُ لذلك الرَّجلِ والمرأةِ (الأَمَة) أو الأبناءِ الذين يَملِكُهم أحدٌ، ولمالِكِهم الحقُّ في أن يَستخدمَهم في كلِّ عملٍ ويستفيدَ منهم في كلِّ شيء.

بدايةُ الرِّقّ:

كانت تجارةُ الرَّقيق موجودةً في كلِّ المجتمعاتِ قبْلَ الإسلام بآلافِ السِّنين،

(١) محمد في المدينة، منتوجمري وات، ص ٢٨٧- ٢٨٨.

فقد كان في مِصرَ والصِّين والهندِ واليونانِ ورُوما، بل إنّ ذِكرَه وَرَد حتّى في الكتُبِ السَّماويَّة مثلَ: التَّوراةِ والإنجيل، وكان لدى سيِّدِنا سُليمانَ عليه السَّلامُ ثلاثُمائةِ أَمةٍ[1].

وكان قَراصنةُ البحر في أوروبا يختطِفونَ الأفارقةَ ويبيعونَهم عَبيدًا في أمريكا، وقد ظَلَّت تجارةُ الرَّقيق في أوروبا وأمريكا رائجةً حتى عام **١٨٣٣**م[2].

أسباب الرق

١ـ **الحروب**: الأَسْرى من النِّساءِ والرِّجال في الحروبِ يُتَّخَذونَ رقيقًا.

٢ـ **الفقر**: كان الفقراءُ يُضْطَرُّونَ إلى بيع أولادِهم عَبيدًا بسببِ الفقرِ المُدقِع.

٣ـ **الاختطافُ والاستعبادُ عَنْوةً**: كان الظَّالمونَ يختطِفونَ الضُّعفاءَ وعابري السَّبيل من البشَر ويبيعونَهم، مثلَما كان قَراصنةُ ولصوصُ البحرِ في أوروبا يذهبونَ إلى إفريقيَّا، وحيثُما وَجَدوا فُرصةً سانحةً اختَطَفوا الأفارقةَ عَنْوةً، وباعوهم عَبيدًا في أوروبا وأمريكا.

وِجهةُ نظَرِ الإسلام فيما يَتعلَّقُ بمِلكِ اليمين

لقد حرَّم الإسلامُ السَّببَيْنِ الأخيرَيْنِ في الرِّقِّ والاستعبادِ تحريمًا تامًّا، ولم يُجِزْ

---

(١) السلاطين، ١١: ٣.

(٢) "A widespread institution in ancient times, slavery had died out in England by the **12**th C. The transportation of slaves from Africa to the Americas by European traders began on a large scale in the **16**th and **17**th C. and although slavery became illegal in Britain in **1772**, it remained an important feature of the economy of the Empire until the **19**th C. The slave-trade being abolished in **1807** and slavery itself throughout the Empire in **1833**". (The Oxford Encyclopedic English Dictionary: Published in **1991** by Oxford University Press: USA)

سوى ما يكونُ بسببِ الحروب من أَسْرٍ وسَبْيٍ، ولكنْ ليس من الضَّروريِّ أنّ كلَّ مَن يؤسَرُ في الحرب يُتَّخَذُ عبدًا أو سَبِيّةً، وإنّما يعودُ هذا إلى الحكومةِ الإسلاميَّة، إن شاءت أطلَقَت سَراحَهم بغيرِ فِديةٍ، وإن شاءت أخَذَت فِديةً لهم وأطلَقَتْهم، وإن شاءَتْ بادلَتْهم معَ مسلمينَ أُسارى، وإن شاءتِ استبقَتْهم عَبِيدًا وإماءً وقَسَمتْهم بيْنَ المجاهدين، وفي هذه الحالة يستطيعُ المجاهدُ أن يَستفيدَ من عَبْدِهِ كما يشاء، وأن يُجامعَ أَمَتَه أيضًا، لكنْ يَلزَمُه حينَئذٍ أن يوفِّر لعَبيدِه وإمائه كلَّ أسبابِ الرَّاحةِ الضَّروريَّة، بينَما في الدُّول غيرِ المسلمة كانوا يَستغِلُّونَ العَبِيدَ والإماءَ بكلِّ الطُّرق، ويُشغِّلونَهم في أعمالٍ تَفوقُ طاقتَهم ومقدرتَهم، بل ويضربونَهم، ويَحرِمونَهم من الطعام، ويعاملونَهم معاملةً غيرَ إنسانيَّة بالمرَّة، في حينَ أنّ كتابَنا المقدَّس القرآنَ المَجيد أمَرَ بحُسن معاملةِ العَبيد: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

من أقوال النبي ﷺ عن ملك اليمين

١ـ «هم إخوانُكم، جَعَلَهم اللهُ تحتَ أيديكم، فأطعِموهم ممّا تأكلون، وألبِسوهم ممّا تلبسَون، ولا تُكلِّفوهم ما يَغلِبُهم، فإنْ كلَّفتُموهم فأعِينوهم»[1].

٢ـ «مَن لَطَم مملوكَه أو ضربَه فكفّارتُه أن يُعتِقَه»[2].

٣ـ «مَن ضربَ مملوكَه ظُلمًا أُقيدَ منه يومَ القيامة»[3].

---

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب ١٠ برقم ٤٣١٣.

(٢) مسلم، كتاب الإيمان، باب ٨ برقم ٤٢٩٨.

(٣) الترغيب، كتاب القضاء، ٣: ٢١١، رواه الطبراني، ورواته ثقات، والحديث عن سيدنا عمار بن ياسر رضي الله عنه.

وقد عَدَّ القرآنُ الكريمُ تحريرَ العبدِ عمَلًا صالحًا، كما اعتَبر القرآنُ الكريمُ العبدَ مستحِقًّا للزّكاةِ من أَجْل أن ينالَ حُرِّيته.

٤ـ «من أعتَقَ رَقَبةً مؤمنةً، أعتَقَ الله بكلّ إرْبٍ منها إرْبًا منه من النّار»[١].

٥ـ جاء أعرابيٌّ إلى رسولِ الله صلى الله عليه وآلِه وسلَّم، فقال: يا رسولَ الله! علِّمْني عملًا يُدخِلُني الجنّةَ، قال: «أعتِق النَّسمةَ وفُكَّ الرَّقَبة»[٢].

٦ـ «يا معاذ! ما خَلَق اللهُ شيئًا على وَجْهِ الأرض أحبَّ إليه من العِتاق، ولا خَلَق اللهُ شيئًا على وَجْه الأرضِ أبغَضَ إليه من الطَّلاق»[٣].

وباختصار، كانت مسألةُ الرِّقِّ هذه عامّةً وقتَ نزولِ القرآنِ الكريم، وهو ما قضَى عليه الإسلامُ تمامًا، إلّا أنّه تبنَّى حِيالَها أسلوبًا يؤدِّي إلى عدم تشجيع الرِّق، فمثلًا: أمَرَ بحُسن معاملةِ الغِلْمانِ والإماء، وبشَّر بالأَجْرِ والثوابِ على تحريرِهم، وأمَرَ بتحريرِ الرِّقابِ في عددٍ من الكفَّارات، ممَّا نتَجَ عنه القضاءُ التدريجيُّ على الرِّق، واليومَ لا وجودَ للغِلْمانِ والعَبيد في العالَم الإسلاميِّ.

الاعتراضاتُ:

١ـ يقولُ البعضُ: يُجعَلُ من الإنسانِ في الإسلام عَبيدًا وإماءً، وهو ما ينافي شرفَ الإنسانيَّة.

ونَودُّ أن نقولَ في هذا الخصُوص: ليس الإسلامُ هو الذي بَدأَ موضوعَ الرِّقِّ هذا، وإنّما كان هذا الأمرُ قبْلَ الإسلام بكثير، وكان على مستوى العالَم كلِّه، وكان

---

(١) مسلم، كتاب العتق، باب ٥ برقم ٣٧٩٥.

(٢) شعب الإيمان، البيهقي، ٤: ٦٥ برقم ٤٣٣٥، والحديث عن البراء رضي الله عنه.

(٣) المشكاة، كتاب النكاح برقم ٣٢٩٤، سنن الدارقطني، كتاب الطلاق، ٤: ٢٣ برقم ٣٩٣٩. والحديث عن معاذ بن جبل رضي الله عنه.

من الصَّعب للغاية القضاءُ تمامًا على الرِّقِّ في ضَوْءِ الظُّروفِ التي كانت قائمةً آنَذاك، فقد كانت الشُّعوبُ الأُخرى غيرَ مُخلِصة في القضاءِ عليه، ولو أنّ الإسلامَ أعلَنَ مَنْعَه من جانبٍ واحدٍ لنَجا أَسْرى الكفَّار من الرِّق، ولكنّ أَسْرى المسلمينَ كانوا سيُعانونَ منه طيلةَ العُمر، وبالرَّغْم من ذلك فقدِ اتَّبع الإسلامُ طريقًا كان سببًا في القضاءِ المبرَم على الرِّقِّ في نهايةِ الأمر.

٢ـ يُثارُ اعتراضٌ فيما يتَعلَّقُ بالإماءِ فَحْواهُ: أنّ الإسلامَ أجاز مجامعةَ الإماء دون نِكاح، وهو فعلٌ غيرُ أخلاقيٍّ.

ونقولُ في هذا الخصُوص: لو أنّ الكفَّارَ لم يُعيدوا نساءَ المسلمينَ بعدَ الحرب، واحتَفَظوا بهنَّ قَيْدَ الاعتقال، فمنَ الضَّروريِّ للمسلمين حينَذاك أن يفعَلوا نفسَ الأمرِ طِبقًا للظُّروفِ القائمة، والآنَ احكُمْ أنت بالعدل، أيُّ سلوكٍ كان مناسبًا معَ هؤلاءِ الأَسْرى من النِّساءِ في المجتمع الإسلاميِّ؟ لقد كان من اليسيرِ تدبيرُ أمرِ طعامِهنَّ وكُسوتِهنَّ ومسكَنِهنَّ، ولكنْ كيف يمكنُ تلبيةُ حاجتهنَّ الفِطْريَّة، أقصِدُ الرَّغبةَ الجِنْسيَّة، في الوقتِ الذي لا يجوزُ للمسلمين نِكاحُهنَّ بسببِ كُفرِهنَّ وشِركِهنَّ، وإذا لم يمكنِ الوصولُ إلى طريقةٍ لتلبيةِ هذه الحاجة الفِطْريَّة، فإنَّهنَّ كُنّ سُيلبِّين ذلك بشكلٍ غيرِ قانوني، وهو ما يساعدُ في نَشْر الفاحشةِ في المجتمع الإسلامي. في مثل هذه الحالاتِ كانت هذه هي أمثلَ طريقةٍ لأولئك النِّساءِ الكوافر، وهي التي أقرَّها الإسلامُ، أي: أنَّها أصبحت فَرْدًا في بيتٍ مسلم، وتُلبَّى كلُّ حاجتِها الفِطْريَّةِ أيضًا، إلّا أنه فيما يتَعلَّقُ بموضوعِ النِّكاح فإنِّني أقول: إنه كان يمكنُ لولَدٍ وبنتٍ أن يجلسا وحدَهما ويتزوَّجا، فإنّ الجِماعَ بينَهما حرام، وإذا تَزوَّجا علانَيةً أمامَ شهودٍ فإنّ الجِماعَ بينهما جائزٌ وسببٌ للبركة، فما هو هذا الشيءُ إذًا الذي يَجعَلُ نكاحًا حلالًا وآخَرَ حرامًا؟

إنه «إعلانُ النِّكاح»، حتّى يَعلَمَ النّاسُ أنّ هذه الفتاةَ أصبحت زَوْجةً لهذا الوَلَد، وبنفسِ الطريقةِ عندَما تَعْهَدُ الحكومةُ الإسلاميَّةُ بامرأةٍ أسيرةٍ إلى مجاهدٍ

مسلم، فإنّ هذا يُعَدُّ بديلًا للإعلانِ عن النِّكاح، وبذلك يَعلَمُ النّاسُ أنّ هذه المرأةَ الأسيرةَ أصبحت أَمَةً لهذا المجاهد، وبذلك أيضًا يصبحُ من حقِّ مالكِها أن يُجامعَها. وباختصار، فإنّ الله تعالى أيضًا قد أباحَ الجِماعَ بعدَ إشهارِ النِّكاح، فإذا ما أَنْجبَتِ الأَمَةُ أولادًا فلا يجوزُ عندَئذٍ بَيْعُها، ويكونُ لأولادِ الأَمَةِ نفسُ حقوقِ أبناءِ الحرائر من النِّساء، وعندَ وفاةِ مالكِ الأَمَة تصبحُ حرَّةً بشكل تلقائيٍّ، وإذا ما زَوَّج أحدٌ أَمَتَه من شخصٍ آخَرَ فإنّه يجوزُ للمالكِ أن يستفيدَ منها بعدَ ذلك بالخِدمة في البيت، ولكن لا يجوزُ له مُجامعتُها.

﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ﴾

٨ ـ تعريفُ الصَّداق:

الصَّداقُ يُقالُ للعَطِيَّةِ أو الهديَّةِ التي يتِمُّ إقرارُها عندَ النِّكاح برضَى الزوْجَيْن، وهو حقُّ المرأة، وأداؤه واجبٌ على الرَّجُل[١].

مقدارُ الصَّداق[٢]:

جاء ذكْرُ الصَّداقِ في أحاديثَ مختلفةٍ نَذكُرُ منها ـ على سَبيل المثال ـ ما نَذكُرُ مفهومَه هنا:

١ـ خاتَمٌ من حديدٍ أو بعضُ سُوَرٍ من القرآنِ الكريم[٣].

٢ـ عشَرة دراهمَ، يعني: ثلاثةَ جُنَيْهاتٍ بريطانيَّة تقريبًا[٤].

---

(١) التفسير المظهري.

(٢) أبو داوود، برقم ٢١٠٨.

(٣) البخاري، برقم ٥٠٨٧.

(٤) المعجم الكبير، ٣٣: ٢٤٧.

٣ـ خمسُمائةِ (٥٠٠) درهم، أي: ما يعادِلُ مائةً وخمسينَ (١٥٠) جُنَيهًا بريطانيًّا[1].

٤ـ أربعةُ آلافِ (٤٠٠٠) درهم، أي: ما يعادلُ ألفًا ومائتَيْ (١٢٠٠) جُنَيْهٍ بريطانيٍّ[2].

ويُعلَمُ من هذه الأحاديثِ أنّه إذا كان الرَّجلُ مِسكينًا فإنّ خاتَمًا من حديدٍ أو بعضُ سُوَرٍ من القرآنِ الكريم يمكنُ أن تكونَ صَداقًا له، وعلى سَبيلِ المثال: أولئك الفِتْيانُ والفَتَياتُ الذين يعيشونَ في معَسْكراتِ المهاجِرين من سنواتٍ عديدة، ويحتاجونَ إلى مساعداتِ الآخَرينَ في مَأْكلِهم ومشرَبِهم، فمن أين يأتونَ بصَداقٍ يقدِّمونَه؟ أمّا إن كان الرَّجلُ مستطيعًا فإنّه يمكنُ أن يقدِّمَ سيارةً وبيتًا أيضًا، بمعنى: أنّ الأمرَ يتوقَّفُ على مقدرةِ الرَّجُل، وفي رأيي أنه إذا كان الرَّجُلُ مستطيعًا فإنّه يمكنُ ـ على الأقلِّ ـ أن يُعطيَ المرأةَ ما يكفيها كامرأةٍ لكي تعيشَ بضعةَ أشهُرٍ بما يناسُب مكانَتها والمستوى المعيشيَّ للمنطقة التي تعيشُ فيها، أي: ما يمكنُ أن يُلبِّي نَفقاتِ مسكَنِها ومطعَمِها وملبَسِها.

مِلْكيَّةُ الصَّداق:

المالكُ الحقيقيُّ للصَّداقِ هو الزَّوْجة، فإذا رأَتْ بمَحْض إرادتِها وبرِضاها الكامل أن تَعْفَو عن الصَّداقِ كلِّه أو بعضٍ منه لصالح الزَّوج، فإنّ هذا المالَ حلالٌ للزَّوج، ويُمكنُه استخدامُه بكلِّ سرور، إمّا إذا مورسَ الضَّغطُ على الزَّوجةِ وتمَّ إجبارُها للتنازُل عن الصَّداق فإنّ ذمَّةَ الزَّوج لا يُمكنُ أن تَبْرأَ منه بهذا الشَّكل.

أهميَّةُ الصَّداق:

الإسلامُ هو أولُ دينٍ قرَّر صَداقًا للمرأةِ عند زواجِها، حتّى يكونَ عندَها ـ في حالة

---

(١) مسلم، برقم ١٤٢٦.

(٢) أبو داود، برقم ٢١٠٨.

الطلاق، أو في حالة وقوع حادثٍ ـ لا قَدَّر الله ـ مَبلَغٌ من المال يستطيعُ تلبية احتياجاتِها بشكل فَوْري، وحتّى لا تواجَه صعوباتٍ ومشاكلَ، إلى أن يتوفَّرَ لها حلٌّ بديل.

﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ .

٩ـ أمَرَ اللهُ تعالى أولياءَ الأمورِ من كافلي اليتيم في الآيةِ رقم ٢ من هذه السُّورة أنْ يعهَدوا بأموالِ اليتامَى إليهم كاملةً وبكلِّ أمانة. والآنَ جاء ذِكرٌ لأهميَّةِ المال ووقتِ إعادتِه وشروطِه في الآيةِ الخامسة والآية السادسة، بمعنى: أنّ المالَ ليس شيئًا تافهًا أو بلا هدف، وإنّما هو سَندٌ للحياةِ الإنسانيَّة، ولهذا ينبغي الحفاظُ على أموالِ اليتامَى تمامًا مثلَما تُحافظونَ على أموالِكم أنتم، بل واعتَبِروها أموالَكم، ولا تُعيدوها إلى اليتامَى الصِّغارِ غيرِ البالغين، وإلّا فإنَّهم سيُضيعونَها بعَدَم فَهْمِهم، إلّا أنه من الممكنِ أن تتدبَّروا أمرَ طعام اليتامَى وشرابِهم وملابسِهم من هذه الأموال، ويجبُ المداومةُ على إخبارِهم بأنّ هذه أموالُكم ونحن نُديرُها لكم لمصلحتِكم، وحينَ تكبَرونَ سنُعيدُ إليكم كلَّ شيء، وكذلك في المعاملاتِ الدُّنيَويَّة عليكم تربيةُ اليتامَى كما تُرَبُّونَ أبناءكم، وعليكم أن تَختبِروهم وتُجرِّبوهم في المعاملاتِ التِّجاريَّة، فإذا ما بَلَغوا سنَّ الرُّشْدِ وشعَرتُم أنه أصبحَتْ لديهِم المقدرةُ على فَهْم الأُمور، ويمكنُهم التميزُ بينَ المكسَبِ والخسارة، فحينَئذٍ أعيدوا إليهم أموالَهم كاملةً دون نُقصان؛ لأنّكم ستحاسَبونَ في الغدِ أمامَ الله تعالى عن كلِّ مِلِّيم، ويجبُ أن تكونَ إعادةُ الأموالِ إلى اليتامَى أمامَ شهودٍ، حتّى لا يحدُثَ ـ فيما بعدُ ـ سوءُ فَهْم أو سوءُ ظنٍّ.

ويُعلَمُ من هذه الآية أنّه من الضَّروريِّ تعليمُ الأبناءِ الدِّينَ والدنيا معًا، حتَى يُمكنَهم فَهْمُ المعاملاتِ الدُّنيَويَّة، وأن يعيشوا حياتَهم في كرامةٍ وسعادة.

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾

١٠ ـ لم يكنْ قبلَ الإسلام مجتمعٌ يُعطي المرأةَ نصيبًا من الميراث، وفي أوروبا كان الوَلدُ الأكبرُ للمتوفَّى يصبحُ مالكًا لكلِّ التَّركة إذا لم يُتَحْ للمتوفَّى أن يوصيَ لأحدٍ قبلَ وفاتِه، ويَحرِمُ من التَّركةِ زوجةَ المتوفَّى وطفلاتِه وأبناءه الذكورَ الصِّغار، وظلَّ هذا القانونُ نافذًا في أوروبا حتى عام ١٩٢٥م، وبعدَ ذلك أصبحتِ الزَّوجةُ هي المالكةَ للتَّركةِ بدلًا من الولَدِ الأكبر، وتُركَ أمرُ الأولادِ لِما تراه الأُمُّ الأرملةُ، فإذا تزوَّجت برَجُلٍ آخَرَ فمنَ الطبيعيِّ أن يُفضِّلَ الزَّوجُ الجديدُ أولادَه على أولادِ الزَّوجِ المتوفَّى الذين سيتِمُّ التعاملُ معَهم بلا مبالاة، مما يضَعُ مستقبَلَ هؤلاءِ الأولاد في طريقٍ مُظلِم؛ لأنَّهم بدايةً حُرِموا من الميراث، وسواءٌ آلَ الميراثُ كلُّه إلى الابنِ الأكبرِ أم إلى الزَّوجة، فإنَّ ذلك سيكونُ ـ في الحالتَيْنِ ـ بمثابةِ الظُّلم للأطفالِ الصِّغار.

يقولُ الأميرُ تشارْلز، مشيرًا إلى حقِّ المرأةِ في الميراثِ في الإسلام: «إنَّ الحقوقَ التي أعطاها الإسلامُ للمرأةِ قبْلَ أربعةَ عَشَر قرنًا من الزَّمانِ في الميراثِ والتَّركةِ وحفاظَه عليها في حالةِ الطَّلاق، وكذلك الحقوقُ في العمَلِ بالتِّجارة، كان بعضُها يُعَدُّ في بريطانيا من بابِ الخيالِ حتّى عام ١٩٢٥م، بمعنى: أن المرأةَ البريطانيَّةَ كانت محرومةً منها»[١].

وكان التقاليدُ عندَ العرب تقتضي أن يصبحَ الابنُ الأكبرُ أو الأخُ الأكبرُ للمتوفَّى

---

(١) "The rights of Muslim women to property and inheritance, to some protection if divorced, and to the conducting of business, were rights prescribed by the Quran fourteen hundred years ago. In Britain at least, some of these rights were novel even to my grandmother›s generation". (Islam and The West: Page:**15**).

مالكًا للتَّرِكةِ كلِّها، بينَما يُحرَمُ من الميراثِ الأطفالُ ذكورًا وإناثًا، وكذلك الزَّوجةُ، ويبرِّرونَ ذلك بأنّ الذي لا يستطيعُ أن يخُوضَ المعاركَ بشجاعةٍ ويجمَعُ أموالَ الغنائم لا يكونُ مستحِقًّا للميراث، في حينَ أنّ المرأةَ والأطفالَ هم الأحقُّ بالميراث، حتى يتمكَّنوا من تلبيةِ حاجاتِهم الضَّروريَّة، لكنّ هذا الظُّلمَ والجَوْرَ لهؤلاءِ كان رائجًا[1].

وكان الإسلامُ هو أولَ دينٍ - على وَجْهِ الأرض - يقرِّرُ حقَّ النِّساءِ والأطفالِ في الميراثِ قبلَ ألفٍ وأربعِمائة عام، وحدَّد نصيبَ كلِّ فردٍ حسَبَ حاجتِه، وهو ما ستَذكُرُه الآيةُ رقم ١١ فيما بعدُ، كما قَضى على تمييزِ الابنِ الأكبر، وجَعَل الأبناءَ جميعًا كبيرَهم وصغيرَهم أصحابَ حقوقٍ متساويةٍ في التَّرِكة.

﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ ﴾

١١- في هذه الآية يتِمُّ إرشادُ وَرَثةِ المتوفَّى إلى أنّه لو حَضَر اقتسامَكم الميراثَ أقارِبُكم من الدَّرجةِ البعيدة، أو اليتامَى، أو الفقراءُ، فيصبحُ من المسئوليَّةِ الأخلاقيَّةِ عليكم، بل ومنَ الأعمالِ الصَّالحةِ أيضًا، أن تُواسوهم وتتصدَّقوا عليهم بشيءٍ من أَنْصِبتِكم، وخاصّةً أنّ هذا المالَ قد آلَ إليكم بحُكم الله تعالى دونَ جُهدٍ أو سَعْيٍ منكم، ولذا فإنّ أفضَلَ طريقةٍ لشُكرِ الله تعالى على هذا هو أنْ نُعطيَ الفقراءَ والمحتاجينَ شيئًا منه، فنفوزَ بدعائهم لنا، وفي نفسِ الوقتِ علينا أن نُفكِّرَ بهدوءٍ ومن القلب أنّ أولادَك لو - لا قدَّر الله - تأخَّروا وتراجَعوا، فكم ستكونُ قلِقًا عليهم عندَ وفاتِك؟ وبنفسِ الطريقة فإنّ هؤلاءِ أيضًا أبناءُ أحدٍ من

(١) «وكانوا فى الجاهلية لا يورّثون النساء ولا الصغير وإن كان ذكرًا، ويقولون: لايعطى إلا من قاتل على ظهور الخيل وطاعن بالرمح وضارب بالسيف وحاز الغنيمة - فإن الورثة الصغار كان ينبغي أن يكونوا أحق بالمال من الكبار لعدم تصرفهم والنظر فى مصالحهم، فعكسوا الحكم وأبطلوا الحكمة فضلوا بأهوائهم وأخطأوا فى آرائهم وتصرفاتهم». تفسير القرطبي.

البشَر، فكما تحبُّ أن يكونَ التعاملُ معَ أطفالِك اليتامَى وأقاربك الفقراءِ يجبُ أن يكونَ تعاملُك معَ يتامَى الآخَرينَ والأطفالِ الفقراء، وهذه الآيةُ تستحقُّ التأمُّلَ من قِبَلِ السَّادةِ كافلي اليتامىَ والقائمينَ على أمورِهم، وقد قال النبيُّ ﷺ: «**لا يؤمنُ أحدُكم حتّى يُحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسِه**»[1].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗا ﴾

١٢ـ راجِعْ في هذا الخصُوص حاشيةَ رقم ٤ من هذه السُّورة.

يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١﴾ ۞وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿١٢﴾ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٤﴾

---

(١) البخاري، كتاب الإيمان، باب ٧ برقم ١٣.

﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوۡلَـٰدِكُمۡ ﴾

١٣ـ مبدأُ الإسلام هو أنّه إذا ماتَ شخصٌ يجبُ ـ بدايةً ـ إخراجُ مصاريفِ تكفينهِ ودَفْنِه وبشكلٍ معتدل، ثم بعدَ ذلك يسدَّدُ ما على الميِّتِ من قروض (وإذا كان الزَّوجُ لم يؤدِّ إلى الزَّوجة صَداقَها فإنّ هذا يُعَدُّ فرضًا على الزَّوج، ويجبُ أن يؤدَّى من التَّركةِ قبْلَ تقسيمِها)، وبعدَ سَدادِ الدُّيون يتِمُّ إخراجُ ما وَصَّى به المتوفَّى في حدودِ الثُّلُث، ولا يجوزُ تنفيذُ وصيَّةٍ فيما زاد على الثُّلُث، لأنّه ـ في هذه الحالة ـ تَضيعُ حقوقُ الوَرَثة، وبعدَ استقطاع ما يوفِّي هذه الأمورَ الثَّلاثةَ السَّابقةَ يكونُ تقسيمُ ما تبقَّى من المالِ طِبقًا لأحكام الإسلام، فإنْ لم يكنْ على الميِّتِ قَرْضٌ، ولم يكنْ أوصَى لأحدٍ، فعندَئذٍ يتِمُّ استقطاعُ مصاريفِ التكفين والدَّفن، ثم يُوزَّعُ الباقي كلُّه على الوَرَثة، ويمكنُ الرجوعُ إلى الكتُبِ المتخصِّصة في الميراثِ، أو استفتاءُ العلماءِ، في تفاصيل الميراث، ونحن هنا نقدِّمُ تعريفًا مختصرًا بالأنصِبةِ المقرَّرة التي وَرَد ذِكرُها في هذه الآيات:

﴿ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ ﴾

١٤ـ للرَّجُل ضِعفُ ما للمرأةِ في الميراث، بمعنى: أنه إذا كان للمتوفَّى ولَدٌ وبنت، وتَرَك مما يمكنُ تقسيمُه ـ مما تبقَّى بعدَ تكفينِه ودفنِه وأداءِ ما عليه من ديونٍ وتنفيذِ وصيَّتِه ـ ثلاثُمائة ألفِ جُنَيْه، فإنّ هذا المالَ يقسَّمُ إلى ثلاثةِ أقسام متساوية، يكون نصيبَ الوَلَدِ منها مائتا ألفِ جُنَيْه، ومائةُ ألفٍ للبنت، والسببُ في أنّ نصيبَ الرَّجُل ضِعفُ نصيبِ المرأة هو أنّ المسئوليَّاتِ المعيشيَّةَ المُلقاةَ على عاتقِ الرَّجُل كثيرة، بمعنى أنّ:

١ـ مسئوليَّةَ الإنفاق على المرأةِ من طعامٍ وشراب وملبَسٍ ومسكَن على الزَّوج.

٢ـ مصاريفَ الزَّواج والوليمةِ أيضًا يدَفُعها الرَّجل.

٣ـ توفيرَ مسكَنٍ للزَّوجة والأبناءِ مسئوليَّةُ الرَّجل أيضًا.

٤ـ الرَّجلَ أيضًا يؤدِّي للمرأةِ الصَّداق.

٥ـ مصاريفَ تعليم الأبناءِ وتربيتِهم كلُّها على الأب.

٦ـ نفقاتِ الأبناءِ بعَد طلاق الأُمِّ أيضًا تكونُ على الأب.

٧ـ تلبيةَ الحاجاتِ الضَّروريَّة المعيشيَّةِ للوالدَيْنِ المُسِنَّيْنِ مسئوليَّةُ الرَّجل أيضًا.

٨ ـ في حالة زواج الزَّوج للمرَّة الثانية يكونُ على الرَّجُل تحمُّلُ نفقاتِ الزواج وأداءُ الصَّداقِ إلى الزَّوجة الجديدة.

وعلى العكسِ من هذا، فإنّ المرأَة تحصُلُ على المالِ بلا جُهدٍ أو تعب، وفي نفسِ الوقت لا توجَدُ عليها مسئوليَّاتٌ معيشيَّةٌ، يعني أنّ:

١ـ المرأةَ قبْلَ الزَّواج يكونُ المتكفِّلَ بها هو الأبُ أو الأخُ، وبعدَ الزَّواج يكون الزَّوجُ أو الابنُ هو المتكفِّلَ بها وبكلِّ احتياجاتِها.

٢ـ المرأةَ المتزوِّجةَ تَرِثُ من أسرتَيْنِ: أسرةِ والدِها من تَرِكتِه، ومن أُسرةِ الزَّوج من تَرِكتِه.

٣ـ المرأةَ أيضًا تحصُلُ على المالِ في شكلِ الصَّداق.

٤ـ المرأةَ في حالةِ زواجِها للمرَّةِ الثانية بعدَ الطلاقِ تحصُلُ على مزيدٍ من المال في شكل الصَّداقِ للمرَّةِ الثانية.

ويُعلَمُ من التمعُّنِ في الأسبابِ المذكورة سابقًا أنّ جَعْلَ نصيبِ الرجُل ضِعفَ نصيبِ المرأةِ ليس ظُلمًا للمرأة، وإنّما مقتضَى العَدْل أمامَ المسئوليَّاتِ

الكبيرةِ التي يَضْطَلعُ بها الرَّجلُ أن يُعطَى نصيبًا أكبرَ، ولو كان نصيبُ المرأة مساويًا لنصيبِ الرَّجُل، في حينَ أنّ ميزانَ المسئوليَّاتِ كما هو، لَكان ذلك ظُلمًا للرَّجُل، ولكنّ اللهَ تعالى لا يَظلِمُ أحدًا، فقد قرَّر نصيبَ كلِّ فردٍ طِبقًا لاحتياجاته؛ لأنه يَعلَمُ أكثرَ منّا ما ينفَعُنا وما يضُرُّنا، وكذلك الرَّجُلُ هو الذي يخُوضُ غِمارَ المعاركِ والحروبِ دفاعًا عن الوطنِ والأُمَّة، وفي تلك الأثناءِ يجبُ على الرَّجل ـ بالإضافةِ إلى نفَقاتِ الحرب ـ أن يقومَ أولًا بتدبيرِ نفَقاتِ الزَّوجةِ والأولاد، ثم يذهبَ إلى مَيْدانِ الحرب، وبالإضافة إلى ذلك، فإنّ الرَّجُل مسئولٌ عن الحفاظِ على بيتِه ومالِه وزوجتِه وأبنائِه؛ لأنّ المرأةَ ليست لدَيْها القوَّةُ التي تُمكِّنُها من مجابهة لصٍّ مَثلًا، بل إنّ إقامةَ المرأةِ وحيدةً في بيتٍ يُعرِّضُها لأخطارٍ كبيرة، ولهذا عندما يكونُ نصيبُ الرَّجل هو الأكبرَ فإنّ ذلك في مصلحةِ المرأة، حتّى يستطيعَ الرَّجُلُ القيامَ بمسئوليَّةِ توفيرِ الحمايةِ والراحة والطُّمأْنينة لزوجتِه بشكل أفضَلَ.

والمرأةُ سواءٌ كانت أُمًّا أم زوجةً أم ابنةً أم أُختًا تأخُذ نصيبًا من الميراث، ورَغْمَ أنّها تأخُذُ النِّصفَ في حالةِ وجودِ الأخ، يعني مائةَ ألفِ جُنَيْه كما ذكَرْنا، ولكنْ إن لم يكنْ لها أخٌ فتصبحُ هي الوارثةَ الوحيدةَ، وتحصُلُ على الثَّلاثِمائة ألفِ جُنَيْهٍ كاملةً.

ولو كان أبو المتوفَّى وأُمُّه وأولادُه على قَيْدِ الحياة ففي هذه الحالة تأخُذُ المرأةُ كأُمٍّ نصيبًا مساويًا لنصيبِ الأبِ، وهذا يعني أنّ المرأةَ أحيانًا تحصُلُ على نصيبٍ أقلَّ من الرَّجل، وأحيانًا تحصُلُ على نصيبٍ مساوٍ له، وفي حالةِ عَدَم وجودِ الرَّجُل فإنّ التَّرِكةَ كلَّها تَؤُولُ إلى المرأة، وكذلك إذا كانت المرأةُ تعملُ فإنّها تكونُ المالكةَ الوحيدةَ لراتبِها، وليس للرَّجُل نصيبٌ في راتبِ المرأة العاملة، بينَما نصيبُ المرأةِ في راتبِ زوجِها إلزاميٌّ في صُورةِ النَّفَقات، وحتّى لو استطاعتِ المرأةُ أن

توفِّر مليونًا من الجُنَيْهات لدَيْها؛ لأنه ليس عليها من مصاريفِ البيت ولو بِنْسٌ واحد، فإنْ ساعدتْ زوجَها بمَحْضِ إرادتِها وبرضاها فذلك راجعٌ إليها، لكنّ الإسلامَ لا يُلزِمُها بمساعدةِ الزَّوج؛ لأنّ الزَّوجَ هو المسئولُ عن نفَقاتِ البيتِ والزَّوجةِ بشكلٍ كامل، وأموالُ المرأة تظَلُّ محفوظةً في ملكيَّتِها، وعلى سبيل المثال، لو أنّ الرَّجلَ وَرِثَ مائتَيْ ألفِ جُنَيْه فربَّما يُنفقُها على البيتِ وزواج البنتِ ومرضِ الزَّوجة، وربَّما لا يتبقَّى له منها شيءٌ، بينَما تبقَى المائةُ ألفٍ من الجُنَيْهاتِ الخاصَّةُ بالمرأة من الميراثِ محفوظةً لدَيْها، فإذا تمعَّنَّا في الأمرِ وجَدْنا أنّ المتوفِّرَ لدى المرأةِ أكبرُ، ويمكنُ لها استغلالُه في أيِّ وقتٍ من الأوقاتِ الصَّعبة، وإذًا فالأَنصِبةُ التي حدَّدها الإسلامُ في تقسيم الميراثِ إنَّما رُوعِيَتْ فيها مصلحةُ المرأةِ بشكلٍ كامل.

إنّ التوازُنَ الذي حافَظَ عليه الإسلام فيما يتَعلَّقُ بحقوقِ المرأةِ وواجباتِها وكذا احترامُها وتكريمُها، لو تمَّ العملُ طِبقًا له بالشَّكل الكامل لَما بقيَ لدى أحدٍ شكوى من أحد. سألَتِ السيِّدةُ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها النبيَّ ﷺ: **يا رسولَ الله! أيُّ النّاس أعظمُ حقًّا على المرأة؟ قال: «زوجُها»، قلت: فأيُّ النّاس أعظمُ حقًّا على الرَّجُل؟ قال: «أُمُّه»**[1].

فمن ناحيةٍ يتِمُّ إلزامُ الزَّوجةِ بأنّ أكثرَ النّاس حقًّا عليك هو زوجُك، ومن ناحيةٍ أخرى يتِمُّ إلزامُ الرَّجُل بأنّ أكثرَ النّاسِ حقًّا عليكَ هو أُمُّك، بمعنى: أنّ المرأةَ في صُورةِ الزَّوجة: خادمةٌ للرَّجُل، وفي صُورة الأُمِّ: ابنُها خادمُها، يعني: أنّ كلًّا من الرَّجُل والمرأةِ خادمٌ للآخَرِ ومخدومٌ له أيضًا، سبحانَ الله، ما أجملَ هذا التوازنَ!

﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ﴾

١٥- إذا لم يكنْ للمتوفَّى أولادٌ ذكورٌ، وله ابنةٌ واحدةٌ، فإنَّها ستَرِثُ نصفَ التَّرِكة، يعني: ستحصُلُ على مائةٍ وخمسينَ ألفَ جُنَيْه من أصلِ ثلاثِمائةِ ألفِ جُنَيْه،

---

(١) المستدرك، الإمام الحاكم، ٤: ١٦٧ برقم ٧٢٤٤.

ويتمُّ تقسيمُ المائةِ والخمسينَ ألفًا الباقيةِ بيْنَ باقي الوَرَثة، وإنْ كان للمتوفَّى أكثرُ منَ ابنتَيْنِ فسيَحصُلْنَ على الثُّلُثينْ، يعني: مائتَيْ ألفِ جُنَيْه من أصل ثلاثِمائة ألف، تُقسَمُ على البناتِ جميعًا بالتَّساوي، والمائةُ ألفِ المتبقِّيةُ تُقسَمُ بيْنَ باقي الوَرَثة، وإذا لم يكنْ هناك وارثٌ آخرُ فإنّ التَّرِكةَ كلَّها ستؤُولُ إلى الابنةِ أو البنات.

﴿وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾

١٦- هنا بيانٌ لثلاثِ صُوَرٍ متعلِّقة بأُمِّ وأبِ المتوفَّى:

١- أن يكونَ والدا المتوفَّى وأولادُه على قَيْدِ الحياة، وفي هذه الحالة يُعطَى الوالدانِ السُّدُسَ لكلٍّ منهما، يعني: خمسينَ ألفَ جُنَيْهٍ للأُمِّ ومِثلَها للأبِ، والمائتا ألفٍ الباقيةُ توزَّعُ على الأولادِ حسَبَ الأَنْصِبةِ الشَّرعيَّة.

٢- إن لم يكنْ أحدٌ من وَرَثةِ المتوفَّى على قَيْدِ الحياة سوى والدَيْه فإنّ نصيبَ الأُمِّ من التَّرِكةِ يصبحُ الثُّلُثَ، ونصيبُ الأبِ يصبحُ الثُّلُثَيْنِ من التَّرِكة: مائةُ ألفٍ من أصلِ ثلاثِمائةِ ألفٍ للأُمِّ، ومائتا ألفٍ للأبِ.

٣- لو كان إخوةُ المتوفَّى وأخَواتُه على قَيْد الحياةِ جَنْبًا إلى جَنْب معَ والدَيْهِ فإنّ الأُمَّ ستحصُلُ على سُدُسِ التَّرِكة، أي: خمسينَ ألفًا من أصل ثلاثِمائة ألف، بينَما يُعطَى للأبِ ما تبقَّى، يعني: مائتَيْنِ وخمسينَ ألفًا.

﴿۞ وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ﴾

١٧- توجَدُ صورَتانِ لتقسيم تَرِكةِ الزَّوجة:

١ـ إذا لم يكنْ للزَّوجةِ أولادٌ أحياءٌ، ففي هذه الحالةِ سيَحصُلُ الزَّوجُ على نصف التَّرِكة، أي: على مائةٍ وخمسينَ ألفَ جُنَيْه من أصل ثلاثِمائةِ ألف، وتُقسَمُ المائةُ والخمسونَ ألفًا الباقيةُ بيْنَ الوَرَثةِ الآخَرين.

٢ـ إذا كان للزَّوجةِ أولادٌ على قَيْدِ الحياة، فإنَّ الزَّوجَ ـ في هذه الحالة ـ سيَحصُلُ على الرُّبع، أي: على خمسةٍ وسبعينَ ألفًا من أصل ثلاثِمائة، والمائتانِ وخمسةٌ وعشرون ألفًا توزَّعُ على باقي الوَرَثةِ حسَبَ الأَنْصِبةِ الشَّرعيَّة.

﴿وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُم﴾

١٨ـ توجَدُ صورَتانِ لتقسيم تَرِكةِ الزَّوج:

١ـ لو لم يكنْ للزَّوج أولادٌ على قَيْدِ الحياة، تحصُلُ الزَّوجةُ على الرُّبع، أي: على خمسةٍ وسبعينَ ألفَ جُنَيْه من أصل ثلاثِمائةِ ألف (فلو كان للمتوفَّى أكثرُ من زوجةٍ تُقسَمُ الخمسةُ والسَّبعونَ ألفًا بينَهنَّ بالتَّساوي)، والباقي مائتانِ وخمسةٌ وعشرون ألفًا توزَّعُ على باقي الوَرَثةِ حسَبَ الأَنْصِبةِ الشَّرعيَّة.

٢ـ لو كان للزَّوج أولادٌ على قَيْد الحياة، فإنَّ الزَّوجةَ تحصُلُ على الثُّمن، أي: على سبعةٍ وثلاثينَ ألفًا وخمسِمائةِ جُنَيه (فإنْ كان للمتوفَّى أكثرُ من زوجةٍ وُزِّع المبلغُ بينَهنَّ بالتَّساوي)، والباقي مائتانِ واثنانِ وستونَ ألفًا وخمسُمائةِ جنيهٍ توزَّعُ على باقي الوَرَثةِ حسَبَ الأَنْصِبةِ الشَّرعيَّة.

﴿وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِ﴾

١٩ـ الكَلالةُ يقالُ: للرَّجلُ أو المرأةِ التي ليس لهُ أو لها والدانِ أو أولادٌ على قَيْدِ الحياة، ولتقسيم التَّرِكةِ في هذه الحالة صُورتانِ:

١ـ لو كان للكَلالةِ أخٌ أو أُختٌ غيرُ شقيقٍ (من أُمٍّ واحدةٍ وأبٍ مختلِف) فسَيرِثُ السُّدُسَ، أي: خمسينَ ألفَ جُنَيْه من أصل ثلاثِمائةِ ألفٍ (سواءٌ كان أخًا غيرَ شقيقٍ أم أُختًا غيرَ شقيقةٍ)، والباقي مائتانِ وخمسونَ ألفًا تُقسَمُ بينَ باقي الوَرَثة.

٢ـ لو كان للكَلالةِ أكثرُ من أخ غيرِ شقيقٍ أو أُختٍ غيرِ شقيقةٍ فسيَرِثُ الجميعُ الثُّلُثَ، أي: مائةَ ألفٍ من أصل ثلاثِمائةِ ألف، توزَّعُ بينَهم جميعًا بالتَّساوي، والباقي مائتا ألفٍ توزَّعُ بينَ باقي الوَرَثة.

ملحوظة: جاء ذِكرُ نصيبِ الأخ الشَّقيق أو الأُختِ الشَّقيقةِ للكَلالة (يعني: من أُمٍّ واحدةٍ وأبٍ واحد) ونصيبِ الأخ غيرِ الشَّقيق والأُختِ غيرِ الشَّقيقة (يعني من أبٍ واحدٍ وأُمٍّ مختلِفة) في الآيةِ الأخيرة من هذه السُّورة.

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾

٢٠ـ أَنْصِبةُ الوراثةِ حَدَّدها اللهُ تعالى، ومن يحاولْ أن ينتقِصَ منها، أو يزيدَ فيها، أو يُخادعَ في أمرِها، أو يُضيعَ حقَّ أحدٍ فيها، فسيُلقَى به في جهنَّمَ ذليلًا حقيرًا.

وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا

ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًاۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔاۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾

﴿وَٱلَّٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ﴾

٢١ـ كان الزِّنا منتشِرًا زمنَ الجاهليَّة، ولم تكن الأغلَبيَّةُ من النّاس تعتبرُه شيئًا سيِّئًا، لهذا كان إعلانُ القرآنِ الكريم عقابًا قاسيًا عليه فَجْأةً أمرًا صعبًا، وهكذا نَزَلَ الحُكمُ بالمَنْع من الزِّنا تدريجيًّا مثلَما حَدَث معَ الحُكم بتحريم الخمر.

وكان أولَ حُكم في هذا الخصُوص أنه إذا ارتكَبت النساءُ المتزوِّجاتُ الزِّنا فاحبِسُوهنَّ في البيوتِ (حتّى لا يَرتكِبْنَ الفاحشةَ ثانيةً) إلى أن تنتهيَ حياتُهنَّ، أو يُنزِلَ اللهُ في شأنِهنَّ حُكمًا آخرَ (في هذا إشارةٌ واضحةٌ إلى أنّ عقابَ الحَبْسِ المؤبَّد هو عقابٌ وقتيٌّ، وأنّ حُكمًا آخرَ بعقابٍ آخرَ في طريقِه للنُّزول)، أمّا إذا ارتكَب الرَّجلُ غيرُ المتزوِّج، أو المرأةُ غيرُ المتزوِّجةِ الزِّنا فآذُوهم، بمعنى: بعضُ العقابِ الجَسَديِّ مع توبيخِهم ونَهْرِهم، حتّى يعودوا عن هذا الفعل، وهكذا، بعدَ فترةٍ، نَزَلتِ الآيةُ رقم اثنَيْنِ من سُورةِ النُّور، والتي جاء فيها: أنَّه إذا زَنا غيرُ المتزوِّج، سواءٌ كان رجُلًا أم امرأةً، فاجلِدوه مائةَ جَلْدةٍ، بينَما أخبرَتْنا السُّنَّةُ الصَّحيحةُ أنّ عقابَ المتزوِّج، سواءٌ كان رجُلًا أم امرأةً، هو الرَّجْم.

﴿فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡ﴾

٢٢ـ إنّ عقابَ الزِّنا ليس مجرَّدَ عقابٍ لفردَيْنِ ارتكَباهُ، وإنّما هو مسألةٌ قاسيةٌ تتعلَّقُ بكرامةٍ وشَرَفِ أُسرتَيْنِ، ولهذا فإنّ الإسلامَ قرَّر ـ لإثباتِه ضرورةً ـ أنْ يكون هناك أربعةُ شهودٍ بدَلًا من اثنَيْن، وأن يكونوا من الرِّجال لا من النِّساء، وأن يكونوا مسلمينَ، وأن يَرَوا الفعلَ رأيَ العَيْن، فإذا ما اتُّهم أحدٌ أحدًا بالزِّنا ولم يستطعْ تقديمَ أربعةِ شهود، فإنهُ يعاقَبُ على بُهتانِه هذا بالجَلْد ثمانينَ جَلْدةً، حتّى لا يتجرّأَ ثانيةً على الطَّعن في شَرَفِ أحدٍ بغيرِ دليل.

وقد بيَّن بعضُ أهل العِلم الحِكمةَ من وراءِ ضرورةِ وجودِ أربعةِ شهودٍ بأنّه بما أنّ فعلَ الزِّنا يَرتكبُه فَرْدانِ، أي: رجُلٌ وامرأةٌ، ويتِمُّ معاقبةُ الاثنَيْنِ، لهذا تقرَّر أن يكونَ الشُّهودُ أربعةً، حتى يَكتملَ نِصابُ الشُّهودِ في حقِّ كلٍّ واحدٍ منهما، أي: اثنَيْنِ لكلٍّ واحد.

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧﴾ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ﴾

٢٣ـ تعريفُ التَّوبة

المرادُ بالتَّوبةِ في الإسلام: أن يتَخلَّى الإنسانُ عن طريقِ السُّوء، مُراعيًا الشُّروطَ التالية:

١ـ أن يَعترفَ الإنسانُ بالذَّنب، ويَطلُبَ العَفْوَ والمغفرةَ من الله تعالى، وأن يندَمَ على ارتكابِه الذَّنبَ، بمعنى: أنه ظَلَم نفسَه بمعصيتِه للهِ تعالى، وأنه ما كان ينبغي له أن يفعلَ هذا.

٢ـ أن يترُكَ الذَّنبَ فورًا، ويعزِمَ عزمًا قويًّا على عَدَم ارتكابِه ثانيةً.

٣ـ إن كان الذَّنبُ الذي ارتكبَه يتَعلَّقُ بحقوقِ العباد، فعليه أن يَرُدَّ المَظْلِمةَ إلى مَن ظَلَمه، وأن يَطلُبَ منه العفوَ، وإذا كان التقصيرُ حَدَث في الصَّلاةِ والصَّوم والزَّكاة وغيرِها فعليه أن يتدبَّرَ أمرَ تدارُكِ كلٍّ هذا حَسَب استطاعتِه.

أهميَّةُ التَّوبة:

عندَما يعصي أحدٌ اللهَ تعالى، سواءٌ كان عامدًا متعمِّدًا أم بجَهْل منه، فإنّه بمجرَّدِ أن يَشعُرَ بتقصيرِه، عليه أن يتُوبَ فورًا؛ لأنّ كثرةَ الذُّنوبِ تدفَعُ الإنسانَ إلى السَّيرِ على طريقِ اليأسِ والانتحارِ أو الظُّلم والتجبُّر، في حينَ أنه ـ بالتَّوبة ـ يُرضي اللهَ تعالى ويطمئنُّ القلبُ، وينسَى الإنسانُ ما ارتكبَ من الذُّنوبِ ويبدَأُ صفحةً جديدةً في الحياة، كما أنّ الإصرارَ على الخطإِ بعدَ ارتكابِه وعَدَم التَّوبة من فعلِه إنّما هو من خصائصِ الشَّيطان، أمّا النَّدمُ بعدَ ارتكابِ الخطإِ والتَّوبةُ منه فهو سُنّةُ سيِّدِنا آدمَ عليه السَّلام، ولذا يجبُ على الإنسانِ أن ينجوَ بنفسِه من حماقةِ الشَّيطان، وأن يعمَلَ بسُنّةِ سيِّدِنا آدمَ عليه السَّلام.

فَضْلُ التَّوبة:

*** عن أنسٍ رضيَ اللهُ عنه، عن النّبيِّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم، قال: «كلُّ ابنِ آدمَ خَطّاءٌ، وخيرُ الخَطَّائينَ التَّوّابونَ»[١].**

*** عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه، عن النّبيِّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم، قال: «لو أخطأتُم حتّى تبلُغَ خطاياكم السَّماءَ ثمّ تُبتُم لَتابَ عليكم»[٢].**

---

(١) الترمذي، صفة القيامة، باب ٤٩ برقم ٢٤٩٩.

(٢) ابن ماجه، أبواب الزهد، باب ٣٠ برقم ٤٢٤٨.

*** عن عبدِ الله رضيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «التّائبُ من الذَّنبِ كمَن لا ذَنْبَ له»[١].**

*** عن ابنِ عُمرَ رضيَ اللهُ عنهما، قال: قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: «يا أيُّها النّاسُ! تُوبوا الى الله، فإنّي أتوبُ فى اليوم مائةَ مرّةٍ»[٢].**

*** عن أنسٍ رضيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: «إذا تابَ العبدُ من ذنوبِه أنسىَ اللهُ عزَّ وجلَّ حَفَظَته ذنوبَه وأنسى ذلك جوارحَه ومعالمَه من الأرضِ حتّى يلقَى اللهَ يومَ القيامةِ وليس عليه شاهدٌ من الله بذَنْبٍ»[٣].**

وحينَ تُنصَبُ العدالةُ يومَ الحَشْر فإنّ الملائكةَ والجوارحَ والأرضَ ستَشهدُ على صاحبِها لإتمام الحُجَّةِ عليه، لكنّ سعيدَ الحظِّ الذي تابَ إلى اللهِ بصِدقٍ يُنْسي اللهُ من أَجْلِه كلَّ الشُّهودِ على ذَنْبه، وبالتالي يَنْجو من العقاب، إذْ لا شاهدَ عليه، ويُعلَمُ من هذا أنه إذا تابَ الإنسانُ إلى الله تعالى فيجبُ عدَمُ الطَّعن فيه بسببِ ما ارتكبَ من ذَنْب، فإذا كان اللهُ تعالى قد طَهَّره من الذُّنوب، وأنسَى الملائكةَ ذنوبَه، فعلينا نحن أيضًا أن ننسَى ذنوبَه، وأن نُبرزَ حسَناتِه.

*** قال النبي ﷺ: «مَن عيَّر مؤمنًا بذنبٍ تابَ منه كان حقًّا على الله أن يَبتليَه به ويَفضحَه فيه في الدُّنيا والآخرة»[٤].**

وقتُ التَّوبة:

أفضَلُ وقتٍ للتَّوبةِ هو: أن يقومَ بها المُذنبُ فَوْرَ أنْ يشعُرَ بارتكابِه الذَّنبَ،

---

(١) ابن ماجه، أبواب الزهد، باب ٣٠ برقم ٤٢٥٠.

(٢) مسلم، كتاب الذكر، باب ١٢ برقم ٦٨٥٩.

(٣) الترغيب والترهيب، كتاب التوبة، ٤: ٩٤.

(٤) تفسير القرطبي، سورة الحجرات (٤٩): الآية ١١، والترمذي، صفة القيامة، باب ٥٣ برقم ٢٥٠٥.

أو فَوْرَ أن يقرأَ هذه الكلماتِ التي أكتبُها، فإذا ظَلَّ بالغَمِّ من ذلك غافلًا، فلا مناصَ من أن يتوبَ قبْلَ الموتِ على أيّةِ حال؛ لأنّه إذا ما حَضَره مَلكُ الموت، وفَقَد كلَّ أملٍ في الحياة، فتابَ عندَئذٍ، فإنّ توبتَه سواءٌ كانت من ذنبٍ أم من كُفْر، فإنّ توبةَ النَّفَس الأخيرِ هذه لا تُقبَل، فهي مِثْلُ توبةِ فرعونَ التي قام بها من الكُفر، وأعلَنَ إيمانَه عندَ الغَرَق، وعندَما رأى الموتَ بعينَيْه، لكنّ توبتَه لم تُقبَلْ: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠].

*** عن جابرِ بن عبدِ الله رضيَ اللهُ عنهما، قال: خَطَبنا رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم، فقال: «يا أيُّها النّاسُ! تُوبوا إلى الله قبْلَ أن تموتوا وبادِروا بالأعمالِ الصّالحة قبْلَ أن تُشغَلوا»**[١].

*** عن ابن عُمَر رضيَ اللهُ عنهما، عن النّبيِّ ﷺ قال: «إنّ اللهَ يقبَلُ توبةَ العبدِ ما لم يُغَرْغِرْ»**[٢]، لهذا يجبُ الإسراعُ في التَّوبة، فمَن يدري؟ فقد يأتي الموتُ في اللَّحظةِ التالية، ولا تتيسَّرُ المُهلةُ للتَّوبة.

ليعتبر الشباب من الشيوخ

التَّوبةُ ضرورةٌ لكلِّ رجُلٍ وامرأة من كلِّ عُمُر، لكنّ الإنسانَ يغفُلُ أكثرَ في عمُرِ الشَّباب، بينَما هذه المرحلةُ هي الأهمُّ في حياةِ الإنسان، والتي تجبُ التَّوبةُ فيها، ولو تاب الشَّخصُ بعدَ ذلك في عُمرِ السِّتِّينَ ونَصَح زوجتَه وأولادَه بالصَّلاةِ والعمَل الصَّالح، فقد تقولُ الزَّوجةُ: إنَّني أعيشُ مَعكَ منذ ثلاثينَ عامًا، وقد كنتَ أنت غارقًا في ذنوبِك، وتَسحَقُ حقوقي، فلماذا فكَّرتَ اليومَ في العمل الصَّالح؟

---

(١) ابن ماجه، إقامة الصلاة، باب ٧٨ برقم ١٠٨١.

(٢) الترمذي، كتاب الدعوات، باب ٩٨ برقم ٣٥٣٧.

ويمكنُ أن يقولَ الأولاد: يا أبانا العزيز، ظَلَلْتَ تُعربِدُ حتى بَلَغْتَ من العُمرِ ستينَ سنةً، لهذا دَعْنا نفعَلْ ما نريدُ لأربعينَ عامًا قادمةٍ، ثم سنتوبُ بعدَ ذلك، فإذا لم تكنْ إجابةُ الزَّوجةِ والأبناءِ غيرَ صحيحة (لأنّ سعادةَ التَّوبة بمثابةِ الغنيمة إذا تيسَّرتْ للإنسانِ في أيِّ عُمر، ويمكنُ أن يأتيَ الموتُ في مرحلةِ الشَّباب، وانتظارُ عُمرِ السِّتِّينَ دونَ توبةٍ خطأٌ في الفَهْم)، لكنّ هذه الرُّدودَ من الزَّوجةِ والأبناءِ تُعَدُّ لمحةً فكريَّةً لهذا الشَّيخ الذي بَلَغَ السِّتِّينَ من العُمر، ولو كان قد تاب في مرحلةِ الشَّبابِ لَترتَّب على ذلك آثارٌ جيِّدة، ولَما تعرَّضَ في شيخوختِه لهذا الكلام الجارح لقلبِه.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ﴾

٢٤- مِن بيْنِ المظالم التي كانتِ المرأةُ تتعرَّضُ لها قبْلَ الإسلام أنّها كانت تُعتبَرُ مِلكيّةً خاصّةً لزوجِها مثلَ الغَنَم! وتصبحُ المرأةُ ميراثًا لأخي المتوفَّى أو ابنِه غيرِ الشَّقيق عَنْوةً، كأنّها جزءٌ من الأمتعةِ والأثاث، فإذا ما شاء هذا تزوَّجها، أو يُزوِّجُها كما يحبُّ لرُجلٍ آخَرَ، ويحصُلُ هو على صَداقِها، وإن شاء أبقاها العُمَر كلَّه أرملةً تعيشُ حياةَ الترمُّل مُضْطَرَّةً، وهكذا استَحالتِ العلاقةُ بينَ الرَّجُلِ والمرأةِ إلى صورةٍ تجاريَّةٍ وحَيوانيَّة، وهي علاقةٌ تبعَثُ على الخَجَل، أمّا الإسلامُ فقد أَخْرج المرأةَ من مستنقَع الذُّلِّ والحَبْس، وأغناها بثروةِ الحُرِّية، وأوضَح للرِّجال أنّ المرأةَ ليست مجبورةً على الإطلاق، وإنّما من حقِّها اختيارُ زوجِها، ولا يمكنُ لأحدٍ أن يُجبرَها على الزَّواج، كما لا يمكنُ لأحد أن يمنعَها من الزَّواج أيضًا.

﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾

٢٥- بعضُ الرِّجالِ إذا ما كَرِه إحدى زوجاتِه لم يُعطِها حقوقَها، وفي نفسِ الوقتِ لم يُطلِّقْها، حتّى تَضْطَرَّ هي لإعادةِ جزءٍ من الصَّداقِ وتَطلُبَ الطلاقَ بنفسِها،

وقد مَنَع الإسلامُ الرَّجلَ منَ ارتكابِ هذا الظُّلم، صحيحٌ لو أنّ المرأةَ ارتكبتِ الفاحشةَ، أو نَشَزت علانَيَةً، فلأنّ القصورَ عندَئذٍ من المرأة، لذا من الجائزِ له أن يَخلُقَ من الظُّروفِ ما يجعَلُها تطلُبُ الخُلْعَ، ويَستردَّ الزَّوجُ الصَّداقَ ويُطلِّقَها.

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾

٢٦ـ يعني: عامِلوا زوجاتِكم معاملةً حسَنةً، فإذا لم تُعجِبْكم بعضُ عاداتِهنَّ فلا يتسَّربِ الضِّيقُ إلى قلوبِكم فورًا وتَلْجَأوا إلى الانفصال، إذْ ليس في الدُّنيا أحدٌ خالٍ من العيوب، ومن الممكنِ أن تكونَ المرأةُ الثانيةُ التي تريدونَ الزَّواجَ بها فيها من العيوبِ ونقاطِ الضَّعفِ أكثرُ من الأولى، ولئنْ كان في الزَّوجةِ بعضُ العيوب، ففيها أيضًا بعضُ المميِّزات، لذا عليكم أن تَصبِروا على عيوبِها قَدْرَ استطاعتِكم، فمنَ الممكنِ أن يَرزُقَكم اللهُ تعالى من هذه الزَّوجةِ بوَلَدٍ صالح يَرفَعُ ذِكَركم عاليًا في الدِّين والدُّنيا.

وفي هذا الإطارِ هناك قولٌ لسيِّدِنا عُمرَ بن الخَطّاب رضيَ اللهُ عنه يستحِقُّ التأمُّل ـ **وما أعظَمه!** ـ لرجُل أراد أن يُطلِّقَ زوجَه؛ لأنه لا يُحبُّها ... **وَيْحَك! ألَم تُبْنَ البيوتُ إلّا على الحُبِّ؟ فأين الرِّعايةُ وأين التَّذمُّم؟**»[١]، أي: إنك ستخسَر، إذْ هل تُبنَى البيوتُ على الحبِّ فقط؟ فما مصيرُ تربيةِ الأبناءِ والمسئوليَّاتِ الأخرى إذًا؟ لأنّ صِغارَ الإنسانِ يحتاجونَ إلى الرِّعايةِ والاهتمام لفترةٍ أطولَ من صِغارِ أيِّ كائنٍ حيٍّ آخَرَ، بل إنّهم يحتاجونَ لفترةٍ طويلةٍ من التَّربيةِ العِلميَّةِ والأخلاقيَّة بعدَ مرحلةِ الطُّفولة، حتّى يستطيعوا إدراكَ الحقوقِ والواجباتِ في الحياةِ الاجتماعيَّةِ للإنسان، وهي التي تميِّزُ الإنسانَ عن الحيَوان، ولتحقيقِ هذا الهدف يَحتاجُ كلٌّ من

---

(١) في ظلال القرآن.

الرَّجلِ والمرأةِ إلى علاقةٍ دائمة بينَهما ليس هدفُها الشَّهوةَ الجِنْسيَّةَ فقط، لكنّ اللهَ تعالى أوْدَع الجاذبيَّةَ الجِنسيَّةَ في الرَّجل والمرأة، حتى يَلتقِيا بسعادةٍ وشَوْق، ويُمكنَهما تحمُّلُ مسئوليّاتِهما تُجاهَ الجيل الجديدِ بوَجْهٍ باسمٍ ونفْسٍ راضية.

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾

٢٧ـ قال اللهُ تعالى في الآيةِ السَّابقة: لئنْ طلَّقتُم المرأَة بسببِ خطأِها وتقصيرِها فإنّ للزَّوج حقَّ استعادةِ الصَّداق، أمّا إن لم يكنْ للمرأةِ ذنبٌ في الأمر، وكان الزَّوجُ هو الذي يريدُ أن يَترُكَ زوجتَه الحاليَّةَ، ويتزوَّجَ بأُخرى بدافع من رغبتِه الفِطْريَّة، ففي هذه الحالةِ ليس مسموحًا له أن يَستردَّ شيئًا ممّا أعطاهُ لزوجتِه مهما كان كثيرًا، بينَما ـ في عصرِ الجاهليَّة ـ كان الزَّوجُ إذا ما أراد تَرْكَ زوجتِه التي في عِصمتِه ليتزوَّجَ بأخرى اتَّهمَها بالزِّنا، حتّى يُجبِرَها على ردِّ الصَّداق وطَلَبِ الطلاق، وقد مَنَع اللهُ تعالى من مسألةِ استردادِ الصَّداق عن طريقِ الاتِّهام والافتراءِ وعَدَّه ذَنْبًا عظيمًا.

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾

٢٨ـ المرادُ بالميثاق الغَليظ هو: النِّكاح، فهو عَقْدٌ قويٌّ لمشاركةِ الحياةِ بحبٍّ ووُدّ، اعتمَدت عليه المرأةُ وأقرَّت بتسليم نفسِها للرَّجُل، بينَما يُعلنُ الرَّجلُ تقديمَ ما يسمَّى بالصَّداق مقابلَ تسليمِها نفسَها هذا، وكلُّ هذه الخُطُواتِ تُتَّخذُ باسم اللهِ تعالى وعلى سُنّةِ رسولِه الكريم ﷺ، فإذا ما التقَى الزَّوجانِ في خَلْوةٍ شَرْعيَّةٍ اتَّضحتْ هذه العلاقةُ وصار الصَّداقُ واجبًا، وبعدَها إذا أراد الرَّجلُ أن يَفسَخَ هذا العَقْدَ برضاهُ وبمَحْضِ إرادتِه، فليس له الحقُّ في استردادِ الصَّداقِ من

الزَّوجة، أو أيِّ شيءٍ ممّا أهداه لها، لكنْ إذا كان النِّكاحُ قد تَمَّ ولم يَدخُل الرَّجلُ بزوجتِه، وطلَّقها قَبْلَ الدُّخول بها، فإنه يستطيعُ استردادَ نصفِ الصَّداق.

﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾

٢٩ـ في عصرِ الجاهليَّة، عندَما كان الوالدُ يُتوفَّى، فإنّ الابنَ غيرَ الشَّقيق، كان يتزوَّجُ من زوجةِ أبيه، وقد مَنَع اللهُ تعالى من هذا النِّكاح؛ لأنه من المُخجِل تمامًا أن يتزوَّجَ ابنٌ من أُمِّه حتّى وإن كانت زوجةَ أبيه، ولكنَّها ـ بالطبع ـ في مقام أُمِّه، أمّا ما حَدَث قبْلَ الإسلام من مِثْل هذا الخطأِ فلا مؤاخَذةَ عليه.

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّـٰتُكُمْ وَخَـٰلَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَـٰتُكُمُ ٱلَّـٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَـٰعَةِ وَأُمَّهَـٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَـٰٓئِبُكُمُ ٱلَّـٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّـٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَـٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَـٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ۞ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۖ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَـٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن فَتَيَـٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَـٰتٍ غَيْرَ مُسَـٰفِحَـٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَـٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَـٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ

﴿ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ ﴾

٣٠- النِّساءُ اللَّائي يَحرُمُ الزَّواجُ بِهنَّ - بسببِ النَّسَب - هُنَّ:

١- الأُمُّ (ويدخُل فيها الجَدّةُ لأبٍ والجَدّةُ لأُمٍّ وكلُّ من يكونُ فوقَها).

٢- الابنةُ (ويدخُلُ فيها الحَفيدةُ من ابنٍ أو ابنةٍ وكلُّ من يكونُ بعدَها).

٣- الأَختُ (ويدخُلُ فيها الشَّقيقةُ وغيرُ الشَّقيقة على السَّواء).

٤- العَمَّة.

٥- الخالة.

٦- ابنةُ الأخ.

٧- ابنةُ الأُخت.

﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ ﴾

٣١- كما يَحرُمُ الزَّواجُ أيضًا من هؤلاءِ النِّسوةِ السَّبعةِ بسببِ الرَّضاع، مثلَما حَرُم الزَّواجُ منهنَّ بسببِ النَّسَب؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**إنّ الله حرَّم من الرَّضاع ما حرَّم من النَّسَب**»[1]، وقد وَرَد في هذه الآيةِ ذكرُ اثنَيْنِ من هؤلاءِ النِّسوة، يعني: الأُمَّ من الرَّضاعة والأُختَ من الرَّضاعة.

﴿ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ ﴾

٣٢- وهناك صورتانِ للنِّساءِ الأُخرياتِ اللَّائي يَحرُمُ الزَّواجُ منهُنَّ بسببِ علاقة النِّكاح، وهما:

---

(١) الترمذي، برقم ١١٤٦. والحديث عن علي رضي الله عنه.

١ـ النِّسوةُ اللَّائي يَحرُمْنَ حُرمةً أبديَّة، أي: أُمُّ الزَّوجة، وابنةُ هذه الزَّوجةِ التي تمَّ الدُّخولُ بها، أمّا إنْ طلَّقها قبْلَ الدُّخول بها أو ماتتْ قبْلَ الدُّخول بها، فإنّ الزَّواجَ منَ ابنتِها صحيحٌ، وكذلك تَحرُمُ حُرمةً أبَديَّةً زوجاتُ الأبناء، ونفسُ الحُكم يَسْري على زوجاتِ الأحفادِ منَ ابنٍ أو ابنةٍ.

٢ـ أولئك النِّسوةُ اللَّائي لا يَحرُمْنَ حُرمةً أَبديَّةً، وإنّما تكونُ الحُرمةُ طالما كانت زوجتُه في عصمتِه، لكنْ إن طَلَّق زوجتَه أو ماتت، فإنّ زواجَه بأولئك النِّسوة جائز، وهؤلاء هُنَّ: أُختُ الزَّوجة، بمعنى: أنّ اللهَ تعالى مَنَع من الجَمْعِ بيْنَ الأُختَيْن، كما مَنَع النبيُّ ﷺ من الجَمْع بينَ الخالةِ والعمَّة وابنةِ أخيها وابنةِ أُختِها في نكاح واحد[1]؛ لأنّ هذه العلاقاتِ تكونُ علاقاتِ ودٍّ ومحبَّة، فإذا ما أصبحتْ إحداهُنَّ ضَرّةً للأُخرى تنقطُع صِلةُ الرَّحِم، وتحُلُّ الغَيْرةُ والحَسدُ مكانَ المحبة، وقد وَضَع الفقهاءُ قاعدةً تقول: إنه إذا اقتَرنَ الرَّجلُ بواحدةٍ من هاتَيْن، ولا تُجيزُ الشَّريعةُ زواجَهما، فإنّ الجَمْعَ بيْنَ الاثنَيْنِ غيرُ جائز، فمثلًا: العمَّةُ وابنةُ أخيها، لو اقتَرن الرَّجلُ بالعمَّةِ أصبح عمًّا، ولا يجوزُ للعمِّ أن يتزوَّجَ بابنةِ أخيه، ولو اقتَرن الرَّجلُ بابنةِ أخي المرأة لَأصبح ـ بالنِّسبة لها ـ ابنَ أخيها، وهي عمَّتُه، ولا يجوزُ للعمَّةِ أن تتزوَّج بابنِ أخيها.

﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾

٣٣ـ كانت العربُ تَعتبِرُ الزَّواجَ من مطلَّقةِ الابن بالتبنِّي أو من أرملتِه غيرَ جائز، وقد أبطَلَ اللهُ تعالى هذا التقليدَ، يعني: أنّ الذي لا يجوزُ هو: مطلَّقةُ الابنِ من الصُّلبِ

---

(١) «عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، نهى أن تنكح المرأة على عمّتها أو العمّة على بنت أخيها أو المرأة على خالتها أو الخالة على بنت أختها». الترمذي، برقم ١١٢٦.

أو أرملتُه فقط، ولا مانعَ ـ مطلقًا ـ من الزَّواج بمطلَّقةِ الابن بالتبنيِّ أو من أرملتِه.

﴿ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾

٣٤ـ النِّساءُ اللَّائي يَتِمُّ أَسْرُهنَّ في الحروب، ويبقَى أزواجُهنَّ في دارِ الحرب، فإنّ نِكاحَهنَّ قدِ انفَسَخ بمجيئهنَّ من دارِ الحرب إلى دارِ الإسلام، ويمكنُ الزَّواجُ من مِثْل هؤلاءِ النِّساء، ويمكنُ للمجاهدِ الذي تمنَحُه الحكومةُ الإسلاميَّةُ هذه المرأةَ أن يجامعَها، ويمكنُك الرُّجوعُ إلى حاشية رقم ٧ ضمن تفسيرِ آيةِ رقم ٣ من هذه السُّورة لمزيدٍ من التفصيل عن الغِلْمانِ والإماء.

﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ﴾

٣٥ـ يعني: أنّ النِّساءَ اللَّائي بيّنّا حُرمتَهنَّ يجوزُ لكم أن تتزوَّجوا من سواهُنَّ، والمرادُ بالنِّكاح: أن يَتحقَّقَ الإيجابُ والقَبولُ في وجودِ الشُّهود، ويُعلَنَ معَه الإقرارُ بتقديم الصَّداق، وليس الهدفُ من النِّكاح قضاءَ الوَطَر بصورةٍ وَقْتيَّة (مثلَما هو الحالُ في زواج المُتْعةِ المحرَّم)، وإنَّما عَزْمٌ أكيدٌ على أن يعيشَ الزَّوجانِ معًا بصفتِهما زوجًا وزوجةً طيلةَ العمُر، والزَّواجُ بهذا الشَّكل هو المميِّزُ للإنسانِ عن الحيَوان، كما أنّ الحفاظَ على النَّسْل يتوقَّفُ أيضًا على الزَّواج، لكنّ مأساةَ هذا العصرِ الحديثِ أنّ أنسابَ الخيولِ والكلابِ يتِمُّ المحافظةُ عليها، حتّى يمكنَ الاستفادةُ من مميِّزاتِها، بينَما يُلقَى بنَسَب الإنسانِ خَلْفَ الظهور.

على أيّةِ حال، إذا جامَعَ الزَّوجُ زوجتَه بعدَ النِّكاح أو التقَى بها في خَلْوةٍ شرعيَّةٍ فإنّ أداءَ الصَّداقِ إليها يصبحُ واجبًا، وهذا الصَّداقُ ليس مِنةً يمُنُّ بها الزَّوجُ

على الزَّوجة، وإنّما هو حقُّها، فإذا تَنازَلتِ الزَّوجةُ عنه كلِّه أو عن بعضِه للزَّوج بمَحْضِ إرادتِها وبرضاها فلا حَرَجَ في ذلك.

﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾

٣٦ـ الإنسانُ الذي لا يستطيعُ الزَّواجَ من المسلمةِ الحُرَّة، وفي نفسِ الوقتِ لا يستطيعُ الصَّبرَ على العِفَّة، ويخشى الوقوعَ في الذَّنب، فإنّ القرآنَ الكريمَ أجاز له ـ في هذه الحالة ـ أن يَنكِحَ أَمَةً من الإماء؛ لأنّ تكاليفَ الزَّواج بالإماءِ ومَهْرَهنَّ قياسًا أقلُّ من تكاليفِ الزَّواج بالحرائر ومَهْرِهنَّ، وحينَ يقومُ أحدٌ بتزويج أَمَتِه من رجُلٍ آخَرَ فإنه بعدَ ذلك يُمكنُه الاستفادةُ بها في أعمال بيتِه، ولكنْ ليس له أن يجامعَها.

﴿ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ﴾

٣٧ـ كان الزَّواجُ من الإماءِ معيوبًا عندَ العرب، وقد أبطَلَ القرآنُ الكريمُ هذا التَّصوُّرَ بأنّكم جميعًا أولادُ أبٍ واحدٍ هو آدمُ عليه السَّلام، ولهذا يمكنُ أن تَنكِحوا الإماءَ العفيفاتِ بإذْنِ القائم على أمرِهنَّ، وعليكم أن تؤدُّوا لهنَّ صَداقَهنَّ.

﴿ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ﴾

٣٨ـ إذا ارتكَبتِ الأَمَةُ ـ بعدَ إحصانِها ـ الفاحشةَ فإنّ عقابَها هو خمسونَ جلدةً بدلًا من مائة، وفي أغلبيَّةِ الحقوقِ يكونُ للإماءِ نصفُ الحرائر، ولهذا فإنّ عقابَ هذا الجُرم أيضًا نصفُ عقابِ الحُرَّة.

الامتيازاتُ والاستثناءاتُ في قوانين الدُّنيا تُعطَى لأصحابِ المناصبِ العليا أو الأثرياء، لكنّ الإسلامَ راعَى الضَّعفَ الفِطْريَّ لدى الإنسان، فحيثُما تكونُ هناك

فرصةٌ أكبرُ للزَّلَل، وفُرصٌ أقلَّ للنَّجاة، يكونُ العقابُ مخفَّفًا، بمعنى: أنّ الرَّجُلَ الحرَّ المتزوِّجَ منَ امرأةٍ حُرَّةٍ لا حاجةَ له ولا لها إلى الفاحشة، فإذا ارتكَبا هذا الجُرمَ بالرَّغْم من هذا فإنَّهما عندئذٍ يُرجَمان، أمّا الرَّجلُ غيرُ المتزوِّج والمرأةُ غيرُ المتزوِّجة إنْ لم يستطيعا التحكُّمَ في شهوتِهما، فإنّهما يُجلَدانِ مائةَ جلدة، بينَما الغِلمانُ والإماءُ يكونونَ أكثرَ تعرُّضًا للإغراءِ بسببِ عملِهما في أماكنَ متعدِّدةٍ لحاجتِهما المنزليَّة، لهذا إذا وَقَع منهما فعلُ الفاحشة يتِمُّ التعاملُ معَهما بلينٍ أكثرَ بسببِ اضطرارِهما، ويُكتفَى بجلدِهما خمسينَ جلدةً فقط.

يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾

٣٩ـ بيَّنَ اللهُ تعالى أحكامَ الحلالِ والحرام بطريقةٍ واضحة، وذَكَر أيضًا أحوالَ

الأنبياءِ الكرام السَّابقينَ عليهم السَّلامُ وكذا الصَّالحينَ العِظام رضيَ اللهُ تعالى عنهم جميعًا، حتى تَسِيروا على نَهْج السَّلَفِ الصَّالح، وتتوبوا من الباطل، وتستقيموا على طريق الحقِّ، ولِتتذكَّروا أنّ اللهَ تعالى يريدُ أن يُمطِرَكم بسُحُبِ رحمتِه، ولكنّ عَبيدَ الشَّهواتِ يريـدونَ أن يُضِلُّوكم عن طريقِ الحقِّ بمـختلَفِ الحِيَل والذَّرائـع والوساوس، ولهذا عليكم أن تنتبهوا إلى مَكْرِهم وخِداعِهم، وتَتَّبعوا الأحكامَ الإلهيَّةَ، حتى تستحقُّوا الرَّحمةَ الرَّبانيَّةَ.

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴾

٤٠ـ اللهُ تعالى هو خالقُ الإنسان، وهو الذي يَعلَمُ نقاطَ الضَّعفِ الفِطْريَّةَ فيه، ولذا لم يُكلِّفِ اللهُ تعالى الإنسانَ بأحكام فوقَ طاقتِه، على سَبيل المثال، وَضَع اللهُ تعالى بذورَ الرَّغبةِ الجِنسيَّةِ في الإنسان، وبعدَ ذلك إذا ألزَمْنا كلَّ إنسانٍ بأنْ يتَّبعَ سُنَّةَ سيِّدِنا عيسى عليه السَّلام في أن يعيشَ بلا زواج مثلَه، فسوف تَحدُثُ مشكلاتٌ عديدةٌ وقاسيةٌ في تنفيذِ هذا الأمر، وسينقطعُ النَّسلُ الإنسانيُّ، ولهذا لم يسمَح الإسلامُ بالزَّواج من النِّساءِ فقط، وإنّما رغَّبَ فيه وجَعَلَه نصفَ الدِّين.

والإنسانُ ضعيفٌ بفِطرتِه، ولكنْ بقَدْرِ ما تقتربُ القيامةُ، بقَدْرِ ما يزدادُ هذا الضَّعف، ولهذا فإنّ الأحكامَ التي أنزَلَها اللهُ تعالى على الأُمم السَّابقةِ خَفَّف فيها على المسلمين، مثلَ: ترخيصِه تعالى لهم في عَدَم الصَّوم في السَّفَر والمرض، أو في التيمُّم عندَ عَدَم وجودِ الماء، وإمكانيّةِ أداءِ الصَّلاة في أيِّ مكانٍ على وَجْه الأرض، وهو ما لم يكنْ مسموحًا به للأُمم السَّابقة، وباختصار، فإنّ أحكامَ الشَّريعةِ كلَّها راعتِ التيسيرَ على الإنسان، فالإسلامُ يُيسِّر ولا يُعسِّر.

الآياتُ القرآنية:

* ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

* ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

الأحاديثُ النَّبويَّة:

*** عن أنسٍ رضيَ الله عنه، عن النّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم، قال: «يسِّروا ولا تُعسِّروا وبَشِّروا ولا تُنفِّروا» (أي: من الدِّين)»[١].**

*** عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه، قال: قام أعرابيٌّ، فبالَ في المسجد، فتناوَلَه النّاسُ، فقال لهم النّبيُّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: «دَعُوهُ وهَرِيقوا على بَوْلِه سَجْلًا من ماءٍ، فانّما بُعثتُم ميسِّرين ولم تُبعَثوا معسِّرين»[٢].**

*** عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه، عن النّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم، قال: «إنّ الدِّين يُسْر، ولن يُشادَّ الدِّينَ [أحدٌ] إلّا غَلَبه، فسَدِّدوا وقارِبوا وأبشِروا واستعينوا بالغُدوة والرَّوْحة وشيءٍ من الدّلجة»[٣].**

*** عن عائشةَ رضيَ اللهُ عنها، أنّها قالت: «ما خُيِّر رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم بيْنَ أمرَيْنِ قطُّ إلّا أخَذ أيسَرَ هما ما لم يكنْ إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعدَ النّاسِ منه، وما انتقَم رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم لنفسِه في شيءٍ قطُّ إلّا أن تُنتهَكَ حُرمةُ الله فيَنتقِمُ بها لله»[٤].**

* ذاتَ مرَّة، جاء وَفْدٌ من نَصارى نَجْرانَ يتكوَّنُ من أربعةَ عشَرَ رجُلًا للقاءِ رسولِ الله ﷺ، فأسَكَنهم النبيُّ ﷺ في المسجد النَّبويِّ، وسَمَح لهم بأداءِ العبادة

---

(١) البخاري، كتاب العلم، باب ١٢ برقم ٦٩.

(٢) البخاري، كتاب الوضوء، باب ٦١ برقم ٢٢٠.

(٣) البخاري، كتاب الإيمان، باب ٣٠ برقم ٣٩.

(٤) البخاري، كتاب الأدب، باب ٨٠ برقم ٦١٢٦.

على طريقةِ النَّصارى، وهكذا أدَّى وَفْدُ النَّصارى عبادتَه في رُكنٍ من أركانِ المسجدِ باتِّجاه الشَّرق[١].

* كان لسيِّدِنا عُمرَ الفاروقِ رضيَ اللهُ عنه غلامٌ نَصْرانيٌّ، فدعاهُ رضيَ اللهُ عنه إلى الإسلام فأبى، فقرأَ سيِّدُنا عُمَرُ الفاروقُ رضيَ اللهُ عنه من القرآنِ ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾، ولم يُظهِرْ أيَّ غضبٍ منه، وحين اقترَبَ وقتُ وفاةِ سيِّدِنا عُمرَ رضيَ اللهُ عنه قام بعِتقِ هذا الغلام[٢].

الإسلامُ دينُ يُسْر، ولذا عندَما تختلفُ أقوالُ السَّلفِ الصَّالح في مسألةٍ من المسائل، فعلى أهل العِلم أن يوضِّحوا للنّاسِ الطريقَ الأسهَلَ، بشَرْطِ ألّا يكونَ معصيةً أو ذنبًا؛ لأنّ اللهَ تعالى ورسولَه ﷺ قد فَضَّلا دائمًا ما هو أيسَرُ للإنسان.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡ﴾

٤١ـ كم هي جملةٌ تقدِّمُ النُّصحَ والإرشادَ، يعني: أنّ مالَ أيِّ مسلم ليس مالًا أجنبيًّا أو غريبًا، وإنّما هي أموالُنا جميعًا، والتصرُّفُ فيها بطريقةٍ غيرِ جائزة بمثابةِ خِداع الذَّات؛ لأنّك إن فعلتَ فظُلمُكَ هذا سيُفتضَحُ أمرُه يومَ القيامة وإن خَفِيَ عن قانونِ الدُّنيا، وعندَئذٍ من يكونُ الخاسرَ إذًا؟ وعندَما تؤخَذُ الحسَناتُ

---

(١) «كتب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى أهل نجران، فخرج إليه وفدهم أربعة عشر رجلًا من أشرافهم نصارى، فدخلوا المسجد إثر صلاة العصر، فقاموا يصلّون في المسجد نحو المشرق، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: دعوهم». تفسير القرطبي، سورة آل عمران (٣): الآية ٢، وطبقات ابن سعد، ١: ٢٠٧.

(٢) «عن وسق الرومي، قال: كنت مملوكًا لعمر بن الخطاب رضوان الله عليه، وكان يقول لي: أسلم، فأبيت، فقال: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾، فلما حضرته الوفاة أعتقني، وقال: اذهب حيث شئت». عمر ابن الخطاب، ابن الجوزي، ١٦٩.

من صحيفةِ أعمالِك لتلافي هذا الظُّلم الذي ارتكبَته، فأيُّ نَدَم ستُعانيه، وأيُّ ذُلٍّ وخَجَل ستواجهُه عندئذٍ؟ ولكنْ إن كانت هناك تجارةٌ مشتركةٌ بينَكم لم يَظلِمْ فيها أحدٌ أحدًا، ولم يتِمَّ استغلالُ أحدٍ بشكلٍ غيرِ مشروع بسببِ اضطرارِه، وإنّما هي مجرَّدُ تعاملاتٍ تجاريّة تتِمُّ برضا جميع الأطراف، وأصبتُم ربحًا من وراءِ هذا، فهو ربحٌ حلال، بل إنّ مِثلَ هذا التاجرَ سينالُ أجرًا عظيمًا، مثلَما قال النبيُّ ﷺ: «**التّاجرُ الصَّدوقُ الأمينُ معَ النّبيّين والصّدّيقينَ والشُّهداء**»(١).

﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾

٤٢ـ معنى ذلك: أن لا ينتحِرَ أحدٌ؛ لأنّ الانتحارَ كبيرةٌ من الكبائر، وهناك معنًى آخَرُ وهو: أن لا يَقتُلَ مسلمٌ مسلمًا أبدًا؛ لأنّ المسلمينَ جميعًا كالجَسدِ الواحد(٢)، ولذا فإنّ قَتْلَ مسلمٍ بمثابةِ قَتْل النفْس، لأنّ الانتحارَ وقَتْلَ المسلم جريمتانِ يَنتُجُ عنهما تحوُّلُ حياةِ آخرينَ إلى عذاب، على سبيل المثال: هناك أُختٌ مسلمةٌ ستصبحُ أرملةً، وأطفالٌ صغارٌ سيصبحونَ يتامَى، وستُواجهُ أسرةُ القاتل والمقتول مصائبَ كبيرةً، ومن هنا يجبُ - قبْلَ الإقدام على هذه النِّهايةِ السيِّئة - التفكيرُ جيِّدًا، لكن وبالرَّغْم من هذا التحذير إنْ تعمَّد أحدٌ ارتكابَ الظُّلم والجَوْر والتعدِّي، وتَصرَّفَ بما لا يجوزُ في نفْس أحدٍ ومالِه، فإنّ اللهَ تعالى سيُلقي به في نار جهنَّم، وليس هذا بالأمر العسيرِ على الله تعالى؛ لأنّ هذا العقابَ هو عَيْنُ العَدْلِ ومقتضَى الإنصاف.

﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ﴾

٤٣ـ تعريفُ الذَّنْب:

---

(١) الترمذي، أبواب البيوع برقم ١٢٠٩. والحديث عن أبي سعيد رضي الله عنه.

(٢) «عن النّعمان بن بشيرٍ، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسّهر والحمّى». مسلم، كتاب البر، باب ١٧ برقم ٦٥٨٦.

الذَّنبُ: اسمٌ للعمل بالمخالَفةِ لحُكم الله تعالى ورسولِه ﷺ، وتعيَّنُ له حَدٌّ، أو جاء التَّهديدُ بالعذابِ به في الآخرة، وهذا هو ما يُطلَقُ عليه «كبيرةٌ من الكبائر»، وما عَداه فهو من صغائرِ الذُّنوب.

الكبائرُ من الذُّنوب:

الكبائرُ من الذُّنوبِ كثيرةٌ جدًّا، ونُدرجُ هنا بعضًا منها:

الشِّـركُ بالله، وقَتْلُ النـفْس بغيرِ حـقٍّ، والزِّنـا، واللِّـواط، وقَذْفُ المحصَناتِ المؤمنات، وعقوقُ الوالدَيْن، وأكلُ مالِ اليتيم، وتَرْكُ الفروض (الصَّلاةِ والصَّوم والزَّكاة وغيرِها)، ونسيانُ القرآنِ بعدَ حِفظِه، والعملُ بالسِّحر، وشُربُ الخمر، وشهادةُ الزُّور، وحرقُ الحيَوان، وسبُّ الصَّحابةِ الكرام رضيَ اللهُ عنهم جميعًا، وإهانةُ العلماء، وأكلُ لحم الخِنزير أو لحمِ المَيْتة بلا عُذرٍ ولا اضْطِرارٍ، وغيرُ ذلك.

صغائرُ الذُّنوب:

وعددُها أيضًا كبيرٌ جدًّا، ونَذكُر منها ما يلي:

النظرُ إلى المرأةِ الأجنبيَّة، وصَداقةُ الفُسّاق، ورفعُ الحاجةِ باتِّجاه القِبلة، وتَرْكُ الواجباتِ، وغيرُها.

ملحوظة: الإنسانُ الذي يتجنَّبُ كبائرَ الذُّنوب، ويؤدِّي الفرائضَ والواجباتِ يغفرُ اللهُ تعالى صغائرَ ذنوبِه، ويجبُ أن لا نُحقّرَ من شأنِ صغائرِ الذُّنوب؛ لأنّ الإصرارَ عليها يجعَلُها كبيرةً، ومثالُ كبائرِ الذنوبِ وصغائرِها كمَثَلِ جَمْرةٍ كبيرةٍ من النارِ وشرارةٍ صغيرةٍ منها، لا يستطيعُ الإنسانُ تحمُّلَ الآلام التي تسبِّبُها أيٌّ منهما، وكلُّ واحدةٍ منهما (جَمْرةِ النار الكبيرة وشرارةِ النارِ الصَّغيرة) يمكنُ أن تتكونَ سببًا في حرقِ بيتٍ بأكمَلِه، والفرقُ فقَطْ هو أنّ الجمرةَ تحرقُ سريعًا، بينَما الشَّرارةُ إن غَفَلتَ عنها قليلًا يمكنُ أن تحرقَ البيتَ كلَّه.

﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ﴾

٤٤ـ بعضُ الكمالاتِ والفضائل فَضَّل اللهُ فيها بعضَ النّاسِ على بعض، مثلَ: الشَّكل والصُّورة، والذَّكاءِ والفِطنة، والحَسبِ والنَّسبِ وغيرِها، ومثلُ هذه الفضائل لا تُكتسَبُ، وإنّما يَمُنُّ اللهُ بها من فَضْلِه ولحكمةٍ منه على أحدٍ دونَ أحد، ولذا فإنّ تمنِّيَ هذه الفضائل التي لا خِيارَ لنا فيها من العَبَثِ الذي لا طائلَ من ورائه؛ لأنّ هذه كلُّها أوامرُ إلهيَّةٌ لا يُمكنُ للإنسانِ أن يُغيِّرَها مهما حاول وفَعَل، فإذا ما تمنَّى أحدٌ مثلَ هذه الفضائل فلن ينالَه سوى الحقدِ والحسَدِ والهمِّ والغَمِّ.

على أيّةِ حال، يجبُ أن نجتهدَ قَدْرَ استطاعتِنا في أن يتفوَّقَ أحدُنا على الآخَر في العملِ الصَّالح والتقوى، وفي هذا سينالُ كلٌّ من الرَّجلِ والمرأةِ على السَّواء أَجْرَ محاولاتِه، وبالتالي يجبُ على كلِّ إنسانٍ أن يدعوَ اللهَ دائمًا ليمنحَه من فَضْلِه، ومَن جَعَل من نفسِه مستحِقًّا لفَضْل الله وكَرمِه بسببِ تقواه وصَلاحِه، فسيكونُ أفضلَ من الآخرين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣].

﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ﴾

٤٥ـ لو أقسمَ اثنانِ ـ مِن غير ذَوِي القُرْبَى ـ على أن يتوارَثا فيما بينَهما فإنّ كلًّا منهما يصبحُ مستحِقًّا للسُّدُسِ من التَّركة، كان هذا تقليدًا رائجًا أيامَ الجاهليَّة، ولهذا اعتَبر الإسلامُ أنّ من غيرِ المناسب مَنْعَه فورًا، وأبقَى عليه في الأيام الأُولى له، ولكنْ حين نَزَلت الآيةُ رقم ٧٥ من سُورة الأنفال، وقرَّرت أنّ المستحِقَّ للوِراثة هم الوالدانِ والأقاربُ الأقرَبونَ فقطْ، عندَئذٍ نُسِخ الحُكمُ السَّابق، لأنه كان يُضيّعُ حقوقَ الأقارب، ومعَ ذلك يمكنُ للشَّخص أن يوصيَ ـ في حدودِ الثُّلُثِ من تَركتِه ـ لمن يشاء.

ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾

٤٦ـ الرَّجلُ والمرأةُ متساويانِ باعتبارِ الإنسانيَّة، وكلاهما أشرَفُ المخلوقات، وحقوقُ النِّساءِ واجبةٌ على الرِّجال مثلَما أنّ حقوقَ الرِّجالِ واجبةٌ على النِّساء، لكنْ تَقرَّرَ أن يكونَ الرَّجلُ هو سيِّدَ البيت بغَرَضِ تسييرِ أمورِه.

وقد بيَّن القرآنُ الكريمُ هنا سببَيْنِ لحاكميَّةِ الرجُل، السَّببُ الأولُ: أنه فُضِّل من الله، ولا دَخْلَ فيه لاجتهادِ الرجُل أو لتقصيرِ المرأة، وإنَّما هي حكمةٌ من اللهِ تعالى

بأنْ جَعَل الرجُلَ هو الأقوى جسَديًا، وأوفرَ حظًّا في البصيرةِ السياسيَّةِ والبحثِ عن العِلم والحِكمةِ والكفاءةِ العَقْليَّةِ والذِّهنيَّة، ولهذا فإنّ أهمَّ المناصبِ على مستوى العالَم اليومَ، يعني: العلماءَ المخترعينَ، ورؤساءَ الدُّول، وعلماءَ الدِّين وزُعماءَ السِّياسة، وقادةَ الجيوش، معظمُهم من الرِّجال، وقليلٌ منهم من النِّساء؛ لأنّ المرأةَ ـ بالفِطرة ـ ليس لدَيْها هذه الموهبةُ الفِطريَّةُ التي تقتضيها هذه المناصبُ العظيمةُ، ولهذا اختَصَّ الإسلامُ الرِّجالَ بالنُّبوَّة والرِّسالة والحُكم والإمامةِ وغيرِها.

أما السَّببُ الثاني هنا لحاكِميَّةِ الرَّجل فهو سببٌ اكتسابيٌّ، بمعنى: أنه اختياريٌّ، وهو أنّ الرَّجلَ يُنفقُ أموالَه على زوجتِه وأبنائه، ويتحمَّلُ مسئوليَّةَ تلبيةِ احتياجاتِهم كلِّها، ولأنّ المرأةَ تحتاجُ في فتراتِ تحمُّلِها للمسئوليَّة الفِطْرية، أي: أيام الحَمْل وولادةِ الأطفال وتربيتِهم، إلى مَن يتولَّى أمرَها، ويتحمَّلُ مسئوليَّةَ الإنفاقِ عليها، كما أنَّها تكونُ في حاجةٍ دائمًا إلى مَن يحميها بسببِ ضَعْفِها الجَسَديِّ وجاذبيَّتِها الجِنسيَّة، وهاتانِ المسئوليَّتانِ يقومُ بهما الزَّوجُ، ولذا فإنّه ـ في مقابل هذه الحمايةِ وهذه الكفالة ـ أصبح من حقِّ الرَّجل أن تَقبَلَ المرأةُ قِوامتَه أيضًا، كما أنّ هناك حقيقةَ فِطْريَّةٍ وواقعيَّةً أيضًا، وهي: أنّ اللهَ تعالى خَلَق الرَّجلَ أقوى في مقابل المرأة، ولهذا فحيثما تكونُ القوَّةُ الجسَديَّةُ هي المؤثِّرةَ في مجالٍ من المجالاتِ الرياضيَّةِ مثلًا، كالملاكمة والمصارعةِ ورَفْع الأثقالِ وغيرِها من الألعاب، فإنّ النِّساءَ لا يَنْجَحْنَ إذا ما واجَهْنَ الرِّجالَ فيها، ومن هنا فإنّ التغاضيَ عن كلِّ هذه الأمورِ وادِّعاءَ أنّ المرأةَ والرَّجلَ متساويانِ في كلِّ شيءٍ ليس صحيحًا.

وأفضَليَّةُ الرِّجال على النِّساء هي: في المجموع العامِّ، أمّا فيما يتعلَّقُ بالأفرادِ فإنَّنا نجدُ المرأَة في بعضِ الأحيانِ تفُوقُ الرِّجالَ في العِلم والحِكمةِ والذَّكاءِ والفِطْنة، ولكنَّك ربَّما لا تجدُ في أيِّ دولةٍ من دُوَلِ العالَم كلِّه مؤسسةً أو إدارةً لها

رئيسان، بل إنّ الكائناتِ نفسَها ليس لها إلهٌ إلّا اللهُ فقطْ، وبالتالي فإنّ مملكةَ الأُسرةِ (الزَّوج والزَّوجةِ والأبناءِ) في حاجةٍ إلى حاكم واحد، والمناسبُ لهذا بشكلٍ أكبرَ هو الرَّجُل؛ لأنّ المسئولَ عن الإنفاقِ على البيتِ هو الرَّجل، وعلى هذا يكونُ الرَّجلُ هو الأحقَّ بأنْ يكونَ حاكمًا وراعيًا لهذا البيت، ولكنّ هذا لا يعني أنّ المرأةَ هنا عاجزةٌ وبمثابةِ الأَمَةِ أو الخادمة، فالحقيقةُ أنّ وَضْعَ الرَّجل في البيتِ كوضع رئيسِ الوُزراءِ في بلدٍ ما، ووَضْعَ المرأةِ كوَضْع الوزيرِ في هذا البلد، بينَما الأطفالُ هم الرعيَّةُ الذين يلتزمُ كلٌّ من الزَّوج والزَّوجة معًا وبالتراضي والاتِّفاق والتشاور على رعايتِهم وحمايتِهم والحفاظِ عليهم: ﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفۡسٌ إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوۡلُودٞ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ وَعَلَى ٱلۡوَارِثِ مِثۡلُ ذَٰلِكَۗ فَإِنۡ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٖ مِّنۡهُمَا وَتَشَاوُرٖ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَاۗ وَإِنۡ أَرَدتُّمۡ أَن تَسۡتَرۡضِعُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا سَلَّمۡتُم مَّآ ءَاتَيۡتُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، ولكنْ حينَ يحدُثُ اختلافٌ في مسألةٍ من المسائل أو أمرٍ من الأمور، فإنّ القرارَ النِّهائيَّ يكونُ لرئيس الوُزراءِ، أي: الزَّوج، ويجبُ أن تلتزمَ الزَّوجةُ بتنفيذِ هذا القرار، مثلَما يلتزمُ الوُزراءُ في أيِّ بلدٍ بتنفيذ أوامرِ رئيس وُزرائها، وإلّا واجَهت الحكومةُ خطرَ السُّقوطِ والتفكُّك، وقد أُمِرت المرأةُ في الكتابِ المقدَّس، قال اللهُ للمرأة:

١ـ «أنتِ سترُحِّبينَ بمحبَّةِ زوجِك، وسيكونُ هو حاكمَكِ»[١].

٢ـ «أيَّتُها الزَّوجات، كونوا مُطيعاتٍ لأزواجِكنَّ مثلَما تُطِعنَ اللهَ؛ لأنّ الزَّوجَ هو المسئولُ عن الزَّوجة مثلَما أنّ المسيحَ مسئولٌ عن الكنيسة ..... على زوجاتِكنَّ أن يُطعنَ أزواجَهنَّ في كلِّ أمرٍ برضًى مثلَما تُطيعُ الكنيسةُ المسيحَ»[٢].

---

(١) الميلاد، ٣: ١٦.

(٢) أفيسون، ٥: ٢٢ - ٢٤.

﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾

٤٧ـ أي: أنّ النِّساءَ الصَّالحاتِ هُنّ اللَّائي يحفَظْنَ حقوقَ أزواجِهنَّ في غيابِهم، وقد قال الرسولُ ﷺ لأمثالِ هؤلاء النِّساءِ السَّعيدات: «**إذا صَلَّت المرأةُ خَمْسَها وصامَتْ شهرَها وحَفِظتْ فرْجَها وأطاعت زَوْجَها، قيلَ لها: ادخُلي الجنّةَ من أيِّ أبوابِ الجنّةِ شئتِ**»[1]، وقال النبيُّ ﷺ مخاطبًا الأزواجَ: «**أكمَلُ المؤمنينَ إيمانًا أحسَنُهم خُلُقًا، وخِيارُكم خِيارُكم لنسائهم**»[2].

﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾

٤٨ـ إذا نَشَزتِ امرأةُ أحدِكم وعَصَتْه فيجبُ أن لا يتَّخذَ معَها إجراءً فَوْريًّا قاسيًا، وإنّما عليه أولًا أن ينصحَها ويَعِظَها ويُفهِمَها باللِّين، فإذا لم يتحقَّق المرادُ بمجرَّد الإفهام والنُّصح، فعليه حينَئذٍ أن يَهجُرَها في الفراشِ بشكلٍ مؤقَّت، حتى تَفهَم مِن هَجْرِ فراشِها هذا أنّ الزَّوجَ غاضبٌ منها، وأنّ عليها أن تَرجِعَ عن عصيانِها له، ولكنْ إن لم تُحقِّقْ هذه الطريقةُ أيضًا الفائدةَ المَرْجُوَّةَ فإنه حينَئذٍ يمكنُ له أن يضربَها، لكنْ على أن يكونَ الضربُ غيرَ مُبرِّح، ولا يؤذي جسَدَها. **قال عليه الصَّلاةُ والسَّلام: «اضرِبوا النّساءَ إذا عصَيْنَكم في معروفٍ ضربًا غيرَ مُبرِّحٍ». قال عطاءٌ: قلتُ لابن عَبّاس رضيَ اللهُ عنهما: ما الضَّربُ غيرُ المُبرِّح؟ قال: بالسِّواكِ ونحوِه**[3]. فإذا أصلَحَت المرأةُ من أمرِها وعادَتْ عن عصيانِها، فعلى الرَّجلُ عندَئذٍ أن يكونَ كريمًا معَها بأنْ يُسامحَها ويعفوَ عن تقصيرها، ولا يبحثَ عن طريقٍ يضايقُها به، والضربُ بالمسواكِ مجرَّدُ رمزٍ

---

(١) أحمد، ١: ١٩١. والحديث عن سيدنا عبد الله بن عوف رضي الله عنه.

(٢) الترمذي، أبواب الرضاع، باب ١٠ برقم ١١٦٢. والحديث عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) تفسير القرطبي.

للعقاب، وإلّا فإنه بدلًا من المِسواكِ يمكنُ لكفِّ اليدِ أن تكونَ أكثرَ إيلامًا.

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ﴾

٤٩ـ إذا لم تنجَح الطُّرقُ الثَّلاثُ السَّابقةُ في إصلاح الأمورِ داخلَ البيت، وأصبح هناك احتمالٌ كبيرٌ لحدوثِ الطَّلاق، فعندَئذٍ يُستدعَى حَكَمٌ من أهلِه وحَكَمٌ من أهلِها، يقومانِ بالاستماع إلى شكوى الطَّرفَيْنِ ويُصلِحا بينَهما، والحِكمةُ منَ اتِّخاذِ حَكَمٍ من الأهل هو أنه سيكونُ على عِلم بأحوالِ الزَّوج والزَّوجة وظروفِهما، ولن يتردَّد الزَّوجُ والزَّوجةُ في أن يَقُصَّا عليه أمرَهما وما يدورُ في خَلَدِهما، فإنْ كانتِ الرَّغبةُ في المصالحة متمكِّنةً من قلبِ الزَّوج والزَّوجة، وحاوَلَ الحَكَمانِ ـ بإخلاص ـ الصُّلحَ بينَهما، فإنَّ اللهَ سيوفِّقُهما، وسيتوصَّلانِ بشكل أو بآخَرَ إلى صورةٍ ما للصُّلح.

﴿ ۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾

٥٠ـ إنَّ حقَّ الله تعالى أن يُعبَد، وأنْ لا يُشرَكَ به أحدٌ، وحقُّ المخلوقِ أن يُعامَلَ معاملَةَ حسَنةً، لكنّ الإنسانَ المغرورَ المتكبِّر يريدُ دائمًا أن يَمدحَهُ الآخرونَ ويُثنوا عليه، وهو ما يجعَلُه ـ في نهايةِ الأمر ـ مقصِّرًا في حقوقِ الله تعالى وحقوقِ مخلوقاتِه، ولهذا فإنّ اللهَ تعالى لا يحبُّ الإنسانَ المغرورَ المتكبِّر.

﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾

٥١ـ الأهميَّةُ العُظمى في نظام العبادات في الإسلام لعبادةِ الله تعالى، وبعدَ ذلك في الدَّرجة تأتي الزَّكاةُ والصِّيامُ والحجُّ وغيرُها، والأهميَّةُ العُظمى في النِّظام الأخلاقيِّ في الإسلام لحُسن معاملةِ الوالدَيْن، وكما أنّ اللهَ تعالى مستحِقٌّ للعبادة،

فإنّ الوالدَيْنِ كذلك مستحِقّانِ لحسُن المعاملة؛ لأنّ الخالقَ والرازقَ الحقيقيَّ للإنسانِ هو اللهُ تعالى، لكنّ أسبابَ ذلك الظاهريَّةَ هي الوالدانِ، وخِدماتُ الوالدَيْنِ للأبناءِ في هذا الخصُوص لا نَظيرَ لها؛ لأنّ صغارَ الإنسانِ أكثرُ ضعفًا من صِغارِ الحيَوانات وأقلُّها فهمًا عندَ الولادة، وصِغارُ الحيَواناتِ الأخرى تستطيعُ الاعتمادَ على نفسِها بعدَ عدَّةِ أسابيعَ أو عدَّةِ شهورٍ من مولدِها، بينَما صغارُ الإنسانِ يظَلُّونَ في حاجةٍ للوالدَيْنِ لفترةٍ طويلة، ويقومُ الوالدانِ بهذه الخِدمات بغيرِ طَمَع ودونَ انتظارِ مقابل، ولذا يصبحُ من حقِّهما أن يكونَ الأولادُ على استعدادٍ دائم لخدمتِهما، وخاصَّةً حينَ يكبرَان، فيجبُ أن لا يَتفوَّهَ الأبناءُ بأيِّ لفظٍ قد يَجرحُ قلبَ الوالدَيْن ويؤذي مشاعرَهما. يقولُ الإمامُ الغزَاليُّ عن آدابِ برِّ الوالدَيْنِ: إنه يجبُ على الابنِ أنْ:

١ـ يسمعَ كلامَ والدَيْهِ بتمعُّن.

٢ـ يقفَ إذْ وَقَفا.

٣ـ يُنفِّذَ أمرَهما.

٤ـ لا يسيرَ أمامَهما.

٥ـ لا يرفَعَ صوتَه فوقَ صوتِهِما.

٦ـ يُلبِّيَ نداءهما فورًا.

٧ـ يحرصَ على رضائهما.

٨ـ يعاملَهما برِفقٍ ولين.

٩ـ لا يَمُنَّ عليهما بإحسانِه إليهما.

١٠ـ لا ينظُرَ إليهما نظرةَ غَضَب.

١١ـ لا يُحدِّق النظرَ فيهما بما يؤْذيهما.

١٢ـ لا يسافر بغيرِ إذنِهما[(١)].

مكانة الوالدين في القرآن الكريم

قال الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣ - ٢٤].

فَضْلُ الأبِ:

*** عن عبدِ الله بن عَمْرٍو رضيَ اللهُ عنه، عن النّبيِّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم، قال: «رضا الرّبِّ في رضا الوالد، وسُخْطُ الرّبِّ في سُخْطِ الوالد»[(٢)].** أي: أنّ مَن رضيَ عنه أبوه رضيَ عنه ربُّه، ومن غَضِبَ عليه أبوه غَضِب عليه ربُّه أيضًا.

*** عن هشام بن عُروةِ، أنّ أبا هريرةَ رضيَ اللهُ عنه أبصَرَ رجُلَيْنِ، فقال لأحدِهما: ما هذا منكَ؟ فقال: أبي، فقال: لا تُسمِّهِ باسمِه ولا تَمْشِ أمامَه ولا تجلسْ قبلَه[(٣)].**

*** قال أبو الدَّرداءِ رضيَ اللهُ عنه: سَمِعتُ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم يقول: «الوالدُ أوسَطُ أبوابِ الجنّة، فانْ شئتَ فأَضِعْ ذلك البابَ أواحفَظْه»** (بعقوقِ الأبِ أو ببِرِّه)[(٤)].

---

(١) انظر النصَّ في مجموعة رسائل، الامام الغزالي، بداية الهداية، ٧٩، القسم الثالث، القول في آداب الصحبة، ٧٩.

(٢) الترمذي، أبواب البر، باب ٣ برقم ١٨٩٩.

(٣) الأدب المفرد، الإمام البخاري، ٢٢، شعب الإيمان، البيهقي، ٦: ١٩٨ برقم ٧٨٩٤.

(٤) الترمذي، أبواب البر والصلة، باب ٣ برقم ١٩٠٠.

*** عن عبدِ الله رضيَ اللهُ عنه، قال: النَّظَرُ إلى الوالدِ عبادة، والنَّظَرُ إلى الكعبةِ عبادة، والنَّظرُ في المصحفِ عبادة، والنَّظرُ إلى أخيك حبًّا له في الله عبادة[١].**

فَضْلُ الأُمِّ:

*** عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه، قال: جاء رجلٌ إلى رسول الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم فقال: يا رسولَ الله! مَن أحقُّ بحُسن صَحابتي؟ قال: «أُمُّك»، قال: [ثمّ] مَن؟ قال: «[ثمّ] أُمُّك»، قال: ثُمّ مَن؟ قال: «[ثمّ] أُمُّك»، قال: ثُمّ من؟ قال: «ثُمّ أبوك»[٢].**

*** عن ابن عَبّاسٍ رضيَ اللهُ عنهما، أن رجُلًا أتَى النبيَّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم، فقال: إنِّي نَذَرتُ إن فَتَح اللهُ عزَّ وجلَّ عليكَ مكّةَ أن آتيَ البيتَ فأُقبِّلَ أسفلَ الأُسكُفَّة، فقال: «قبِّلْ قَدَمَيْ أُمِّك وقد وَفَّيتَ نَذْرَك»[٣].**

*** عن أنسٍ رضيَ اللهُ عنه، أنّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم قال: «الجنّةُ تحتَ أقدام الأُمَّهات»[٤].**

*** عن بُرَيْدةَ رضيَ اللهُ عنه، أنّ رجلًا كان فى الطَّوافِ حاملًا أُمَّه، فسألَ النّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: هل أدَّيتُ حقَّها؟ قال: «لا، ولا بَرْكةٍ واحدةٍ (طلقةٍ واحدة)»[٥].**

*** عن أسماءَ بنتِ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهما، قلتُ: قَدِمتْ عَليَّ أُمّي وهي مُشرِكةٌ في عهدِ رسولِ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم، فاستَفْتَيْتُ رسولَ الله صلى اللهُ**

---

(١) شعب الإيمان، البيهقي، ٦: ١٨٧ برقم ٧٨٦٠.

(٢) البخاري، كتاب الأدب، باب ٢ برقم ٥٩٧١.

(٣) عمدة القاري، كتاب الأدب، باب ٢، ٢٢: ٨٢.

(٤) كنز العمال، ١٦: ٤٦١ برقم ٤٥٤٣٩.

(٥) مجمع الزوائد، ٨: ١٣٧.

عليه وآلِه وسـلَّم، قلتُ:إنّ أُمّي قَدِمتْ وهي راغبةٌ، أفأَصِلُ أُمّي؟ قال: «نعَمْ، صِلي أمَّكِ»[١].

*** حُكِيَ أنّ رجُلًا جاء إلى الأُستاذِ أبي إسحاقَ، فقال: رأيتُ البارحةَ في المنام أنّ لحيتَك مرَصَّعةٌ بالجواهرِ واليواقيت، فقال: صَدقتَ، فإنّي البارحةَ مسَحتُ لحيتي تحتَ قدم والدتي قبْلَ أنْ نِمتُ، فهذا من ذاك ـ ويباشرُ ابنُ إسحاقَ خِدمتَها بيدِه ولا يفوِّضُها إلى غيرِه، لأنه ليس بعارٍ للرجُل أن يَخدُمَ مُعلِّمَه وأبوَيْهِ وسُلطانَه وضَيْفَه، ولا يَؤُمَّه للصَّلاةِ وإن كان أفقَه منه، أي: أعلمَ بالفقهِ من الأبِ، ولا يمشيَ أمامهما إلّا أن يكونَ لإمـاطةِ الأذى عن الطَّـريق، ولا يتَصـدَّرَ عليهما في المجـلس ولا يسبِـقَ عليهما في شيءٍ، أي: في الأكل والشُّـربِ والجلوسِ والكلام وغيرِ ذلك[٢].**

*** قال أبو الطُّفَيْل رضيَ اللهُ عنه: رأيتُ النّبيَّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم يقسِمُ لحمًا بالجِعِرَّانة ـ قال أبو الطُّفيل: وأنا يومَئذٍ غلامٌ أحمِلُ عظْمَ الجزُور، إذْ أقْبلَتِ امرأةٌ حتّى دَنَتْ إلى النّبيِّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم، فبَسَطَ لها رداءَه فجَلَستْ عليه، فقلت: من هي؟ فقالوا: هذه أُمُّه الّتي أرضَعتْه[٣].**

* حين كانت أُمُّ النبيِّ ﷺ من الرَّضاعة، أي: السيِّدةُ حليمةُ السَّعْديَّةُ رضي اللهُ تعالى عنها، تأتي، كان نبيُّنا الحبيبُ ﷺ يَفرِشُ لها رداءه الشَّريفَ، ويُجلسُها عليه[٤].

---

(١) البخاري، كتاب الأدب، باب ٣ برقم ٢٦٢٠.

(٢) تفسير روح البيان، سورة الإسراء (١٧): الآية ٢٣.

(٣) أبو داوود، كتاب الأدب، باب ١١٨ برقم ٥١٤٤.

(٤) «عن عطاء بن يسار رضي الله عنه، قال: جاءت حليمة أمّ النبي رضي الله عنها، فقام لها النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبسط لها رداءه فجلست عليه». سبل الهدى والرشاد، ١: ٤٦٨، ومستدرك الحاكم، ٤: ١٨.

إنْ كانت مكانةُ الأُمِّ من الرَّضاعة، والتي لم تفعَلْ سوى أنْ أرضَعتِ اللَّبَن، عظيمةً إلى هذا الحدِّ، فكيف تكونُ عَظَمةُ مقام الأُمِّ الحقيقيَّةِ يا تُرى؟

* **في السَّنةِ السَّادسةِ للهجرة توجَّهَ النبيُّ ﷺ في رُفْقةِ ١٤٠٠ من صحابتِه إلى مكَة بغَرَض أداءِ العَمْرة، وحين مرَّ النبيُّ ﷺ بالأبواءِ حيث قبرُ السيِّدةِ والدتِه ﷺ، قال: «إنَّ اللهَ قد أَذِنَ لمحمَّدٍ في زيارةِ قبرِ أُمِّه»، فأتاه رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم فأصلَحَه وبَكَى عندَه وبَكَى المسلمونَ لبكاءِ رسولِ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم، فقيل له، فقال: «أدركَتْني رحمتُها فبكَيْتُ»[1].**

فَضْلُ الوالدَيْن:

* **عن عبدِ الله بن عَمْرٍو رضيَ اللهُ عنهما، قال: قال رجلٌ للنَّبيِّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: أُجاهدُ؟ قال: «ألكَ أبوَان؟»، قال: نعَمْ، قال: «ففيهما فجاهِدْ»[2].**
وطالما لم يكنِ الجهادُ فَرْضَ عَيْنٍ فلا يجوزُ المشاركةُ في الجهادِ إلّا بإذْنِ الوالدَيْن.

* **عن مالكِ بن رَبيعةَ رضيَ اللهُ عنه، قال: بينَما نحن عندَ النَّبيِّ صلى اللهُ عليه وآله وسلَّم، إذْ جاءه رجلٌ من بني سَلِمةَ، فقال: يا رسولَ الله! أبقيَ من برِّ أبوَيَّ شيءٌ أَبَرُّهما به من بعدِ موتِهما؟ قال: «نعَمْ، الصّلاةُ عليهما، والاستغفارُ لهما، وإيفاءٌ بعهودِهما من بعدِ موتِهما، وإكرامُ صديقِهما، وصِلةُ الرَّحِم الّتي لا توصَلُ إلّا بهما»[3].**

* قال ﷺ: **«لا يَرى وجهي ثلاثةُ أقوام، أحدُها: العاقُّ لوالدَيْه، والثّاني: تاركُ سُنّتي، والثّالثُ: مَن ذُكِرتُ عندَه فلم يُصَلِّ علَيّ»[4].**

---

(١) كتاب الطبقات الكبير، ابن سعد، ١ : ٩٥.

(٢) البخاري، كتاب الأدب، باب ٣ برقم ٥٩٧٢.

(٣) ابن ماجه، أبواب الأدب، باب ٢ برقم ٣٦٦٤.

(٤) تفسير روح البيان، سورة الأحزاب(٣٣): الآية ٥٦.

*** عن أبي أُمامةَ رضيَ اللهُ عنه، أنّ رجلًا قال: يا رسولَ الله! ما حقُّ الوالدَيْنِ على ولدِهما؟ قال: «هما جنَّتُك ونارُك»**[١]. أي: أنّ رضا الوالدَيْنِ وإطاعتَهما تُدخِلُ الابنَ الجنَّةَ، بينَما عصيانُهما وإيذاؤهما يتسبَّبانِ في دخولِه النارَ.

*** رُويَ عن والدِ عبدِ العزيز: تُعرَضُ الأعمالُ يومَ الاثنينِ والخميس على الله، وتُعرَضُ على الأنبياءِ وعلى الآباءِ والأُمَّهاتِ يومَ الجُمعة، فيَفرَحونَ بحسَناتِهم وتزدادُ وجوهُهم بياضًا وإشراقًا، فاتَّقوا اللهَ ولا تؤذوا موتاكم**[٢].

عقوق الوالدين من الكبائر

*** عن أنسِ بن مالكٍ رضيَ اللهُ عنه، قال: ذَكَر رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم الكبائرَ، فقال: «الشِّركُ بالله، وقَتْلُ النّفْس، وعقوقُ الوالدَيْن»، فقال: ألا أُنبِّئُكم بأكبرِ الكبائر؟»، قال: «قولُ الزُّور،أو قال: شَهادةُ الزُّور»**[٣].

*** عن عبدِ الله بن عَمْرٍو رضيَ اللهُ عنهما، قال: قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: «إنّ من أكبرِ الكبائر أنَ يلعَنَ الرّجلُ والدَيْه»، قيل: يا رسولَ الله! وكيف يَلعَنُ الرّجلُ والدَيْه؟ قال: «يَسُبُّ الرّجُلُ أبا الرّجُل فيَسُبُّ أباه ويَسُبُّ أُمَّه [فيَسُبُّ أُمَّه]»**[٤].
يعني: إنْ لم يبدَأ الأولُ بالسَّبِّ، لَما رَدَّ عليه الثاني بالسبِّ أيضًا، وبالتالي يكونُ هذا الشَّخصُ الأولُ كأنه سَبَّ والدَيْه بنفسه؛ لأنه كان سببًا فيه، ويمكنُ أن نَلحَظَ في هذا الحديث من عَظَمةِ الإسلام أيضًا أنه يَعتبِرُ سبَّ والدَيْ أحدٍ كسَبِّ والديْ نفسِه.

---

(١) ابن ماجه، أبواب الأدب، باب ١ برقم ٣٦٦٢.
(٢) كنز العمال، ١٦: ٤٦٩ برقم ٤٥٤٩٣.
(٣) البخاري، كتاب الأدب، باب ٦ برقم ٥٩٧٧.
(٤) البخاري، كتاب الأدب، باب ٤ برقم ٥٩٧٣.

بركة الوالدين

* عن أنسٍ رضيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآله وسلَّم: «إنّ العبدَ لَيموتُ والداه أو أحدُهما، وإنّه لهما لَعاقٌّ، فلا يزالُ يدعو لهما ويستغفرُ لهما حتّى يَكتُبَه اللهُ بارًّا»[1].

* عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه، أنّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم، قال: «من زارَ قبرَ والدَيْه أو أحدِهما فى كلِّ جمُعةٍ مرّةً غَفَر اللهُ له وكُتِب بَرًّا»[2].

* عن ابن عُمَر رضيَ اللهُ عنهما، أنّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم، قال: «مَن زارَ قبرَ والدَيْه أو أحدِهما احتسابًا كان كعِدْلِ حجّةٍ مبرورةٍ، ومن كان زَوّارًا لهما زارتِ الملائكةُ قبرَه»[3].

* عن ابن عبّاسٍ رضيَ اللهُ عنهما، قال: «ما مِن وَلَدٍ بارٍّ ينظُرُ إلى والدَيْهِ نظرةَ رحمةٍ إلّا كَتَب اللهُ له بكلِّ نظرةٍ حجّةً مبرورةً»، قالوا: وإنْ نظَر كلَّ يومٍ مائةَ مرّةٍ؟ قال: «نعَمْ، اللهُ أكبرُ وأطيب»[4].

* عن ابن عُمَر رضيَ اللهُ عنهما، قال: قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: «نومُك على السَّرير برًّا بوالدَيْكَ تُضحكُهما ويُضحكانِك أفضَلُ من جهادِك بالسّيفِ في سَبيل الله عزَّ وجلّ»[5].

---

(١) مشكاة المصابيح، كتاب الآداب، باب البر والصلة برقم ٤٩٤٢، كنز العمال، ١٦: ٤٧٧ برقم ٤٥٥٣٤.

(٢) كنز العمال، ١٦: ٤٦٨ برقم ٤٥٤٨.

(٣) كنز العمال، ١٦: ٤٧٩ برقم ٤٥٥٤٤.

(٤) مشكاة المصابيح، كتاب الآداب، باب البر والصلة برقم ٤٩٤٤.

(٥) شعب الإيمان، البيهقي، ٦: ١٧٩ برقم ٧٨٣٦.

*** عن أنسٍ رضيَ اللهُ عنه، أنّ النبيَّ صلّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم، قال: مَن أرضَى والدَيْه فقد أرضَى اللهَ، ومَن أسخَطَ والدَيْه فقد أسخَطَ اللهَ»**[١].

مكانة الوالدين في الكتاب المقدس

* احترِموا آباءكم وأُمَّهاتِكم، فسيُكتَبُ لكم بسببِه حياةٌ طويلةٌ وجيِّدةٌ في الجنة[٢].

* من أهان والدَيْه يُقتَل؛ لأنه أهان لحمَه ودمَه[٣].

﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾

٥٢ـ وبعدَ الوالدَيْنِ جاء الحُكمُ بمعاملةِ الأقاربِ الآخَرين معاملةً حسَنةً، وقد قال النبيُّ ﷺ:

١ـ «مَن أحبَّ أن يُبسَطَ له في رِزقِه ويُنْسَأَ له في أثَرِه، فلْيَصِلْ رَحِمَه»[٤].

٢ـ «صَدَقتُك على المسكينِ صَدَقةٌ، وعلى ذى القُربى الرَّحِم ثنتانِ: صَدَقةٌ وصِلةٌ»[٥].

ملحوظة: يمكنُ الرجوعُ في هذا الخصُوص إلى الحاشية رقم **١٧٥** للآية رقم **٢١٥** من سورة البقرة، وكذلك الحاشيةُ رقم **٣** للآية رقم **١** من سورة النساء.

---

(١) كنز العمال، ١٦: ٤٧٠ برقم ٤٥٤٩٧.

(٢) الخروج، ٢٠: ١٢.

(٣) الأحبار، ٢٠: ٩.

(٤) مسلم، كتاب البر برقم ٢٥٥٧. والحديث عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٥) مسند أحمد، ٤: ٢١٤. والحديث عن سلمان بن عامر رضي الله عنه.

﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾

٥٣ـ المِسكينُ:

قال الله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩]، أي: أنّ اللهَ تعالى قد قرَّر ما مقدارُه اثنانِ ونصفٌ في المائة زكاةً من أموالِ الأغنياءِ حقًّا للفقراءِ، بالإضافةِ إلى مسئوليَّةِ الحكومةِ في هذا الشَّأن، وهذا المقدارُ أمانةٌ للفقراءِ عندَ الأغنياء، ويجبُ على الأغنياءِ أن يؤدُّوا هذه الأمانةَ إلى الفُقراء بأسرع ما يستطيعونَ، فربَّما كانوا في أشدِّ الحاجةِ إلى هذه الأمانة، كما أنّ اللهَ تعالى لم يفرِضْ على الفقراءِ أن يذهَبوا إلى الأغنياءِ ويُطالبوهم بحقِّهم هذا، وإنّما فَرَض على الأغنياءِ أن يبحثوا هم عن الفقراءِ ويؤدُّوا إليهم هذا الحقَّ وهذا الفَرْضَ، ليتَ المسلمينَ يؤدُّونَ هذا الفَرْضَ بكلِّ أمانة، وعندَها لن تجدَ في بلادِ المسلمينَ فقيرًا واحدًا.

*** عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: «إنّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ يومَ القيامة: يا ابنَ آدم! مَرِضتُ فلم تَعُدْني، قال: يا ربِّ! كيف أعودُك وأنت ربُّ العالَمين؟ قال: أَما عَلِمتَ أنّ عبدي فلانًا مَرِضَ فلم تَعُدْه؟ أمَا عَلِمتَ أنّك لو عُدتَه لوجدتَني عندَه؟ يا ابنَ آدم! استَطْعمْتُك فلم تُطعِمْني، قال: يا ربَّ! كيفَ أطعِمُك وأنت ربُّ العالَمين؟ قال: أمَا عَلِمتَ أنّه استَطْعَمَك عبدي فُلانٌ فلم تُطعِمْه؟ أمَا عَلِمتَ أنّك لو أطعَمتَهُ لَوجدتَ ذلك عندي؟ يا ابنَ آدم! استَسْقَيْتُك فلم تَسقِني، قال: يا ربِّ! كيف أسقيكَ وأنت ربُّ العالَمين؟ قال: استَسْقاكَ عبدي فلانٌ فلم تَسْقِه، أمَا إنّك لو أَسْقَيْتَه وجدتَ ذلك عندي»[١].**

*** عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه، قال: قال النّبيُّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلم:**

---

(١) مسلم، كتاب البر، باب ١٣ برقم ٦٥٥٦.

«السّاعي على الأرملةِ والمِسكينِ كالمجاهدِ في سَبيل الله، أو القائم اللّيلَ الصّائم النّهارَ»[١].

* **«إنّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ كان لا يأكُل وحدَه؛ فإذا حَضَر طعامُه أرسَلَ يَطلُبُ من يأكُلُ معَه، فلقيَ يومًا رجلًا، فلمّا جلَسَ معَه على الطعام، قال له إبراهيمُ عليه السَّلام: سَمِّ اللهَ، قال الرجلُ: لا أدري ما اللهُ؟ فقال له: فاخرُجْ عن طعامي، فلمَّا خرَجَ نَزَل إليه جِبريلُ فقال له: يقولُ اللهُ: إنه يَرزقُهُ على كُفرِه مدى عُمرِه وأنت بَخِلتَ عليه بلُقمةٍ؛ فخَرَج إبراهيمُ فَزِعًا يَجُرُّ رداءه، وقال: ارجِعْ، فقال: لا أرجِعُ حتى تُخبرَني لمَ ترُدُّني لغيرِ معنًى؟ فأخبرَه بالأمر؛ فقال: هذا ربٌّ كريم، آمَنْتُ؛ ودَخَل وسمَّى اللهَ وأكَل مؤمنًا»**[٢].

* ذاتَ مرَّةٍ صَنَع سيِّدُنا عُمرُ بن الخَطّاب رضيَ اللهُ عنه حَلْوى من التَّمر واللَّبن، وفي تلك الأثناءِ جاء مِسكينٌ، فحَمَل سيِّدُنا عُمرُ رضيَ اللهُ عنه الحَلْوى وأعطاها إيَّاه، فقال أحدُ الجلوس: يا أميرَ المؤمنين، كيف يَعرِفُ هذا المِسكينُ قَدْرَ هذه الحَلْوى؟ فقال سيِّدُنا عُمرُ رضيَ اللهُ عنه: لكنّ ربَّ هذا المِسكينِ يَعرِف[٣].

* **عن أنسٍ رضيَ اللهُ عنه، أنّ رسولَ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم، قال: «اللّهمَّ أحْيِني مِسكينًا وأَمِتْني مِسكينًا واحشُرْني في زُمرةِ المساكينِ يومَ القيامة»، فقالت عائشةُ رضيَ اللهُ عنها: لمَ يا رسولَ الله؟ قال: «إنّهم يَدخُلونَ الجنّةَ قبْلَ أغنيائهم بأربعينَ خَريفًا، يا عائشة! لا تَرُدّي المِسكينَ ولو بِشقِّ تمرةٍ، يا عائشة! أحِبّي المساكينَ وقَرِّبيهِم، فإنّ اللهَ يُقرِّبُكِ يومَ القيامة»**[٤].

---

(١) البخاري، كتاب النفقات، باب ١ برقم ٥٣٥٣.

(٢) تفسير القرطبي، سورة هود (١١): الآية ٦٩.

(٣) ضياء القرآن، ٥: ٤١١.

(٤) الترمذي، أبواب الزهد، باب ٣٧ برقم ٢٣٥٢.

﴿وَٱلۡجَارِ ذِى ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ﴾

٥٤ـ الجار:

الجارُ الأقرَبُ هو: تلك الأُسَرُ أو الأفرادُ الذين يعيشونَ حولَ بيوتِنا يَمْنةً ويَسْرةً، وتتَّصلُ أسوارُ بيوتِهم بأسوارِ بيوتِنا، هؤلاءِ هم الذين نَراهم في اليوم عدّةَ مرَّات، فأحيانا نراهم من الشُّبّاك خارجينَ من بيوتِهم ونحن جالسونَ أمامَ بيوتِنا، وأحيانًا نلمَحُهم من شُبّاكِ حُجرةِ نومِنا وهم يتجوَّلونَ في حدائقِ بيوتِهم، وباختصار، نتواجَهُ مَعهم سواءٌ ونحن خارجونَ من بيوتنا أو ونحن جالسونَ في حدائق بيوتِنا، وبالتالي يصبحونَ جزءًا مهمًّا من حياتِنا اليوميَّة، وغالبًا ما يَعرِفُ جيرانُنا القريبونَ بالأعمالِ التي نقومُ بها في بيوتِنا أو في حدائقِنا، وبهذا يصبحونَ على عِلم ببعضِ أسرارِنا أيضًا.

ولو حَدَث ـ لا قَدَّر الله ـ أنِ اشتعَلَتِ النِّيرانُ في بيوتِنا، أو كَسَر لصٌّ بابَ البيت وحَمَلَ علينا، فإنّ أولَ مَن يَعلَمُ بهذا الحادثِ هم جيرانُنا القريبونَ منّا، فإنْ كانوا متضايقينَ منّا فسوف يُسعِدُهم رؤيةُ النارِ تلتهِمُ بيوتَنا، ومن الممكنِ جدًّا ألّا يأتوا لإغاثتِنا، وربَّما نَفقِدُ نحن بذلك حياتَنا، فإن كانوا يحبُّونَنا كانوا أولَ من يتَّصلُ برجالِ الشُّرطة والمطافئ، وسوف يساعدونَنا قَدْرَ استطاعتِهم، ومن الممكن أن تكونَ مساعدتُهم هذه سببًا في إنقاذِ أرواحِنا، لهذا فمنَ الضَّروريِّ أن نحتفظَ بعلاقاتٍ جيِّدة معَ جيرانِنا، حتّى ينفعَ أحدَنا الآخَر، بل إنّي سأقول: إنه يجبُ أن تكونَ لنا معرفةٌ بكلبِ الجيران، حتّى لا ينبَحَ فينا فيُخيفنَا.

حسن معاملة الجيران

١ـ عن عبدِ الله بن عَمْرٍو رضيَ الله عنهما، قال: قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: «خيرُ الجيرانِ عندَ الله خيرُهم لجارِه»[1].

---

(١) الترمذي، أبواب البر، باب ٢٨ برقم ١٩٤٤.

٢ـ عن أبي شُرَيْحٍ العَدَوِيِّ رضيَ اللهُ عنه، قال: سمِعَتْ أُذُناي وأبصَرتْ عيناي حينَ تكلَّمَ النّبيُّ صلّى الله عليه وآلِه وسلَّم فقال: «من كان يؤْمنُ باللهِ واليوم الآخِرِ فلْيُكرِمْ جارَه»[1].

٣ـ عن أبي ذَرٍّ رضيَ اللهُ عنه: «إنّ اللهَ تعالى يحبُّ الرَّجلَ له الجارُ السُّوءُ يؤْذيه فيَصبِرُ على أذاه ويَحتسِبُه حتّى يَكفيَه اللهُ بحياةٍ أو موتٍ»[2].

٤ـ عن عبدِ الرَّحمن بن أبي قُرادٍ رضيَ اللهُ عنه، أنّ النّبيَّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم توضَّأَ يومًا، فجَعَل أصحابُه يتَمسَّحون بوضوئه، فقال لهم النّبيُّ صلّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: «ما يَحمِلُكم على هذا؟»، قالوا:حبُّ الله ورسولِه، فقال النّبيُّ صلى الله عليه وآلِه وسلَّم: «مَن سرَّه أن يُحبَّ اللهَ ورسولَه أو يحبَّه اللهُ ورسولُه فلْيَصْدُقْ حديثَه إذا حَدَّث، وليؤدِّ أمانتَه إذا اؤْتُمنَ، ولْيُحسِنْ جِوار مَنْ جاوَرَه»[3].

فأيُّ سعادةٍ للإنسان أكثرُ من أن يُحبَّه اللهُ ورسولُه؟ والسَّبيل إلى هذا هو أن نُحسنَ معاملةَ جيرانِنا.

أحب لجارك ما تحب لنفسك

*** عن أنسٍ رضيَ اللهُ عنه، عن النّبيِّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم، قال: «والّذي نَفْسي بيدِه! لا يؤمنُ عبدٌ حتّى يُحبَّ لجارِه ما يحبُّ لنفسِه»[4].**

واليومَ، كلُّ إنسانٍ يحبُّ أن يكونَ رأيُ جارِه فيه حسَنًا، وأن يُعاملَه معاملةً حسَنةً، وإرشاداتُ وتعاليم نبيِّنا الحَبيب ﷺ بمثابةِ أسهلِ الطُّرقِ للوصُولِ إلى

---

(١) البخاري، كتاب الأدب، باب ٣١ برقم ٦٠١٩.

(٢) كنز العمال، ٩: ٥١.

(٣) مشكاة المصابيح، باب الشفقة، الجزء ٣ برقم ٤٩٩٠.

(٤) مسلم، كتاب الإيمان، باب ١٧ برقم ١٧١.

ذلك، بمعنى: أنه يجبُ علينا أولًا أن نُحسنَ الظَّنَّ بجيرانِنا، وأن نُكرِمَهم، وهم بالتالي ـ وبشكلٍ تلقائيٍّ ـ سيحترمونَنا.

مضايقة الجيران

١ـ عن أنسٍ رضيَ الله عنه، قال: قال النّبيُّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: «والّذي نَفْسي بيدِه، لا يَدخُلُ الجنّةَ عبدٌ لا يَأمَنُ جارُه بوائقَه»[١].

٢ـ عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه، قال: قيلَ لرسولِ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: إنّ فلانةً تُصلّي اللّيلَ وتصومُ النّهارَ وفي لسانِها شيءٌ يؤْذي جيرانَها سَليطةً؟ قال: «لا خير فيها، هي في النّار»[٢].

ولك أن تتخيَّلَ إلى أيِّ مدًى تكونُ أهميَّةُ الجيرانِ في الإسلام، فالمرأةُ التي تؤْذي جيرانَها بلسانِها فقطْ لا يمكنُ أن تُنجيَها صلاتُها ولا صيامُها من جهنَّم، فما بالُكَ بمَن يؤْذي جيرانَه جسَديًّا، إلى أيِّ مدىً تكونُ نهايتُه مخيفةً؟

الجار غير المسلم أيضًا يستحق المعاملة الحسنة

١ـ عن جابرٍ رضيَ اللهُ عنه، قال: الجِيرانُ ثلاثةٌ: فجارٌ له حقٌّ واحدٌ، وهو أدنى الجيرانِ حقًّا، وجارٌ له حقَّان، وجارٌ له ثلاثةُ حقوقٍ، فأمّا الذي له حقٌّ واحدٌ فجارٌ مشركٌ لا رَحِمَ له، له حقُّ الجِوار، وأمّا الّذي له حقّانِ فجارٌ مسلمٌ: له حقُّ الإسلام وحقُّ الجِوار، وأمّا الّذي له ثلاثةُ حقوقٍ فجارٌ مسلمٌ ذو رَحِمٍ: له حقُّ الإسلام، وحقُّ الجِوار، وحقُّ الرَّحِم»[٣].

---

(١) مسند أحمد، ٣: ١٥٤.

(٢) مسند أحمد، ٢: ٤٤٠، والمستدرك، الإمام الحاكم، ٤: ١٨٤ برقم ٧٣٠٤.

(٣) كنز العمال، ٩: ٥١.

٢ـ يقولُ الله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾.

ويُعلَمُ من هذا أنّ الجارَ سواءٌ كان من الأقارب، أم غريبًا، وسواءٌ كان مسلمًا أم غير مسلم، فإنه يستحِقُّ المعاملةَ الحَسَنةَ، حتى أنّ من تسافرونَ معَه بصورةٍ عارضة، أو تجالسونَه لفترةٍ بسيطة، هو أيضًا يستحِقُّ المعاملةَ الحَسَنةَ منكم؛ لأنه يُعَدُّ ـ بشكلٍ أو بآخَرَ ـ من الجيران، حتّى وإن كانت فترةُ جيرتِه لكم قصيرةً.

تبادل الهدايا

١ـ عن أبي ذرٍّ رضيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وآلِه وسلَّم: «يا أبا ذرٍّ! إذا طَبَختَ مَرقةً، فأكثِرْ ماءها وتعاهَدْ جيرانَك»[١].

٢ـ عن مجاهدٍ: أنّ عبدَ الله بنَ عَمْرٍو رضيَ اللهُ عنه ذُبحت له شاةٌ في أهلِه، فلمّا جاء قال: أهدَيْتُم لجارِنا اليهوديّ؟ أهديتُم لجارِنا اليهوديّ؟ سمعتُ رسولَ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم يقول: «ما زال جِبريلُ يوصيني بالجارِ حتّى ظننتُ أنّه سيُورِّثُه»[٢].

إنّ تبادُلَ الهدايا معَ الجيرانِ يُعَدُّ طريقةً من طُرُقِ الاحتفاظِ بعلاقةٍ طيِّبةٍ مَعهم، ولكنْ يجبُ أن يحترمَ كلُّ طرفٍ المشاعرَ الدِّينيَّةَ للآخَر وقتَ تقديم الهدايا، ولا ينبغي تقديمُ هدَّيةٍ لأحدٍ ممّا لا يكونُ محبّبًا في دينِه.

---

(١) مسلم، كتاب البر، باب ٤٢ برقم ٦٦٨٨.

(٢) الترمذي، أبواب البر، باب ٢٨ برقم ١٩٤٣.

مداعبة أطفال الجيران

١ـ قال النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلَّم: «إنِ اشترَيْتَ فاكهةً (لأولادكِ) فأهْدِ له (لولَدِ جارِك)، فإنْ لم تفعَلْ فأدخِلْها سرًّا، ولا يَخرُجْ بها وَلَدُكِ ليَغِيظَ بها وَلَدَه»[1].

٢ـ قال النّبيُّ صلّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: «يا عائشةُ! إذا دَخَل عليكِ صبيُّ جارِكِ فضَعِي في يدِه شيئًا، فإنّ ذلك يجُرُّ موَدّةً»[2].

إنّ تقديمَ شيءٍ لأطفالِ الجيرانِ بقَصْدِ الحُنوِّ عليهم ومُداعبتِهم، والبُعدِ عن إيذاءِ مشاعرِهم، من الأمورِ التي تَخلُقُ الحبَّ في قلوبِ الجيرانِ لك، وسيحاولونَ من جانبِهم أيضًا معاملةَ أطفالِك معاملةً حسَنةً مثلَما فعلتَ أنت.

عدد الجيران

*** عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه، قال: «الجارُ ستُّونَ دارًا عن يمينِه وستّونَ عن يسارِه وستّونَ خَلْفَه وستّونَ قُدّامَه»[3].**

ويُعلَمُ من هذا أنّ مائتَيْنِ وأربعينَ بيتًا من البيوتِ التي تُحيطُ بنا يستحِقُّ أهلُها منّا حُسنَ المعاملةِ باعتبارِهم جيرانَنا، ومَن أنعَمَ اللهُ تعالى عليه بالمالِ الوفير والثّروةِ الكبيرةِ عليه أن يَسألَ عن كلِّ جيرانِه هؤلاءِ لينالَ من اللهِ ثوابَ الدّارَيْنِ.

أي جار ينبغي ترجيح دعوته على غيرها؟

*** عن رجُلٍ من أصحابِ النّبيِّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم، قال: «إذا اجتَمعَ**

---

(١) كنز العمال، ٩: ٥٩ برقم ٢٤٩٣٥.

(٢) كنز العمال، ٩: ٥٩.

(٣) كنز العمال، ٩: ٥٥.

الدّاعيانِ فأجِبْ أقربَهما بابًا، فإنّ أقربَهما بابًا أقرَبُهما جِوارًا، فإذا سَبَقَ أحدُهما فأجِبِ الّذي سَبَق»[١].

مشاركة الجار في أفراحه وأتراحه

*** عن معاويةَ رضيَ اللهُ عنه، قال: قلتُ: يا رسولَ الله! ما حقُّ جاري عَليَّ؟ قال: «إنْ مَرِضَ عُدتَه، وإن مات شَيّعتَه، وإنِ استقرَضَك أَقْرضتَه، وإنْ أَعْوَزَ سترتَه، وإنْ أصابَه خيرٌ هنَّأْتَه، وإنْ أصابَتْه مصيبةٌ عزَّيتَه، ولا تَرفَعْ بناءك فوقَ بنائه فتَسُدّ عليه الرّيح، ولا تؤْذِه بريح قِدْرِك إلّا أن تَغرِفَ له منها»[٢].**

إنّ مشاركةَ الجارِ في أفراحِه وأتراحِه، وتبادُلَ الأفكارِ مَعه يُطْلِعانِ كلًّا منَ الطَّرَفَيْنِ على ثقافةِ وقِيَمِ الآخَر، وبذا يتهَيَّأُ جوٌّ من التفاهُم والثِّقةِ المتبادَلة بينَهما، فإذا لم تكنْ هناكَ علاقةٌ معَ الجار، فمنَ الممكنِ أن يَحدُثَ سوءُ فَهْم متعدِّد يكونُ ـ في نهايةِ الأمر ـ سببًا في الاختلافِ والتفرُّق.

شهادة الجار

*** عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه، قال: جاء رجلٌ إلى رسولِ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم فقال: يا رسولَ الله! دُلّني على عملٍ إذا عَمِلتُ به دَخَلتُ الجنّة، قال: «كنْ مُحسِنًا!»، قال: كيف أعلَمُ أنّي مُحسِنٌ؟ قال: «سَلْ جيرانَك، فإن قالوا: إنّك مُحسِنٌ فإنّك مُحسِنٌ؛ وإن قالوا: إنّك مُسيءٌ فأنتَ مُسيءٌ»[٣].**

بمعنى: أنه إذا أرَدْنا الاستفسارَ عن سلوكِ شخصٍ ما فإنّ أفضَلَ وسيلةٍ لتحقيق

---

(١) مسند أحمد، ٥: ٤٠٨.

(٢) المعجم الكبير، ١٩: ٤١٩.

(٣) ابن ماجه، أبواب الزهد، باب ٢٥، وكنز العمال، ١١: ١٠٤ برقم ٣٠٨٠٨.

ذلك هي الاستعانةُ بجيرانِه، وبالتالي فإنّ الشَّخصَ الذي يكونُ جيرانُه متضايقِينَ منه، من الطبيعيِّ أن يَصِلَ مثلُ هذا الخبرِ إلى الآخَرين، وسيكونُ من نتيجتِه أن ينظُرَ الآخرونَ أيضًا بشكٍّ إليه، أمّا الشَّخصُ الذي يستريحُ إليه جيرانُه ويطمئنُّونَ له، فسيُثْنُونَ عليه حيثُما جَلَسوا، وسينتجُ عن ذلك أن ينظُرَ إليه الآخَرون باحترام، وهذا يعني أنّ من الضَّروريِّ أن يحتفظَ الإنسانُ بعلاقةٍ طيِّبةٍ معَ جيرانِه.

كل إنسان في العالم جار لآخر

الجارُ ليس ذلك الذي يعيشُ بجانبِنا في المسكَنِ فقط، وإنّما هو أيضًا: ذلك الذي يجلسُ بجوارِنا في الحافلةِ والطائرة، أو في المدرسةِ والمسجد، هو أيضًا جارٌ لنا، ومن الضَّروريِّ أنْ نعاملَه معاملةً حسَنةً، حتّى يمضيَ الوقتُ الذي نقضيهِ معه بشكلٍ طيِّب وفي حميميّةٍ، ولو نَظَرنا إلى الأمرِ بشكلٍ أوسعَ لَوجَدْنا أنّ أهلَ حارةٍ ما، هم جيرانٌ للحارةِ المجاورةِ، وأهلَ مدينةٍ ما، هم جيرانٌ للمدينةِ المجاورة، وسكانَ دولةٍ ما، هم جيرانٌ لسكّانِ الدَّولةِ المجاوِرة، وأكثرُ من هذا، أنّ الدُّنيا كلَّها اليومَ أصبحت قريةً عالميَّة، وبالتالي كلُّ واحدٍ في هذا العالَم جارٌ لأخيهِ فيه.

القضاء على الشر والجوع في العالم

١ـ عن أبي شُرَيْحٍ رضيَ اللهُ عنه: أنّ النّبيَّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم، قال: «واللهِ لا يؤمِنُ، واللهِ لا يؤمِن، واللهِ لا يؤمِن»، قيل: ومن يا رسولَ الله؟ قال: «الّذي لا يأمَنُ جارُه بوائقَه»[١].

٢ـ عن ابن عبّاسٍ رضيَ اللهُ عنهما، قال: سمعتُ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم يقول: «ليس المؤمنُ الّذي يَشبَعُ وجارُه جائعٌ إلى جَنْبِه»[٢].

(١) البخاري، كتاب الأدب، باب ٢٩ برقم ٦٠١٦.

(٢) المشكاة، باب الشفقة، الفصل الثالث.

فلو أنّ كلَّ إنسانٍ في هذا العالَم اليومَ يتعهَّدُ بأنْ لا يُضايقَ جيرانَه، وأنْ يسألَ عنهم كلَّ يوم قَدْرَ المستطاع، فسوف تصبحُ هذه الدُّنيا بمجرَّدِ العَملِ بهذَيْنِ الحديثَيْنِ فقط، مكانًا آمنًا مطمئنًّا يعيشُ فيه كلُّ فردٍ سعيدًا مطمئنًّا.

دخول غير المسلم في الإسلام

تأمَّلْ هذه الواقعةَ التي أَسُوقُها إليكَ كنَوْع من البَرَكةِ للحديثِ الأخيرِ في هذا الموضوع: قبلَ عدّةِ سنواتٍ شاهدتُ لقاءً في التلفاز لرجُل أسْلَمَ حديثًا وكان هندوسيًّا. قال: ذهبتُ إلى دِهْلي لأداءِ امتحانِ البكالريوس، وكان يَسكُنُ في الحُجرةِ المجاورةِ لي طالبٌ مسلم، وقد جاء هو الآخَرُ لأداءِ نفسِ الامتحان، وذاتَ يوم أصَابتْني حُمَّى شديدةٌ، ولم أستطعْ أن أَخرُجَ من الحُجرةِ طيلةَ اليوم، وبالتالي لم أذهبْ إلى الكانْتين (المَقصَف) لتناوُل الطعام، وفي اللَّيل طَرَق أحدٌ بابَ حُجرتي، وبصعوبةٍ شديدةٍ نهَضتُ وفتحتُ البابَ، فإذْ بجاري المسلم يقفُ أمامي ويقولُ لي: إنه لم يَرَني اليومَ خارجَ الحُجرة، كما أنه لم يَرَني في الكانْتينِ أيضًا، لهذا جاء ليطمئنَّ علَيّ، وليُساعدَني إن كنتُ في حاجةٍ إلى مساعدة. قلتُ له: فعلتَ خيرًا، بالفعل، عندي حمَّى شديدةٌ، أرجو أن تُحضرَ لي دواءً وبعضَ الأطعمة من السُّوق، وفي هذا الوقتِ المتأخِّر من اللَّيل ذهبَ جاري هذا إلى السُّوق، وأحضَرَ لي ـ من مكانٍ بعيد ـ الدَّواءَ والطَّعامَ، فشكرتُه وعُدتُ إلى حُجرتي، وتحسَّنتْ حالتي قليلًا بفضل الدَّواءِ والطعام، وتمكَّنتُ من أداءِ الامتحانِ في اليوم التالي، لكنّ ذلك المسلمَ دَخَل قلبي، فلو لم يقدِّمْ لي يدَ المساعدة لم أكنْ لِأستطيعَ أداءَ الامتحان، وحين انتهَى الامتحانُ ذهبتُ إلى حُجرةِ جاري المسلم وقلتُ له: أنت تَعلَمُ أنِّي هندوسيٌّ، وليست لي صَداقةٌ من أيٍّ نوع معَك، فلماذا كان اهتمامُك بي إلى هذا الحدِّ؟ فقال جاري المسلم: إنّ هذا في الحقيقةِ من تعاليم ديني بأنّه إذا باتَ مسلمٌ شَبْعانًا وجارُه

جائعٌ فهو ليس مسلمًا صالحًا، ولهذا فقد ساعدتُك عَملًا بتعاليم ديني. فلمّا سَمِع الهندوسيُّ هذا قال: إنّ الدِّين الذي يدعو إلى التعاطُفِ معَ غيرِ المعتقِدينَ به هو الدِّينُ الذي أَقْبَلُه، وها أنا ذا أَقْبَلُ الإسلامَ، وهكذا أَسْلَم الرَّجُل.

﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

٥٥- إنّ الذين يُخْفُونَ فَضْلَ اللهِ تعالى عليهم ويَبخَلونَ به، أو يُنفقونَ منه لمجرَّدِ التظاهرِ والرِّياء، كلُّ هذا لا يُحبُّهُ اللهُ تعالى أبدًا؛ لأنّ هذا من سِماتِ أولئك الذين لا يؤْمنونَ بالله تعالى ولا باليوم الآخِر، والشَّيطانُ رفيقُهم وقَرينُهم، بينَما المؤمنونَ بالله تعالى، الذين يُنفقونَ من ماله الذي أعطاهم إيَّاه، سينالونَ من الله تعالى أجرًا عظيمًا.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾

٥٦- سيَشهَدُ الأنبياءُ جميعًا يومَ القيامةِ كلٌّ على أحوالِ أُمتّـهِ وأعمالِها، وسيُصَدِّقُ المصطفى ﷺ على شهادةِ الأنبياءِ كلِّهم، كما أنه سيَشهَدُ أيضًا على أحوالِ أُمَّتِه؛ لأنّ أُمَّتَه تُعرَضُ عليه ﷺ ليلًا ونهارًا، وهكذا يَعرِفُ النبيُّ ﷺ وجْهَ كلِّ فردٍ من أُمّتِه وكذا أعمالُه، وسيكونُ النبيُّ ﷺ شاهدًا على الجميع يومَ القيامة بفَضْل عِلمِه الكاملِ هذا[1].

ملحوظة: راجعْ في هذا الخصوص الآيةَ رقم ١٤٣ من سورة البقرة.

---

(١) «عن سعيد بن المسيّب رضي الله عنه، قال: ليس من يوم إلّا تعرض على النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمّته غدوةً وعشيةً فيعرفهم بسيماهم وأعمالهم، فلذلك يشهد عليهم». تفسير القرطبي.

﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ ﴾

٥٧ـ عندَما يرى الكفَّارُ وعُصاةُ النبيِّ ﷺ مصيرَهم السيِّئَ يومَ القيامة سيتمنَّوْنَ عندَها لوِ ابتلعَتْهم الأرضَ، واستحالو إلى ترابٍ، وامتزَجوا بتُرابِها: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [النبأ: ٤٠]، فلا يُبعَثُونَ من جديدٍ حتّى لا ينالَه العقابُ الأليم، ولا يَلحَقَ به العارُ والذُّلُّ.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾

٥٨ـ كان شُربُ الخمرِ عامًّا عندَ العرب، وكان من الصَّعبِ أن يَتخلَّوْا عنه دفعةً واحدة، ولهذا نَزَل حُكمُ تحريمِ الخمر تدريجيًّا، فأنزَلَ اللهُ تعالى ـ أولَ الأمر ـ الآيةَ

رقم **٢١٩** من سورة البقرة، حيث قال: ﴿ **يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا** ﴾، وهنا قال: عليكم تجنُّبُ شُربِ الخمرِ في أوقاتِ الصَّلاة: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ** ﴾، وفي النِّهاية نَزَلت الآيةُ رقم **٩٠** من سورة المائدة، والتي جاء فيها التحريمُ القاطعُ لشُربِ الخمر: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾. ولمزيدٍ من التَّفصيل راجِعِ الحاشيةَ رقم **١٧٨** من سورة البقرة.

كما يُعلَمُ من هذه الآيةِ أيضًا أنّ من الضَّروريِّ أن يكونَ القلبُ والعقلُ والحواسُّ مُنتَبِهةً جميعًا عندَ الصَّلاة، حتى يُمكنَ أداءُ حقِّ الصَّلاةِ ـ ظاهريًّا وباطنيًّا ـ على أحسنِ ما يكونُ، مثلَما تقولُ أُمُّ المؤمنينَ السيِّدةُ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها، أنّ النبيَّ ﷺ قال: «**إذا نَعِسَ أحدُكم وهو يُصلِّي فلْيرَقُدْ حتّى يذهبَ عنه النّومُ، فإنّ أحدَكم إذا صَلَّى وهو ناعسٌ لا يدري لعلّه يستغفِر فيَسُبُّ نفسَه**»[1].

﴿ **وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ** ﴾

٥٩ـ يَنجُسُ جسمُ الإنسان بمُجامعتِه زوجتَه أو بخروج المنيِّ منه، وهو ما توجبُ الشَّريعةُ ـ بمقتضاهُ ـ الغُسْلَ على الإنسان، ولكنْ إن لم يتيسَّر الماءُ للغُسْل في السَّفَر فيمكنُ للشَّخص أن يتيمَّم ويؤدِّيَ صلاتَه.

وهناك تفسيرٌ آخَرُ للآيةِ، وهو: أنه لا ينبغي الدُّخولُ في المساجدِ حالَ الجَنابة، فإنِ اضْطُرَّ إلى المرور منها وهو جنُبٌ، ولم يكنْ أمامَه طريقٌ آخَر، فيجوزُ له المرورُ فقطْ، لكنْ لا يجوزُ له المكوثُ في المسجد.

---

(١) البخاري، كتاب الوضوء، باب ٥٣ برقم ٢١٢.

﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾

٦٠ـ الغُسلُ واجبٌ بعدَ مُجامعةِ النِّساء، بينَما يكفي الوضوءُ بعدَ قضاءِ الحاجة، ولكنْ إن كان على صحة المريضِ خطَرٌ فيما لو استَعمَلَ الماءَ، بأنْ يزيدَ مرَضُه مثلًا، أو كان من الصَّعبِ أن يجدَ المسافرُ ماءً، أو أنه ليس مسافرًا لكنه لا يستطيعُ الحصولَ على الماء، ففي مِثل هذه الحالاتِ كلِّها يَطهُرُ الإنسانُ بالتيمُّم بدلًا من الوضوءِ أو الغُسل، وللنِّساء نفسُ الحُكم في هذه الصُّورِ كلِّها، كما أنّ المرأةَ تَطهُرُ من الحَيْضِ والنِّفاس بالتيمُّم أيضًا إذا لم تجدِ الماءَ.

كيفية التيمم

يَحصُلُ التيمُّمُ بالتُّرابِ أو ما كان من جنسِه كالحَجَر أو الرِّمال وما شابَه، وطريقتُه: أن ينويَ الإنسانُ أولًا، ثم بعدَ ذلك يَضربُ بكِلتا يدَيْه على التُّرابِ أو ما هو من جنسِه، ثم يُمِرُّ بيدَيْه على وجهِه، ثم يضربُ ثانيةً بكلتا يدَيْه على التُّرابِ ويُمِرُّ بهما على ذراعَيْه ومِرفقَيْه.

الحكمة في التيمم

الوضوءُ والغُسلُ بعدَ الجَنابة يمنَحُ الإنسانَ الرَّاحةَ والنَّظافةَ والنَّشاطَ، ويترُكُ الإنسانُ الأعمالَ اليوميَّةَ الظاهريَّةَ والأفكارَ الباطنيَّةَ ويَستعِدُّ للصَّلاة، لكنْ ما الحِكمةُ في التيمُّم؟!

لقد أُعطِيَتْ رخصةُ التيمُّم للأُمَّةِ المحمَّديَّة فقطْ، ولا يَعلَمُ حِكمتَها الحقيقيَّةَ سوى الله تعالى، إلا أنّه ينبغي لنا معَ هذا التمعُّنُ في المثالِ التالي:

حين يذهبُ شخصٌ إلى المحكمةِ ليُدليَ بأقوالِه، فإنه يُقسِمَ على المصحفِ

الشَّريفِ أولًا بأنه لن يقولَ إلّا الحقَّ والصِّدق، وأنه سيتجنَّبُ الكذبَ والشَّكَّ، معَ أنّ هذا الشَّخصَ هو نفسُه الذي كان قبلَ القَسَم، وعليه في كلِّ حالٍ أن لا يقولَ إلّا الصِّدق، ولكنّ الإنسانَ بعدَ القَسَم يَشعُرُ بأنه مسئولٌ ويجبُ أن يكونَ أكثرَ احتياطًا، وبنفسِ الطريقة فإنّ الإنسانَ بالتيمُّم يجدُ نفسَه مستعِدًّا من الناحيةِ النفسيَّةِ للصَّلاة، ويتولَّدُ بداخلهِ إحساسٌ بالطَّهارة واحترامِ الصَّلاة، وهكذا تؤدَّى الصَّلاةُ في وقتها، وينتهي الإحساسُ بعدم الطُّهرِ من ذِهن الإنسان، والإنسانُ كذلك مخلوقٌ من الطِّين والماء، وللإنسانِ والطَّهارة علاقةٌ خاصّةٌ بهذَيْنِ الشيئَيْنِ، ولهذا فإنّ البديلَ في حالةِ عدم وجودِ الماءِ هو التُّراب.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴾

٦١ـ أُعطِي علماءُ اليهودِ عِلمَ التَّوراة، وقد عَرَفوا النبيَّ ﷺ في ضوءِ هذا العِلم بأنّه نبيُّ الله الصَّادقُ والخاتَم، لكنَّهم أنكَروا كلَّ هذا بضَغْطٍ من الـ (أنا) والمصالح الدُّنيويَّة، ولم يكتفُوا بهذا فقطْ، وإنّما انهَمَكوا في محاولتِهم بأن يُبعدوكم أنتم أيضًا عن الإسلام، ومن هنا عليكُم أن تَعرِفوا أعداءَكم، واحتاطوا من خِداعِهم، ولتكنْ علاقتُكم بالله تعالى فقطْ قوّيةً؛ لأنه هو حامِيكم وناصِرُكم وليس غيرَه.

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ ﴾

٦٢ـ كان اليهودُ يُحرِّفونَ في كلام الله تعالى، أي: أنهم كانوا يُبدِّلونَ ويُغيِّرونَ في ألفاظِ ومعاني التَّوراة، وكانوا يتحدَّثونَ في مجلسِ رسولِ الله ﷺ بألفاظٍ تحتملُ الذَّمَّ والمَدْحَ، قاصدينَ معنى الذَّمِّ، فيَعقِدونَ ألسنتَهم بصورةٍ تجعَلُهم يَنطِقونَ اللَّفظَ

بحيث يَظهَرُ منه جانبُ الذَّمِّ، وعلى سبيل المثال: حين كان النبيُّ ﷺ يُبلِّغُهم بحُكم من الأحكام الإلهيَّة، فإنّهم كانوا يقولونَ بصوتٍ مرتفع: لقد سَمِعنا، ثم يَخفِضُونَ أصواتَهم قائلين: لكنَّنا لن نُطيعَ شيئًا، وهكذا قولُهم: ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾، وأصلُ هذه الجُملةِ في العربيَّة: أنها تُستعمَلُ للدُّعاء بالخيرِ لأحدٍ أيضًا، بمعنى: أن لا تَسمَعَ شيئًا لا يُعجِبُك، وتُستعمَلُ كذلك للدُّعاءِ على أحدٍ بالشرِّ، بمعنى: أن لا تستطيعَ سماعَ شيءٍ، وأن تُصابَ بالصَّمَم، وكان اليهودُ عندما يقولونَ ذلك يقصِدونَ الدُّعاءَ بالشرِّ. أما معنى ﴿وَرَٰعِنَا﴾ فهو أن يرعاهم، لكنَّهم كانوا يَلْوُونَ ألسنتَهم ليصبحَ اللَّفظُ «راعينا»، بما يعني: «راعي الغَنَم لدينا»، معاذَ الله!

وكانوا ـ بهذه الطَّريقة من المَكْرِ والخِداع ـ يَعِيبُونَ على الدِّين، باعتبارِ أنه لو كان النبيُّ ﷺ صادقًا لعَلِم بنفاقِهم، لكنّ اللهَ تعالى أظهَرَ مَكْرَهم وكشَفَ خِداعَهم، وأخبَرَ الصَّحابةَ الكرامَ رضيَ اللهُ عنهم كيف أنّ اليهودَ يحاولونَ تحريفَ الألفاظِ بقَصْدِ إهانةِ النبيِّ ﷺ، في حينَ أنّهم (اليهودَ) لو آمَنوا مخلِصينَ وقالوا بأدبٍ للنبيِّ ﷺ: لقد سَمِعنا إرشاداتِك وتعاليمَك وسنُطيعُك فيها فراعِنا، لَكان ذلك خيرًا لهم، لكنّ اللهَ تعالى قد أبعَدَهم من رحمتِه بسببِ كُفرِهم وبَذاءتِهم، وقليلٌ جدًّا منهم كَتَب اللهُ لهم ثروةَ الإيمان. ويُعلَمُ من هذهِ الآية أنه يَحرُمُ على العبدِ فيما يتَعلَّقُ بالله تعالى ورسولِه ﷺ استخدامُ ألفاظٍ تَحتمِلُ معنىً سيِّئًا.

ملحوظة: راجِعْ في هذا الخصُوص الآيةَ رقم ١٠٤ من سورة البقرة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾

٦٣ـ هنا تنبيهٌ لأهل الكتابِ بأنْ آمِنوا بالقرآنِ المَجِيد؛ لأنه كتابٌ يُصدِّقُ كُتبَكم السَّماويَّةَ، ولا أحدَ يستطيعُ ضمانَ الحياة، فآمِنوا قبلَ أن يأتيَكم الموتُ، وإلّا فإنّ اللهَ

تعالى سيَمسَخُ وجوهَكم ويُديرُها إلى ظهورِكم، وستُحرَمونَ من رحمةِ الله تعالى وتَدخُلونَ جهنَّم وبئسَ المصير، وستُبدَّلُ أشكالُكم مثلَما بدَّلَ اللهُ وجوهَ أصحابِ السَّبتِ ومسَخَهم قِرَدةً وخنازيرَ[1]. لمزيدٍ من التفصيل راجِعْ: آيةَ رقم **٦٥** من سورة البقرة، وكذا حاشيةُ رقم **٥٣**.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ ﴾

٦٤ـ الشِّركُ يقالُ للإشراكِ بذاتِ الله تعالى، أو إشراكِ آخَرَ في أيِّ صفةٍ من صفاتِه سبحانَه وتعالى، وهذا هو أكبرُ الذُّنوبِ وأعظمُ الظُّلم: ﴿ وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾ [لقمان: ١٣]، ويُقالُ لمَن يُشرِكُ: «مُشرِكٌ»، ومصيرُ المُشرِكِ جهنَّمُ؛ لأنّ الجنَّةَ محرَّمةٌ عليه: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ ﴾ [المائدة: ٧٢].

المشرِكُ ـ في الأصل ـ يتمرَّدُ على اللهِ تعالى القادرِ المُطلَقِ والحاكم الأعلى، بمعنى: أنه يُشرِكُ أحدًا آخَرَ معَ اللهِ تعالى، وفي دُنيانا اليومَ يُعاقِبُ الحُكّامُ عُتاةَ المجرِمينَ بالعقابِ المحكوم عليهم به، ثم يَقبَلونَهم في المجتمع ثانيةً، لكنَّهم لا يتحمَّلونَ وجودَ مَن يتمَرَّدُ عليهم، وهكذا فإنّ التمرُّدَ على الله تعالى بمثابةِ الجريمةِ البَشِعة التي لا مكانَ لها في الإسلام، ولن يَغفرَ اللهُ تعالى للمشرِك. راجِعْ في هذا الخصوص: الآيةَ رقم **١١٦** من هذه السُّورة، وكذا الحاشيةُ رقم **١٢٥**.

﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾

٦٥ـ يُعلَمُ من الآيةِ أنّ الشِّركَ لا يُغتفَرُ إلّا بتَوْبة، بينَما إذا مات مؤمنٌ عاصٍ بغيرِ أن يتوبَ ممّا ارتكبَ من ذنوبٍ، ولأنه لن يُخلَّدَ في جهنَّمَ ببركةِ الإيمان،

---

(١) تفسير القرطبي.

لهذا فإنّ مغفرةَ ذنوبه تتوقَّفُ على مشيئةِ الله تعالى، إنْ شاء عَفَا عنه دونَ أن يُعاقبَه برحمةٍ منه أو بشفاعةِ أحدٍ (نبيٍّ أو عالِم أو شهيدٍ أو طِفل صَغيرٍ وغيرِ ذلك)، وإن شاء عاقَبَه بما يستحِقُّ طِبقًا لذنوبه ثم أدخَلَه الجنَّةَ. على أيّةِ حال، مَن يموتُ على غير شِركٍ سيَدخُلُ الجنَّةَ في نهايةِ الأمر[1]، وكان سيِّدُنا عليٌّ كرَّم اللهُ وجهَه يقول: «إنّ أرجىٰ آياتِ القرآنِ قولُه: ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾»[2].

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾

٦٦ـ كان اليهودُ يَدَّعُونَ أنَّهم أطهارٌ، وأنّهم أبناءُ الله الأحِبّاءُ، وأنّهم أهلُ الجنة، وهذا كلُّه افتراءٌ على الله تعالى وكذبٌ صَريحٌ في حقِّه؛ لأنه لا فائدةَ منَ ادّعاءِ الطُّهر؛ لأنّ الأطهارَ هم الذين يكونونَ كذلك عندَ الله تعالى، وهؤلاءِ هم السُّعداءُ الذين لم يُشرِكوا به شيئًا، ويعيشونَ في تقوى من الله سبحانه وتعالى دائمًا.

أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا ﴿٥٤﴾ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن صَدَّ عَنۡهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي

---

(١) «عن المعرور بن سويدٍ، قال: سمعت أبا ذرٍّ رضي الله عنه، يحدّث عن النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، أنّه قال: أتاني جبرائيل عليه السلام، فبشّرني أنّه من مات من أمّتك لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنّة». مسلم، كتاب الإيمان، باب ٤٠ برقم ٢٧٢.

(٢) تفسير البغوي.

مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴾

٦٧ـ عاد عالِمُ الدِّين اليهوديِّ المتميِّزُ كعبُ بنُ أشرَفَ إلى مكّةَ معَ جماعةٍ له بعدَ غزوةِ أُحُد، وذلك لكي يَعقِدَ مع كفَّارِ مكَّةَ معاهدةَ صَداقة، فيقومَ الاثنانِ (كفَّارُ مكّةَ ويهودُ المدينة) بالهجوم على المسلمينَ مجتمِعين، فقال أهلُ مكّةَ لكعبِ بن أشرَفَ: إنْ كنتَ مخلِصًا حقيقةً في عَقْدِ هذه المعاهدة فتعالَ اسجُدْ معنا لهذَيْنِ الصَّنمَيْنِ (الجِبْتِ والطَّاغوت)، وهكذا قام كعبُ بنُ أشرَفَ بالسُّجودِ للصَّنمَيْنِ بقَصْدِ طَمْأنةِ قُرَيْش، وهكذا تمَّ إبرامُ معاهدةِ الصَّداقةِ بينَ كفَّارِ مكَّةَ واليهودِ فيها ضدَّ المسلمين، وبعدَها سأل أبو سُفيانَ كعبَ بنَ أشرَفَ قائلًا: نحن قومٌ أُمِّيُّون، أمّا أنتمُ فأهلُ عِلم وأصحابُ كتاب، فلْتُخبِرْنا من على الحقِّ نحن أم محمَّدٌ؟ وكان كعبٌ يَعلَمُ من كتابِه أنّ النبيَّ ﷺ على حقٍّ، لكنَّه ـ بقَصْدِ إرضاءِ كفَّارِ مكَّةَ والحصول على تعاونِهم ضدَّ المسلمين ـ قال: أنتم على الحقِّ أكثر[1]،

(١) «روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن كعب بن الأشرف وجمعًا من يهود خرجوا إلى مكة بعد وقعة أحد ليحالفوا قريشًا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وينقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فنزل كعب على أبي سفيان =

وهنا نَزَلت هذه الآيةُ بأنّ الذين يعبُدونَ الأصنامَ والشَّيطانَ بالرَّغْم من أنَّهم من أهل الكتاب، فإنّ لعنةَ الله عليهم، ولن يستطيعَ أحدٌ أن يساعدَهم يومَ القيامة.

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾

٦٨ـ قال كعبُ بنُ أشرَفَ عالِمُ اليهود: إنّ كفَّارَ مكَّةَ أكثرُ هدايةً من المسلمين، في حينَ أنّ الحُكْم بكونِ أحدٍ على الهداية أو الضَّلال في يدِ الله تعالى فقَطْ، ولكنِ الحمدُ لله تعالى، الذي لم يجعَلْ لليهود نصيبًا من المُلك، إذْ لو كان الأمرُ كذلك لجاءتِ الأحكامُ كلُّها مقلوبةً، وما ساعَدَ هؤلاءِ أحدًا ولو كان يموتُ جوعًا.

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَـٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾

٦٩ـ اغتاظَ اليهودُ لمَّا رأَوْا عَظَمةَ النبيِّ ﷺ والصَّحابةِ الكرام رضوانُ الله عليهم، وحسَدوهم على نجاحاتِهم قائلينَ: إنّ النُّبوَّةَ والمُلكَ الدُّنيويَّ لا يجتمعان؛ لأنّ أمورَ الحُكم قد تقفُ عَقَبةً في طريقِ أداءِ فرائضِ النُّبوَّةِ. فنزلت هذه الآيةُ بأنْ هذا ليس بالأمرِ الجديد، بل إنّنا أنعَمْنا بالمُلكِ والنُّبوَّةِ معًا على سيِّدِنا داودَ وسيِّدنا سُليمانَ، وسيِّدِنا يوسُفَ، قبْلَ سيِّدِنا محمَّدٍ ﷺ، وقد أدَّوا جميعًا فرائضَ النُّبوَّةِ كاملةً[1].

= فأحسن مثواه، ونزلت اليهود فى دور قريش، فقال أهل مكة: إنكم أهل كتاب ومحمد صاحب كتاب فلا يؤمن هذا أن يكون مكرًا منكم، فإن أردت (يا كعب!) أن نخرج معك فاسجد لهذين الصنمين وآمن بهما، ففعل، ثم قال كعب: يا أهل مكة! ليجئ منكم ثلاثون ومنا ثلاثون فنلزق أكبادنا بالكعبة فنعاهد رب البيت لنجهدن على قتال محمد ففعلوا ذلك، فلما فرغوا قال أبو سفيان لكعب: إنك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم ونحن أميون لا نعلم، فأينا أهدى طريقًا وأقرب إلى الحق نحن أم محمد؟ قال كعب: أنتم ـ والله ـ أهدى سبيلًا مما عليه محمد، فأنزل الله تعالى فى ذلك الآية». تفسير روح المعاني.

(١) «أنه قد حصل فى أولاد إبراهيم عليه السلام جماعة كثيرون جمعوا بين الملك والنبوة مثل =

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾

٧٠ـ كلُّ حُكم من أحكامِ الإسلام، وكلُّ أمرٍ من أمورِ المسلم أمانةٌ لله تعالى عندَه، وسواءٌ كان هذا الحُكمُ يتعَلَّقُ بمِلكيَّةِ الغيرِ أم بالشَّخصِ نفسِه، وسواءٌ كان متعلِّقًا بالأمورِ الدُّنيويَّة أم بالعباداتِ الدِّينيَّة، وسواءٌ كان متعلِّقًا بمنصبٍ من المناصبِ أم بسُلطةٍ من السُّلُطات، وباختصار، فإنّ كلَّ نفَسٍ في حياتِنا، وكلَّ لفظٍ يخرُجُ من أفواهِنا، وكلَّ فعلٍ تقومُ به أيدينا، هو ـ في الحقيقة ـ أمانةٌ عندَنا، ويؤدَّى حقُّ الأمانةِ لأحدٍ إذا أُدِّيَتْ إليه كاملةً بكلِّ آدابِها ومستلزماتِها، ودونَ أيِّ نقصٍ أو زيادةٍ فيها، ودونَ غُبْن أو ظُلم أيضًا، والجميعُ في هذا الحُكم سواءٌ، الفقيرُ والغنيُّ، والحاكمُ والمحكوم.

*** عن ابنِ عُمَرَ رضيَ الله عنهما، قال: سمِعتُ رسولَ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم يقول: «كُلُّكم راعٍ، وكلُّكم مسئولٌ عن رَعِيّـتِهِ، الإمامُ راعٍ ومسئولٌ عن رَعِيّتِهِ، والرّجُل راعٍ في أهلِه وهو مسئولٌ عن رَعيَّتِه، والمرأةُ راعيةٌ في بيتِ زوجِها ومسئولةٌ عن رَعيَّتِها، والخادمُ راعٍ في مالِ سيّدِه ومسئولٌ عن رَعِيَّتِه ـ قال: وحسِبتُ أنْ قد قال: والرّجلُ راعٍ في مالِ أبيه ومسئولٌ عن رَعِيّتِه، وكلُّكم راعٍ، ومسئولٌ عن رَعِيَّتِه»[١].**

*** عن أنسِ بن مالكٍ رضيَ اللهُ عنه، قال: ما خَطَبَنا نبيُّ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم إلّا قال: «لا إيمانَ لمَن لا أمانةَ له، ولا دينَ لمَن لا عهدَ له»[٢].**

*** عن أبي هريرةَ، قال: بينَما النّبيُّ ﷺ في مجلسٍ يُحدِّثُ القومَ، جاءه أعرابيٌّ فقال: متى السّاعةُ؟ فمضَى رسولُ الله ﷺ يُحدِّث، فقال بعضُ القوم:**

= داود وسليمان عليهما السلام فلم يشغلهم الملك عن أمر النبوة». تفسير الخازن.

(١) البخاري، كتاب الجمعة، باب ١١ برقم ٨٩٣.

(٢) مسند أحمد، ٣: ١٣٥.

سَمِع ما قال، فكَرِه ما قال، وقال بعضُهم: بل لم يَسمَعْ، حتّى إذا قضَى حديثَه قال: «أين ـ أُراه ـ السّائلُ عن السّاعة» قال: ها أنا يا رسولَ الله، قال: «فإذا ضُيِّعتِ الأمانةُ فانتظِر السّاعة» قال: كيف إضاعتُها؟ قال «إذا وُسِّدَ الأمرُ إلى غيرِ أهلِه فانتظِرِ السّاعةَ»[1]. ويمكنُ الرُّجوعُ في هذا الخصُوص إلى الحاشية رقم **٢١** للآية رقم **٢٧** من سورة الأنفال (٨).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾

٧١ـ هنا، في هذه الآية، بيانٌ لمبدأٍ أساسيٍّ من مبادئ المجتمع الإسلاميِّ، يعني: أنّ طاعةَ الله سبحانه وتعالى، وطاعةَ النبيِّ ﷺ، وطاعةَ أُولي الأمرِ (الحُكّام والعلماءِ) واجبةٌ على كلِّ مسلم، لكنْ إنْ حَدَث اختلافٌ في أيِّ حُكم من أحكام الحاكم، أو في فتوى من فتاوَى العالِم، فإنه يجبُ أن نَقيسَها على القرآنِ الكريم والحديثِ الشَّريف، فإنْ وافقَتْهما سَلَّمنا بها وأطَعْناها، وإذا تعارَضَتْ معَهما رَدَدْناها؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**لا طاعةَ في معصيةِ الله، إنّما الطّاعةُ في المعروف**»[2].

أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ﴿٦١﴾ فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن

---

(١) البخاري، كتاب العلم، باب **٢** برقم **٥٩**.

(٢) مسلم، كتاب الإمارة، باب ٨ برقم **٤٧٦٥**. والحديث عن علي كرم الله وجهه.

رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ﴾

٧٢ـ سببُ نزولِ هذه الآياتِ هو الواقعةُ التي نُدرجُها فيما يلي، بأنه كان بيْنَ يهوديٍّ ومنافقٍ نزاعٌ، وكان اليهوديُّ على حقّ، فطَلَبَ من المنافقِ أن يذهبا إلى رسول الله ﷺ ليَحكُم بينَهما؛ لأنّه يَعلَمُ أنّ النبيَّ ﷺ لا يَرتَشي، وأنه سيَحكُم بمقتضَى العَدْل، لكنّ قلبَ المنافقِ لم يكنْ خالصًا، ولهذا قال: نذهبُ إلى عالِمِكم كعبِ بن أشْرَفَ، ولم يَرضَ اليهوديُّ إذ ذاكَ بذلك، وهكذا حضَرا الاثنانِ عندَ النبيِّ ﷺ على مضَضٍ من المنافق، وجاء الحُكمُ في صالح اليهوديِّ[1].

والمرادُ بالطَّاغوتِ: كلُّ شخصٍ أو نظَريَّةٌ أو عمَلٌ أو اجتماعٌ أو سَفرٌ أو حُكمٌ يخالفُ القرآنَ والسُّنَّة، ولهذا أُمِرَ المسلمونَ أنْ لا يقترِبوا من الطَّاغوت، وأن يَرجِعوا ـ في كلِّ الأمورِ ـ إلى القرآنِ والسُّنّة.

---

(١) تفسير القرطبي وروح المعاني.

﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴾

٧٣ـ أي أنه حين ينكشفُ سِرُّ نفاقهم فإنَّهم بدَلًا من أن يخجَلوا من أنفُسِهم يَحلِفون ـ كذبًا ـ مؤكِّدينَ إسلامَهم وإخلاصَهم فيه، ويقولون: إنَّنا لم نذهبْ إلى فلانٍ لأنَّنا لا نَقبَلُ بحُكم رسولِ الله ﷺ، وإنّما لكي يُصلحَ بينَنا.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾

٧٤ـ قال اللهُ تعالى: رَغْمَ أنّنا نَعرِفُ تمامًا نفاقَ قلوبِهم، ولكنْ، أيُّها النبيُّ الحَبيب، اعْفُ عنهم واضعًا في اعتبارِك ظاهرَهم، واستمرَّ في محاولاتِك لإصلاحِهم بالوَعْظِ والنُّصح.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾

٧٥ـ أرسَلَ اللهُ تعالى الرُّسُلَ جميعًا ليُطاعوا، ومَن لا يطيعُ الرسولَ فإنّ هذا يعني ـ بوضوح ـ أنه يَعصي حُكمَ الله ورسالَته، ولهذا فإنّ طاعةَ الرسُول هي ـ في الحقيقة ـ طاعةٌ لله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ [النساء: ٨٠].

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾

٧٦ـ أيُّها الرَّسولُ الحَبيب، لو أنّ هؤلاءِ ظَلَموا أنفُسَهم، أي: عَصَوا اللهَ تعالى وارتَكبوا الذُّنوبَ، ثم جاءوا إليكَ، واستَغْفرتَ أنت أيضًا لهم، أي تشفَّعتَ لهم، فإنّ اللهَ تعالى سينظُرُ إليهم نظرةَ كَرَم، وسيَقبَلُ توبتَهم.

ويُعلَمُ من هذا أنّ اللهَ تعالى يعفو عن الذُّنوبِ بوسيلةِ النبيِّ ﷺ وبشفاعتِه، كما أنّ برَكةَ النبيِّ ﷺ هذه ليست محصورةً على حياتِه الظاهريَّةِ فقط، وإنّما هي مستمرَّةٌ دائمًا، مثلَما قال سيِّدُنا عليٌّ كرَّم اللهُ وجهَه: **«قَدِم علينا أعرابيٌّ بعدَما دَفنّا رسولَ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم بثلاثةِ أيّام، فرمَى بنفسِه على قبرِ رسولِ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم وحَثَا على رأسِه من ترابه؛ فقال: قلتَ يا رسولَ الله، فسَمِعنا قوْلك، ووَعَيْتَ عن الله فوعَيْنا عنك، وكان فيما أَنْزلَ اللهُ عليك: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ﴾ الآيَةَ، وقد ظَلمتُ نفسي وجئتُك تستغفرُ لي فنُودي من القبرِ أنّه قد غُفِرَ لك»**[1].

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾

٧٧ـ هنا بيانٌ بأسلوبٍ مؤكّد وغايةٍ في الوضوح لطاعةِ النبيِّ ﷺ الكاملةِ وغيرِ المشروطة، أي: أنه لا يمكنُ أن يكونَ أحدُكم مؤمنًا، أي: لا يمكنُ أن يكونَ إيمانُ أحدٍ بالله تعالى صحيحًا ما لم يَحْنِ رأسَه خُضوعًا وتسليمًا لكلِّ حُكم وأَمْرٍ من أوامرِ رسولِ الله ﷺ، ولا تكفي أبدًا الطاعةُ الظاهريَّة، وإنّما يجبُ أن لا نَشعُرَ بِضيقٍ أو ضَجَرٍ من داخلِنا تُجاه حُكم رسولِ الله ﷺ.

وحُكمُ هذه الآيةِ ليس محدودًا بحياة النبيِّ ﷺ، وإنّما هو حُكمٌ باقٍ حتّى قيام السَّاعة، وكلُّ ما جاء به النبيُّ ﷺ من اللهِ تعالى، وكلُّ طريقةٍ خَلَفَها لنا النبيُّ ﷺ باعتبارِها سُنّةً من سُنَنِه، إنّما هي سَنَدٌ قاطعٌ بيْنَ المسلمينَ وإلى الأبد، وإيمانُ العبدِ وكُفرُه إنّما يتوقَّفُ على مدى طاعتِه لهذا السَّنَد من عَدَمِه. قال رسولُ الله ﷺ: **«لا يؤمنُ أحدُكم حتّى يكونَ هواه تِبْعًا لِما جئتُ به»**[2].

---

(١) تفسير القرطبي، سورة النساء (٤): الآية ٦٤.

(٢) المشكاة، الاعتصام بالكتاب والسنة. والحديث عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾

٧٨ـ أيُّها النبيُّ الحبيب، لقد أمَرْنا المنافقينَ أن يُطيعوك حاكمًا عليهم بلا شرطٍ أو قَيْد، فإنْ جاءوك بنيَّةٍ خالصةٍ واستَغفَروا اللهَ، فسَتقبَلُ توبتَهم، ولكنّ هذا الأمرَ البسيطَ أيضًا ثقيلٌ على المنافقينَ، ولو أنَّهم أُمِروا أن يُضحُّوا بأنفُسِهم أو يَخرُجوا من ديارِهم من أَجْلِ التَّوبة، فلن يُنفِّذَ هذا الأمرَ إلّا قليلٌ من المنافقين عُتاةِ النِّفاق، والذين لا يستطيعونَ تحمُّلَ إظهارِ نفاقِهم.

«لمَّا نَزلَتْ ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ الآيةَ، قال رجلٌ: لو أُمِرْنا لَفعَلْنا، والحمدُ لله عافانا. فبَلَغ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وآلِه وسلَّم فقال: إنّ مِن أُمّتي رجالًا الإيمانُ أَثْبَتُ فى قلوبِهم من الجبالِ الرَّواسي»[1].

﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾

٧٩ـ النبيُّ هو: ذلك الإنسانُ المقدَّسُ الذي يَنزِلُ عليه الوحي، ويقومُ بتبليغ أحكام اللهِ تعالى إلى مخلوقاتِه.

الصِّدِّيق:

هو ذلك الإنسانُ الصّادقُ، صاحبُ الفِطرةِ الطَّاهرةِ النَّقيَّة، الذي لا يَلتبِسُ لدَيْه الفَرْقُ بينَ الحقِّ والباطل، ويُساندُ الحقَّ دائمًا، وهذه هي أعلى مَرْتبةٍ بعدَ النُّبوَّة، وقد تبوَّأَ العديدُ من صحابةِ رسولِ الله ﷺ هذه المنزلةَ، لكنّ أرفعَهم مقامًا في هذا الخصُوص هو سيِّدُنا أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رضيَ اللهُ عنه، ولهذا لُقِّب بالصِّدِّيق الأكبر، وهو ـ بعدَ النبيِّ ﷺ ـ أفضَلُ النّاس من غيرِ الأنبياء.

---

(١) تفسير القرطبي وتفسير روح المعاني، سورة النساء (٤): الآية ٦٦.

الشَّهيدُ:

هو ذلك الإنسانُ الذي يَستشهِدُ على صِدقِ الدِّين بأعمالِه وبالدَّلائل، ويُضحِّي بروحِه في سَبيلِ رِفعةِ الدِّين إذا دَعَتِ الضَّرورةُ إلى ذلك.

الصَّالحُ:

هو ذلك الإنسانُ الذي تكونُ عقائدُه وأعمالُه صالحةً، وخوفُ اللهِ تعالى يَسكُنُ قلبَه.

وهناك عددٌ من الوقائع في سببِ نزولِ هذه الآية، ومنها: أنّ صحابيًّا من الأنصارِ جاء إلى حضرةِ النبيِّ ﷺ وآثارُ الحُزنِ والألم على وَجْهِه، فلمَّا سألَهُ النبيُّ ﷺ عن سببِ حُزنِه قال: يا نبيَّ الله، إنَّني أتأمَّلُ في أمرٍ هو أنّنا نَشرُفُ بالجلوس في مجلسِك صباحًا ومساءً، ونَنعُمُ برؤيةِ وجهِك الشَّريف، وحينَ تكونُ بعدَ ذلك في أرفع الدَّرجات في الجنَّة معَ الأنبياءِ الكرام عليهم السَّلام، وأدخَلَني اللهُ الجنَّةَ بفَضْلِه وكرَمِه، فلن نستطيعَ الوصُولَ إلى درجتِك، فماذا يكونُ حالُنا إذًا؟ ولم يُجِبْه النبيُّ ﷺ بشيءٍ، وحينَئذٍ نَزَل جِبريلُ الأمينُ عليه السَّلامُ بهذه الآيةِ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾، يعني: أنّ الذين يُطيعونَ اللهَ ورسولَه سيكونونَ في الجنَّة معَ الأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلام[1].

---

(١) عن سعيدِ بن جبيرٍ رضي الله عنه، قال: جاء رجلٌ من الأنصار إلى النّبي صّلّى الله عليه وآله وسلم وهو محزون، فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «يا فلان، مالي أراك محزونًا؟»، قال: يا نبيّ الله، شيءٌ فكّرت فيه، فقال: «ما هو؟»، قال: نحن نغدو عليك ونروح، ننظر في وجهك ونجالسك، غدًا ترفع مع النّبيّين، فلا نصل إليك، فلم يردّ النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم شيئًا، فأتاه جبريل عليه السّلام بهذه الآية ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ الآية، قال: فبعث إليه النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم فبشّره. تفسير جامع البيان.

* عن أنسٍ رضيَ اللهُ عنه: أنّ رجُلًا سأل النّبيَّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلّم عن السّاعة، فقال: متى السّاعة؟ قال: وماذا أعدَدْتَ لها؟»، قال: لا شيءَ، إلّا أنّي أحبُّ اللهَ ورسولَه صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم ـ وفي رواية أخرى: ما أعدَدْتُ لها من كثير صلاةٍ ولا صومٍ ولا صدقةٍ، ولكنّي أُحبُّ اللهَ ورسولَه، فقال: «أنت معَ من أحبَبْتَ»[1].
قال أنسٌ رضيَ اللهُ عنه: فأنا أُحبُّ النّبيَّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم وأبا بكرٍ وعُمرَ رضيَ اللهُ عنهما، وأرجو أن أكونَ معَهم بحُبّي إيّاهم وإن لم أعمَلْ بمِثل أعمالِهم[2].

* عن رَبيعةَ بن كعبٍ الأَسْلَميِّ، قال: كنتُ أَبيتُ معَ رسولِ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم، فآتيهِ بوَضوئه وحاجتِه، فقال لي: «سَلْ»، فقلت: أسألُك مُرافقَتك في الجنّة، قال: «أوَ غيرَ ذلك؟»، قلت: هو ذاك، قال: «فأعِنّي على نفسِك بكثرةِ السُّجود»[3].

وبالرَّغم من أنّ الدَّرَجاتِ في الجنَّة ستكونُ مختلفةً، ولكنّ اللهَ تعالى ـ بفَضْلِه وكرَمِه ـ سيُهيِّئُ لأهل المحبَّة فُرصَ اللِّقاءِ بمن يحبُّونَ ومجالستِهم، والحقُّ أنّه ما أسعَدَ أولئك الذين يحبُّونَ الأنبياءَ والصِّدِّيقينَ والشُّهداءَ والصَّالحينَ! ويقدِّمونَ الدَّليلَ العمَليَّ على هذا الحبِّ بالسَّير على خُطاهم، لكنّ هناك حقيقةً يجبُ أن تبقَى في الأذهان، وهي أنّ أولئك الذين يَميلونَ إلى الظُّلم والسُّوءِ سيُواجِهونَ العذابَ في جهنَّم مع الظَّالمينَ أيضًا.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ

---

(١) صحيح البخاري، برقم ٦١٧١.

(٢) البخاري، فضائل أصحاب النبي، باب ٦ برقم ٣٦٨٨.

(٣) مسلم، كتاب الصلاة، باب ٤٣ برقم ١٠٩٤.

فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴾

٨٠ ـ بعدَ غزوةِ أُحُدٍ أخَذَ العديدُ من القبائل تستعدُّ للهجوم على المسلمينَ ومحاربتِهم، وهنا جاء الأمرُ للمسلمينَ ـ في هذه الآية ـ بأنّ يُجهِّزوا كلَّ آلاتِهم وأدواتِهم الحَرْبيَّةِ لحمايةِ أنفُسِهم، وأنْ يبقَوْا على أُهبةِ الاستعدادِ دائمًا لردِّ هجوم الكفَّار، حتّى يُمكنَهم اتِّخاذُ الخُطُواتِ الفَوْريَّة عندَ الضَّرورة، بمعنى: أنه يجبُ أولًا أن تُجهِّزوا الأسلحةَ، ثم تَخرُجوا لمواجهةِ الكفَّارِ، لأنّ مواجهةَ العدوِّ المسلَّح بغيرِ أسلحةٍ بمثابةِ دعوةٍ للموتِ بأن يَحُلَّ، وبنفسِ الطريقة فإنّ مواجهةَ أحدثِ الأسلحةِ بالقديم والتقليديِّ منها يبعَثُ على الفَشَل، ولهذا من الضَّروريِّ للمسلمين أن يتقدَّموا في مجالِ العلوم والتَّقْنية، وأن يُجهِّزوا أسلحتَهم طبقًا لمقتضَياتِ العصرِ الراهن، وذلك حتّى يعيشَ المسلمونَ حياةً آمِنة، ولا يَجْرُؤَ العدوُّ على مهاجمتِهم.

﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾

٨١ ـ في هاتَيْنِ الآيتَيْنِ إشارةٌ وتحديدٌ **للعدوِّ الداخليِّ**، بمعنى: أنّ هناك المنافقينَ جَنْبًا إلى جَنْبٍ معَ العدوِّ الخارجيِّ، والمنافقونَ هؤلاءِ هم الذين يحاولونَ ـ بشتَّى

الطُّرُق ـ التَّخلُّفَ عنكم، فإذا هُزِمَ المسلمونَ في الحربِ سَعِدوا وفَرِحوا، واعتبَروا هذا فَضْلًا من الله عليهم! ويقولون: لقد أحسَنّا إذْ لم نشاركْ معَهم، وإلّا لواجَهنا نحن أيضًا الخَسارةُ مثلَهم. وإذا فَتَح اللهُ على المسلمين ونَصَرهم أصابَتْهم الحَسْرةُ والنَّدمُ لحِرمانِهم من المشاركةِ في الغنائم والحصُول على نصيبٍ منها.

﴿ ۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

٨٢ ـ الإنسانُ الذي يؤمنُ إيمانًا كاملًا بالآخِرة، ويضحِّي بالمصالح الدُّنيَويَّة في سبيل رضا اللهِ تعالى، مثلُ هذا الإنسانِ سعيدُ الحظِّ عندَما يَخرُجُ إلى ميدانِ المعركة ويُقتَل، فهو شهيدٌ، وإذا انتصَر فهو مجاهدٌ، وفي الحالتَيْنِ يكونُ مستحِقًّا للأَجْرِ العظيم، وما أحسنَ ما قالَه العلّامةُ محمد إقبال عاكسًا هذا الأمرَ:

*** الحياةُ أرفَعُ من فِكرةِ الرِّبح والخسارة، الحياةُ أحيانًا في الحفاظِ على الرُّوح، وأحيانًا في التَّضحيةِ بها.**

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾

٨٣ ـ كان عدَدٌ من رجالِ مكّةَ ونسائها وأطفالِها قد قَبِلوا الإسلامَ، لكنّ كفَّارَ مكّةَ أحالوا حياةَ هؤلاءِ إلى عذاب، فلا يستطيعونَ الهجرةَ، ولا يستطيعونَ ردَّ الظُّلم عن أنفُسِهم، وكانوا يَدْعُون اللهَ تعالى أن يُهيِّئَ لهم أسبابَ النَّجاة من الظُّلم.

وفي هذه الآيةِ ترغيبٌ للمسلمينَ على مساعدةِ إخوانِهم وأخَواتِهم، وهكذا جاء اليومُ الذي اصْطَحَب فيه النبيُّ ﷺ عشَرةَ آلافٍ من المسلمين وهاجَمَ بهم مكّةَ، ومَنَح ثروةَ الحُرِّيةِ للمسلمينَ المظلومينَ، واليومَ يصبحُ من الفَرْض على المسلمينَ أن يَبذُلوا قُصارى جُهدِهم لإنقاذِ إخوانِهم المسلمينَ المظلومينَ حيثُما كانوا.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾

٨٤ - الحربُ تَعرِضُ لأهل الإسلام ولكفَّارِ مكّةَ على السَّواء، لكنّ بيْنَ الحربِ في الإسلام والحروبِ الأُخرى فرقًا كبيرًا، فالمؤمنُ يحاربُ لله، وهدفُه قيامُ الأمنِ ونَشْرُ الفضيلةِ والقضاءُ على الظُّلم، في حينَ يكونُ الدافعُ الكامنُ وراءَ الحربِ التي يخوضُها غيرُ المؤمن هو الدُّنيا والمصالحُ الدُّنيويَّة، ولهذا يجبُ على أهل الإسلام النُّزولُ إلى مَيْدانِ العمل من أَجْل رِفعةِ الحقِّ وقيام العَدْل، وكذلك مواجهةُ القُوى الطاغُوتيَّةِ لاستئصالِ الظُّلم.

لو أنّ المسلمينَ اتَّحدوا، ووَظَّفوا كلَّ طاقاتِهم وإمكانيَّاتِهم فلن يكونَ من الصَّعبِ عليهم إصلاحُ القُوى الطاغوتيَّة؛ لأنّ مكرَ الشَّيطانِ وخِداعَه ضعيفٌ للغاية، ومصلحتُه محدودةٌ بالدُّنيا فقطْ، ولهذا تَجِدُه يفِرُّ من المَيْدانِ ناجيًا بنفسِه فَوْرَ أن تبدَو له آثارُ الهزيمةِ الظاهريَّة، في حينَ أنّ المؤمنَ جَبلٌ من الاستقامةِ والثَّبات، ويَرفَعُ معنويَّاتِه الأملُ في النَّجاح في الآخِرة رَغْمَ الهزيمةِ الظاهريَّة.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ

وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾

٨٥ ـ نَزَلتْ هذه الآيةُ بخصوص المنافقين، فحين كان المسلمونَ يَضِيقونَ بظُلم الكفَّارِ لهم، ويطالبونَ باتِّخاذِ خُطُواتٍ للردِّ عليهم، كان المنافقونَ يؤيِّدونَهم في هذا مُضْطَرِّين، وإلّا واجهوا خطَرَ افتضاح أمرِ نفاقِهم، لكنّ النبيَّ ﷺ كان يُلقِّنُ المسلمينَ المزيدَ من الصَّبر بدَلًا من حَمْل السُّيوف؛ لأنّه لم يكنْ قد سُمِح لهم بالجهادِ حتّى ذلك الوقت، ولكنْ حينَ جاء الحُكمُ بالجهادِ بعدَ ذلك خاف المنافقونَ من محاربةِ الكفَّار، وأخَذوا يَعترِضُونَ على الجهادِ قائلين: لماذا فَرَض اللهُ الجهادَ؟ والاعتراضُ على الله تعالى من صفاتِ المنافقين، ولا يمكنُ أن تَصدُرَ مِثلُ هذه الجُمَل عن صحابيٍّ مخلصٍ أبدًا[1] .

---

(١) «أن الآية نازلة فى حق المنافقين، ومعاذ الله أن يصدر هذا القول من صحابيٍّ كريم يعلم أن =

﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾

٨٦ ـ بيَّنَ اللهُ تعالى في هذه الجُملة حقيقةَ متاع ومالِ الدُّنيا وعَظَمةَ أَجْرِ وثوابِ الآخرة، أي:

١ـ نِعَمُ الدُّنيا قليلةٌ، في حينَ أنّ نِعَمَ الآخِرَةِ كثيرةٌ، بل وأفضَلُ في نوعيَّتِها كذلك، مثلَما قال سيِّدُنا أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنه، أنّ رسُولَ الله ﷺ قال: «**قال اللهُ تعالى: أعدَدتُ لعبادي الصّالحينَ ما لا عَيْنٌ رأَتْ ولا أُذُنٌ سَمِعتْ ولا خَطَر على قلبِ بشَر**»[1].

٢ـ نِعَمُ الدُّنيا ابتلاءٌ وفتنٌ، ولهذا من الضَّروريّ للغاية الاحتياطُ التامُّ في استعمالِها، بينَما نِعَمُ الآخِرة وسيلةٌ للأمنِ والسَّلام والسَّكِينة، فلا حاجةَ لأيِّ قَلَقٍ أبدًا.

٣ـ سوف نحاسَبُ على نِعَم الدُّنيا، بينما نِعَمُ الآخرةِ ضيافةٌ من الله تعالى، ولا حسابَ عليها البَتَّةَ.

٤ـ نِعَمُ الدُّنيا فانية، وفوائدُها عارضة، بينَما نِعَمُ الآخرةِ باقيةٌ وفوائدُها دائمة، ولهذا ليس من العقلِ ولا المنطِق التخلِّي عن النِّعم الخالدةِ والاكتفاءُ بالأشياءِ الفانية.

* يقولُ سيِّدنا المُستوردُ رضيَ اللهُ عنه: سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**ما مَثَلُ الدُّنيا في الآخِرة إلّا مَثَلُ ما يَجعَلُ أحدُكم إصبَعه في اليمّ، فلْينظُرْ بما يَرجِعُ**»[2].

* يقولُ سيِّدُنا عبدُ الله بن عباس رضيَ اللهُ عنهما: «**اضْطَجَع النَّبيُّ صلى الله**

= الآجال محدودة والأرزاق مقسومة». تفسير القرطبي، والتفسير الكبير.

(١) البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ٨ برقم ٣٢٤٤.

(٢) ابن ماجه، أبواب الزهد، باب ٣ برقم ٤١٠٨.

عليه وآلِه وسلَّم على حَصِيرٍ، فأثَّر في جِلدِه، فقلتُ: بأبي وأُمّي، يا رسولَ الله! لو كنتَ آذَنْتَنا ففرَشْنا لكَ عليه شيئًا يَقِيك منه، فقال رسولُ الله صلّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: «ما أنا والدُّنيا، إنّما أنا والدُّنيا كراكبٍ استَظَلّ [تحتَ] شجرةٍ ثمّ راح وتَرَكَها»(١).

* يقولُ سيِّدُنا سَهلُ بنُ سَعد رضيَ اللهُ عنهما: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: **«لو كانتِ الدُّنيا تَزِنُ عندَ الله جناحَ بعوضةٍ، ما سَقَى كافرًا منها قَطْرةً أبدًا»**(٢).

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾

٨٧ ـ ليس من العقل الخَوْفُ من الموتِ والجُبْنُ بسببِه، ثم التهرُّبُ من الجهادِ في سَبيل البلادِ والأُمّة؛ لأنّ الخروجَ إلى الجهادِ لا يُقرّبُ الموتَ، ولا يمكنُ إبعادُ الموتِ مهما اتَّخَذْنا منَ احتياطاتٍ وتدابيرَ، وعلى سبيل المثال: شارَكَ سيِّدُنا خالدُ بنُ الوليد رضيَ اللهُ عنه في غَزَواتٍ وحروبٍ عديدة، وكان يَقفزُ إلى مَيْدانِ الحرب في زِحام السُّيوفِ المترصِّدة، وقَضَى بسيفِه على آلافِ الكفّار، وبالرَّغْم من ذلك لم يَمُتْ شهيدًا في معركةٍ أو حرب، وإنّما مات على فراشِه في بيتِه. على أيّةِ حال، وقتُ الموتِ ومكانُه مقرَّرانِ ولا يمكنُ التقديمُ أو التأخيرُ فيهما.

﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾

٨٨ ـ قال الله تعالى في الآية السابقة: **﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾**، وفي هذه الآية يقولُ: إنّ الحسَنةَ من الله والسيِّئةَ من الإنسان، وقد يبدو بيْنَ الآيتَيْنِ تناقُضٌ ما، لكنّ الحقيقةَ غيرُ ذلك، حيث ـ في

---

(١) ابن ماجه، أبواب الزهد، باب ٣ برقم ٤١٠٩.

(٢) ابن ماجه، أبواب الزهد، باب ٣ برقم ٤١١٠.

الآيةِ الأولى ـ بيانٌ لخَلْق الخيرِ والشرِّ، وفي الآيةِ الثانية بيانٌ لسببِهما. وأيضًا، كَتَب العَلّامةُ البيضاويُّ في تفسيرِ هذه الآية يقولُ: إنّ الخالقَ الحقيقيَّ لكلِّ فعلٍ هو اللهُ تعالى، لكنّ الباعثَ على الحسَنةِ هو كرَمُ الله تعالى وفَضْلُه، مثلَما نَزَلتِ الملائكةُ في بدرٍ لنُصرةِ المسلمين، بينَما الباعثُ على السيِّئة هو أخطاءُ الإنسانِ نفسِه، مثلَما حَدَث في غزوةِ أحدٍ من الخَسارةِ التي لَحِقت بالمسلمين، ورَغْم أنّ الفاعلَ الحقيقيَّ لكلِّ هذا هو اللهُ تعالى، ولكنْ تعجُّلُ الرُّماةِ المُعيَّنينَ على المنفَذِ الجَبَليِّ في أحُدٍ كان السببُ وراءَ هذه الخسارة، ولذا يجبُ على الإنسانِ أن يفكِّرَ جيِّدًا في عاقبةِ الأمر قبْلَ أن يَشرَعَ فيه، وذلك حتّى لا يصيبَهُ النَّدمُ بعدَ ذلك.

﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾

٨٩ ـ أي: أنّ اللهَ تعالى أرسَلَ النبيَّ ﷺ رسولًا إلى النّاس جميعًا، ولا يُستثنَى من هذا عِرْقٌ ولا لونٌ ولا مَنطِقةٌ ما، فهو رسولٌ للكافَّة، آمَن مَن آمَن وكَفَر منَ كَفَر، إذ إنّ اللهَ تعالى ـ على أيّةِ حال ـ شاهدٌ على رسالتِه ﷺ، ويكفيه هذا.

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾

٩٠ـ يُعلَمُ من هذه الآيةِ أنّ طاعةَ النبيِّ ﷺ هي ـ في الحقيقة ـ طاعةٌ للهِ تعالى، وأنّ عِصيانَ النبيِّ ﷺ هو ـ في الحقيقة ـ عِصيانٌ لله تعالى، وإذا أراد أحدٌ أن يَترُكَ طاعةَ النَّبيِّ ﷺ وسُنَّتَه، ثم يُطيعَ اللهَ تعالى، فهذا غيرُ ممكن؛ لأنّ طريقةَ العمل بالقرآنِ المَجيد وأحكامِه لا تتأتّى إلّا بسُنّةِ المصطفى ﷺ فقط، كما أنّ هذه الآيةَ أيضًا توضِّحُ أنّ النبيَّ ﷺ معصومٌ ومنزَّهٌ عن الخطأ، لأنه لو كان هناك إمكانٌ لصدورِ خطأٍ عن النبيِّ ﷺ لَما كانت طاعتُه ﷺ طاعةً لِله تعالى.

﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِى تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾

٩١ـ يعني: يا أيُّها النبيُّ الحَبيب، حينَ يأتي إليك هؤلاءِ المنافقونَ فإنّهم يُقِرُّونَ بطاعتِك، ثم يَنهمِكونَ في التآمُرِ عليكَ ليلًا، ولكنْ لا تُلقِ إليهم بالًا، وتوكَّلْ على اللهِ واعتمِدْ عليه، وهو كافيكَ ومُنْجِيك.

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾

٩٢ـ جاء في هذه الآيةِ بيانٌ لمِقياسٍ من مقاييسِ صِدقِ القرآنِ المَجيد، يعني: عَدَمَ وجودِ أيِّ اختلافٍ في أيِّ موضِع من مواضع هذا الكتابِ الضَّخْم الذي نَزَل في فترةٍ طويلةٍ مقدارُها ثلاثةٌ وعشرونَ عامًا، لا اختلافٍ في الألفاظ، ولا في المعاني، ولا في الأحكام أو المَضامين، ولو كان القرآنُ المَجيدُ من عندِ غيرِ الله تعالى لَكان من الحَتْميِّ وجودُ اختلافاتٍ بداخلِه بسببِ اختلافِ الظُّروفِ على مدى هذه الفترةِ الطَّويلة، ولكنّ عَدَمَ وجودِ اختلافٍ فيه دليلٌ بيِّنٌ على أنّ هذا ليس من كلام البشَر، وإنّما هو كلامُ اللهِ تعالى. ليتَ غيرَ المسلمينِ يتدبَّرونَ ألفاظَ القرآنِ المَجيد ومضامينَه، ويؤمنونَ بهذا الكتابِ الصَّادقِ تمامًا من أَجْل إصلاح آخِرتهِم ودُنياهم.

﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِۦ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾

٩٣ـ بَدَأَتْ سِلسلةُ الحروبِ ضدَّ الكفَّارِ بعدَ الهجرةِ النَّبويَّة، فقد كان المسلمونَ يعيشونَ ـ بصفةٍ دائمةٍ ـ ظروفًا يمكنُ أن نُطلقَ عليها محِقّينَ: حالةَ حرب، وفي مِثل هذه الظُّروف يكونُ إطلاقُ الشائعاتِ الكاذبة والأخبارِ الملَفَّقة سببًا في خسائرَ متنوِّعة، على سبيل المثال: تتسرَّبُ الغَفْلةُ من خبرٍ بالفَتْح والنَّصر والسَّلام، ويتسرَّبُ الحُزنُ والألَمُ إلى نفوسِ المسلمينَ من خبرٍ بالهزيمةِ والخوف، ولهذا يُرشِدُهم اللهُ تعالى هنا

إلى أنّه، بدَلًا من نَشْرِ الأخبارِ غيرِ المؤكَّدة بينَ عامَّةِ النّاس عليكم إبلاغُها للنبيِّ ﷺ أو للمسئولينَ فقط، حتى يتأكَّدوا أولًا من صحّتها، ثم يتَّخذوا الخُطُواتِ المناسبةَ لها. كما أنّه - في بعض الأحيان - تكونُ إشاعةُ الخبَرِ الصَّحيح في زمنِ الحربِ ضارّةً، أمّا إذا كان الخبرُ غيرَ صحيح فإنّ السيطرةَ على مضارِّه تكونُ صعبةً.

ويُعلَم من هذه الآيةِ أيضًا أنّ نَشْرَ الأخبارِ غيرِ المؤكَّدة دونَ التحقُّقِ منها ليس بالأمرِ الصَّحيح، مثلَما يقولُ سيِّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه، أنّ النبيَّ ﷺ قال: «**كفى بالمرءِ كذبًا أن يُحدِّث بكلِّ ما سَمِع**»[١].

ويقول العَلّامةُ فخرُ الدِّين الرازي بخصُوص هذه الآية: إنّ الاجتهادَ والقياسَ في الشَّريعة دليلٌ وحُجَةٌ أيضًا، ولكنْ بشَرْطِ أن يكونَ في المسائل التي لا يوجَدُ بشأنِها حُكمٌ أو نَصٌّ صريحٌ من القرآنِ والسُّنّة، ويقومُ به فقطْ أهلُ العِلم الذين يمتلكونَ المقدِرةَ والكفاءةَ في الاستنباط، وبعدَ ذلك يكونُ من الواجبِ على عامَّةِ النّاسِ أن يتَّبِعوا أولئك العلماءَ ويقلِّدوهم.

ويُعلَمُ من هذا أيضًا أنّ النبيَّ ﷺ كان يستنبطُ في مسائلِ الشريعة[٢]، كما يَثبُتُ من هذه الآيةِ حُجِّيَّةُ التقليد، بمعنى: أن نُقلِّدَ أهلَ العِلم في المسائل التي يَستنبِطونَها في ضوءِ القرآنِ والسُّنة.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

٩٤- المرادُ بفَضْل الله تعالى وكَرمِه: هذا الحُكم بأنّكم بدَلًا من أن تنشُروا

---

(١) رياض الصالحين، باب الحث على التثبت فيما يقوله ويحكيه، ٤٤٤.

(٢) «دلت هذه الاية على أن القياس حجة فى الشرع، فثبت أن الاستنباط حجة، أن العامي يجب عليه تقليد العلماء في أحكام الحوادث، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان مكلفًا باستنباط الأحكام لأنه تعالى أمر بالرد إلى الرسول وإلى أولي الأمر». التفسير الكبير.

الإشاعاتِ أبلِغُوها للنبيِّ ﷺ ولأهل العلم، وإذا لم يتفضَّل اللهُ عليكم من فَضْلِه بسببِ هذا الحُكم لابتُليتُم بهذه الإشاعاتِ الكاذبة واتَّبعتُم الشَّيطانَ، ولَما ثبتَتْ أقدامُ إلّا القليلينَ من النّاس، وهم الذين يُميِّزونَ ـ بعِلمِهم وعَقْلِهم ـ بيْنَ الخبَرِ الصَّادق والخبَرِ الكاذب، ويتَّخذونَ من الخُطُواتِ ما يناسبُ الموقفَ، ولذا عليكم أن تؤدُّوا الشُّكرَ على إرشاداتِ الله تعالى هذه لكم، واعمَلوا في هَدْيِها تمامًا.

﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾

٩٥ـ في هذه الآية أمَرَ اللهُ تعالى رسولَه الكريمَ بالجهاد، بأنّه إذا ما جاء الباطلُ لمواجهةِ الحقِّ فتقدَّمْ إلى الجهادِ حتى ولو كنت وحدَك، وغالبًا لهذا السببِ قال رسولُ الله ﷺ: «**والّذي نفْسي بيدِه لَأُقاتِلنَّهم على أمري حتّى تنفردَ سالفتي**»[1]. وبعدها قال الله تعالى أن حرّض المؤمنين أيضًا على القتال، وسوف يحطم الله تعالى قوة الكفار قريبًا، وهكذا حدث بعد ذلك، ورفرفت راية الإسلام فوق أرض الجزيرة العربية كلها، وطالما بقي المسلمون عاملين بالإسلام كاملًا فسيظهرون على خريطة العالم في صورة قوة عظمى.

﴿مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَا﴾

٩٦ـ تقديمُ العَوْنِ لأحدٍ في العمل الصَّالح والتوسُّطُ من أَجْلِه شفاعةٌ جيِّدة، وسينالُ المتشفِّعُ نصيبًا من الثوابِ في هذا العمل الصَّالح، كما أنّ المساعدَ على عمَل السُّوء أو المتشفِّعَ فيه سينالُه نصيبٌ من العذابِ في مقابل ما فَعَل، وقد قال اللهُ تعالى في موضعٍ آخَرَ من القرآنِ الكريم: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى

---

(١) البخاري، كتاب الشروط، باب ١٥ برقم ٢٧٣٢.

ﵟٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِﵞ [المائدة: ٢]، كما أنّ النبيَّ ﷺ قال: **«إنّ الدّالَّ على الخيرِ كفاعلِه»**(١).

ﵟوَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآﵞ

٩٧ـ أي: أنه إذا ألقى أحدٌ عليك السَّلامَ، فعليكَ أن تَرُدَّ عليه السَّلامَ بطريقةٍ أحسَنَ، أو على الأقلِّ ترُدُّ عليه بنفسِ الألفاظِ التي ألقَى عليكَ السَّلامَ بها، وذلك بترديدِها.

السلام وأحكامه

ألفاظُ السَّلام ومعانيه

كلُّ أمَّةٍ في الدُّنيا يَرُوجُ لدى أبنائها ألفاظٌ يستعملونَها عندَ لقائهم معًا لإظهارِ الأخلاقِ الحسَنة والحبِّ والتعاطُف، وهذه الألفاظُ في الإسلام هي: «السَّلامُ عليكم»، والتي تعني: أنْ يمنَحَك اللهُ السَّلامَ كلَّه، ومثلَما أنّ الألفَ واللامَ في «الحمدُ لله»، تفيدُ الاستغراقَ، يعني: أنّ اللهَ تعالى هو المستحِقُّ الأصليُّ لثناءِ كلِّ شيءٍ في كلِّ زمانٍ ومكان، وكلِّ أُمّةٍ والعالَم كلِّه، كذلك فإنّ الألفَ واللامَ في «السَّلام» للاستغراقِ أيضًا، يعني: أن يَكتُبَ اللهُ لك السَّلامةَ في الصِّحةِ والعُمرِ والمالِ والأولادِ والأُسرةِ والإيمانِ، وفي الحالِ والمستقبَل، وفي الدُّنيا والآخِرة، وباختصار، السَّلامة في كلِّ شيء، وأنْ يحفَظَك من كلِّ مصيبةٍ وبلاءٍ، كلُّ هذه المعاني كامنةٌ في لفظَيْنِ فقط، وهو ما لا نجدُ له مثيلًا في أيِّ دينٍ آخَرَ، ولهذا فإنّ المسلمَ أيًّا كانت لغتُه، فإنه يَستخدِمُ عندَ اللّقاء هذَيْنِ اللَّفظَيْنِ، في حينَ أنّ أبناءَ الأُممِ الأُخرى تتبدَّلُ ألفاظُهم عندَ اللِّقاءِ باختلافِ لغاتِهم.

---

(١) الترمذي، أبواب العلم، باب ١٤ برقم ٢٦٧٠.

اسمُ الله تعالى

السَّلامُ: اسمٌ من أسماءِ الله تعالى الحُسنى الجميلةِ أيضًا، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٣]، وهكذا فإنّ النبيَّ ﷺ عندما كان يَفرُغُ من الصَّلاةِ كان يَستغفرُ اللهَ ثلاثَ مرّات، ثم يدعوه قائلًا: «اللّهمَّ أنت السَّلامُ ومنكَ السَّلام ....»[1].

ومعنى اسم اللهِ تعالى «السَّلام» هو: «المانِحُ للسَّلام والحامي الحافظ»، وبهذا الاعتبار فإنّ معنى «السَّلامُ عليكم» يكون: «لِيكُنِ اللهُ حافظَك، ولْيمنَحْكَ السَّلامةَ»، وبهذا الاعتبارِ أيضًا يقالُ: «اللهُ حافظٌ»[2]. وبهذه الطريقة، فإنّ المسلمَ يدعو لأخيه المسلم من خلالِ هذَيْنِ اللَّفظَيْنِ بالسَّلامة، ليس هذا فقط، وإنّما يَحصُلُ على الثَّوابِ من العمَل بحُكم إلهيٍّ من أحكام اللهِ تعالى بذِكرِ اسمِه، وهو الحُكمُ الذي جاء في قولِه تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٥].

تاريخ السلام:

عن أبي هريرةَ رضيَ الله عنه، أنّ النبيَّ صلى الله عليه وآلِه وسلَّم، قال: «لمّا خَلَق اللهُ آدمَ قال: اذهَبْ فسَلِّمْ على أولئك ـ نفرٍ من الملائكةِ جلوس ـ فاستَمِعْ ما يحيُّونَك، فإنّها تحيَّتُكَ وتحيَّةُ ذُرِّيّتِك، فقال: السّلامُ عليكم، فقالوا: السّلامُ عليك ورحمةُ الله، فزادوه: ورحمةُ الله»[3].

---

(١) «عن ثوبان رضي الله عنه، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا انصرف من صلاته، استغفر ثلاثًا وقال: اللّهمّ! أنت السّلام ومنك السّلام تباركت ذا الجلال والإكرام». مسلم، كتاب المساجد، باب ٢٦ برقم ١٣٣٤.

(٢) تعبير بالأردية أصله عربي، ويستعمل عند توديع شخص ما بما يعني «مع السلامة» عندنا. «المترجم».

(٣) رياض الصالحين، كتاب السلام.

ويُعلَمُ من هذا الحديثِ القُدُسيِّ أنّ السَّلامَ الإسلامِيَّ ليس شيئًا جديدًا، وإنّما بدَأَ معَ الإنسانِ الأول سيِّدِنا آدمَ عليه السَّلام، وظلَّ ساريًا في زمنِ الأنبياءِ الكرام جميعًا عليهمُ السَّلام، حتّى أنّ سلامَ سيِّدِنا عيسى عليه السَّلامُ جاء مكتوبًا هكذا في الكتابِ المقدَّس الحاليِّ: «Peace be on you»[1]، والترجمةُ العربيَّة لهذهِ الألفاظِ الإنجليزيَّة هي «السَّلامُ عليكم»، ولا أعرف متى تخَلَّى المسيحيُّونَ عن سُنّةِ سيِّدِنا عيسى عليه السَّلامُ، يعني: «السَّلامُ عليكم»، وتجاوَزُوها إلى «Good Morning»، ولماذا فَعَلوا ذلك؟ بل لقد أَجْرَوْا على هذا التحيَّة تخفيفًا، فحَذَفوا لفظَ «Good» منها، ولم يبقَ إلا «Morning»، ولا أدري ماذا يقصِدونَ به؟

حُكمُ السَّلام:

يقولُ الله تعالى:

١ - ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ﴾ [الأنعام: ٥٤].

٢ - ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَـٰرَكَةً طَيِّبَةً ﴾ [النور: ٦١]. وفي هذا الإطار يقولُ عَمْرُو بن دينارٍ (وهو إمامُ الحديث، ورَوَى عنه أصحابُ الصِّحاح السِّتة الأحاديثَ): «**(في قولِه) أي: اللهِ سبحانه: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: على أهلِيكم ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَـٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾. (قال) ابنُ دينارٍ: (إن لم يكنْ في البيتِ أحدٌ فقل: السَّلامُ على النَّبيِّ ورحمةُ الله وبركاتُه)**». ويَكتُبُ المُلّا عليُّ القاري (توفِّي عام ١٠١٤هـ) فيما يتَعلَّقُ بهذا الأمر: «**أي: لأنّ روحَه عليه السَّلامُ حاضرةٌ في بيوتِ أهل الإسلام**»[2].

---

(١) The Holy Bible: Luke: Chapter **24**, Verse **36**.

(٢) شرح الشفا، القاضي عياض، ٢: ١١٨.

والسُّنّةُ أنه حينَ نَمُرُّ بمقابرِ المسلمين فإنَّنا نقولُ: «السَّلامُ عليكم»، ونَدعو بالمغفِرةِ لأهلِها[١]، في حينَ أنّ أجسادَ منَ في هذه القبورِ قد صارتْ ترابًا، ولم يبقَ سوى الأرواح التي تَربِطُها بها علاقةٌ من نوع ما، وهي الأرواحُ التي نقولُ لها: السَّلامُ عليكم، وبنفسِ الطريقة، وطِبقًا لفَهْم المُلّا عليٍّ القاري؛ لأنّ رُوحَ النبيِّ ﷺ الطاهرةَ مرتبطةٌ ببيوتِ أهل الإسلام جميعًا، وإنْ كان جسَدُه الطاهرُ يرقُدُ في المدينة المنوَّرة، ونحن بوَساطةِ هذه الرُّوح الطاهرةِ نُرسلُ السَّلامَ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وهو ما نقولُه في التشهُّدِ في الصَّلاة، أي: السَّلامُ عليكَ أيُّها النبيُّ ورحمةُ الله وبركاتُه. يقولُ سيِّدُنا سَهلُ بن سَعْدٍ الساعِديُّ: جاء رجلٌ يشكو إلى رسولِ الله ﷺ الفقرَ وضِيقَ ذاتِ اليد، فقال له رسولُ الله ﷺ: **«إذا دَخَلت البيتَ فسلِّمْ إن كان فيه أحدٌ، وإنْ لم يكن فيه أحدٌ فسلِّمْ علَيَّ واقرأْ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ مرّةً واحدةً»، فَفعَل الرَّجلُ، فأدَرَّ الله عليه الرّزقَ حتّى أفاضَ على جيرانِه**[٢].

قال النبيُّ ﷺ:

١ـ «والّذي نفْسي بيدِه، لا تَدخُلوا الجنَّة حتّى تؤمنوا، ولا تُؤمنوا حتّى تحَابّوا، ألا أَدُلُّكم على أمرٍ إذا أنتُم فعلتُموه تحابَبْتُم؟ أفشُوا السّلامَ بينَكم»[٣].

٢ـ «إذا دخَلتُم بيوتكم فسَلِّموا على أهلِها، وإذا طَعِمتُم فاذكُروا اسمَ الله، وإذا سَلَّم أحدُكم حينَ يَدخُلُ بيتَه وذَكَر اسمَ الله على طعامِه يقولُ الشّيطانُ لأصحابِه: لا مَبِيتَ لكم ولا عشاءَ، وإذا لم يُسلِّمْ أحدُكم ولم يَذكُر اسمَ اللهِ على

---

(١) «عن بريدة رضي الله عنه، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعلّمهم إذا خرجوا إلى المقابر ـ كان قائلهم يقول: السّلام عليكم أهل الدّيار من المؤمنين والمسلمين وإنّا إن شاء الله بكم لاحقون ـ نسأل الله لنا ولكم العافية». ابن ماجه، كتاب الجنائز، باب ٣٦ برقم ١٥٤٧.

(٢) تفسير القرطبي، سورة الإخلاص.

(٣) الترمذي، أبواب الاستئذان، باب ١ برقم ٢٦٨٨. والحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه.

طعامِه يقولُ الشّيطانُ لأصحابِه: أدركتُم المَبِيتَ والعشاءَ»[١].

٣ـ «مَن سرَّه أن لا يَجِدَ الشّيطانُ عندَه طعامًا ولا مَقِيلًا ولا مَبِيتًا فلْيُسلِّمْ إذا دَخَل بيتَه ولْيُسمِّ على طعامِه»[٢].

من الذين لا يجوز إلقاء السلام عليهم؟

فيما يلي ذكْرٌ لأولئك الذين لا يجوزُ إلقاءُ السَّلام عليهم، وهمُ المشغولونَ:

ـ بالصَّلاةِ

ـ والخُطبةِ

ـ والأذانِ

ـ والإقامة

ـ وتلاوةِ القرآن

ـ ومُدارَسةِ العِلم الشَّرعيِّ

ـ ووَعْظِ الناس

ـ وسَماع الوَعْظ

ـ ورَفْع الحاجة

وإذا ألقَى عليهم السَّلامَ أحدٌ لم يَلزَمْهم ردُّ السَّلام عليه.

رَدُّ السَّلام:

إلقاءُ السَّلام سُنَّةٌ، وردُّه فَرْض، وينبغي أن يكونَ ردُّ السَّلام بصوتٍ واضح

---

(١) كنز العمال، ١٥: ٣٩٩ برقم ٤١٥٤٥، والحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) كنز العمال، ١٥: ٣٩٩ برقم ٤١٥٤٦، والحديث عن سلمان رضي الله عنه.

وبأسلوبٍ مفهوم، بما يؤكِّد لمَن ألقَى السَّلامَ أنّ سلامَه قد تمَّ الرّدُّ عليه، فلا ينبغي أن نَرُدَّ السَّلام في أنفسِنا، فَيفهَمُ مَن ألقَى السَّلامَ أنّ سلامَه لم يتِمَّ الردُّ عليه.

كما أنّ ردَّ السَّلام يجبُ أن يكونَ بأفضَل الأساليبِ، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ [النساء: ٨٦]، وهذا يعني: أنه لو قال أحدٌ: السَّلامُ عليكم، ينبغي أن يكونَ ردُّه: وعليكمُ السَّلامُ ورحمةُ الله، فإذا قال أحدٌ: السَّلامُ عليكم ورحمةُ الله، فيكونُ ردُّه: وعليكُم السَّلام ورحمةُ الله وبركاتُه، وقد قال سيِّدُنا عبدُ الله بن عَبّاس رضيَ اللهُ عنهما في تفسيرِ هذه الآية: «ورُدُّوها مِثلَ ما سُلِّم عليكم على غيرِ أهلِ دينِكم»[١].

ردُّ السَّلام المكتوبِ في الخطاب

ينبغي أن نَرُدَّ السَّلامَ المكتوبَ في الخطابِ حينَ قراءتِه، فمن الممكنِ أن يأتيَ الموتُ قبلَ أن يَكتُبَ المرسَلُ إليه الردَّ على المرسِل، ويبقى هذا الفَرْضُ دَيْنًا في عُنقِه.

الابتسامُ عندَ اللِّقاء

ينبغي أن تَظهَرَ البسمةُ على شَفَتَيْ مَن يُلقي السَّلامَ ومن يَرُدُّ عليه، وأن تبدوَ الفرحةُ على وَجْهَيْهما، إذْ إنَّ ذلك يزيدُ في الاحترام بينَهما، ويَغفِرُ اللهُ لهما ذنوبَهما، مثلَما جاء في الحديث، **عن أبي ذرٍّ رضيَ اللهُ عنه، قال: قال لي النَّبيُّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: «لا تَحْقِرَنَّ من المعروفِ شيئًا، ولو أنْ تلقَى أخاك بوَجْهٍ طَلْقٍ»**[٢]، ووَرَد أيضًا: **عن أبي ذرٍّ رضيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم:**

---

(١) تفسير تنوير المقياس، سورة النساء (٣): الآية ٨٦.

(٢) مسلم، كتاب البر، باب ٤٣ برقم ٦٦٩٠.

«تبسُّمُك في وَجْهِ أخيك لكَ صَدَقةٌ»[١]، وكذلك: **عن معاذِ بن جَبَلٍ رضيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: «والصَّدَقةُ تُطفئُ الخطيئةَ كما يُطفئُ الماءُ النّارَ»**[٢].

آداب السلام

قال النبيُّ ﷺ:

١ـ عن أبي أُمامةَ رضي الله عنه، أنّ رسولَ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم قال: «مَن بدَأَ بالسَّلام فهو أَولى بالله عزَّ وجلَّ ورسولِه صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم»[٣].

٢ـ عن أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه، عن النّبيِّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم، قال: «يُسلِّمُ الرّاكبُ على الماشي، والماشي على القاعد، والقليلُ على الكثير، ويُسلِّمُ الصَّغيرُ على الكبير»[٤].

٣ـ عن أنسٍ رضيَ اللهُ عنه، قال: قال لي رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: «يا بُنَيَّ! إذا دَخَلتَ على أهلِك فسَلِّمْ يكنْ بركةً عليكَ وعلى أهلِ بيتِك»[٥].

٤ـ عن عِمرانَ بن حُصَيْنٍ رضيَ اللهُ عنه: أنّ رجُلًا جاء إلى النّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم، فقال: السّلامُ عليكم، [قال]: فقال النّبيُّ صلى الله عليه وآلِه وسلَّم: «عشْرٌ»، ثمّ جاء آخَرُ فقال: السّلامُ عليكم ورحمةُ الله، فقال النّبيُّ صلَى اللهُ

---

(١) الترمذي، أبواب البر، باب ٣٦ برقم ١٩٥٦.

(٢) الترمذي، أبواب الإيمان، باب ٨ برقم ٢٦١٦.

(٣) مسند أحمد، ٥: ٢٥٤.

(٤) الترمذي، أبواب الاستئذان، باب ١٤ برقم ٣٧٠٣.

(٥) جامع الترمذي، أبواب الاستئذان، باب ١٠ برقم ٢٦٩٨.

عليه وآلِه وسلم: «عشرونَ»، ثمّ جاء آخَرُ فقال: السّلامُ عليكُم ورحمةُ الله وبركاتُه، فقال النّبيُّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: ثلاثونَ»(١).

٥ـ عن أُسامةَ رضيَ اللهُ عنه، أنّ النّبيَّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم مَرَّ على مجلسٍ فيه أخلاطٌ من المسلمينَ والمشركينَ عَبَدَةِ الأوثانِ واليهودِ، فسَلَّم عليهم النّبيُّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلم(٢).

ويُعلَمُ من هذا أنه إذا اجتَمعَ المسلمُ وغيرُ المسلم في مجلسٍ واحد، فيجوزُ للمسلم أن يُلقيَ السلامَ على المجلسِ كلِّه بما فيه غيرُ المسلم، أمّا إذا كان مَن في المجلسِ من غيرِ المسلمينَ فقطْ فينبغي إظهارُ المودَّةِ وحُسنِ القولِ بقول «Good Morning».

الدُّعاءُ والسَّلامُ في الجنَّة

قال اللهُ تعالى: ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس: ١٠]. فإن كنتَ تريدُ تصوُّرَ الصُّورةِ التي رُسمت في هذه الآيةِ لدعاءِ أهل الجنَّة في هذه الدُّنيا فتأمَّلْ في الصَّلاة، حيثُ تبدَأُ بـ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ ﴾، وتنتهي بـ«السَّلامُ عليكم»، والعبدُ المؤمنُ حين ينهَضُ بعدَ فراغِه من الصَّلاة فإنه يشكُرُ اللهَ تعالى الذي وفَّقه إلى أداءِ الصَّلاةِ قائلًا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

سَلامُ الملائكة

لقد كان أولَ مَن سَلَّم عليهم سيِّدُنا آدمَ عليه السَّلامُ هم الملائكةُ، ولهذا فإنَّنا عندما نُسلِّمُ على أحدٍ، علينا أن يكونَ في نيَّتِنا أولئك الملائكةُ أيضًا، الذين يَكتُبونَ

(١) جامع الترمذي، أبواب الاستئذان، باب ٢ برقم ٢٦٨٩.

(٢) رياض الصالحين، باب تحريم ابتدائنا الكافر بالسلام، ٢٩٠.

حسَناتِه وسيِّئاتِه، حتّى يَرُدُّوا هم أيضًا السَّلامَ علينا، ونستفيدُ نحن من سلامِهم الطَّاهر، كما ينبغي للإمام والمأموم حينَ السَّلام ـ خروجًا من صلاةِ الجماعة ـ أن يُسلِّموا ـ بالإضافة إلى المصَلِّينَ على اليمينِ والشِّمال ـ وفي نيَّتِهم الملائكةُ المكلَّفونَ على اليمينِ وعلى اليَسار، فإذا كان الشَّخصُ يصلِّي فردًا فإنّه يُسلِّمُ مرَّتَيْنِ فقط، وفي نيَّتِه أيضًا الملائكةُ المكلَّفونَ على يمينِه وشمالِه[1]، إذْ ماذا سيقولُ هؤلاءِ الملائكةُ المحيطونَ بنا عنّا إذا لم نُلقِ عليهم السَّلامَ، سيقولونَ: إنّنا نعيشُ مَع هذا المسلم منذُ خمسينَ أو ستِّينَ عامًا، لكنه لم يُسلِّمْ علينا مرّةً، صحيحٌ أنّ الملائكةَ لا يَظهَرونَ لنا، ولكنَّنا نُسلِّمُ على أهلِ القبورِ وهم لا يَظهَرونَ لنا أيضًا، ثم إنّ السَّلامَ على الملائكةِ سيَذُكِّرنا أنّ هؤلاءِ الذين هم بمثابةِ كاميراتِ المراقبة منَ اللهِ تعالى معنا دائمًا، وهم يُسجِّلونَ فيلمًا عن حركاتِنا وسكَناتِنا للعَرْض في ميدانِ الحَشْر، ولهذا علينا أن نُفكِّرَ مرّاتٍ عديدةً قبْلَ ارتكابِ أيِّ خطأ؛ لأنه لا يمكنُ لأحدٍ أن يختفيَ بعيدًا عن عيونِ كاميراتِ الملائكة.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾

٩٨ـ إنّ يومَ القيامةِ والحساب فيه ليس مجرَّدَ عقيدةٍ نعتقدُها، وإنّما هو بمثابةِ المُراقبِ المتواجِدِ دائمًا في ذِهن الإنسانِ وضميرِه، وفي ظاهرِه وباطنِه، وهو الذي يُنبِّهُه دائمًا كلَّما واتاهُ تفكيرٌ خاطئٌ أو أقْدمَ على خطوةٍ سيِّئة، بأنّ من الممكن أنْ يَتوارَى تقصيرُكَ وخطأك هذا عن عيونِ الناس، لكنْ لن يُمكنَك النَّجاةُ من عقابِ الآخرة، وتسعونَ بالمائة من جرائم الدُّنيا يرتكبُها النّاسُ على أملِ أن يُفلتوا من قَبْضةِ

---

(١) «إن كان إمامًا ينوي بضمير الخطاب (في السلام) المصلين من الإنس والجن والملائكة، وإن كان مقتديًا ينوي إمامه المصلين، وإن كان منفردًا ينوي الملائكة الحفظة»: الفقه على المذاهب الأربعة، ١: ٢٦٦.

القانون، أو أنّهم سيتدارَكونَ هذا بالرِّشوةِ أو بالوساطة، ولكنْ حين يتيقَّنُ المجرمُ أنه سيتمُّ الإمساكُ به، فإنّ تسعينَ بالمائة من الجرائم سيختفي من تلقاءِ نفسِه، ولقد تطوَّر عالَمُ الجريمة بنفسِ القَدْرِ الذي تطوَّر به العِلمُ والتكنولوجيا، بحيثُ أنّ التقنيةَ الحديثةَ فَشِلت في القضاءِ على الجريمة، ومن هنا فإن العالَمَ اليومَ في حاجةٍ ماسَّةٍ إلى عقيدةِ الآخِرة، والتي تجلسُ كالحارسِ ليس على ظاهرِ الإنسان فقط، وإنّما على عَقْلِه وضميرِه أيضًا، وتمنَعُه العقوبةُ الشّديدةُ في الآخِرة منَ ارتكابِ الجرائم.

۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾

﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ ﴾

٩٩ـ يَنقُلُ الإمامُ ابنُ جَريرٍ في تفسيرِ هذه الآية، قولًا فَحواهُ: أنّ قومًا **«خَرَجوا من مكةَ حتى أتَوا المدينةَ يزعُمونَ أنّهم مهاجِرون، ثم ارتَدُّوا بعدَ ذلك، فاستَأْذَنوا النبيِّ صلّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم إلى مكةَ لِيأْتُوا ببضائعَ لهم يتَّجِرونَ فيها، فاختَلفَ فيهم المؤمنون، فقائلٌ يقول: هم منافقون، وقائلٌ يقول: هم مؤمنون، فبيَّنَ اللهُ نفاقَهم، فأمَرَ بقتالِهم»**[1].

---

(١) تفسير جامع البيان لابن جرير الطبري.

يعني: أنّ اللهَ تعالى أعلَنَ ضلالَهم بسببِ أعمالِهم وعقائدِهم الكُفْريَّة، وأنه لم يَعُدْ هناك إمكانٌ لإصلاحِهم، فقد تعمَّقوا في كُفرِهم وتمادَوْا فيه بحيثُ أنّهم يحاولونَ قُصارى جُهدِهم ليَجعلوكم كفَّارًا، ولذا لا تُصادقوهم، وإنْ لم يؤمنوا مخلِصينَ، ولم يقتنِعوا بالهجرةِ إلى المدينةِ المنوَّرة؛ (لأنّ الهجرةَ قد فُرِضت قبْلَ فَتْح مكّةَ على من يستطيعُها)، وأخَذوا في الانضمام إلى أعدائكم الذين يحاربونكم، فلا تسمَحوا لهم بالذَّهاب، وحيثُما وجَدتُّموهم اعتَقِلوهم واقتُلوهم، وإلّا فإنّ هؤلاءِ سينضمُّونَ إلى أعدائكم وسيقتُلونكم، أمّا إذا لَجَأوا إلى قبيلةٍ من القبائل لكم معهم معاهدةُ صُلْحٍ وسَلام، فلا تتعرَّضوا لهم، وإن جاءوكم وأكَّدوا لكم أنّهم لن يحاربوكم، فلا تتعرَّضوا لهم أيضًا، بمعنى: أنّكم تقاتلونَهم إذا قاتَلوكم، فإذا رَجَعوا عن الحربِ ومالوا إلى الصُّلح، فعليكم أن تكُفُّوا أيديَكم عنهم، وأن تُصالحوهم.

﴿فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا﴾

١٠٠ ـ أوضَحَ اللهُ تعالى ثانيةً أنهم إن لم يحاربوكم، ومَدُّوا يدَ السَّلَم إليكم، فلا يُسمَحُ للمسلمين بقتالِهم.

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ﴾

١٠١ ـ كان هناك بعضُ المنافقينَ الذين يَدَّعُونَ ـ في الظاهر ـ أنّهم أهلُ سَلام، ولكنْ إذا ما حرَّضَتْهم قبيلةٌ على قتالِ المسلمينَ فإنّهم ينضمُّونَ إلى جيشِ الكفَّار، ولذا، فإنه إذا لم يُقدِّمْ هؤلاء الكفَّارُ الدَّليلَ العمَليَّ على أنّهم أهلُ سَلام فلا تُبالوا بهم، واقتُلوهم حيثُ وجدتُّموهم.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٍ أَن يَقۡتُلَ مُؤۡمِنًا إِلَّا خَطَـٔٗاۚ وَمَن قَتَلَ مُؤۡمِنًا خَطَـٔٗا فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ وَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ فَإِن كَانَ مِن قَوۡمٍ عَدُوّٖ لَّكُمۡ

وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾

١٠٢ـ لا يليقُ بالمؤمنِ أن يقتُلَ مؤمنًا آخرَ، ولكنْ إذا حدَثَ ذلك على سبيل الخطأ، بمعنى: أنه كان يَقصِدُ إصابةَ حيَوانٍ مثلًا فأصابَ إنسانًا، فإنّ هذا يُعَدُّ قتْلَ خطأٍ؛ لأنه وَقَع من الفاعل دونَ قَصْدٍ منه أو إرادة، وقد أخبرَتْنا هذه الآيةُ الكريمةُ بصُوَرٍ ثلاثٍ لقَتْل الخطأِ وأحكامِها:

١ـ إذا كان المقتولُ مسلمًا، فإنّ القاتلَ يُعتِقُ رقَبةً باعتبارِ ذلك كفَّارةً، فيُحرِّرُ عبدًا مسلمًا أو أَمَةً مسلمةً من الرِّقّ، ويؤدِّي الدِّيةَ إلى وَرَثةِ المقتول باعتبارِ ذلك حقَّ العباد، وهذه الدِّيةُ عبارةٌ عن مائةِ ناقةٍ أو قيمتِها، ومن أسبابِ أداء الدِّية أيضًا أنها تطييبٌ لخاطرِ وَرَثةِ القتيل، وتهدئةٌ لرغبةِ الانتقام لدَيْهم، ومعَ ذلك، إذا عَفَا وَرَثةُ المقتولِ عن الدِّية فلهم ذلك، أمّا الكفَّارةُ فلا يمكنُ العفْوُ عنها.

ومالُ الدِّيةُ يقسَّمُ بيْنَ وَرَثةِ المقتول مثلَ الميراث، وإذا لم يكنْ أحدُ الوَرَثةِ موجودًا فإنّ بيتَ المالِ ينوبُ عنه.

٢ـ إذا كان المقتولُ مسلمًا، لكنَّه ينتمي إلى قبيلةٍ كافرة تحاربُ المسلمين، في هذه الحالة فإنّ القاتلَ يُعتِقَ عبدًا أو أَمَةً مسلمةً فقطْ، ولا تَلزَمُه الدِّيةُ؛ لأنّ وَرَثةَ المقتول كفَّارٌ حَرْبيُّون، فإذا أُدِّيت الدِّيةُ إليهم فيستعملونَها ضدَّ المسلمين، وهو أمرٌ لا يَقبَلُه المنطِقُ أبدًا.

٣ـ إذا كان المقتولُ (مسلمًا أم كافرًا) ينتمي إلى قوم من الكفَّارِ الذين تربِطُهم معَكم معاهدةُ صُلح، ففي هذه الحالةِ يُعتِقُ القاتلُ عبدًا مسلمًا أو أَمَةً مسلمةً، ويؤدِّي الدِّيةَ إلى وَرَثةِ المقتول أيضًا؛ لأنّ المعاهَدَ كالذِّمّيِّ، ومكانةُ الحفاظِ على نفسِ ومالِ الذِّمِّيِّ في نفسِ مكانةِ الحفاظِ على نفسِ ومالِ المسلم، والذِّمِّيُّونَ هم: رعايا الدَّولة الإسلاميَّة من غيرِ المسلمين، وديَتُهم كمِثل ديةِ المسلم، أي: مائةُ ناقة، ولهذا فإنّ حقَّ الذِّمِّيِّ والمعاهَدِ الكافرِ يساوي حقَّ المسلم باعتبارِ الكفَّارة والدِّية[1]. وفي هذه الحالة تُعطى دِيةُ الكافرِ المقتولِ إلى وَرَثته؛ لأنّ هذا المالَ لن يُستعملَ ضدَّ المسلمين.

وإذا لم يستطعْ أحدٌ تحريرَ عبدٍ، كأنْ يكونَ في زمنِ مِثلِ زمنِنا انتهى فيه الرِّقُّ، فإنه حينَئذٍ يصومُ شهرَيْنِ متتابعَيْنِ، لأنّ هذه هي الطريقةُ المقرَّرةُ من قِبَلِ الله تعالى لقَبولِ توبتهِ.

﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا ﴾

١٠٣ـ إنّ مقدارَ العقابِ الذي قرَّرتْه هذه الآيةُ لمنَ قَتَل مؤمنًا متعمِّدًا (أي:

---

(١) «وإن كان من قوم كفرة معاهدين أو أهل الذمة فحكمه حكم المسلمين فى وجوب الكفارة والدية». تفسير البيضاوي.

الخلودِ في جهنَّم، غَضَبِ الله عليه، واستحقاقِه للعنةِ الله وعذابِه العظيم) لم يَرِدْ أو يجتمعْ مِثلُه في وقتٍ واحدٍ لغيرِه من الذُّنوب، لكنّ هذا الوعيدَ خاصٌّ بأولئك الذين يُجيزونَ قَتْلَ المسلم، ويموتونَ دونَ توبةٍ؛ لأنّ اللهَ تعالى يَقبَلُ بفَضْلِه وكرَمِه توبة من يتوبُ مُخلِصًا وصادقًا من قلبِه، وقد قال النبيُّ ﷺ موضِّحًا وَحْشيَّة هذا الجُرم من روايةِ سيِّدِنا عبدِ الله بن عَمْرٍو رضيَ اللهُ عنهما: «**والّذي نفسي بيدِه! لَقتْلُ مؤمنٍ أعظَمُ عندَ الله من زوالِ الدّنيا**»[1]، كما أنه ﷺ قال في روايةٍ لعبدِ الله بن عَمْرٍو أيضًا: «**لَزوالُ الدُّنيا أهوَنُ على الله من قَتْل رجلٍ مسلمٍ**»[2].

لقد قرَّر الإسلامُ أنّ قتْلَ إنسانٍ (سواءٌ كان مسلمًا أم كافرًا) بمثابةِ قتْلٍ للإنسانيّة كلِّها: ﴿مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾ [المائدة: ٣٢]، لكنّ قتْلَ المسلم بيدِ المسلم أعظَمُ من ذلك ذنبًا، فهو ليس قتْلًا لنفسٍ فقطْ، وإنّما قتْلٌ للأُخوّةِ الإسلاميَّةِ كلِّها، وعقابُه في الآخِرة مرَدُّه إلى الله تعالى، أمّا عقابُه في الدُّنيا فهو القِصَاص. لمزيدٍ من التفصيل راجِع سُورةَ البقرة، آية رقم (١٧٨).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ ﴾

١٠٤ـ ذاتَ مرَّةٍ كانت جماعةٌ من الصَّحابةِ الكرام رضيَ اللهُ عنهم ذاهبةً إلى الجهاد، وكان هناك رجلٌ يرعَى أغنامَه في أرضِ الكفَّارِ الحَرْبيِّين، فسَلَّم هذا الراعي على الصَّحابةِ الكرام رضيَ اللهُ عنهم، وهو ما يُعَدُّ إظهارًا لإسلامِه من الناحيةِ العَمليَّة! لكنّ الصَّحابةِ الكرامَ اعتَقَدوا أنه يُظهِرُ إسلامَه لمجرَّدِ إنقاذِ نفسِه ومالِه، ولهذا قَتَله

---

(١) النسائي، كتاب تحريم الدم، باب ٢ برقم ٣٩٩١.

(٢) الترمذي، أبواب الديات، باب ٧ برقم ١٣٩٥.

الصَّحابةُ، واقتادوا أغنامَه غنيمةً وجاءوا إلى حضرةِ رسولِ الله ﷺ، فنزلت هذه الآيةُ[1]، أي: أنه إذا أظهَرَ شخصٌ إسلامَه فلا ترُدُّوا إسلامَه هذا لتحصُلوا على الغنيمةِ منه، وعليكم أن تتحقَّقوا جيِّدًا قبْلَ قَتْلِه؛ لأنّ خزائنَ الله عامرةٌ بما سوى مالِ الغنائم من النِّعَم التي لا تُعَدُّ ولا تُحصَى، ويمكنُ الحصولُ على هذا كلِّه بالطُّرقِ المشروعة.

﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾

١٠٥ـ أي: أنه كان هناك زمنٌ كنتُم أنتم أيضًا مضْطَرِّينَ لإخفاءِ إيمانِكم مثلَ هذا الراعي، ولم يكنْ لدَيْكم أيُّ دليل على إيمانِكم سوى اعترافِكم بألسنتِكم ليس إلّا، والآنَ فإنّ اللهَ قد مَنَّ عليكم بدولةٍ إسلاميّةٍ حُرَّة، وأصبحتُم لا تخافونَ أحدًا، وبالتالي عليكم أن تتذكَّروا حالتكم الأُولى، ولا تَظُنُّوا بأحدٍ كفرًا بغيرِ تدقيقٍ أو تمحيص.

﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾

١٠٦ـ المسلمُ الذي لا يتمكَّنُ من المشاركةِ في الجهادِ، لمرضٍ أو لأيِّ سببٍ آخَرَ خارجٍ عن إرادتِه، لا تتساوَى درجتُه معَ المجاهدِينَ، ولكنْ لأنّ نيَّتَه سليمةٌ لا فتورَ فيها، ولأنه لم يستطع المشاركةَ في الجهادِ بسببِ العُذرِ فقطْ، لهذا فإنّ اللهَ تعالى سيُثيبُه على حُسن نيَّتِهِ أيضًا، وهذا وَعدٌ من الله تعالى، لكنّ المسلمَ الذي يشاركُ عمليًّا في الجهادِ فإنّ درجاتِه عاليةٌ ومقامَه رفيعٌ؛ لأنّ النبيَّ ﷺ قال في روايةٍ لأبي هريرةَ رضي اللهُ عنه: «**إنّ في الجنّةِ مائةَ درجةٍ أعَدَّها اللهُ للمجاهدينَ في**

---

(١) «عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: مر رجل من بني سُليم بنفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم يرعى غنمًا له، فسلّم عليهم، فقالوا لا يسلم علينا إلا ليتعوذ منا، فعمدوا إليه فقتلوه وأتوا بغنمه النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فنزلت هذه الآية». تفسير ابن كثير.

سَبيل الله، ما بينَ الدَّرجتَيْنِ كما بيْنَ السّماءِ والأرض»(١).

إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾

١٠٧ـ حين هاجَرَ النبيُّ ﷺ من مكّةَ إلى المدينة، كانت الهجرةُ من مكّةَ إلى المدينةِ فَرْضًا على المسلمينَ أيضًا؛ لأنّ العملَ بالإسلام في مكّةَ أصبح من ناحيةٍ أمرًا صعبًا في ظلِّ مظالمِ الكفّارِ للمسلمين، ومن ناحيةٍ أخرى كان من الضروريِّ جمْعُ قوّةِ المسلمين في مكانٍ واحد في المدينة المنوَّرة، حتى يُمكنَهم مواجهةُ اعتداءاتِ الكفّار.

لكنّ المسلمينَ الذين لم يتقبَّلوا ـ في هذه الظروفِ الصَّعبة ـ فكرةُ تَرْكِ أهليهم وأقاربِهم وأموالِهم ومُمتلكاتِهم، وتجنَّبوا ـ عَمْدًا ـ القيامَ بفَرْض الهجرةِ هذا، أنزَلَ اللهُ تعالى في ذَمِّهم هذه الآيةَ، بمعنى: أن أولئك النّاسَ قد ظَلَموا أنفسَهم، وحين تسألُهم الملائكةُ عندَ الموتِ: لماذا لم تعمَلوا بفرائض الإسلام؟ سوفَ يعتذرونَ بحِجَجٍ واهيةٍ قائلين: كنا مضْطَرِّين، ولم نتمكَّنْ من العمل بفرائضِ الإسلام خوفًا من الكفَّار، وعندَئذٍ ستقولُ لهم الملائكة: ألم تكنْ أرضُ الله واسعةً

---

(١) البخاري، كتاب الجهاد، باب ٤ برقم ٢٧٩٠.

فتتركوا وطَنكم وتجِدوا مكانًا آخَرَ حيث تتمكَّنونَ من العمَل بالإسلام بحرِّيةٍ تامَّة؟ وحينئذٍ لن يستطيعوا جوابًا، وهؤلاء هم الذين مأْواهم جهنَّم.

ويُعلَمُ من هذا أنّ الهجرةَ من البلاد التي يَصعُبُ العملُ فيها بفرائض الإسلام فَرْضٌ.

﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ﴾

١٠٨ـ المرادُ بهم أيضًا أولئك المسلمونَ الذين كانوا يعيشونَ معَ الكفّار، وكانوا يريدونَ الهجرةَ، لكنَّهم كانوا ضعفاءَ ومُضْطَرِّينَ إلى درجةٍ أنهم لم يكونوا قادرينَ مطلقًا على الهجرة، وهؤلاء هم الذين سيَعفُو اللهُ عنهم بسبب عَجْزِهم.

﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾

١٠٩ـ إنّ التخلِّيَ عن الوطنِ والمُمتَلكاتِ أمرٌ ليس سهلًا، لكنّ السُّعَداءَ الذين يهاجِرونَ إرضاءً لله تعالى ورسوله ﷺ، هم الذين سيَنالونَ الأَجْرَ العظيمَ في الدُّنيا والآخِرة، ومَن يُتوفَّى أثناءَ هجرتِه وقبْلَ أن يصلَ إلى منزلِه المقصود، فإنه أيضًا سينالُ أجْرَ الهجرة وثوابَها يقينًا.

والمعنى الحَرْفيُّ للهجرة هو: «تَرْكُ شيءٍ ما»، والمرادُ منه في الإسلام: أن يَترُكَ المسلمُ بلادًا لا تتاحُ له فيها حرِّيةُ العمل بأحكام الإسلام، ولها في الإسلام فضيلةٌ كبرى، وقد قال النبيُّ ﷺ: **«وأنّ الهجرةَ تَهدِمُ ماكان قبْلَها»**[1].

---

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب ٥٤ برقم ٣٢١.

لمحة فكرية

الهدفُ من الهجرةِ هو: العَملُ بأحكام الإسلام، فإذا كان هناك أحدٌ لا يعملُ بأحكام الإسلام رَغْمَ كونِه يعيشُ في بلدٍ مسلم، فإنّ عليه أن يُراجعَ إسلامَه؛ لأنّ المهاجرَ الأصليَّ والأفضَلَ هو الذي يَهجُرُ الذنوبَ والسِّيئات، وقد سُئل النبيّ ﷺ: **أيُّ الهجرة أفضَلُ؟ قال: «أنْ تهجُرَ ما كَرِه ربُّك»**(١).

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا (١٠١) وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٠٢) فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۚ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا (١٠٣) وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٠٤)﴾

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

١١٠ـ يعني: يجوزُ قَصرُ الصَّلاةِ في السَّفَر، ورَغْمَ أنّ القَصْرَ في الآيةِ مشروطٌ بالخَوْف، لكنّ هذا باعتبارِ غالبِ الأحوال؛ لأنّ العربَ جميعًا في ذلك الوقتِ كانوا في حربٍ معَ المسلمين، ولم يكنْ هناك سَفَرٌ يَخلو من الأخطار، ولا يعني هذا

(١) مشكاة المصابيح، كتاب الإيمان، الفصل الثالث برقم ٤٦.

الشَّرطُ أنّ السَّفَرَ الذي يَخْلو من الخوفِ لا تُقصَرُ فيه الصَّلاة؛ لأنه بعدَ ذلك، وحينَ أصبحتْ بعضُ المناطق آمِنةً، قَصَر النبيُّ ﷺ صلاتَه في جميع أسفارِه، وبسببِ ذلك تَراءى لأذهانِ بعض الصَّحابةِ الكرام إشكالٌ، وهو أنّ الظُّروفَ الآنَ آمِنة، فلماذا القَصرُ إذًا؟ فقال لهم النبيُّ ﷺ: «**صَدَقةٌ تصدَّقَ اللهُ بها عليكم، فاقْبَلوا صَدَقتَه**»[1]، كما أنه سُئل عبدُ الله بن عُمرَ رضيَ الله عنهما: «**إنّا نَجِدُ صلاةَ الحَضَر وصلاةَ الخَوْفِ في القرآنِ، ولا نَجدُ صلاةَ السَّفَر؟ فقال عبدُ الله: إنّ اللهَ بعَثَ إلينا محمّدًا صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم ولا نَعلَمُ شيئًا، فإنّما نفعَلُ كما رأَيْنا محمّدًا صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم يفعَلُ**»[2].

والمرادُ بصلاة القَصْر: أن تؤدَّى الصَّلواتُ ذواتُ الأربعِ ركعاتٍ من الفرائض ركعَتْينِ بَدلًا من أربع، أي: الظُّهرُ والعصرُ والعشاء، وقد شُرِعت صَلاةُ القَصْرِ في السَّنة الرابعةِ للهجرة، وقَصْرُ الصَّلواتِ في السَّفَر واجبٌ، وعدَمُ القَصْر في السَّفَر مكروهٌ.

مسألة: في مسافةِ السَّفَرِ الذي تُقصَرُ فيه الصَّلاةُ اختلافٌ، والفقهاءُ القُدامى على أنها ٩٨ كيلومترًا، والمرادُ منه السَّفَرُ هذه المسافةَ ذهابًا، ولا تندرجُ تحتَها العودةُ[3].

مسألة: الشَّخصُ الذي يَنوي مِثْلَ هذا السَّفَرِ مأمورٌ بأنْ يبدَأَ قَصْرَ الصَّلاةِ حين يَخرُجُ من منطقةِ العُمران في المدينةِ التي يقيمُ فيها، حتّى وإن كان سَفَرُه في هذه الحالةِ لم يتَعَدَّ عدَّةَ أميال، وهكذا الحالُ في العَوْدة، يظَلُّ يَقصُرُ الصَّلاةَ ما لم يدخُلْ إلى منطقةِ العُمران في بلدِه التي يقيمُ بها.

---

(١) مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب ١ برقم ١٥٧٣.

(٢) ابن ماجه، أبواب إقامة الصلاة، باب ٧٣ برقم ١٠٦٦.

(٣) إمداد الفقه.

مسألة: طالما لم يَنْوِ المسافرُ القيامَ في مكانٍ ما لخمسةَ عشَرَ يومًا أو أكثرَ فإنّه يَظَلُّ في حُكم المسافر، فإذا ما نَوَى القيامَ خمسةَ عشَرَ يومًا فقد أصبحَ مُقيمًا، وعليه أن يؤدِّيَ الصَّلواتِ ذاتَ الرَّكعاتِ الأربع كاملةً.

مسألة: «**لا قَصْرَ في السُّنَن، وبعضُهم جَوَّزوا للمسافر تَرْكَ السُّنَن، والمختارُ أن يأتيَ بها إن كان في قرارٍ ونزولٍ وأَمْن، وإن كان سائرًا أو خائفًا فلا يأتي إلّا سُنّةَ الفجرِ والمغرب**»[١].

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾

١١١ـ وصلاةُ الخَوْفِ ـ باختصارٍ ـ هي: أن يَقسِمَ الإمامُ الجيشَ إلى قسمَيْنِ، قسم يُصلِّي ركعةً ويذهَبُ لمواجهةِ العدوِّ، ثم يأتي القسمُ الثاني الذي كان يقفُ في مواجهةِ العدوِّ ويُصلِّي مع الإمام الركعةَ الثانيةَ، ثم يُسلِّمُ الإمامُ فقطْ، ويعودُ القسمُ الثاني ليُصلِّيَ الركعةَ الثانيةَ بغيرِ قراءة؛ (لأنّ هذا القسَم قد لَحِقَ بالصَّلاة، أي: شارك في الصَّلاة في الرَّكعةِ الأُولى معَ الإمام)، ثم يُسلِّمُ؛ ويذهبُ لمواجهةِ العدو، ثم يُصلِّي القسمُ الثاني الركعةَ الباقيةَ في مكانِه ويُسلِّم؛ (لأنّ هذا القسَم مسبوقٌ، يعني: أنه لم يشارِكْ في الركعةِ الأُولى معَ الإمام). ويبقَى القِسمانِ مُسلَّحَيْنِ بأسلحتِهما أثناءَ صلاةِ الخوف، وإلّا فإنّ الكفَّارَ سيَستغِلُّونَ هذه الفُرصةَ ويحمِلونَ على المسلمينَ فجأةً، وإذا أَنْزَلَ أحدُهم سلاحَه لمرضٍ أو ألم، فعليه أيضًا أن يكونَ مُحتاطًا من الكفَّارِ ومنتبِهًا لهم، وهذا الأمرُ في غاية الأهميَّة، حين

---

(١) الفتاوى العالمجيرية ومراقي الفلاح.

يكونُ الجيشُ كلُّه يصلِّي خلْفَ إمامٍ واحد، وحيثُما لا يكونُ ذلك، والجنودُ يصَلُّونَ وراءَ أئمةٍ عديدينَ منفصِلين، فإنّ الجماعةَ الأُولى تُكمِلُ صلاتَها وتذهبُ لمواجهةِ العدوِّ، وتأتي الجماعةُ الثانيةُ وتصلِّي خلْفَ الإمام الآخَر، مثلما هو الحالُ في الصَّلاةِ حالَ الأمن.

كما أنّ هذا الحُكمَ يَسري عندما يكونُ جيشا الكفَّارِ والمسلمينَ في مواجهةِ بعضِهما على أُهبةِ الاستعدادِ للحرب، أمّا إذا بَدَأَتِ الحربُ فلا داعيَ عندَها لتنظيم صلاةِ الجماعة، وإنّما يُصلِّي النّاسُ حيثُما يوَلُّونَ وجوهَهم، ويمكنُ للراكبِ[1] أن يُصلِّيَ بالإشارة، (ويمكنُ الرُّجوعُ إلى الآية رقم **٢٣٩** من سورة البقرة في هذا الخصوص)، فإنْ لم يَجِدوا الفُرصةَ للصَّلاة بالإشارةِ أيضًا يستطيعونَ تأجيلَها، ثم يؤدُّونَها عندما تُتاحُ الفُرصة، وهذا هو ما حَدَث في غزوةِ الخندق، حينَ أدَّى رسولُ الله ﷺ أربعَ صلواتٍ بعدَها[2].

ويُعلَمُ من هذا أنّ صلاةَ الجماعةِ على قَدْرٍ كبيرٍ من الأهميَّة، بحيثُ لا تُترَكُ حتّى أثناءَ الحروب، ومن المؤكَّدِ أنّ سلاحَ المؤمن هو الصّلاةُ والدُّعاء، واللهُ تعالى يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٣].

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْۖ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾

١١٢ـ جاء الحُكمُ بالبقاءِ مسلَّحينَ في كلِّ مكان، سواءٌ عندَ الخَطَرِ من العدوِّ في المَيْدان أو في الصَّلاة، حتّى لا يَحمِلَ عليكمُ العدوُّ عندَما يَراكم وَضَعتُم

---

(١) الخيالة وسلاح الفرسان والمركبات وما شابهها. المترجم.

(٢) تفسير ضياء القرآن.

أسلحتَكم، فإذا وضَعتُم الأسلحةَ لمرضٍ أو مطرٍ أو ألمٍ فإنّ عليكم أن تُراقبوا تحرُّكاتِ العدوِّ وتنقُّلاتِه بكلِّ حَذَر.

ويَكتُبُ العلّامةُ محمود الألوسيُّ في تفسيرِ هذه الآية قائلًا: «**وانحَدرَ غَوْثُ بن الحارث المُحارِبيُّ من الجَبَل ولم يَشعُرْ به رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم إلّا وهو قائمٌ على رأسِه ومعَه السَّيفُ قد سَلَّه مِن غِمْدِه، فقال: يا محمَّد! من يَعصِمُك منِّي الآن؟ فقال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلم: اللهُ عزَّ وجلَّ؛ ثم قال: اللَّهُمَّ! اكْفِني غَوْثَ بن الحارث بما شئتَ، فانكَبَّ عدوُّ الله تعالى لوَجْهِه، وقام رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم فأخَذَ سيفَه فقال: يا غوثُ! من يمنَعُك منِّي الآنَ؟ فقال: لا أحدَ، قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: أتشهَدُ أنْ لا إلهَ إلّا الله وأنّي عبدُ الله ورسولُه؟ قال: لا، ولكنِّي أعهَدُ إليكَ أنْ لا أُقاتِلَك أبدًا ولا أُعينَ عليكَ عدوًّا، فأعطاهُ رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم سيفَه، فقال له غوثٌ: لَأنتَ خيرٌ منِّي، فقال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: إني أحَقُّ بذلك، فرَجَع غوثٌ إلى أصحابه فقالوا: يا غوثُ! لقد رأيناكَ قائمًا على رأسِه بالسَّيف، فما مَنَعَك منه؟ قال: اللهُ عزَّ وجلَّ، أهوَيْتُ له بالسَّيف لِأضربَه فما أدري مَن لزَجَني بيْنَ كتفيَّ فخَرَرتُ لوجهي وخَرَّ سَيْفي وسَبَقَني إليهِ محمَّدٌ فأخَذَه، وأتمَّ لهم القصة، فآمَنَ بعضُهم**»[1].

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾

١١٣ـ يعني: بعدَ الفراغ من صلاةِ الخَوْفِ، عليكم أن تَذكُروا اللهَ تعالى في أيِّ حال كنتُم، وذلك حتّى تَحُلَّ عليكم بركاتُ ذِكْرِه.

﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾

١١٤ـ إذا انتهتْ حالةُ الخَوْفِ والحربِ فأدُّوا الصَّلاةَ بالطَّريقةِ التي تؤدُّونَها بها في الظُّروفِ العاديَّة.

---

(١) تفسير روح المعاني.

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوۡقُوتًا ﴾

١١٥ـ يعني: أنّ أداءَ كلِّ صلاةٍ في وقتِها فَرْضٌ، ولا يصحُّ جمْعُ صلاتَيْنِ بغيرِ عُذرٍ شرعيٍّ؛ لأنّ هذا يعني أداءَ صلاةٍ على الأقلِّ في غيرِ وقتِها، وهو ما يُنافي هذه الآيةَ. ويُروَى عن سيِّدنا عبدِ الله بن مسعودٍ رضي اللهُ عنه، أنه قال: «**كان رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم يُصلِّي الصّلاةَ لوقتِها إلّا بجَمْعٍ (أي: المُزدَلِفة) وعَرَفاتٍ**»[١]. إّلا أنّ جَمْعَ الظُّهرِ والعصرِ والمغربِ والعشاءِ كلٌّ في وقتِها جائزٌ، وطريقتُه هو: أن يُصلِّيَ الصَّلاةَ الأُولى في آخِرِ وقتِها، ثم يُصلِّيَ الثانيةَ في أولِ وقتِها[٢]، وهذا تأويلٌ للأحاديثِ التي وَرَد فيها الجَمْعُ بينَ الصَّلاتَيْنِ[٣].

﴿ وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَ ﴾

١١٦ـ بعدَ الفراغ من غزوةِ أُحُدٍ أمَرَ النبيُّ ﷺ الصَّحابةَ الكرامَ رضيَ اللهُ عنهم أن يَتعقَّبوا كفَّارَ مكّةَ، حتّى لا يَجرُؤوا على العودةِ لمهاجمةِ المسلمينَ ثانيةً، فشكا بعضُ الصَّحابةِ من أنّهم جُرِحوا بشدَّة، وعليه نَزَلت هذه الآيةُ، بأنْ لا تَتكاسَلوا في تعقُّبِ العدوِّ، فإذا كنتمُ جَرْحى اليومَ فقد حَمَل عليكمُ الكفَّارُ يومَ أحُدٍ من المنفَذِ الجَبَليِّ رَغْمَ أنّهم أيضًا كانوا جَرْحى، وإذا كانوا يتحمَّلونَ هذه الشَّدائدَ من أَجْلِ الباطل، فلماذا تكونونَ أنتم أقلَّ منهم في سبيل رِفعةِ الحقِّ؟ كما أنّ هناك أملًا

---

(١) النسائي، كتاب مناسك الحج، باب ٢٠١ برقم ٣٠١٣.

(٢) «أما الجمع بينهما (أي: بين الظهر والعصر، وبين المغرب والعشاء) في وقتهما، بأن يؤخر الأولى إلى آخر وقتها ويؤدي الثانية في أول وقتها، فذلك جائز». المبسوط للسرخسي، باب مواقيت الصلاة.

(٣) إمداد الفقه، الجمع بين الصلاتين.

في أن يُثيبَكم اللهُ تعالى على هذهِ المعاناة، أي: رضا الله في الدُّنيا ونِعَمَ الجنّةِ في الآخرة، في حينَ أنّ الكفَّارَ محرومونَ من هذا الأمل، وليس أمامَهم سوى الدُّنيا وفوائدِها العارضة، ولهذا عليكم أن تتقدَّموا بكلِّ حماسٍ وقوَّة، ولا تركَنُوا إلى الكَسَل في سَبيل إرضاءِ الله تعالى والحصُول على نِعَمِه الأبديَّةِ الخالدة.

إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾

١١٧ـ تتعلَّقُ هذه الآياتُ بواقعةٍ ما، قام فيها أَحَدُ المنافقينَ ـ ويُدعَى طُعمةَ ـ بنَقْبِ بيتِ سيِّدِنا أبي قَتادةَ رضيَ اللهُ عنه وسَرِقة بعض محتوياتِه، وحين خافَ من أن ينكشفَ سرُّ نَقْبه وسرقتِه وَضَع ما قام بسرقتِه ـ على سَبيل الأمانة ـ عند يهوديٍّ يُدعَى زَيْدًا، ثم اتَّهمه هو بعدَ ذلك بالسَّرقة، فقال اليهوديُّ: أنا لستُ لصًّا، ولقد وَضَع طُعمةُ هذا المتاعَ عندي على سَبيل الأمانة، وحين تأكَّد لقبيلةِ طُعمةَ أنّ المجرمَ ليس اليهوديَّ، وإنّما أخوهم، ذَهَبوا إلى رسولِ الله ﷺ وشَهِدوا زُورًا على براءة طُعمةَ قائلينَ: إنه أمينٌ وصالح، وهو مسلمٌ، ولم يَستخرج المتاعَ المسروقَ من عندِه، ولهذا فإنه صادقٌ واليهوديُّ كاذبٌ.

ورَغْم أنَّ النبيَّ ﷺ يَعلَمُ تمامًا المنافقينَ وتصرُّفاتِهم باعتبارِه نبيًّا، لكنْ كان من الضَّروريِّ من وِجهةِ النظَرِ الإسلاميَّةِ قَبولُ الشَّهاداتِ الظاهريَّة والحُكمُ طِبقًا لها، ولو أنّ النبيَّ ﷺ حَكَم بعِلمِه هو وبما يُخالفُ الشَّهاداتِ الظاهريَّةَ، لَفتَحَ هذا مجالًا أمامَ كلِّ حاكم قادم بعدَه أن يَرفُضَ إذا شاء شهادةَ الشُّهود، ويَحكُمَ من عندِ نفسِه، ولهذا تأسَّست بناءً على الشَّهاداتِ الظاهريَّةِ أسبابٌ تجعَلُ النبيَّ ﷺ يَحكُمُ لطُعمةَ، وعليه نَزَلتْ هذه الآيةُ، وأظْهَرَ اللهُ تعالى الحقيقةَ الأصْليَّةَ على خلافِ الشَّهادةِ الظاهريَّة، ونَسَب هذا القرارَ إلى حُكمِه هو، حتّى لا يأتيَ حاكمٌ بعدَ ذلك ويتَّخذَ مِن حكمِ النبيِّ ﷺ أساسًا ويَحكُمَ تِبْعًا لهواهُ وعلى خلافِ الشَّهاداتِ الظاهريَّة.

ولهذا قال اللهُ تعالى: أنْ يا أيُّها النبيُّ الحَبيب، هؤلاءِ المنافقونَ كذَّابونَ وغيرُ أُمناءَ، فلا تدافعْ عنهم، أي: مثلَما لم تُدافعْ أبدًا قبلَ ذلك عن أيِّ خائن، فلا تدافعْ أبدًا مستقبَلًا عن أيِّ خائن، واحكُمْ بما أرَيْناهُ لك عن طريقِ الوَحْي، وهنا حَكَم النبيُّ ﷺ بإدانةِ طُعمةَ مُرتكِبًا للسَّرقة، لكنَّه هَرَب وفَرَّ من مكّةَ، وذاتَ ليلةٍ كان يَنْقُبُ بيتًا فوقَعَ الجدارُ وهلَكَ طُعمةُ تحتَ أنقاضِه، ولو أنّ النبيَّ ﷺ حَكَم لطُعمَة طِبقًا للشَّهاداتِ الظاهريَّة لَكان حُكمُه صحيحًا أيضًا طِبقًا للمبادئِ الإسلاميَّة، ولَما كان فيه خطأٌ للنبيِّ ﷺ، وفي بعضِ الأحيان تُصدِرُ المحاكمُ أحكامًا بناءً على الشَّهاداتِ الظاهرةِ تخالفُ الحقيقةَ، ولكنْ في ذلك الوقتِ حيث كانتِ المعركةُ على أشُدِّها بيْنَ الكُفرِ والإسلام، لو كان النبيُّ ﷺ قد حَكَم ضدَّ اليهوديِّ بناءً على الشَّهاداتِ الظاهريَّة، لاستغَلَّ الكفَّارُ هذا الأمرَ وفَتَحوا جبهةً جديدةً بإطلاقِ الدِّعاياتِ الكاذبة التي تقولُ: إنّ التعصُّبَ الدِّينيَّ هو الذي يَحكُمُ قراراتِ المسلمين، وللخَلاص من هذا الخَطَر تَدخَّلَ اللهُ تعالى في هذه القضيَّةِ خصوصًا، كما أنه قال بأنِ استغفِرْ لأُولئك المسلمينَ البُسَطاءِ الذين دافَعوا عن طُعمةَ مخدوعينَ بالأَيْمانِ الكاذبةِ التي أقسَمَها المنافقون.

وهناك مفهومٌ آخَرُ لهذه الآياتِ أيضًا، وهو: أنه، رَغْم أنّ الخِطابَ في الظّاهرِ للنبيِّ ﷺ، لكنّ المقصودَ هم أُمّةُ النبيِّ ﷺ؛ لأنه لا يمكنُ أن يُتصوَّرَ في شأنِ النبيِّ ﷺ أن يدافعَ عن غيرِ الأُمناءِ من النّاس[1]، أي: أنّ اللهَ تعالى وَجَّه الخطابَ إلى النبيِّ ﷺ وقَصَدَ تنبيهَ كلِّ حاكم وكلِّ قاضٍ من أُمّتِه بأنْ يَثبُتَ الحاكمُ على القرارِ الذي يطمئنُّ إليه بدرجةِ اليقين، وأن يواصلَ استغفارَ اللهِ تعالى ولا يُدافعَ عن غيرِ الأُمَناء.

﴿ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ ﴾

١١٨ـ كان المنافقونَ يتآمَرونَ باللَّيل من أَجْل إخفاءِ سرقةِ رفيقِهم المُجرم، وعليه جاء التَّنبيهُ لهم بأنَّهم قد يُمكنُهم إخفاءُ جُرمِه عن النَّاس، ولكنْ كيف سيُخفونَه عن اللهِ تعالى؟ كما أنكم تَستميتونَ في الدِّفاع عنه في هذهِ الحياة الدُّنيا، فمن يتجرَّأُ يومَ القيامة على الدِّفاع ـ في حَضْرةِ الله تعالى ـ عن مُجرم؟ والآيةُ بمثابةِ اللَّمحةِ الفِكْريَّة لكلِّ مسلم، إذا عَلِمنا أنّ أيَّ تصوُّرٍ لنا أو عَملٍ لا يخفَى على الله، وأنّ كلَّ تصرُّفٍ منّا سيَظهُرُ على الملأِ يومَ القيامة، فلن يَتجرَّأَ واحدٌ منّا على ارتكابِ الذَّنب.

﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴾

١١٩ـ في هذه الآيات الثلاث ذِكرٌ لثلاثةِ أقسام من المُجرِمين:

١ـ الشَّخصُ الذي يرتكبُ سوءًا أو يَظلِمُ، ثم يتوبُ صادقًا من قلبه، فإنّ اللهَ تعالى يَعْفُو عن ذنبه، ولمزيدٍ من المعرفة عن تفاصيلِ التَّوبةِ راجعْ آيةَ رقم ١١٧، وكذا الحاشية رقم ٢٣.

٢ـ الشَّخصُ الذي يرتكبُ ذنبًا ولا يتوبُ، فإنه لن ينجُوَ من العقابِ على ذَنْبِه.

---

(١) التفسير المظهري.

٣ـ الشَّخُص الذي يرتكبُ ذنبًا ثم يتَّهمُ به آخرَ بريئًا، فإنّه حينَئذٍ لم يرتكبْ ذنبًا فقطْ، وإنما افترى على شخصٍ آخَرَ وأتعبه، ولذا فإنّ مِثلَ هذا الشَّخصِ سيُواجِهُ عقابًا مضاعَفًا.

وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ﴾

١٢٠ـ يعني: أنّ المنافقينَ قد كَذَبوا وقرَّروا أن يجعَلوكَ تَحكُمُ حُكمًا خاطئًا، ولو أنّهم حَصَلوا بكذِبهم على حُكم مخالفٍ للحقيقة، فإنّ الضَّررَ حينَذاكَ سيقعُ عليهم هم؛ لأنّ القاضيَ مُلتزِمٌ بالحُكم طبقًا للشَّهادات، فإذا كذَبَ الشاهدُ فلا ذنبَ للقاضي، ومن هنا فإنّ الشَّخصَ الذي يَخدَعُ القاضيَ ويَحصُلُ على حُكم خاطئٍ فإنه ـ في الأصل ـ قد خَدَعَ نفسَه؛ لأنّ هذا الكذبَ سينكشفُ أمرُه يومَ القيامة، فعلى من يكونُ الضَّررُ إذًا؟ وهناك حديثٌ للنبيِّ ﷺ رَوَتْه السيِّدةُ أُمُّ سَلَمةَ رضيَ اللهُ عنها يقولُ فيه: «**إنّما أنا بَشرٌ، وإنّكم تختصمونَ، ولعلّ بعضَكم أن يكونَ ألحَنَ بحُجّتِه من بعضٍ، وأَقضِيَ له على نحوٍ ممّا أسمَعُ، فمَن قضَيْتُ له من حقِّ أخيه شيئًا فلا يأخُذْهُ فإنّما أقطَعُ له قِطعةً من النّار**»[١].

(١) البخاري، كتاب الحيل، باب ١٠ برقم ٦٩٦٧.

﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾

١٢١ـ يؤمنُ المسلمونَ أنّ عِلمَ الله ذاتيٌّ وقديمٌ وغيرُ محدود، في حينَ أنّ عِلمَ النبيِّ ﷺ وَهْبيٌّ وحادثٌ ومحدودٌ، يعني: لم يكنْ عِلمُه ﷺ موجودًا فأعطاه اللهُ له، ولكنْ كم أعطاه؟ الحقيقةُ أنّ عِلمَ النبيِّ ﷺ ـ مقارنةً بعِلم اللهِ تعالى المحيطِ ـ لا يَعدلُ قطرةً من الماءِ أمامَ بحرٍ ضَخْم، وممّا لا شكَّ فيه أنّ عِلمَ النبيِّ ﷺ محدود، وله حدودٌ معيَّنة، ولكنّ هذه الحدودَ ممتدَّةٌ بما لا تستوعبُه حساباتُنا، ولا يمكنُ حسابهُ أبدًا:

* إنه مجرَّدُ كلام أن نقولَ: من هنا إلى هناك
* فاللهُ وحدَه هو الذي يَعلَمُ حدودَ تجلِّي المحبوب
* وكلٌّ ينظُرُ حسَبَ المدى الذي يستطيعُه بصَرُه

قال سيِّدُنا عُمرُ رضيَ اللهُ عنه: **قام فينا النّبيُّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم مقامًا، فأخبَرَنا عن بَدْءِ الخَلْق حتّى دَخَل أهلُ الجنّةِ منازلَهم وأهلُ النّارِ منازلَهم، حَفِظ ذلك مَن حَفِظَه ونَسِيَه من نَسِيَه**[1]. وفي هذا الخصوص يمكنُ الرُّجوعُ إلى الآيةِ رقم ٧٩ من سُورة آلِ عِمران، وكذا الحاشيةُ رقم ١٢٦.

﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾

١٢٢ـ من الضَّروريِّ معرفةُ مستوى عِلم المتكلِّم لكي نستطيعَ تصوُّرَ عَظَمةِ هذا الفَضْل العظيم، على سبيل المثال: إذا اقترَضَ رجلٌ فقيرٌ عشَرَة آلافِ جُنَيْه من رجُلٍ ثَرِيٍّ وبدَأَ بها مشروعًا، وبدَأ رجلٌ ثريٌّ مشروعًا بعشَرةِ ملايينَ جُنَيْه، فإنّ كلًّا منهما سيكونُ سعيدًا بعدَ عام، وسيقول: إنّ فَضْلَ الله عظيمٌ، لقد كان مكسَبي هذا العامَ عظيمًا، فاستَخدمَ كلٌّ منهما لفظَ «عظيم»، ولكنْ إنْ بحَثْنا في الأمرِ فسنجدُ أنّ

---

(١) البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ١ برقم ٣١٩٢.

الفقيرَ قد كسَبَ على أكثرِ تقدير عشَرةَ آلافِ جُنَيْه، بينَما كسَبَ الثَّريُّ عدةَ ملايينَ من الجُنَيْهات، والآنَ، تصوَّرْ أنت، كلٌّ منهما يقول: «عظيم»، ولكنّ الفرقَ في مقدارِ العَظَمة بينَ كلٍّ منهما كالفَرْقِ بينَ السماءِ والأرض تِبْعًا لمعيارِ كلٍّ منهما.

فإذا كان كلُّ هذا الفرقِ في مقدارِ «عظيم» و«مِعْيار» اثنَيْنِ من بني البشَر، فكم يكونُ الفرقُ يا ترُى بينَ «معيارِ» البشَرِ المخلوقِ من طِين والقادرِ المطلَقِ الرَّحمن؟

هذه الدُّنيا كلُّها، بما فيها من مالٍ ومتاع، ومن شرقِها إلى غربِها وشمالِها إلى جنوبِها، ومن الأرضِ إلى السماء، شيءٌ قليل للغاية: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧]، والعِلمُ الذي أعطاهُ للناس قليلٌ أيضًا: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، فكم يكونُ مقياسُ «عظيم» في نظرِ خالقِ الكائنات هذا، والذي أعطاه لحبيبه المصطفى ﷺ، والذين يحاولونَ قياسَ عِلم النبيِّ ﷺ بعقولِهم عليهمُ التمعُّنُ مرارًا في هذهِ الآية[1].

﴿۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾

١٢٣ـ إنَّ تَناجيَ المنافقينَ بقَصْد نَشْرِ الفتنةِ والفسادِ لا يكونُ فيه سوى الضَّرَر، ولا نَفْعَ منه لأحدٍ أبدًا، لكنّ الذي يُرغِّبُ النّاسَ في الصَّدقاتِ وأعمالِ الخير، أو يحاولُ الإصلاحَ بيْنَ الناس، فإنّ كلَّ مَن يقومُ بهذه الأعمالِ طلبًا لرضا اللهِ تعالى سيَنالُ أجرًا عظيمًا، ويفوزُ بتعاطُفِ ودعاءِ كلٍّ من يستفيدُ من هذه الأعمال. إنّ كلَّ أعمالِ الخير جيِّدةٌ وتستحِقُّ الثناءَ عليها، لكنّ اللهَ تعالى ذَكَر في هذه الآيةِ الصُّلحَ بينَ النّاسِ بصفةٍ خاصَّة؛ لأنه يؤدِّي إلى أن تَنعُمَ عائلتانِ متعبَتانِ بجوٍّ من الطُّمَأْنينة،

(١) «وهذا من أعظم الدلائل على أن العلم أشرف الفضائل والمناقب، وذلك لأن الله تعالى ما أعطى الخلق من العلم إلا القليل». التفسير الكبير.

ولهذا قال النبيُّ ﷺ، فيما رواهُ عنه سيِّدُنا أبو الدَّرداءِ رضيَ اللهُ عنه: «**ألا أُخبِرُكم بأفضَلَ من درجةِ الصّلاةِ والصّيام والصَّدَقة؟**»، قالوا: بلى! قال: «**إصلاحُ ذاتِ البَيْن، وفسادُ ذاتِ البَيْنِ هي الحالِقةُ**»(١).

كما أنّ النبيَّ ﷺ أَذِن في الكذبِ في ثلاثةِ مواضع هي: إرضاءُ الزَّوج لزوجتِه، والحربُ، والصُّلحُ بيْنَ النّاس(٢).

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾

١٢٤ـ حينَ كَشَف النبيُّ ﷺ عن طريقِ الوَحْي سرَّ سرقةِ طُعمةَ، تيقَّن طُعمةُ هذا أنه ﷺ نبيٌّ صادق، وأنّ دِينَ أهلِ الإيمان صادقٌ، ولكنْ ـ بالرَّغْم من شَرْح الصَّدرِ هذا ـ حين عاد إلى الكُفر أوضَحَ اللهُ تعالى أنه من أهل جهنَّم، ورَغْمَ أنّ هذه الآيةَ نَزَلت فيما يتَعلَّقُ بطُعمةَ، إلّا أنّ حُكمَها عامٌّ، بمعنى: أنّ الشَّخصَ الذي يتَّضِحُ أمامَه الحقُّ من الباطل، ويُنيرُ طريقَ الهداية له، ثم هو بالرَّغْم من ذلك يُخالفُ رسولَ الله ﷺ، ولا يتَّبِعُ إجماعَ أهل الإيمان، أي: إجماعَ الأُمّة، فإنّ هذا يعني بوضوح لا لَبْسَ فيه أنه عادَ إلى الكُفر، وهو ما يجعَلُ مثواهُ جهنَّم.

إجماعُ الأُمَّةِ حُجَّة:

في هذه الآية تقرَّر أن يكونَ عقابُ من يُخالفُ رسولَ الله ﷺ، ويُخالفُ طريقَ أهلِ الإيمان هو جهنَّم، وواضحٌ أنّ المرادَ بطريقِ أهل الإيمان: ذلك الطَّريقُ

---

(١) مسند أحمد، ٦: ٤٤٥.

(٢) «عن أمّ كلثوم بنت عقبة رضي الله عنها، قالت: رخّص النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من الكذب في ثلاثٍ؛ في الحرب، وفي الإصلاح بين النّاس، وقول الرّجل لامرأته». مسند أحمد، ٦: ٤٠٤.

الذي أجمَعَتْ عليه الأُمَّة؛ لأنّ اتِّباعَ هذا الطَّريق والسَّيرَ عليه واجبٌ على المسلمينَ جميعًا، ومن يَترُكْ هذا الطَّريقَ فإنّ ما قاله الرسولُ ﷺ بشأنِه في الحديثِ التالي يستحِقُّ التأمُّلَ: **عن ابن عُمَر رضيَ اللهُ عنهما، أنّ رسولَ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم، قال: «إنّ اللهَ لا يَجمَعُ أُمّتي على ضلالةٍ، ويدُ اللهِ على الجماعة، ومَن شَذَّ شَذَّ إلى النّار»**[1]. ويَثبُتُ من هذه الآيةِ أيضًا أنّ إجماعَ الأُمَّةِ حُجَّة، وقد سُئل الإمامُ الشافعيُّ **«عن آيةٍ في كتاب اللهِ تعالى تدُلُّ على أنّ الإجماعَ حُجّةٌ، فقرأَ القرآنَ ثلاثَ مائةِ مرّةٍ حتى وَجَد هذه الآيةَ»**[2].

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾

---

(١) الترمذي، أبواب الفتن، باب ٧ برقم ٢١٦٧.

(٢) التفسير الكبير.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾

١٢٥ـ التَّوحيدُ منبَعُ الحسَنات، والشِّركُ أساسُ السيِّئات، التَّوحيدُ طريقُ الجنَّة، والشِّركُ طريقُ جهنَّم، وقد خُلِقَ الإنسانُ لكي يُسافرَ على طريقِ التَّوحيدِ ليصلَ إلى مثواهُ الأخير، يعني: الجنَّةَ، فإذا كانت وِجهةُ المسافرِ صحيحةً وباتِّجاهِ الهدف الصَّحيح، فإنه سيصلُ إنْ عاجلًا أم آجلًا إلى الهدفِ المنشود، لكنْ إن كانت وِجهتُه أصلًا خاطئةً فإنّ كلَّ خُطوةٍ من خُطُواتِه ستزيدُه بُعدًا عن الهدف، وحتى لو ظَلَّ يسيرُ بسُرعةٍ عاليةٍ حتّى يوم القيامة، فإنه لن يصلَ إلى الهدفِ المنشود، وعدَمُ تَرْكِ الطَّريقِ الخاطئ يَحرِمُ المشركَ من كلِّ الإمكانيات التي تؤهِّلُه للحصولِ على رحمةِ الله، ولهذا لا يبقَى صالحًا لأيِّ نعمةٍ من نِعَم الآخِرة. ولمزيدٍ من التفصيل عن هذه الآيةِ راجعِ الحاشيةَ رقم ٦٤، ٦٥ للآية رقم ٤٨ من هذه السُّورة.

﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴾

١٢٦ـ كانت غالبيَّةُ أسماءِ الأشياءِ التي يَعبُدُها الكفَّارُ مؤنَّثةً (اللَّاتُ، مَنَاتُ، العُزَّى، نائلةُ وغيرُها)، وكانوا يقولونَ: إنّ الملائكةَ والأصنامَ بناتُ الله! وكانوا يُزيِّنونَ الأصنامَ بالحُليِّ كالنِّساء، ولهذا قيل لأصنامِهم هنا: إناثٌ، ورَغْمَ أنّهم لم يكونوا يعبُدونَ الشَّيطان، لكنْ كانوا كأنَّهم يعبُدونَه بصورةٍ غيرِ مباشرة، باعتبارِ أنّ الشَّيطانَ هو الذي سَيَّرهم على طريقِ الشِّرك.

﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾

١٢٧ـ استحَقَّ الشَّيطانُ أن يكونَ ملعونًا بعدَم سجودِه لسيِّدِنا آدمَ عليه السَّلام، فقرَّر أن ينتقمَ لهذا من أولادِ سيِّدِنا آدمَ عليه السَّلام، وأن يَبذُلَ قُصارى جهدِه لإضلالِهم، لكنّ المخلِصينَ لن يقَعوا فريسةً له، وواضحٌ أنّ غيرَ المخلِصين هم

الذين سيكونونَ من نصيبِ الشَّيطان، وقد تحدَّثتِ الآياتُ من ٢٨ إلى ٤٤ من سُورة الحِجْر عن هذه الواقعة.

﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾

١٢٨ـ مُهِمَّةُ الشَّيطانِ الإضلالُ، ولدَيْه تجرِبةٌ كبيرةٌ في هذا المجال، كما أنّه ذَكيٌّ أيضًا، ويَستعملُ كلَّ الطُّرقِ التي من شأنِها الإضلالُ، ويدُلُّ الناسَ إلى طريقِ الضَّلال ويُزيِّنُه لهم طِبقًا لميولِهم الطبيعيَّة، فيُريهم العيوبَ في صُورةِ المميِّزات، والمظالمَ في صورةِ المحاسن، معَ أنّ كلَّ وعودِه كاذبةٌ، وكلَّ آمالِه مُخادِعةٌ، ومَن يختارُ صداقةَ الشَّيطانِ بالرَّغْم من كلِّ هذه التنبيهاتِ فلن يُفلتَ من نارِ جهنَّم.

﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾

١٢٩ـ كان المشركونَ العربُ يُميِّزونَ الحيَواناتِ التي يوقفونَها على الأصنام بشَقِّ آذانِها، ثم لا يَستعملُ أحدٌ أيًّا من هذه الحَيواناتِ في أيِّ عمل، فإذا نَفَق واحدٌ منها كان أكلُ لحمِه محرَّمًا على النِّساء، ولا يأكُلُه إلّا الرِّجال، وبهذا كانوا يُحرِّمونَ من عندِ أنفُسِهم ما أحَلَّ الله[1].

﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾

١٣٠ـ في هذه الآيةِ بيانٌ للصُّورِ التي يتِمُّ فيها تغييرُ خَلْقِ الله تعالى كالتالي:

١ـ أن يُحدِثَ تغييرًا في الشَّكل الظاهريِّ لأيِّ شيءٍ بما يُغيِّرُ من حُسنِه وهيئتِه، مثلَما كانوا يشُقُّونَ آذانَ الحيَواناتِ التي يوقفونَها على الأصنام، فينقُصُونَ من خَلْقِها، أو مِثلَ التمثيل بجُثّةِ الميِّت وغيرِها.

---

(١) التفسير المظهري.

٢ـ استعمالُ أيِّ شيءٍ في غيرِ ما خُلِق له، مثلَ: عبادةِ الشَّمس والقمرِ والنّارِ والحَجَر وغيرِها ممّا خُلِق لخِدمةِ الإنسان، وكذلك الطِّفلُ الذي يُهوِّدُه أبواه أو يُنصِّرانِه، معَ أنّه خُلِق على فِطرةِ الإسلام.

٣ـ زَرْعُ الشُّكوكِ والشُّبُهاتِ فيما يَتعلَّقُ بالقرآنِ الكريم، وتشويهُ دينِ الإسلام بالتغييرِ والتبديلِ فيه، وباختصار، كلُّ عقيدةٍ أو عملٍ يُخالفُ منشَأَ فِطرتِه فهو وَسْوسةٌ شيطانيَّة وإخلالٌ بهدفِ خَلْقِه، ويَلزَمُ تجنُّبُه.

﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ﴾

١٣١ـ كلُّ وعودِ الشَّيطان كاذبةٌ، بينَما وعودُ اللهِ كلُّها صادقة.

﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾

١٣٢ـ **عن قَتادَة رضيَ اللهُ عنه، قال: ذُكِر لنا أنّ المسلمينَ وأهلَ الكتابِ افتَخَروا، فقال أهلُ الكتاب: نبيُّنا قبْلَ نبيِّكم وكتابُنا قبْلَ كتابِكم ونحن أَوْلى باللهِ منكم، وقال المسلمون: نحن أَوْلى بالله منكم، نبيُّنا خاتَمُ النبيِّين وكتابُنا يَقضِي على الكتُبِ التي كانت قبلَه، فأَنْزلَ اللهُ هذه الآية**[1]. يعني: أن الأفضَليَّةَ والنَّجاةَ ليست معتمَدةً على ادِّعاءاتِكم وأمانِيِّكم، وإنّما تتوقَّفُ على الإيمانِ والعمَلِ الصالح، ولا يوجَدُ أدنى شكٍّ في أفضَليَّةِ الأنبياءِ الكرام جميعًا عليهم السَّلامُ وسائرِ الكتُبِ السَّماوية، ولكنْ إذا ارتكَب المؤمنونَ بهم سوءًا فإنّ مسئوليَّتَه تقَعُ عليهم، وسيَنالونَ عقابَهم، ولا يوجَدُ مُنجٍّ سوى اللهِ تعالى.

---

(١) تفسير جامع البيان.

﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾

١٣٣ـ حينَ نَزَلت هذه الآيةُ شَقَّ نزولُها على المؤمنينَ كثيرًا، وأصابَهم قَلَقٌ شديدٌ (بمعنى: أنه لن يَنْجُوَ أحدٌ إذا عاقَبَهم اللهُ على كلِّ شيء)، وشَكَوْا ذلك إلى رسولِ الله ﷺ، فقال: «**قاربوا وسَدِّدوا، ففي كلِّ ما يصابُ به المسلمُ كفّارةٌ، حتّى النَّكبةِ يُنكَبُها أو الشَّوكةِ يُشاكُها**»، وقال صلّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: «**ما يُصِيبُ المؤمنَ من وَصَبٍ ولا نَصَبٍ ولا سُقمٍ ولا حُزْنٍ، حتّى الهمُّ يُهِمُّه، إلّا كُفِّر به من سيّئاتِه**»[1]، بمعنى: أنه لا داعيَ أبدًا لليأسِ من رحمةِ الله تعالى، وعليكم أن تُواصلوا محاولاتِكم في العمَل الصَّالح، وسوفَ يَمْحو اللهُ سيِّئاتِكم بسَببِ أعمالِكم الصَّالحة، والمصائبُ والآلامُ التي تَحُلُّ بالمسلمينَ في الدُّنيا تكونُ هي الأُخرى كفَّاراتٍ لذنوبِهم.

﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ ﴾

١٣٤ـ دخولُ الجنَّةِ ليس مخصوصًا بالرَّجُل أو المرأة، وإنّما من يعَملْ صالحًا، سواءٌ كان رجُلًا أم امرأةً، ولكنْ بشَرْطِ أن يكونَ مؤمنًا، وحينَئذٍ سيَدخُلُ الجنّةَ، ولن يُظلَمَ مِثقالَ ذَرَّة، وتُوضِّحُ هذه الآيةُ حقيقةَ أنه لا فَرْقَ بيْنَ الرجُلِ والمرأة فيما يتَعلَّقُ بالأعمالِ ولا بجزاءِ الأعمال.

﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾

١٣٥ـ الإيمانُ شرطٌ لقَبولِ الأعمالِ الصَّالحة، ولهذا عندَما يقومُ غيرُ المسلم بعملٍ صالح فإنه لن يُدخِلَه الجنَّةَ؛ لأنه غيرُ مؤمن، والإيمانُ هو المحرِّكُ الأصليُّ للأعمالِ الصَّالحة، ولكنّ الكُفَر ليس شرطًا للأعمالِ السيِّئة؛ لأنّ المذنبَ يستحِقُّ العقابَ، سواءٌ كان مسلمًا أم كافرًا.

---

(١) مسلم، كتاب البر، باب ١٤ برقم ٦٥٦٨، ٦٥٦٩. والحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿فَأُولَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ﴾

١٣٦ـ لم يقُل اللهُ تعالى في هذهِ الآيةِ: إنّ الذين سيَدخُلونَ الجنَّةَ هم أولئك المؤمنونَ الذين تكونُ أعمالُهم كلُّها صالحةً، ولم يعمَلوا عمَلًا سيِّئًا قطُّ، في حينَ أنّ كلَّ إنسانٍ ليس قادرًا على هذا، ومن هنا فإنّ فيها أيضًا بِشارةً لنا نحن عامّةَ المسلمين، وهي أنّه إن كانت هناك أعمالٌ سيِّئةٌ معَ الأعمالِ الحَسَنةِ فإنّ برَكةَ الإيمانِ ورحمةَ اللهِ تعالى سوف تُدخِلُنا الجنَّةَ، لأنّ الحسَناتِ يُذهِبْنَ السيِّئات.

﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا ﴾

١٣٧ـ أي: باعتبارِ الدِّين، الشَّخصُ الجيِّدُ هو: ذلك الذي يَحْني رأسَه خضوعًا لله تعالى، ويعمَلُ صالحًا، ويتَّبِعُ الإسلامَ (ويشمَلُ المِلّةَ الإبراهيميَّةَ أيضًا).

وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلۡوِلۡدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا ﴿١٢٧﴾ وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمٗا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدٗا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ

وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ فِى يَتَـٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَـٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ﴾

١٣٨- كان الابنُ الشابُّ للمتوفَّى أو أخوه يُعَدُّ هو المالِكَ الوحيدَ للتَّركةِ كلِّها، وكان أطفالُ الميِّتِ وزوجاتُه يُحرَمونَ من الميراث، كما أنّهم كانوا يتزوَّجونَ من اليتامَى بقَصْدِ أكلِ أموالِهم، وهكذا كان هذا الصِّنفُ الضَّعيفُ والأطفالُ الصِّغارُ يواجهونَ دائمًا مشاكلَ كثيرةً، والإسلامُ هو أولُ دينٍ على هذه الأرض أعطى للنِّساءِ والأطفال حقوقَهم قبْلَ ألفٍ وأربعِمائة عام، وتفصيلُ ذلك مذكورٌ في الآياتِ الأولى من هذه السُّورة؛ ولأنَّ هذا الأمرَ كان بمثابةِ تجربةٍ جديدةٍ للعرب، لهذا فقد بَدَا هذا الأمرُ للمسلمينَ غايةً في العَجَب، فتشَّجعوا على السُّؤالِ عنه ثانيةً، فأَنْزلَ اللهُ تعالى هذه الآيةَ، بمعنى: أنّ حقوقَ النِّساءِ والطِّفلاتِ اليتيماتِ والأطفالِ الضُّعفاءِ هي نفسُها التي وَرَدت في أولِ السُّورة، ولهذا عليكم أن تؤدُّوا لهم حقوقَهم، ولا تستَغِلُّوا ضعفَهم وقلّةَ حيلتِهم، واعدِلوا في كلِّ الأمورِ معَهم.

﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًاۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾

١٣٩- إذا كانت هناك امرأةٌ عاقرًا، أو مريضةً مرضًا مُزمِنًا، أو أصابَتْها إعاقةٌ دائمةٌ لحادثٍ وَقَع لها، أو لأيِّ سببٍ آخَر، لم تَعُدْ مُحبَّبةً لزوجِها، ويريدُ هذا الزَّوجُ

أن يُطلِّقَها ويتزوَّجَ ثانيةً، لكنّ المرأةَ لا تريدُ أن تُطلَّق، فإنه لا حَرَجَ في هذه الحالةِ في أن تُقلِّلَ من حقوقِها، وتُرضِيَ زوجَها على أنْ لا يُطلِّقَها، فمثلًا: يمكنُها التقليلُ في المهرِ أو النَّفقة، أو أن تُعطيَ من نصيبِها لضَرَّتِها، وبهذا تتفادَى الطلاقَ؛ لأنّ خيرَ الزَّوجَيْنِ في أن يَصطَلِحا معًا.

﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾

١٤٠ـ الإنسانُ طَمَّاعٌ بفِطرتِه فيما يتَعلَّقُ بحقوقِه ورغَباتِه ومصالحِه وأموالِه، وكلُّ شخصٍ يريدُ أن يحصُلَ على أكبرِ نسبةٍ من الحقوق، ويعطي الآخَرَ أقلَّ نسبةٍ منها، ولكنْ يُضْطَرُّ أحدُ الفريقَيْنِ إلى التنازلِ عن بعضِ حقوقِه من أَجْلِ الصُّلح. على أيّةِ حال، إذا بَدَأَ فريقٌ في هذا العملِ الصَّالح وَجَبَ على الفريقِ الآخَر أن يُقدِّرَ هذا الأمرَ ويختارَ طريقَ التَّقوى معَه.

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ﴾

١٤١ـ لو كان لأحدٍ من المسلمينَ أكثرُ من زوجةٍ فإنه لن يستطيعَ أن يَعدِلَ بينَهنَّ في المحبَّةِ والعلاقةِ القلبيَّة؛ لأنّ المحبَّةَ أمرٌ لا إراديٌّ، ولهذا لا مؤاخَذةَ عليها، لكنّ أداءَ الحقوقِ الظاهرة أمرٌ في يدِه، ولا يحِقُّ له أن يَميلَ تمامًا لزوجةٍ، ويُقصِّرَ في حقوقِ الأخرى بدرجةٍ تجعَلُها معلَّقةً، يعني: لا يؤدِّي حقوقَها، ولا يُطلِّقُها، وهذا ظُلمٌ عظيم، وعليه أن يتَّقيَ اللهَ تعالى، وأن يُصلحَ من تصرُّفِهِ الخاطئ هذا؛ لأنّ النبيَّ ﷺ قال: «**إذا كان عندَ الرَّجُل امرأتانِ، فلم يَعدِلْ بينهما، جاء يومَ القيامة وشِقُّه ساقط**»[1].

---

(١) الترمذي، أبواب النكاح، باب ٤٢ برقم ١١٤١. والحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ﴾

١٤٢ـ أي: إذا لم يتِمَّ التوصُّلُ إلى الصُّلح بيْنَ الزَّوج والزَّوجةِ برَغْم الجهودِ المبذولةِ في هذا الخصُوص، فإنّهما يمكنُ أن يتفرَّقا بالطَّلاقِ أو بالخُلع، واللهُ تعالى يُغني كلًّا منهما، ومن الممكنِ جدًّا أن يَجِدَ الزَّوجُ بعدَ ذلك زوجةً أخرى تناسبُه وتُسعدُه، وتجدُ الزَّوجةُ أيضًا بعدَ ذلك زوجًا آخَرَ يناسبُها ويُسعدُها، ورَغْمَ أنّ الطلاقَ أمرٌ بغيضٌ في الإسلام مثلَما وَرَد في الحديثِ الشَّريفِ الذي رواه سيِّدُنا ابنُ عُمرَ رضيَ اللهُ عنه، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «**أبغَضُ الحلالِ إلى الله عزَّ وجلَّ الطَّلاق**»[1]، لكنّ اللهَ تعالى سَمَح به، لأنه في بعضِ الأحوالِ يكونُ الخيرُ لكلٍّ من الفريقَيْنِ في أن ينفصلَ كلٌّ منهما عن الآخَر.

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾

١٤٣ـ خالقُ كلِّ شيءٍ في الأرضِ والسَّماءِ ومالكُه هو اللهُ تعالى، وهو الوحيدُ صاحُب الحقِّ في أن يَحكُمَ الكائناتِ ويُسيِّرَ أمورَها.

وقد أمَرَ كلَّ الأُمم في الكتُبِ السَّماويةِ السّابقة، وفي القرآنِ المَجيدِ أيضًا بالتَّقوى، ومَن لم يُطعْ حُكمَ الله تعالى فإنّ الله قادرٌ على أن يُفنِيَه ويأتيَ بآخَرينَ مكانَه، أو أن يَبتليَه بالتَّراجُع والتَّقهقُر، ويوفِّقَ الآخَرينَ إلى التقدُّم والتطوُّر، وقد حَدَث مثلُ هذا في الأُمم السَّابقة، ولهذا يجبُ أن نَعتبِرَ من الأُمم السَّابقة، وهذه الدُّنيا ليست كلَّ

---

(١) أبو داود، كتاب الطلاق، باب ٣ برقم ٢١٧٨.

شيء، فلا يجبُ أن نستغرقَ في ملَذّاتِها العارضة، وإنّما علينا أن نتَّخذَ من التَّقوى طريقًا لنا، وذلك حتى يكتُبَ اللهُ لنا الفلاحَ في الدُّنيا والآخِرة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ﴾

١٤٤ـ هنا تأكيدٌ على أهلِ الإيمان أن يَثبُتوا على العَدْلِ والإنصاف، وإذا طُلِبتْ منهم الشَّهادةُ شَهِدوا بالحقِّ إرضاءً لله تعالى؛ لأنّ الشَّهادةَ أمانةٌ لله تعالى عندَ الإنسان، ولهذا يجبُ أن تكونَ شهادتُكم لوَجْهِ اللهِ فقط، ولا ينبغي أن تَحُولَ دونَها مصالحُكم أو مصالحُ أهلِيكُم، كما لا ينبغي أن يؤثِّرَ فيها فقرُ فقيرٍ أو مالُ غنيٍّ؛ لأنّ اللهَ تعالى يُحسِنُ إلى الجميع، فإنْ حاولتُم التلاعُبَ أو الإدلاءَ بشهادةٍ كاذبةٍ فاحذَروا؛ لأنّ اللهَ تعالى يَعلَمُ جيِّدًا ما تفعَلونَ، فإذا كان من الممكنِ إخفاءُ الشَّهادةِ عن النّاس، فماذا يكونُ عُذرُكم في حَضْرةِ الله تعالى يومَ القيامة؟

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ ﴾

١٤٥- المرادُ بإيمانِ أهلِ الإيمان: أن يَثبُتوا على إيمانِهم؛ لأنّ الذي يقَعُ في خِداع الشَّيطان ويَكفُر، غالبًا ما يكونُ قد أَوْغَل في الضَّلال بحيث يكونُ من الصَّعبِ عوْدتُه، ولهذا يجبُ الاحتياطُ من وَسْوسةِ الشَّيطان، وعدَمُ إفلاتِ أهدابِ الإسلام من الأيدي، ولهذه الآيةِ مفهومٌ آخَرُ أيضًا، وهو: أنّ يا مَن تَدَّعُونَ الإيمانَ، قدِّموا الدَّليلَ العمَليَّ على صِدقِ إيمانِكم بالأعمالِ الصالحة.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴾

١٤٦- بعضُ النّاسِ يَدخُلُ الإسلامَ حالَ قوَّةِ المسلمينَ وتفوُّقِهم، لكنّه يَكفُرُ حين الابتلاءِ والشِّدة، وفي نهايةِ الأمر يتَمادَى في كُفرِه لدرجةٍ لا يعودُ معَها عن كُفرِه ثانيةً، كما أنّ توفيقَه إلى الهداية ينتهي من كثرةِ كُفرِه، وليس لأمثالِ هؤلاءِ المرتدِّينَ نجاةٌ أو مغفرةٌ؛ لأنّهم يبقَوْنَ على كُفرِهم حتى الرَّمَقِ الأخير من حياتِهم، ويموتونَ وهم كفَّار، وإلّا فإنّ الإنسانَ كلَّما ارتدَّ وعاد تائبًا مخلِصًا غَفَر اللهُ ذنوبَه.

﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

١٤٧- لفظُ البُشْرى بشكلٍ عامّ يستعمَلُ للخبَرِ الجيِّد السارِّ، ولكنّه استُخدِم هنا للعذابِ الأليم على سَبيل السُّخْرِيَة، بمعنى: أنه ليس للمنافقينَ يومَ القيامة سوى العذابِ والعذابِ فقطْ ولا شيءَ آخَرَ، ولهذا عليهم أن يَعتبِروا، هذا بُشْرى لهم.

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾

١٤٨- كان المنافقونَ يذهَبونَ إلى الكفَّار متأثِّرين بثروتِهم الدُّنيويَّة وكثْرتِهم

العدّديَّة، ويؤكِّدونَ لهم على صَداقتِهم معهم، حتى إذا ما فازَ الكفَّارُ في المستقبَل وغَلَبوا، نالَ المنافقونَ معَهم من الفَوْزِ والغَلَبة نصيبًا.

وفي هذه الآية يُنبِّهُ اللهُ تعالى المنافقينَ إلى أنّ العزَّةَ والغَلَبَة ليست لدى الكفّار، وإنّما منْبَعُها هو اللهُ تعالى، وهو الذي يمنَحُ العزَّةَ لمن يشاء، ويَسلُبُها ممَّن يشاء.

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ﴾

١٤٩ـ هنا مَنْعٌ من الانضمام إلى المجالسِ التي يُنكَرُ فيها كلامُ الله تعالى، أو يُسخَرُ فيها من الأحكام الإلهيَّة؛ لأنّ من يشاركْ في مِثلِ هذه المجالس فهو شريكٌ بالتَّساوي في الذَّنبِ أيضًا، ولذا يجبُ على المسلمينَ اجتنابُ مجالسِ الفِرَقِ الضَّالّة وعَدمُ المشاركة فيها، وعَدمُ قراءةِ مطبوعاتِهم، وعَدمُ مشاهدةِ برامجِهمُ الإذاعيَّةِ والتلفزيونيَّةِ التي تسيءُ إلى الإسلام، كما أنه يجبُ عليهم أن يتجنَّبوا أيضًا مجالسَ الفواحش والزِّنا ومُعاقرةِ الخُمور، لأنّها تُرتكبُ فيها المعاصي والذُّنوبُ، والإيمانُ يقتضي أنه «**مَن رأى منكم مُنكَرًا فلْيُغيِّرْه بيدِه، فإنْ لم يستطعْ فبلسانِه، فإنْ لم يستطعْ فبقلبِه، وذلك أضعَفُ الإيمان**»[1]، وهذا يعني أنّ من يُنكِرُ مِثلَ هذه الأفعال من قلبِه لا يجلسُ في محافلِها، فإذا جلَسَ فيها فهذا يعني أنه لا يُنكِرُها من قلبِه، وعلى مِثل هذا المسلمِ أن يُراجِعَ إيمانَه، ولكنْ إنِ اضْطُرَّ إلى الجلوسِ فيها لحِكمةٍ أو اضْطرارًا أو لفائدةٍ دينيَّة فلا حَرَج، مثلَما اضْطُرَّ المسلمونَ إلى الجلوس في مجالس كفَّارِ مكَّةَ بسببِ غَلَبتِهم، رَغْمَ أنهم كانوا يُنكِرونَ هذا من قلوبِهم.

ملحوظة: يجوزُ إقامةُ علاقاتٍ طيِّبةٍ معَ الكفَّارِ فيما يتَعلَّقُ بالمعاملاتِ الدُّنيويَّة، وكذلك مساعدةُ كلٍّ واحدٍ للآخَر.

---

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب ٢٠ برقم ١٧٧. والحديث عن أبي سعيد رضي الله عنه.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

١٥٠ـ كان الكفَّارُ حريصينَ على المالِ والمتاع الدُّنيَويِّ فقط، كما أنَّهم يحبُّونَ مصلحَتهم فقطْ أيضًا، وكانوا حينَ يَنصُرُ اللهُ تعالى المسلمينَ يُثْنُونَ عليهم ويمدحونَهم، ويتقدَّمونَ للحصُولِ على نصيبٍ في الغنائم، فإذا انتصَر الكفَّارُ ذهَبوا إليهم وقالوا لهم: لو لم نكنْ معَ المسلمينَ لَانتصَروا عليكم؛ لأنَّنا لم نَأْلُ جُهدًا في تثبيطِ هِمَمِهم وتقليل عزيمتِهم دونَ أن يَشعُرَ بنا أحدٌ، ونَقَلْنا إليكم أسرارَهم الحَرْبيَّةَ، وقَبِلْنا دينَهم ظاهريًّا لإضعافِهم، وهكذا أنقَذْناكم منَ انتصارِهم عليكم بوجودِنا معَهم، فنحن ـ في الحقيقة ـ معَكم أنتم، ولهذا يجبُ أن نشارِكَكم في مكاسبِكم الحَرْبيَّةِ أيضًا.

﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾

١٥١ـ ظلَّ المنافقونَ يستفيدونَ من المسلمينَ والكفَّار على السَّواءِ في هذه الدُّنيا من خلالِ خِداعِهم لهم جميعًا، لكنّ الحُكمَ لله تعالى يومَ القيامة، فماذا يكونُ مصيرُهم حينَ يفضَحُ اللهُ تعالى سرَّ قلوبِهم ومكنونَها؟

﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾

١٥٢ـ إذا أكمَلَ المسلمونَ مقتضَياتِ الإيمان فلن يستطيعَ أحدٌ التغلُّبَ عليهم أبدًا، ولكنْ إذا تغَلَّبَ الكفَّارُ عليهم في أمورِ الدُّنيا ـ بسببِ بعض نقاطِ الضَّعف فيهم ـ فإنّ المسلمينَ على أيّةِ حال سيَدخُلونَ الجنةَ في الآخرةِ ببركةِ إيمانِهم، وسيُذِلُّ اللهُ الكفَّارَ ويُدخِلُهم جهنَّم وبئسَ المصير.

إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن

يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾

١٥٣ـ كان المنافقونَ يشاركونَ في صَلاةِ الجماعةِ مضْطَرِّين، لكي يَراهمُ المسلمونَ في الصَّلاة فيعتقدوا بإسلامِهم ولا يَنكشفَ سِرُّهم، لكنّهم ما أنْ تنتهيَ الصَّلاةُ حتّى يُسرِعوا إلى الخروج من المسجد.

ويُعلَمُ من هذا أنه كانت هناك أشياءُ، مثلَ: ذِكرِ الله تعالى بعدَ الصَّلاة، والصَّلاةِ والسَّلام على النبيِّ ﷺ، والانشغالِ بقراءةِ القرآنِ المَجيد تُميِّزُ المسلمينَ عن المنافقين، ولكنْ في أيّامِنا هذه، هناك منَ المسلمينَ من لا يتردَّدونَ في الإفتاءِ بالابتداع على مَن يقرأونَ الشَّهادةَ أو يُصَلُّونَ على النبيِّ ﷺ بعدَ الصَّلاة، وهناك بعضُ المسلمينَ الذين يَخرُجونَ من المسجدِ فوْرَ أن تنتهيَ الصَّلاة، ولا يُعطُونَ أيّةَ أهميّةٍ للدُّعاءِ والنَّوافل والسُّنن.

﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾

١٥٤- هؤلاءِ المنافقونَ عجيبون، فلا هم معَ الكفَّارِ بشكلٍ كامل، ولا هم مع المسلمينَ بشكلٍ كامل، إنّهم معلّقونَ في الوَسَط، ظاهرُهم معَ المسلمين، وباطنُهم معَ الكفَّار، وقد أضاعوا عقولَهم بنِفاقِهم المتعمَّدِ هذا، ولذا لا سبيلَ إلى هدايتِهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾

١٥٥- تقتضي حِكمةُ اللهِ تعالى أن لا يعذِّبَ أحدًا بغيرِ دليل، وقد أمَرَ اللهُ تعالى أهلَ الإيمان بأنْ لا يترُكوا المسلمينَ ويُصادقوا الكفَّار؛ لأنّ هذا الفعلَ من سِماتِ المنافقين، ومن يتَّخذُ الكفَّارَ أصدقاءَ له بعدَ كلِّ هذا فكأنّه يقدِّمُ الدَّليلَ على نِفاقِه، وهو ما يجعَلُه مستحِقًّا لعذابِ الله تعالى.

وسيُلقَى بالمنافقينَ يومَ القيامةِ في الدَّرْكِ الأسفلِ من النَّار، وهناك لن يَمُدَّ أحدٌ لهم يدًا.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾

١٥٦- لم يَألُ المنافقونَ جُهدًا في إيذاءِ المسلمين، وبالرَّغْم من ذلك فإنّ رحمةَ الله تَدعوهم بأنّه لا تزالُ الفُرصةُ أمامَكم، لئنْ تُبتُم إلى الله قبْلَ أن يأتيَكم الموتُ، وتمسَّكتُم بأهدابِ رحمةِ الله تعالى، فلا حاجةَ للهِ في أن يُعذِّبَكم، ولقد كان

عذابُكم بسببِ كُفرِكم ونفاقِكم، فإذا تُبتُم إلى الله تعالى الآنَ فسوف يَقدُرُكم، وسوف يمُنُّ عليكم بأجْرٍ عظيم لقاءَ توبتِكم، وسيشمَلُكم في جماعةِ الصَّحابةِ الأطهار.

﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ﴾

١٥٧ـ اللهُ تعالى لا يحبُّ أن يَسُبَّ أحدٌ أحدًا، ولا أن يُهينَه أو يَفضحَ عيوبَه، إذْ إنّ هذا يؤدِّي إلى خَلْق جوٍّ من الفُرقةِ والكراهيَة في المجتمع، لكنّه سَمَح للمظلوم أن يرفَعَ صوتَه ضدَّ الظالم، حتّى يُمكنَه استردادُ حقوقِه، ويحتاطَ الآخَرونَ من هذا الظالم، بل ويتَّحدَ النّاسُ جميعًا محتَجِّينَ ضدَّه احتجاجًا يجعَلُه لا يتجرَّأُ ثانيةً على ظُلم أحد، وفي نهايةِ الآية يُطَمْئنُ اللهُ تعالى المظلومَ بأنّ اللهَ تعالى يسمَعُ استغاثتَك، سواءٌ سَمِعها الآخَرونَ أم لا.

وهنا تُنبِّهُ الآيةُ الظالمَ بأنه قد يُمكنُكَ إخفاءُ مظالمِك عن النّاس، لكنّ اللهَ تعالى يَعلَمُ ما تفعَلُ جيِّدًا، وإذا لم تتمكنِ العدالةُ الدُّنيويَّةُ من أنْ تطالَك، فكيف يمكنُ أن تُفلتَ من العدالةِ الإلهيَّة؟

قال النبيُّ ﷺ فيما يتَعلَّقُ باغتيابِ أحدٍ وسَبِّه:

١ـ عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه، أنّ رسولَ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم قال: «أتَدْرُونَ ما الغِيبة؟»، قالوا: اللهُ ورسولهُ أعلم، قال: «ذِكْرك أخاك بما يَكرَهُ»، قيل: أفرأيتَ إنْ كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقولُ، فقدِ اغتَبْتَه، وإن لم يكنْ فيه، فقد بَهتَّه»[١].

٢ـ عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه، أنّ رسولَ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم قال: «المستَبّانِ ما قالا، فعلى البادئ، ما لم يَعتدِ المظلوم»[٢]، بمعنى: أنّ الذي بَدَأَ

---

(١) مسلم، كتاب البر، باب ٢٠ برقم ٦٥٩٣.

(٢) مسلم، كتاب البر، باب ١٨ برقم ٦٥٩١.

بالسَّبِّ لو رَدَّ عليه مَن سَبَّه بمثلِ سَبِّه لَكان البادئُ - فقط - هو المُجرِم، والثاني هو المنصِف، ولو رَدَّ الثاني عليه بأكثرَ ممّا سَبَّه فهو أيضًا مُجرِم، أمَّا إنْ صَبَر وعَفَا فهو خيرٌ له، وينالُ بذلك أجرًا كبيرًا.

﴿إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا أَوۡ تُخۡفُوهُ أَوۡ تَعۡفُواْ عَن سُوٓءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا ﴾

١٥٨- في الآيةِ السَّابقة مَنَعَ اللهُ تعالى من إظهارِ السُّوء، وأَذِن في هذه الآيةِ فيما يتَعلَّقُ بالحَسَنةِ إن شاء أظهَرها، وإن شاء أخفَاها؛ لأنه في بعضِ الأحيان يكونُ إظهارُ الحَسَنةِ أكثرَ فائدةً طبقًا للظُّروف، وفي بعضِ الأحيان يكونُ من الأفضَلِ إخفاؤها، وفي نهايةِ الآية قال اللهُ تعالى للمظلوم بأنّ لكَ الحقَّ في أن تقتَصَّ ممَّن ظَلَمَك، لكنَّك إنْ عفَوْتَ فسيكونُ ذلك خيرًا لك؛ لأنّ العفْوَ صفةٌ إلهيَّة، واللهُ يَعْفو عن المُخطئينَ وهو قادرٌ عليهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗا ﴾

١٥٩- الذين يؤمنونَ بالله ولا يؤمنونَ برُسُلِه، أو يؤمنونَ ببعضِ الرُّسُلِ ويكفُرون بالبعضِ الآخَر، ويحاولونَ - بهذا - خَلْقَ دينٍ آخَرَ بينَ الكُفرِ والإسلام، هم في الحقيقةِ كُفَّارٌ موغِلونَ في الكُفر، لأنّ كلَّ الطُّرقِ غيرَ طريقِ الإسلام تقودُ إلى الكُفر.

يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ

وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾

﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ﴾

١٦٠ـ جاء بعضُ اليهودِ إلى رسُولِ الله ﷺ وقالوا: إنّ الكتابَ الذي كان عند سيِّدِنا موسى عليه السَّلامُ نَزل من السَّماءِ مكتوبًا، فلو أَنْزلتَ علينا كتابًا مِثلَه من السَّماءِ مكتوبًا آمَنّا بك. ورَغْمَ أنّ هذا السُّؤالَ كان للنبيِّ ﷺ، لكنّ اللهَ تعالى أجاب بالنِّيابةِ عنه.

أي: يا أيُّها النبيُّ الحَبيب، لا تَعجَبْ من سُؤالِهم الأحمَق! لأنّهم ـ في الحقيقة ـ لا يَهدِفُونَ إلى طُمَأْنينةِ القلبِ، وإنّما مجرَّدُ الجِدال لا أكثر، ولو أَنْزلْنا عليهم كتابًا مكتوبًا من السَّماءِ لن يؤمنوا أيضًا؛ لأنّ أَسْلافَهم لم يؤمنوا بالكتابِ الذي جاء به موسى عليهِ السَّلامُ مكتوبًا إليهم، ليس هذا فقطْ، وإنَّما طالَبوهُ بأنْ يَظهَرَ اللهُ تعالى أمامَ أعيُنِهم،

وحينَئِذٍ سيؤْمنونَ به، وقد عاقَبْناهم على تمرُّدِهم وسُوءِ أدبِهم بأنْ أخذَتْهم الصَّاعقةُ. (لمزيدٍ من التَّفصيل عن هذه الواقعةِ يمكنُ الرجوعُ إلى الآية رقم **٥٥** من سورة البقرة، وكذا الحاشيةُ رقم **٤٦**).

﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ وَقُلۡنَا لَهُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُلۡنَا لَهُمۡ لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا﴾

١٦١ـ هنا بيانٌ لواقعةٍ أُخرى من جِدالِ اليهود، فبعدَ رؤيتِهم لمُعجِزاتِ سيِّدِنا موسى عليه السَّلامُ الواضحةِ (اليدِ البيضاءِ، والعصا، ونَجاةِ بني إسرائيلَ، وغَرقِ الفِرْعَون ومَن مَعه وغيرِها) اتَّخَذوا منَ العِجل إلهًا لهم، وأخذوا يعبُدونَه، فمِثلُ هذه المطالَباتِ غيرِ المعقولةِ ليست عجيبةً إذا صَدَرتْ من أُناسٍ بعيدينَ عن العقلِ إلى هذا الحدِّ، ولكنْ مَن يعرفُ مدى رحمةِ الله تعالى؟ فهُو الذي عَفَا عن ذنبِهم العظيم هذا، ورَفَع فوقَهم جَبَلَ الطُّور، وأخَذَ عليهمُ العهدَ والميثاقَ بأنْ لا يُحرِّفوا في أحكام التَّوراة، ولا يزيدوا فيها أو ينقُصُوا منها. (لمزيدٍ من التَّفصيل عن هذا الميثاقِ وأحكام السَّبت يمكنُ الرجوعُ إلى الآياتِ من **٦٣** إلى **٦٦** من سورة البقرة، وكذا الحاشيةُ رقم **٥٢**، **٥٣**).

﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ وَكُفۡرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتۡلِهِمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾

١٦٢ـ بيَّنتْ هذه الآيةُ أربعةَ أسبابٍ لكُفرِ اليهودِ هي: (١) كانوا ينقُضُونَ العهد (٢) يُنكِرونَ المعجِزات (٣) يقتُلونَ النبيِّينَ بغيرِ حقٍّ (٤) يَدَّعُونَ أنّ عقائدَهم صحيحةٌ وهي محفوظةٌ في أعماق قلوبِهم بحيثُ لا يمكنُ لأيِّ معجزةٍ أو استدلالٍ أن يُهزَّ إيمانَهم بها، وهذا ليس بالأمرِ الجديد، فهذه عقيدةُ أصحابِ العِناد في كلِّ

زمانٍ، أي: أنّهم يعتقدونَ أنهم على حقٍّ، وأنّ العالَمَ كلَّه على خطأٍ، لكنّ الحقيقةَ هي أنّ اللهَ خَتَم على قلوبِهم، ولم يكنْ هذا بغيرِ سبب، وإنّما هو عقابٌ لهم على كُفرِهم المستمرِّ، والذي أفسَدَ عقولَهم وقلوبَهم إلى درجةِ أنّها فَقَدت مقدِرتَها على قَبولِ الهدايةِ تمامًا، ولهذا لن يؤمنَ منهم إلّا قلّةٌ قليلة.

﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴾

١٦٣ـ حينَ بشَّرتِ السيِّدةُ مريمُ عليها السَّلامُ بسيِّدِنا عيسى عليه السَّلام كانت عَذْراءَ، ولمّا اقترَبَ وقتُ الوَضْع خَرَجت بعيدًا عن العُمران، ولمّا وُلِد الطِّفُل خافَتْ من اتِّهام النّاسِ لها، فجاء الحُكمُ منَ اللهِ تعالى بأنّه إذا تَطاوَلَ أحدٌ عليكِ بلسانِه فاصمُتي وأشيري إلى الطِّفل. وهكذا حينَ عادت إلى أورشليمَ (بيتِ المقدِس) تَطاوَلَ عليها النّاسُ لَمّا رأَوا الطِّفلَ بينَ يدَيْها، فمنَ الطبيعيِّ أن تتولَّدَ الشُّكوكُ والشُّبُهاتُ حولَ أخلاقيّاتِ الفتاة إذا كان لها طفلٌ ولم تتزوَّجْ، وهنا أشارتِ السيِّدةُ مريمُ عليها السَّلامُ إلى الطِّفل حسْبَما أمَرَها اللهُ تعالى أن تفعَلَ، أي: اسألوهُ هو، فقالوا: كيف يمكنُنا التحدُّثُ إلى رَضِيع لا يزالُ في المهد؟ وحينَئذ نَطَق هذا الطِّفلُ البريءُ بلُغةٍ فصيحةٍ قائلًا: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠]، وبعدَ أنْ رأى هؤلاءِ هذه المعجِزةَ الواضحةَ والدَّليلَ الذي لا يَقبَلُ الشَّكَّ، كان عليهم أن يتيَقَّنوا من عِفَّةِ السيِّدةِ مريمَ عليها السَّلام، فهم ـ في النِّهاية ـ أهلُ كتابٍ على كلِّ حال، وكانوا يؤمنونَ بالنُّبوَّةِ والوَحْي والمعجِزات، أمّا أن يتَّهموا هذه السيِّدةَ الطّاهرةَ بهذا الاتِّهام الشَّنيع حتى بعدَ أنْ عَرَفوا كلَّ شيءٍ فإنْ لم يكنْ هذا هو البُهتانَ العظيمَ بَعْينِه فماذا يكون[1]؟

ومعنى اتِّهام السيِّدة مريَم عليها السَّلامُ بتُهمةِ الزِّنا هو: أنّ اليهودَ لم يَعترِفوا

---

(١) تفسير ضياء القرآن.

بمولِد سيِّدِنا عيسى عليه السَّلامُ بغيرِ أبٍ، وهذا الإنكارُ هو في الحقيقةِ إنكارٌ لقُدرةِ اللهِ تعالى، وإنكارُ قدرةِ الله تعالى كُفرٌ والعياذُ بالله[1].

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾

١٦٤ـ ادَّعى اليهودُ أنَّهم قَتَلوا سيِّدَنا عيسى عليه السَّلامُ، وأكثَرُ من هذا أنَّهمُ استَخدَموا لفظَ «رسولَ الله» لسيِّدِنا عيسى عليه السَّلام على سَبيل السُّخْرية! لأنّهم لم يكونوا يؤْمنونَ به رسُولًا لله تعالى، لكنّ القرآنَ المَجِيدَ أبطَلَ هذا الكلامَ بكلِّ صراحةٍ ووضوح، بمعنى: أنّ اليهودَ لمَ يقتُلوا سيِّدَنا عيسى عليه السَّلام، ولم يَصلِبُوه، وإنَّما صَلَبوا شخصًا آخَرَ اشتَبَه عليهم أنه سيِّدَنا عيسى عليه السَّلام، وأحدُ الأدِلّةِ على هذا: اختلافُهم فيما بينَهم؛ لأنَّهم تَأمَّلوا المقتولَ بعدَ أنْ صَلَبوهُ فأصابَتْهم الحَيْرة والدَّهشة، وقال بعضُهم: إنّ هذا هو عيسى عليه السَّلام، وقال البعضُ الآخَر: إنه ليس عيسى عليه السَّلامُ، وإنّما شخصٌ آخَرُ، وَجْهُهُ يُشبِهُ وَجْهَ عيسى عليه السَّلام، وجَسَدُه يُشبِهُ جسَدَ صديقِنا الجاسوس، فإنْ كان هذا صديقَنا الجاسوسَ، فأين عيسى عليه السَّلام إذًا؟ وإن كان هذا هو عيسى عليه السَّلامُ، فأين صديقُنا الجاسوسُ إذًا؟ والحقيقةُ أنهم لا عِلمَ يقينيًّا لدَيْهم فيما يَتعلَّقُ بمصيرِ سيِّدِنا عيسى عليه السَّلام، وإنّما مجرَّدُ شكوكٍ وشُبُهاتٍ ليس إلّا، (ولمزيد من التفصيل عن هذه الواقعةِ يمكنُ الرُّجوع إلى الآيةِ رقم ٥٤ من سورة آلِ عِمران، وكذا الحاشية رقم ٢٩).

ويُعلَمُ من هذه الآيةِ أنّ مَن يقولُ بمقتَلِ عيسى عليه السَّلامُ أو بموتِه إنّما هو جاهلٌ كاليهود، سواءٌ كان قاديانيًّا أم غيرَ ذلك.

---

(١) «اعلم أنهم لما نسبوا مريم إلى الزنا لإنكارهم قدرة الله تعالى على خلق الولد من دون الأب، ومنكر قدرة الله تعالى على ذلك كافر». التفسير الكبير.

﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾

١٦٥ـ كان النَّصارى مثلَ اليهود، يعتقدونَ أنّ عيسى عليه السَّلامُ صُلِب وقُتل، وهكذا أكَّد القرآنُ المَجِيدُ مِرارًا وتكرارًا ـ بغَرَضِ إزالةِ سُوءِ الفَهْم العالميِّ هذا ـ على أنّ سيِّدَنا عيسى لم يُقتَلْ، وإنّما رَفَعه اللهُ بقُدرتِه الكاملة حيًّا إلى السَّماء، ولم تكنْ هذه مُعجِزةً عادِيَّةً، ولهذا ذَكَر اللهُ معَها قوَّتَه الغالبةَ وحِكمتَه البالغةَ، يعني: أنّ مِثلَ هذا الأمر لا يَصعُبُ على الله تعالى؛ لأنه هو الغالبُ وصاحبُ الحِكمةِ العظيمة.

﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾

١٦٦ـ وقد رَجَّح إمامُ المفسِّرين الإمامُ الطَّبريُّ (توفي ٣١٠هـ) في تفسير هذه الآية، ما عبَّر عنه بقولِه: «**واللهِ إنه عليه السَّلامُ الآنَ لَحيٌّ عندَ الله، ولكنْ إذا نَزَلَ آمنوا به أجمَعون، ويومَ القيامة يكونُ عليهم شهيدًا**»[1].

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾

١٦٧ـ لا يزالُ ذِكرُ مظالمِ اليهودِ وجرائمِهم مستمرًّا، وهي التي كانت سببًا في أنّ اللهَ تعالى حَرَّم أشياءَ عديدةً عليهم كانت حلالًا من قَبْلُ، عقابًا لهم، وسيأتي تفصيلُ ذلك في تفسيرِ الآية رقم ١٤٦ من سُورةِ الأنعام، وكان من بَيْنِ ما ارتكَبوهُ من الجرائم أنَّهم لم يَكونوا يَعْصُونَ اللهَ فقطْ، وإنّما كانوا يمنَعونَ الآخَرينَ من سلوكِ الطَّريقِ القَويم بأقوالِهم وأفعالِهم.

﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾

١٦٨ـ مَنَع اللهُ تعالى اليهودَ من أَخْذِ الرِّبا، ومعَ ذلك كانوا يأخُذونَه، كما كانوا

---

(١) تفسير جامع البيان.

يأكُلونَ أموالَ النّاسِ بالباطل بطُرُقٍ عديدةٍ غيرِ مشروعة (مثلَ: الرِّشوةِ والخِداع والسَّرقةِ والنَّهبِ وغيرِ ذلك)، ولا يزالُ هذا الحُكمُ موجودًا في التَّوراةِ حتّى اليوم فيما يَتعلَّقُ بالرِّبا:

«إذا احتاجَ أخوكَ فإنّ مساعدتَه مسئوليَّتُك، فادْعُهُ ضَيْفًا إلى بيتِك ليُقيمَ فيه، اتَّقِ اللهَ ودَعْه يعيشُ معَك، وما تُعطيه له من مالٍ على سبيل القَرْض لا تأخُذْ منه ربًا عليه، تَذكَّرْ جيِّدًا أنّ أَخْذَ الرِّبا ممنوع، فأعطِهِ ما يَحتاجُه بثَمَنِه الأصليِّ، ولا تحاولْ أن تَحصُلَ منه على فائدة»[١].

ولمزيدٍ من التفصيل عن الرِّبا من وِجهةِ النَّظرِ الإسلاميَّة راجِع الحواشيَ من **٢٣٥** إلى **٢٤٠** على الآياتِ من **٢٧٥** إلى **٢٨١** من سورة البقرة.

﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

١٦٩- قرأتَ الآنَ مظالمَ اليهودِ وجرائمَهم التي كانوا مُبْتَلَوْنَ بها، لكنْ كان من بَيْنِهم أيضًا بعضُ العلماءِ أصحابِ العِلم الرَّاسخ والعَمل المُستحكِم والبُعدِ التامِّ عن التعصُّب، وحينَ رأَوْا في النبيِّ ﷺ تلك الصِّفاتِ الموجودةِ في التَّوراة آمَنوا به فورًا (مثلَ: عبد الله بن سَلّام رضيَ اللهُ عنه وغيرِه)، وآمَنوا بالعقائدِ والأعمالِ الإسلاميَّة من قلوبِهم، فاستَحقُّوا بذلك أجرًا عظيمًا.

---

(١) "If your brother become poor, you are responsible to help him, invite him to live with you as a guest in your home. Fear your God and let your brother live with you, and don't charge him interest on the money you lend him. Remember- no interest, and give him what he needs, at your cost, don't try to make profit". (The Living Bible: British Edition **1975**: Leviticus: **26**: **35** to **37**).

۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧٠﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾

﴿۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾

١٧٠ـ ادَّعى اليهودُ أنّ سيِّدَنا موسى عليه السَّلامُ هو النبيُّ الخاتَم، ولم يكونوا يعترِفونَ بسيِّدنا عيسى عليه السَّلام، ولا بسيِّدِنا محمّدٍ ﷺ نبيَّيْنِ، ولهذا طَلَبوا من النبيِّ ﷺ قائلينَ: إنْ كنتَ نبيًّا فأنزِلْ علينا كتابًا من السَّماءِ مكتوبًا نقرأُه، مثلَما أُنْزِل الكتابِ على سيِّدِنا موسى عليه السَّلام، وعليه أنْزلَ اللهُ تعالى هذه الآيةَ.

يعني: يا أيُّها اليهودُ، كما أَنْزلْنا الوَحْيَ على الأنبياءِ السَّابقين، أَنْزلْنا الوَحْيَ أيضًا على محمَّدٍ ﷺ، وأنتم تؤْمنونَ بالأنبياءِ الآخَرينَ لنزولِ الوَحْيِ عليهم، في

حينَ أنه لم يُنزِلْ أيَّ كتابٍ مكتوبٍ على أيِّ نبيٍّ آخَرَ غيرِ موسى عليه السَّلام، ومثلَما كان الأنبياءُ الآخَرونَ الذين لم يُنزِلْ عليهم كتابًا من السَّماء مكتوبًا (سيِّدُنا إبراهيمُ وسيِّدُنا نوحٌ وسيِّدُنا داود وغيرُهم من الأنبياءِ عليهم وعلى نبيِّنا الصَّلاةُ والسَّلام) أنبياءَ صادقينَ حقًّا، وأنتم تؤمنونَ بهم أنبياءَ، فإنّ محمَّدًا عليه الصَّلاة والسَّلام نبيٌّ صادقٌ أيضًا[1]، كما أنه يكفي - لإثباتِ النُّبُوةِ - إظهارُ المعجِزات، وقد أظْهَر لكم النبيُّ ﷺ معجزاتٍ كثيرةً مَثَلُه مَثَلُ الأنبياءِ السَّابقين، وأكبرُ معجِزاتِه ﷺ هي القرآنُ الكريم، والذي يتَحدَّى العالَمَ كلَّه حتّى اليومَ أن يأتيَ أحدٌ بمِثلِه، وسيبقى هذا التحدِّي حتّى يوم القيامة، في حينَ أنّ معجِزاتِ باقي الأنبياءِ الكرام عليهم السَّلام قدِ انتَهت بذهابِهم، فأيُّ ظُلمٍ هذا؟ أن تؤمنوا بالأنبياءِ الذين كانت معجِزاتُهم فانيةً، وتَكفُرونَ بالنبيِّ العظيم صاحبِ المعجِزةِ العظيمة الخالدة وهي القرآنُ الكريم!

﴿كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾

١٧١- إنّ سيِّدَنا نوحًا عليه السَّلامُ مِثلُ سيِّدِنا آدمَ عليه السَّلام هو أبو بني الإنسانِ جميعًا؛ لأنّ النّاسَ جميعًا هَلَكوا بطُوفانِ نُوح عليه السَّلام، ومَن نَجَوْا من الطُّوفان في السَّفينة لم يبقَ من نَسْلِهم أحدٌ سوى نَسْلِ نوح عليه السَّلام، ولهذا يُطلَقُ عليه اسمُ «آدمَ الثاني»، وقد أُتيحت لي فرصةُ زيارةِ المسجدِ الأقصى عامَ ٢٠٠١م، حيث سافرتُ إلى فِلَسطينَ لتقديم المساعداتِ الخَيْريَّةِ لأهلِ فِلَسطين، وفي تلك الأثناءِ شَرُفتُ بزيارةِ أضرِحةِ أنبياءَ عديدينَ هناك، يعني: ضريحَ سيِّدِنا

---

(١) «إنكم يا معشر اليهود تقرون بنبوة نوح وبجميع الأنبياء المذكورين في هذه الآية، والمعنى: أن الله تعالى أوحى إلى هؤلاء الأنبياء، وأنتم يا معشر اليهود معترفون بذلك، وما أنزل الله على أحد من هؤلاء المذكورين كتابًا جملة واحدة مثل ما أنزل على موسى عليه السلام، فلما لم يكن عدم إنزال الكتاب جملة واحدة على أحد هؤلاء الأنبياء قادحًا في نبوته فكذلك لم يكن إنزال القرآن على محمد صلى الله عليه وآله وسلم قادحًا في نبوته». تفسير الخازن.

نُوحٍ عليه السَّلام، وضَريحَ سيِّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلام، وضريحَ سيِّدِنا إسحاقَ عليه السَّلام، وضريحَ سيِّدِنا يعقوبَ عليه السَّلام، وضريحَ سيِّدِنا يوسُفَ عليه السَّلام، وضريحَ سيِّدِنا موسى عليه السَّلام وغيرِهم، وهناك رأيٌ فيما يَتعلَّقُ بقبرِ سيِّدِنا نوحٍ عليه السَّلام، وهو أنه مدفونٌ بالعراقِ (والله أعلمُ بالصَّواب).

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾

١٧٢ـ عددُ الأنبياءِ الذين وَرَد ذِكرُهم وتفاصيلُ حياتِهم في القرآنِ الكريم خمسةٌ وعشرونَ (٢٥) نبيًّا ورسولًا، يعني: سيِّدَنا آدمَ ونوحًا وإدريسَ وهُودًا وصالحًا وإبراهيمَ ولوطًا وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ ويوسُفَ وأيوبَ وشُعيبًا وموسى وهارونَ ويونُسَ وداودَ وسُليمانَ وإلياسَ والْيَسَعَ وزكريَّا ويحيى وعيسى وذا الكِفْلِ وسيِّدَ الأنبياءِ جميعًا سيِّدَنا محمَّدًا عليه وعلى أنبياءِ الله ورُسُلِه الصَّلاة والسَّلام[1].

﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾

١٧٣ـ أمّا الأنبياءُ الذين لم يَرِدْ ذِكرُهم ولا ذِكرُ تفاصيلِ حياتِهم في القرآنِ الكريم فلا يَعلَمُ عددَهم الحقيقيَّ سوى الله تعالى، ولكنّ هناك حديثًا مشهورًا في هذا الخصُوص: **عن أبي ذرٍّ رضيَ اللهُ عنه، قال: قلتُ: يا رسولَ الله! كم الأنبياءُ؟ قال: «مائةُ ألفٍ وأربعةٌ وعشرونَ ألفًا» قلت: يا رسولَ الله! كم الرُّسُلُ منهم؟ قال: «ثلاثُمائةٍ وثلاثةَ عشَرَ»**[2].

﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾

١٧٤ـ لقد كَرَّمَ اللهُ تعالى سيِّدَنا موسى عليه السَّلامُ تكريمًا خاصًّا، وتكلَّم

---

(١) تفسير ابن كثير.

(٢) المرجع السابق.

إليه في الوادي الأيمنِ بصُورةٍ مباشِرة وبغيرِ واسطةٍ من مَلَكٍ، ولكنّ سيِّدَنا محمَّدًا عليه الصَّلاة والسَّلام لم يُكلِّمُه اللهُ مباشرةً فقطْ ليلةَ المعراج، وإنّما أَنْعَمَ عليه بالزِّيارة أيضًا وشَرّفَه بها[1].

﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ ﴾

١٧٥- أرسَلَ اللهُ تعالى رسُلًا وأنبياءَ إلى كلِّ قوم وكـلِّ مِنطقة، وهـم الذين أرشَدوا النّاسَ إلى طريقِ الهداية، حتّى لا يستطيعَ مُجرمٌ يومَ القيامة أن يَحتجَّ بعُذرٍ أنه لم يكنْ يَعْلَم، وأنّ أحدًا لم يُوصِلْ إليه رسالةَ الهداية.

وظلَّ الأنبياءُ قبلَ النبيِّ ﷺ يُرسَـلونَ إلى كـلِّ مِنطقة وكـلِّ قوم؛ لأنّ هؤلاءِ هم مصابيحُ الهداية، ونورُ المصباح يكونُ محدودًا بمنطقةٍ مخصُوصة، لكنّ سيِّدَنا محمّدًا ﷺ أُرسِل إلى الكائناتِ كافةً؛ لأنّه ﷺ شمسُ الهداية، ونورُ الشَّمسِ يكفي الكائناتِ جميعًا.

﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَ ﴾

١٧٦- يعني: أنّ هؤلاءِ لو أنكَروا نبوُّتَك أيُّها النبيُّ صلى اللهُ عليكَ وسلَّم فإنّهم يُفسِدونَ خاتمتَهم؛ لأنّ اللهَ تعالى وملائكتَه يشهَدونَ على نُبوَّتِك، كما أنّ القرآنَ الكريمَ يُثبِتُ نبوَّتَك أيضًا (وهو معجِزةٌ بألفاظِه ومعانيه)، فما الفَرْقُ الذي يمكن أن يُحدِثَه إنكارُهم إذًا؟

---

(١) «عن الإمام أحمد، أنه كان يقول إذا سئل عن الرؤية: رآه رآه، حتى ينقطع نَفسُه، ولا يزيد على ذلك. قال السيد محمود الآلوسي: أنا أقول برؤيته صلى الله عليه وآله وسلم ربه سبحانه وبدنوه منه سبحانه على الوجه اللائق». تفسير روح المعاني، سورة النجم (٥٣): الآية ١٨.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾

١٧٧ـ سيِّدُنا محمَّدٌ ﷺ نبيٌّ لكلِّ البَشر، ولهذا جاءتِ الدَّعوةُ هنا لبني الإنسانِ في العالَم كلِّه أنّ الصِّدقَ المُجسَّمَ سيِّدَنا محمَّدًا ﷺ قد بُعِثَ إليكم من اللهِ تعالى برسالةِ الصِّدق والحقِّ، فآمِنوا به، فهو خيرٌ لكم، وإن أنْكرتُم وكَفرتُم فتَذكَّروا أن مالكَ كلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ في السَّمواتِ والأرضِ هو اللهُ تعالى، ولن يَضيرَ اللهَ شيئًا عَدُم إيمانِكم، لكنَّكم ستَخلُدونَ في جهنَّمَ وبئسَ المصيرُ عقابًا لكم على عِصيانِكم.

وقد قال اللهُ تعالى في الحديثِ القُدُسيِّ: «**يا عبادي! لو أنّ أوّلَكم وآخِرَكم، وإنْسَكم وجِنَّكم، كانوا على أتقَى قلبِ رجُلٍ واحدٍ منكم، ما زاد ذلك في مُلكي شيئًا، يا عبادي! لو أنّ أوّلَكم وآخِرَكم، وإنْسَكم وجِنَّكم، كانوا على أفجَرِ قلبِ رجُلٍ واحدٍ منكم، ما نقَصَ ذلك من مُلكي شيئًا، يا عبادي! لو أنّ أوّلَكم وآخِرَكم، وإنْسَكم وجِنَّكم، قاموا في صعيدٍ واحدٍ فسألُوني، فأَعطَيْتُ كلَّ إنسانٍ مسألَته، ما نَقَص ذلك ممّا عندي إلّا كما يَنقُصُ المِخْيَطُ إذا أُدخل البحرَ**»[١].

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾

١٧٨ـ جاء في الآياتِ السَّابقة الرَّدُّ على اليهودِ الذين أساءوا إلى مقام سيِّدِنا عيسى عليه السَّلامُ إلى درجةِ الإجرام، وبدَلًا من أن يَعترفوا بمولدِه المعجزِ اتَّهموا السيِّدةَ مريمَ عليها السَّلامُ بالفاحشة، وقاموا بمحاولاتٍ فاشلةٍ لقَتْل سيِّدِنا عيسى عليه السَّلام، وبنفسِ الطريقة ترَدَّد النَّصارى في فَهْم واستيعابِ مَوْلِدِ سيِّدِنا عيسى

---

(١) مسلم، كتاب البر، باب ١٥ برقم ٦٥٧٢. والحديث عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ.

عليه السَّلام المعجِز بغيرِ أبٍ، معَ أنّ مِثالَ مَوْلِدِ سيِّدِنا آدمَ عليه السَّلام بغيرِ أمٍ وأبٍ كان موجودًا أمامَهم، ولكنَّهم معَ ذلك ادَّعَوا أنّ عيسى عليه السَّلامُ هو ابنُ الله، وجَعَلوا من ذاتِ سيِّدِنا عيسى عليه السَّلامُ لُغزًا معقَّدًا غامضًا، ففِرقةٌ منهم تقول: إنّ طبيعةَ سيِّدِنا عيسى عليه السَّلامُ بشَريَّة، وتقولُ أُخرى: إنّ طبيعتَه إلهيَّة، وتقولُ ثالثةٌ: إنه أزَليٌّ كَمِثلِ الله، وتقولُ رابعةٌ: إنه حادثٌ، أي: وُلِد لاحقًا، وتقولُ خامسةٌ: إنه حادثٌ وقديمٌ في ذاتِ الوقت، فكيف يمكنُ أن نُصدِّقُ أنّ ذاتَ سيِّدِنا عيسى عليه السَّلامُ في وقتٍ واحد ربٌّ وعبدٌ وقديمٌ وحادثٌ؟ فنبَّه اللهُ تعالى النَّصارى في هذه الآيةِ أنْ لا يتجاوَزوا الحدودَ في أمرِ سيِّدِنا عيسى عليه السَّلام، فهو ليس الله! وإنّما رسولُ الله، وقد أَنْعَمَ اللهُ عليه بمقامٍ عظيم، وهو كلِمةُ الله، يعني: وُلِدَ بأمرِ الله تعالى فقَطْ، وبدونِ أسبابٍ ماديَّة، وهو رُوحُ الله، يعني: أنّ اللهَ تعالى خَلَق عيسى عليه السَّلامُ طاهرًا كالرُّوح؛ لأنّ مولدَه يَخْلو من أيِّ خَليطٍ لأيِّ نُطفةٍ بشَريَّة.

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞ﴾

١٧٩ـ التثليثُ عقيدةٌ يتّفقُ عليها المسيحيُّونَ جميعًا تقريبًا، لكنَّهم مختلِفونَ في تفاصيلِها والتعبيرِ عنها، ففِرقةٌ تدَّعي أنّ اللهَ وعيسى ومريمَ ثلاثةُ آلهة، وفرقةٌ ثانيةٌ تقولُ: إنّ اللهَ وعيسى وجِبريلَ ثلاثةُ آلهة، يعني: اللهُ هو الأبُ، وعيسى هو الابنُ، وجِبريلُ هو رُوحُ القُدُس، ثم إنّهم يؤمنونَ بكلِّ واحدٍ من هؤلاءِ الثلاثةِ إلهًا كاملًا مستقِلًّا، وهؤلاءِ الآلهةُ الثلاثةُ يُكوِّنونَ معًا إلهًا واحدًا، يعني: إلهٌ واحدٌ في الثلاثة، وثلاثةُ آلهةٌ في الإلهِ الواحد. إنه لُغزٌ يعملُ علماءُ المسيحيَّةِ على حلِّه منذ ألفٍ وتسعِمائة (١٩٠٠) عام مضَتْ، لكنَّهم لم يستطيعوا ـ إلى اليوم ـ تقديمَ تفسيرٍ معقولٍ ومفهوم له، ولن يستطيعوا ذلك في المستقبَل؛ لأنّ هذه النظريَّةَ تُجافي

الحقيقةَ، وهي نَتاجُ سُوءِ فَهْمِ العالَم المسيحيِّ نفسِه، وأصلُها الصَّحيحُ وحَلُّها البسيطُ هو الذي جاء في القرآنِ الكريم، يعني: دَعْكم من موضوع الآلهةِ الثلاثةِ هذه، فاللهُ تعالى واحدٌ، وهو وحدَه المستحِقُّ للعبادة، وليس له وَلَدٌ، وهو المالكُ لكلِّ شيءٍ في السَّمواتِ والأرض، مثلَما سُئل سيِّدُنا عيسى عليه السَّلام: ما أهمُّ حُكم؟ فقال: (أهمُّ حُكم هو أنّ) إلهَنا واحد، واحدٌ فقط، فأحِبُّوه بكلِّ طاقتِكم ورُوحِكم وقلوبِكم وعقولِكم[1]، وتقولُ الصُّحُفُ المُقدَّسةُ أنِ اعبُدوا الربَّ فقط، وأطيعُوهُ هو فقطْ[2].

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾

١٨٠ـ حينَ استخدَمَ سيِّدُنا رسولُ الله ﷺ ـ في حديثِه معَ وَفْدِ علماءِ النَّصْرانيَّةِ

---

(١) مرقس، ١٢: ٢٨ - ٣٠.

(٢) متى: ٤: ١٠.

من نَجْرانَ ـ لفظَ: «رسولُ الله، وعَبْدُ الله» لسيِّدِنا عيسى عليه السَّلام، قال له الوَفْدُ منَ النَّصارى: **يا محمّد! لمَ تَعِيبُ صاحبَنا؟ قال: «ومَن صاحبُكم؟»، قالوا: عيسى عليه السّلام، قال: «وأيَّ شيءٍ أقولُ فيه؟»، قالوا: تقول: إنّه عبدُ الله ورسولُه، فَنزَلتِ الآيةُ**[1]. أي: أنه لا عارَ في أن يقولَ سيِّدُنا عيسى عليه السَّلامُ عن نفسِه: إنه عبدُ الله، بل إنّ هذا فَخْرٌ له؛ لأنّ معراجَ الإنسانيَّةِ وعَظَمتَها الكُبرى هو أن يُثبِتَ الإنسانُ أنه عبدٌ لله، وأن يَقبَلَ الله تعالى عبوديَّتَه له.

لَمَا وَصَل النبيُّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم إلى الدَّرَجاتِ العالية والمَراتبِ الرَّفيعة أوحَى اللهُ تعالى إليه: يا محمّد! بم نُشرِّفُك؟ قال: بِنسبتي إليكَ بالعُبوديَّة. فأَنْزلَ اللهُ تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾[2]. والغالبُ أنّ الله تعالى عندَ الحديثِ عن المعراج ذَكَر لفظَ «بعَبْدِه»، وهو اللفظُ الذي أحبَّه حبيبُه ﷺ لنفسِه.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾

١٨١ـ مَن يعتبِرْ عبادةَ الله تعالى عارًا ويتكبَّرْ، فإنّ له عذابًا أليمًا، لكنّ السُّعداءَ الذين يؤمنونَ ويعمَلونَ الصَّالحاتِ سينالونَ أَجْرَ أعمالِهم كاملًا، ليس هذا فقَطْ، بل إنّ اللهَ تعالى سيتفضَّلُ عليهم بسببِ إخلاصِهم بالمزيد، وقد قال ﷺ شارحًا هذا «المزيدَ»: «**يُوفِّيهم أُجورَهم ويُدخِلُهم الجنّةَ ويزيدُهم من فَضْلِه الشّفاعةَ فيمَن وَجَبتْ لهمُ النّارُ ممّن صَنَع إليهم المعروفَ في الدُّنيا**»[3].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾

١٨٢ـ إنّ ذاتَ النبيِّ ﷺ دليلٌ بيِّنٌ على الحقِّ والصِّدق، والقرآنُ المَجيدُ

---

(١) تفسير روح المعاني.

(٢) المرجع السابق، سورة الإسراء (١٧): الآية ١.

(٣) المرجع السابق، والحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه.

نورٌ للهداية، من يواصِلُ سَفَرَه بثباتِ قَدَم في نورِه، يفوزُ برحمةِ الله وفَضْلِه في الدارَيْن.

﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِ﴾

١٨٣ـ الكَلالةُ تقالُ للرَّجُلِ أو المرأةِ الذي لا يكونُ أبواه ولا أولادُه ـ ذكورًا وإناثًا ـ أحياءً عندَ موتِه. **عن جابرِ بن عبدِ الله رضيَ اللهُ عنهما، قال: عادَني رسولُ الله صَلّى الله عليه وآلِه وسلَّم وأنا مريضٌ ومعَه أبوبكرٍ رضيَ الله عنه ماشيَيْنِ، فوَجَدني قد أُغميَ عليَّ، فتوضَّأَ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم ثمّ صَبَّ علَيَّ من وضوئِهِ فأفَقْتُ، فإذا رسولُ الله صلّى الله عليه وآلِه وسلَّم، فقلتُ: يا رسولَ الله! كيف أصنَعُ في مالي؟ قال: فلم يَرُدَّ علَيَّ شيئًا، حتّى نَزَلتْ آيةُ الميراث**[1]. وقال أيضًا: «**يا جابر! لا أراكَ ميّتًا مِن وَجَعِك هذا**»[2]، ولأنّ سيِّدنا جابرًا رضيَ اللهُ عنه كان كَلالةً في ذلك الوقت، يعني: لم يكنْ والداهُ ولا أولادُه أحياءً، وإنّما كان له أخَواتٌ فقطْ، لهذا سألَ عن تقسيم تَرِكتِه.

ويُعلَمُ من هذا الحديثِ أنّ سيِّدَنا جابرًا رضيَ اللهُ عنه قد أفاق وذهَبَ عنه مرَضُه ببركةِ ماءِ النبيِّ ﷺ، كما أنّ سيِّدَنا جابرٌ رضيَ اللهُ عنه، طِبقًا لنبوءةِ النبيِّ ﷺ، لم يَمُتْ بهذا المَرض، وإنّما بقيَ على قَيْدِ الحياةِ بعدَها، وكان يقولُ: **أُنْزِلتْ فيَّ هذه الآيةُ:** ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِ﴾[3].

﴿إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞ﴾

١٨٤ـ لو مات الرَّجلُ الكَلالةُ وكانت تَرِكتُه ثلاثَمائةِ ألفِ جُنَيْهٍ مَثلًا، وله أُختٌ من الأُمِّ، ومن أبٍ آخَرَ، فإنّ حُكمَ هذه الأُختِ قد تمَّ الحديثُ عنه في الآيةِ

(١) مسلم، كتاب الفرائض، باب ٢ برقم ٤١٤٧.

(٢) أبو داود، برقم ٢٨٨٧.

(٣) نفسه.

رقم ١٢ من هذه السُّورة، وهنا ذِكرٌ للأُختِ الشَّقيقةِ من نفسِ الأبِ (سواءٌ كانت الأُمُّ واحدةً أم لا)، فإنّ هذه الأُختَ تَرِثُ النِّصفَ من تَرِكةِ الكَلالة، أي: مائةً وخمسينَ ألفَ جُنَيْه، وإذا لم يكنْ للكَلالةِ وارثٌ شرعيٌّ آخَرُ فإنّ النِّصفَ الباقيَ يذهبُ إليها أيضًا، أي: تأخُذُ الثلاثَمائةِ ألفٍ كاملةً.

أمّا إذا كان الكَلالةُ رجُلًا أو امرأةً، وله وارثٌ واحدٌ هو أخوه، فإنّ هذا الأخَ سَيرِثُ كلَّ تَرِكةِ الكَلالة، يعني: سَيرِثُ الثلاثَمائةِ ألفِ جُنَيْهٍ كاملةً.

﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾

١٨٥ـ لو كان للكَلالةِ أُختانِ أو أكثرُ، يُقسَّمُ جزءانِ من التَّرِكة (يعني: مائتيَ ألفٍ) بالتَّساوي بينَهنَّ جميعًا، والمئةُ ألفِ الباقيةُ توزَّعُ بيْنَ الوَرَثةِ الآخَرين، فإنْ لم يكنْ هناك وَرَثةٌ آخَرونَ قُسِّمتِ المائةُ ألفٍ بيْنَ الأخَواتِ بالتَّساوي أيضًا.

﴿وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾

١٨٦ـ وإن كان وَرَثةُ الكَلالة إخوةً وأخواتٍ، فإنّ الرَّجلَ يُعطَى مِثلَ حظِّ الأُنثيَيْنِ.

﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾

١٨٧ـ بيَّنَ اللهُ تعالى في الآية رقم ١٢ من هذه السُّورة، وكذا هذه الآيةُ، أحكامَ الميراثِ بالتفصيل، حتى لا يَضِلَّ النّاسُ في أمرِه بدافع من مصالحِهم الشَّخصيَّة، كما أنّ هذا التقسيمَ جاء من الله تعالى القادرِ المُطلَقِ الذي يَعلَمُ حاجةَ كلِّ شخصٍ ومسئوليَّاتِه، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

ملحوظة: كان يومُ الجُمعةِ الموافُق التاسعَ عشَرَ (١٩) من يوليو عام ٢٠٠٢م، وكانت جامعةُ الكرَم في الإجازةِ الصّيفيَّة، وقد غادَرَ طلابُ الجامعة وأساتذتُها إلى بيوتِهم، وكنتُ قد بدأتُ تفسيرَ الآيةِ الأُولى من الجزءِ الخامس (يعني: الآيةَ رقم ٢٤

من سُورة النِّساء)، وقد عَزَم هذا العبدُ الفقيرُ إلى الله أن لا يستريحَ في هذه الإجازاتِ الصَّيفيَّة، وبَدَلًا من هذا يُكمِلُ تفسيرَ سُورةِ النساء، واليومَ الأربعاءَ الموافق الحاديَ والعشرينَ (٢١) من أَغُسطُس عام ٢٠٠٢م، وبعدَ صلاةِ الفَجْر، وَصَل تفسيرُ سُورة النِّساءِ إلى نهايتِه.

والحمدُ لله ربِّ العالَمين

يا ربِّ العالَمين، تَقبَّلْ هذه المحاولةَ البسيطةَ من عَبْدِك الفقيرِ إليك، واجعَلْها هدايةً للنّاس، ووسيلةً لنجاةِ هذا الفقير، آمينَ، بجاهِ حبيبِك الكريم عليه التَّحيةُ والتسليم.

الفقيرُ إلى الله:
محمَّد إمداد حُسَين بِيرْزَاده:
جامعةُ الكَرَم، بريطانيا.

❋ ❋ ❋

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥) سُورَةُ المَائِدَةِ

هذه السُّورةُ مدَنيَّةٌ؛ لأنّها نَزَلت بعدَ الهجرة، واسمُها سُورةُ «المائدة» (السِّمَاط)، لأنّ بها ذِكْرًا لمائدةٍ معجِزةٍ أنزَلَها اللهُ تعالى من السَّماءِ استجابةً لدُعاءِ سيِّدنا عيسى عليه السَّلام، وقد سَعِد النَّصارى كثيرًا لمَّا رأَوْا هذه المائدةَ، بحيثُ كانوا يعتبِرونَه يومَ فَرَحٍ مَثَلُه كمَثَلِ يومِ العيد.

وقد بيَّنتْ هذه السُّورةُ أحكامَ الطَّعام والشرابِ، والوضوءِ والتيمُّم، والحلالِ والحرام، والحجِّ والعُمْرة، كما جاء الحُكمُ فيها بالتَّعاونِ بعضِنا مَع بعضٍ في أعمالِ الخير، وعَدَم التَّعاونِ في أعمالِ الشرِّ والبُعدِ عنها، كما قرَّرتِ السُّورةُ أيضًا أنّ قتْلَ إنسانٍ بَريءٍ بغيرِ حقٍّ جُرمٌ عظيمٌ يَعدِلُ قتْلَ بني الإنسانِ جميعًا، كما بيَّنتِ السُّورةُ أيضًا عَظَمةَ الكتُب السَّماويةِ السَّابقة، إذْ كانتِ التَّوراةُ والإنجيلُ كلامَ الله تعالى ومنبَعًا للهدايةِ والنُّور.

هذا، وقد جاء في الآيةِ الثالثةِ من هذه السُّورةِ الكريمةِ سُورةِ المائدة، كلامُ الله تعالى الذي أعلَن فيه عن اكتمالِ الدِّين: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾، وقد قرَأَ سيِّدُنا عبدُ الله ابنُ عبّاس رضيَ اللهُ عنه هذه الآيةَ الكريمةَ وعندَه يهوديٌّ، فقال: **لو أُنزِلَتْ هذه الآيةُ علينا لاتَّخذْنا يومَها**

عيدًا، فقال ابنُ عبّاسٍ رضيَ اللهُ عنهما: فإنّها نَزَلتْ في يومِ عيدَيْنِ: في يوم الجُمعةِ ويوم عَرَفة[١]. (أي: أنّ هذَيْنِ اليومَيْنِ يوما عيدٍ بالنِّسبة لنا منذُ البداية).

❊ ❊ ❊

(١) الترمذي، برقم ٣٠٤٤، أبواب تفسير القرآن، باب ٥، سورة المائدة (٥). ويتكرّر هذا الأثر عند المؤلف عند الحديث عن الآية في الحاشية (١١).

سُورَةُ المَائِدَةِ (٥)،

مدنية (١١٢)، آياتها (١٢٠)، ركوعاتها (١٦)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي
ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ
ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا
حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ
وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ
﴿٢﴾ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ
وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ
بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ
أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي
مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣﴾ يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ قُلۡ أُحِلَّ
لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ
وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٤﴾ ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ
ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ
أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ
أَخۡدَانٖۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾

١ ـ أمَرَ اللهُ تعالى أهلَ الإيمان أن يُوفوا بكلِّ العهودِ والمواثيق، سواءٌ كانت هذه العهودُ والمواثيقُ بيْنَ اللهِ تعالى والإنسان، أم بيْنَ بني الإنسانِ بعضِهم بعضًا، وسواءٌ كانت تَتَعلَّقُ بالأحكام الدِّينيَّةِ أم بالمعامَلاتِ الدُّنيويَّة، وسواءٌ كانت مَع أهل الإيمانِ أم مَع غيرِ المسلمينَ، يجبُ على الجميع الالتزامُ بها، إلّا أنّ العهودَ والمواثيقَ التي يترتَّبُ عليها عِصيانُ الله تعالى ورسولِه يجبُ عَدَمُ الوفاءِ بها، كما أنّ النبيَّ ﷺ اعتَبر نَقْضَ العهدِ من علاماتِ المنافق، **فعن أبي هريرةَ رضيَ الله عنه؛ أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآلِه وسلَّم قال: آيةُ المنافقِ ثلاثٌ: إذا حدَّثَ كذَب، وإذا اؤتُمِنَ خان، وإذا وَعَد أخْلَف»**[1].

﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾

٢ ـ كان مشركو العربِ قد حَرَّموا على أنفُسِهم عدَدًا من المواشي بسببِ عقائدِهم الباطلة، كما أنّ عددًا آخَرَ من المواشي قد حُرّم على بني إسرائيلَ عقابًا لهم، وقد جاء الأمرُ إلى المسلمينَ بأنّ هذه الحيواناتِ حلالٌ لكم، ما عدا تلكَ الحيَواناتِ التي سَيرِدُ ذِكرُها فيما بعدُ في الآيةِ رقم ٣، فأكْلُها حرامٌ عليكم، وبالإضافة إلى ذلك، فإنّ الحيَواناتِ التي وَرَدت حُرمتُها في الأحاديثِ الشَّريفةِ لا يجوزُ لكم تناوُلُها أيضًا، على سبيل المثال، الحيَواناتُ المفترِسةُ ذاتُ الأنيابِ (وهي التي تَصطادُ فريستَها بأنيابِها، مثلَ: الأسدِ والنَّمِر والكلبِ والذِّئبِ وغيرِها)، وكذا ذواتُ الأنيابِ من الطُّيور (وهي التي تَصطادُ بمَخالِبها، مثلَ: النَّسرِ والصَّقر والعُقَابِ وغيرِها)، **عن ابن عَبّاس رضيَ اللهُ عنهما؛ أنّ رسولَ الله صلى اللهُ عليه**

---

(١) البخاري، كتاب الشهادات، باب ٢٨ برقم ٢٦٨٢.

وآلِه وسلَّم نَهى عن كلِّ ذي نابٍ من السِّباع، وعن كلِّ ذي مِخلَبٍ من الطَّيْر[1].

﴿غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾

٣ ـ الإحرامُ يقالُ: لذلك اللِّباسِ الذي يَلبَسُه من يزورُ الكعبةَ، وبعدَ ارتداءِ ملابسِ الإحرام يَمتنعُ على المُحرِمِ كثيرٌ من الأعمال تجوزُ له في الأحوالِ العاديَّة، على سَبيل المثال: حَلْقُ الشَّعر، وقَصُّ الأظافر، والتعطُّر، والجِماعُ وغيرُها، ومن بيْنِ هذه الممنوعاتِ أيضًا: أنْ لا يَصطادَ صيْدَ البرّ، ولا يدُلَّ أحدًا على صَيْدِه، لكنْ يجوزُ له صَيْدُ البحرِ في حالةِ الإحرام: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المائدة: ٩٦].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾

٤ ـ اللهُ تعالى هو خالقُ هذه الكائناتِ ومالكُها وحاكِمُها المُطلَق، وله السُّلطةُ المطلَقةُ في أن يَحكُمَ بما يشاء، وعلى أهلِ الإيمانِ أن يَحْنُوا رؤوسَهم خضوعًا لحُكم اللهِ تعالى، سواءٌ فَهِموا حِكمةَ هذا الحُكم أم لم يفهَمُوها، ورغْم أنّ أيَّ حُكم من أحكام اللهِ تعالى لا يَخْلو من حِكمةٍ، ولكنّ أهلَ الإيمانِ يُطيعونَ أحكامَ اللهِ تعالى لأنَّها أحكامُ مالكِهم الحقيقيِّ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾

٥ ـ المرادُ بشعائرِ اللهِ تعالى هنا: دِينُ الإسلام، أي: أنْ يُطاعَ كلُّ حُكمٍ للهِ تعالى، ويتُجنَّبَ غَضَبُه، والأشياءُ التي مَنَحَها اللهُ تعالى تعظيمًا ما، مثلَ الكعبةِ والقرآنِ الكريم وغيرِهما، وكذا الأشياءُ المتعلِّقةُ بعبادِ الله المقرَّبين، فهي أيضًا من

(١) مسلم، كتاب الصيد، باب ٣ برقم ٤٩٩٦.

شعائرِ الله تعالى، مثلَ: غارِ حراءَ ورَوْضةِ الرسُولِ ﷺ والصَّفا والمَرْوةِ وتابوتِ متروكاتِ سيِّدِنا موسى عليه السَّلامُ وغيرِها، ولمزيدٍ من الشَّرح والتوضيح يمكنُ الرُّجوعُ إلى الحاشيةِ رقم **٢٠٩** للآيةِ رقم **٢٤٨** من سُورة البقرة.

وقد جاء في هذه الآيةِ ذِكْرٌ لبعضِ الأشياءِ ذاتِ الحُرمةِ العظيمة، والمتعلِّقةِ بالحَجِّ، وهي التي يَحرُمُ إهانتُها هنا، يعني: الأشهرَ الحُرُمَ (رجبًا وذا القَعْدة وذا الحِجّة والمحرَّمَ)، وحيَوانُ الهَدْي (وهو الذي يَصْطحِبُه الحاجُّ لذَبْحِه في الحَرَم الشَّريف، أو هو الذي يَصْطحِبُه الحاجُّ بقَصْدِ ذَبْحِه في الحَرَم ويُعلِّقُ في رَقَبتِه علامةً على ذلك، وكذا المتوجِّهونَ إلى الحَرَم الشَّريفِ بقَصْدِ الحجِّ والعُمْرة أو التِّجارةِ والعمل).

وتهدِفُ هذه الآيةُ إلى القولِ: إنّ الذين يَصْطَحِبونَ حيَوانَ الهَدْي إلى الحَرَم الشَّريفِ بغَرَضِ الحجِّ والعُمْرةِ أو التِّجارةِ والعمَل يجبُ أن لا يُؤْذِيَهم أحدٌ، سواءٌ كان هؤلاء الزُّوّارُ من المسلمينَ أم من غيرِ المسلمين؛ لأنّه في البداية كان الكفّارُ فقطْ هم الذين يذهَبونَ إلى الكعبة، ولم يكنْ يُسمَحُ للمسلمينَ بذلك، ولكنْ سُمِح للمسلمينَ بالطَّوافِ حولَ الكعبةِ في السَّنةِ السابعةِ للهجرة، وهكذا كان المسلمونَ والكفَّارُ يطُوفونَ بالكعبةِ معًا، وكانت الأصنامُ لا تزالُ موجودةً في الكعبةِ إذْ ذاك، وبعدَ فَتْح مكّةَ في السَّنةِ الثامنةِ للهجرة تمَّ تطهيرُ الكعبةِ من الأصنام، وفي السَّنةِ التاسعةِ للهجرة وبعدَ نزولِ الآية رقم **٢٨** من سُورةِ التَّوبة، تمَّ مَنْعُ المشركينَ من دخولِ المسجدِ الحرام تمامًا.

﴿وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْ﴾

٦ ـ يَحرُمُ صَيْدُ البَرِّ في حالةِ الإحرام، ولكنْ بعدَ التحَلُّل من الإحرام ينتهي هذا القَيْد، ومن يريدُ الصَّيدَ من الحُجَّاج فلهُ ذلك.

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾

٧ - في السَّنةِ السّادسةِ للهجرة اصْطَحَبَ النبيُّ ﷺ ألفًا وأربعَمائةِ صحابيٍّ باتِّجاهِ مكّةَ بغَرَضِ أداءِ العُمرة، لكنّ كفَّارَ مكّةَ مَنَعوا المسلمينَ من دخولِها، ولسنا في حاجةٍ إلى بيانِ الإيذاءِ والألم الذي لَحِقَ بالمسلمينَ جَرّاءَ ذلك، فهو معروفٌ، وكان من الممكنِ جدًّا أن يُقْدِم المسلمونَ على خُطُواتٍ انتقاميَّةٍ، فيمنَعوا تلك القبائلَ المشركةَ التي تقَعُ في طريقِها المناطقُ التي يُسيطرُ عليها المسلمونَ من دخولِ مكّةَ، ولهذا جاء الأمرُ منَ اللهِ تعالى بأنه إذا كان الكفَّارُ قد ظَلَموكم، لكن يجبُ أن لا يدفعَكم هذا الظُّلمُ إلى ظُلم أحدٍ آخَرَ، وبدَلًا من أن يدفعَ الإسلامُ بالمسلمينَ إلى الانتقام لقَّنَهم درسًا في التحمُّل والتسامُح.

﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾

٨ - هنا يتِمُّ تعليمُ أهلِ الإيمانِ مبدأً هامًّا من مبادئِ الحياة، يعني: أنْ يتَعاونوا سويًّا في أعمالِ الخيرِ والبرِّ، وفي نفْس الوقتِ لا يتعاونوا معَ أحدٍ على فعل السُّوء.

ولو أنّ شعوبَ العالَم اليومَ تسيرُ على هذا النَّهج، باعتزالِ الأشرار، ومساندةِ الأخيار، فإنّ الشرَّ سينتهي من نفسِه، وسينتشرُ الخير، وتصبحُ الدُّنيا في نهايةِ المطافِ مهدًا للأمنِ والسَّلام.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَـٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾

٩ - من هنا يبدأُ ذِكرُ المحرَّم من الحيَوان، والذي أشارت إليه الآيةُ الأُولى من السُّورة:

١ ـ المَيْتةُ: الحيَوانُ الميِّت، والذي لم يُذبَحْ بطريقةٍ شرعيَّة.

٢ ـ الدَّمُ المسفوحُ: ذلك الدَّمُ الذي يَسيلُ عندَ الذَّبح.

٣ ـ الخِنزيرُ: (وتفصيلُه مذكورٌ في نهايةِ هذه الحاشية فارجِعْ إليه).

٤ ـ ذلك الحيَوانُ الذي لا يُذكَرُ اسمُ الله عليه عندَ ذَبْحِه، ويُذكَرُ عليه اسمُ غيرِ الله[1]، أو الذي يُقصَدُ بذَبْحِه عبادةُ غيرِ الله، وتناوُلُ لحم مثْلِ هذا الحيَوانِ حرامٌ؛ لأنّ المشركين كانوا يَذبَحُونَ باسم اللّاتِ والعُزّى، وإذا كان الذَّبحُ باسم اللهِ تعالى، ولم يكنِ المقصودُ بالذَّبح عبادةَ غيره، فإنّ تناوُلَ لحم مِثْل هذا الحيَوانِ حلال، حتى وإن كان من أَجْل الصَّدَقةِ أو العقيقةِ أو الوَليمةِ أو الأُضْحيةِ أو إيصالِ الثواب، أو سَمِّها كما تشاء، بل إنّ الحيَواناتِ التي يخصِّصُها الكفَّارُ للأصنام (مثلَ: البَحِيرة والسَّائبةِ وغيرِهما) لو استولَى عليها المسلمونَ ضمنَ مالِ الغنائم إذا ذَبَحوها باسم الله فإنّ أكلَها حلالٌ.

٥ ـ ذلك الحيَوانُ الذي يموتُ مخنوقًا أو مختنِقًا.

٦ ـ ذلك الحيَوانُ الذي يموتُ بضربةِ عصًا أو رَمْيةِ حَجَرٍ وما شابَهَ ذلك.

٧ ـ ذلك الحيَوانُ الذي يموتُ نتيجةَ سقوطِه من عَلٍ.

٨ ـ ذلك الحيَوانُ الذي يموتُ باصطدامِه بحيَوانٍ آخَرَ أو بشيءٍ مشابِه.

٩ ـ ذلك الحيَوانُ الذي يفترِسُه حيَوانٌ مفترِسٌ ويَقتُلُه.

ملحوظة: الأقسامُ الخمسةُ الأخيرةُ من الحيَواناتِ المذكورة، أي: من الحيَوانِ رقم خمسة إلى رقم تسعة، لو عُثِر عليها وهي على قَيْد الحياة، وتَمَّ ذَبْحُها بطريقةٍ شرعيَّة فإنّ تناوُلَ لحمِها يصبحُ حلالًا.

---

(١) باتفاق التفاسير كلها.

١٠ ـ ذلك الحيَوانُ الذي يُذبَحُ على النُّصُبِ حرامٌ أيضًا، والمرادُ بالنُّصُبِ: تلك الأحجارُ التي كانت تُعبَدُ في زمنِ الجاهليَّة، وكانتِ الحيَواناتُ تُذبَحُ من أَجْلِها أيضًا[١]، ويمكنُ أن يكونَ المرادُ منها أيضًا كلَّ مكانٍ مخصَّصٍ لأداءِ الطُّقوس الإشراكيَّة.

١١ ـ كان المشركونَ إذا عَزَموا القيامَ بعمَلٍ ما يَضَعُونَ في إناءٍ ما، أو في قطعةٍ من القماشِ ثلاثةَ سِهام، أحدُها مكتوبٌ عليه «أمَرَني ربِّي بهذا»، ومكتوبٌ على الثاني «مَنَعني ربِّي من هذا»، والثالثُ لا شيءَ عليه، ثم يُغلقونَ أعيُنَهم ويمُدُّونَ يَدَهم ويُخرجونَ سهمًا منها، فإذا خَرَج سهمُ الأمرِ نَفَّذوا العمَلَ، وإلّا امتَنَعوا عنه، أمّا إذا خَرَج السَّهُم الخالي أعادوا الأمرَ كرّةً أخرى[٢].

في هذه الآيةِ يَمنَعُ اللهُ تعالى المسلمينَ منَ ارتكابِ مِثْلِ هذه الخُرافاتِ والأوهام؛ لأنه يجبُ على المسلم أن يَستشيرَ القرآنَ الكريمَ قبْلَ القيام بأيِّ عمل، ثم يقومُ بعدَ ذلك باستخدام نعمةِ العقل في ضوءِ إرشاداتِ القرآن، إذ إنّ من الإهانةِ الكبرى للعَقْل والفِكر أن لا يُستفادَ منهما في التمييز بيْنَ الطِّيبِ والخبيث، وأن تؤسَّسَ الأعمالُ على الصُّدَفِ المجرَّدة.

والسببُ في ذِكْرِ الحيَواناتِ المحرَّمة أنّ العربَ كانوا معتادينَ على أنّ البعضَ كان يتشاركونَ في ناقةٍ أو شاةٍ، ثم يَذبحونَها ويَقسِمونَ لحومَها بناءً على الاقتراع بالسِّهام كما ذَكرْنا من قبلُ، حيث يَنتُجُ عنه حِرمانُ البعضِ تمامًا، والبعضُ يأخُذُ أكثرَ مما يستحِقُّ، كما يأخُذُ البعضُ أقلَّ ممّا يستحِقُّ، ولهذا بيَّنتِ الآيةُ أيضًا

(١) «النّصب: حجارة كان أهل الجاهلية يعبدونها ويذبحون لها». تفسير ابن جرير وصفوة التفاسير.

(٢) «أنّهم إذا قصدوا فعلاً ضربوا ثلاثة أقداح ـ مكتوب على أحدها: أمرني ربّي ـ وعلى الآخر: نهاني ربي ـ والثالث غفل، فإن خرج الأمر مضوا على ذلك، وإن خرج الناهي تجنبوا عنه، وإن خرج الغفل أجلوها ثانيًا». تفسير البيضاوي.

حُرمةَ هذه الطريقةِ جنبًا إلى جَنْب مَع بيانِ حُرمةِ الحيَوان، وذلك لكي لا يُحرَمَ أحدٌ من حقِّه.

الحديثُ عن الـخِنزيرِ في القرآنِ الكريم

لقد حرَّم القرآنُ الكريمُ لحمَ الخِنزير، وذَكَره في أربعةِ مواضع:

١ ـ الآية رقم ١٧٣ من سُورة البقرة (٢): ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾.

٢ ـ الآية رقم ٣ من سُورة المائدة (٥): ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾.

٣ ـ الآية رقم ١٤٥ من سُورة الأنعام (٦): ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾.

٤ ـ الآية رقم ١١٥ من سُورة النحل (١٦): ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

الـخِنزيرُ والإنجيل

حَرَّم الكتابُ المقدَّس لحَم الخِنزيرِ قبْلَ القرآنِ الكريم بفترةٍ كبيرة، واعتبَره نَجِسًا، وتأمَّلْ فيما يلي:

* «لا تأكلوا لحومَ الخنازير، بلْ ولا تلمَسوا أجسادَهم الميِّتَة بأيديكم، فهو غذاءٌ ممنوع عليكم»[١].

---

(١) "You may not eat their meat, or even touch their dead bodies, they are forbidden foods for you". (The Bible **1975**: Leviticus: **11**: **8**).

* «الخنزير ... إنه نَجِسٌ بالنِّسبة لكم، فلا تأكلوا لحمَه، ولا تلمَسوا جسَدَه الميِّتَ بيدِكم»(١).

ملحوظة: اليهودُ أيضًا لا يأكُلونَ لحمَ الخِنزيرِ بسببِ هذا الوضوح الشَّديدِ الذي جاء في العهدِ القديمِ منَ الإنجيل.

الـخِنزيرُ خَطَرٌ على الصِّحةِ الإنسانيَّة

رَغْمَ أنه يكفي المسلمينَ أن يُحرِّمَ اللهُ تعالى ورسولُه الكريمُ ﷺ لحْمَ الخِنزيرِ عليهم فيمتَنعونَ عن تناوُلِه، لكنَّهم على يقينٍ أيضًا أنّ اللهَ تعالى على عِلم تامٍّ بخصائصِ الأشياءِ وآثارِها، وأنّ الأشياءَ التي حَرَّم اللهُ تعالى تناوُلَها كغذاءٍ للإنسان لا بدَّ أن يكونَ فيها ضَرَرٌ بشكلٍ أو بآخَرَ لجانبٍ من جوانبِ حياتِه، سواءٌ عَلِم النّاسُ ماهيَّةَ هذا الضَّررِ أم لا، مثلَما يمنَعُ الطَّبيبُ أحدَ مرضاهُ من تناوُلِ طعامٍ بعَيْنِه، ففي هذه الحالةِ على المريضِ أن يمتنِعَ عن تناوُلِ هذا الطعام؛ لأنّ في ذلك خيرًا له، سواءٌ عَلِم - بصفةٍ شخصيَّةٍ - ماهيَّةَ ضرَرِ هذا الطَّعام أم لا، وكان هذا اليقينُ حتى يومِنا هذا بمثابةِ الإيمانِ بالغَيْب، لكنَّه اتَّخَذ الآنَ درجةَ الإيمانِ بما هو مشاهَدٌ، لأنّ العلومَ الطِّبِّيَةَ وأبحاثَ مَن يأكلونَ الخِنزيرَ أنفسِهم تُثبتُ أنّ في لحم الخِنزير موادَّ ضارّةً بالصِّحة، وأنّ تناوُلَه يسَبِّبُ عددًا من الأمراضِ من بَيْنِها مرضٌ خطيرٌ يُدعى (مرضَ دودةِ الخِنزير)، وتفصيلُه كالتالي:

* «مَرضُ دودةِ الخِنزير يصيبُ الإنسانَ حين يتناوَلُ لحمَ الخِنزيرِ الذي يحتوي على الدُّودة الحَلَزُونيَّة، ولا يتِمُّ إنضاجُ هذا اللَّحم جيِّدًا، وهذا المرضُ

---

(١) "And the swine … it is unclean unto you: Ye shall not eat of their flesh, nor touch their dead carcass". (The Holy Bible **1954**: Deuteronomy: **14**: **8**).

أكثرَ ما يكونُ انتشارًا في أوروبا وأمريكا، وتَبلُغُ نسبةُ المرضَى بهذا المرضِ في الولاياتِ المتَّحدة الأمريكيَّة وحدَها ما بينَ ١٥٪ إلى ٢٠٪»(١).

* الدُّودةُ الحَلَزونيَّةُ دقيقةٌ كالخَيْط، وهي التي تؤدِّي إلى مرضِ دودةِ الخِنزير، وموطنُ هذه الدُّودةِ الأصليُّ هو جسمُ الفأر، لكنَّها توجَدُ بكثرةٍ أيضًا في لحم الخِنزير، فإذا ما أكلَ إنسانٌ هذا اللَّحمَ (الفأرَ أو الخِنزير) انتَقَلت هذه الدُّودةُ إلى جسمِه وزادت هذا المرضَ(٢).

والأمرُ المشَوِّقُ هنا أنّ هذه الدِّيدانَ طالما بَقِيتْ في مَوطنِها الأصليِّ، يعني: الفئرانَ والخنازيرَ، فإنّها لا تؤدِّي إلى إصابتِها (أي: الفئرانِ والخنازيرِ) بالمرض؛ لأنّها تصبحُ جزءًا من لحمِها، لكنْ إذا أكلَ إنسانٌ هذه اللحومَ فإنّ هذه الدِّيدانَ تصبحُ في بيئةٍ مختلفةٍ، فتؤدِّي إلى المرض، ويتَّضحُ من هذا أنّ لحومَ هذَيْنِ الحيَوانَيْنِ (الفأرِ والخِنزيرِ) لا تَصلُحُ لطعامِ الإنسان.

---

(١) "Trichinosis / Trichiniasis: A disorder resulting from infestation with the small roundworm Trichinella spiralis, commonly acquired by humans by the eating of undercooked pork containing encapsulated larvae of the parasite. Trichinosis is more common in Europe and the United States than in other parts of the world. In the United States the incidence of infection may be as high as **15** to **20** percent". (The New Encyclopedia Britannica: **15**th Edition **1995**).

(٢) "Trichina: Genus of Nematoda or threadworms … they give rise to the disease known as Trichinosis. The eggs are hatched out in the intestines of the host, and the trichinae then migrate to the muscles, where they become encysted and develop no further unless the flesh of the host is eaten by some other animals. They are then set free in the alimentary canal, where they become sexually mature. The natural host of this parasite is the rat, but it is often found in pigs." (The New Universal Encyclopedia: The Caxton publishing Co. Ltd. London).

الخِنزيرُ والفسادُ الأَخْلاقيُّ

إنّ تربيةَ الخنازيرِ وأكلَ لحومِها لا يؤدِّي إلى إصابةِ جسم الإنسانِ بأمراضٍ مختلفةٍ فقطْ، بل إنّ رُوحَ الإنسانِ أيضًا تتأثّرُ سلبًا من ذلك، ويحدُثُ فسادٌ كبيرٌ في الأخلاق، إذ إنّ من الحقائقِ المسلَّم بها أنّ للصُّحبةِ السيِّئة والغذاءِ النَّجِس أثـرًا على طبيعةِ الإنسان ومِزاجِه، وتأمَّلْ ما قاله مؤلِّفُ (الخنـزيرُ الإنجليزي: The English Pig) في هذا الخصوص:

«كما أنّ الحيَوانَ الذي نُربِّيه ونَستأنِسُه يَحدُثُ له تغيُّرٌ في فِطرتِه وسلوكِه، فإنّ مِثلَ هذا العمَلِ يَخلُقُ نوعًا من عَدَم التكلُّفِ وتَشَابُهٍ مَع الحيَوان، ممَّا يؤثِّرُ على شعورِ الإنسان ووَعْيِه»[١].

وإذا أردتَ أن تشاهدَ هذه الحقيقةَ، فعليكَ أن تُلقيَ نظرةً على الحضارةِ في أوروبا (حيثُ يربُّونَ الخنازيرَ باهتمام بالغ، ويأكلونَ لحومَها بشَوْقٍ كبير)، وسوف تجدُ انتشارًا شديدًا للعُري والفاحشة، فأصبحتِ المرأةُ وَكْرًا في تقاطعاتِ الطُّرق، وراغبو المتعةِ الجِنْسيَّة يقِفونَ في طابورٍ ينتظرُ كلٌّ منهم دورَه، بينَما يُعلِّقُ الرَّجلُ الأوروبيُّ الإعلاناتِ المنحَلَّةَ على صدرِه، ويقفُ متفرِّجًا على كلِّ هذا، فإنْ قُلنا إنّ هذا من أثرِ صُحبةِ الخنازير وتناوُلِ اللحوم النَّجِسةِ المحرَّمة، فإنّ ذلك لن يكونَ مبالغةً؛ لأنّ المعروفَ أنه حين يقومُ خِنزيرٌ ذَكَرٌ بالنَّزْوِ على خِنزيرةٍ في وجودِ خِنزيرٍ آخَرَ، فإنّ هذا الخِنزيرَ الآخَرَ يقفُ قريبًا ليرى ما يحَدُثُ في انتظارِ دورِه، بينَما ذكورُ الحيَواناتِ الأخرى تغارُ كثيرًا على إناثِها، ولا تسمَحُ للذُّكورِ الأُخرى بالاقترابِ منها.

---

(١) "Domestication alters the nature and behavior of the controlled animal. (Similarly) Domestication also generates a familiarity with the animal that affects human consciousness". (The English Pig: Published by The Hambledon Press London **1998**: Page No. **129**).

أيُّ حيَوانٍ هذا الـخِنزير؟

الخِنزيرُ حيَوانٌ في غايةِ القذارة، يبعَثُ على الكراهيَة، ومنحَلٌّ في طبعِه، ونحن هنا نَذكُرُ بعضَ الآراءِ فقط، والعجيبُ أنّ هذ الآراءَ لأُناسٍ يَرُبُّونَ الخَنازيرَ ويأكلونَ لحومَها، أو كما نقولُ: «وشَهِدَ شاهدٌ من أهلِها»:

* الخِنزيرُ حيَوانٌ بَدِينٌ وكَسُولٌ وغبِيٌّ وقَذِر، يعيشُ دائمًا في الوَحْلِ والقذارة[١].

* يبدَأُ الخِنزيرُ منذُ طفولتِه في تناوُلِ أشياءَ منها: الطِّينُ ورَوْثُ أُمِّه أيضًا[٢].

* كان هناك رجلٌ من لنكشايَر في بريطانيا، وُلد عام ١٨٩٣م، يتذكَّرُ هذا الرَّجلُ طفولَته قائلًا: في ذلك الوقتِ الذي كان النّاسُ فيه يَقْضُونَ حاجتَهم في الفِناءِ الخَلْفيِّ لبيوتِهم (يعني: لم تكنْ هناك أماكنُ مخصَّصةٌ لقضاءِ الحاجة كبيوتِ الخلاءِ والحمَّامات)، كان الكثيرُ من النّاسِ يحتفِظونَ بخنازيرَ في هذه الأَفْنيةِ الخَلْفيَّة (لكي تأكُلَ الفضَلاتِ البشَريَّةَ)[٣].

* الخِنزيرُ هو أفضَلُ عاملِ نظافةٍ للفلّاح، وأفضَلُ بَلّاعةِ صَرْفٍ صحيٍّ لزوجتِه؛ لأنّ طعامَه أشياءُ تكونُ قد تعفَّنتْ في فِناءِ البيت، كما أنه يأكلُ من الفلّاح البذورَ والقشورَ وأتربةَ الإصطَبْل وفَضَلاتِ الإنسانِ والقُمامةَ والعُشبَ الموجودَ حولَه، كما أنه يتناولُ من زوجةِ الفلّاح الفَضَلاتِ المتبقِّيةَ بعدَ عملِ وتجهيزِ الخمر

---

(١) The pig is a fat, sleepy, stupid, dirty animal, wallowing constantly in the mire. (The English Pig: Published by The Hambleden Press London **1998**: Page No. **1**).

(٢) They will eat small quantities of many materials from a very early age, including feed, earth and the faeces of the dam. (Fream's Agriculture: printed by Butler & Tanner Ltd. London: **16**th Edition **1983**: Page No. **684**).

(٣) A man from St. Helens, Lancashire, born in **1893**, recalled of the houses there: "Not only was there the open lavatory in the back yard, many of the people when I was young, kept a pig in the yard". (The English Pig: Published by The Hambleden Press London **1998**: Page No. **42**).

وبقايا الألبانِ المتخمِّرة والماءَ القَذِرَ في الأحواضِ، وتتحسَّنُ صحتُه على ذلك(١).

* الخِنزيرُ لا يَخدُمُ الإنسانيَّةَ أبدًا في حياتِه سوى أنه يُخلِّصُنا من تلك القَذارةِ التي ترفُضُها الحيَوانات الأخرى(٢).

* أصحُّ ما قيل عن الخِنزير هو أنه ليس فيه خاصيَّةٌ جَذّابةٌ أو تستحِقُّ الثَّناءَ(٣).

الخِنزيرُ سُبّةٌ في كلِّ الحضارات

المسلمونَ واليهودَ يكرهونَ الخِنزيرَ في وجودِه، ويعتبرونَ اسمَه سُبّةً وشَتْمًا، لكنّ السِّحرَ هو الذي يصعَدُ فوقَ الرُّءوس متحدِّثًا كما يقولون، فالإنجليزُ أنفسُهم يستعملونَ اسمَ الخِنزير ضمَن شتائمِهم:

* الخِنزيرُ حيوَانٌ أحمَقُ عديمُ الإحساس وقَذِرٌ بحيث أنه إذا نادَيْنا على إنسانٍ باسمِه (أي: نقولُ له: يا خِنزير) فإنه يعني أنّ هذا الشَّخصَ طَمَّاعٌ سِكِّيرٌ غيرُ منظَّم وغيرُ مهذَّب(٤).

---

(١) The pig is the Husbandman's best Scavenger, and the housewives most wholesome sink, for his food and living is by that which will else rot in yard .... For from the Husbandman he taketh pulse, chaff, barn dust, man's ordure, garbage, and the weeds of his yard: and from the housewife her draff, swellings, whey, washing of tubs, and such like, with which he will live and keep a good state of body, very sufficiently. (Page No. **34** ibid).

(٢) The hog during life does not render the least service to mankind, except in removing that filth which other animals reject. (Page No. **30** ibid).

(٣) It would be more accurate to say that the pig was generally acknowledged to have a character, but that this character was not considered in any way attractive or admirable. (Page No. **1** ibid).

(٤) Indeed, the pig was usually thought to be brutish, insensitive and filthy- so much so, in fact, that it became a commonplace metaphor for human greed, grossness and intemperance. (Page No. **1** ibid).

وتُستعمل ألفاظُ: Pig, Swine, Hog للخِنزير في اللُّغة الإنجليزية، وحينَ تُستخدَمُ هذه الألفاظُ لإنسانٍ فإنّ هذا يعني أنّ هذا الشَّخص طَمّاعٌ قَذِرٌ سيِّئُ الخُلُق أنانيٌّ مكروهٌ ومنفِّرٌ وكريهُ الرائحة وغيرُ مقبول(١).

لماذا حُرِّم لحمُ الـخِنزير؟

قرأتَ أنه لا يوجَدُ جانبٌ طيِّبٌ في اسم الخِنزيرِ ولا في معناه، بل ولا يوجَدُ شيءٌ طيِّبٌ في عاداتِه وغذائه، وهناك مخاطرُ مرَضيَّةٌ شديدةٌ في تناولِ لحومِه، وهو مُغرمٌ بأكْلِ القاذوراتِ بحيث أنه لو تم حبسُه في مكانٍ نظيفٍ لَأشبَعَ ذوقَه البشِعَ بتناولِ قذارتِه ورَوْثِه، ومجرَّدُ رؤيةِ مثلِ هذا الحيَوان تَثقُلُ على النفْس، فما بالُك بتناولِ لحمِه!

﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾

١٠ ـ الكفَّارُ منذُ البدايةِ يبذُلونَ قُصارى جُهدِهم في القضاءِ على الدِّين الإسلاميِّ، وكانوا يأمُلونَ أنْ ينتهيَ الإسلامُ ذاتَ يوم، ويعودَ المسلمونَ إلى الكفرِ ثانيةً، لكنّ توقُّعاتِهم هذه ثَبت خطأُها عندَما رأَوْا عَظَمَة وشأنَ الإسلام يومَ حَجّةِ الوداع، ويئسِوا عندَئذٍ من فكرةِ القضاءِ على الإسلام، على العكسِ من ذلك أصبحوا على يقين من أنّ أُسُسَ الإسلام أصبحتْ قويَّةً لدرجةِ أنه لا يمكنُ هَدْمُه أبدًا، كما أنّ القرآنَ المَجِيدَ قد أعلَنَ أنه لا داعيَ لأنْ يخافَ أهلُ الإسلام من الكفَّارِ بعدَ الآن، وعليهم ألّا يخافوا إلّا منَ الله تعالى، وأن يَجتهدوا في العمَل بالإسلام، والآنَ لم يعُدْ لدى الكفَّارِ طاقةٌ تمكِّنُهم من التدخُّل في المعاملاتِ الإسلاميَّة.

وفي هذه الآية إشارةٌ أيضًا إلى أنّ مسلمي القرونِ الأُولى كانوا يخشَوْن اللهَ تعالى فقط، وقد تغَلَّبوا على الكفَّار بثباتِهم على هذا النَّهج، وبنفسِ الطريقة لو

---

(١) (Oxford Advanced Learner's Dictionary: 4Th Edition 1989).

أنّ المسلمينَ في أيّامِنا هذه يخشَوْنَ اللهَ تعالى فقطْ، ويَثْبُتُونَ على هذا النَّهج لَما استطاعت قوَّةٌ من قُوى الكُفرِ أن تتغلَّبَ عليهم أبدًا.

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾

١١ ـ نَزَلتْ هذه الآيةُ عصرَ يوم الجُمعة المباركة التاسع من ذي الحِجَّة من السَّنةِ العاشرةِ للهجرة، في مَيْدانِ عَرَفاتٍ، أيامَ حَجَّةِ الوداع، وكان عدَدُ المسلمينَ في مَيْدانِ عَرَفاتٍ في ذلك الوقتِ يزيدُ على مائةِ ألف، وكانت رايةُ الإسلام قد رَفْرفَتْ على مُعظَم مناطقِ شبهِ الجزيرةِ العربيَّة.

وهذه الآيةُ بمثابةِ النِّعمة العظيمةِ من الله تعالى على الأُمّةِ المسلمة، فقد جاء فيها أنّ الدِّين الذي جاء به سيِّدُنا محمَّدٌ المصطفى ﷺ قدِ اكتمَل اليومَ بكلِّ أحكامِه وفروضِه وعقائدِه وآدابه وحلالِه وحرامِه، ولا يعني هذا أنّ الدِّينَ كان ناقصًا من قبلُ، فالحقيقةُ هي أنّ الدِّينَ كان كاملًا في كلِّ زمان، والفرْقُ فقطْ أنّ الدِّينَ في السَّابقِ كان لمنطقةٍ بعَيْنِها ولزمنٍ بعَيْنِه، أمّا الآنَ فقدِ اكتمَلَ للعالَم كلِّه وحتّى قيام السَّاعة[1]، كما أنّ نعمةَ الله تعالى قدِ اكتمَلَت باكتمالِ الدِّين، والدِّينُ الإسلاميُّ الذي كان دينَ كلِّ الأنبياءِ والرُّسُل السَّابقينَ، وكان دينًا كاملًا طبقًا لمقتَضياتِ زمنِ كلِّ رسُولٍ ونبيٍّ، وقدِ اختارَه اللهُ لكم مكتمِلًا في صورتِه النِّهائيَّة والعالميَّة.

وقدَ نبَّه اللهُ تعالى أهلَ الإسلام ـ في هذه الآية ـ على أنّ الإسلامَ دينٌ كامل، ولا حاجَةَ إلى أن نُضيفَ إليه شيئًا، فهذا الدِّينُ كاملٌ لا نقْصَ فيه، وهو الدِّينُ المختار، وليس فيه ما يَجلُبُ غضَبَ الله تعالى[2]، ومن يترُكْ هذا الدِّينَ ويتَّخِذْ له

---

(١) فالشرع أبدًا كان كاملًا، إلا أن الأول كمال إلى زمان مخصوص والثاني كمال إلى يوم القيامة ـ (التفسير الكبير).

(٢) هذه أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمة، حيث أكمل تعالى لهم دينهم فلا يحتاجون إلى دين غيره، وقد أتمه الله فلا ينقصه أبدًا، وقد رضيه الله فلا يسخطه أبدًا ـ (تفسير ابن كثير).

دينًا آخرَ فلن يقبَلَه اللهُ تعالى منه: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْأَخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وهذه الآيةُ دليلٌ على أنّ النبيَّ ﷺ هو آخِرُ الأنبياءِ والرُّسُل؛ لأنه إذا كان الدِّينُ قدِ اكتمَل فلم تبقَ إذًا أيَّةُ حاجةٍ للتغيير والتعديل في أحكامِه، وبالتالي لم تبقَ هناك حاجةٌ لمجيءِ نبيٍّ آخَرَ بعدَ ذلك.

ولقد فَرِح الصَّحابةُ الكرامُ وسَعِدوا كثيرًا لمَّا سَمِعوا هذه الآيةَ، لكنّ سيِّدَنا أبا بكرٍ رضيَ اللهُ عنه اعترَتْه حالةٌ من البكاء، فلمَّا سُئل عن ذلك قال: إنّ هذه الآيةَ تُنبِئُنا أنّ وقتَ وفاتِه ﷺ قدِ اقترَبَ؛ لأنه بعدَ اكتمالِ الدِّين تكونُ الحاجةُ إلى البَعْثةِ النَّبويَّة قدِ اكتَملَتْ وانقَضَتْ[1]، وفعلاً حَدَث هذا، وانتقَلَ النبيُّ ﷺ ـ في غضونِ الشُّهورِ القليلةِ التالية ـ إلى الرَّفيقِ الأعلى. «**قَرَأ ابنُ عبّاسٍ رضيَ اللهُ عنهما ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ وعندَه يهوديٌّ، فقال: لو أُنزِلتْ هذه الآيةُ علينا لاتَّخَذْنا يومَها عيدًا، فقال ابنُ عبّاسٍ رضيَ اللهُ عنهما: فإنّها نَزَلتْ في يوم عيدَيْن: في يوم الجمُعة ويوم عَرَفةَ**»[2]، يعني: أنّ هذَيْن اليومَيْنِ عيدانِ لنا من قبلُ.

كما أنّنا نجدُ في هذه الآيةِ إشارةً إلى أنه يجوزُ لنا أن نتَّخذَ من اليوم الذي تكتملُ علينا فيه نعمةٌ من النِّعَم عيدًا نحتفلُ به، وإلّا قال سيِّدُنا ابنُ عبّاس رضي اللهُ عنهما صراحةً: إنّ من البِدَع أن نحتفلَ بيوم نعمةٍ أو يوم مَسَّرةٍ باعتبارِه يومَ عيدٍ وسرور، ويُعلَمُ منه أنه يجوزُ الاحتفالُ بمولِد النبيِّ ﷺ، لأنّ النبيَّ ﷺ هو أكبرُ

---

(١) روي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما قرأ هذه الآية على الصحابة فرحوا جدًا وأظهروا السرور العظيم إلا أبا بكرٍ رضي الله عنه فإنه بكى، فسئل عنه فقال: هذه الآية تدل على قرب وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإنه ليس بعد الكمال إلا الزوال ـ (التفسير الكبير).

(٢) سبق تخريجه.

نعمةٍ من اللهِ تعالى[١]، وكان النبيُّ ﷺ يصُومُ يومَ الاثنينِ من كلِّ أسبوع احتفاءً بيوم مولدِه[٢].

﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾

١٢ - لوِ اضْطُرَّ شخصٌ وأصبحتْ حياتُه في خَطَر بسببِ الجُوع، فإنّه يمكنُه أن يأكلَ من المحرَّماتِ السَّابقة بقَدْرِ الضَّرورة، بحيثُ يحفَظُ حياتَه، وسوف يَغفِرُ اللهُ له هذا بسببِ اضْطِرارِه، وفي هذه الآية متَّسعٌ أيضًا لذلك الشَّخص المريضِ الذي ليس لمرضِه دواءٌ سوى تناولِ الأطعمةِ المحرَّمة.

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾

١٣ - بعدَ بيانِ الأشياءِ المحرَّمة، سَأل الصَّحابةُ رسولَ الله ﷺ عن الأشياءِ الحلال، فأجابَ القرآنُ المَجيدُ عن أسئلتِهم بأنّ كلَّ الأشياءِ الطَّاهرةِ حلالٌ، والأشياءُ الطَّاهرةُ هي: التي يَقبَلُها الطَّبعُ السَّليمُ ولم تُحرِّمْها الشَّريعة، وفي موضع آخَرَ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، أي: النبيُّ ﷺ، ولهذا فإنّ أكثرَ بني الإنسانِ طبعًا سليمًا هم الأنبياءُ عليهمُ السَّلام، وهم أكثرُ مَن يعرِفُ فوائدَ الأشياء وأضرارَها بفَضْل ما أنعَمَ اللهُ عليهم مِن عِلم من عندِه، ولهذا فإنّ كلَّ ما قال عنهُ النبيُّ ﷺ: إنّه طيِّبٌ فهو - في الحقيقة - الطاهرُ، وكلُّ ما قال عنه النبيُّ ﷺ: إنه خبيثٌ فهو - في الحقيقة - النَّجِس.

﴿وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾

١٤ - المرادُ بحيَواناتِ الصَّيدِ المدرَّبة: تلك الجَوارحُ من الطُّيور والحيَواناتِ

---

(١) تفسير خزائن العرفان.

(٢) عن أبي قتادة رضي الله عنه، قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن صوم يوم الاثنين، فقال: «فيه وُلدت وفيه بعثت». مسند أحمد، ٥: ٢٩٩.

المفترِسة (الصَّقْرُ والعُقابُ والكلبُ والنَّمرُ وغيرُها) والتي لا تأكلُ الصَّيدَ، وإنّما تُمسِكُ به وتأتي به إلى مالكِها، مثلُ هذه الحيَواناتِ المدرَّبة إذا ذَكَرْنا اسمَ الله عليها وأطلَقْناها فإنّ ما تَصطادُه من حيَواناتٍ إن كان لا يزالُ حيًّا ذكَرْنا اسمَ الله عليه وذَبَحْناه، وإن كان قد ماتَ بجِراحِه فهو أيضًا حلالٌ لنا؛ لأنّنا ذكَرْنا اسمَ الله على الحيَوانِ الصيَّادِ عندَ إطلاقِه، وبنفسِ الطريقة إذا ذكَرْنا اسمَ الله على السَّهم عند إطلاقِه من القَوْس، أو الرَّصاصةِ عندَ إطلاقِها من البُنْدقيَّة، فإنّ ما تُصيبُه من حيَواناتٍ إذا مات بجِراحِه قبلَ ذَبْحِه كان حلالًا لنا؛ لأنّ خروجَ الدَّم من الصَّيد ضروريٌّ لتحليلِه، وقد خَرَج الدَّمُ من الصَّيدِ فعلًا بفعل الجِراح التي أُصيبَ بها.

﴿ ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡ ﴾

١٥ ـ أكلُ لحوم الحيَوانِ الذي يَذبَحُه أهلُ الكتاب، أي: اليهودُ والنَّصارى حلالٌ، بشَرْطِ أن يكونوا قد ذَكَروا اسمَ الله عليه عند ذَبْحِه، فإذا ذَكَر أهلُ الكتابِ عندَ الذَّبح غيرَ اسم الله فإنّ سيِّدَنا الحَسَنَ البَصْريَّ يقولُ فيما يتَعلَّقُ بهذا الأمر: **إذا ذَبَح اليهوديُّ والنَّصرانيُّ فذَكَر اسمَ غيرِ الله تعالى وأنت تسمَعُ فلا تأكُلْ، فإذا غابَ عنك فكُلْ فقد أحَلَّ اللهُ تعالى لك. ونحوهُ قولُ الشَّعبيِّ وعطاءٍ، قالا: فإنّ اللهَ تعالى قد أحَلَّ ذبائحَهم وهو يَعلَمُ ما يقولون**[١].

وهذا أفضَلُ الأقوالِ فيما يتَعلَّقُ بالجواز، حتى يمكنَ تناولُ ذَبيحةِ أهل الكتاب عندَ الضَّرورة، ولكنَّ التَّقوى والاحتياطَ يقتَضِيانِ أنْ لا نأكُلَ من هذه الذَّبيحةِ بغيرِ ضرورةٍ[٢]، حتّى لا يبقى في الذِّهن أيُّ شُبهةٍ للحرام.

---

(١) تفسير روح المعاني.

(٢) والأولى أن لا يأكل ذبيحتهم إلا للضرورة. حاشية رد المحتار، كتاب الذبائح، ٦: ٢٩٧.

على أيّةِ حال، إذا لم يَذبَحْ أهلُ الكتاب الحيَوانَ بالطَّريقةِ الطبيعيَّة، ولم يُسيلوا دمَه، وإنّما أنهَوْا حياتَه بطريقةٍ أو بأخرى، فإنّ أكلَ لحم هذا الحيَوانِ ليس حلالًا، كما أنّ ما يذبَحُه غيرُ أهلِ الكتاب (كالمَجُوس والوثنيِّينَ والمرتدِّينَ والمشركينَ وغيرِهم) من الحيَواناتِ لا يَحِلُّ لنا؛ لأنّهم لا يؤمنونَ بأيِّ كتابٍ سَماويٍّ ولا بأيِّ نبيٍّ[1].

والسَّببُ في حِلِّ ذبيحةِ أهلِ الكتاب هو أنّ هناك أمورًا مشتركةً عديدةً بيْنَ أهل الإسلام وأهل الكتاب، على سبيل المثال: كتابا الدِّينَيْنِ سماوِيّانِ، ومتَّبِعو الدِّينَيْنِ يؤمنونَ بالله تعالى وبالأنبياءِ عليهم السَّلام وبالملائكةِ والقيامةِ والجنَّةِ والنَّار، كما أنّ المسلمينَ واليهودَ على السَّواء يؤمنونَ بحُرمةِ هذه الحيَواناتِ التي وَرَد تحريمُها في الإنجيل، مثلَ المَيْتة، والحيَوانِ الذي مات مخنوقًا أو مختنِقًا، والحيَوانِ الذي مات بافتراسِ مفترِسٍ له، والمذبوح باسم الأصنام، والخِنزيرِ، وغيرِها[2].

﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾

١٦ ـ زواجُ المسلم بامرأةٍ من أهل الكتاب

١ ـ يجوزُ للمسلم أن يتزوَّجَ من المرأةِ المسلمة ومِنَ المرأةِ من أهل الكتاب، لكنّ عليه ـ في الحالتَيْنِ ـ أن يتذكَّرَ أن تكونَ المرأةُ عفيفةً، ولا يعني ذلك أنّ الزَّواجَ من المرأةِ غيرِ العفيفةِ حرامٌ، وإنّما المرادُ هو ترغيبُ الرَّجُلِ في اختيارِ المرأةِ العفيفة، حتّى لا يكونَ هناك خَلَلٌ في أمورِ بيتِهِ أو تربيةِ أولادِه، وفي نفسِ الوقت يُنبِّهُ المرأةَ إلى أن تتجنَّبَ فعلَ السُّوءِ والفاحشة، وإلّا فلن يُقْدِمَ إنسانٌ شريفٌ على الزَّواج منها.

---

(١) لا تحل ذبيحة غير كتابيّ (يعني: وثنيًا ومجوسيًّا ومرتدًا ومشركًا وغيرهم)، إذ ليس لهم كتاب منزل ولا يؤمنون بنبيٍّ مرسل. حاشية رد المحتار: كتاب الذبائح: ٦: ٢٩٨.

(٢) الأحبار، ٧: ٢٤، الأحبار، ١١: ٨، الأعمال، ٢١: ٢٥.

٢ ـ من أسبابِ حِلِّ زواج المسلم منَ المرأةِ من أهل الكتاب أنّ هناك أمورًا مشتركةً عديدةً بيْنَ المسلمينَ وأهل الكتابِ فيما يَتعلَّقُ بالعقائدِ وتحليل وتحريم أكل لحوم الحيَواناتِ مثلَما وضَّحْنا في الحاشيةِ السابقة، كما أنّ المحرَّماتِ في النِّكاح في الإسلام محرَّماتٌ أيضًا لدى أهل الكتاب. (ولمزيدٍ من التفصيل راجع الإنجيل: الأحبار: باب ١٨: الآيات من ٧ إلى ١٩).

إلّا أنه لا يجوزُ للنِّساء المسلماتِ أن يتزوَّجْنَ من الرِّجالِ من أهل الكتاب؛ لأن:

(أ) الزَّوجُ يكونُ حاكمًا على زوجتِه، ولا يجوزُ ـ شرعًا ـ أن تكونَ الغَلَبةُ لكافر على امرأةٍ مسلمة.

(ب) الأولادُ في الغالب يكونونَ على دينِ آبائهم، ولهذا فإنْ كان الأبُ كافرًا فإن أبناءه من المرأةِ المسلمةِ يمكنُ أن يكونوا كفَّارًا، وهو ما لن تتحمَّلُه أيَّةُ امرأةٍ مسلمة.

(ج) لا يعترفُ أحدٌ من أهل الكتابِ بنُبوَّةِ سيِّدِنا محمَّدٍ ﷺ، فإذا كانت امرأتُه مسلمةً، وقد يسيءُ إلى ذاتِ النبيِّ ﷺ في أيِّ وقتٍ من الأوقات، وهو ما لن يكونَ مقبولًا للمرأةِ المسلمة، وبالتالي سيَدُبُّ الفسادُ في البيت، وعلى العكس من ذلك، إذا كان الزَّوجُ مسلمًا والزَّوجةُ من أهل الكتاب، فإنّ المسلمينَ جميعًا يؤمنونَ بالأنبياءِ جميعًا إيمانًا كاملًا، والإساءةُ إلى أيِّ نبيٍّ يتنافَى معَ إيمانِه، ولهذا فلن تواجهَ الزَّوجةُ من أهل الكتاب مِثلَ هذه الصُّورةِ المؤلمةِ في بيتِ الزَّوج المسلم، بل إنّ قلبَها سيطمئنُّ وتَحُلُّ به السَّكِينةُ عندَما تسمعُ من لسانِ زوجِها المسلم الثناءَ على الأنبياءِ الكرام جميعًا عليهم السَّلام.

٣ ـ يُعلَمُ من تخصيص أهل الكتابِ في هذا الأمر، أنه لا يجوزُ لمسلم الزَّواجُ منَ امرأةٍ من غيرِ أهل الكتاب، ويمكنُ أن تَقرأَ في تأييدِ هذا الأمر تلك الآيَةَ الكريمةَ

التي مَنَع اللهُ تعالى فيها الزَّواجَ من النِّساء المشرِكات: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١].

٤ ـ الزَّواجُ من نساءِ أهل الكتاب حلالٌ، حتّى يُمكنَ للرَّجل المسلم في حالة عَدَمِ توفُّر المرأةِ المسلمة أن يتزوَّج منَ امرأةٍ من أهل الكتاب، لكنّ التَّقوى والاحتياطَ يقتَضِيانِ أن لا يكونَ هذا الزَّواجُ إلّا في حالةِ الضَّرورةِ القُصوى[1]؛ لأنّ وجودَ دينَيْنِ في بيتٍ واحد خَطَرٌ على السَّكِينةِ داخلَه وعلى مستقبَلِ الأولادِ كذلك، وبدلًا من أن يكونَ الزَّواجُ سَبيلًا لتعميرِ البيوتِ يُصبحُ سببًا في خرابِها، ولكَ أن تتصوَّرَ كيف يأخُذُ الرَّجلُ أولادَه إلى المسجد، وتأخُذُهم أُمُّهم إلى الكنيسة! فأيَّ الدِّينَيْنِ سيختارُ الأولاد؟ وخاصّةً في البلادِ غيرِ المسلمة، حيث يوجَدُ تصوُّرٌ خاصٌّ في مسألةِ المساواة بيْنَ الرَّجُل والمرأة، بحيث يُتيحُ للمراةِ في بعضِ الأحيان طَرْدَ الرَّجُل من البيت، ولا يُمكنُه لقاءُ أولادِه سوى بضْع ساعاتٍ في الأسبوع، وقد وَقَعت بعضُ الأحداثِ في بريطانيا حيث عُهِد ـ قانونيًا ـ بالأولادِ من الأبِ المسلم إلى الأُمِّ من أهل الكتابِ والتي تزوَّجتْ من هذا الأبِ دونَ أن تغيِّرَ دينَها، ثم حَدَث الطَّلاقُ بعدَ ذلك لأيِّ سببٍ من الأسباب، وكانتِ النتيجةُ أنِ انقَطَع الرِّباطُ بيْنَ الأولادِ أيضًا وبيْنَ الإسلام، وحفاظُ المسلم على إيمانهِ وإيمانِ أولادِه فرضٌ عليه، ولا يجوزُ لمسلم أن يَضَع الفَرْضَ عليه في خَطَرٍ من أَجْل أمرٍ جائز.

٥ ـ تَزَوَّجَ سيِّدُنا حُذَيفةُ رضيَ اللهُ عنه في المدائنِ منَ امرأةٍ يهوديَّة، فكَتَب إليه أميرُ المؤمنينَ سيِّدُنا عُمرُ رضيَ اللهُ عنه خطابًا أن يُطلِّقَ هذه المرأةَ اليهوديَّةَ،

---

(١) والأولى أن لا يتزوج منهم إلا للضرورة. (حاشية رد المحتار، كتاب الذبائح، ٦: ٢٩٧.

فكَتَب سيِّدُنا حُذَيفةُ ردًّا على هذا الخطابِ قائلًا: هل هذه المرأةُ محرَّمةٌ عليّ؟ فكَتَب له سيِّدُنا عُمرُ رضيَ اللهُ عنه: الزَّواجُ باليهوديَّةِ ليس حرامًا، لكنِّي أخافُ أن تَنكِحوا من النِّساءِ الفاحشاتِ من أهل الكتاب[1].

إذْ بهذه الطَّريقة يكونُ هناك خَطَرُ انتشارِ الفاحشةِ في بيوتِ المسلمين، ومن الممكنِ أيضًا أن يفضِّلَ المسلمُ الزَّواجَ من نساءِ أهل الكتابِ على النِّساءِ المسلماتِ لجَمالِهنَّ أو مالِهنَّ، وهو ما يَخلُقُ المشاكلَ للمسلمات.

على أيّة حال، وجهةُ نَظَري هي: أنّ من يجدُ امرأةً مسلمةً فلا يتزوَّجْ من غيرِ المسلمة، أمّا مَن لا يجدُ امرأةً مسلمةً فلْيتزوَّجْ بامرأةٍ من أهل الكتاب، ولكنّ عليه أن يُخطِّطَ جيِّدًا للحِفاظِ على إيمانِه وإيمانِ أولادِه.

﴿مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖ﴾

١٧ ـ العلاقةُ الجِنْسيَّةُ بيْنَ الرَّجُل والمرأةِ أمرٌ فِطْريّ، والإسلامُ يَقدُرُ هذه العلاقةَ، ويُرشِدُ إلى الطريقِ المحترَم لممارستِها، بمعنى: أنْ يتزوَّجَ الرَّجُلُ من المرأةِ على الملأ، وأن يُحافظَ على حقوقِها، وألا يرتكبَ الفاحشةَ علانيَةً أو خُفْيَةً مع أيِّ امرأة، سواءٌ كانت مسلمةً أم غيرَ مسلمة؛ لأنّ ارتكابَ الفاحشةِ حرامٌ في الإسلام.

ويُعلَمُ من هذه الآيةِ أنّ من الضَّروريِّ أن يُحافظَ الرَّجُلُ على عِفَّتِه مثلَما أنّ من الضَّروريِّ للمرأةِ أن تُحافظَ على عِفَّتِها.

﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾

١٨ ـ كان هناك احتمالٌ لضَياع الإيمانِ في حالةِ الزَّواج منَ امرأةٍ كافرة، ولهذا

---

(١) تزوج حذيفة رضي الله عنه بيهودية فكتب إليه عمر رضي الله عنه: أن خل سبيلها، فكتب إليه حذيفة رضي الله عنه: أحرام هي؟ فكتب إليه عمر رضي الله عنه: لا، ولكني أخاف أن تواقعوا المومسات. أحكام القرآن للجصاص، ٣: ٣٢٣، باب تزوج الكتابيات.

حَذَّر اللهُ تعالى أهلَ الإيمانِ من أنّه إذا وَقَع مسلمٌ في حبِّ امرأة، وأنكرَ ـ بسبب ذلك ـ رُكنًا من أركانِ الإيمان، فإنّ حسَناتِه كلَّها ستَضيعُ، ولن يَلقى في الآخرةِ إلّا الخُسرانَ المُبين، ولهذا من الضَّروريِّ قبْلَ أن يتزوَّجَ المسلمُ بامرأةٍ من أهل الكتاب، أن يُفكِّرَ جيِّدًا في النتائج التي يمكنُ أن تترتَّبَ عليه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٦﴾ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١١﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِ﴾

١٩ ـ حينَ يَنْوي إنسانٌ أداءَ الصَّلاة فإنه يتوضَّأُ إذا لم يكنْ متوضِّئًا، وإن كان متوضِّئًا فليس من الضَّروريِّ الوضوءُ ثانيةً، ولكنْ إذا جدَّدَ وضوءه فإنّ

ذلك يمنَحُه ثوابًا أكبر، وكان النبيُّ ﷺ والصَّحابةُ الكرامُ رضيَ اللهُ عنهم جميعًا يجدِّدونَ وضوءهم عندَ كلِّ صلاة، ولكنَّهم ـ في بعضِ الأحيان ـ كانوا يؤدُّونَ أكثرَ من صلاةٍ بوضوءٍ واحد.

وللوضوءِ فرائضُ أربعةٌ، أي: غَسْلُ الوَجْه، وغَسْلُ اليدَيْنِ إلى المِرفقَيْنِ، والمَسحُ على الرأس، وغَسْلُ الرِّجْلَيْنِ إلى الكعبَيْنِ، وبالإضافة إلى ما سَبَق فإنّ عَقْدَ النِّية، وقراءةَ البسمَلة، والمَضْمَضة، والتسوُّكَ، والاستنشاقَ، ومَسْحَ الأذُن، واستقبالَ القِبلة، ومَسْحَ العُنقِ وغيرَها كلُّها من سُنَن الوضوء ومستحَبَّاتِه، ويمكنُ معرفةُ تفاصيلِ ذلك بالرُّجوع إلى كتُبِ الفقه.

وقد وَرَدتِ الأحاديثُ التالية عن النبيِّ ﷺ فيما يتعلَّقُ بفَضْلِ الوضوء:

١ ـ عن جابرِ بن عبد الله رضيَ الله عنهما قال: قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: «مِفتاحُ الجنّةِ الصَّلاةُ ومِفتاحُ الصّلاةِ الطَّهورُ»[1].

٢ ـ عن أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه؛ أنّ رسولَ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم، قال: «إذا توضَّأَ العبدُ المسلم ـ أو المؤمنُ ـ فغَسَل وجهَه، خَرَج من وجهِه كلُّ خطيئةٍ نَظَر إليها بعينَيْهِ معَ الماء ـ أو معَ آخِرِ قَطْرِ الماء ـ فإذا غَسَل يدَيْه خَرَج من يدَيْه كلُّ خطيئةٍ كان بطشَتْها يداهُ معَ الماء ـ أو معَ آخِرِ قَطْرِ الماء ـ فإذا غَسَل رِجلَيْه خَرَجت كلُّ خطيئةٍ مشَتْها رِجلاهُ مع الماء ـ أو معَ آخِرِ قَطْرِ الماء ـ حتّى يَخرُجَ نقيًّا من الذُّنوب»[2].

﴿وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْ﴾

٢٠ ـ يُجنِبُ الإنسانُ بمُجامعةِ زوجتِه أو بخروجِ المَنِيِّ، بمعنى: أنّ بدَنَه كلَّه يصيرُ نَجِسًا، وطهارتُه لا تكونُ بالوضوءِ فقطْ، وإنّما يصبحُ الغُسْلُ فرضًا في هذه الحالة.

---

(١) مسند أحمد، ٣: ٣٤٠.

(٢) مسلم، كتاب الطهارة، باب ١٠ برقم ٥٧٧.

﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾

٢١ - إن لم يجدِ الإنسانُ الماءَ للوضوءِ أو الغُسْل، أو كان الماءُ موجودًا، لكنَّه لا يتمكَّنُ منَ استعمالِه، فإنّ الطهارةَ حينئذٍ تكتملُ بالتيمُّم.

وللتعرُّفِ على طريقةِ التيمُّم وحِكمتِه يمكنُ الرُّجوعُ إلى الحاشيةِ رقم ٦٠ للآية رقم ٤٣ من سُورة النِّساء.

﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

٢٢ - لو كان هناك إصرارٌ على الوضوءِ والغُسْل برَغْم عَدَم وجودِ الماء، فإنّ ذلك سيؤدِّي إلى خَلْقِ المشاكل، ولهذا رَخَّص اللهُ تعالى في هذا الفَرْض، وأجازَ التيمُّمَ بقَصْدِ التيسير، إلّا أنّ اللهَ تعالى حين يأمُرُكم بالوُضوءِ والغُسْل والتيمُّم فإنّه لا يريدُ أن يُضيِّقَ عليكم، وإنّما يريدُ أن يُتِمَّ نعمتَه عليكم بتطهيركم من النَّجاسات، بمعنى: أنه يُطهِّرُ ظاهرَكم بالوُضوءِ من جانبٍ، ومن جانبٍ آخَرَ يَعْفُو عمَّا ارتكبَتْه عيونُكم وأيديكم وأرجُلُكم بفَضْلِ بركةِ الوضوء، فيَطهُرُ بذلك باطِنُكم، حتى تشكروا اللهَ تعالى وأنتم في حالةٍ من الطُّهرِ والنظافة.

ملحوظة: إذا أصرَّ أحدٌ على الاعتقادِ بقسوةِ أحكام الله تعالى وتضييقِها بالرَّغم من هذا التخفيفِ فإنّ مَثَلَه كمَثَلِ طفلٍ يَعتبِرُ نصائحَ والدِه ظُلمًا له، أو كمَثَلِ المريضِ الذي يَعتبرُ إرشاداتِ طبيبه قسوةً.

﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾

٢٣ - هنا تلقينٌ لأهلِ الإيمانِ بأنْ يذكُروا نعمةَ الله عليهم حين هَداهم إلى

الإسلام، وعليهم أن يتذكَّروا أيضًا عَهْدَ وميثاقَ التسليم والرِّضا الذي يُعلِنُه كلُّ إنسانٍ حين قَبولِه الإسلامَ من أنه سيَحْني رأسَه خضوعًا لأحكام اللهِ تعالى، وهنا يَتِمُّ تذكيرُ أهلِ الإيمان ثانيةً بهذا الميثاق، بأنْ يتجنَّبوا نُكرانَ الجميل وخَرْقَ المواثيق، وأن يَسيروا على هَذْي الأحكام الإلهيَّة بكلِّ إخلاص؛ لأنّ اللهَ تعالى يَعلَمُ أسرارَ قلوبِ النّاسِ جميعًا عِلمًا كاملًا، وسوف يُثابُ كلُّ إنسانٍ أو يُعذَّبُ حسبَ نواياه.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ﴾

٢٤ ـ هنا تأكيدٌ على أهل الإيمانِ بأنْ يَثبُتوا على الحقِّ، وأن يشهَدوا بالعَدْلِ؛ لأنّ الشهادةَ أمانةٌ لله تعالى عندَ الإنسان، ولن يخفَى على اللهِ تعالى من يكذِبُ في الشَّهادة.

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾

٢٥ ـ رَغْمَ أنّ الكفَّارَ قد أهالوا عليكم جبالَ الظُّلم، لكنْ يجبُ أن لا يدفعَكم هذا الظُّلمُ الواقعُ عليكم إلى أن تَظلِموا أحدًا، وعليكم أن لا تُفلِتوا زِمامَ العَدْلِ والإنصافِ من أيديكم، فهذا هو الأقرَبُ للتَّقوى. يقول الإمامُ الرازي في تفسير هذه الآية: إنّه إذا جاء هذا الحُكمُ التأكيديُّ بتوخِّي العدلِ والإنصافِ معَ الكفَّار، فإنّ أهميَّةَ العدلِ معَ أهلِ الإيمان واضحةٌ لا تَحتاجُ إلى بيان.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾

٢٦ ـ لقد تآمَرَ الكفَّارُ كثيرًا من أَجْل القضاءِ على النبيِّ ﷺ وعلى الصَّحابةِ الكرام رضيَ اللهُ عنهم جميعًا، ولكنْ من فَضْلِ الله تعالى أنْ حَفِظَ سيِّدَنا محمَّدًا ﷺ من أن تطالَه أيدي الكفَّار، وقد أدرجَ المفسِّرونَ عدَّة واقعاتٍ في إطارِ هذه الآية منها واحدةٌ نذكرُها فيما يلي:

ذهَبَ النبيُّ ﷺ بصُحبةِ بعضِ الصَّحابةِ الكرام رضيَ اللهُ عنهم جميعًا إلى يهودِ قبيلةِ بني النَّضِير بخصُوص إحدى الدِّيَات، حتى يدفَعَ اليهودُ حِصَّتَهم من الدِّيَةِ حسَبَ المعاهدة، فقال اليهودُ: تفضَّلْ يا رسولَ الله ﷺ بالجلوس، ونحن سنأتي لكَ بالطَّعام وبنصيبِنا في الدِّيَة، وهكذا أجلَسوا النبيَّ ﷺ والصَّحابةَ الكرامَ رضي اللهُ عنهم بجانب حائط، ثم ذَهَبوا بحُجّةِ الإتيانِ بالطَّعام، ثم تآمَرَوا معًا على قَتْلِه ﷺ بأنْ يقوموا بإلقاءِ حَجَرٍ كبيرٍ من فوقِ الحائط على النبيِّ ﷺ، لكنّ اللهَ تعالى أوحَى إلى النبيِّ ﷺ بأمرِ ما يَحِيكُه له اليهود، وهكذا غادَرَ النبيُّ ﷺ المكانَ دونَ انتظارٍ للطَّعام أو الدِّية، وفي هذه الوقتِ نَزَلت هذه الآيةُ[1]. أي: أنّ فَضْلَ الله تعالى على أهل الإيمان أنه نَجَّى النبيَّ ﷺ والصَّحابةَ الكرام رضوانُ الله عليهم من مؤامرةِ اليهود، كما أنّ هناك إشارةً إلى أنّ الأُمَّةَ التي تُحقِّقُ اليومَ أيضًا مقتَضَياتِ التقوى والتوكُّل على الله، فإنّها تستحِقُّ نُصرةَ الله تعالى وحِفظَه. ما أجمَلَ قولَ مَن قال:

*** أَخْلِقْ جوَّ بَدْرٍ وستنزِل لنُصرتِك**

*** الملائكةُ من السَّماءِ صفوفًا**

۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ

---

(١) «مضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى بني النضير ومعه أبوبكر وعمر وعلي رضي الله عنهم، فتلقوه، فقالوا: مرحبًا يا أبا القاسم، لماذا جئت؟ قال: رجل من أصحابي قتل رجلين من كلاب معهما أمان مني طلب مني ديتهما فأريد أن تعينوني، قالوا: نعم، اقعد حتى نجمع لك، فقعد تحت الحصن وأبوبكر وعمر وعلي رضي الله عنهم، وقد تآمر بنو النضير أن يطرحوا عليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ حجرًا، فجاء جبريل عليه السلام فأخبره فقام ومن معه». روح المعاني والتفاسير العربية الأخرى.

تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾

﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾

٢٧ ـ النَّقيبُ: يقالُ للزَّعيم الذي يَعرِفُ أحوالَ قومِه، ويعمَلُ على إصلاح أحوالِهم ورفاهيَتِهم.

وكان لبني إسرائيلَ اثنتا عشْرةَ قبيلةً، وقد عَيَّنَ سيِّدُنا موسى عليه السَّلامُ من كلِّ قبيلةٍ من هؤلاءِ نقيبًا عليهم، حتى يؤدِّيَ واجبَ الإشرافِ عليهم وإرشادِهم، وفي ليلةِ العَقبةِ حينَ بايَعَ سبعونَ رجلًا وامرأتانِ النبيَّ ﷺ على الإسلام، عَيَّنَ النبيُّ ﷺ منهم اثنَيْ عشَرَ نقيبًا أيضًا[1]، حتّى يقوموا بإرشادِ المسلمينَ الآخَرين، وتتَّضِحُ لنا نُكتةٌ دقيقةٌ من هذه الآية، وهي: أنه حينَ يقومُ أحدُ مشايخ الطُّرُقِ الصُّوفيَّة بتعيينِ خليفةٍ له من مُريديهِ لإرشادِ النّاس، فإنّه في الحقيقةِ يُقلِّدُ سُنةَ الأنبياءِ الكرام رضيَ اللهُ عنهم جميعًا في تعيينِ النُّقَباء.

﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾

٢٨ ـ لقد أخَذَ اللهُ الميثاقَ من بني إسرائيلَ أن يُقيموا الصَّلاةَ ويؤدُّوا الزَّكاةَ، وأن يؤمنوا برسُلِ الله جميعًا، وأن يُؤازِرُوهم، وأن يُقرِضوا اللهَ قرضًا حسَنًا، بمعنى: أن يُنفقِوا من أموالِهم على أعمالِ الخير وخِدمة الدِّين والفقراءِ، وفي نفس الوقت زَفَّ إليهم البُشرى بأنّهم إذا التزَموا بتنفيذِ هذا الميثاقِ فإنّ رحمةَ الله تعالى ستشمَلُهم، وسيغفِرُ الله لهم ذنوبَهم، وسيُدخلُهم الجنَّةَ.

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةًۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ﴾

٢٩ ـ خالَفَ بنو إسرائيلَ المواثيقَ التي أخَذَها اللهُ عليهم، فطَرَدَهم اللهُ تعالى

---

(١) بايع في ليلة العقبة سبعون رجلاً وامرأتان، فاختار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من السبعين اثني عشر رجلًا وسمّاهم النّقباء اقتداءً بموسى عليه السلام. تفسير القرطبي.

من رحمتِه عقابًا لهم على ذلك، وجَعَل قلوبَهم قاسيةً لدرجةِ أنّهم حَرَّفوا في التَّوراة، ونَسُوا كثيرًا من الأحكام الإلهيَّة.

يا رسولَ الله ﷺ، سوف تَرى أنّ أغلبِيَّتَهم ستبقَى مُبتلاةً بداءِ الخيانةِ إلى الأبد، إنّ هؤلاءِ سيخونونَ أحكامَ التَّوراةِ ولن يؤمنوا بكَ أبدًا، ولكنْ معَ ذلك هناك مِن بيْنِ هؤلاءِ مَن يعترِفونَ بالحقيقةِ بدَلًا من الخِيانة ويُسلِمونَ.

وفي النِّهاية قال اللهُ تعالى أنْ يا أيُّها النبيُّ الحبيب، لم يَألُ هؤلاءِ النّاسُ جُهدًا في إيذائك، ولكنِ اعْفُ عنهم، بمعنى: أنّ المجرِمينَ في حقِّ الوطنِ والمِلَّةِ والشريعةِ يجبُ أن يُعاقَبوا، ولكنْ إن لم تكنْ هناك ضرورةٌ شرعيَّةٌ فإنّ اللهَ يحبُّ أن تعفوَ عن خياناتِهم وأخطائهم.

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾

٣٠ ـ أخَذَ اللهُ الميثاقَ من النَّصارى كما أخَذَه من اليهودِ من قَبْلُ، لكنّ هؤلاءِ أيضًا نَسُوا الأحكامَ الإلهيَّةَ، فعاقَبَهم اللهُ تعالى بأنْ فرَّقَهم إلى فِرَقٍ مختلفة، كلٌّ منها تُكَفِّرُ الأخرى، وهكذا تأصَّلتْ بينَهم العداوةُ والبغضاءُ إلى الأبد، والتاريخُ شاهدٌ على أنّ الفِرَقَ النَّصرانيَّةَ لو اتَّحدتْ يومًا ـ بسببِ المصالح السياسيَّة ـ فإنّ البُغضَ والعِنادَ لم يُفارقا قلوبَهم.

ملحوظة: هذه الآيةُ بمثابةِ اللَّمحةِ الفِكْريَّة للمسلمين؛ لأنّ هذا المرضَ الذي كان في النَّصارى قد تَسلَّل إلى المسلمينَ أيضًا، فانقَسَم المسلمونَ إلى فِرَقٍ متناحِرةٍ يملأُ البُغضُ والعِنادُ قلوبَهم بعضُهم ضد البعض، فاللهمَّ ارحَمْنا برحمتِك يا ربَّ العالَمين.

﴿ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَـٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ ﴾

٣١ - كان أهلُ الكتابِ يُخْفُونَ أحكامَ التَّوراةِ والإنجيل التي لا تُعجبُهم، على سَبيل المثال: آيةُ الرَّجم، يعني: رَجْمَ الزَّاني والزانية، والآياتُ التي تبيِّنُ أوصافَ النبيِّ ﷺ وتبشِّرُ بقدومِه، وغيرُها من الآياتِ، لكنّ النبيَّ ﷺ أظهَرَ العديدَ من آياتِ التَّوراة والإنجيل ممّا كان إظهارُه ضروريًّا، وتغاضَى عن أمورٍ كثيرة مما لم يكنْ له فائدةٌ سوى فَضْحِ أهلِ الكتاب.

وقد مَنَح اللهُ تعالى أهلَ الكتابِ فُرصةً ذهبيَّةً للمرَّةِ الثانية لكي يُسلِموا، بمعنى: أنّ رسولي أُمِّيٌّ، ولم يذهب إلى مدرسةٍ أبدًا لتحصيل العِلم، ومعَ ذلك فقد أظهَرَ ما أخفَيْتُم من أحكام، وهو ما يُعَدُّ دليلًا قاطعًا على عِلمِه الكامل ﷺ، وعلى أنه نبيٌّ صادقٌ، ولهذا عليكم أن تَستوعِبوا هذه الحقيقةَ وأن تُسلِموا.

﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَـٰبٞ مُّبِينٞ ﴾

٣٢ - جمهورُ المفسِّرينَ على أنّ المرادَ بالنُّور في هذه الآية هو: ذاتُ سيِّدِنا محمّدٍ ﷺ الطاهرةُ، والمرادُ بالكتابِ المُبِين هو: القرآنُ المَجِيد.

ويَكتُبُ الإمامُ ابنُ جَرِير الطَّبريُّ في تفسيرِ هذه الآية قائلًا: «﴿قَدۡ جَآءَكُم ﴾ **يا أهلَ التَّوراةِ والإنْجِيل** ﴿مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ ﴾، **يعني بالنُّورِ: محمَّدًا صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم، الذي أنار اللهُ به الحقَّ، وأظهَرَ به الإسلامَ، ومَحَقَ به الشِّركَ، فهو نورٌ لمنِ استنارَ به يُبيِّنُ الحقَّ**»[1].

(١) تفسير ابن جرير الطبري.

﴿ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَانَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

٣٣ ـ لا يَهتَدي بالقرآنِ المَجِيد وبتفسيرِه العَمليِّ أي: سيِّدِنا محمَّدٍ ﷺ، ولا يَصِلُ إلى طريقِ الاستقامةِ والسَّلامة، ويَخرُجُ من الظُّلماتِ إلى النُّورِ من خلالِهما، إلّا أولئك الذين يَرغَبونَ في رِضا الله تعالى ويَبذُلونَ قُصارى الجُهدِ بصِدقٍ وإخلاصٍ من أَجْلِ الوصُولِ إليه، أمّا أولئك الذين يَشُوبُ نواياهم الفُتورُ، وأعمالَهم النِّفاقُ، فإنّهم يَظَلُّونَ هائمينَ على وجوهِهم في الظُّلُمات.

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾

٣٤ ـ الذين يعتقِدونَ بأنَّ عيسى عليه السَّلامُ هو اللهُ: كفَّارٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالى هو الذي إنْ أراد أن يُهلِكَ سيِّدَنا عيسى عليه السَّلامُ وأُمَّه والعالَمَ بأكملِه لَفعَلَ، ولا يمكنُ لأحدٍ أن يمنعَه من ذلك إنْ أراد، وهو مالكُ الكائناتِ كلِّها والمختارُ المطلَقُ فيها، فإذا كان سيِّدُنا عيسى عليه السَّلامُ محتاجًا إلى اللهِ تعالى في أمورِ مولِده وحياتِه وموتِه، فكيف يكونُ هو اللهَ؟

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾

٣٥ ـ إنَّ سُنَّةَ الله تعالى هي أن تَستمرَّ سلسلةُ الإنجابِ بالتقاءِ الذَّكرِ والأُنثى، ولكنَّ من قُدرتِه أيضًا أن يَخلُقَ ما يشاءُ وقتَما يشاء، على سَبيلِ المثال: خَلَق سيِّدَنا آدمَ عليه السَّلامُ من طِين، وبغيرِ ذَكرٍ أو أُنثى، وخَلَقَ أُمَّنا حوّاءَ من سيِّدِنا آدمَ عليه السَّلامُ وبغيرِ أُنثى، وخَلَقَ سيِّدَنا عيسى عليه السَّلامُ من السيِّدةِ مريمَ عليها السَّلامُ وبغيرِ ذَكَر.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾

٣٦ ـ حينَ كان اليهودُ والنَّصارى يُدْعَوْنَ إلى الإسلام ويُحذَّرونَ من عذابِ الآخرة، فإنَّهم كانو يقولونَ: إنّنا لسنا في حاجةٍ إلى قَبولِ الإسلام؛ لأنَّنا أبناءُ اللهِ وأحِبَّاؤه، كما أنَّنا أولادُ أنبيائه أيضًا، ولهذا فإنّ التعاملَ معَنا سيكونُ مختلفًا ومتميِّزًا، وسوف نَدخُلُ الجنَّةَ.

ولإزالةِ سُوءِ الفَهْم هذا سَأَلهم النبيُّ ﷺ بأنّه إنْ كنتُم صادقينَ في ادِّعائكم هذا فلماذا عاقَبَ اللهُ تعالى أسلافَكم في هذه الدُّنيا؟ حتّى أنه مَسَخَ بعضَهم قِرَدةً، كما أنَّكم تعترفونَ أنَّكم ستُعذَّبونَ في الآخِرة لبعضِ الأيام: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٨٠]، في حينَ أنه لا يمكنُ لأحدٍ أن يَحرِقَ أحِبَّاءه بالنَّار، وإذا كنتُم ستُعذَّبونَ فإنّ هذا يعني ـ بوضوح ـ أنَّكم بشَرٌ كبقيَّةِ النّاس، وأنكم ستُعذَّبونَ على ذنوبِكم، وأنّ أحِبَّاءَ اللهِ تعالى الحقيقيِّينَ هم أولئك السُّعَداءُ الذين يتميَّزونَ في الإيمانِ والتقوى.

﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾

٣٧ ـ انقَطَعت سِلسلةُ النُّبوَّةِ بعدَ سيِّدِنا عيسى عليه السَّلامُ لنحوِ ستِّمائةِ عامٍ تقريبًا، وبعدَ هذا الانقطاع بُعِثَ آخِرُ الأنبياءِ والرُّسُل سيِّدُنا محمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلام.

وهنا يُخبرُ اللهُ تعالى أهلَ الكتاب أنّ ذلكُم النبيَّ المكرَّمَ قد جاء، وهو الذي بَشَّر بقدومِه أنبياؤكم عليهم السَّلام، وقد بيَّن لكُم بوضوح الأحكامَ الإلهيَّة،

وعليكمُ الآنَ الإيمانُ به، وإلّا فإنَّكم يومَ القيامةِ لن تستطيعوا تقديمَ هذا العُذْرِ بأنّكم لم تهتَدوا؛ لأنّه لم يأتِكم رسولٌ يبشِّرُكم ويُنذرُكم.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

٣٨ ـ ذَكَّر سيِّدُنا موسى عليه السَّلامُ قومَه بفَضْل اللهِ تعالى عليهم، حيثُ أرسَلَ إليهم أنبياءَ كثيرينَ منهم لهدايتِهم، ولم يُرسِلْ هذا القَدْرَ من الأنبياءِ من أيِّ قوم آخَرين[١]، كما أنه تعالى قد أنقذَكم ـ يا بني إسرائيلَ ـ من عبُوديَّةِ الفِرعَوْنِ وحرَّرَكم ومَنَحَكم الحُكمَ، وكلُّ هذه النِّعَم لم يُنعِم اللهُ بها على قومٍ آخَرينَ في ذلك الوقتِ غيرَ بني إسرائيلَ.

ويُعلَمُ من هذه الآية أنّ:

---

(١) «فأرشدكم وشرفكم بهم ولم يبعث في أمّة ما بعث في بني إسرائيل من الأنبياء». تفسير البيضاوي.

١ - بَعْثَةَ الأنبياءِ عليهمُ السَّلامُ نعمةٌ، وقد أمَرَ سيِّدُنا موسى عليه السَّلامُ قومَه بأنْ يَذكُروا هذا، فإذا كان أنبياءُ بني إسرائيلَ عليهم السَّلامُ نعمةً من اللهِ تعالى، وهم كذلك بالفعل، وتَنزِلُ البركةُ بفَضْلِ ذِكْرِهم، فما بالُكَ بسيِّدِ الأنبياءِ جميعًا عليه الصَّلاةُ والسَّلام؟ إنَّ بَعثتَه بلا شكٍّ هي الأَوْلى بأن تكونَ نعمةً.

٢ - الاحتفالَ بمولدِه ﷺ أيضًا من أسبابِ نزولِ البركة؛ لأنَّ فيها ذِكرًا لسيِّدِنا محمّدٍ ﷺ آخِرِ الأنبياء.

٣ - الانتسابَ إلى أُسرةٍ النبيِّ ﷺ أيضًا نعمةٌ وشرفٌ إذا اقترَنَ بالإيمان، ويجبُ شُكرُ اللهِ تعالى على ذلك بدَلًا من التفاخُرِ به، وعلى أهل الإسلام احترامُ الأشرافِ بصفةٍ خاصَّة، كما أنّ على الأشرافِ أن يُراعوا حُرمةَ الأُسرةِ النَّبويَّة التي ينتسبونَ إليها، وأن يلتزِموا بالأعمالِ الصَّالحة، ويَسلُكوا طريقَ أعلى درجاتِ التَّقوى.

﴿ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ﴾

٣٩ - يكتُبُ العلَّامةُ البَيْضاويُّ في تفسيرِ هذه الآية قائلًا: «**أرضُ بيتِ المقدِس سمِّيت بذلك لأنَّها كانت قرارَ الأنبياءِ عليهمُ السَّلامُ ومسكَنُ المؤمنين**»[١].

ويُعلَمُ من هذا أنّ الأرضَ تنالُ الشَّرفَ إذا سَكَنَها الأنبياءُ عليهم السَّلامُ والمؤمنون، ولهذا فإنّ قولَنا: مكَّةُ المكرَّمةُ الشَّريفة والمدينةُ المنوَّرةُ الشَّريفة، وبغدادُ الشَّريفة، وأجْمِيرُ الشَّريفة، وبَهيرَه الشَّريفة وغيرُها صحيحٌ، وأمرٌ يبعَثُ على البركة[٢].

---

(١) تفسير البيضاوي.

(٢) أجمير: مدينة بالهند يقع على أرضها ضريح أحد أولياء الله الصالحين من أهل التصوف وهو الشيخ معين الدين چشتي، وبهيره شريف: مدينة بباكستان يقع على أرضها ضريح أحد أولياء الله الصالحين من أهل التصوف أيضًا وهو الشيخ محمد كرم شاه الأزهري.

﴿ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ﴾

٤٠ ـ الواقعةُ التي جاءتِ الإشارةُ إليها في عددٍ من الآياتِ التالية فَحْواها: أنّ جَدَّ بني إسرائيلَ الأكبرَ سيِّدَنا يعقوبَ عليه السَّلامُ كان يَسكُنُ مدينةَ بيتِ المقدِس، والتي كانت في ذلك الوقتِ جُزءًا من بلادِ الشام، ولكنْ حينَ حَكَم سيِّدُنا يوسُفُ عليه السَّلامُ ابنُ سيِّدِنا يعقوبَ عليه السَّلامِ مصرَ، فإنّ هذه الأُسرةَ كلَّها انتقَلَت إلى مِصرَ وسكنَتْها، وحينَ بَلَغ الظُّلمُ على بني إسرائيلَ أشُدَّه في عهدِ الفِرْعَوْن، خَرَج سيِّدُنا موسى عليه السَّلامُ بقومِه مُهاجرًا من مِصرَ ليلًا، وتعقَّبهم فِرعَوْنُ، لكنّه غَرِقَ مع جُندِه في البحر، وكان العمالقةُ في ذلك الوقتِ يحتلُّونَ بيتَ المقدِس، وكانوا كفَّارًا، وقد أمَرَ اللهُ تعالى بني إسرائيلَ عن طريقِ سيِّدِنا موسى عليه السَّلامُ أنْ يذهَبوا إلى موطنِ آبائهم ويَسكُنوا فيه، وأن يُحرِّروا هذه الأرضَ من قَبْضةِ الكفَّار، وهكذا أرسَلَ سيِّدُنا موسى عليه السَّلامُ اثنَيْ عشَرَ نقيبًا للتعرُّفِ على أحوالِ بيتِ المقدِس، عاد منهم عشَرةٌ صَوَّروا قوَّةَ وجَبَروتَ وشَكْلَ وصُورةَ العمالقةِ بطريقةٍ مبالَغ فيها جَعَلت بني إسرائيلَ يقولونَ خائفين: يا موسى، إنّنا لن نستطيعَ مواجهةَ مِثلِ هؤلاءِ الجَبابرة، فاذهَبْ أنت وربُّك أولًا وقاتلُوهم، وطَهِّروا الأرضَ المقدَّسةَ من دَنَسِهم، ثم بعدَ ذلك سنَدخُلُ نحن ونعيشُ هناك، بينَما أظهَرَ النَّقيبانِ الآخَرانِ شجاعةً فائقةً، وأَفْهَموا قومَهم بأنْ يجبُ أن لا يَجبُنوا هكذا، وأنّ عليهم أن يتَسلَّحوا بالهِمَّةِ ويَهجُموا على العدوِّ، ثم يَنظُروا عندَها هل يَنصُرُهم اللهُ عليهم أم لا؟ لكن هذا كلَّه لم يؤثِّرْ فيهم أيَّ تأثير.

﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾

٤١ ـ لقد كان الجُبْنُ وعَدَمُ الوفاءِ والخيانةُ التي أظهَرَها بنو إسرائيلَ لسيِّدِنا موسى عليه السَّلامُ كما قرأتَ أنتَ الآنَ.

والآنَ، انظُرْ إلى مدى وفاءِ وشجاعةِ خُدَّام المصطفى ﷺ، حيثُ كان جيشُ الكفَّار في غزوةِ بدرٍ ألفًا، وكان لديهم السَّلاحُ بوَفْرة، وعلى الجانبِ الآخَر كان هناك ثلاثُمائةٍ وثلاثةَ عشَرَ فقطْ من المسلمينَ مسلَّحينَ ببعضِ السُّيوفِ والرِّماح، ولكنّ الحَماسَ الإيمانيَّ الذي أظهَره الصَّحابةُ الكرامُ عندَما طَلَب منهم النبيُّ ﷺ المَشُورةَ نتعرَّفُ عليه من خلاصتِه التي نُبيِّنُها فيما يلي:

«امضِ يا رسولَ الله لِما أردتَ، فنحن مَعك، فوالذي بَعَثك بالحقّ، لوِ استَعرَضْتَ بنا هذا البحرَ فخُضتَه لَخُضْناهُ معَك، ما تَخلَّف منّا رجُلٌ واحدٌ، واللهِ لا نقولُ لك كما قالت بنو إسرائيلَ لموسى عليه السَّلام: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾، ولكنِ اذهَبْ أنت وربُّكَ فقاتِلا إنّا معَكما مُقاتِلون، فسُرَّ رسولُ الله صلى الله عليه وآلِه وسلَّم بقولهم وقال: سِيروا وأبْشِروا، واللهِ لَكأنّي الآنَ أنظُرُ إلى مصارع القوم»[1].

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾

٤٢ ـ حَزِن سيِّدُنا موسى عليه السَّلامُ كثيرًا من عِصيانِ قومِه وقال: يا الله، أنا وأخي مستَعِدَّانِ لتنفيذِ حُكمِك، ولكنّ قومي رَفَضوا، ولهذا فرِّقْ بينَنا وبينَ هؤلاء العاصِينَ. وهكذا مُنِع بنو إسرائيلَ من دخولِ بيتِ المقدِس عقابًا لهم على عِصيانِهم،

(١) ابن هشام وكتب السيرة النبوية الأخرى.

وظَلُّوا لأربعينَ عامًا يتيهُونَ في الصَّحراء، أمّا سيِّدُنا موسى عليه السَّلامُ وسيِّدُنا هارونُ عليه السَّلام فإنه برَغْم أنَّهما كانا ـ في الظاهر ـ في الصَّحراءِ معَ قومِهما، إلّا أنّهما كانا مُنهمِكَيْنِ في تبليغ رسالةِ النُّبوَّة بكلِّ اطمئنان، وكانا متفانِيَيْنِ في خِدمةِ قومِهما بالمَنِّ والسَّلوى وعيونِ الماء، مثلَما يحصُلُ الطَّبيبُ على الراحةِ والطُّمأْنينةِ حين يُعالجُ مريضًا يتألَّمُ في المستشفى، وكان سيِّدُنا موسى كثيرًا ما يُشفِقُ عليهم حينَ يَراهم في العذاب، لكنّ الله تعالى قال له: لا تحزَنْ؛ لأنَ هؤلاءِ يستحِقُّونَ ما هم فيه من العذابِ بسببِ عصيانِهم.

۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٤﴾

﴿ ۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ ﴾

٤٣ ـ كان من أسبابِ عداوةِ بني إسرائيلَ لسيِّدِنا محمَّدٍ ﷺ هو حَسَدُهم له بأنّه لماذا لم يأتِ آخِرُ الأنبياءِ والمرسَلينَ من بني إسرائيل؟

وفي الآياتِ التالية بيانٌ لبشاعةِ الحسَد وجمالِ التَّقوى من خلالِ بيانِ قصَّةِ اثنَيْنِ من أولادِ سيِّدِنا آدمَ عليه السَّلام، وذلك حتّى يَرجِعَ بنو إسرائيلَ عن حَسَدِهم ويتوبوا إلى اللهِ منه، ويتَّقوا اللهَ تعالى ويؤمنوا برسولِه سيِّدِنا محمَّدٍ ﷺ.

﴿إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾

٤٤ ـ كان لسيِّدِنا آدمَ عليه السَّلامُ ابنٌ يُدعَى هابيلَ، وكان هابيلُ هذا تقيًّا وَرِعًا، أمّا ابنُ سيِّدِنا آدمَ الآخَرُ والذي كان يُدعَى قابيلَ، فكان مصابًا بالبُغْضِ والحسَد، وقد حَدَثَ اختلافٌ بيْنَ الأخوَيْنِ، ورَفَض قابيلُ الانصياعَ للأدِلّةِ الصَّحيحة، وعليه، أشار عليهما أبوهما سيِّدُنا آدمُ عليه السَّلامُ بأن يُقرِّبا قُربانًا وذلك لاستيضاح الحقِّ، وكان الرَّائجَ في تلك الفترة هو أنه إذا لم تُحَلَّ مسألةٌ ما في ضوءِ الأدِلَّةِ والبراهينِ فإنّ كلاًّ من الفريقَيْنِ المختلفَيْنِ يُقدِّمُ قُربانًا حسَبَ استطاعتِه يضَعُه فوقَ الجَبَل، وعندَئذٍ إذا أحرَقَتْ نارٌ من السَّماءِ هذا القُربانَ فإنَّ صاحبَه يُعتَبَر صاحبَ الحقِّ، وبالفعل، أَحْرَقتْ نارٌ من السَّماءِ القُربانَ الذي قَدَّمه هابيلُ، وبذا صدَرَ القَرارُ في حقِّ هابيلَ أنه على الحقِّ في هذا الخلافِ الذي نَشِبَ بينَه وبينَ أخيه، وبالتالي كان العقلُ يقتضي أن يَرجِعَ قابيلُ عن حَسَدِه ويتَّقيَ اللهَ ويخضَعَ للبراهينِ الصَّادقة التي قدَّمَها أخوهُ هابيلُ، لكنّه ـ على العكسِ من ذلك ـ زاد حسَدُه، وأعلنَ أنه سيقتُلُ أخاه، وحينَئذٍ قال له هابيلُ: إنّي

أخافُ اللهَ تعالى، وليست عندي أيُّ نيَّةٍ لقَتْلِك، فإذا لم يُتقبَّلْ قُربانُك فلا ذنبَ لي في ذلك؛ لأنّ هذا حُكمُ الله تعالى، ولأنه تعالى يَتقبَّلُ قُربانَ المتَّقينَ، فعليك إذًا أن تختارَ طريقَ التَّقوى، ومعَ ذلك إن كنتَ مُصِرًّا على قتلي فإنَّ ذنْبَ قَتْلي وذَنْبَ حسَدِك سيكونانِ عِبئًا ثقيلًا على كتِفَيْكَ، وسوف تَدخُلُ جهنَّم جزاءَ ظُلمِك وتعدِّيك. لكنْ بالرَّغْم من هذا، كان البُغضُ والحسَدُ مُسيطِرَيْنِ على قابيلَ لدرجةٍ جعَلتْه كالمنتَشي، فلم يتأثَّرْ ولو قليلًا بنصيحةِ أخيه، وأصبح من الذين يحمِلونَ وِزْرَ قَتْلِ أخيه.

﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾

٤٥ ـ حينَ قَتلَ قابيلُ هابيلَ أصابَتْه حَيْرةٌ كبيرة، فماذا يفعَلُ بجُثّةِ أخيه؟ لأنّ هابيلَ كان أولَ من ماتَ من البشَر، لهذا لم يكنْ أحدٌ يَعرِفُ عن الدَّفنِ شيئًا، وفي النِّهاية أرسَلَ اللهُ تعالى غُرابًا عَلَّم قابيلَ طريقةَ الدَّفْن، حيث قَتَل هذا الغرابُ غُرابًا آخَرَ أمامَ قابيلَ، ثم حَفَر ـ بمِنقارِه ومِخلبَيْه ـ حُفرةً في الأرض ودفَن فيها الغُرابَ الميِّت[1]، فلمَّا رأى قابيلُ ما فَعَل الغُرابُ نَدِم على حَماقتِه وخَجِل وقال: إنّ فَهْمي وإدراكي أقلُّ من فَهْم وإدراكِ هذا الغُراب، ولو لم يُرشِدْني الغُرابُ لَكانت جُثّةُ هابيلَ بمثابةِ المشكلةِ بالنِّسبة لي.

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾

٤٦ ـ هناك بعضُ المجرِمينَ الذين يُعاقَبونَ بالإعدام، مثلَ قاطع الطَّريق

---

(١) رُوي أنه لما قتل قابيل هابيل تحير في أمره ولم يدر ما يصنع به إذ كان أول ميت من بني آدم، فبعث الله غرابين فاقتتلا فقتل أحدهما الآخر، فحفر له بمنقاره ورجليه ثم ألقاه في الحفرة». تفسير البيضاوي.

والمتمِّردِ والقاتلِ وغيرِهم، فمنَ الضَّروريِّ قتْلُ هؤلاء المُجرِمين، حتّى يمكنَ الحفاظُ على أرواح الأبرِياءِ وأعراضِهم، ولكنْ إذا قَتَل إنسانٌ عامدًا متعمِّدًا إنسانًا آخَرَ بغيرِ حقٍّ، فإنَّ هذه جريمةٌ شنيعةٌ تَعدِلُ قَتْلَ النّاسِ جميعًا؛ لأنه اعتَدى على الدَّم الإنسانيِّ كلِّه وأهانه، وحُرمةُ النُّفوسِ كلِّها واحدةٌ وسواءٌ، ومِثلُ هذا الشَّخص قد خالَفَ الحُكمَ الإلهيَّ الذي كان عليه الالتزامُ به، وبدَأَ بجريمةِ القتلِ من جديدٍ، وهو ما يؤدِّي إلى تشجيع الآخَرينَ على ارتكابِ جريمةِ القَتْل، ولو أنّ هذه السِّلسلةَ استمرَّت لَرُبَّما صارتْ سببًا في قَتْل النّاسِ جميعًا في شكلِ القنابل النَّوَوِيَّة، ولهذا فإنّ الإسلامَ ـ أمامَ بشاعةِ هذا الجُرم ـ اعتَبرَ أنّ قتْلَ إنسانٍ واحدٍ بمثابةِ قَتْلِ بني الإنسانِ جميعًا، كذلك فإنّ الشَّخَص الذي لا يحترِمُ الحياةَ الإنسانيَّةَ هو عدوٌّ للإنسانيَّةِ كلِّها؛ لأنّ مساءتَهُ إذا انتشَرت بينَ الآخَرينَ فإنّ النّاسَ جميعًا سيَقتُلُ بعضُهم البعضَ، على العكس من ذلك الشَّخصُ الذي يحترمُ الحياةَ الإنسانيَّةَ، ويجتهدُ في إنقاذِها والحفاظِ عليها، هو في الحقيقة مُحِبٌّ للإنسانيَّةِ كلِّها ومتعاطِفٌ معها؛ لأنّ الآخَرينَ إذا قلَّدوه فسيكونُ كلُّ إنسانٍ بمثابةِ الحارس على حياةِ الإنسانِ الآخَر.

وفي هذا الخصُوص قال النبيُّ ﷺ ـ فيما يُعتَبرُ بمثابةِ القاعدةِ العامَّةِ والضَّوابطِ الحاكمة ـ:

* عن سيِّدِنا جَريرِ بن عبد الله رضيَ اللهُ عنه: **«مَن سَنَّ في الإسلام سُنّةً حسَنةً، فعُمِل بها بعدَه، كُتِب له مِثلُ أَجْرِ من عَمِل بها، ولا ينقُصُ من أجورِهم شيءٌ، ومَن سَنَّ في الإسلام سُنّةً سيِّئةً، فعُمِل بها بعدَه، كُتِب عليه مِثلُ وِزْرِ منَ عَمِل بها، ولا ينقُصُ من أوزارِهم شيءٌ»**[1]، لأنه هو الذي وَضَع في الحقيقة أساسَ هذا الأمر.

* ذاتَ مرَّةٍ كان النبيُّ ﷺ يطُوفُ بالكعبةِ، فقال فيما رواهُ عنه سيِّدُنا عبدُ الله بن

---

(١) مسلم، كتاب العلم، باب ٦ برقم ٦٨٠٠.

عَمْرٍو رضيَ اللهُ عنهما: «**ما أطيَبَكِ وأطيَبَ ريحَكِ، ما أعظَمَكِ وأعظَمَ حُرمتِكِ، والّذي نفْسُ محمّدٍ بيده! لَحُرمةُ المؤمنِ أعظَمُ عندَ الله حُرمةً منكِ، مالُه ودُمه، وأن نَظُنَّ به إلّا خيرًا**»(١)، فتصوَّرْ عَظَمةَ المؤمن من أنّ حُرمةَ مالِه ودمِه أعظمُ عندَ الله تعالى من حُرمةِ الكعبةِ الشَّريفة.

* وفي موضع آخَرَ قال النبيُّ ﷺ فيما رواه سيِّدُنا البَراءُ بنُ عازبٍ رضيَ اللهُ عنه: «**لَزوالُ الدُّنيا أهوَنُ على الله من قَتْلِ مؤمنٍ بغيرِ حقٍّ**»(٢).

أي: أنّ رُوحَ المسلم غاليةٌ وقيِّمةٌ إلى درجةِ أنّ مالَ الدُّنيا كلِّها ومتاعَها لا يَعدِلُها، ولو أنّ إنسانًا دَمَّر العالَمَ كلَّه، فإنّ جريمتَه لا تُعَدُّ بنفسِ بشاعةِ جريمةِ قَتْلِ مؤمنٍ بغيرِ حقٍّ.

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾

٤٧ ـ في الآيةِ تنبيهٌ لليهودِ من جانبٍ: بأنّ أسلافَكم أوقَعوا ظُلمًا شديدًا بالأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلام، على الرَّغْم ممَّا قَدَّموه من براهينَ ودلائلَ واضحةٍ، فاستَحقُّوا بذلك العذابَ الإلهيَّ، ولهذا فلا تَسلُكوا أنتم أيضًا طريقَ الضَّلال بإنكارِ دلائلِ نبوَّةِ سيِّدِنا محمَّدٍ ﷺ الواضحة، ومن جانبٍ آخَرَ: تُسَرِّي الآيةُ عن النبيِّ ﷺ بأنّ المؤامراتِ التي يَحِيكُها اليهودُ لقَتْلِك وإلحاقِ الأذى بك ليست أمرًا جديدًا؛ لأنّهم سَلَكوا معَ أنبيائهم عليهم السَّلامُ السلوكَ نفسَه.

﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾

٤٨ ـ الذين يُخالفونَ أحكامَ اللهِ تعالى وأوامرَ نبيِّه ﷺ، ويَعِيثونَ في الأرضِ

---

(١) ابن ماجه، أبواب الفتن، باب ٢ برقم ٣٩٣٢.

(٢) ابن ماجه، أبواب الديات، ١ برقم ٢٦١٩.

فسادًا، ويتسلَّحونَ بالأسلحةِ ويَقتُلونَ النّاسَ علانيةً، فإنّ جزاءهم ـ طبقًا لنوعيَّةِ جُرمِهم ـ قد جاء في هذه الآيةِ على أربعةِ أقسام من الجزاء، ننقُلُ خلاصتَها فيما يلي من تفسير «روح المعاني»:

١ ـ لو أنَّهم قتَلوا فقطْ يُقتَلُونَ جزاءً لِما قتَلوا، حتّى وإنْ عَفا أهلُ المقتولِ عن القَتْل لا يَسقُطُ القِصَاصُ عنهم؛ لأنّ الأمرَ لم يَعُدْ خاصًّا بوَرَثةِ المقتول، وإنّما أصبحَ الأمرُ يتعلَّقُ بأمنِ وطُمَأْنينةِ البلادِ والأُمَّة.

٢ ـ لو أنَّهم قَتَلوا ونَهَبوا المالَ أيضًا، فإنَّهم يُصْلَبونَ على الملأِ، وذلك حتى يَنفِرَ النّاسُ من مِثلِ هذا الجُرم.

٣ ـ لو أنَّهم لم يَقتُلوا، وإنّما نَهَبوا المالَ فقطْ، فتُقطَّعُ أيديهم وأرجُلُهم من خِلاف.

٤ ـ **«إنْ لم يفعَلوا غيرَ الإخافةِ والسَّعي للفساد، يُنفَوْا من الأرض، يعني: يُحبَسُونَ ويُسجَنُونَ بعيدًا من بيوتِهم وأهليهم»**[١].

ويقولُ بعضُ أهلِ العِلم: إنّ مِثلَ هذا الشَّخصِ يُنفَى من الأرض، لكنّ المشكلةَ في هذا هو أنه سيُثيرُ الفسادَ أينَما حَلَّ وذهَبَ، ولهذا فمنَ الخيرِ له ولمجتمعِه أن يَتِمَّ حبْسُه إلى أن يتوبَ بصِدقٍ ويصبحَ صالحًا، إذْ إنّ الهدفَ الأصليَّ هو حمايةُ النّاسِ من شرِّه، ولا يتحقّقُ هذا الهدفُ من نَفْيه، وإنّما بالحَبْس أو بالتَّوبةِ الصَّادقة.

وفي ضمنِ هذه الآيةِ يحكي سيِّدُنا مكحولٌ رضيَ اللهُ عنه، **«أنّ عُمرَ بنَ الخطّاب رضيَ اللهُ عنه أوّلُ مَن حَبَس في السُّجون، وقال: أحبِسُه حتى أعلمَ منه التَّوبةَ، ولا أَنْفيه من بلدٍ إلى بلدٍ فيؤذيَهم»**[٢].

---

(١) تفسير روح المعاني.

(٢) تفسير القرطبي.

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡ ﴾

٤٩ ـ لو أنّ قُطَّاعَ الطَّريقِ والمُفسِدينَ هؤلاءِ تابوا قبْلَ إلقاءِ القَبْضِ عليهم، وأعلَنوا أنفُسَهم مواطنينَ شُرَفاءَ مسالمينَ، فإنّ الحدَّ الشَّرعيَّ للسَّطْوِ المسلَّح، يعني: الصَّلبَ وقَطْعَ الأيدي والأرجُل وكذا الحَبْسُ يتِمُّ العفْوُ عنه، لكنّ حقوقَ العبادِ لا تَسقُطُ بهذا إنْ لم يَعفُ صاحبُ الحقِّ، ويجبُ أداؤها إلى أصحابِها، أي: القَتْلُ بدَلَ القتل، وإعادةُ المالِ المنهوب وغيرُ ذلك، إلّا أنّ الحدودَ الشَّرعيَّة لا تَسقُطُ عن هؤلاءِ إنْ تابوا بعدَ إلقاءِ القبضِ عليهم، وإنّما يعاقَبُونَ عقابًا كاملًا؛ لأنّ مِثلَ هذه التَّوبةِ لا تكونُ صادقةً أو مخلِصة، ومَثَلُها مَثَلُ الإنسانِ الذي يتوبُ وهو في النَّزْعِ الأخيرِ (يعني: خوفًا من الموتِ وهو يلفِظُ أنفاسَه الأخيرةَ)[1]، ومِثلُ هذه التوبةِ لا تُقبَلُ[2].

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴿٣٧﴾ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٤٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ

---

(١) كمن صار إلى حال الغرغرة فتاب. تفسير القرطبي.

(٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبيّ ﷺ قال: «إنّ الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر». (جامع الترمذي، برقم ٣٥٣٧، كتاب الدعوات، باب ٩٨.

سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٣﴾

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾

٥٠ ـ في هذه الآيةِ أمرُ اللهِ تعالى أهلَ الإيمانِ بثلاثةِ أشياءَ يكمُنُ في اتِّباعِها فلاحُ الإنسان:

١ ـ اختيارُ التقوى، بمعنى: العَملُ بأحكام الله تعالى، وتجنُّبُ ما حرَّم اللهُ من الأشياء(١).

٢ ـ البحثُ عن وسيلةٍ تأخُذُ بالإنسانِ إلى القُربِ منَ اللهِ تعالى، ومن هذه الوسائل محبَّةُ أنبياءِ الله تعالى وأوليائه، وزيارةُ أولياءِ الله، والصَّدَقاتُ والدُّعاءُ والذِّكرُ وغيرُها(٢).

٣ ـ الجهادُ في سبيلِ الله تعالى، يعني: حينَ يَهجُمُ الكفَّارُ يَخرُجُ الشَّخصُ مُحارِبًا

(١) المراد بالتقوى: امتثال المأمورات الواجبة وترك المنهيات المحرمة. حاشية العلامة الصاوي على تفسير الجلالين.

(٢) وابتغاء الوسيلة: ما يقربه إليه مطلقًا، ومن جملة ذلك: محبة أنبياء الله وأوليائه، والصدقات، وزيارة أحباب الله، وكثرة الدعاء، وصلة الرحم، وكثرة الذكر، وغير ذلك. حاشية العلامة الصاوي على تفسير الجلالين.

ببسالةٍ في ميدانِ الحرب، وهذا هو الجهادُ الأصغر، وإذا حَرَّض الشَّيطانُ نفسَك على الشرِّ فتشجَّعْ في مواجهتِه، وطهِّرْ نفسَك من الذُّنوب، وهذا هو الجهادُ الأكبر.

﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾

٥١ ـ المرادُ بالوسيلةِ في هذه الآية: تلك الذَّريعةُ التي تُوصِلُ إلى اللهِ تعالى، وتكونُ سببًا في الحصُولِ على قُربه، ولا شكَّ أنّ الإيمانَ والعمَلَ الصَّالحَ هما الأساسُ في هذه الوسيلة، ومبايَعةُ الشَّيخ الكامل أيضًا من العمَل الصَّالح، ويؤدِّي إلى خَلاصِ الإنسانِ الضّالِّ من عبُوديَّةِ الشَّيطان وأن يُصبحَ عبدًا مخلِصًا لله تعالى، وتَحدُثُ ثَورةٌ في ظاهرِهِ وباطنِهِ تكونُ سببًا في هدايةِ آخَرينَ ممَّن يرَوْنَه.

ولهذا قال سيِّدُنا الشّاه وليُّ الله بصراحةٍ ووضوح: إنّ المرادَ بالوسيلةِ في هذه الآية: بيْعةُ المُرشِد[1]، وفي شَرْح هذه الآيةِ أيضًا يقولُ مولَوي إسماعيلُ الدَّهْلوي: «المرادُ بالوسيلةِ عندَ أهل السُّلوك هو: المُرشِدُ الذي يَندُرُ الوصولُ إلى طريقِ الحقيقةِ بغيرِ إرشادِه»[2].

والبَيْعةُ في الإسلام على قسمَيْن، الأُولى: بَيْعةُ رئيسِ الحكومة، حتّى يتِمَّ الإعلانُ عن طاعتِه بشكلٍ رَسْميّ، والثانية: بَيْعةُ الشَّيخ الكامل، حتّى يمكنَ طيُّ منازلِ طريقِ القُربِ الإلهيِّ بإرشادِه، ولا بدَّ من توافُرِ الشُّروطِ الأربعةِ التالية في الشَّيخ الكامل، ومَن لا تتوفَّرُ فيه هذه الشُّروطُ الأربعةُ لا تَجوزُ مبايعتُه، ويمكنُ الرجوعُ إلى أُصولِ هذه الشُّروطِ الأربعةِ في كتابِ (بهار شريعت: رَبيعُ الشَّريعة) بالإضافة إلى (فتاوَى إفريقيا) للإمام أحمدَ رضا خان رحمةُ الله عليه.

أي: أن الشَّيخَ الكاملَ هو:

---

(١) القول الجميل.

(٢) الصراط المستقيم.

١ ـ أن يكونَ مسلمًا، صحيحَ العقيدة، أي: من أهلِ السُّنّةِ والجماعة؛ لأنه لا تجوزُ مبايعةُ الكافرِ ولا مَن كانت عقيدتُه فاسدةً.

٢ ـ أن يكونَ عالمًا بالدِّين، أي: أن يكونَ عالمًا بالقرآنِ والحديثِ والفقه، حتى يستطيعَ بيانَ الحِلِّ الإسلاميِّ لمسائل المُريدينَ.

٣ ـ أن يكونَ عاملًا بالقرآنِ والسُّنّة، وألّا يرتكبَ عمَلًا غيرَ محبوبٍ في الإسلام، وذلك حتّى يُطيعَه المُريدونَ بكلِّ اطمئنان؛ لأن مشايخَنا يقولون: لو جاءك أحدٌ يطيرُ في السَّماء، وهو تاركٌ للسُّنّةِ النَّبويَّة، فقد يكونُ ساحرًا، لكنَّه لا يمكنُ أن يكونَ شيخًا كاملًا.

٤ ـ أن تكونَ بَيْعةُ سلسلةِ مشايخهِ متَّصلةً بالنبيِّ ﷺ، وأن لا تكونَ هذه السِّلسلةُ من الفُيوض النَّبَويَّةِ قد انقطَعت في موضع ما، بمعنى: أن يكونَ شيخُه قد بايَعَ شيخَه، وشيخُ شيخِه قد بايَعَ شيخَه، وهكذا حتى تَصِلَ هذه السِّلسلةُ إلى النبيِّ ﷺ بلا انقطاع، حتى تُظلِّلَه بَركةُ هذه النِّسبة، ويطويَ منازلَ القُربِ من اللهِ تعالى بسهولةٍ ويُسر.

فالسَّفَرُ بحثًا عن هؤلاءِ السّادةِ السُّعَداء الذين تتوفَّرُ فيهم الشُّروطُ الأربعةُ السابقة، وقضاءُ بعضِ الوقتِ في صُحبتِهم يُعَدُّ وسيلةً للقُربِ من الله تعالى، وفيما يلي خُلاصةٌ لبعض إرشاداتِ النبيِّ ﷺ في هذا الإطار:

١ ـ إنّ الشَّخصَ الذي يَصِلُ في صُحبةِ الأخيار سعيدٌ، وتُغفَرُ ذنوبُه[1].

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ لله ملائكةً يطوفون في الطّرق يلتمسون أهل الذّكر، فإذا وجدوا قومًا يذكرون الله تنادوا: هلمّوا إلى حاجتكم، قال: فيحفّونهم بأجنحتهم إلى السّماء الدّنيا، قال: فيسألهم ربّهم عزّ وجلّ ـ وهوأعلم منهم ـ: ما يقول عبادي؟ قال: تقول: يسبّحونك ويكبّرونك ويحمدونك، [ويمجّدونك]. قال: فيقول: هل رأوني؟ قال: فيقولون: لا، والله ما رأوك، قال: فيقول: كيف لو رأوني؟ قال: =

٢ ـ بَدأَ شخصٌ من بني إسرائيلَ سَفرَه بنيَّةِ الذَّهابِ إلى الأخيارِ من النّاس، ورَغْمَ أنه لم يستطع الوصُولَ إليهم، ومات في الطَّريق، لكنّ اللهَ تعالى عَفا عن مائةِ قتلٍ ارتكبها، وجَعَله مستحِقًّا للجنَّة[1].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

٥٢ ـ الذين اختاروا طَريقَ الكُفر، وماتوا وهم كفَّارٌ، سيُواجِهونَ عذابًا أليمًا،

= يقولون: لو رأوك كانوا أشدّ لك عبادةً، وأشدّ لك تمجيدًا، وأكثر لك تسبيحًا، قال: يقول: فما يسألوني؟ قال: يسألونك الجنّة، قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا، والله يا ربّ! ما رأوها، قال: فيقول: فكيف لو أنّهم رأوها؟ قال: يقولون: لو أنّهم رأوها كانوا أشدّ لها طلبًا وأعظم فيها رغبةً، قال: فممّ يتعوّذون؟ قال: يقولون: من النّار، قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا، والله يا ربّ ما رأوها، قال: يقول: فكيف لو رأوها؟ قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشدّ منها فرارًا وأشدّ لها مخافةً، قال: فيقول: فأشهدكم أنّي قد غفرت لهم، قال: يقول ملكٌ من الملائكة: فيهم فلانٌ ليس منهم إنّما جاء لحاجةٍ، قال: هم الجلساء لا يشقى جليسهم». البخاري، كتاب الدعوات، باب ٦٦ برقم ٦٤٠٨.

(١) عن أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه؛ أنّ نبيّ الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعًا وتسعين نفسًا، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدلّ على راهبٍ، فأتاه فقال: إنّه قتل تسعًا وتسعين نفسًا، فهل له من توبةٍ؟ فقال: لا، فقتله، فكمّل به مائةً، ثمّ سأل عن أعلم أهل الأرض فدلّ على رجلٍ عالمٍ، فقال: إنّه قتل مائة نفسٍ، فهل له من توبةٍ؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التّوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإنّ بها أناسًا يعبدون الله تعالى فاعبد الله تعالى معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنّها أرض سوءٍ، فانطلق حتّى إذا نصفَ الطّريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرّحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرّحمة: جاء تائبًا مقبلًا بقلبه إلى الله، وقالت ملائكة العذاب: إنّه لم يعمل خيرًا قطّ، فأتاهم ملك في صورة آدميٍّ، فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، (فأوحى الله إلى هذه: أن تباعدي، وإلى هذه: أن تقرّبي. صحيح مسلم، برقم٧٠١٠) فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض الّتي أراد، فقبضته ملائكة الرّحمة . صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب ٨ برقم ٧٠٠٨.

ولو أرادوا دَفْعَ فِديةٍ للنَّجاةِ من عذابِ جهنَّم فلن يكونَ ذلك ممكنًا، حتّى وإنْ كانت فِديتُهم أكبرَ من ثروةِ الأرض كلِّها، وذلك لأنّه أولًا: لن يكونَ عندَ أحدٍ يومَ الحَشْر ثروةُ هذه الأرض، ولوِ افترَضْنا - جَدَلًا - أنه سيكونُ عندَ أحدٍ مِثلُ هذه الثَّروة فلن تُقبَلَ منه.

﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾

٥٣ - سوف يرغَبُ الكفَّارُ كثيرًا أن يَخرُجوا من نارِ جهنَّم، لكنَّهم لن يستطيعوا الخروجَ منها، وسوف يُخلَّدونَ في عذابِ جهنَّمَ عقابًا لهم على كُفرِهم، في حينَ أنّ المسلمَ العاصيَ سيَخرُجُ من جهنَّمَ بعدَ استكمال عقوبتِه، وسيَدخُلُ الجنَّةَ بفَضْل إيمانِه.

وهناك أحاديثُ نبوَيَّةٌ كثيرةٌ تؤيِّدُ هذا الأمرَ، مثلَما رَوى سيِّدُنا جابرٌ رضي الله عنهُ، أن النبيَّ ﷺ قال: «**يَخرُجُ من النّارِ قومٌ فيَدخُلونَ الجنَّةَ - قال يزيدُ بنُ الفقير: فقلتُ لجابرِ بن عبد الله: يقولُ الله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ قال: اتل أوّل الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ألا إنّهم الذّين كفَروا**»[1].

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾

٥٤ - المرادُ بالسَّارقِ: ذلك الرَّجلُ أو المرأةُ الذي يَسرِقُ ممّا يملِكُه آخَرُ ما يُعادلُ - في قيمِته - دِرْعًا، وذلك بشكلٍ متعمَّد، وعقابُ هذه السَّرقةِ في الإسلام أنْ تُقطَعَ يدُ السّارقِ اليُمنى من مَفصِلِ المِعصَم، ولكنْ لا تُقطَعُ اليدُ في أقلَّ من دِرْع، وإنّما يعاقبهُ حاكمُ العَصْر بما يراهُ مناسبًا من العقابِ الذي يقِلُّ درجةً عن القَطْع، ويُثبِّطُ همَّةَ السَّارق.

---

(١) الدر المنثور في التفسير المأثور.

يقولُ سيِّدُنا أيمن رضيَ اللهُ تعالى عنه: «**وكان ثمَنُ المِجَنِّ على عهدِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم دينارًا أو عشَرةَ دراهم**»[1]، ولمزيدٍ من التفصيلِ يمكنُ الرُّجوعُ إلى كتُبِ الفقه.

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾

٥٥ ـ قرَّرَ القرآنُ الكريمُ عقابَ السَّارقِ بأنْ تُقطَعَ يدُه، وبيَّن لذلك سببَيْنِ:

١ ـ هذا العقابُ ليس بديلًا للمتاعِ الذي سَرَقَه؛ لأنّ من الممكنِ أن يكونَ المتاعُ المسروقُ شيئًا عاديًّا، وإنّما هذا العقابُ ـ في الحقيقة ـ على إقدامِه على مخالفةِ القانون وارتكابِه فِعلَ السَّرقة، وهو الأمرُ الذي أطاحَ بأمنِ النّاسِ وأمانِهم.

٢ ـ هذا العقابُ من الله تعالى، وذلك حتّى يَعتبِرَ منه الآخَرونَ، ولا يَجرُؤَ أحدٌ على ارتكابِ السَّرقة.

والهدفُ من العقابِ هو: إنصافُ المظلوم، وإعادةُ الحقِّ إليه، والقَسْوةُ على المُجرِم لإنقاذِه من عادتِه السيِّئة حتّى يعودَ عن هذا الجُرم ويَعتبرَ منه الآخَرونَ ولا يَقترِبوا من مثلِ هذا الفِعل، وهذا الحُكمُ ليس من القرآنِ فقطْ، وإنّما جاء في الكتابِ المقدَّس كذلك: «وإذا كانت يدُكَ اليُمنى سببًا في ارتكابِك الذَّنبَ فاقطَعْها وارْمِها بعيدًا، فالأفضَلُ لك أن تُحرَمَ من أحدِ أعضاءِ بدنِك بدَلًا من أن يَدخُلَ بدَنُك كلُّه النّارَ»[2].

يقولُ البعضُ: إنّ قَطْعَ يدِ الإنسان تصرُّفٌ هَمجِيٌّ وبعيدٌ تمامًا عن التحضُّر، وأنا أقولُ في هذا الخصُوص: لو أنّ زوجًا وزوجتَه سافرا للعمَل خارجَ البلاد، وسَكَنا في بيتٍ بالإيجار، وظَلّا يُكافِحانِ حتّى بَلَغا الستِّينَ من العمُر، إلى أنْ تمكَّنا من جَمْعِ ما يكفي لأنْ يَشترِيا بيتًا يعيشانِ فيه، ويُزَوِّجا بناتِهما ويَقضِيا شيخوختَهما في راحةٍ وأمان،

---

(١) سنن النسائي، كتاب قطع السارق، باب ١٠ برقم ٤٩٥٠.

(٢) (Matthew: **5**: **30**: New Testament & Psalms, Edition **2001** by The Gideons)

وذلك كلُّه في شكلِ حُلِيٍّ وملابسَ ومبالغَ نَقْديَّة، وذاتَ ليلةٍ تسَلَّلَ لصٌّ إلى البيتِ واستَوْلى على كلِّ ما جَمَعه الزَّوجانِ وذهَبَ، تُرى ماذا يكونُ حالُ الزَّوجَيْنِ الهَرِمَيْنِ، اللذين فَقَدا كلَّ ما جمَعاه من جانب، ومن جانبٍ آخَرَ لم تَعُدْ لديهما من القوَّةِ البدَنيَّة ما يساعدُهما على كَسْبِ العيشِ من جديدٍ، ومن الممكنِ جدًّا أن لا يتحمَّلَ الزَّوجانِ هذا الذي حدَث فيَقْضِيانِ نَحْبَهما بسَكْتةٍ قلبيَّةٍ تصيبُهما، وتُيَتِّمُ أطفالَهما، حتّى وإن بَقِيا على قَيْدِ الحياة، فإنّ سواعدَهما لم تَعُدْ تتحمَّلُ العملَ من أَجْل الإنفاقِ على بناتِهما ولا على نفسَيْهما، وفي نهايةِ الأمر سيُضْطَرّانِ إمّا إلى التسوُّل وسُؤالِ الناس، وإمّا إلى الانتحارِ والتخلُّص من الحياة؟

والآنَ سؤالي هو: لو أنك في مكانِ هذَيْنِ الوالدَيْنِ الهَرِمَيْن، وحَدَث لكَ ما حَدَث لهما، فأيُّ عقابٍ ـ يا ترى ـ يمكنُ أن تقترحَه لهذا اللصِّ؟ وهل قام هذا اللِّصُّ بعملٍ متحضِّر حينَ سَرَق؟ أم أنه اتَّسم بالهَمَجيّة وأَنْزلَ بأُسرةٍ سعيدةٍ مصيبةً تَعدِلُ القيامةَ الصُّغرى؟ وواضحٌ أنه حيَوانٌ مفترِسٌ في شكل إنسان، ويستحقُّ عقابَ المفترِسينَ البَشِعين، حتّى يشعُرَ بوَحشيَّتِه، ويصبحَ مثارَ عبرةٍ للآخَرين، بل إنّ الكتابَ المقدَّسَ قال: إنّ قَتْلَ اللصِّ جائز! «إذا أُلقي القَبْضُ على اللِّصِّ وهو يسرقُ بيتَ أحدٍ تَسلَّلَ إليه، وتَمَّ قتْلُ هذا اللصِّ، فإنّ قاتلَه ليس بمُجرِمٍ»[1].

إنّ قَطْعَ يدِ اللِّصِّ التي تَغتصبُ ما تكسِبُه الأيدي الأُخرى ويَشُلُّها أمرٌ يقتضيه العقلُ والحِكمة، وذلك حفاظًا على أيادٍ أخرى لا حَصْرَ لها، فتنهمِكُ هذه الأيدي في خِدمةِ الإنسان، والتاريخُ شاهدٌ على أنه حيثُما قُطِعت يدُ سارقٍ نَتَج عنه إغلاقُ بابِ السَّرِقات، وقد قُطِعت أيدي قلائلَ على مدارِ المائةِ عام الأُولى من ظهورِ الإسلام، ولكنّ نتيجتَها كانت أنّ المجتمعَ كلَّه نَعُم بحياةٍ آمنة[2].

---

(١) الخروج، ٢٢: ٢.

(٢) والواقع يشهد أن عقوبة القطع لم تطبق في خلال نحو قرن من الزمان في صدر الإسلام إلا في آحاد. في ظلال قرآن.

لا يوجَدُ إنسانٌ يحبُّ أن تُقطَعَ يدُه، ولكنْ إذا أصابَ السَّرطانُ أصبعًا في يدِ إنسانٍ فإنّ قطْعَ هذه اليدِ يصبحُ ضروريًّا، وإلّا انتشَر المرضُ في الجسم كلِّه، وهو ما سيؤدِّي ـ في النِّهاية ـ إلى القضاءِ على حياةِ الإنسان، وبنفسِ الطَّريقة فإنّ السَّرقةَ بمثابةِ مرضِ السَّرطانِ بالنِّسبة لأمنِ البشَر وأمانِهم، واليدُ التي تُدمِّرُ حياةَ عائلاتٍ عديدةٍ آمِنة إنْ لم يـتِمَّ قطعُها فإنّ آخَرينَ من النّاس سوف يُصابونَ بهَوَسِ أنْ يصبحوا أغنياءَ بلا جهدٍ أو تعبٍ وفي أقصرِ وقتٍ ممكن، وبالتالي يَفقِدُ المجتمعُ كلُّه أمنَه وأمانَه، ولهذا يجبُ عدَمُ التعاطُف معَ مِثلِ هذا المُجرِمِ؛ لأنّ التعاطُفَ معَه بمثابةِ الظُّلم على المجتمع الذي لا ذنبَ له.

وبصفةٍ عامَّة، في أيامِنا هذه، يُحبَسُ اللِّصُّ لفترةٍ في السِّجن، ولكنّ عقوبةَ الحَبسِ هذه لا تُثبِّطُ من همّةِ السارقِ من الناحيةِ النَّفسيَّة، ولا حتّى من الناحيةِ الجِسمانيَّة، ولهذا فإنّ الدُّولَ التي تعتمدُ عقوبةَ الحَبْس للسارقِ تَـكثُرُ فيها حوادثُ السَّرِقة، أو تكونُ متناميةً بالرَّغم من دَوْريّاتِ البوليس ورجالِ الأمن وأجراسِ الإنذارِ والكاميراتِ وكلابِ الحراسةِ وغيرِها؛ لأنّه بعدَ انقضاءِ عقوبةِ الحَبْس للسّارقِ لا يكونُ لدَيْه مانعٌ يمنَعُه من السَّرقةِ، فيداهُ سليمتانِ! والنّاسُ لا يَعرِفونَ أنّ هذا لصٌّ سارق، ومن هنا قد يَثِقُ النّاسُ فيه، وبالتالي تَسهُلُ عليه السَّرقةُ، في حينَ أنّ عقوبةَ قَطْع يدِ السارقِ تُخجِلُه من الناحيةِ النَّفسيَّة، ويَحتاطُ منه كلُّ من يراه، لأنه يَعرِفُ أنه لصٌّ، كما أنّ قَطْعَ يدِ السارق يَحرِمُ اللصَّ من إمكانيَّةِ أن يسرقَ ثانيةً، ولهذا فإنّنا إذا كنّا نهدِفُ من وراءِ عقوبةِ السّارقِ أن يَرجِعَ اللصُّ عن هذا الجُرم، فإنّ أكثرَ عقابٍ فَعّالٍ في هذه الحالة يكونُ القَطْعَ، أمّا إذا كان الهدفُ هو أن يُعاقَبَ اللصُّ عقوبةً بسيطةً، ويستمرَّ مسلسلُ السَّرِقاتِ بلا نهايةٍ فإنّ أفضلَ عقابٍ في هذه الحالةِ هو أن تَستضيفَ الدَّولةُ اللصوصَ في السجونِ لعدّةِ أيام.

هذا، وقد نَفَّذت المملكةُ العربيَّةُ السُّعوديَّةُ هذا الحدَّ في أيامِنا هذه في القرنِ الحادي والعشرين، ويذهبُ إلى السُّعوديَّةُ كلَّ عام مئاتُ الألوفِ من المسلمين لأداءِ الحجِّ والعُمرة، فهل رأى أحدٌ أبدًا أيَّ عربيٍّ قُطِعت يدُه بسببِ السَّرقة؟ ولا يعني هذا أنه لا توجَدُ سرقةٌ أبدًا في السُّعودية، ولكنّ من المؤكَّدِ أنّ يدَ البعضِ تُقطَعُ فيعيشُ الباقونَ جميعًا في أمنٍ وأمان، وقد أسعَدَني اللهُ تعالى بزيارةِ الحرَمَيْنِ الشَّريفَيْن عدَّةَ مرّات، ولم يَحدُثْ أن رأيتُ شخصًا يدُه مقطوعةٌ، ولكنْ رأيتُ أنه عندَما يُرفَعُ الأذانُ تُترَكُ محلّاتُ الذَّهبِ والفضَّةِ والأجهزةِ الغالية مفتوحةً الأبواب، ويذهبُ أصحابُها لأداءِ الصلاة، ويؤدُّونَ صلاتَهم بكلِّ طُمَأْنينةٍ وهم على يقينٍ من أنّ أحدًا لن يتجرَّأ على سرقةِ محلّاتِهم، وهذا كلُّه ببركةِ العقابِ الحكيم الذي قرَّره الإسلامُ، بحيث يجعَلُ الإنسانَ يخافُ من مجرَّدِ تصوُّرِ السَّرقة، كما أنّ اللصَّ الذي تُقطَعُ يدُه يصبُح إعلانًا فعّالًا للقضاءِ على السَّرقةِ لا تَعدِلُه إعلاناتٌ أخرى بآلافِ الجُنَيْهات عن الموضوع نفسِه، ويَعتبرُ النّاسُ برؤيةِ يدِه المقطوعة إلى درجةٍ لا يستطيعُ أحدٌ آخَرُ أن يتَصوَّرَ ـ مجرَّدَ تصوُّر ـ السَّرقةَ.

ملحوظة: لو أنّ الإنسانَ اضْطُرَّ إلى السَّرقة بسببِ المجاعةِ أو الجُوع الشَّديد، فلا تُقطَعُ يدُه؛ لأنّ الحدودَ تَسقُطُ بالشُّبُهاتِ، وعلى سَبيل المثال: سَرَقَ عَبيدُ حاطبٍ ناقةَ رجُلٍ من قبيلةِ مُزَيْنةَ، وأسقَطَ سيِّدُنا عُمرُ رضيَ اللهُ عنه حدَّ السَّرقةِ عنهم، وفَرَض على سيِّدِهم غرامةً تَعدِلُ ضَعفَ قيمةِ الناقة، لأنه كان يُجِيعُ غِلمانَه، وهو ما جَعَلَهم يَضِيقونَ بالجُوع فارتكبوا فِعلَ السَّرقة.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

٥٦ ـ اللهُ تعالى هو الذي حَدَّد عقابَ السَّرقةِ هذا، واللهُ غالبٌ على الجميع، يقرِّرُ عقابًا كما يشاءُ لأيِّ جُرم يُرتكَبُ، ولا يجوزُ لأحدٍ الاعتراضُ عليه.

كما أنّه تعالى قد أوضَحَ معَ هذا أنه حكيمٌ، يعني: أنه لا يَخْلو حُكمٌ من أحكام الله تعالى من حِكمةٍ، والعقابُ الذي قرَّره للسَّرقةِ يتَّفقُ تمامًا معَ مصالح الفردِ والجماعةِ على السَّواء.

والرَّسولُ ﷺ لم يُفرِّقْ في تطبيقِ هذا العقابِ بينَ أحدٍ وآخَر، ولم يسمَحْ بالتخفيفِ فيه، وعلى سَبيلِ المثال حينَ سَرَقت امرأةٌ من بني مخزوم، وتشفَّع لها عندَ رسولِ الله ﷺ سيِّدُنا أُسامةُ بن زَيْد رضيَ اللهُ عنه باقتراح من الصَّحابةِ الكرام رضيَ الله عنهم جميعًا، لكنّ رسولَ الله ﷺ قال: «**أتشفَعُ في حدٍّ من حدودِ الله؟ إنّما أهلَكَ الّذين قبلَكم أنّهم كانوا إذا سَرَق فيهمُ الشَّريفُ تَرَكوه، وإذا سَرَقَ فيهم الضّعيفُ أقاموا عليه الحدَّ، وايْمُ الله، لو أنّ فاطمةَ بنتَ محمّدٍ سَرَقتْ لَقطعتُ يدَها**»[1].

﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِ ﴾

٥٧ ـ لو أنّ اللِّصَّ تاب تَوْبةً صادقةً، وأصلَحَ من أمرِ نفسِه، وأعاد المالَ المسروقَ إلى أصحابِه قبْلَ أن يَصِلَ الأمرُ إلى العدالة، وطَلَب من أصحابِ الحقِّ العَفْوَ، فعَفَا صاحبُ الحقِّ عنه، ولم يُرفَع الأمرُ إلى المحاكم، فإنّ اللهَ تعالى يَعْفو عن حدِّه الشَّرعيِّ وهو قَطْعُ اليد[2]، أمّا إذا ثبتَتْ تُهمةُ السَّرقةِ على اللِّصِّ في المحكمة، فإنّ من الضَّروريِّ عندَئذٍ قَطْعَ يدِ السَّارق، سواءٌ تاب أم لا؛ لأنّ الأمرَ

---

(١) عن عائشة رضي الله عنها؛ أنّ قريشًا أهمّهم شأن المرأة المخزومية الّتي سرقت فقالوا: ومن يكلّم فيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلّا أسامة بن زيدٍ حبّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ فكلّمه أسامة فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أتشفع في حدٍّ من حدود الله؟»، ثمّ قام فاختطب ثمّ قال: «إنّما أهلك الّذين قبلكم أنّهم كانوا إذا سرق فيهم الشّريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضّعيف أقاموا عليه الحدّ، وأَيم الله، لو أنّ فاطمة بنت محمّدٍ سرقت لقطعت يدها». البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ٥٤ برقم ٣٤٧٥.

(٢) تفسير نعيمي.

حينَئذٍ لم يَعُدْ أمرًا شخصيًّا يخُصُّ اللِّصَّ وصاحبَ الحقِّ فقطْ، وإنّما أصبح مسألةً تخُصُّ النِّظامَ الاجتماعيَّ والإداريَّ في الدَّولة، ولا بدَّ من توقيع العقوبة، إلّا أنّ اللِّصَّ إذا تاب فإنّ اللهَ تعالى يُعفيه من عذابِ الآخِرة، وإذا ارتكبَ أحدٌ جريمةَ السَّرقةِ حتى بعدَ أنْ قُطِعت يدُه ولم يَتُبْ، فإنه عندَئذٍ يستحِقُّ غَضَبَ الله تعالى يومَ القيامة مثلَما كان يستحِقُّه قبْلَ القَطْع.

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّـٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ﴾

٥٨ ـ دَعا النبيُّ ﷺ اليهودَ إلى الإسلام، وقَدَّم لهمُ الأدِلَّةَ والبراهينَ الواضحةَ على حَقَّانيَّةِ الإسلام، لكنَّهم ظَلُّوا مُنْتشِينَ بكُفرِهم، واختار بعضُهم طريقَ النِّفاق، بمعنى: أنه أعلَنَ إيمانَه في الظاهر، لكنّه كافرٌ في قلبِه، وكان النبيُّ ﷺ يَتْلو عليهم كلامَ الله، ولكنَّهم كانوا يرغَبونَ أكثرَ في الاستماع إلى الكِذبِ الذي كان يقولُه علماؤهم الأنانيُّونَ، وكانوا مُنكبِّينَ على الاستماع إلى الدِّعاياتِ الكاذبةِ لأعداءِ الإسلام، هؤلاءِ الذين مَنَعهم تكبُّرُهم من المُثولِ في حضرةِ رسُولِ الله ﷺ، وكانوا يتجسَّسونَ لحسابِهم أيضًا، وكانوا أيضًا يُحرِّفون في ألفاظِ ومعاني كتابِهم المقدَّس التَّوراةِ.

وكان من الطبيعيِّ أن يَحزَنَ النبيُّ ﷺ ويتألَّمَ لِما رآهُ من تعنُّتِ اليهودِ وصَلَفِهم ردًّا على دعوتِه المخلِصة لهم، ولهذا سَرَّى اللهُ تعالى عن النبيِّ ﷺ بأنْ لا يَحزَنَ بسببِ سلوكِ هؤلاء السَّلبيِّ؛ لأنّ التعنُّتَ والعِنادَ المستمرَّ خَلَق الفتنةَ والفسادَ في قلوبِهم، ولهذا السببِ أيضًا تَرَكَ اللهُ تعالى قلوبَهم نَجِسةً كما هي؛ لأنّ الكُفرَ كان قد تأصَّلَ في قلوبِهم.

ولهذا، أيَّها النبيُّ ﷺ، لا تحزَنْ ولا تغتَمَّ ممَّا يفعَلون، ولقد أدَّى النبيُّ ﷺ الرِّسالةَ حقَّ الأداء، والآنَ إذا لم يُسلِمْ هؤلاءِ فإنّك ـ أيُّها النبيُّ ﷺ ـ لا تُسألُ عنهم، وسيُعاقِبُهم اللهُ تعالى على كُفرِهم، ولهم في الدُّنيا خِزْيٌ، وفي الآخِرة عذابٌ عظيم.

﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ۚ وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾

٥٩ ـ نذكُرُ هنا واقعةً خاصَّةً وَرَد ذِكرُها في كتُبِ الحديثِ والتفسيرِ المعتبرَة، ومفهومُ هذه الواقعةِ باختصارٍ هو: أنّ رجلًا يهوديًّا متزوِّجًا وامرأةً يهوديّةً متزوِّجةً ارتكبا فِعلَ الزِّنا، وكان الاثنانِ من عائلتَيْنِ كبيرتَيْنِ، ولهذا وَجَد علماءُ اليهودِ أنّ من غيرِ المناسبِ رَجْمَهما، فقاموا بإرسالِهما بصُحبةِ وفدٍ إلى المدينةِ المنوَّرة، حتى يَستفسِروا عن هذا الأمرِ من رسولِ الله ﷺ، وفي نفسِ الوقت قيلَ لهم: إنْ جاء الحُكمُ بالجَلْد وتسويدِ الوَجْه فعليكمُ الرِّضا بذلك، أمّا إن جاء الحُكمُ بالرَّجْم فلا توافقوا عليه، وبالفعل، حَكَم النبيّ ﷺ بالرَّجْم، ولكنّ الوفدَ لم يُوافقْ على ذلك، فقال النبيُّ ﷺ **«هل تَعرِفونَ شابًّا يقالُ له: ابنُ صوريا؟»، قالوا: نعم، وهو أعلمُ يهوديٍّ على وَجْهِ الأرض ورَضُوا به حَكَمًا، فقال له رسولُ الله صلّى الله عليه وآلِه وسلّم: «أنشدُكَ اللهَ الذي لا إلهَ إلّا هو الذي فَلَق البحرَ لموسى عليه السَّلام وأَنْجاكُم وأَغْرقَ آل فِرعَوْن، هل تَجِدونَ فيه الرَّجْم على مَن أُحصِنَ؟»، قال: نعم، فوَثَب عليه سَفَلَةُ اليهود، فقال: خِفتُ إن كذَّبتُه أن يَنزِلَ علينا العذابُ**[1]. وعليه، قال النبيُّ ﷺ: لماذا تخالفونَ التَّوراةَ إذًا؟ فقال ابنُ صُوريا: الحقيقةُ هي أنّ أميرًا كبيرًا وثَريًّا منّا قد زَنَى، ولم نَرجُمْه مراعاةً له، ولكنْ حينَ ارتكَبَ نفسَ الفعل رجلٌ فقيرٌ

---

(١) تفسير الكشاف.

قرَّرنا رَجْمَه، فاحتجَّ أقاربُ هذا الفقيرِ قائلينَ: إذا كنتُم ستُعاقبونَه العقابَ الشرعيَّ فإنّ عليكم أنْ تُعاقبوا الأميرَ بنفسِ العقاب، وحينَ طال أمدُ الاختلافِ اضْطُرِرْنا إلى تَرْكِ حُكم التَّوراة والاتِّفاقِ على اعتمادِ الرَّجْم وتسويدِ الوَجْه للجميع، فلمَّا سمع رسولُ الله ﷺ هذا قال: «**اللّهمَّ إنّي أوّلُ مَن أحيا أمرَك إذْ أماتوه**»، **فأمَرَ بهما فرُجِما**[1]. ولا تزالُ هذه الألفاظُ موجودةً في التَّوراةِ حتى اليوم: «يُرجَمُ الرَّجلُ الزاني والمرأةُ الزَّانيةُ خارجَ بابِ المدينة حتّى الموت»[2].

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾

٦٠ ـ هنا يمكنُ أن يثُورَ سؤالٌ في بعضِ الأذهان، بأنه إذا كان اللهُ تعالى أراد أن يُبقيَهم في نَجاسةِ الفتنةِ والفسادِ والكُفر، فكيف يهتَدونَ إذًا؟ ولماذا يُعذِّبُهم؟ والحقيقةُ أنّ اليهودَ هم الذين جَعَلوا من أنفسِهم مستحِقِّينَ للعقابِ بسببِ عِنادِهِم وصَلَفِهم وعصيانِهم، وهو العقابُ الذي أعلَنَه اللهُ تعالى، ومِثالُه كالمرضَى الذين لا يَعترِفونَ بتشخيصِ الطَّبيبِ لمرضِهم، وإنّما يؤمنونَ بتصوُّراتٍ عامَّة، ولا يستعملونَ مطلقًا الدَّواءَ الذي يقرِّرُه الطَّبيبُ لهم، أو يقومونَ بالتغيير والتعديل في التركيبِ الدَّوائيِّ طبقًا لرغبتِهم الشَّخصيَّة، وباستمرارِ مخالفتِهم لأوامرِ الطبيبِ وَصَل المرضُ إلى مرحلتِه النِّهائية، فإذا أعلَنَ الطَّبيبُ عندَئذٍ تخلِّيَه عن علاج المريضِ من هؤلاءِ، باعتبارِ أنّ أحدًا لا يمكنُ أن يُنقذَه من الموت، فإنّه لا ذَنْبَ للطَّبيبِ في هذا الأمر، وإنّما المريضُ هو نفسُه المسئولُ عن انتحارِه بهذا الشَّكل.

وبنفسِ الطريقة، فإنّ اليهودَ هم الذين لم يؤْمنوا بالنبيِّ ﷺ بسببِ عِنادِهم، وظَلُّوا مُرتبِطينَ بعلماءِ السُّوءِ أصحابِ المصالح من اليهود، ولم يعمَلوا مطلقًا

---

(١) التفسير المظهري.

(٢) الاستثناء، ٢٢: ٢٣.

بأحكام التَّوراة، أو أنَّهم قاموا بالتحريفِ والتبديل فيها طِبقًا لهواهم، وهكذا فَقَدوا مقدِرتَهم على التفكُّر والتأمُّل بعصيانِهم المتواصِل للأحكام الإلهيَّة، لدرجةِ أنه لم يَعُدْ من الممكنِ خروجُ الكُفرِ والفسادِ من قلوبِهم، وقد أعلَن اللهُ تعالى هذه الحقيقةَ التي هي ـ في الأَصْل ـ نتيجةٌ حَتْميَّةٌ لعِنادِ اليهودِ أنفسِهم.

ملحوظة: لمزيدٍ من التفصيل راجِع الحاشيةَ رقم ١٠ للآية رقم ٧ من سُورة البقرة.

﴿سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾

٦١ ـ في هذه الآيةِ ذِكرٌ لجانبٍ خاصٍّ من جوانبِ أكلِ علماءِ اليهودِ للحرام، يعني الرِّشوة؛ لأنّهم كانوا يأخُذونَ الرِّشوةَ من الأغنياءِ ويَحكُمونَ لهم بغيرِ حق، في حينَ أنّ أخْذَ الرِّشوةِ ممنوعٌ في شريعتِهم، وهو أمرٌ موجودٌ حتّى اليومَ في الكتابِ المقدَّس: «لا تَخلُقوا مرونةً في العَدْل محاباةً للأغنياء، ولا تَقبَلوا الرِّشوةَ أبدًا؛ لأنّ الرِّشوةَ تُعمي عيونَ أهلِ العقل والحِكمة، وتُفسدُ قراراتِهم»[1].

والرِّشوةُ حرامٌ في الإسلام أيضًا؛ لأنّه «**لَعَن رسولُ الله صلى الله عليه وآلِه وسلَّم الرّاشيَ والمُرتشيَ والرّائشَ، يعني الّذي يمشي، بينَهما**»[2]، كما أنّ النبيَّ ﷺ قال ـ فيما رواه جابرُ بن عبدِ الله رضي الله عنهما ـ: «**يا كعبُ بنَ عُجْرة! لا يَدخُلُ الجنّةَ مَن نَبَت لحمُه من سُحتٍ، النّارُ أَوْلى به**»[3].

الرِّشوةُ تقالُ لذلك: المالِ الذي يُعطَى لشاهدٍ كاذبٍ أو لمسئولٍ من أَجْل تضييع حقِّ أحدٍ أو غَصْبِه، وفي هذه الصُّورة يكونُ المُرتشي والراشي والواسطةُ بينَهما

---

(١) الاستثناء، ١٦ : ١٩.

(٢) مسند أحمد، ٥: ٢٧٩. والحديث عن ثوبان رضي الله عنه.

(٣) مسند أحمد، ٣: ٣٩٩.

مُجرِمينَ جميعًا، لكنْ إذا اضْطُرَّ أحدٌ إلى دَفْع رِشوةٍ للحصُولِ على حقِّه، بمعنى: حمايةِ نفسِه أو مالِه، فإنّ هذا ليس حرامًا بالنِّسبةِ له[1]. ولكنّ المؤكَّدَ أنّ المرتشيَ في هذه الصُّورةِ مذنِبٌ؛ لأنه يستغلُّ حاجةَ الآخَر بشكلٍ غيرِ مشروع.

﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾

٦٢ ـ يعني: إذا حَضَر غيرُ المسلم إلى رسولِ الله ﷺ لكي يَحكُمَ في قضيَّتِه، فإنّ اللهَ تعالى قد أعطَى النبيَّ ﷺ الخِيارَ في أن يَحكُمَ بينَهم إذا شاء، وأن يَرفُضَ ذلك إذا شاء، حتى يَحكُمَ بينَهم علماءُ دينِهم، في حينَ أنّ اللهَ تعالى في الآيةِ رقم ٤٩ من هذه السُّورة نفسِها قال للنبيِّ ﷺ: إن أتاك غيرُ المسلمينَ بأمرٍ من أمورِهم فاحكُمْ بينَهم فيه طِبقًا لشريعةِ الإسلام.

ويَكتُبُ الإمامُ أبو بكرٍ الجَصّاصُ موفِّقًا بينَ الآيتَيْنِ قائلًا: «**التخييرُ في أهل العَهْد الذين لا ذِمَّة لهم ولم يَجْرِ عليهم أحكامُ المسلمينَ كأهلِ الحربِ وإيجابِ الحُكم بما أنْزلَ اللهُ في أهلِ الذِّمةِ الذين يَجري عليهم أحكامُ المسلمين**»[2]، بمعنى: أنه إذا كان السائلُ غيرُ المسلم من أهلِ البلدِ المسلم، أو ذِميًّا فيها، فإنّ الحُكمَ في أمرِه فرضٌ على الحاكم المسلم؛ لأنّ الحفاظَ على حقوقِه ومراعاتَها فرضٌ على الحكومة الإسلاميَّة، أمّا إن كان السائلُ غيرُ المسلم ليس من سُكّانِ هذا البلدِ المسلم، وليس ذِمِّيًّا فيها، وإنّما هناك معاهدةُ سَلام معَه فقطْ مثلَما وَرَد عن السائلِ في الآيةِ رقم ٤٢، فإنّ الحُكمَ في أمرِه من عَدَمِه يَرجِعُ إلى الحاكم المسلم؛ لأنّ رعايةَ حقوقِه

(١) عن وهب بن منبه قال: ليست الرشوة التي يأثم فيها صاحبها بأن يرشو فيدفع عن ماله ودمه ـ إنما الرشوة التي تأثم فيها أن ترشو لتعطي ما ليس لك. السنن الكبرى للبيهقي، ١٠: ١٣٩، كتاب آداب القاضي، باب من أعطاها ليدفع بها عن نفسه.

(٢) أحكام القرآن للجصاص، ٤: ٨٨.

وحمايتَها ليس مسئوليَّةَ الدَّولةِ الإسلاميَّة[١]. على أية حال، فإنّ الحاكمَ المسلمَ حينَ يَحكُمُ سيضعُ نُصْبَ عينَيْهِ العدلَ والمبادئَ الإسلاميَّةَ، يعني: يَحكُم طِبقًا للقانونِ الإسلاميِّ فيما يتَعلَّقُ بأمورِ الأمنِ العامِّ والضَّوابطِ والنُّظُم الاجتماعيَّة، ولكنْ لن يتدخَّلَ في الأمورِ الدِّينيَّة أو الشَّخصيَّةِ الخالصةِ لغيرِ المسلمين، وإنّما يَترُكُ الحُكمَ فيها لقياداتِهم الدِّينيَّة.

﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾

٦٣ ـ هذا أمرٌ غايةٌ في العَجَب! يعني: أنّ اليهودَ لا يؤمنونَ بالنبيِّ ﷺ، ومعَ ذلك يطالبونَه بالحُكم بينَهم، في حينَ أنّ التَّوراةَ موجودةٌ لديهم، وفيها أنّ عقابَ الزِّنا هو الرَّجْم. والحقيقةُ هي أنّ هدفَهم ليس السؤالَ عن الحُكم الشرعيِّ، وإنّما هم يبحثونَ بشِدّةٍ عن تيسيرٍ وتخفيفٍ في العقاب، وهذا هو السببُ في أنه حينَ حكَم النبيُّ ﷺ بينَهم بالحُكم الإسلاميِّ طبقًا للتَّوراة رَفضوا الاعترافَ بالحُكم؛ لأنّ حبَّهم لمصالحِهم الشَّخصيَّةِ كان قد أعماهم لدرجةٍ لم يبقَ معَها لهم إيمانٌ بأيِّ كتابٍ من كتُبِ الله تعالى، لا التَّوراةِ ولا القرآنِ.

إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًاۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِۖ وَءَاتَيْنَٰهُ

(١) أحكام القرآن، ٤: ٨٨.

ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾

٦٤ ـ يقولُ الله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ﴾ [المائدة: ٤٦]، ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ويُعلَمُ من هذه الآياتِ المذكورةِ أنّ كتُبَ الله تعالى كلَّها نَبعٌ للهدايةِ والنُّور، بمعنى: أنّ تعاليمَها تُخرجُ الإنسانَ من ظُلُماتِ الضَّلال إلى نُورِ الهداية، حيث تكونُ طُرُقُ معرفةِ الله تعالى والحصُولِ على رضاه واضحةً بيِّنةً، وكلُّ من يسيرُ بإخلاصٍ على هذه الطُّرُقِ سيحقّقُ هدفَ الحياة.

﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾

٦٥ ـ كان أنبياءُ بني إسرائيلَ وأولياؤهم وعلماؤهم يعمَلونَ بالتَّوراةِ، ويَحكُمونَ بها، وكانت مسئوليَّةُ الحِفاظِ على التَّوراةِ بعدَ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ لدى العلماءِ

والأولياءِ، وطالما كان هؤلاءِ يقومونَ بهذه المُهمَّة ظلَّتِ التَّوراةُ محفوظةً من أيِّ تحريفٍ فيها، ولكنْ حينَ استَوْلى عَبيدُ الدُّنيا من العلماءِ والمُراءُونَ من العُبّادِ على صحيفةِ النُّورِ والهدايةِ هذه، أخَذوا يُحرِّفونَ فيها بما يحقِّقُ مصالحَهم الشخصيَّةَ، وهو ما أدَّى إلى ضَياع التَّوراةِ في حالتِها الأصليَّة، لكنّ مسئوليَّةَ الحِفاظِ على القرآنِ الكريم تعهَّد بها اللهُ تعالى بنفسِه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، ولهذا بقيَ القرآنُ الكريمُ محفوظًا حتى يومِنا هذا مثلَما نزَل.

﴿وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾

٦٦ ـ كان علماءُ اليهودِ شاهدينَ على أنّ التَّوراةَ كتابُ الله الصَّادقُ، وكانت مسئوليَّةُ الحِفاظِ عليه تقَعُ على عاتقِهم، كما أنّ التَّعريفَ بالنبيِّ ﷺ وحَدَّ الرَّجْم موجودٌ في هذا الكتاب، لكنَّهم ـ وبالرَّغْم من ذلك ـ كانوا يُخْفُونَ الأحكامَ الإلهيَّةَ خوفًا من الحُكّام وطَمَعًا في الثَّروة، والقرآنُ الكريمُ هنا يُنبِّهُهم بأنْ لا يخشَوْا إلّا اللهَ فقطْ، وأنْ لا يُضحُّوا بأحكام اللهِ تعالى في سبيل المصالح الدُّنيويَّة، وهذا الحُكمُ ليس موقوفًا على اليهودِ فقطْ، وإنّما هو تحذيرٌ لكلِّ مَن يؤمنُ باللهِ تعالى، سواءٌ كان مسلمًا أم أهلَ كتاب.

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾

٦٧ ـ جاء في هذه الآيةِ أنّ الذين لا يَحكُمونَ بما لا يتطابقُ معَ أحكام اللهِ تعالى المُنَزلة: كُفَّارٌ، وفي الآيةِ التالية رقم ٤٥ قال: إنّهم ظالمون، ثم في الآيةِ رقم ٤٧ قال: إنهم فاسِقُون، لماذا ثلاثةُ أنواع من العقابِ لجُرم واحد؟ يقول المفسِّرونَ في الردِّ على هذا: إنّ الذين لا يحكُمونَ بما أَنْزلَ اللهُ تعالى مُنْكِرينَ لأحكامِه هم الكفَّار؛ لأنّ الإنكارَ هنا يتعلَّقُ بالقلبِ والعقيدة، ومَن لا يُصدِّقُ بقلبِه لا شكَّ في

كُفرِه، لكنّ الذين لا يُنكِرونَ أحكامَ الله تعالى ولكنَّهم عمليًّا يَعصُونَها فهم الظّالمون، وهم الفاسِقُون، ويستحِقُّونَ العقابَ طِبقًا لمستوى عِصيانِهم، لكنّهم ليسوا كُفّارًا؛ لأنّهم يُصدِّقُونَ بأحكام اللهِ تعالى من قلوبِهم.

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾

٦٨ - مَضَتْ مئاتُ السِّنين، وحَدَث تحريفٌ كبيرٌ بالحَذْفِ والزِّيادةِ في التَّوراة، ومعَ ذلك فإنّ آيةَ التَّوراةِ التي أشار إليها القرآنُ الكريمُ لا تزالُ موجودةً حتّى اليومَ في عدّةِ مواضعَ من التَّوراة، وهذا دليلٌ قويٌّ على صِدقِ القرآنِ الكريم وحَقّانيَّته، وهكذا جاء في الإنجيل: «يجبُ أن يُقتَلَ كلُّ قاتلٍ .... ومن يَجْرَحْ أحدًا يُجرَحْ مِثلَه، يعني: قَطْعُ عُضوٍ بقَطْع عُضْو، والعَيْنُ بدَلَ العَيْن، والسِّنُّ بدَلَ السِّنِّ، ومثلَما يؤْذي يجبُ أن يؤذَى»[1].

﴿ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ﴾

٦٩ - مَن يعفُو عن حقِّه في القِصَاص يكونُ ذلك موجِبًا للأَجْرِ والثَّوابِ له، وهذا العفوُ يكونُ كَفّارةً لذنوبِ منَ عفَا، وهكذا قال النبيُّ ﷺ فيما رواهُ سيِّدُنا عُبادةُ بنُ الصَّامتِ رضيَ اللهُ عنه: **«ما مِن رجُلٍ يُجرَحُ في جسَدِه جِراحةً فيتصدَّقُ بها إلّا كَفَّر اللهُ عنه مثلَ ما تَصَدَّقَ به»**[2].

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾

٧٠ - كانت سِلسلةُ مجيءِ الأنبياءِ عليهمُ السَّلامُ من بني إسرائيلَ متواصِلةً، في

(١) الأحبار، ٢٤، ١٩ - ٢٠.

(٢) مسند أحمد، ٥: ٣١٦.

البداية كان هناك أكثرُ من نبيٍّ في وقتٍ واحد، لكنْ لم يكنْ هناك نبيٌّ آخَرُ في زمنِ سيِّدنا عيسى عليه السَّلامُ غيرُه، فقد جاء عليه السَّلامُ في ختام أنبياءِ بني إسرائيلَ، وصَدَّق بالكتابِ الذي نَزَل قبلَه، أي: التَّوراةِ، بمعنى: أنه كتابٌ صادقٌ من اللهِ تعالى.

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ﴾

٧١ ـ أَنْزلَ اللهُ تعالى الإنجيلَ على سيِّدِنا عيسى عليه السَّلامُ، والإنجيلُ كالتَّوراةِ أيضًا، كلُّه نورٌ وهدايةٌ، وكما أنّ التَّوراةَ كانت وسيلةً لهدايةِ النّاسِ في زمانِها، كذلك حازَ الإنجيلُ نفسَ المكانةِ بعدَ نزولِه، ولهذا كان على الجميعِ أن يؤمَن بالإنجيل، ويَحكُمَ طِبقًا لأحكامِه، وكان واحدًا من تعاليم الإنجيلِ: أنّ سيِّدَنا محمَّدًا ﷺ رسولُ الله الصَّادقُ، ومن الضَّروريِّ الإيمانُ به حينَ يُبعَث، وكلُّ من لا يؤمنُ بالنبيِّ ﷺ من أهل الإنجيل، فإنّه ـ في الحقيقة ـ ينحرِفُ عن تعاليم إنجيلِه.

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾

٧٢ ـ جاء ذِكرُ التَّوراةِ والإنجيلِ في الآياتِ السَّابقة، وهي التي كانت نَبْعًا للهدايةِ والنُّور، ولكنْ حَدَث تحريفٌ كبيرٌ في هذه الكتُبِ بعدَ الأنبياءِ الكرام عليهم السَّلام، بحيث أصبح من المشكوكِ فيه أنّها ـ بصورتِها فيما بعدُ ـ كتُبٌ سَماويّةٌ نَزَلتْ بالوَحْي، ولهذا كانت هناك حاجةٌ لدليلٍ قويٍّ يكونُ محفوظًا في ذاتِه، وفي نفسِ الوقتِ يُقَدِّمُ البرهانَ على أنّ الكتُبَ السَّابقةَ هي كلامُ الله تعالى، وهكذا أَنْزلَ اللهُ تعالى القرآنَ الكريمَ، والذي هو حقٌّ مجسَّمٌ في نزولِه وبيانِه، ومحفوظٌ باعتبارِ وجودِه مثلَما كان في أولِ يوم لنُزولِه، وهو يشهدُ ـ كذلك ـ على صِدقِ الكتُبِ السَّابقةِ عليه، ويوضِّحُ تعاليمَها الأصليَّةَ ويحفَظُها أيضًا.

﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ﴾

٧٣ ـ جاء الأمرُ في الآياتِ السَّابقةِ لأهل التَّوراةِ وأهل الإنجيل أن يَحكُموا طِبقًا لأحكام اللهِ تعالى التي أَنْزلَها، وفي هذه الآيةِ جاء الحُكمُ نفسُه للنبيِّ ﷺ بأنِ احكُمْ طِبقًا لتعاليم القرآنِ الكريم، وهذا في الأصلِ تعليمٌ إلى الأُمَّةِ المسلمةِ بأنّ الحُكمَ طِبقًا لرغبةِ أيِّ إنسانٍ على خلافِ الأحكام الإلهيَّةِ ضَلالٌ ما بعدَه ضَلال، وهو ما لم يُسمَحْ به لأيِّ نبيٍّ، فكيف يُسمَحُ به لأيِّ إنسانٍ آخَر؟

﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾

٧٤ ـ كلُّ الكتُبِ السَّماويةِ منبعٌ للنُّور والهداية، ومُنزِّلُها كلِّها واحدٌ، ومَقصِدُها وهدفُها واحدٌ أيضًا، لهذا فإنّ العقائدَ والكُلِّيَّاتِ والثوابت التي تتوقَّفُ عليها نَجاةُ الإنسانِ كلُّها واحدةٌ في الكُتِب السَّماوية، ولكنّ الاختلافَ ـ في أحكام الشَّريعةِ وأعمالِها ـ راجعٌ إلى الظُّروفِ الخاصَّة بالأزمِنةِ المختلفة، ويمكنُ أن يكونَ مثالُ ذلك أيضًا أنّ الطَّبيبَ يَقصِدُ إلى أن يَصِحَّ مريضُه، لكنَّه يصفُ علاجَيْنِ مختلفَيْنِ لمريضَيْنِ بمرضٍ واحدٍ طِبقًا لحالةِ كلِّ مريضٍ الجِسْمانيَّةِ وطبيعةِ جسَدِه، بمعنى: أنه ينصَحُ مريضًا بإجراءِ جراحة، وينصَحُ الآخَرَ بدواءٍ ما؛ لأنّ صحتَه لا تتحمَّلُ الجِراحةَ، وهكذا فإنّ اللهَ تعالى أَنْزلَ أحكامًا مختلفةً في أزمانٍ مختلفة، وكان الهدفُ من كلِّ ذلك واحدًا، وهو أن يصبحَ الإنسانُ عبدًا مُطيعًا لخالقِه الحقيقيِّ، وهذا هو الهدفُ من خَلْقِه.

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ﴾

٧٥ ـ لو أراد اللهُ تعالى لم يكنْ من الصَّعبِ عليه أن يُلزِمَ بني البشَرِ جميعًا بقانونٍ واحد، ويجعَلَهم أُمَّةً واحدةً، مثلَما قال العلَّامةُ البَيْضاويُّ في تفسيرِ هذه الآية من: أنه لو أرادَ اللهُ تعالى لَألزَمَ النّاسَ جميعًا بالإسلام، ولم يدَعْ لأحدٍ مجالًا

للإنكار، لكنّ اللهَ تعالى لا يحبُّ الإكراه، حتى يختبرَ النّاسَ ويبتليَهم؛ من سيَقبَلُ الحقَّ بمَحْضِ إرادتِه، ومن سيتعمَّدُ الإعراضَ عنه.

﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾

٧٦ ـ بعضُ النّاس يَمسَخُ الحقائقَ من أَجْل وقارِه الظاهريِّ وفسادِه الدُّنيَويِّ، وينفُخُ في نيرانِ الاختلافاتِ بدلائلَ مزَيَّفةٍ حتّى يحقِّقَ أهدافَه، وسواءٌ كان هذا مسلمًا أم غيرَ مسلم، فإنّ اللهَ تعالى هنا يُنبِّهُ الجميعَ أنه بدلًا من تضييع الوقتِ في الكلام الكاذب، عليكم أن تتقدَّموا في سَبيل الحصُولِ على الحقائق، وبدلًا من أن تُضايقوا أحدًا بغيرِ وَجْهِ حقٍّ، عليكم أن تَتسابقوا في فعلِ الخيرِ، وبدلًا من أن تَستغرِقوا في مالٍ ومتاع هذه الحياةِ العارِضة، اعقدِوا العَزْمَ على العمَل بنشاطٍ وجَدٍّ في سَبيل الحصُولِ على راحةِ وسَكِينةِ الحياة الأَبديَّةِ في الآخرةِ؛ لأنَّنا في نهايةِ الأمر سنَمثُلُ جميعًا بينَ يدَي اللهِ تعالى، حيث سيظهَرُ على الملأِ مَن على الحقِّ ومَن على الباطل، وسيكونُ كلُّ شيءٍ ظاهرًا للعِيان.

﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ﴾

٧٧ ـ النبيُّ ﷺ معصومٌ ومنزَّهٌ عن الخطأ، ولهذا أمَرَ الله تعالى بإطاعتِه طاعةً غيرَ مشروطة: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢]، وقرَّر أنّ إطاعتَه ﷺ هي في الحقيقة إطاعةٌ للهِ تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ [النساء: ٨٠]، ولهذا فإنّ النبيَّ ﷺ لم يكنْ ليتَّبعَ رغبةَ أحدٍ على خلافِ الأحكام الإلهيَّة، ولكنّ اللهَ تعالى خاطَبه ﷺ في هذه الآية، ووَجَّه الخطابَ ـ في الحقيقة ـ إلى الأُمّةِ المسلمة بأنْ لا تَحكُموا طِبقًا لرغبةِ أحدٍ

على خلافِ الأحكام الإلهيَّة، فإنّ هذا ضَلالٌ كبيرٌ لم يُسمَحْ به لنبيٍّ، فكيف يُسمَحُ به لآخَر؟

وجمهورُ المفسِّرينَ قد بيَّنوا سببَ نزولِ هذه الآية، عن سيِّدِنا ابن عَبّاس رضيَ الله عنهما، من أنّ أكابرَ علماءِ اليهود اجتَمَعوا ذاتَ يوم وقرَّروا أن يذهَبوا إلى سيِّدِنا محمَّدٍ ﷺ، ويُثْنوه عن تبليغ الدِّين الإسلاميِّ، فهو في النِّهايةِ بَشرٌ على أيّةِ حال (وليس من الصَّعبِ خِداعُه)، وهكذا حضَروا إلى رسولِ الله ﷺ وقالوا: **«قد عَرَفْتَ يا محمَّدُ أنّا أحبارُ اليهود، وإنِ اتَّبعناكَ لم يُخالِفْنا أحدٌ من اليهود، وإنّ بينَنا وبينَ قوم خُصومةً فنُحاكِمُهم إليك، فاقْضِ لنا عليهم حتّى نؤمنَ بك»**، فأبَى رسولُ الله ﷺ، فنَزَلتْ هذه الآيةُ[1].

فإذا استَنتَجَ أحدٌ من هذه الآيةِ أنّ النبيَّ ﷺ كان سيَحكُمُ طِبقًا لرغَباتِهم - والعياذُ بالله، ولهذا فإنّ اللهَ تعالى يُنبِّهُه هنا - فإنّ هذا في الحقيقة اعوجاجٌ في الفَهْم ممَّن يَستنتجُ هذا؛ لأنّ منَ الثابتِ في المصادرِ المعتبرَةِ أنّ النبيَّ ﷺ قد رَفَضَ هذا العَرْضَ من اليهود، ثم نَزَلتِ الآيةُ بعدَ ذلك، ومن هنا فإنّ هذه الآيةَ لا تُنافي شأنَ عِصمةِ النبيِّ ﷺ، وإنّما هي دليلٌ على مدى خوْفِهِ ﷺ من الله تعالى، ومدى استقامتِه واتِّباعِه للحقِّ، كما أنّها دليلٌ واضحٌ على همَّتِه ﷺ، وكأنّ اللهَ تعالى يقول له ﷺ: لقد قرَّرتَ شيئًا رائعًا اليومَ مثلَما تفعَلُ دائمًا، وعليكَ أن تَثبُتَ على مِثلِ هذه القراراتِ في المستقبَل أيضًا.

نزَلتْ هذه الآيةُ في المدينةِ المنوَّرة، وكان آلافُ النّاسِ قد دَخَلوا في الإسلام حتّى ذلك الوقت، لكنّ النبيَّ ﷺ قد أظهَر هذه الاستقامةَ قبْلَ الهجرةِ حينَ لم يكنْ قد آمَنَ به إلّا قليلٌ من النّاس، وقَدَّم له سادةُ مكّةَ عَرْضًا بالثَّروةِ والجاهِ وحُكم مكّةَ

---

(١) تفسير القرطبي.

على أن يَتَراجعَ عن دعوتِه، ولكنَّه ﷺ قال: «**والله! لو وَضعتُم الشّمسَ في يميني والقمرَ في يساري على أنْ أترُكَ هذا الأمرَ حتّى يُظهِرَه الله أو أهلِكَ فيه ما ترَكتُه**»[1].

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾

٧٨ ـ فإنْ رَفَضوا حُكمَكَ وحُكمَ القرآنِ الكريم فلأنَّهم ـ وإن كانوا سيُعاقَبونَ على كلِّ ذنوبِهم في الآخِرة، لكنّ اللهَ تعالى أراد أن يُعاقبَهم على بعضِ ذنوبِهم في هذه الدُّنيا أيضًا، وهكذا قَتَل بعضَهم بعدَ فترةٍ وجيزة، والبعضُ الآخَرُ تمَّ نَفْيُه من الأرضِ الطّاهرةِ للمدينةِ المنوَّرة.

﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾

٧٩ ـ ما أعجَبَ هؤلاءِ النّاسَ الذين يريدونَ حُكمَ الجاهليَّة برَغْم وجودِ الأحكام الواضحةِ للتَّوراةِ والقرآن! في حينَ أنّ أفضَلَ الأحكام هي أحكامُ الله تعالى، لكنّ أهلَ اليقينِ والإيمان هم الذين يَعترِفونَ بهذه الحقيقة، أمّا أهلُ الكُفرِ والشِّرك فإنّهم يَعتبِرونَ عَقْلَهم النّاقصَ هو كلَّ شيء، ونتيجةُ ذلك أنّهم يَتيهونَ العُمرَ كلَّه في ظُلماتِ الشكِّ وعدَم اليقين.

---

(١) روي أن سادات قريش اجتمعوا وقالوا: يا محمد! إن كنت إنما جئت بهذا الحديث (الإسلام) تطلب به مالًا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا فنحن نسودك ونشرفك علينا، وإن كنت تريد ملكًا ملكناك علينا، وإن كان أنّ ما بك الباءة، فاختر أي النساء من قريش فنزوجك عشرًا، ولكن ارجع إلى ديننا واعبد آلهتنا واترك ما أنت عليه ـ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشّرف فيكم ولا الملك عليكم ولكنّ الله بعثني إليكم رسولًا ـ والله! لو وضعتم الشّمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتّى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته». سيرة ابن كثير، ١: ٤٧٤.

۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَـٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾

٨٠ ـ أهلُ الكتابِ، أو غيرُ المسلمينَ، الذين يُبغِضُونَ الإسلام، ويحاولونَ قَدْرَ استطاعتِهم إيذاءَ أهل الإيمان، يَمتنعُ إقامةُ صَداقاتٍ قويَّةٍ معهم، أو جَعْلُهم أُمَناءَ على أسرارِكم؛ لأنَّهم مهما اختَلَفوا فيما بينَهم فإنَّهم متَّفقُونَ على العداوةِ للإسلام، ومن يَعقِدْ معَهم صداقةً قويَّةً، أو يَجعَلْ منهم أُمَناءَ على أسرارِه، برَغْم معرفتِه بِعَدائهم للإسلام، فإنَّه سيكونُ واحدًا منهم، لكنّ غيرَ المسلم المعتِدلَ، والذي لا يؤْذي أهلَ الإسلام سواءٌ بشكلٍ مباشرٍ أم بشكل غيرِ مباشر، عليكم أن تُعاملوه بالعدلِ والإنصافِ معاملةً حسَنة: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة: ٨]، كما أنه بناءً على الرابطِ الإنسانيِّ ينبغي أن نحاولَ أن نَحتفظَ بعلاقةٍ جيِّدةٍ معَ بني الإنسانِ جميعًا، وذلك حتّى يرتفعَ سوءُ الظنِّ، ويتهيَّأَ جوٌّ من الأمنِ والأمان.

﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ﴾

٨١ ـ البعضُ من أهلِ الكتاب بدَوْا في الظاهرِ وكأنَّهم قد أسلَموا، لكنّ تعاطُفَهم

القلبيَّ كان ناحيةَ اليهودِ والنَّصارى، فكانوا يشاركونَ بكثافةٍ في مَحافِلِهم الخاصَّة، ويؤكِّدونَ لهم تعاطُفَهم معَهم، وحينَ أَوْقفَ المسلمونَ المنافقينَ عن اتِّخاذِ اليهودِ والنَّصارى أُمَناءَ على أسرارِهم، إذْ كيف يكونُ هذا واللهُ قد مَنَع منه؟ كان أهلُ الكتابِ عندَئذٍ يجيبونَهم قائلين: إنّ اختلاطَنا بأهل الكتابِ مجرَّدُ اختلاطٍ في الظاهرِ ليس إلّا، حتّى إذا أصابَنا القَحْطُ ذاتَ مرَّةٍ في المستقبَل، فإنه يمكنُنا أن نقترضَ منهم، وأن يتعاونوا معَنا، لكنَّهم كانوا ـ في الحقيقة ـ يَخْشَوْنَ من أنه إذا انهَزَم المسلمونَ مستقبَلًا فسوف تَحدُثُ لهم مشاكلُ كثيرةٌ، ولهذا فإنّ عليهم أن يحتفظوا بعلاقتِهم مع الكفّار.

في هذه الآيةِ أزالَ اللهُ تعالى سُوءَ الفَهْم هذا من عندِ الكفَّار، بأنّ اللهَ تعالى سوف يمُنُّ على المسلمينَ بالنَّصرِ الكامل قريبًا، وستقومُ الدَّولةُ الإسلاميَّةُ، والتي ستَنعُمُ بالأمنِ والأمانِ ويُسرِ الحال، وسوف يُفتضَحُ أمرُ نفاقِ المنافقين، وعندَئذٍ سيَندَمُ المنافقونَ من قلوبِهم على صَداقتِهم للكفَّار، وقد حَدَث هذا بالفعل، واضْطُرَّ اليهودُ إلى الخُروج من المدينة أَذِلّاءَ مُهانِين بعدَ أن كانوا في يومٍ من الأيام مُسيطِرينَ على سياستِها، أمّا الكفَّارُ الذين كانوا يُسيطرونَ على مكّةَ المكرَّمةِ فقد اعترَفوا هم أيضًا بهزيمتِهم.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴾

٨٢ ـ حينَ مَنَّ اللهُ تعالى على الإسلام بالفَتْح والنُّصرة، وظَهَرت أخلاقُ المنافقينَ أيضًا، قال المسلمونَ على سَبيل الحَيْرةِ والتعجُّب: إنّ هؤلاءِ هم الذين كانوا يُقسِمونَ أَيمانًا مُغلَّظةً أنهم مسلمون، بينَما كانت قلوبُهم كافرةً، وقد ثَبَت عدَمُ جَدْوى كلِّ ما كانوا يفعَلون، بمعنى: أنّهم لم يَستفيدوا من صَداقتِهم معَ الكفَّار بعدَ أنْ هزَمَهم المسلمونَ، وفي نفسِ الوقت فَقَد المسلمونَ ثقتَهم فيهم بعدَ افتضاح أمرِ

نفاقِهم، كما أنّ أعمالَ الخيرِ التي كانوا يقومونَ بها بقَصْدِ خِداع المسلمينَ فَقَدتْ كلَّ قيمةٍ لها بسببِ النِّفاق، ولهذا لم يَنالوا احترامًا في الدُّنيا ولا كرامةً في الآخِرة، وإنّما كُتِبت عليهمُ الحَسْرةُ والخُسرانُ حيثُما حَلُّوا.

وهذه الآيةُ بمثابة اللَّمحةِ الفِكْريَّة لأهل النِّفاق؛ لأنّ هذا هو مصيرُ كلِّ منافقٍ في نهايةِ الأمر.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾

٨٣ - يُعلَمُ من هذه الآيةِ أنّ بقاءَ أهل الإيمانِ وفلاحَهم يَكمُنُ في ثباتِهم على الإيمان، ويجبُ على الذين يَترُكونَ الإسلامَ ويرتدُّونَ عنه أن يَعلَموا أن الإسلامَ لن ينتهيَ بفعلِهم هذا، وأنّهم فقطْ هم الخاسرونَ، وسوف يأتي اللهُ تعالى بمخلِصينَ من النّاسِ في السُّلطةِ لتأديبهم، وهؤلاءِ هم الذين يُحبُّهم اللهُ تعالى ويحبُّونَه، وسيكونونَ رُحماءَ بأهل الإيمان، قُساةً على أهل الكُفر، وسيُجاهدونَ في سبيل الله، ولن يَخشَوْا في سَبيل رِفعةِ الإسلام لومةَ لائم، وسيكونُ هذا فَضْلًا خاصًّا من الله تعالى على هؤلاءِ النّاس، والمرادُ بهؤلاء هم: الصَّحابةُ الكرام رضيَ اللهُ عنهم، وهم الذين أدَّوا الواجبَ عليهم بنجاح كبيرٍ حين قامُوا بتأديبِ المرتدِّينَ بقيادةِ سيِّدِنا أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنه.

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾

٨٤ - في الآياتِ السّابقةِ مَنَع اللهُ تعالى من عَقْدِ صداقاتٍ راسخةٍ معَ أعداءِ الإسلام، معَ أنّ وجودَ صداقةٍ معَ أحدٍ ممَّا تقتضيه الفِطرةُ الإنسانيَّة، حتّى يمكنَ للإنسان أن يَستفيدَ منها في حلِّ المشاكل الشخصيَّةِ والحصُولِ على التعاونِ والمَشُورة

في ذلك، ولهذا قيلَ للمسلمينَ في هذه الآية: إنّ المستحِقّ للصَّداقةِ العميقة هو اللهُ تعالى ورسولُه الكريمُ ﷺ وأهلُ الإيمان، وصَداقتُهم هي التي تجعَلُ الإنسانَ يسيرُ على طريقِ النَّجاح في الدُّنيا والآخرة.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ عَن قَوۡلِهِمُ ٱلۡإِثۡمَ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۚ وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَكَفَّرۡنَا عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ مِّنۡهُمۡ أُمَّةٞ مُّقۡتَصِدَةٞۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ سَآءَ مَا يَعۡمَلُونَ ﴿٦٦﴾

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَ ﴾

٨٥ ـ الدِّينُ أمانةٌ مقدَّسةٌ يختارُها قلبُ الإنسان، ولهذا يتعلَّقُ قلبُ الإنسانِ بدِينِه وبرموزِ هذا الدِّين وشخصيّاتِه، فإذا أهانَ أحدٌ هذا الدِّينَ فكأنّه يُمزِّقُ قلبَه إرْبًا،

وبنفسِ الطريقة أولئك الذين يَسخَرونَ من الأحكام الإسلاميَّة، هؤلاءِ لا يؤْذونَ مشاعرَ المسلمينَ فحسبُ، وإنّما هم ـ في الحقيقة ـ يَسخَرونَ من اللهِ تعالى ومن رسولِه ﷺ؛ لأنّ الذي قرّر هذه الأحكامَ هو اللهُ تعالى والرَّسولُ ﷺ، كما أنّ الذين يَسخَرونَ من الإسلام لا يُظهِرونَ عداوتَهم للمسلمين واحتقارَهم لهم فقطْ، وإنّما يتَحدَّوْنَ عقائدَ المسلمينَ، ويَخلُقونَ سوقًا رائجةً للفتنةِ والفساد، ولهذا يجبُ النُّفورُ من أمثالِ هؤلاء واتّخاذُهم أعداءً، حتى لا يتمادَوْا فيما هم فيه، فهم لا يستحِقُّونَ صداقةً ولا يُستَأْمَنون، وبالتالي مَنَع اللهُ تعالى من عَقْدِ الصَّداقاتِ معَ هؤلاءِ الإرهابيِّينَ غيرِ المسلمين.

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾

٨٦ ـ لم تَعرفِ الشَّرائعُ السَّابقةُ الأذانَ، وإنّما كان يُعلَنُ عن أوقاتِ العبادةِ بأصواتٍ وإشاراتٍ مختلفة، والإسلامُ هو الذي بَدَأَ الأذانَ، وهو ليس صوتًا فقطْ، وإنّما دعوةٌ كاملةٌ للترغيب، وبدَلًا من أن يتعلَّموا منه درسًا، إذا بهم يَسخَرونَ من الأذان، وهذا دليلٌ على عِوَجِ فَهْمِهم وحُمقِهم.

الهدفُ من الأذان

الأذانُ ليس مجرَّدَ دعوةٍ مؤقَّتةٍ للصَّلاة، وإنّما هو إعلانٌ لنظام الحياةِ كلِّه في الإسلام، يعني: تذكيرًا بكبرياءِ الله تعالى وشهادةً بالتَّوحيد والنُّبوة، وبالصَّلاةِ والفلاح، وهو محَكُّ الاختبارِ والتمييزِ بينَ المُطيعينَ لله والعاصِينَ له، فما أنْ يَسمَعَ أهلُ الطاعةِ الأذانَ حتّى يَترُكوا كلَّ مشاغلِ الدُّنيا ويَخِرُّوا ساجِدينَ في حضرةِ الرازقِ الحقيقيِّ، بينَما يبقَى عُبّادُ المالِ والذهبِ هائمينَ مُستغرِقينَ في البحثِ عن محبوبِهم العارضِ الفاني، كما أنّ المسلمَ الذي تُسعِدُه دعوةُ وزيرٍ أو مسئولٍ كبيرٍ في الدُّنيا، فَيترُكُ كلَّ أعمالِه ويعمَلُ جاهدًا على المشاركة في هذه الدَّعوة، وفي نفسِ الوقت لا يُعيرُ اهتمامًا

لدعوةِ الله له، وهو الخالقُ الحقيقيُّ للكائنات والمالكُ الحقُّ لها، فلا يُحاولُ الذهابَ إلى المسجد، مِثلُ هذا المسلم عليه أن يُعيدَ النظَرَ في أسلوبِ عملِه وحياتِه.

وقد قال النبيُّ ﷺ في فَضْلِ الأذان، فيما رواه سيِّدُنا البراءُ بنُ عازبٍ رضيَ اللهُ عنه: «**إنّ اللهَ وملائكتَه يُصَلُّونَ على الصّفِّ المقدَّم، والمؤذِّنُ يُغفَرُ له بمَدِّ صوتِه ويُصدِّقُه مَن سَمِعه من رَطْبٍ ويابسٍ، وله مِثلُ أَجْرِ مَن صلَّى مَعه**»[1].

﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ ﴾

٨٧ ـ السؤالُ هنا مُوجَّهٌ إلى أهل الكتاب؛ لماذا يُخالفونَ المسلمينَ؟ هل يخالفونَهم فقطْ لأنَّهم يؤمنونَ باللهِ تعالى وبالقرآنِ الكريم وبالكتُبِ السَّماويةِ السابقة؟ وإذا كان هذا هو السببَ فعليهم، بدلًا من مخالفةِ المسلمينَ، أن يُطيعوهم، وإلّا وَجَب مخالفةُ التَّوراةِ والإنجيلِ أيضًا؛ لأنّ الإرشادَ إلى الإيمانِ بالنبيِّ الكريم ﷺ وبالقرآنِ الكريم موجودٌ في التَّوراةِ والإنجيل، ولهذا فإنّ معنى عدَمِ الإيمانِ بالنبيِّ ﷺ هو أنَّهم يَعصُونَ التَّوراةَ والإنجيلَ أيضًا، ولكنّ هناك بعضَ أهل الكتابِ الذين آمَنوا بالنبيِّ ﷺ طِبقًا لما ذَكَره الإنجيلُ، وأصبَحوا مسلمينَ، ولهذا فهمُ ليسوا من العُصاة.

﴿ قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾

٨٨ ـ المسلمونَ يؤمنونَ بالأنبياءِ الكرام جميعًا عليهم السَّلامُ، ويؤْمنونَ كذلك بالكُتُبِ السَّماويةِ كلِّها، في حينَ أنّ اليهودَ كانوا يُنكِرونَ نبوَّةَ سيِّدِنا عيسى عليه السَّلام ويُنكرونَ الإنجيلَ كذلك، وكان اليهودُ والنَّصارى معًا يُنكرونَ نُبوَّةَ النبيِّ ﷺ ويُنكرونَ القرآنَ المَجيدَ كذلك، ويَعتبِرونَ العقيدةَ الإسلاميَّةَ شرًّا وسوءًا.

---

(١) النسائي، كتاب الأذان، باب ١٤ برقم ٦٤٧.

وقد نَزَلت هذه الآيةُ الكريمة ردًّا عليهم بأنّ الأشرارَ ليسوا أولئك الذين يؤمنونَ بالله تعالى وكتُبِه المُنْزَلة، إنّما السيِّئونَ والأشرارُ في الأصل هم أولئكَ الذين أَنْزلَ اللهُ عليهم لعنَتَه وغَضَبَه، ومَسَخَ بعضَهم قِرَدةً، والبعضَ الآخَرَ خَنازيرَ، هؤلاء هم الذين ضَلُّوا عن الطَّريقِ المستقيم، وعَبَدوا الشَّيطانَ، فاستحَقُّوا بذلك أسوأَ مصيرٍ وأحطَّ نهايةٍ.

وإذا ما تأمَّلْنا في مرآةِ الصِّفاتِ سابقةِ الذِّكر وجَدْنا أنّ أسوأَ النّاسِ كانوا أولئك الذين قَتَلوا أنبياءَ اللهِ الكرامَ عليهم السَّلام، وخالَفوا الأحكامَ الإلهيَّة، ومُسِخوا قِرَدةً وخنازيرَ بلعنةِ الله وغَضَبِه الذي حَلَّ عليهم، واليومَ أيضًا أسوأُ النّاس هم الذين يَسيرونَ على نَهْج هؤلاءِ المغضوبِ عليهم، وعلى العكسِ من هؤلاءِ، فإنّ أهلَ الإسلام بفَضْل اللهِ تعالى يَحترِمونَ الأنبياءَ جميعًا عليهم السَّلام، ويؤمنونَ بالأحكام الإلهيَّة، ويمتلئونَ أملًا في رحمةِ الله تعالى.

ملحوظة: إنّ الذين خالَفوا أحكامَ يوم السَّبت من اليهودِ قد مَسَخَهم اللهُ قِرَدةً، والنَّصارى الذين عَصَوُا اللهَ وجَحَدوه بالرَّغْم من نزولِ المائدةِ عليهم مَسَخَهم اللهُ خَنازيرَ[1]، والقِرَدةُ والخَنازيرُ الموجودةُ في أيامِنا هذه ليست من نَسْلهم؛ لأنّ الله أهلَكَ هؤلاءِ بعدَ أنْ مَسَخَهم قِرَدةً وخَنازيرَ بعدَّةِ أيام، وقد سُئل النبيُّ ﷺ عن القِرَدةِ والخَنازيرِ الحاليَّة ؛ هل هي من نَسْل هؤلاء؟ فقال ﷺ فيما رواه سيِّدُنا ابنُ مسعودٍ رضي اللهُ عنه: «**إنّ اللهَ عزَّ وجلَّ لم يُهلِكْ قومًا، أو يُعذِّبْ قومًا، فيَجعَلْ لهم نَسْلًا، وإنّ القِرَدةَ والخَنازيرَ كانوا قبلَ ذلك**»[2].

---

(١) أي: مسخ بعضهم قردة ـ وهم أصحاب السبت ـ وبعضهم خنازير ـ وهم كفار مائدة عيسى عليه السلام. تفسير روح المعاني.

(٢) مسلم، كتاب القدر، باب ٧ برقم ٦٧٧٢.

﴿ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ﴾

٨٩ ـ كان بعضُ اليهودِ يأتُونَ إلى النبيِّ ﷺ ويقولونَ: إنّهم مؤمنونَ، ويصدِّقُونَ بكلِّ أحكام الإسلام، في حينَ أنّ قلوبَهم كانت مصمِّمةً على الكُفر، وكانوا يريدونَ فقطْ خِداعَ المسلمينَ بلسانِهم.

وفي هذه الآية عَرَّف اللهُ تعالى المسلمينَ بنفِاقِ هؤلاء بأنّهم يأتُونَ إليك في حالةٍ من النِّفاق، ويعودونَ من عندِك بنفسِ الحالة، وأنّهم لم يَقبَلوا الإسلامَ من قلوبِهم ولو للحظةٍ واحدة، ولهذا لم يكنْ هناك أيُّ أَثرٍ لصُحبتِهم للنبيِّ ﷺ ولا لنصائحِه عليهم؛ لأنّهم كانوا قد وَضَعوا على أبوابِ قلوبِهم أقفالَ الكُفرِ التي لا تَفتَحُ ولا تُغلِقُ إلّا بمِفتاح الكُفر فقطْ.

﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ﴾

٩٠ ـ في الآيةِ السَّابقةَ تمَّ تنبيهُ اليهودِ على ظُلمِهم وذنوبِهم وأكْلِهمُ الحرامَ بأنّ هذه أعمالٌ سيِّئة، ونهايتُها نهايةٌ سيِّئة، ولهذا عليهم أن يَترُكوا كلَّ هذه الأفعالَ، لكنْ في هذه الآية تنبيهٌ لعلماءِ اليهودِ ومشايخِهم، وخاصّةً زُعماءهم الدِّينيِّين الذين لا يَمنَعونَ عامَّة النّاس منَ ارتكابِ الذُّنوبِ وأكْلِ الحرام، ورَغْمَ أنّ هذه الآيةَ تتعلَّقُ باليهود إلّا أنّ حُكمَها عام، وهي بمثابةِ اللَّمحةِ الفِكْريّة لكلِّ الزُّعماءِ الدِّينيِّين:

*** عن ابن عَبّاس رضيَ اللهُ عنهما، قال: ما في القرآنِ آيةٌ أشدُّ توبيخًا من هذه الآية[1].**

*** عن مِسْعَر، قال: بَلَغَني أنّ مَلَكًا أُمِر أنْ يَخسِفَ بقريةٍ، فقال: يا ربِّ، فيها**

---

(١) تفسير ابن كثير.

فلانٌ العابد، فأوحَى اللهُ تعالى إليه: أنْ بهِ فابدَأْ، فإنّه لم يَتمعَّرْ وجهُه (أي: لم يَحمَرَّ غضبًا) في ساعةٍ قطُّ[١].

*** عن أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ رضيَ اللهُ عنه؛ أنّه قال: إنّي سَمِعتُ رسولَ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم يقول: «إنّ النّاسَ إذا رَأَوا الظّالمَ فلم يأخُذوا على يدَيْه أوشَكَ أن يَعُمَّهم اللهُ بعقابٍ منه»**[٢].

* ومثالٌ عمَليٌّ لـهذا الواقع جاء في هذا الحـديث: **عن النُّعمـان بن بَشِير رضيَ اللهُ عنهما: عن النبيِّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم قال: «مَثَلُ القائم على حدودِ الله والواقع فيها كمَثَلِ قومٍ اسْتَهَمُوا على سفينةٍ، فأصابَ بعضُهم أعلاها وبعضُهم أسفلَها، فكان الّذين في أسفلِها إذا استَقَوْا من الماءِ مَرُّوا على مَن فوقَهم فقالوا: لو أنّا خَرَقْنا في نصيبِنا خرقًا ولم نُؤْذِ مَن فوقَنا**[٣]**، فإنْ يترُكوهم وما أرادوا**[٤] **هَلَكوا جميعًا، وإن أخَذوا على أيديهم نَجَوْا ونَجَوْا جميعًا»**[٥].

وهذا يعني أنه إذا سَلَكتْ مجموعةٌ من شعبٍ ما الطريقَ الخطأَ، وأخَذوا يقومونَ بأعمالٍ من شأنِها تدميرُ البلاد والأُمّة، يصبحُ من الفَرْض على المسئولينَ في هذا الشَّعبِ (العلماءِ والمشايخ والزُّعماءِ السياسيِّينَ والمُصلِحينَ الاجتماعيِّين) أن يمنَعوا هذه الجماعةَ وإلّا سيتسبَّبُ ذلك في دمارِ الشَّعبِ كلِّه.

ملحوظة: في هذه الآية ذِكرٌ لأولئك العلماءِ والمشايخ الذين لا يُوظِّفونَ

---

(١) تفسير القرطبي، وتفسير البحر المحيط.

(٢) الترمذي، أبواب الفتن، باب ٨ برقم ٢١٦٨.

(٣) حتى تأتي الماء بسهولة.

(٤) أي: امتلأت السفينة بالماء وغرقوا جميعًا.

(٥) البخاري، كتاب الشركة، باب ٦ برقم ٢٤٩٣.

أيديَهم ولا ألسنتَهم في النَّهي عن المُنكَر، بل ولا يَعتبرونَ أهلَ السُّوءِ أشرارًا من قلوبهم، أمّا العلماءُ والمشايخُ المخلِصونَ الذين يوظِّفونَ أيديَهم وألسنتَهم قَدْرَ استطاعتِهم من أَجْل القضاءِ على المنكَر، وفي حالِ عَجْزِهم عن هذا، يُظهِرونَ استياءَهم بطريقةٍ أو بأخرى من المنكَر، فهؤلاءِ لهم عندَ الله أجرٌ عظيم، سواءٌ عَمِل النّاسُ بنُصحِهم ومَشُورتِهم أم لا.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾

٩١ ـ في الفترةِ الأُولى للإسلام حينَ رأى اليهودُ حاجةَ المسلمينَ وضِيقَ ذاتِ يدِهم، وفي نفسِ الوقت سَمِعوا أنّ اللهَ يطلُبُ القرضَ الحَسَن، حينَئذٍ قالوا: «**إنّ إلهَ محمَّدٍ فقيرٌ، وربّما قالوا: بخيلٌ**»[1]، وفي هذه الآية ادَّعَوْا أنّ يدَ الله مغلولةٌ، يَقصِدونَ بذلك أنّ اللهَ بخيلٌ ولا يُنفِقُ على عبادِه، ولهذا فإنّ المسلمينَ يعانونَ الفقرَ والإفلاسَ. يقولُ العلّامةُ الطَّبريُّ: «**وإنّما أعلَمَ ـ تعالى ذِكرُه ـ نبيَّه صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم أنّهم أهلُ عُتُوٍّ وتمرُّدٍ على ربِّهم، وأنّهم لا يُذعِنونَ لحقٍّ، وإن عَلِموا صحتَه، ولكنَّهم يعاندونَه، يُسلِّي بذلك نبيَّه محمَّدًا صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم، عن المَوْجَدة بهم في ذهابِهم عن الله وتكذيبِهم إيّاه**»[2].

﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟﴾

٩٢ ـ هنا إمّا إخبارٌ بأنّ الحقيقةَ هي أنّ اليهودَ هم الذين أصبحوا فقراءَ وبُخَلاءَ، وأنّهم ملعونونَ في حضرةِ الله تعالى بسببِ سُوءِ أدبِهم وتطاوُلِهم هذا على الله، أو أنه دعاءٌ على اليهودِ بأن تُغَلَّ أيديهم، أي: يُصبحوا فقراءَ وبُخلاءَ، وأن تَحِلَّ عليهم لعنةُ الله لتطاوُلِهم عليه، وهكذا يَشهَدُ التاريخُ أنه بعدَ فترةٍ بسيطةٍ حَلَّت لعنةُ اللهِ

---

(١) تفسير القرطبي.

(٢) تفسير ابن جرير الطبري.

تعالى على اليهودِ بحيثُ عانُوا الفقرَ وضِيقَ ذاتِ اليدِ ما اضْطُرَّهم إلى تركِ المدينة، كما أكرَمَ اللهُ تعالى المسلمينَ بحيث رَفرفَتْ رايةُ الإسلام على حكوماتِ كسرى وقَيْصرَ وعلى خزائِنِهم.

ويُعلَمُ من هذه الآيةِ أيضًا أنّ مَن يسيءُ إلى اللهِ تعالى فإنّ الردَّ عليه مسئوليَّةُ العبدِ المؤمن، وأنّ الدُّعاءَ على مِثل هذا المتطاوِل يتَّفقُ تمامًا معَ التعاليم القرآنيَّة، ويستحِقُّ مِثلَ هذا السلوكِ أيضًا ذلك الشَّخصُ الذي يُسيءُ إلى النبيِّ ﷺ، مثلَما نَزَلت في القرآنِ الكريم سورةٌ كاملةٌ ضدَّ أبي لهَبٍ وتَرُدُّ عليه.

﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُ﴾

٩٣ ـ اللهُ تعالى منزَّهٌ عن الجسَدِ والتَّجسيد، وغَلُّ اليدِ كنايةٌ عن البُخْل، وبَسْطُ اليَدْينِ كنايةٌ عن كثرةِ الجُودِ والسَّخاء، وفي هذه الألفاظِ يَرُدُّ اللهُ تعالى على الاعتراضِ الواهي لليهودِ قائلًا: إنه ليس فقيرًا ولا بخيلًا، وإنما غنيٌّ وغايةٌ في السَّخاء، يُعطي مَن يشاءُ حينَ يشاء ووقتَما شاء، وبالرَّغْم من ذلك لا ينقُصُ ذلك من خزائِنه التي لا حدودَ لها شيئًا، مثلَما قال ﷺ، فيما رواه سيِّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: «**إنّ يمينَ اللهِ مَلْأَى لا يَغِيضُها نفقةٌ، سَحَّاءُ اللّيلَ والنّهارَ، أرأيتُم ما أنفَقَ منذُ خَلَقَ السّمواتِ والأرضَ؟ فإنّه لم يَنقُصْ ما في يمينِه**»[1].

قال أبو السُّعود: «**وتضييقُ الرِّزق ليس لقصُورٍ في فَيْضِه، بل لأنّ إنفاقَه تابعٌ لمشيئتِه المَبْنيَّةِ على الحِكَم، وقدِ اقتَضَتِ الحِكمةُ بسببِ ما فيهم من شُؤْم المعاصي أن يُضيِّقَ عليهم**»[2]، وليس بمقدورِنا الإحاطةُ بحِكَم اللهِ تعالى، وليس من الضروريِّ أن يكونَ سببَ فقرِ إنسانٍ ما هو أعمالُه السيِّئة، بل إنه ـ في بعضِ الأحيان ـ يكونُ

(١) البخاري، كتاب التوحيد، باب ٢٢ برقم ٧٤١٩.

(٢) صفوة التفاسير.

فقرُه إرهاصةً لمستقبَلٍ مُشرِقٍ له، أو وسيلةً لنجاتِه من مُصيبةٍ عظيمةٍ ممّا يعلَمُه اللهُ جيِّدًا، لأنه ـ في بعضِ الأحيان ـ تكونُ هناك أسبابٌ وأهدافٌ مختلفةٌ ومتناقضةٌ لنوعٍ واحدٍ من التَّعبِ والابتلاء، مثلَما أنّ يدَ اللِّصِّ تُقطَعُ عقابًا له على ما ارتكبَ من فعلِ السُّوء، بينَما تُقطَعُ يدُ المريضِ حتّى يُمكنَ حمايةُ باقي بدَنِه من المَرض، فقَطْعُ اليدِ واحدٌ، ولكنّ أسبابَه ومقاصدَه ونتائجَه مختلفةٌ، بمعنى: أنّ اللصَّ يصيبُه العارُ والخِزْي، بينَما يطمئنُّ قلبُ المريض.

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾

٩٤ ـ لقد قام علماءُ اليهودِ بسَنِّ قوانينَ ووَضْع أحكامٍ لم تكنْ في التَّوراة لحمايةِ الأثرِياء وطَمَعًا في الدُّنيا، ولهذا نَزَلتْ هذه الآياتُ من القرآنِ الكريم رَدًّا عليهم، وغالبًا ما كان اليهودُ يُنكِرونَ كلَّ آيةٍ بعدَ نزولِها، ولهذا كلَّما نَزَلت آياتُ القرآنِ الكريم زاد اليهودُ من إيغالِهم في الكُفرِ والتمرُّد بسببِ إنكارِهم للقرآنِ الكريم؛ لأنّ القرآنَ الكريمَ يقولُ الحقَّ والصِّدق، ولا يَعترِفُ بالحقِّ والصِّدقِ إلّا أصحابُ العقولِ والضمائرِ السَّليمة، أمّا الذين أصابَ الفتورُ عقولَهم، وغَلَّف التعصُّبُ ضمائرَهم فإنّ الحقَّ يبدو لهم ناقصًا دائمًا، مثلَما يَشعُرُ بعضُ المرضَى بمرارةٍ في طعم الحَلْوى، ولا ذنبَ للحَلْوى في هذا، وإنّما المرَضُ هو الذي أصابَ ـ بالعَطَبِ ـ تذوُّقَ المريض، ولهذا يبدو له كلُّ شيءٍ ناقصًا.

* كما أنّ القرآنَ الكريمَ قد أوضَح دلائلَ نبُّوةِ النبيِّ ﷺ بشكل واضح، وأخَذَ بعضُ الذين يُحبُّونَ الحقَّ من اليهودِ في الدُّخولِ في الإسلام، وهو ما زاد في حسَدِ اليهودِ وعِنادِهم، وهو ما أنتجَ مزيدًا من الكُفرِ والتمرُّدِ لديهم.

* يقول العلَّامةُ ابنُ كثير: «**أي: يكونُ ما آتاك اللهُ يا محمَّدُ منَ النِّعمةِ نِقمةً في حقِّ أعدائك من اليهودِ وأشباهِهم، فكما يزدادُ به المؤمنونَ تصديقًا عمَلًا صالحًا**

وعلمًا نافعًا يزدادُ به الكافرونَ الحاسدونَ لكَ ولأُمّتِك طُغيانًا»[١].

﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾

٩٥ ـ ألقَى اللهُ تعالى العداوةَ والبَغْضاءَ الدائمةَ بيْنَ فِرَقِ اليهودِ في الأمورِ الدِّينيَّة بسببِ كُفرِهم وعِنادِهم المتواصِل[٢].

﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾

٩٦ ـ كلَّما تآمرَ اليهودُ من أَجْلِ قَتْلِ النبيِّ ﷺ أحدَثَ اللهُ تعالى بينَهم الاختلافَ[٣]، وهو ما يجعَلُ نيرانَ مؤامراتِهم تنطفئُ من نفسِها، فلا ينجَحونَ فيما قَصَدوا إليه، لكنَّهم ظَلُّوا دائمًا نشيطينَ في الإفسادِ في الأرض، أي: في إضلالِ النّاس عن طريقِ الحقِّ، وبسببِ هذا الإفسادِ فإنّ اللهَ تعالى لا يحبُّ اليهودَ[٤].

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَـٰهُمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾

٩٧ ـ حرَّفَ أهلُ الكتابِ في التَّوراةِ والإنجيل، وكذَّبوا نبيَّ آخِرِ الزَّمانِ سيِّدنا محمّدٍ ﷺ بعدَ أنْ عَرَفوه في كُتبِهم، ولم يَألُوا جُهدًا في إيذاءِ أهل الإيمانِ ومضايقتِهم، وبالرَّغْم من كلِّ هذا فإنّهم لو آمَنوا بسيِّدِنا محمّدٍ ﷺ، وتابوا توبةً صادقةً من كلِّ أنواع

---

(١) تفسير ابن كثير.

(٢) «وألقى الله تعالى بينهم العداوة والبغضاء والجدال في الدين، لا تجتمع قلوبهم دائمًا؛ لأنهم لا يجتمعون علي حق». تفسير ابن كثير.

(٣) «كلما اجتمعوا على قتل محمد تمردًا فرق الله جمعهم وخالف كلمتهم». تفسير ابن عباس، تنوير المقباس.

(٤) «يمشون في الارض بالفساد بتعويق الناس عن محمد صلى الله عليه وآله وسلم والدعوة إلى غير الله، لهذا فإن الله تعالى لا يحبهم». تفسير ابن عباس، تنوير المقباس.

الشُّرورِ التي يرتكبونَها، فإنّ اللهَ تعالى سيعفُو عن ذنوبِهم ويمنَحُهم سَكِينةَ القلبِ في هذه الدُّنيا، ويُدخلُهم الجنَّةَ في الآخِرة ويمَنُّ عليهم بنِعَمِه التي لا تُحصَى.

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾

٩٨ ـ في الآياتِ القليلةِ السَّابقة كان الخِطابُ لأهل الكتابِ الذين كانوا في زمنِ النبيِّ ﷺ، وحينَ أَخَذ الإسلامُ في الانتشار، وتزايَدَ تعاطُفُ النّاسِ معَ المسلمين، تأثَّرت تجارةُ اليهودِ الدُّنيويَّةُ كثيرًا بالسَّلْب، وعانوا الفقرَ والإفلاسَ، وفي هذه الآية بيَّنَ اللهُ تعالى سببَ فقرِهم، وقال: لو أنّهم التزَموا بأحكام التَّوراةِ والإنْجِيل، وآمَنوا بالقرآنِ المَجِيد في ضَوْءِ البِشاراتِ التي جاءت فيهما، لَما واجَهوا هذا الفقرَ، ولَمنَّ اللهُ عليهم بنِعَمِه الكثيرة، ولكنْ كان منهم بعضُ النّاس المُحِبُّونَ للحقيقة فآمَنوا بالقرآنِ المَجِيد، وعاشُوا حياتَهم في عزَّةٍ ووقارٍ مثلَ: عبدِ الله بن سَلّام وبعضِ رفاقِه من اليهود، وكذلك مَلِكُ الحبشة وبعضُ رفاقِه من النَّصارى[1].

ملحوظة: هذا الوعدُ بالحياةِ الرَّغِدةِ هو لبعض النّاسِ فقطْ من أهلِ الكتاب الذين كانوا في زَمنِه ﷺ وكان ﷺ يُخاطبُهم، ومع ذلك فهذه ليست قاعدةً بأنّ كلَّ مخلصٍ أمينٍ سيعيشُ دائمًا حياةً رَغِدة، ولكنّ المؤكَّدَ أنّ حياةَ المخلِصينَ الأُمَناءِ الدُّنيَويَّة تكونُ طاهرةً رَضِيَّةً يغبطُهم الآخَرونَ عليها، سواءٌ كانوا يعيشونَ في عُسرةٍ أم في رخاءٍ من الناحيةِ الدُّنيويَّة، وتُعَدُّ حياةُ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ وحياةُ الصَّحابةِ الكرام عليهم رضوانُ الله تعالى نَمُوذَجًا عظيمًا في هذا الخصوص، فقد كان بعضُهم غنيًّا، وكان البعضُ الآخَرُ فقيرًا، لكنّ سلوكَهم كان نَمُوذجًا يُحتذَى من الطُّهرِ والعفاف.

(١) منهم جماعة عادلة مستقيمة، يعني: عبد الله بن سلام وأصحابه والنجاشي وأصحابه. تفسير ابن عباس، تنوير المقباس.

۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ رُسُلٗاۖ كُلَّمَا جَآءَهُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُهُمۡ فَرِيقٗا كَذَّبُواْ وَفَرِيقٗا يَقۡتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿٧٢﴾ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾

٩٩ ـ في هذه الآيةِ الكريمةِ أمرٌ للنبيِّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم بأن يُبلِّغَ أحكامَ اللهِ تعالى كلَّها إلى خَلْقِه، وبفَرْضِ المستحيل لو أنّ حُكمًا من الأحكام بقيَ دونَ تبليغ، فإنّ

معنى هذا أنّ النبيَّ ﷺ لم يؤدِّ حقَّ التبليغ، مثلَما أنّ الصَّلاةَ تبطُلُ كلُّها إذا ترَك أحدٌ رُكْنًا مِن أركانِها، وإنكارُ آيَةٍ واحدةٍ من آياتِ القرآنِ الكريم تعني بُطلانَ الإيمانِ بالقرآنِ كلِّه، بنفسِ الطريقة فإنّه إذا حَدَث تقصيرٌ في تبليغ ولو حُكمٍ واحدٍ فإنّ التبليغَ كلَّه كان كأنْ لم يكنْ.

هذا وقدِ اختار اللهُ تعالى هذا الأسلوبَ في الخطابِ ليُخبرَ النّاسَ بأهميَّةِ رسالةِ الله تعالى، وإلّا فإنّ مجرَّدَ تصوُّرِ أنّ نبيًّا من أنبياءِ الله تعالى قدِ ارتكَبَ ولو أدنَى خيانةٍ في تبليغ الأحكام الإلهيَّة بمثابةِ الذَّنب، فما بالُكَ إذا كان مِثلُ هذا التفكيرِ عن إمام الرُّسُل والمبلِّغ الأعظَم نبيِّ آخِرِ الزَّمان ﷺ؟ فلقد أدَّى النبيُّ ﷺ حقَّ الدَّعوةِ إلى الإسلام، وحينَ أعلَن اكتمالَ الإسلام في حَجّةِ الوداع أمامَ أكثرَ من مائةِ ألفٍ من الصَّحابةِ الكرام رضيَ اللهُ عنهم، قال وهو يُعلنُ ذلك: **«وأنتم تُسألُونَ عنّي، فما أنتمُ قائلون؟»، قالوا: نشهَدُ أنّك قد بَلَّغتَ وأَدّيتَ ونَصَحتَ، فقال بإصبعِه السَّبّابةِ، ويَرفَعُها إلى السَّماءِ ويَنكُتُها إلى النّاس: «اللّهُمَّ اشهَدْ، اللّهُمَّ اشهَدْ، ثلاثَ مرّاتٍ**[1]. «أي: أنّي قد بَلَّغتُ رسالتَك».

ملحوظة: في هذه الآية درسٌ وعبرةٌ لأهل العِلم أيضًا بأنْ يُبيِّنوا أحكامَ الشَّريعةِ بكلِّ أمانة، وألّا يخُونوا في تبليغ أيِّ حُكم منها بضَغْطِ الخوفِ أو الطَّمَع.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾

١٠٠ ـ تآمَرَ كفَّارُ مكّةَ ويهودُ المدينة عدّةَ مرّاتٍ لقَتْلِ النبيِّ ﷺ، ولكنّ اللهَ تعالى حَفِظَ نبيَّه ﷺ في كلِّ مرةٍ، وتقولُ السيِّدةُ عائشةُ رضي اللهُ عنها: **«كان النّبيُّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم يُحرَسُ حتّى نَزَلتْ هذه الآيةُ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ**

---

(١) مسلم، كتاب الحج، باب ١٩ برقم ٢٩٥٠.

﴿ٱلنَّاسِ﴾ فأَخْرجَ رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم رأسَه من القُبّة، فقال لهم: «يا أيُّها النّاس! انصَرِفوا، فقد عَصَمَني الله»[1].

وليس معنى هذا أنه ﷺ لم يكنْ يتأذّى من شيءٍ، في حينَ أنه ﷺ قد واجَهَ إيذاءً كبيرًا ومضايقاتٍ لا حَصْرَ لها أثناءَ دعوتِه، ممّا يُعَدُّ نَمُوذَجًا جميلًا للدُّعاةِ المسلمين، وذلك مثلَما حَدَث في الطائفِ حينَ أُدمِيَت قدَمُه الطاهرةُ، وحينَ جُرِحت جَبْهتُه الشَّريفةُ في غزوةِ أُحُد، لكنْ بالرَّغْم من كلِّ هذا لم يَحدُثْ أيُّ تقصيرٍ منه ﷺ في أمرِ التبليغ والدَّعوة، وفي نفسِ الوقت لم يَمَسَّ أيُّ خطرٍ حياتَه المباركة؛ لأنّ اللهَ تعالى كان يحفَظُه حيثُما حَلَّ وذَهَب.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾

١٠١ - يعني: أولئك الكفَّارَ الذين أبطَلوا كلَّ صَلاحِيّاتِ عقولِهم وضمائرَهم بإنكارِهم المستمرِّ، بحيث انتهتْ بداخِلِهم المقدِرةُ على قَبُول الحقِّ، فكيف يهتدونَ إذًا؟

﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَىۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾

١٠٢ - ادَّعى أهلُ الكتابِ أنّ لديهِم كتُبَهم السَّماويةَ، ولهذا فهُم على الحقِّ أصلًا، وليسوا - بالتالي - في حاجةٍ إلى الإيمانِ بسيِّدِنا محمَّدٍ ﷺ ولا بالقرآنِ الكريم، وعليه نَزَلتْ هذه الآيةُ بأنّ الذين يؤمنونَ بالتَّوراةِ أو بالإنْجيل ويُنكرونَ القرآنَ الكريمَ هم - في الأصل - لا يؤمنونَ بأيِّ دينٍ سَماويٍّ؛ لأنّ أحكامَ الإيمان بسيِّدِنا محمّدٍ ﷺ وبالقرآنِ المَجيد موجودةٌ أصلًا في التَّوراةِ والإنْجيل، والذي

---

(١) الترمذي، أبواب تفسير القرآن، باب ٥ برقم ٣٠٤٦.

لا يؤمنُ بالقرآنِ الكريم فكأنّه لا يؤمُن بكتابِه السَّماويِّ، يعني: يعصي التَّوراةَ أو الإنْجِيلَ أيضًا، فكيف يكونُ على الحقِّ إذًا؟

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

١٠٣ ـ كما أنّ الإقرارَ بكلام اللهِ تعالى يُضيفُ إلى حسَناتِ الإنسان، بنفسِ الطريقة فإنّ إنكارَ كلام اللهِ تعالى يُضيفُ إلى سيِّئاتِ الإنسانِ وطُغيانِه، ولأنّ أحكامَ القرآنِ الكريم كانت تتعارَضُ معَ مصالح أهلِ الكتاب، لهذا أنكَروها، وقد زاد هذا الإنكارُ في طُغيانِهم وتمرُّدِهم، وكان النبيُّ ﷺ يحزَنُ لإنكارِهم هذا، بأنّهم كيف لا يَمِيزونَ بينَ ما يضُرُّهم وبيْنَ ما ينفَعُهم، ولهذا فإنّ اللهَ تعالى يُسَرِّي عن النبيِّ ﷺ في هذه الآية بأنْ لا تَحزَنْ يا رسولَ الله ﷺ، وليس لدعوتِك أيُّ ذنبٍ في عدَم قَبولِهم الإسلامَ، إذ إنّ هؤلاءِ مُبتَلَوْنَ بالعذابِ بسببِ طُغيانهم.

* ومثالُ القرآنِ كالغَيْث يُنبتُ البِذرةَ المدفونةَ في الأرضِ ويُنمِّيها، لكنّه لا يغيِّرُ حقيقتَها ولا كُنهَها، بمعنى: أن حبّةَ القمح تَنبُتُ قمحًا، والعُشبُ ينبُتُ عُشبًا، وبنفسِ الطريقة فإنّ مَن كان الطُّغيانُ والتمرُّدُ كامنًا في قلوبِهم فإنّ القرآنَ الكريمَ يزيدُه ظهورًا، ومَن كانت عواطفُ الطاعة تَسْري في قلوبِهم فإنّ القرآنَ الكريمَ يُضيفُ إلى طاعتِهم.

ملحوظة: لمزيدٍ من التوضيح لهذا المعنى راجِع الحاشيةَ رقم ٩٤ من هذه السُّورة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

١٠٤ ـ كان اليهودُ مُبتَلَوْنَ بسُوءِ فَهْم فحواهُ أنّهم وحدَهم هم أهلُ الجنَّةِ وباقي البشَرِ من أهل النّار! لكنّ هذه الآيةَ أوضَحَتْ أنّ الجنَّةَ ليست حِكرًا أو ميراثًا لجماعةٍ

بعَيْنِها، وإنّما يستحِقُّ الجنَّةَ كلُّ شخصٍ صَحَّ إيمانُه وصحَّ عمَلُه، أيًّا كانت المجموعةُ التي كان ينتمي إليها، كما يُعلَمُ من هذه الآية أيضًا أنّ استخدامَ اسم الإسلام لغَرَضٍ دُنيَويٍّ لا يكفي للنَّجاة، وإنما تتوقَّفُ النَّجاةُ بِشكلٍ أساسيٍّ على الإيمانِ الصَّحيح والعمَلِ الصّالح.

وهناك تفسيرٌ آخَرُ لهذه الآيةِ الكريمةِ أيضًا، وهو: أنّ كلَّ مَن آمَنَ مِن أهل الكتابِ باللهِ تعالى في زمنِ كتابِه، وعمِلَ صالحًا طبقًا لشريعتِه، فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزَنون، وسيَدخُلونَ الجنّةَ، على سَبيل المثال: المتَّبِعونَ ـ بصِدقٍ للتَّوراةِ قبْلَ نزولِ الإنْجيل، والمتَّبِعونَ بصِدقٍ للإنْجيلِ قبلَ نزولِ القرآنِ الكريم، سيَدخُلونَ الجنّةَ جميعًا، لكن الآنَ الوسيلةُ الوحيدةُ للنَّجاةِ هي إطاعةُ القرآنِ المَجيد؛ لأنّ القرآنَ الكلامُ الخَاتمُ لله تعالى، ونَزَل لهدايةِ البشَرِ جميعًا.

﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ﴾

١٠٥ ـ في الآيةِ السَّابقةِ أخَذَ اللهُ تعالى العهدَ الموثَّقَ على بني إسرائيلَ أن يُطيعوا أحكامَ اللهِ تعالى، ولكنْ كلَّما بُعِث فيهم رسولٌ منَ الله تعالى ببعضِ الأحكام التي تتعارَضُ مَع رَغباتِهم النفْسيَّة، كانوا يَهُبُّونَ معارِضينَ لهذا النبيِّ، فكذَّبوا بعضَ الأنبياءِ الكرام عليهم السَّلامُ، بل وقَتَلوا البعضَ الآخَرَ أيضًا، وبالرَّغم من كلِّ هذه الجرائم الوَحْشيَّةِ كانوا مُبْتَلَوْنَ بسُوءِ فهمٍ فحواهُ: أنه لن يَنتُجَ عن هذا أيُّ فتنةٍ أو فساد، وأنّهم لن يُسألوا عن هذه المظالم التي ارتكَبوها، وكأنَّهم كانوا صُمًّا أو عُمْيانًا عن أحكام الله تعالى وعن مَظالِمِهم وجرائمِهم الشَّنيعة، ولكنْ حينَ أصابَهم عذابُ الله تعالى وأحاطَتْ بهم المصائبُ من كلِّ جانبٍ اتَّجَهوا إلى التَّوبة، وبرَغْم هذه الجرائم

البَشِعة قَبِلَ اللهُ توبتَهم وعَفَا عنهم، لكنْ ما لَبِثوا حين تحسَّنتِ الأحوالُ والظُّروفُ أنْ عادت أغلبيَّتُهم إلى التمرُّدِ والطُّغيانِ ثانيةً، وأصَمُّوا آذانَهم، وأغمَضُوا عيونَهم عن الأحكام الإلهيَّة، لكنّ اللهَ تعالى يَعرِفُ أعمالَهم حقَّ المعرِفة، ولن يستطيعوا الإفلاتَ من عقابِ جرائِمِهم.

وفي هذا أيضًا تَسْرِيةٌ عن النبيِّ ﷺ بأنه إذا كان اليهودُ يُعارضونَك بشِدّةٍ اليومَ فلا يَحزُنْك هذا؛ لأنّ أسلافَهم كانوا أشدَّ منهم طُغيانًا، حتّى أنَّهم قَتَلوا بعضَ الأنبياءِ عليهم السَّلام، ومنهم سيِّدُنا زكرَّيا عليه السَّلام، وسيِّدُنا يحيى عليه السَّلام، وقد قَتَل هيروديسُ الملِكُ في وقتِه سيِّدنا يحيى عليه السَّلامُ لأنه كان يريدُ الزَّواجَ من زوجةِ أخِيهِ، لكنّ سيِّدَنا يحيى أعلَن أنّ هذا الزَّواجَ لا يجوزُ من الناحيةِ الدِّينيَّة[1].

﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ﴾

١٠٦ ـ النَّصارى الذين يَعتبِرونَ سيِّدَنا عيسى عليه السَّلامُ إلهًا يقولُ البعضُ منهم: إنّ عيسى ابنُ الله، والبعضُ يقولُ بالتثليث، أي: أنّ عيسى عليه السَّلامُ واحدٌ من ثلاثة، والبعضُ الآخَرُ يقول: إنّ اللهَ حَلَّ في ذاتِ عيسى عليه السَّلام، واتَّحَد معَه، فأصبح عيسى هو اللهَ[2].

وفي هذه الآية إبطالٌ لمزاعم الفِرقةِ الثالثةِ التي تقولُ: إنّ اللهَ هو المسيحُ ابنُ مَرْيم، والحقيقةُ أنّ الذين يعتقدونَ بهذا الأمرِ كفَّارٌ مُنكِرونَ لتعاليم سيِّدِنا عيسى عليه السَّلام؛ لأنّ سيِّدَنا عيسى عليه السَّلامُ لم يَدَّعِ أبدًا أنه اللهُ، بل إنّ دعوتَه كانت أنه عبدُ الله، وأنّ عبادةَ اللهِ تعالى هي الصِّراطُ المستقيم، وعلى سَبيل المثال، قال سيِّدُنا

---

(١) الكتاب المقدس، مرقص، باب ٦، الآية ١٧-٢٨.

(٢) أنهم يقولون: إن الإله جل وعلا حلّ في ذات عيسى واتحد به فصار إلهًا. تفسيرالخازن.

عيسى عليه السَّلام: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠] ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [مريم: ٣٦]، و«**إِذْ هَبَط عيسى ابنُ مَرْيَم عليه السَّلامُ بشَرْقيِّ دمشقَ**[1] **عندَ المنارةِ البيضاءِ**»[2] فإنّ أولَ عملٍ يقومُ به بعدَ نزولِه إلى الأرضِ هو أن يؤدِّيَ صلاةَ الصُّبح مأمومًا خَلْفَ رجُلٍ عظيم من أُمّةِ سيِّدِنا محمّدٍ ﷺ (سيِّدِنا الإمام المَهْديِّ)[3]، ويقولَ في كلِّ ركعةٍ: آمين، بعدَ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وبعدَ أداءِ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ مقدِّمًا بذلك نَمُوذَجًا عمليًّا للعبادة، ويقضي بقيَّةَ عمُرِه في الدَّعْوةِ إلى هذا الصِّراطِ المستقيم، يعني: في الدَّعوةِ إلى الإسلام، ويُدفَنُ في رَوْضةِ الرَّسولِ ﷺ[4].

والأمرُ المحيِّرُ للغايةِ أنّهم يقولونَ: ابنُ مرْيَم، ثم يقولون: إنه اللهُ أيضًا، فكيف يكون إلهًا مَن يحتاجُ إلى أُمٍّ تلدُه؟ والحقيقةُ أنّ اللهَ هو ربُّ مرْيَمَ وعيسى عليهما السَّلام وربُّ الكائناتِ كلِّها، وهو واحدٌ، وهو المستحِقُّ للعبادةِ مثلما قال سيِّدُنا عيسى عليه السَّلام: «علينا عبادةُ الله في كلِّ حال، عبادةُ الله فقطْ»[5].

---

(١) في الشام.

(٢) الترمذي، أبواب الفتن، باب ٥٩ برقم ٢٢٤٠.

(٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم؟». البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ٤٩ برقم ٣٤٤٩.

(٤) عن عبد الله بن سلامٍ، قال: مكتوب في التّوراة صفة محمّدٍ، [وصفة] عيسى ابن مريم: يدفن معه ـ قال: فقال أبو مودودٍ: قد بقي في البيت موضع قبرٍ. الترمذي، أبواب المناقب، باب ١ برقم ٣٦١٧. (ومن حسن الطالع أن اليوم هو يوم الجمعة المبارك الموافق ٩ مايو ٢٠٠٣م، والمصنف ـ الشيخ محمد إمداد حسين بيرزاده ـ يكتب هذه السطور في دمشق الشام وهو يجلس أمام هذه المئذنة الشرقية البيضاء، وهي التي سيكون نزول سيدنا عيسى عليه السلام عندها).

(٥) لوقا: ٤: ٨.

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾

١٠٧ ـ التثليثُ عقيدةٌ يتَّفقُ عليها النَّصارى جميعًا على وَجْه التقريب، ولكنَّهم مختلفونَ في تفسيرِها وتفاصيلِها، فتدَّعي فِرقةٌ أنّ اللهَ وعيسى ومَرْيَمَ ثلاثةٌ آلهة[١]، وفرقةٌ أخرى تقول: اللهُ وعيسى وجِبريلُ ثلاثةٌ آلهة[٢]، بمعنى: أنّ اللهَ الأبُ وعيسى الابنُ وجِبريلَ هو رُوحُ القُدُس، ثم يقولونَ: إنّ كلَّ واحدٍ من هؤلاءِ الثلاثةِ إلهٌ كاملٌ في ذاتِه، ويكونونَ جميعًا إلهًا واحدًا، يعني: إلهٌ في الثلاثة، وثلاثةٌ في الواحد، في حينَ أنه ـ منَ النّاحيةِ العمَليَّة ـ يستحيلُ أن يكونَ ثلاثةٌ في واحد وواحدٌ في الثلاثة، مثلَما أنّ التفاحةَ الواحدةَ واحدةٌ، ولا يمكنُ أن تكونَ ثلاثًا، والثلاثُ تفاحاتٍ ثلاثٌ، ولا يمكنُ أن تكون واحدةً.

على أيّةِ حال، فإنّ التثليثَ يُعَدُّ لُغزًا يَعمَلُ علماءُ النَّصرانيَّةِ على حلِّه من ١٩٠٠ عام، ولكنَّهم لم يستطيعوا تقديمَ تفسيرٍ معقولٍ ومفهوم له حتّى يومِنا هذا، ولن يستطيعوا ذلك في المستقبَلِ أيضًا؛ لأنّ هذه النظريّةَ تُجافي الحقيقةَ، وهي نِتاجُ سُوءِ فهم العالَم المسيحيِّ، وحلُّها الأصْليُّ والبسيطُ هو الذي قدَّمه القرآنُ الكريم، أي: دَعْكم من موضوع الآلهةِ الثلاثةِ هذا، فاللهُ تعالى واحدٌ، وهو المستحِقُّ للعبادةِ وحدَه، ولا وَلَدَ له، وهو مالكُ كلِّ شيءٍ في الأرض والسَّماء، مثلَما سُئل سيِّدُنا عيسى عليه السَّلامُ عن ما هو أهمُّ حُكمٍ؟ فقال: (أهمُّ حُكم) هو أنّ ربَّنا واحد، واحدٌ فقطْ، فعليكَ أن تُحبَّه بكلِّ طاقتِك وبرُوحِك وقلبِك وعَقْلِك[٣]، والصُّحفُ المقدَّسةُ تقولُ: «اعبُدوا الربَّ الواحدَ وأطيعوهُ هو فقَطْ»[٤].

---

(١) أرادوا بذلك أن الله ومريم وعيسى آلهة ثلاثة. التفسير الكبير.

(٢) يقولون: أب وابن وروح القدس، وهذه الثلاثة إله واحد. التفسيرالكبير.

(٣) مرقص: ١٢: ٢٨ - ٣٠.

(٤) متّى: ٤: ١٠.

وتعريفُ «دائرةِ المعارفِ البريطانيَّة» للتثليثِ وتاريخِه يستحِقُّ التمعُّنَ في ألفاظِه، إذ يتَّضِحُ منه أنه لا علاقةَ لسيِّدِنا عيسى عليه السَّلامُ بعقيدةِ التثليث هذه، بل إنّ سُوءَ الفَهْم هو الذي اتَّخذ شكلَ هذه العقيدةِ بعدَه عليه السَّلام بمئآتِ السِّنين:

«التثليثُ ـ طِبقًا للعقيدةِ المسيحيَّة ـ هو: أنّ الأبَ والابنَ ورُوحَ القُدُس يتَّحِدونَ جميعًا فيكونونَ إلهًا واحدًا، ولكنْ في العهدِ الجديد (الإنْجِيل) لا نجدُ هذا اللَّفظَ، بل ولا نجدُ تصريحًا بهذه العقيدةِ أصلًا، ولم يَنْفِ سيِّدُنا عيسى عليه السَّلامُ ولا المتَّبِعونَ له عقيدةَ التَّوحيدِ اليهوديَّةَ الواردةَ في العهدِ القديم، وإنّما نشَأَتْ عقيدةُ التثليثِ هذه تدريجيًّا عن طريق مناقشاتٍ طويلةٍ استمرَّت لمئآتِ السِّنينَ (بعدَ عروج سيِّدِنا عيسى عليه السَّلام)[1]، وبالرَّغْم من هذا التَّصريح فإنّ الذين لا يرجِعونَ عن عقيدةِ التثليثِ هذه سيكونُ لهم عذابٌ أليم، ومَن يتُوبونَ بصِدقٍ منها فإنّ الله سيَعْفو عن ذنوبِهم السَّابقة.

﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ﴾

١٠٨ ـ في هذه الآيةِ إشارةٌ إلى عدّةِ دلائلَ على عدَم ألوهيَّةِ سيِّدِنا عيسى عليه السَّلام، وهي:

١ ـ سيِّدُنا عيسى عليه السَّلامُ ابنُ السيدةِ مريَمَ عليها السَّلام، في حينَ أنه لا

---

(١) Trinity: In Christian doctrine, the unity of Father, son and Holy Spirit as three persons in one god-head. Neither the word Trinity nor the explicit doctrine appears in the new Testament, nor did Jesus and his followers intend to contradict the Shema (the Jewish confession of faith in the one god of humankind) in the Old Testament. The doctrine developed gradually (after the ascension of Jesus Christ) over several centuries and through many controversies. (Encyclopedia Britannia: **15th edition 1995**). (دائرة المعارف البريطانية، طبعة ١٥، ١٩٩٥م).

يليقُ بالله إلّا أن يكونَ لا والدَ له ولا وَلَدَ، ولهذا لا يمكنُ أن يكونَ سيِّدُنا عيسى عليه السَّلامُ إلهًا.

٢ ـ الشَّخصُ الذي يَحتاجُ إلى أُمٍّ لكي تَلِدَه لا يمكنُ أن يكونَ إلهًا؛ لأنّ الإلهَ لا يَحتاجُ إلى أحدٍ، وإنّما تَحتاجُ الكائناتُ كلُّها إليه.

٣ ـ منَ كانت له أمٌّ فهو حادثٌ، بمعنى: أنه لم يكنْ موجودًا من قَبْلُ، وإنّما وُلِد فيما بعدُ، والشَّخصُ الذي هذه صفتُه يكونُ مخلوقًا وليس إلهًا؛ لأنّ اللهَ دائمٌ، حتى وإنْ سَلَّمْنا أيضًا بأنّ سيِّدَنا عيسى عليه السَّلامُ إلهٌ، فمن كان إلهًا قبلَه إذًا؟

٤ ـ إذا كان سيِّدُنا عيسى يقال عنه: إلهٌ لأنّ مولدَه حَدَث بغيرِ أبٍ، فإنّ من الأَوْلى أن يكونَ سيِّدُنا آدمُ عليه السَّلام إلهًا أيضًا؛ لأنّ مولدَه كان بغيرِ أمٍّ وأبٍ، كما أنّ خَلْقَ آدمَ عليه السَّلامُ أعجَبُ من خَلْقِ عيسى عليه السَّلام، في حينَ أنه لا أحدَ يقول: إنّ آدمَ عليه السَّلامُ إلهٌ؛ لأنّ الحقيقةَ هي أنّ مولدَ كلٍّ منهما مُظهِرٌ للقُدرة الإلهيَّة، ودليلٌ على أنّ كلًّا منهما عبدُ لله وليس إلهًا.

٥ ـ سيِّدُنا عيسى عليه السَّلامُ نبيٌّ مَثَلُه كمثَلِ الأنبياءِ السَّابقينَ عليه، وهو عبدُ لله كما كان هؤلاءِ عبادًا لله تعالى.

٦ ـ كما أنّ الأنبياءَ السَّابقينَ قد جاءوا إلى الدُّنيا وأمضَوُا الوقتَ المقرَّرَ لهم ثم رَحَلوا عنها، فإنّ سيِّدَنا عيسى عليه السَّلامُ ـ هو الآخَرُ ـ قد جاء إلى الدُّنيا وسيُمضي فيها الوقتَ المقرَّرَ له ثم يَرحَلُ عنها، وليس له دوامُ البقاء، ولهذا لا يمكنُ أن يكونَ أيُّ نبيٍّ ـ بمَن فيهم سيِّدُنا عيسى عليه السَّلام ـ إلهًا؛ لأنّ شأنَ الله تعالى هو الدَّوامُ من الأَزَلِ إلى الأبد، ولم يكنِ الأنبياءُ عليهم السَّلامُ موجودينَ قبلَ زمانِهم، ثم خَلَقَهم اللهُ تعالى، وانتقَلوا بعدَ ذلك إلى رحمتِه تعالى بعدَ أن أمضَوا الوقتَ المقرَّرَ لهم في الدنيا.

٧ ـ جاء الأنبياءُ السَّابقونَ على سيِّدِنا عيسى عليه السَّلامُ بالمعجِزاتِ أيضًا، مثلَ: سيِّدِنا موسى عليه السَّلام الذي جاء بمعجزةِ العَصا الجافّةِ التي تَدُبُّ فيها الرُّوحُ فتصبحُ ثُعبانًا: ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ * قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ * فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ * لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ * فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ * قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ * فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَـٰلِبُونَ * فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ [الشعراء: ٣٢-٤٥]، وسيِّدِنا صالح عليه السَّلامُ الذي جاء بالنّاقةِ من الحَجَر: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ٧٣]، وإخراجُ ناقةٍ حيَّةٍ من الحَجَر، وجَعْلُ العصا ثُعبانًا حيًّا أكثرُ عَجَبًا من إحياءِ الموتَى؛ لأنّ الميِّتَ على أيةِ حال كان حيًّا في وقتٍ من الأوقات، في حينَ أن العصا والحَجَرَ لم يكونا كذلك أبدًا، وبالرَّغْم من هذه المعجِزاتِ العظيمةِ فإنّ هؤلاءِ الأنبياءَ ليسوا آلهةً، وإنّما هم رُسُلُ الله تعالى، وبالتالي فإنّ سيِّدَنا عيسى عليه السَّلامُ برَغْم معجِزاتِه العظيمةِ ليس إلهًا، وإنّما رسولُ الله.

٨ ـ كان سيِّدُنا عيسى عليه السَّلامُ يأكلُ الطَّعامَ، لأنّ الطعامَ والشَّرابَ من ضروريّاتِ الإنسان، والشَّخصُ الذي يَحتاجُ في بقائه حيًّا إلى الطَّعام والشَّراب لا يمكنُ أن يكونَ إلهًا؛ لأن اللهَ تعالى منزَّهٌ عن هذه الضَّروريّاتِ والاحتياجات، ولكنّ هذا لا يعني أبدًا أنّ الملائكةَ آلهةٌ لأنّها لا تأكلُ الطَّعام؛ لأنّ الملائكةَ مخلوقاتٌ

نُورانيَّةٌ، ولهذا لا تَحتاجُ إلى الطَّعام، على أيةِ حال الملائكةُ هي الأخرى تَحتاجُ في خَلْقِها وبقائها إلى اللهِ تعالى، ولهذا لا يمكنُ أن تكونَ آلهةً.

من هذه الدَّلائلِ البسيطةِ العاديَّة يمكنُ أن نَفهَمَ ـ بسهولةٍ ـ أنّ سيِّدَنا عيسى عليه السَّلامُ ليس إلهًا، وإنّما عبدٌ لله تعالى، ولكنْ إن أصرَّ النَّصارى بالرَّغْم من ذلك على أنه إلهٌ فإنّنا نُقدِّمُ لهم هذه الآياتِ من الكتابِ المقدَّس ليتأمَّلوا فيها:

١ ـ صاح سيِّدُنا عيسى عليه السَّلامُ وقال بصوتٍ عالٍ: يا إلهي، يا إلهي، لم تركتَني؟[1].

٢ ـ تذكَّرْ يومَ كان في الخليل حيثُ قال لكَ: من الضَّروريِّ أن يُسلَّمَ ابنُ آدمَ (سيِّدُنا عيسى عليه السَّلام) إلى البشَرِ المذنبين، وأن يُصلَبَ، ثم يقومَ في اليوم الثالث[2].

٣ ـ كانوا يقولون: إنّ يَسُوعَ وَقَف بينَهم بنفسِه وقال لهم: سلامٌ عليكم، لكنَّهم ارتَبَكوا وخافُوا واعتقَدوا أنَّهم يرَوْنَ روُحًا ما، فقال لهم: لمَ تخافون؟ ولماذا تشُكُّونَ فيَّ؟ انظُروا إلى يديَّ ورِجلَيَّ، إنّكم ترَوْنَ أنّني موجودٌ بذاتي، المَسُوني وانظُروا وتأكّدوا أنّني لستُ روحًا؛ لأنّ لي جسدًا (من لحمٍ وعظم)، في حينَ أنّ الرُّوحَ لا جسمَ لها. قال يَسُوعُ هذا ثم أراهم يدَيْه ورجلَيْه، وبينَما كانوا في حالةٍ من الفَرَح والشكِّ، ولم يكونوا قد توصَّلوا إلى نتيجةٍ بعدُ، إذْ سألهم يَسُوعُ:

---

(١) Juses shouted: "Eli, Eli, Lama sabachthani» which means, My God, My God, why have you forsaken me?" (The Livind Bible: **1975**: Mathew: **27**: **4-6**)

(٢) Remember how he spoke unto you when he was yet in Galilee, saying. The Son of Man (the Messiah) must be delivered into the hands of sinful men, and be crucified, and the third day rise again. (The Holy Bible- **1954**- Luke: **24**: **6-7**)

هل عندَكم هنا شيءٌ يؤكل؟ فقدَّموا ليَسُوعَ قطعةً من السَّمكِ المَشْويِّ، وأكلَ يسوعُ قطعةَ السَّمكِ أمامَهم(١).

ونَستنتِجُ من آياتِ الكتابِ المقدَّس المذكورةِ ما يلي:

١ - يتَّضحُ تمامًا من الشاهدِ الأوّل أنه لو كان عيسى عليه السَّلامُ إلهًا فلماذا ينادي إلهًا آخَرَ وقتَ الشِّدة؟ الحقيقةُ هي أنّ الإلهَ الحقيقيَّ هو ذلك الذي كان يناديه سيِّدُنا عيسى عليه السَّلام.

٢ - إذا كان سيِّدُنا عيسى عليه السَّلامُ إلهًا يَحتاجُ إلى إلهٍ آخَرَ ليحُلَّ مشاكلَه فما هو الفَرْقُ إذًا بينَ الإنسانِ العاديِّ وسيِّدِنا عيسى عليه السَّلام؟

٣ - في الشاهدِ الثاني يعترفُ سيِّدُنا عيسى عليه السَّلامُ بلسانِه أنه ابنُ آدمَ، وأنه سيُصلَبُ على أيدي المذْنِبين، ولهذا فإنّ اعتبارَه إلهًا أو ابنَ الإلهِ أمرٌ يخالفُ تعاليمَه.

٤ - الشَّخصُ الذي لا يستطيعُ حمايةَ نفسِه، ويَصلُبُه أعداؤه، كيف يمكنُ أن يكونَ إلهًا؟

---

(١) And as they were telling about it, Jesus himself was suddenly standing there among them, and greeting them (Peace be unto you: The Holy Bible- **1954**). But the whole group was terribly frightened, thinking they were seening a ghost. "Why are you frightened?" he asked "why do you doubt that it is really I?" look at my hands! Look at my feet! You can see that it is I, myself, touch me and make sure that I am not a ghost, for ghosts do not have bodies, as you see that I do! As he spoke, he held out his hands for them to see and showed them his feet. Still they stood there undecided, filled with joy and doubt. Then he asked them, "Do you have anything here to eat?" They gave him a piece of broiled fish and he ate it as they watched. (The Living Bible- **1975**- Luke: **24**: **36-43**)

٥ ـ الشَّخصُ الذي يبقَى ميِّتًا في قبرِه لثلاثةِ أيام، لو أنَّنا اعتبرناهُ إلهًا فكيف سارتِ الكائناتُ بدونِه لهذه الأيام الثلاثةِ إذًا؟

٦ ـ في الشاهدِ الثّالث يؤكِّدُ سيِّدُنا عيسى عليه السَّلامُ للنّاس أنه إنسانٌ من لحمٍ وشحم، وأنّ له يدَيْنِ ورجلَيْنِ، وأنه ليس روحًا؛ لأنّ الرُّوحَ لا جسمَ لها، بينَما هو له جسمٌ، ولهذا فهو إنسانٌ وليس إلهًا.

٧ ـ توجَدُ في سيِّدِنا عيسى عليه السَّلامُ كلُّ الصِّفاتِ المُلازِمة للإنسانِ، فهو يَجُوعُ أيضًا، وقد أكَّد ذلك بشكلٍ فعليٍّ حينَ أكلَ قطعةَ السَّمكِ أمامَ الناس، ومعَ هذا إذا اعتبرَه أحدٌ إلهًا أو ابنَ إلهٍ فذاك أمرٌ بعيدٌ عن العقل.

ملحوظة: السيِّدةُ مريَمُ عليها السَّلامُ هي الأُخرى ليست إلهًا، فقد وُلِدت هي الأُخرى، فهي إذًا حادثةٌ، وقد نَشَأت وكبِرَت على الطَّعام، ولذا فهي محتاجةٌ، ورَحَلت عن هذه الدُّنيا، فهي إذًا فانيةٌ، وهذه كلُّها صفاتُ المخلوق، ولهذا فإنّ السيِّدَة مَرْيَمَ عليها السَّلامُ ليست إلهًا، وإنّما أَمَةٌ من إماءِ الله الصّالحاتِ المقرَّبات.

وفي هذه الآيةِ قال اللهُ تعالى عن السيِّدةِ مرْيَمَ عليها السَّلام ﴿صِدِّيقَةٌ﴾ (السيِّدةُ التي لا تقولُ إلا الصِّدقَ)، وقد فَهِم بعضُ النّاس ـ خطأً ـ من هذه الآيةِ أنّ السيِّدةَ مرْيَمَ عليها السَّلامُ نبيَّةٌ مرسَلةٌ من الله تعالى، ورَغْمَ أنّ درجةَ الصِّدِّيقِ رفيعةٌ للغاية، إلّا أنّ درجةَ النبيِّ أعظمُ منها، مثلَما وَرَد في الآيةِ رقم **٦٩** من سورة النِّساءِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾، ويتَّضحُ هذا الأمرُ أيضًا من ترتيبِ القرآنِ المَجيد بأنّ أعلى رُتبةٍ هي للنبيِّ، وبعدَها الصِّدِّيقُ ثم الشَّهيدُ ثم الصَّالحُ، وهذا يعني: أنّ كلَّ نبيٍّ صِدِّيق، ولكنْ ليس كلُّ صِدِّيقٍ نبيًّا، مثلَما أنّ كلَّ نبيٍّ وليٌّ، ولكنْ ليس كلُّ وليٍّ نبيًّا، كما أنّ القرآنَ المَجِيدَ قد أوضَحَ هذا الأمرَ أيضًا

من أنّ كلَّ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ رجالٌ، وليس من بَيْنِهم امرأةٌ، ولمزيدٍ من الشَّرح والتَّوضيح راجِع الحاشيةَ رقم ٢١ للآية رقم ٤٢ من سورة آل عِمران.

﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾

١٠٩ ـ طبقًا للكتابِ المقدَّسِ الحاليِّ فإنّ المستحِقَّ للعبادةِ هو السيِّدُ اللهُ فقطْ[١]، والسيِّدُ اللهُ واحدٌ فقطْ[٢]، والسيِّدُ تعني: المالكَ والحاكمَ، يعني: أنّ اللهَ تعالى هو الذي له كاملُ الاختيار في التصرُّفِ فيما يمَلِك، فيُعاقبُ المسيءَ ويُثيبُ المُحسِنَ، وباختصار، يفعَلُ ما يشاء، والحقيقةُ أنّ هذا هو المستحِقُّ للعبادة.

جاء في هذه الآيةِ دليلٌ آخَرُ على كوْنِ سيِّدِنا عيسى عليه السَّلامُ ليس إلهًا، يعني أن سيِّدَنا عيسى عليه السَّلامُ لا يستطيعُ بذاتِه نَفْعَ أحدٍ أو الإضرارَ به[٣]، فكيف يكونُ إلهًا ومستحِقًّا للعبادةِ إذًا؟ لو أنّ سيِّدَنا عيسى عليه السَّلامُ يستطيعُ بذاتِه أن ينفَعَ أو يَضُرَّ أحدًا، فلماذا يدعو اللهَ ليلَ نهارَ إذًا[٤]، ولماذا ينادي اللهَ تعالى وقتَ شدَّتِه[٥]؟

من المؤكَّدِ أنّ عيسى عليه السَّلامُ جَعَل من الطِّين طيرًا وجَعَلَه يَطير، وأحيا الموتَى وأبْرَأَ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ، وجَعَل المولودَ الأعمى بصيرًا: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ

---

(١) متى: ٤: ١٠.

(٢) مرقص: ١٢: ٢٩.

(٣) «أن عيسى عليه السلام وإن ملك ذلك بتمليك الله تعالى إياه لا يملكه من ذاته ولا يملك مثل ما يضر الله تعالى به من البلايا والمصائب وما ينفع به من الصحة والسعة». تفسير البيضاوي.

(٤) لوقا: ٦: ١٢.

(٥) متى: ٢٧: ٤٦.

وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٩]، وكان سيِّدُنا داودُ عليه السَّلامُ يتحكَّمُ في الجبال: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۚ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، كما كان سيِّدُنا سُليمانُ عليه السَّلامُ يتحكَّمُ في الرِّيح: ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨١]، والشَّيطانُ يمَسُّ الإنسانَ فيُصيبُه بالجنون: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ۗ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ۚ فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، والشَّياطينُ تُخرِجُ الكفَّارَ من النُّور إلى الظُّلُمات: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

ويتَّضحُ من الشَّواهدِ المذكورةِ أنّ المخلوقَ أيضًا يستطيعُ أن ينفَعَ الآخَرينَ وأن يَضُرَّهم، لكنّ كلَّ قُدْراتِ المخلوقِ عطاءٌ من الله تعالى، ولو لم يُعطِهِ اللهُ تعالى هذه المَقْدِرةَ لَما استطاعَ أن ينفَعَ أحدًا أو أن يَضُرَّه، ولهذا فإنّ المخلوقَ لا يستطيعُ ـ بذاتِه ـ أن ينفَعَ أحدًا أو أن يَضُرَّه، بل ولا يَقدِرُ عليه.

وباختصار، فإنّ المستحِقَّ للعبادةِ هو اللهُ تعالى فقطْ، وهو القادرُ المُطلَقُ بذاتِه، وكلُّ صفاتِه أزَليَّةٌ وأبَديَّةٌ، ويسمَعُ دعاءَ الجميع ونداءَهم، كما يَعلَمُ نواياهم أيضًا، في حينَ أنّ صفاتِ سيِّدِنا عيسى عليه السَّلامُ والمخلوقاتِ الأخرى ليست ذاتيَّةً ولا أزَليَّةً أو أبَديَّةً، ومن هنا فإنّه لا يوجَدُ مخلوقٌ يستحِقُّ العبادةَ.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ ﴾

١١٠ ـ في هذه الآيةِ نَبَّه اللهُ تعالى النَّصارى أنْ لا يتجاوَزوا حدودَ الدِّين،

بمعنى: أنْ لا يقولوا: إنّ عيسى إلهٌ أو ابنُ الله؛ لأنّ هذا خلافُ الحقِّ، ولم يَدَّعِ سيِّدُنا عيسى عليه السَّلام نفسَه هذا أبدًا، وإنّما دَخَلتْ هذه العقيدةُ الفاسدةُ إلى النَّصرانيَّةِ بعدَ سيِّدِنا عيسى عليه السَّلام بفترةٍ طويلة بفعلِ بعضِ الضالِّينَ المُضِلِّين، ولهذا لا تتَّبعوا رَغَباتِ أولئك النّاس، وتوبوا من عقائدِهم الشِّركيَّةِ هذه وعُودوا إلى الصِّراطِ المستقيم.

إنّ إقرارَ الشَّخصِ على المكانةِ التي مَنَحَها اللهُ تعالى له هو الحقُّ، وهو الصِّراطُ المستقيم، والزِّيادةُ على هذه المكانة أو النَّقصُ فيها إلى درجةِ الإجرام هكذا من أسبابِ الضَّلالِ والظُّلم، مثلَما ضَلَّ اليهودُ بالتقليل من شأنِ سيِّدِنا عيسى عليه السَّلام، ومثلَما ضَلَّ النَّصارى بالمبالغةِ في شأنِه عليه السَّلام، وقد حَدَث هذا في كلِّ العصور، حيث يبالغُ المتَّبِعونَ لشخصيّةٍ عظيمةٍ في حبِّها والاعتقادِ فيها، ويقومُ الحاسدونَ لهذه الشَّخصيَّةِ بالتقليل من شأنِها، وقد قال النبيُّ ﷺ لسيِّدِنا عليٍّ كرَّم اللهُ وجهَه ما معناه بأنه: يا عليُّ، سيَهلِكُ بسببك اثنان، مُبالغٌ في حبِّك ومُبالغٌ في بُغضِك، وقال: يا عليُّ، لا يُحبُّك إلا مؤمنٌ، ولا يُبغِضُك إلّا منافقٌ[1].

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ

---

(١) تفسير الشعراوي، والأثر، رواه الطبراني في الأوسط.

بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾

﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾

١١١ ـ إنَّ مَن يعصي كتابًا سماويًّا أو نبيًّا مرسَلًا فسيُطرَدُ من رحمةِ اللهِ تعالى، أيًّا كان القومُ الذين ينتمي إليهم، ولكنّ السِّياقَ هنا يَذكُرُ بني إسرائيلَ فقطْ، وقد حَذَّر كلُّ نبيٍّ الكفَّارَ من المصيرِ السَّيِّئ، ولكنّ اللهَ تعالى ذَكَر هنا سيِّدَنا داودَ عليه السَّلامُ وسيِّدَنا عيسى عليه السَّلام بصفةٍ خاصَّة، إذ إنَّ بني إسرائيلَ قد أصابَتْهم بدعائهما عليهم لعنةٌ مسَخَتْهم قِرَدةً وخَنازيرَ. ونُدرجُ فيما يلي الاستشهاداتِ من الكتاب المقدَّس والتي وَرَد فيها ذكْرُ اللَّعنةِ التي أصابَتْ بني إسرائيلَ بدعاءِ سيِّدِنا داودَ وسيِّدِنا عيسى عليهما السَّلامُ عليهم:

* قال سيِّدنا داودُ عليه السَّلامُ: يا إلهي، تعالَ، وتدبَّرْ أمرَ هؤلاءِ المتكبِّرينَ الذين آذَوا الفقراءَ ... وليس في أفواهِهم سوى سوءِ الأدبِ والكذبِ والخِداع، وهم يفخَرونَ بتخطيطِهم الخاطئ، ويقتُلونَ عابري السَّبيل ليلًا .... يا إلهي، تعالَ واسحَقْهم ... يا إلهي، أنت تَعلَمُ سيِّئاتِهم، فعاقِبْهم إذًا .... حطِّمْ أذرُعَهم، وتعقَبَّهْم حتّى تُدمِّرَ آخرَ رجُلٍ فيهم(١).

* وعندئذٍ قال سيِّدُنا عيسى عليه السَّلامُ لحَوارِيِّيه والمجتمِعينَ عندَه: افعَلوا كلَّ ما يقولُه لكم هؤلاءِ الزُّعماءُ الدِّينيُّونَ اليهودُ والفريسيُّونَ الذين يجلسونَ على

---

(١) الزبور: باب ١٠، إنجيل هولي ١٩٥٤، والإنجيل الحي ١٩٧٥.

مسندِ موسى عليه السَّلام، فمن الممكنِ أن يكونَ ما يقولونَه صِدقًا، لكنْ لا تفعَلوا مِثلَهم؛ لأنَّهم لا يعمَلونَ بمِثلِ ما يقولونَ للنّاس، فهم يفعَلونَ كلَّ هذا رياءً ولإظهارِ أنهم مقدَّسونَ ...

* أيُّها الزُّعماءُ الدِّينيُّونَ المُراءون، ويا أيُّها الفريسيُّونَ، وا أسفاهُ عليكم! لأنّكم لا تَدَعونَ النّاسَ يدخُلونَ مملكةَ السَّماء، ولا تدخُلوها أنتم .... وهكذا تشهَدونَ على أنفسِكم أنّكم أبناءُ قَتَلةِ الأنبياء. المهمّ، املأُوا كأسَ آبائكم وأجدادِكم، فيا أيُّها الثَّعابينُ ويا أبناءَ الثَّعابينِ السَّامّة، كيف ستُفْلِتونَ من عقابِ جهنَّم[1].

﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾

١١٢ ـ الكتابُ المقدَّسُ مليءٌ بقَصَص عِصيانِ وظُلم بني إسرائيلَ، وهذا مجرَّدُ نموذَج واحدٍ نقتبِسُه منه فتأمَّلْه:

* لقد فَعَل بنو إسرائيلَ أفعالًا سيِّئةً كثيرةً أغضَبَتِ اللهَ تعالى كثيرًا؛ لأنّهم عَبَدوا الأصنامَ، مَع أنّ اللهَ تعالى حذَّرهم من هذا مرارًا، وقد أرسَلَ اللهُ تعالى أنبياءَ واحدًا تِلوَ الآخَرِ إلى بني إسرائيلَ واليهودِ حتّى يَرجِعوا عن أفعالِهم السيِّئة ... لكنّ بني إسرائيلَ لم يَلتفِتوا إلى ذلك أبدًا .... ولقد ضَربوا بأحكام اللهِ تعالى ومواثيقِه وتحذيراتِه عُرضَ الحائط .... وأخَذوا يعبُدونَ العِجْلَ والشَّمسَ والقمرَ والنُّجومَ، حتّى أنّهم أَحْرقوا أبناءهم وبناتِهم بالنّارِ على المَزاوِد ... وهو ما أغضَبَ اللهَ تعالى[2].

﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾

١١٣ ـ رجلٌ يعمَلُ العملَ الصَّالحَ بنفسِهِ، لكنّ الأعمالَ السيِّئةَ منتشِرةٌ حولَه

---

(١) إنجيل متى: باب ٢٣، إنجيل هولي ١٩٥٤، والإنجيل الحي ١٩٧٥.

(٢) ٢ سلاطين: ١٧: ١٢ – ١٧، إنجيل هولي ١٩٥٤، الإنجيل الحي ١٩٧٥.

ورائجة، وهو لا يَمنَعُ النّاسَ من القيام بالأعمالِ السيِّئة رَغْم مَقْدرتِه على ذلك، فإنّ تصرُّفَه هذا في ذاتِه يُعَدُّ بمثابةِ العمل السَّيِّئِ الذي سيَضَعُه في صفوفِ المسيئين، مثلَما قال النبيُّ ﷺ: «**إنّ اللهَ عزَّ وجلّ لا يُعذِّبُ العامّةَ بعمل الخاصّة، حتّى يرَوا المُنكرَ بيْنَ ظَهْرانِيهِم وهم قادرونَ على أن يُنكِروه فلا يُنكِروه، فإذا فَعَلوا ذلك عذَّبَ الله الخاصّةَ والعامّةَ**»[1].

﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾

١١٤ ـ هناك قِيَمٌ مشتركةٌ كثيرةٌ بيْنَ المسلمينَ واليهودِ باعتبارِهم أهلَ كتاب، ومن أهمِّ هذه القِيمَ: الإيمانُ باللهِ تعالى وأنبيائه ورسُلِه الكرام عليهمُ السَّلام، فهذه العقيدةُ مشتركةٌ بيْنَ كلٍّ منَ المسلمينَ واليهود، وبالتالي يقتضي الحقُّ أن يتَّحِدَ هؤلاءِ وهؤلاءِ لمواجهةِ الكفَّارِ والمشركين؛ لأنّهما موحِّدانِ، ولكنْ، ما أعجَبَ يهودَ المدينة! حيث تَخَلَّوْا عن المسلمينَ المؤمنينَ بالله تعالى ورسُلِه عليهم السَّلام، وعَقَدوا صداقاتِهم ووَطَّدوا علاقاتِهم مع الكفَّارِ والمشركينَ الذين لا يؤمنونَ بالله تعالى ولا بأيِّ نبيٍّ من الأنبياء.

ويُعلَمُ من أفعالِ اليهودِ هذه كأنَّهم لا يؤمنونَ باللهِ تعالى ولا برُسُلِهِ عليهم السَّلام؛ لأنهم لو كانوا ثابتينَ بيقينٍ على التوحيدِ لَما ساعَدوا الكفَّارَ (مُنكِري الله) واستَنْزَلوا غضَبَ الله عليهم؛ لأنّ هناك ممانعةً من إقامةِ صَداقاتٍ قويَّة معَ الكفَّارِ في أديانِ كلِّ الأنبياءِ عليهم السَّلام، حتّى أن سيِّدَنا عيسى عليه السَّلام شَبَّه غيرَ الإسرائيليِّينَ من النّاس بالكلاب، ورَفَض تعاطُفَهم[2].

---

(١) مسند أحمد ٤: ص ١٩٢.

(٢) إنجيل متى: باب ١٥: الآية ٢٦، والإنجيل الحي ١٩٧٥.

والقرآنُ الكريمُ مَنَع من مصادقةِ أيِّ قوم يُعادونَ المسلمينَ سواءٌ بشكلٍ مباشِر أم بشكلٍ غيرِ مباشر، فإذا كان هناك قومٌ غيرُ متورِّطينَ في هذه الأنشطةِ العدائيَّةً ضدَّ المسلمينَ فإنّ القرآنَ المَجِيدَ يدعو إلى حُسن السُّلوكِ معَه والإنصافِ في معاملتِه، وبَشَّر أولئك المسلمينَ الذين يتَّبِعُونَ سلوكًا مُنصِفًا معَ غيرِ المسلمين المسالمينَ بمحبَّةِ الله تعالى لهم: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٨-٩].

وهذه حقيقةٌ يعمَلُ بمقتضاها كلُّ أقوام العالَم اليومَ، وهي: أنه لا يُقيمُ قومٌ علاقاتِ صداقةٍ معَ عدوِّهم، كما لا يقومُ قومٌ بتخريبِ علاقاتِهم معَ أيَّةِ أقوام ليست تُعاديهم.

وهذه الآيةُ بمثابةِ اللَّمحةِ الفِكْريَّةِ للمسلمينَ الذين يتَخلَّوْنَ عن المسلمينَ أمثالِهم ويَمُدُّون يدَ العَوْنِ لأولئك الكفَّارِ الذين يُعادون المسلمين، وممّا لا شَكَّ فيه أنّ الإسلامَ لا يَمنَعُ من إقامةِ علاقاتٍ طيِّبةٍ وصِلاتِ صداقةٍ معَ الأُمم المُسالمةِ من غيرِ المسلمين، وقد طَبَّق النبيُّ صلى اللهُ تعالى عليه وسلَّم هذا الأمرَ في حياتِه، لكنْ لا يجوزُ مطلقًا التعاونُ معَ غيرِ المسلمينَ على حسابِ المسلمين.

﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾

١١٥ ـ رَغْمَ أنّ الكفَّارَ جميعًا شديدو العداوةِ للمسلمين، لكنّ موقفَ النَّصارى من المسلمينَ ـ بشكلٍ عامّ ـ أكثرُ لينٍ من موقفِ المشركينَ واليهود، ولهذا فإنّ النَّصارى

هم الأقرَبُ للمسلمينَ باعتبارِ الصَّداقة، وقد بيَّن القرآنُ الكريمُ ثلاثةَ أسبابٍ لهذا الأمر:

١ ـ في النَّصارى قَساوِسةٌ، أي: علماءُ، والذين هم على استعدادٍ لسَماع الآخَرينَ والتمعُّنِ فيما يقولون، وحينَ يتَّضحُ الحقُّ لهم فإنّهم لا يرَوْنَ أيَّ عارٍ في قَبولِه والانصياع له، في حينَ أنّ اليهودَ لا يَقبَلونَ الحقَّ حتى وإن عَرَفوه بسببِ تعصُّبِهم.

٢ ـ في النَّصارى رُهبانٌ، أي: دراويشُ متَّقُونَ، وهم الذين زَهِدوا في الدُّنيا ويَقْضُونَ حياتَهم كلَّها في العبادة، في حينَ أنّ اليهودَ أكثرُ حرصًا وطَمَعًا في حبِّ الدُّنيا.

٣ ـ النَّصارى لا يَستكبِرون، أي: يتعامَلونَ بتواضُع وتسامُح، وكانت هذه هي تعاليمَ سيِّدِنا عيسى عليه السَّلامُ أيضًا، يعني: «لا تُحاولوا أن تكونوا أنانيِّينَ ولا أعظمَ من الآخَرين، ولكن تواضَعوا وانظُروا إلى الآخَرينَ على أنّهم أفضَلُ منكم»[١].

فالنَّصارى الذين يتَّسِمُونَ بهذه الصِّفاتِ ظَلُّوا قريبينَ من الإسلام على مرِّ العصُور، وقَبِلت غالبيَّتُهم الإسلامَ، ولدينا مثالٌ تاريخيٌّ على هذا الأمرِ، وهو قَساوسةُ ورهبانُ الحَبَشةِ من النَّصارى والذين أسْلَموا حينَ سَمِعوا تلاوةَ القرآنِ المَجيد، وسوف يأتي تفصيلُ ذلك فيما بعدُ فترقَّبْه.

واليومَ أيضًا، من تتوفَّرُ فيه من النَّصارى واحدةٌ من هذه الصِّفاتِ الثلاثةِ فإنّه يكونُ أكثرَ تعاطُفًا معَ المسلمينَ من اليهود، مثلَ: موريس بُوكِيه الفرنسيِّ ومايكِل إتش هارْتَ الأمريكيِّ، واللَّذيْن أَبْرَزَا عظَمةَ الإسلام في كتُبِهم الشَّهيرة، وحينَ أُتيحت ليَ الفُرصةُ للذّهابِ إلى فِلَسطينَ في عام ٢٠٠١م شاهدتُ ذلك في المدينةِ المشهورةِ العظيمة (بيتِ لَحْم)، حيث يعيشُ المسلمونَ والنَّصارى هناك في وِفاقٍ تامّ، وكلَّما حدَثتْ معاركُ معَ اليهودِ وَقَف النَّصارى جَنْبًا إلى جَنْبٍ معَ المسلمينَ ضدَّ اليهود، وفي عام ٢٠٠٣م حين هاجَمت أمريكا وبريطانيا العراقَ

---

(١) فلبيون: ٢: ٣، الإنجيل الحي: ١٩٧٥.

للقضاءِ على صَدّام حُسَين كان أكثرُ من يؤيِّدُهما من اليهود، بينَما كانت أغلبيَّةُ المعارِضينَ لهذا في الأُمم المتَّحدةِ من الحُكَّام النَّصارى، وخَرَجت الملايينُ من المسيحيِّينَ في أمريكا وأوروبّا إلى الشَّوارع والأسواقِ في مظاهراتٍ احتجاجًا على هذا القرار. وعلى عكسِ هؤلاءِ النَّصارى المتَّقينَ، فإنّ اليهودَ والمشركينَ أكثرُ شِدّةً وقسوةً في عداوتِهم للمسلمين؛ لأنّهم محرومونَ من هذه الصِّفاتِ التي يتمتَّعُ بها النَّصارى، أي:

١ ـ اليهودُ يبتعِدونَ عن مقتَضَياتِ العِلم ويخضَعونَ لتعصُّبِهم وعِنادِهم، بل إنّهم لم يَشعُروا بغَضاضةٍ في قتلِ الشَّخصيَّاتِ المقدَّسة كالأنبياءِ عليهم السَّلام.

٢ ـ اليهودُ نشيطونَ للغايةِ ليس في عبادةِ الله تعالى والحصُول على رضاه، وإنّما في تحصيل الثَّروةِ الدُّنيويَّة، ويَستخدِمونَ في سَبيل ذلك كلَّ السُّبُل التي تؤدِّي إلى زيادةِ ما يَجمَعون.

٣ ـ اليهودُ ليسوا متواضِعينَ ولا متسامحينَ، وإنّما مغرورونَ متكبِّرون، ويحاولونَ إظهارَ أنفُسِهم على أنّهم عُظَماءُ، ولهذا قال سيِّدُنا عيسى عليه السَّلامُ فيما يتَعلَّقُ باليهود:

إنّهم مُراءون، ثَعابينُ وأبناءُ الثَّعابينِ المسمومة[١]. وقال سيِّدُنا داودُ عليه السَّلامُ فيما يتَعلَّقُ ببني إسرائيلَ: إنّهم متكبِّرونَ، سيِّئو الأدب، كذّابون مُخادِعون[٢].

ويُعلَمُ من هذه الآيةِ أنّ تحصيلَ العِلم والزُّهدَ في الدُّنيا والتواضُعَ صفاتٌ تستحقُّ التقدير، ويَنتُجُ عنها آثارٌ جيِّدة، سواءٌ اتَّصف بها أهلُ الإسلام أم غيرُ

(١) متى: باب ٢٣.

(٢) الزبور: باب ١٠.

المسلمين، في حينَ أنّ الجهلَ والتكالُبَ على الدُّنيا والتكبُّرَ صفاتٌ تستحقُّ النُّفورَ منها، وتجنُّبُها واجبٌ.

الرَّهبانيَّة

في هذه الآيةِ جاء ذِكرُ الرَّهبانيَّةِ بأنّها صفةٌ تستحِقُّ الثناءَ، لكنّ هذا لا يعني ـ أبدًا ـ أنّ الإسلامَ يحبُّ الرَّهَبانيَّةَ، أو أنّ الإسلامَ يتَّفقُ بشكلٍ كامل معَ تصوُّر الرَّهبانيَّةِ في النَّصْرانيَّة، فالإسلامُ من جانبٍ يحبُّ بعضَ الجوانبِ الطيِّبةِ في الرَّهبانيَّة (مثلَ: نَفْي حبِّ الدُّنيا والرُّجوع إلى اللهِ وما شابَهَ ذلك)، ومن جانبٍ آخَرَ يَبرأُ من بعضِ الجوانبِ الأخرى غيرِ الحسَنة مثلَ: القيودِ غيرِ المبرَّرة، والرِّياضاتِ التي لا محَلَّ لها، والإفراطِ والتفريطِ مثلَ: البُعدِ التامِّ عن كَسْبِ الرِّزقِ الحلال وعن تناولِ الطَّعام والشرابِ الجيِّد، وعن الزَّواج، وغيرِ ذلك، وقد قال النبيُّ ﷺ: «**يا عثمان! إنّ الرّهبانيَّةَ لم تُكتَبْ علينا**»[1]، وقال أيضًا: «**إنّي لم أُومَرْ بالرّهبَانيَّة**»[2]. فالإسلامُ لا يُجيزُ أبدًا تَرْكَ الدُّنيا، وفي نفسِ الوقتِ لا يتحمَّلُ نسيانَ المعبودِ الحقيقيِّ، والانصرافَ إلى حياةِ اللَّهو والعَبَثِ الدُّنيويَّة، إنّما الإسلامُ يُعلِّمُنا التوازنَ بينَ كلٍّ من الدُّنيا والعبادة، لأنّهما معًا ضروريّانِ لحياةِ الإنسانِ الناجحة.

﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾

١١٦ ـ رَغْمَ أنّ هذه الآياتِ عامّةٌ في حُكمِها، لكنّ سببَ نزولِها كان قَساوِسةَ الحَبشةِ ورُهبانَها الذين أرسَلَهم النَّجاشيُّ إلى المدينةِ المنوَّرة للقاءِ النبيِّ ﷺ، وهذه الواقعةُ موجودةٌ بالتفصيل في كتُبِ الحديثِ والتفسير والتاريخ، ونحن هنا نُدرجُ خُلاصتَها:

---

(١) مسند أحمد، ٦: ٢٢٦.

(٢) سنن الدارمي، كتاب النكاح، باب ٣.

«حينَ رأى النبيُّ ﷺ أنّ ظُلمَ كفَّارِ مكّةَ للمسلمينَ في تزايُدٍ مستمرٍّ، وأنّ الحياةَ أصبحتْ في غايةِ الصُّعوبة على المسلمينَ في مكّةَ، أشار على المسلمينَ بالهجرةِ لبعضِ الوقتِ إلى الحَبَشة؛ لأنّ مَلِكَها أَصْحَمَةُ رَغْمَ أنه نَصْرانيٌّ إلّا أنه اشتُهر بقلبِه الرَّحيم وحبِّه للعدلِ والإنصاف، فلا يَظلِمُ أحدًا، ولا يَدَعُ أحدًا يَظلِمُ أحدًا، وهكذا خَرَجت أولُ قافلةٍ من المهاجرينَ المسلمينَ من مكّةَ باتِّجاهِ الحَبَشةِ في السَّنةِ الخامسةِ من البَعْثةِ النَّبويَّة، وكانت هذه القافلةُ تضُمُّ اثنَيْ عشَرَ رجُلًا وأربعِ نساءٍ، وكان قائدَ القافلةِ هو سيِّدُنا عثمانُ بنُ عفَّانَ رضيَ اللهُ عنه، وكانت فَلْذةُ كِبدِ النبيِّ ﷺ السيِّدةُ رُقَيَّةُ رضيَ اللهُ عنها زوجةُ سيِّدِنا عثمانَ رضيَ اللهُ عنه ضمنَ هذه القافلةِ أيضًا، وحينَ وَصَل المسلمونَ الحَبَشةَ رحَّبَ بهم النَّجاشيُّ بكلِّ احترام، وهيَّأ لهم مكانًا آمِنًا لإقامتِهم، وبعدَ فترة، توجَّهت قافلةٌ كبيرةٌ من المسلمينَ من مكّةَ إلى الحَبَشة بقيادةِ سيِّدِنا جعفرِ بن أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنه، وكانت تُضمُّ اثنَيْنِ وثمانينَ رجُلًا بالإضافةِ إلى الأطفالِ والنِّساء، وحينَ تَرَكَ هذا العدَدُ الكبيرُ مكّةَ إلى الحَبشةِ شَعَر المشركونَ بالقَلقِ حِيالَ الأمر، خَوْفًا من أن يَجمَع المسلمونَ قوَّتَهم في الحَبَشة ويُغِيروا على مكّةَ، ولهذا أرسَلَ مشركو مكّةَ سفيرَيْنِ: (عَمْرَو بن العاص وعبدَ الله بنَ أبي رَبيعةَ) إلى النَّجاشيِّ، وأرسَلوا معَهما هدايا قيِّمةً ونفائسَ كثيرةً، حتى يُقدِّماها لأهل البَلاطِ في الحَبَشة ويَحصُلا على تأييدِهم، وبالفعلِ وَصَل السَّفيرانِ إلى الحَبَشة وقالوا للنَّجاشي:

ادَّعى مجنونٌ (والعياذُ بالله) النُّبوَّةَ في بلدِنا مكّةَ، وقد تَبِعَه بعضُ النّاسِ وأخَذوا يَعيثونَ في الأرضِ فسادًا، وقد جاء بعضُ هؤلاءِ إلى بلادِكم وسَكَنوها، هؤلاءِ الحَمْقى تَرَكوا دينَ آبائهم، ولم يَقبَلوا دينَك أنتَ أيضًا، وإنّما اختَرعوا دينًا جديدًا من عندِ أنفُسِهم، وقد أرسَلَنا سادةُ مكّةَ إليكم حتى تُخرِجَهم من بلادِكم وإلّا أفسَدَها هؤلاء.

استدعَى النَّجاشيُّ المسلمينَ إلى البَلاط، كما استدعَى كذلك علماءَ النَّصْرانيَّةِ الذين جَلَسوا حولَ المِلك وفَتَحوا كتُبَهم، وعندَئذٍ سألَ النَّجاشيُّ المسلمينَ: أيُّ دينٍ هذا الذي تَركتُم من أَجْلِه دينَ آبائكم؟ فقال سيِّدُنا جعفرُ بنُ أبي طالب: «أَيُّها المَلِك، كنّا قومًا جُهّالًا، نعبُدُ الأصنامَ، ونأكلُ المَيْتةَ، ونفعَلُ الفاحشةَ، ونَحطِمُ القَراباتِ، ونُسيءُ معاملةَ الجِيران، ونَظلِمُ الضُّعَفاءَ، وبينَما نحن على هذا الحالِ إذْ بَعَثَ اللهُ فينا رسُولًا منّا نَعرِفُه بصِدقِه وأمانتِه وطَهارتِه، دَعانا إلى عبادةِ الله تعالى الواحدِ الأحَد، وتَرْكِ عبادةِ الأصنام، وأن نقولَ الحقَّ، ونَحفَظَ الأماناتِ، ونَصِلَ القَراباتِ، ونُحسِنَ إلى الجِيران، ونترُكَ الفاحشةَ، وقد قَبِلنا دعوتَه هذه، ولهذا عادانا أهلُ مكّةَ، فلمَّا ضَيَّقوا علينا جِئنا إلى بلادِك بحثًا عن الأمنِ والأمان. فسألهُ النَّجاشيُّ: ماذا يقولُ قرآنُكم عن عيسى عليه السَّلام؟ فتلا سيِّدُنا جعفرٌ رضيَ الله عنه بعضَ آياتٍ من سُورةِ مرْيَم، فبكَى النَّجاشيُّ ومُصاحِبوه لسَماعِها حتى ابتلَّتْ لِحاهم وأوراقُ الإنْجيل أمامَهم، فقال النَّجاشيُّ: إنّ هذا الكلامَ والكلامَ الذي نَزَل على عيسى عليه السَّلام أشعةٌ لشمسٍ واحدة. وبعدَ ذلك أعاد النَّجاشيُّ الهدايا إلى سفيرَيْ مكّةَ، وقال لهم بوضوح: إنه لا يمكنُ أن يَأمُرَ بإخراج هؤلاءِ النّاسِ من بلادِه.

وقد تولَّدتْ عظَمةُ الإسلام ورُسولِ الإسلام في قلوبِ مَلِكِ الحَبشةِ ومسئوليها وعامَّتِها بفَضْل حديثِ سيِّدِنا جعفرٍ رضيَ اللهُ عنه هذا، وكان من نتيجةِ ذلك أنه حينَ هاجَرَ النبيُّ ﷺ إلى المدينةِ المنوَّرة، وتكوَّنَ المجتمعُ الإسلاميُّ هناك، وعَزَم مهاجِرو الحَبشةِ على التوجُّهِ إلى المدينةِ المنوَّرة، أرسَلَ النَّجاشيُّ وَفْدًا من سبعينَ من علماءِ ورُهبانِ النَّصرانيَّة معَهم إلى المدينةِ المنوَّرة، وحينَ تلا رسولُ الله ﷺ على الوَفْدِ سُورةَ يٓس جَرَتِ الدُّموعُ من عيونِ القساوسةِ والرُّهبان، وعَرَفوا الحقَّ فأسْلَموا[١]، وقالوا وهم يبكُون: يا ربَّنا، إنّنا نشهَدُ بصدقِ كلامِك، وندعو في

(١) «وأرسل النجاشي سبعين رجلاً من الرهبان والقسيسين مع المسلمين المهاجرين، فلما أتوا =

حَضْرتِك أن تشمَلَنا في زُمرةِ أهل الإيمانِ السُّعداءِ، الذين يشهَدونَ بوَحْدانيَّتِك ونُبوَّةِ أنبيائك عليهمُ السَّلام. وحينَ عاد وفدُ علماءِ النَّصارى هؤلاءِ من المدينةِ المنوَّرة إلى الحَبَشة، وأخبرَوا النجاشيَّ بأمرِ لقائهم معَ النبيِّ ﷺ وإسلامِهم، أسْلَم النجاشيُّ هو الآخَرُ، وظَلَّ مسلمًا حتّى توفَّاه الله، وعندَما مات قال النبيُّ ﷺ لأصحابِه: «**إنَّ أخًا لكم قد مات، فقوموا فصَلُّوا عليه**» يعني: **النّجاشيَّ**،... **أنّ رسولَ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم صلّى على أصحمةَ النّجاشيِّ، فكبَّر عليه أربعًا**»[١].

﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾

١١٧ ـ رُويَ عن سيِّدِنا ابن عَبَّاس رضيَ اللهُ عنه، أنه حينَ قَبِلَ قَساوسةُ ورُهبانُ الحبشةِ الإسلامَ ثم عادوا من المدينةِ إلى الحبشة «**أنّ اليهودَ أنكَروا عليهم ولاموهم (على الإيمان)**»[٢]، بمعنى: أنّكم تركتُم دينَكم، فأجابَ عليهم هؤلاءِ الذين أسْلَموا حديثًا بما هو مذكورٌ في الآيةِ الكريمة، يعني: لماذا لا نؤمنُ باللهِ تعالى ورسولِه الحقِّ، وإذا كان ذلك الرسولُ بُعثِ إلينا، ونحن عرَفْناه، فمنَ الضَّروريِّ الإيمانُ به، وهو ما قد فَعَلْناه، والآنَ نأمُلُ أن يشمَلَنا اللهُ تعالى ضمنَ عبادِه الصَّالحين. وجزاءً لهم ـ على قولِهم هذا بتصديقِهم للحقِّ ـ فإنّ اللهَ تعالى قد مَنّ عليهم بالجنَّةِ يَخلُدونَ فيها، وهذا هو جزاءُ الصَّالحين، أما الذين لا يعترفونَ بالحقِّ فإنّ مصيرَهم جهنَّمُ.

﴿وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

١١٨ ـ أولئك السُّعداءُ الذين وَرَد ذكرُهم في الآياتِ السابقة، والذين بَشَّرهم اللهُ

= رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ودخلوا عليه فقرأ عليهم سورة يس، فبكوا حين سمعوا القرآن وعرفوا أنه الحق». تفسير فتح القدير للشوكاني. وآمنوا كما ذكر في الآية.

(١) البخاري ومسلم، كتاب الجنائز.

(٢) تفسير البحر المحيط.

تعالى بالجنَّة، كانت أُمنِيَتُهم القَلْبيَّةُ بعدَ إيمانِهم أن يَشمَلَهم اللهُ تعالى في عبادِه الصَّالحين، ومنه نَعلَمُ مدى أهميَّةِ صُحبةِ الصَّالحين.

وقد ذَكَر القرآنُ الكريمُ أدعِيةَ بعضِ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ فيما يَتعلَّقُ بصُحبةِ الصالحين، على سبيل المثال: دَعا سيِّدُنا يوسُفُ عليه السَّلامُ اللهَ تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، ودعاءُ سيِّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلام: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الشعراء: ٨٣]، ودعاء سيِّدنا سليمان عليه السَّلام ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

وباختصار، فإنّ صُحبةَ الصَّالحينَ ومَعِيَّتَهم والانضمامَ إلى زمُرتِهم نعمةٌ عظيمةٌ وسعادةٌ ما بعدَها سعادة، وهي التي دَعا بها الأنبياءُ الكرامُ عليهم السَّلامُ أيضًا، ليتَنا نحنُ أيضًا اليومَ نفهَمُ أهميَّتَها، ونَنْأَى بأنفُسِنا وأهلِنا وأولادِنا عن مجالسِ اللَّغو.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ

وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾

١١٩ ـ الإنسانُ يستطيعُ أن يتصرَّفَ كما يشاءُ فيما هو مِلكٌ له؛ لأنّ اللهَ تعالى مَنَحَه الاختيارَ فيه، ولكنْ بشَرْطِ أن يكونَ هذا الشيءُ حلالًا، أمّا تحليلُ وتحريمُ شيءٍ ما فهو أمرٌ في يدِ الله تعالى فقطْ، لأنّه خالقُ كلِّ شيء، وهو المالكُ والرازق، أو أنّ هذا الاختيارَ أعطاه اللهُ تعالى ـ عن طريقِ الوَحْي ـ للنبيِّ المكرَّم ﷺ، لأنّه بمثابةِ نائبِ اللهِ تعالى وخليفتِه الأعظم، وبالتالي إذا حاوَلَ أحدٌ أن يُحرّمَ شيئًا حلالًا باختيارِه هو، فإنه بذلك يتجاوزُ حدودَه، ويرتكبُ خطأَ التصرُّفِ في حقوقِ الله تعالى، وهو ظُلمٌ وتجاوُزٌ عظيم.

ولهذا من الضَّروريِّ للعبدِ المؤمنِ أنْ لا يعتقدَ بحُرمةِ شيءٍ حلال، فلا يُحرِّمُه بلسانِه، ولا يَجتنِبُه كالحرام، ولا يُفتي بحُرمتِه، ولا يَنذِرُ نذرًا بشيءٍ حرام، ولكنْ إذا تجنَّبَ شيئًا حلالًا بشكلٍ مؤقَّت، كعلاج لمرضٍ رُوحانيٍّ أو بدنيٍّ فلا حَرَج في ذلك، مثلَما يتجنَّبُ مريضُ السُّكَّر ـ بأمرِ الطَّبيب ـ الأشياءَ الحُلوة، حتى يمكنَ التَّحكُمُ في مستوى السُّكَّر لدَيْه، أو مثلَما يقولُ الشَّيخُ لمُريدِه الذي لا يُصلِّي أنِ اترُكْ بيتَك لثلاثةِ أيام واجلِسْ في المسجدِ بنيَّةِ الاعتكاف وأكثِرْ من الاستغفار، حتى يعتادَ على الصَّلاة.

وهناك واقعاتٌ كثيرةٌ مذكورةٌ في كتُبِ الحديثِ والتفسيرِ على أنّها سببُ نزولِ هذه الآيات، وبقراءةِ هذه الواقعاتِ يَسهُلُ فَهْمُ معنى هذه الآيات، وأنا هنا أذكُرُ اثنتَيْنِ منها فقطْ:

١ ـ فعن أنسِ بن مالكٍ رضيَ الله عنه، قال: جاء ثلاثةُ رَهْطٍ إلي بيوتِ أزواج النّبيِّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم يسألونَ عن عِبادةِ النّبيِّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم، فلمّا أُخبِروا كأنّهم تَقَالُّوها، فقالوا: وأين نحن من النّبيِّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم؟ قد غَفَر الله له ما تقَدَّم من ذَنْبِه وما تأخَّر، فقال أحدُهم: أمّا أنا فأنا أُصَلِّي اللّيلَ أبدًا، وقال آخَرُ: أنا أصومُ الدّهرَ ولا أُفطِر، وقال آخَر: أنا أعتزِلُ النّساءَ فلا أتزوَّجُ أبدًا، فجاء إليهم رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم فقال: «أنتم الّذين قلتمُ كذا وكذا؟ أما والله، إنّي لَأخشاكُم لله وأتقاكُم له، لكنّي أصومُ وأُفطِر، وأصَلِّي وأرقُد، وأتزوَّجُ النّساءَ، فمن رَغِبَ عن سُنّتي فليس منّي»[1].

٢ ـ قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: «يا عبدَ الله! ألم أُخبَرْ أنّك تصومُ النّهارَ وتقومُ اللّيل؟»، قلت: بلى يا رسولَ الله! قال: «فلا تفعَلْ، صُمْ وأفطِرْ، قُمْ ونَمْ، فإنّ لجسَدِك عليك حقًّا، وإنّ لعَيْنِك عليك حقًّا، وإنّ لزَوْجِك عليك حقًّا»[2].

﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ﴾

١٢٠ ـ مفهومُ تعدِّي الحدِّ واسع، على سَبيل المثال: أن تُحرِّمَ شيئًا حلالًا، أو تُحِلَّ حرامًا، أو الإفراطُ والتفريطُ في استعمالِ شيءٍ حلال، كلُّ هذه الأشياءِ تأتي ضمنَ تعدِّي الحدِّ، ومن يَرتكبُ شيئًا من هذا فإنه يستحِقُّ غَضَبَ الله عليه وعَدَمَ حبِّه له، ولهذا يجبُ على أهلِ الإسلام أن يتجنَّبوا الإفراطَ والتفريطَ، وأن يتَخيَّروا الاعتدالَ والتوازُن، فهذا كلُّه من السِّماتِ المميِّزةِ للإسلام.

﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾

١٢١ ـ الحلالُ:

---

(١) البخاري، كتاب النكاح، باب ١ برقم ٥٠٦٣.

(٢) البخاري، كتاب النكاح، باب ٩٠ برقم ٥١٩٩.

المرادُ من الحلال: تلك الأشياءُ التي لم تُحرِّمْها الشَّريعةُ الإسلاميَّة، والمحرَّماتُ ثلاثةُ أقسام:

١ ـ أشياءُ محرَّمةٌ بذاتِها مثلَ: الكلبِ والحمارِ وغيرِهما.

٢ ـ أشياءُ حُرِّمت لسببٍ من الأسباب مثلَ: الدَّجاجةِ الميِّتة والشَّاةِ الميِّتة وغيرِهما.

٣ ـ أشياءُ طريقةُ الحصولِ عليها حرامٌ مثلَ: الرِّشْوةِ والسَّرقةِ وما شابَه ذلك من مال.

الطَّيِّبُ:

المرادُ بالطَّيِّب: الأشياءُ الطّاهرةُ القيِّمةُ غيرُ العَفِنة أو القَذِرةِ أو الفاسدة، وهناك بعضُ الأشياءِ تكونُ حلالًا، ولكنَّها بَلِيَت، أو تغيَّر لونُها أو طَعْمُها أو أثَرُها لآفةٍ حلَّتْ بها، وأصبح استعمالُها مُضِرًّا للصِّحةِ والحالةِ المِزاجِيّة، ولهذا يجبُ اجتنابُها.

وفي هذه الآيةِ أمَرَ اللهُ تعالى بتناوُلِ الأطعمةِ الحلال الطيِّبة، ولكنّ هذا لا يعني أنّ كلَّ ما هو حلالٌ يؤكَل، الأمرُ ليس بهذا الشَّكل، وإنّما الأمرُ هو أنْ تأكُلَ من الحلالِ الطيِّب، يعني: لا تأكُلْه كلَّه، وإنّما كُلْ بقَدْرِ الحاجة، ولا تُسرِفْ فيه بتضييعِه أو بتناولِه بغير داعٍ أو حاجةٍ، واتَّقوا اللهَ، وتَصدَّقوا ببعضِه.

﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ ﴾

١٢٢ ـ القَسَمُ الذي يَخرُجُ من اللِّسان بشكلٍ غيرِ مقصودٍ أو على سَبيل العادةِ: لا كفَّارةَ عليه ولا مُؤاخَذةَ (ذَنْب)، أمّا القَسَم الذي يؤدِّيه الإنسانُ بإرادتِه الكاملة وعلى سَبيل العَمْدِ إن لم يَتِمَّ الوفاءُ به وحَنِث فيه صاحبُه: فعليه كفّارةٌ وذنبٌ أيضًا، والحَنْثُ في القَسَم سواءٌ كان عن عَمْدٍ أم دونَ قَصْدٍ وإرادة، تجبُ

فيه الكفَّارةُ، لكنّ أداءَ الكفَّارة يكونُ بعدَ الحَنْثِ في القَسَم، فإذا أُدِّيتِ الكفَّارةُ قبلَ الحَنْثِ في القَسَم فإنّها لا تُجْزِئُ؛ لأنّ موجبَ الكفَّارة هو الحَنْثُ في اليمين، وطالما لم تَحنَثْ في يمينِك فلا كفَّارةَ عليك، ومثلَما لا نؤدِّي الصّلاةَ قبلَ وقتِها فإنّنا لا نؤدِّي الكفَّارةَ قبلَ الحَنْثِ في اليمين.

﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ﴾

١٢٣ ـ تَثبُتُ مشروعيَّةُ الكفَّارةِ من هذه الآية، والمعنى اللُّغويُّ للكفَّارة: «الشَّيءُ الذي يُغطِّي ويُخْفي»، ومعنى أن يكونَ العملُ الصَّالحُ كفَّارةً للذَّنبِ هو أنّ هذه الحسَنةَ تُغطِّي على هذا الذَّنبِ وتُخفيهِ.

وللكفَّارة ثلاثُ صُوَر:

١ ـ إطعامُ عشَرةِ مساكينَ طعامًا متوسِّطًا مما نُطعِمُ منه أهلَنا.

٢ ـ أو كسْوةُ عشَرةِ مساكين، وهناك اختلافٌ حولَ الكِسْوة هذه، تُرى من أيِّ قماشٍ تكون، وكم من القماشِ تكون؟ وعندي، أنّها تكونُ مثلَ الطَّعام من الدرجةِ المتوسِّطة أيضًا مما نكْسو منه أهلَنا.

٣ ـ أو تحريرُ رقَبةٍ، وهو: ما لا يتيسَّرُ في عصرِنا هذا؛ لأنّ الرِّقَّ قدِ انتهى تدريجيًّا بفَضْل بركةِ المبادئِ الإسلاميَّة، ولمزيدٍ من التفصيل حولَ هذا الموضوع راجِع الحاشيةَ رقم ٧ للآية رقم ٣ من سُورة النِّساء.

فإذا لم يتمكَّنِ الشَّخصُ من أداءِ الكفَّارة في أيِّ صُورةٍ من الصُّوَر الثّلاثِ السّابقة، فلْيصُمْ ثلاثةَ أيام متتالية، فهي كفّارةٌ له.

ماذا يمكنُ أن يُقالَ عن كَرم اللهِ تعالى؟ فالعبدُ يُذنبُ ويُدنِّسُ صحيفتَه، واللهُ تعالى يَسُنُّ له عقابًا خفيفًا لسَتْرِ هذا الدَّنَس وتغطيتِه، ممّا يُخفي معَه الجُرمَ الذي ارتكَبَه، وفوقَ ذلك يَنالُ العبدُ الدُّعاءَ بالخيرِ من أولئك المساكينِ الذين سيُطعِمُهم أو يَكْسوهم، باعتبارِ أنه نوعٌ من الإحسانِ إلى الفقراء، وفي حالةِ الصَّوم يستفيدُ العبدُ من بَرَكةِ الصِّيام، وعلى سَبيل المثال: يقولُ النبيُّ ﷺ فيما رَواه سيِّدُنا أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنه: «**قال اللهُ عزَّ وجلَّ: كلّ عَمَلِ ابنِ آدمَ له إلّا الصّيامَ، هو لي وأنا أجْزي به، فوالّذي نفْسُ محمّدٍ بيدِه! لَخلوف فم الصّائم أطيبُ عندَ الله من ريح المسْك**»[1]. سبحانَ الله! العبدُ يُذنبُ من جانبٍ ومن جانبٍ آخَرَ يكونُ خَلُوفُ فمِه ـ في حالةِ صومِه ـ أطيَب عندَ الله من ريحِ المِسك، وسببًا في رضا الله تعالى وقُربِه منه. الحمدُ لله ربِّ العالَمين.

﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ﴾

١٢٤ ـ يعني: فكِّروا جيِّدًا قبْلَ أن تَحلِفوا بحيثُ لا يكونُ في هذا القَسَم تضييعٌ لحقِّ أحد، أو غَضَبُ اللهِ تعالى عليكم؛ لأنّ القَسَمَ في مِثلِ هذه الحالةِ يجبُ الحَنْثُ فيه، ولمزيدٍ من التفصيل راجِع الحاشيةَ رقم ١٨٣ للآية رقم ٢٢٤ من سُورة البقرة، ولكنْ إذا أقسَمْتَ في أمرٍ صحيح وبمَحْضِ إرادتِك، فعندَئذٍ عليكَ الالتزامُ بتنفيذِ ما أقسَمْتَ عليه وحِفْظُ يمينِك لأقصى درجةٍ، وإن خالَفْتَ ذلك فعليكَ الكفّارةُ.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾

١٢٥ ـ في هذه الآيةِ بيانٌ للقَسَم وكفّارتِه، واللهُ تعالى يَعْفو عن الأَيْمانِ غيرِ المقصودةِ تمامًا، ولا مُؤاخَذةَ بسببِها، ومن يُقسِمُ بمَحْضِ إرادتِه ثم يَحنَثُ في

---

(١) مسلم، كتاب الصيام، باب ٣٠ برقم ٢٧٠٤.

قَسَمِه فإنّ اللهَ تعالى قد بيَّن له ثلاثَ صُورٍ للكفَّارة، ليؤدِّيَ أيَّها أيسَرَ له، وإذا لم يستطعْ أداءَ أيٍّ منها فعليه صيامُ ثلاثةِ أيام متتاليةٍ فقطْ، كم أنّ اللهَ رحيمٌ بعباده! إذْ يُقدِّمُ لهم تسهيلاتٍ وتخفيفاتٍ كبيرةً، ونحن من جانبِنا وبالرَّغْم من كلِّ هذا الكرم إذا لم نؤدِّ شُكرَه، فهل يكونُ هناك مَن هو أكثرُ منا جُحودًا؟

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾

١٢٦ ـ لاحِظْ ـ أولًا ـ معنى ومفهومَ خمسةِ ألفاظٍ وَرَدت في هذه الآية، ثم سأُحدِّثُك بالتفصيل عن موضوع الخَمْر:

* **خَمْر**: والمرادُ منه: ذلك الشرابُ الذي يُذهِبُ عقلَ الإنسان ويُعطِّلُ عقلَه وحواسَّه.

* **مَيْسِر**: والمرادُ منه: كلُّ أنواع القمارِ والتي يَجْني من ورائها الإنسانُ أموالًا طائلةً دون تعبٍ أو جُهدٍ واجتهاد، في الوقتِ الذي يَخسَرُ فيه كثيرٌ من الحَمْقَى كلَّ ما جَمعوه في حياتِهم، ثم يَقْضونُ بقيّةَ عُمرِهم يمُدُّونَ يدَهم متسوِّلينَ نادِمينَ على الفعل الذي ارتكَبوه.

* **أنصاب**: والمرادُ منها: تلك الأصنامُ والأحجارُ التي كانت تُعبَدُ من دونِ الله، وتُذبَحُ من أَجْلِها القَرابينُ وتُقدَّمُ لها[1]، وبمعنىً آخر: عبادةُ الأصنام.

* **أزلام**: والمرادُ منها: تلك السِّهامُ التي كانت تُضرَبُ من أَجْل الفَأْل أو لِلَعبِ القمار (ولمزيدٍ من التفصيل راجع الحاشيةَ رقم ٩ للآية رقم ٣ من هذه السُّورة).

* **رِجْس**: ومعناه النَّجاسةُ وعدَمُ الطُّهرِ والقذارة. يقولُ العلّامةُ ابنُ منظور:

---

(١) النّصب (الأنصاب) حجارة كان أهل الجاهلية يعبدونها ويذبحون لها. (صفوة التفاسير وتفسير ابن جرير الطبري، سورة المائدة (٥): الآية ٣.

إنّ هذا اللفظَ يُستعمَلُ في معنى: الحرام، والعذابِ، والعمَل السيِّئ والكُفرِ أيضًا[1]، وقد وَرَد لفظُ الرِّجْس في عشَرةِ مواضعَ في القرآنِ الكريم، وفي كلِّ موضع من هذه المواضع يدُلُّ على معنًى من المعاني المذكورة، وهو يَدُلُّ في هذه الآيةِ على الحرام والنَّجِس.

بعضُ الأحاديثِ والرِّواياتِ المتعلِّقةِ بالخمر:

١ ـ كان شربُ الخمرِ رائجًا عندَ العرب، وكان من الصَّعبِ التخلِّي عن هذه العادةِ دَفْعةً واحدة، ولهذا جاء الحُكمُ بتحريم الخَمْر تدريجيًّا. يقولُ محمَّدُ بنُ قَيْس رضيَ الله عنه: إنه عندَما جاء رسولُ الله ﷺ إلى المدينةِ المنوَّرةِ كان الناسُ يشربونَ الخمرَ ويلَعبونَ القمار، فسأَلَ المسلمونَ النبيَّ ﷺ عن حُكم هذه الأشياء، فأَنْزلَ اللهُ تعالى هذه الآية: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، وعندَئذٍ قال النّاسُ: لنا في هذه الآيةِ رخصةٌ، ولهذا سنشربُ الخمرَ ونلعَبُ القمارَ ونستغفرُ اللهَ، إلى أنْ قرَأ الإمامُ سُورةَ (الكافرون) في صلاةِ المغربِ هكذا: «قُلْ يا أيُّها الكافرون، أَعبُدُ ما تَعبُدون..» ولم يَشعُر الإمامُ ماذا قَرأَ (في حينَ أنّ الإنسانَ يكفُر ـ والعياذُ بالله ـ إذا قرَأَ هذه السُّورةَ بهذا الشَّكل عن عَمْد)، وعندَئذٍ نَزلتْ هذه الآيةُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]، وبالرَّغْم من ذلك ظلَّ الناسُ يشربونَ الخمرَ، فإذا ما حانَ وقتُ الصَّلاةِ تَركوها، وأدَّوا الصَّلاةَ حينَ يكونونَ في كاملِ وَعْيِهم ويعلَمونَ ماذا يقرَأونَ في الصَّلاة، واستقَرُّوا على هذا الأمرِ إلى أنْ أَنْزلَ اللهُ تعالى هاتَيْنِ الآيتَيْن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ

---

(١) الرجس: القذر، ويعبّر به عن الحرام والفعل القبيح والعذاب. لسان العرب.

وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١]، وبعد نزولِ هاتَيْنِ الآيتَيْنِ امتنَعَ المسلمونَ تمامًا عن هذه الأشياءِ قائلينَ: «**انتهَيْنا ربَّنا، انتَهْينا ربَّنا**»[١].

٢ ـ يقولُ أبو حَيّانَ الأندَلُسيُّ: «**ذَهَب الجمهورُ إلى أنّ هذه الآيةَ دلَّت على تحريم الخمر، وهو الظاهرُ، وقد حَلَف عمرُ رضيَ اللهُ عنه فيها**»[٢].

٣ ـ لو أنّ الأحاديثَ والرِّواياتِ التي تدُلُّ على حُرمةِ شُربِ الخمرِ ليست موجودةً لدينا فإنّ هاتَيْنِ الآيتَيْنِ تكفِيانِ لتحريم شربِ الخمر؛ لأنّ الشِّدةَ التي جاء بها ذمُّ الخمرِ فيهما لم يُذَمَّ غيرُها بنفسِ هذه الشِّدة.

٤ ـ الصَّحابةُ الكرامُ رضيَ اللهُ عنهم هم المخاطَبونَ الأُوَلُ بالقرآنِ الكريم، فهم أهلُ اللُّغةِ العربيَّة، وكانو يَسمَعونَ القرآنَ من النبيِّ ﷺ مباشرةً، فإنْ كان لديهم شُبهةٌ أو شكٌّ في شيءٍ ما فإنّهم كانوا يسألونَ النبيَّ ﷺ عنه ويَستوضِحونَه منه، وحين سَمِع الصَّحابةُ الكرامُ رضيَ اللهُ عنهم بهذا الحُكم أعلَنوا توبتَهم عن شُربِ الخمر، وأكَّدُوا على ذلك مرتَيْنِ بقولِهم: «**انتَهَيْنا ربَّنا؛ انتهَيْنا ربَّنا**»؛ لأنّهم لم يكنْ لديهم أدنى شكٍّ في حُرمةِ شربِ الخمرِ عندَئذٍ.

٥ ـ بعدَ نزولِ هذه الآية وتأكُّدِ الصَّحابةِ من حُرمةِ شُربِ الخمرِ والمصيرِ السيِّئ لمن يُعاقرُها، أصابَهم القلقُ بشأنِ إخوانِهم من المسلمينَ الذين وافَتْهم منيَّتُهم من قَبْلُ، فسألوا رسولَ الله ﷺ: **يا رسولَ الله! كيف بإخوانِنا الذين ماتوا وهم يشربونَها؟ فنزلت: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ ﴾ إلى آخرِ الآيةِ من سورة**

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري، وسنن النسائي، كتاب الأشربة، باب١ برقم ٥٥٤٢.

(٢) تفسير البحر المحيط.

المائدة[١]. يعني قولَه تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، لأنّ شربَ الخمرِ لم يكنْ ذنبًا في ذلك الوقت، ولهذا فهمُ لم يكونوا عُصاةً، وإنّما كانوا أهلَ إيمانٍ وأهلَ تقوى، وقد قال النبيُّ ﷺ عنهم: «**لو حُرِّم عليهم لَترَكوهُ كما ترَكتُم**»[٢].

٦ ـ قال سيِّدُنا ابنُ عبّاس رضيَ اللهُ عنه: **لمَّا نَزَل تحريمُ الخمر، مشَى أصحابُ رسول الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم بعضُهم إلى بعضٍ وقالوا: حُرِّمتِ الخمرُ وجُعِلت عِدْلًا للشِّرك؛ يعني: أنه قَرَنَها بالذَّبح للأنصابِ، وذلك شِرْك**[٣].

٧ ـ حينَ نَزَلت هذه الآيةُ «**أمَرَ النبيُّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم مناديَه أن يُناديَ في سِكَكِ المدينة: ألّا إنّ الخمرَ قد حُرِّمت؛ فكُسِرتِ الدِّنانُ وأُريقَتِ الخمرُ حتى جَرَت في سِكَكِ المدينة**»[٤].

٨ ـ **عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه؛ قال: قال رسول اللهُ صلى الله عليه وآلِه وسلم**: «**مُدمِنُ الخمرِ كعابِد وَثَنٍ**»[٥]، بمعنى: أنّ عبادةَ الأوثان أيضًا حرامٌ، وشربُ الخمرِ أيضًا حرامٌ.

٩ ـ **عن عبدِ الله رضيَ اللهُ عنه؛ قال: قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلم: «ثلاثةٌ لا يَدخُلونَ الجنَّة: العاقُّ لوالدَيْه، والمُدمِنُ على الخمر، والمَنَّانُ بما أعطى**»[٦].

---

(١) مسند أحمد، ١: ٢٣٤.

(٢) تفسير الدر المنثور وتفسير ابن كثير.

(٣) تفسير القرطبي.

(٤) المرجع السابق.

(٥) ابن ماجه، أبواب الأشربة، باب ٣ برقم ٣٣٧٥.

(٦) النسائي، كتاب الزكاة، باب ٦٩ برقم ٢٥٦٣.

١٠ ـ قال النبيُّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: «فإنّ اللهَ لَعَن الخمرَ وعاصرَها ومُعتَصِرَها وشاربَها وساقيَها وحاملَها والمحمولةَ إليه وبائعَها ومشتريَها وآكلَ ثمنِها»[1].

١١ ـ عن ابن عُمرَ رضيَ اللهُ عنهما، قال: سمعتُ عُمرَ رضيَ اللهُ عنه على مِنبَر النّبيِّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم يقول: «أمّا بعدُ، أيُّها النّاسُ! إنّه نَزَل تحريمُ الخمرِ وهي من خمسةٍ: من العِنَب، والتَّمر، والعَسَل، والحِنْطة، والشَّعير، والخمرُ: ما خامَرَ العقْلَ»[2]. بمعنى: أنّ سيِّدَنا عُمرَ رضي اللهُ عنه قد أعلَنَ هذا أمامَ الصَّحابةِ الكرام رضيَ اللهُ عنهم ولم يَعترِضْ أحدٌ منهم عليه، ويَثبُتُ من هذا إجماعُ الصَّحابةِ الكرام رضيَ اللهُ عنهم على حُرمةِ شُربِ الخمر.

١٢ ـ عن عُثمانَ رضيَ اللهُ عنه؛ قال: «اجتَنبوا الخمرَ، فانّها أُمُّ الخبائث، إنّه كان رجلٌ ممّن خَلَا قبلَكم تَعبَّدَ فعَلِقَتْه امرأةٌ غَويّةٌ فأرسَلَتْ اليه جاريتَها فقالت له: إنّا ندعوك للشَّهادة، فانطَلَق معَ جاريتِها وطَفِقَت كلَّما دَخَل بابًا أغلَقَتْه دونَه، حتّى أفضى إلى امرأةٍ وَضِيئةٍ عندَها غلامٌ وباطِيةُ خمرٍ، فقالت: إنّي واللهِ ما دعوتُك للشَّهادة، ولكنْ دعوتُك لتقَعَ علَيَّ أو تشربَ من هذه الخمرةِ كأسًا أو تَقتُلَ هذا الغلامَ، قال: فاسقيني من هذه الخمرِ كأسًا فسَقَتْه كأسًا، قال: زِيدوني، فلم يَرُمْ حتّى وقَعَ عليها وقَتَل النَّفْسَ، فاجتَنِبوا الخمرَ فإنّها والله لا يجتمعُ الإيمانُ وإدمانُ الخمرِ إلّا ليوشِكُ أن يُخرِجَ أحدُهما صاحبَه»[3].

١٣ ـ بَلَغ عُمرَ رضيَ اللهُ عنه أنّ قومًا شَرِبوا الخمرَ بالشَّام وقالوا: هي حلال، فاتَّفقَ رأيُهُ ورأيُ عليٍّ رضيَ اللهُ عنه على أن يُستتابوا فإنْ تابوا وإلّا قُتِلوا؛ لأنّهمُ

---

(١) تفسير ابن كثير.

(٢) البخاري، برقم ٤٦١٩، تفسير القرآن، سورة المائدة.

(٣) النسائي، كتاب الأشربة، باب ٤٤ برقم ٥٦٦٩.

اعتَقَدوا حِلَّها، ومُستَحِلٌّ ما حَرَّم اللهُ كافر»(١).

١٤ ـ ذَكَر النبيُّ ﷺ والصَّحابةُ الكرامُ رضيَ اللهُ عنهم هذه الآيةَ باسم آيةِ تحريم الخمر، وقرَأَ النبيُّ ﷺ القرآنَ من اللهِ تعالى، وأخبرَ أنّ هذه الآيةَ تعني حُرمةَ الخمر، وقَرأَ الصَّحابةُ الكرامُ رضيَ اللهُ عنهم القرآنَ من النبيِّ ﷺ، واعتَبَروا أنّ هذه الآيةَ إعلانٌ لحُرمةِ الخمر، واليومَ وبعدَ مرورِ ألفٍ وأربعِمائةِ عام، لو أنّ أحدًا قَرأَ القرآنَ على أحدِ عامّةِ العلماءِ وأنكَرَ حُرمةَ الخمر، فمن يكونُ على حقٍّ؟ يستطيعُ القارئُ الكريمُ أن يقرِّرَ بنفسِه.

حديثُ الكتابِ المقدَّس عن الخَمْر:

١ ـ الآنَ أمَرَ اللهُ تعالى هارونَ عليه السَّلامُ أنه: «عندَما تذهبُ إلى دارِ العبادةِ ولم تكنْ تواجهُ خطَرَ الموت، فلا تشربِ الخمرَ أبدًا، وهذا الحُكمُ نافذٌ في أولادِك وفي كلِّ الذُّرِّيّةِ التي تَخرُج من أولادِك، ومهمَّتُك هي أن تُخبِرَ النّاسَ بالفَرْقِ بيْنَ الطّاهِرِ والنَّجِس»(٢).

٢ ـ «لا تَدَعِ الخمرَ المتلألئةَ ذات الطَّعم المُنعِش تَخدَعْك؛ لأنّ الخمرَ ـ في نهاية الأمر ـ تَلدَغُك كالثُّعبانِ السَّامِّ، وفيها خِداعٌ للبصَر وجنون، وسوف تتكلَّمُ بكلام الحَمْقى والأغبياء، وعندَما تعودُ إلى رُشدِك سوف يُخجِلُك ما قُلتَ، وسوف

(١) تفسير البحر المحيط وأحكام القرآن للجصاص.

(٢) Now the Lord instructed Aaron, "Never drink wine or strong drink when you go into the Tabernacle, lest you die, and this rule applies to your sons and to all your descendants from generation to generation. Your duties will be to arbitrate for the people, to teach them the difference between what is holy and what is ordinary, what is pure and what is impure. (The Living Bible **1965**: Leviticus: **10**: **8-10**).

تترنَّحُ كمَلّاح أُلقيَ في البحرِ وقد تَعلَّق بعَمُودٍ من الخشِبِ يترنَّح»[١].

٣ ـ «لا تشربِ الخمرَ كثيرًا؛ لأنّ فيها عيوبًا كثيرةً، وأغرِقْ نفسَك بالرُّوح القُدُس بدَلًا من ذلك»[٢].

شربُ الخمرِ حرامٌ:

١ ـ بعضُ النّاس يقولُ: إنّ لفظَ «حرام» لم يَرِدْ في القرآنِ فيما يتَعلَّقُ بالخمر، ولهذا ليس صحيحًا أن نقولَ: إنّ شُربَ الخمر حرام!

ونقولُ لهؤلاء: إنّ القرآنَ الكريمَ لم يَستخدِمْ لفظَ «حرام» فيما يتَعلَّقُ بأكلِ لحوم الأسَد والنَّمِر والكلبِ والحَدَأةِ وغيرِها، فمن يعتقدُ بحُرمةِ أكلِ لحوم الكلابِ والقططِ ـ استدلالًا بالحديثِ الشريف، **عن ابن عَبّاس رضيَ الله عنهما؛ أنّ رسولَ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم نهى عن كلِّ ذي نابٍ من السِّباع، وعن كلِّ ذي مِخلَبٍ من الطَّير، وعن جابرٍ رضي الله عنه، قال: نهى رسولُ الله صلّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم عن أكل الهرّةِ وثمنها**[٣] ـ ما الذي يمنَعُه من الاعتقادِ بحُرمةِ شُربِ الخمرِ استدلالًا بالحديثِ الشَّريف: **«عن ابنِ عُمرَ رضيَ اللهُ عنهما؛ أنّ رسولَ الله صلّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم قال: «كلُّ مُسْكرٍ خمر، وكلُّ مُسْكرٍ حرام»**[٤].

---

(١) Don't let the sparkle and the smooth taste of strong wine deceive you. For in the end it bites like a poisonous serpent, it stings like an adder. You will see hallucinations and have delirium tremens, and you will say foolish, silly things that would embarrass you no end when sober. You will stagger like a sailor tossed at see, clinging to a swaying mast. (The Living Bible **1975**: Proverbs: **23**: **31-34**).

(٢) Don't drink too much wine, for many evils lie along that path, be filled instead with the Holy Spirit, and controlled by him. (The Living Bible **1975**: Ephesians: **5**: **18**).

(٣) مسلم، كتاب الصيد، باب ٣ برقم ٤٩٩٦، وابن ماجه، أبواب الصيد، باب ٢٠ برقم ٣٢٥٠.

(٤) مسلم، كتاب الأشربة، باب ٧ برقم ٥٢١٩.

٢ ـ استَعملَ القرآنُ الكريمُ لفظَ «رِجْس» فيما يتَعلَّقُ بشُربِ الخمر، وهو يعني حرامًا أيضًا[1]، ولهذا فإنّ الخمرَ حرامٌ.

٣ ـ المعنى اللُّغَويُّ للفظِ «رِجْس»: القَذارةُ والغائط، وتناولُ هذه حرامٌ بداهةً، ويَعتقِدُ بحُرمتِه بشكل فِطْريٍّ المسلمُ وغيرُ المسلم على السَّواء، بل ويَنْأَى بنفسِه بعيدًا عنها، ولذا فإنّ تسميةَ شيءٍ بالرِّجْس أشدُّ من قولِك له: حرامٌ.

٤ ـ جاءت حُرمةُ تناولِ لحوم المَيْتة والخِنزيرِ في الآية رقم ١٤٦ من سُورةِ الأنعام ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وبيَّن اللهُ تعالى السَّبَب في هذا: أنّها رِجْسٌ (نَجِسة)، وفي هذه الآيةِ قال اللهُ تعالى عن الخَمرِ: إنها رِجْس، فإذا كان اللهُ تعالى قد حرَّم لحومَ المَيْتة والخِنزيرِ باعتبارِ أنّها رِجْسٌ، فإنّ الخمرَ ـ طبقًا لهذا ـ يكونُ حرامًا؛ لأنّ القرآنَ قال عنها: إنها رِجْسٌ أيضًا.

٥ ـ إنّ كلَّ عملٍ حرامٍ يخشَى الإنسانُ منَ ارتكابِه، تعمَلُ الخمرُ على تيسيرِ القيام به، وبما أنّ سكرةَ الخمرِ يمكنُ أن تكونَ سببًا في ارتكابِ المحرَّم، لهذا تكونُ الخمرُ حرامًا، مثلَما وَرَد من أنّ صحابيًّا قرأَ القرآنَ الكريمَ وهو سكرانُ بطريقةٍ يَلزَمُ منها كُفرُ القارئ، كما أنّ عابدًا ارتكَبَ جريمةَ القتل والزِّنا وهو في سَكْرةِ الخمر (مرَّ الاستشهادُ في هذا الأمر ضمنَ هذه الحاشية).

٦ ـ شاربُ الخمرِ لن يَدخُلَ الجنَّةَ، **عن عبد الله رضيَ اللهُ عنه؛ قال: قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: «ثلاثةٌ لا يَدخُلونَ الجنَّة: العاقُّ لوالدَيه، والمُدمِنُ على الخمر،**

---

(١) «الرجس: القذر ـ ورجس: نجس ـ والرجس قد يعبّر به عن الحرام». لسان العرب لابن منظور.

والمنَّانُ بما أعطى»[١]، والذي لا يَدخُلُ الجنَّةَ هو ذلك الذي يرتكبُ الحرام، ولهذا فإنّ الخمرَ حرام.

٧ ـ ذَكَر اللهُ تعالى عبادةَ الأوثانِ في هذه الآية مقترِنةً بذِكرِ الخمر، وعبادةُ الأوثانِ حرام، ولهذا فإنّ الخمرَ حرامٌ أيضًا.

٨ ـ شربُ الخمرِ عمَلٌ شيطانيٌّ، والشَّيطانُ يُرغِّبُ الإنسانَ في ارتكابِ الحرام، ولذا فإنّ الخمرَ حرام.

٩ ـ المَنْعُ من الصَّلاةِ حرام، وسَكرةُ الخمرِ تمنَعُ من الصَّلاة، ولذا فالخمرُ حرام.

١٠ ـ المَنْعُ من ذِكرِ الله حرامٌ، وسَكْرةُ الخمرِ تجعَلُ الإنسانَ غافلًا عن ذِكرِ الله تعالى، ولهذا فالخمرُ حرام.

١١ ـ الشَّيطانُ يزرَعُ البَغْضاءَ بالخمر، وزَرْعُ البغضاءِ حرام، ولذا فالخمرُ أيضًا حرام.

١٢ ـ الشَّيطانُ يَخلُقُ العداوةَ بيْنَ بني الإنسانِ عن طريقِ الخمر، وزَرْعُ العداوةِ بيْنَ النّاسِ حرامٌ، ولذا فإنّ الخمرَ أيضًا حرامٌ.

١٣ ـ الخَمرُ تُضيِّعُ المالَ، وتضييعُ المالِ حرام، ولهذا فإنّ الخمرَ أيضًا حرام.

١٤ ـ يَنتُجُ عن شربِ الخمرِ أمراضٌ عديدة، مثلَ: تلَيُّفِ الكبِد، وإصابةُ نفسِك بالأمراضِ ـ عَمْدًا ـ حرامٌ، ولذا فالخمرُ أيضًا حرام.

١٥ ـ العقلُ يميِّزُ الإنسانَ عن الحيَوان، والإنسانُ يصبحُ حيَوانًا في سَكْرةِ الخمر، والشيءُ الذي يُحيلُ الإنسانَ حيَوانًا إنْ لم نقُلْ: إنه حرامٌ فماذا نقولُ إذًا؟

---

(١) النسائي، كتاب الزكاة، باب ٦٩ برقم ٢٥٦٣.

١٦ ـ العقلُ يُنقِذُ الإنسانَ من الحرام، لكنّ الخمرَ تُضيعُ العقلَ، ولهذا فإنّ الخمرَ حرام.

١٧ ـ وَرَد الأمرُ باجتنابِ الخمر، وما يجبُ اجتنابُه يَحرُمُ ارتكابُه.

١٨ ـ الفلاحُ في الدُّنيا والآخِرة يكمُنُ في اجتنابِ الخمر، وهذا يعني أنّ في معاقرةِ الخمرِ الفشَلَ في الدُّنيا والآخِرة، والشّيءُ الذي يؤدِّي إلى الفشَل في الدُّنيا والآخِرة حرامٌ.

١٩ ـ يَهذي الإنسانُ وهو في حالةِ السُّكرِ بأسرارٍ قد تجعَلُ حياتَه في خَطَر، والشيءُ الذي قد يجعَلُ الحياةَ في خَطَر إن لم نقُلْ: إنه حرام، فماذا نقولُ إذًا؟

٢٠ ـ جاء في الكتابِ المقدَّس: «إنّ سَكْرةَ الخمرِ تؤدِّي إلى الحماقةِ والغباءِ والجنون، وهي في النِّهاية تَلْدغُ الإنسانَ كالثُّعبان السامِّ»[1]، والاقترابُ من الثُّعبانِ السامِّ حرام، ولهذا فإنّ مقاربةَ الخمرِ حرامٌ أيضًا.

٢١ ـ وباختصار، فإنّ الأشياءَ التي قال عنها اللهُ تعالى: إنها نَجَسٌ ورِجْسٌ وعَملٌ شيطانيٌّ، وأمَرَ باجتنابِها، إن كانت هذه الأشياءُ حلالًا فما هي الأشياءُ الحرامُ إذًا؟

ملحوظة: لمزيدٍ من التفصيل عن الخمرِ راجع الحاشيةَ رقم ١٧٨ للآية رقم ٢١٩ من سُورة البقرة.

عقابُ شاربِ الخمر

لم يكنْ هناك عقابٌ محدَّدٌ لشاربِ الخمرِ في عهدِ رسولِ الله ﷺ، ومَن كان يرتكبُ هذا الجُرمَ كان يُضرَبُ بالأحذِية والعِصيِّ والأيدي[2]، ولكنْ ذاتَ

---

(١) الكتاب المقدس الحي: الأمثال: ٢٣: ٣١ – ٣٤.

(٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: إن الشّرّاب كانوا يضربون في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالأيدي والنّعال والعصي: تفسير القرطبي.

مرّةٍ جيءَ بشاربِ خمرٍ إلى رسولِ الله ﷺ فجَلَده أربعينَ جلدةً، **عن أنسِ بن مالكٍ رضيَ اللهُ عنه؛ أنّ النّبيَّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلم أُتيَ برجلٍ قد شربَ الخمرَ فجَلَده بجَريدَتيْنِ نحوَ أربعين**[1]. وبعدَ انتقالِ النبيِّ ﷺ إلى الرَّفيقِ الأعلى كان شاربُ الخمرِ يُجلَدُ أربعينَ جَلْدةً. **عن أنسِ بن مالكٍ رضي اللهُ عنه؛ أنّ النّبيَّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم ضَربَ في الخمرِ بالجَريدِ والنِّعال، وجَلَد أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنه أربعينَ»**[2].

وفي بدايةِ عهدِ سيِّدِنا عُمرَ رضيَ اللهُ عنه، كان العقابُ بأربعينَ جَلدةً قائمًا، ثم إنه حينَ رأى أنّ النّاسَ لا يَرجِعونَ عن شربِ الخمر، وأنّ مفاسدَه في زيادةٍ مستمرَّةٍ استشارَ الصَّحابةَ الكرامَ رضيَ اللهُ عنهم وجَعَلَها ثمانينَ جَلدةً: **عن السائبِ بن يزيدَ رضيَ اللهُ عنه، قال: كنّا نُؤتَى بالشّاربِ على عهدِ رسولِ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم وإمْرةِ أبي بكرٍ وصَدْرًا من خلافةِ عُمرَ رضيَ اللهُ عنه، فنقومُ إليه بأيدينا ونِعالِنا وأَرْدِيتِنا، حتّى كان آخرُ إمرةِ عُمرَ رضيَ الله عنهُ فجَلَد أربعينَ، حتّى إذا عَتَوْا وفَسَقوا جلدَ ثمانينَ**[3].

وجاء في بيانِ سببِ ذلك: أنّ شاربَ الخمرِ حينَ تَطغَى عليه السَّكرةُ فإنه يَهْذي، ويُلقي بالتُّهَم جُزافًا، وعقوبةُ هذه ـ في القرآنِ الكريم ـ ثمانونَ جَلْدةً، ولهذا يُجلَدُ شاربُ الخمرِ أيضًا ثمانينَ جَلْدةً[4].

---

(١) مسلم، كتاب الحدود، باب ٨ برقم ٤٤٥٢.

(٢) البخاري، كتاب الحدود، باب ٢ برقم ٦٧٧٣.

(٣) البخاري، كتاب الحدود، باب ٤ برقم ٦٧٧٩.

(٤) «إذا شرب سكر، وإذا سكر هذى، وإذا هذى افترى، وعلى المفتري ثمانون جلدة». تفسير القرطبي وتفسير المنار.

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾

١٢٧ ـ يعني: أنّ الأحكامَ التي أَنْزلَها اللهُ تعالى في القرآنِ الكريم، أو التي أشار إليها النبيُّ ﷺ في الأحاديثِ الشَّريفة، عليكم أن تتجنَّبوا عِصيانَها ومخالفَتها، ففي هذا خيرُكم، وإنْ لم تَحتاطوا لهذا الأمرِ وعَصَيْتُم هذه الأحكامَ، فتذكَّروا أن مهمَّةَ النبيِّ ﷺ هي التبليغ، وأنه قد أدَّى هذه المُهمَّةَ بكلِّ أمانة، ولم يَعُدْ لكم عُذرٌ في أيِّ مخالفةٍ ترتكبونَها.

﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ ﴾

١٢٨ ـ حينَ نَزَلت حُرمةُ شربِ الخمرِ أصابَ القَلَقُ الصَّحابةَ الكرامَ رضيَ اللهُ عنهم فيما يتَعلَّقُ بمَن مات منهم قَبْلًا، فسألوا رسولَ الله ﷺ: **يا رسولَ الله، كيف بإخوانِنا الذين ماتوا وهم يشربونَها؟ فَنزَلت: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ ﴾[1] إلى آخرِ الآية**[2]؛ لأنَ شربَ الخمرِ لم يكنْ ذنبًا في ذلك الوقت، لهذا لم يكونوا عُصاةً، وإنّما كانوا أهلَ إيمانٍ وأهل تقوى، وقال النبيُّ ﷺ عنهم: «**لو حُرِّم عليهم لترَكوهُ كما ترَكتمْ**»[3].

كما أنّ في هذه الآيةِ تَسْرِيةً عن الصَّحابةِ الكرام رضيَ اللهُ عنهم بأنّ المسلمَ الذي كان يشربُ الخمرَ قبْلَ نزولِ هذا الحُكم فلا خوفٌ عليه، وليس في حاجةٍ إلى أن يحزنَ، لأنه كان مسموحًا بها من قَبْلُ، لكنّ من يشرَبُها بعدَ نزولِ الحُكم فسوف يؤاخَذُ على ذلك، ومن يتُبْ إلى الله ويتَّخِذْ من التقوى والإحسانِ له طريقًا فلن

(١) أي قبل أن تنزل هذه الأحكام.

(٢) مسند أحمد، ١: ٢٣٤.

(٣) سبق تخريجه.

يؤاخَذَ على ما سَبَق من شُربِه الخمرَ، بل إنّ اللهَ تعالى سيُحبُّه بفَضْلِ تقواهُ وتوبتِه وأعمالِه الصَّالحة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

١٢٩ ـ كان العربُ مُغرَمينَ بالصَّيدِ خاصّةً؛ لأنّ معظمَهم كان يعيشُ على صَيْدِ الحيَوانَاتِ والطُّيور، ولكنْ حينَ مَنَعَهم اللهُ تعالى من الصَّيدِ ـ حالَ إحرامِهم ـ كان ذلك بمثابةِ مرحلةِ ابتلاءٍ شديدٍ لهم، وخاصّةً في حالةِ وَفْرةِ الصَّيد، وسهولةِ صَيْدِهِ والإمساكِ به، وأهلُ الإيمان يُبتَلَوْنَ بهذا الحُكم، حتى يَعلَمَ النّاسُ من يتّقي اللهَ فلا يصطاد، ومَن يعصي اللهَ فيستحِقُّ العذابَ الأليم، كما أنّ تجنُّبَ الصَّيدِ الحلالِ بشكلٍ مؤقَّت يقوِّي مَلَكةَ التحكُّم في النفْسِ داخلَ الإنسان، وهي التي تساعدُه في نهايةِ الأمر على اجتنابِ ما حرَّم اللهُ.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦ ﴾

١٣٠ - الصَّيدُ ممنوعٌ في حالةِ الإحرام، ولكنْ إذا اصطادَ إنسانٌ في حالةِ الإحرام، عامدًا متعمِّدًا، وقَتَل صَيْدًا، فإنّ جزاءه أنْ يُنفِّذَ واحدًا من الطُّرق الثلاثةِ التالية:

١ - أن يُقيِّمَ اثنانِ من ثقاتِ النّاس من تلك المنطقةِ التي اصطادَ فيها ثمنَ الحيَوانِ الذي اصطادَه، ثم يَشتريَ الصائدُ حيَوانًا آخَرَ بالقيمةِ نفسِها ويَذبَحه في الحَرَم، ويَقسِمَ لحمَه على الفقراء.

٢ - أو يَشتريَ بالقيمةِ نفسِها غِلالًا، فيشتريَ بحسابِ الفردِ الواحدِ كيلو جرامَيْنِ من القمح أو أربعةَ كيلواتٍ من التَّمر، ويَقسِمَها بينَ المساكينِ في تلك المنطقة أو في الحَرَم الشَّريف.

٣ - أو يَشتريَ بالقيمةِ نفسِها بحسابِ الفردِ الواحدِ كيلو جرامَيْنِ من القمح، ثم يَصومَ من الأيام نفسَ عددِ المساكينِ الذين سيُوزَّعُ عليهم القمحَ، بمعنى: أنه إذا كانت القيمةُ المحدَّدةُ يمكنُ أن تشتريَ عشَرة كيلو جراماتٍ من القمح، وهذه العشَرةُ كيلو جراماتٍ من القمح ستُوزَّعُ على خمسةِ مساكين، لهذا يمكنُه إمّا تقسيمُ القمح على خمسةِ مساكينَ أو صيامُ خمسةِ أيام.

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُ﴾

١٣١ - قبلَ أن ينزلَ هذا الحُكمُ كان الذي يصطادُ في حالةِ الإحرام يَعْفو اللهُ تعالى عنه، لكنْ بعدَ نزولِ الحُكم، منِ اصطاد في حالةِ الإحرام عليه أن يتُوبَ، ويُكفِّرَ عن فَعْلتِه بواحدةٍ من الطُّرقِ الثلاثةِ سابقةِ الذِّكر، وإن لم يفعَلْ ذلك فسوف ينتقمُ اللهُ تعالى منه ويَبتليهِ بالعذابِ يومَ القيامة.

ملحوظة: الحيَواناتُ المؤْذِيةُ الضارَّةُ مثلَ: الثُّعبانِ والعقربِ والكلبِ المسعورِ وغيرِها يجوزُ قتلُها في الحِلِّ والحَرَم؛ لأنّ هذه الحيَواناتِ تمثِّلُ خطَرًا على حياةِ الإنسان، والحفاظُ على الحياةِ فَرْض.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾

١٣٢ ـ يذهبُ الإنسانُ إلى الحجِّ والعُمرةِ حتى يقضيَ أيامًا معيَّنةَ في ذِكرِ الله تعالى فقطْ، ولهذا يُمنَعُ من كلِّ ما يمكنُ أن يكونَ عقَبةً في طريقِ ذِكرِ اللهِ تعالى، ومن ذلك: الصَّيدُ، وقد مَنَع اللهُ تعالى من صَيْدِ البَرِّ في حالةِ الإحرام؛ لأنه كانت هناك فُرَصٌ كثيرةٌ لممارستِه، لكنّه تعالى أجازَ صَيْدَ البحرِ في هذه الحالة لأنّ فُرَصَ ممارستِه قليلةٌ للغاية، إذْ إنّه لا وجودَ لنهَرٍ أو ما شابَهَ في حدودِ الحَرَم بحيث يمكنُ الصَّيدُ فيه، لكنّ أولئك الذين يأتُونَ إلى مكّةَ عن طريقِ البحرِ تتيسَّرُ لهم فُرَصُ الصَّيدِ في البحرِ لفترةٍ وجيزةٍ بعدَ الإحرام، وفي بعضِ الأحيان ينتهي زادُ الطَّريق منهم وهم في البحر، وبالتالي يكونُ الصَّيدُ ضرورةً مُلِحّةً لهم، ومن هنا سَمَح اللهُ تعالى لهؤلاء بصَيْدِ البحرِ حتى يُمكنَهم الاستفادةُ منه.

في آخر هذه الآيةِ جاء الأمرُ بالتَّقوى، يعني: تجَنَّبوا مخالفةَ أحكام اللهِ تعالى، لأنّنا جميعًا سنَمثُلُ في حضرتِه ذاتَ يوم، حيث يَميزُ الخبيثَ من الطِّيب، والغَثَّ من السَّمين.

ملحوظة: صيدُ البرِّ حرامٌ في حالةِ الإحرام فقطْ، وجائزٌ بعدَ حِلِّ الإحرام، أمّا صيدُ البحرِ فحلالٌ في كلِّ حال، سواءٌ في حالةِ الإحرام أم في غيرِها، وصيدُ الحَرَم محرَّمٌ في كلِّ حال، سواءٌ في حالةِ الإحرام أم في غيرِها؛ لأنّ الحيَواناتِ التي تعيشُ في كَنفِ الحَرَم لها الأمانُ من الله تعالى.

﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ﴾

١٣٣ ـ ذَكَر اللهُ تعالى ـ في هذه الآية ـ أربعةَ أشياءَ؛ الشيءُ الأولُ هو: الكعبة، البيتُ المقدَّس، والشيءُ الثاني: الأشهُرُ الحُرُم الأربعةُ، وهي: رجَبٌ وذو القَعْدة وذو الحِجَّةِ ومحرَّمٌ (يسافرُ الناسُ للحجِّ في ذي القَعْدة وذي الحِجَّة، ويعودونَ في المحرَّم، ويسافرونَ للعُمرةِ في رجَب)، والشيءُ الثالثُ هو: حيَواناتُ الأُضْحيةِ (الهَدْيُ) التي كان الحُجَّاجُ يصطحبونَها معَهم إلى الحَرَم الشَّريف، والشيءُ الرابعُ: هو تلك الحيَواناتُ التي كان الحُجَّاجُ يصطَحبِونَها معَهم لذَبْحِها في الحَرَم الشَّريف، وكانوا يُعلِّقونَ في رقابِها علاماتٍ (القلائدَ) على أنها للتَّضحية.

وقد كرَّم اللهُ تعالى هذه الأشياءَ الأربعةَ ومَنَحَها مكانةً خاصّةً، أي: جَعَل هذه الأشياءَ سببًا في أمنِ النّاسِ وأمانِهم وسَلامتِهم وحمايتِهم وبقائهم وكَسْبِ معاشِهم، كما أنه تعالى رَبَطَها بكثيرٍ من المعاملاتِ الدِّينيَّة والدُّنيويَّةِ الأُخرى.

كان أكثرُ العربِ فقراءَ، وكانوا مقسَّمينَ في قبائلَ مختلفةٍ، وكانت كلُّ قبيلةٍ في حروبٍ معَ القبائلِ الأخرى في الغالب، وكانوا يَنْهَبونَ القوافلَ التِّجاريةَ، ولم تكنْ هناك حكومةٌ ولا قانون، وكان الانفلاتُ الأَمْنيُّ والخوفُ والرُّعبُ منتشرًا في كلِّ مكان، فإذا بقيَ الحالُ هكذا العامَ كلَّه فإنّ القبائلَ الضَّعيفةَ كانت تُطحَنُ في رَحَى الظُّلم، ويموتُ الفقراءُ جوعًا، لكنّ اللهَ تعالى، الذي يَعلَمُ كلَّ شيءٍ في الأرضِ وفي السَّماء، أكرَمَ العربَ، وزَرَع في قلوبِهم احترامَ الكعبةِ والأشهُرِ الحُرُم وحيَواناتِ الأضاحي، ممَّا جَعَلَهم يمتنِعونَ لرُبع السَّنة كلِّها، أي: لأربعةِ أشهرٍ كاملة، عن النَّهبِ والسَّلبِ والقتل، وهكذا كانتِ القوافلُ التِّجاريةُ في البلادِ كلِّها تسافرُ في أمنٍ وأمان، ويعمَلُ الفقراءُ على كَسْب معيشتِهم وما يكفيهم لباقي شهورِ السَّنةِ عن طريقِ التِّجارةِ خلالَ هذه الأشهُرِ الحُرُم، وكان هناك سوقٌ كبيرٌ

ينعقدُ كلَّ عام في الحَرَم الشَّريف، وبهذه الطَّريقة كانت أسبابُ كَسْبِ المعاشِ مُتاحةً للعرب، وكانت حَيواناتُ الأضاحي تصلُ إلى الحَرَم الشَّريف، وتكونُ عَونًا لهؤلاءِ الفقراءِ في هذه المناطقِ التي لا زَرْعَ فيها ولا ماءَ على مواصلةِ الحياة.

كما أنّ اللهَ تعالى قد مَنَح الحَرَمَ الشَّريفَ احترامًا وعزّةً طيلةَ العام، بحيث لو مرَّ مِن هناك قاتلُ الأبِ لا يتعرَّضُ له الابنُ بحالٍ من الأحوال، كما كانت الكعبةُ وسيلةً للحصولِ على سَعادةِ الحَجِّ والعُمرة، وكانت الأشهُرُ الحُرُمُ وسيلَةَ لاصطحابِ حيَواناتِ الأضاحي إلى الحَرَم الشَّريف، وإلّا فإنّ القوافلَ كلَّها كان يتِمُّ نَهْبُها.

﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

١٣٤ ـ يعني: أنّ مَن يَعْصِ اللهَ تعالى فلهُ من اللهِ عذابٌ شديد، ومَن يَتُبْ إلى الله ويُطِعْهُ فإنّ رحمةَ الله واسعةٌ أمامَه، كما أنّه لا داعيَ إلى أن يتَسلَّلَ اليأسُ إلى النفوسِ عندَما نَعرِفُ مدى عذابِ الله تعالى، وإنّما علينا أن نتوبَ إلى اللهِ تعالى بكلِّ إخلاصِ نيَّة، واللهُ تعالى سيَعفُو عنّا، وفي نفسِ الوقت، لا ينبغي أن نتجرَّأ على اللهِ تعالى ونعصيَه عندَما نَعرِفُ مدى رحمتِه الواسعة، وإلّا فإنّ عقابَه شديدٌ للغاية، وباختصار: ينبغي أن يكونَ هناك توازُنٌ جميلٌ من الأملِ في رحمةِ الله من جانب، والخوفِ من عذابِ الله تعالى من جانبٍ آخَرَ، وهذا التَّوازُنُ هو الذي يَجْلو إيمانَ العبدِ ويَخلُقُ الاعتدالَ في أعمالِه.

يقولُ الإمام أبو زهرةَ: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «**لو وُزِن خوفُ المؤمنِ ورجاؤه لَتعادَلا**»[1].

ويقول العَلّامةُ جلالُ الدِّين السُّيوطيُّ في تفسير هذه الآية: «**إنّ أبا بكرٍ الصِّدِّيقَ رضيَ اللهُ عنه حينَ حضَرتْه الوفاةُ قال: ألَمْ ترَ أنّ اللهَ ذَكَر آيةَ الرَّخاء عندَ آيةِ**

---

(١) زهرة التفاسير لأبي زهرة.

الشِّدة، وآيةَ الشِّدة عندَ آيةِ الرَّخاء، ليكونَ المؤمنُ راغبًا راهبًا، لا يتمنَّى على الله غيرَ الحقِّ، ولا يُلقي بيدِه إلى التَّهلُكة»[1].

﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾

١٣٥ ـ كانت مهمّةُ النبيِّ ﷺ هي أن يُبلِّغَ رسالةَ الله تعالى إلى بني الإنسان، وقد أدَّى النبيُّ ﷺ هذه المُهمَّةَ بكلِّ أمانة، والآنَ فإنّ العملَ بهذه الرِّسالةِ من عَدَمِه هو مسئوليَّةُ الإنسان، فمَن لا يعمَلُ بها يجبُ أن يَعلَمَ أنّ اللهَ تعالى مُطَّلعٌ على ظاهرِه وباطنِه، وأقوالِه وأفعالِه، ونفاقِه وإخلاصِه، وبناءً عليه يُثيبُ الإنسانَ ويَأْجُرُه، أو يُعاقبُه ويعذِّبُه، بمعنى: أنّ الذين سيعمَلونَ بالدِّين الذي جاء به سيِّدُنا محمَّدٌ ﷺ سيُفيضُ اللهُ تعالى عليهم برِضاه، ومن ينكرونَه سيُواجهونَ غضَبَ الله تعالى عليهم.

ويمكنُ أن يعنيَ هذا أيضًا: أنّ النبيَّ ﷺ قد أدَّى مهمَّتَه التي كلَّفَه اللهُ تعالى بها على أحسنِ ما يكونُ وبكلِّ أمانة، والآنَ تقَعُ على الأُمّةِ مسئوليَّةُ تبليغ رسالةِ الحقِّ هذه إلى الأجيالِ القادمة دونَ زيادةٍ أو نُقصان، ومَن يحاولْ أن يُخفيَ شيئًا منها فإنّ اللهَ تعالى مُطَّلعٌ على ظاهرِ بني الإنسانِ جميعًا وعلى باطنِهم أيضًا، وسوف يعاقبُهم اللهُ تعالى ويُثيبُهم تِبْعًا لنيَّاتِهم.

﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ﴾

١٣٦ ـ الأشياءُ الخبيثةُ أيضًا موجودةٌ في الدُّنيا بكثرة، فلو أنّ الإنسانَ تأثَّرَ بكثرتِها واعتبَرَها طيِّبةً، أو أُعجِبَ بها لجمالِها الظاهريِّ، فليس معنى هذا أنّ الأشياءَ الخبيثةَ أصبحتْ طيِّبة، وإنّما مثلَما لا يستوي الخيرُ والشَّرُّ والنُّورُ والظَّلامُ والعالِمُ والجاهلُ وأهلُ الجنَّة وأهلُ النّار، كذلك لا يمكنُ أن يستويَ الخبيثُ والطيِّبُ أبدًا.

---

(١) تفسير الدر المنثور.

وباختصار: لا دَخْلَ لحُبِّ الإنسانِ أو بُغضِه في كونِ الشيءِ طيِّبًا أو خبيثًا، كما أنّ كثرةَ الشيءِ لا تُثبِتُ أنه طيِّب، والحقيقةُ أنّ الشيءَ الطيِّبَ هو الشّيءُ الذي يحبُّه اللهُ تعالى، حتّى ولو كان قليلًا للغاية، والشّيءُ الخَبيثُ والسيِّئُ أيضًا هو ذلك الشّيءُ الذي لا يُحبُّه اللهُ تعالى، حتّى وإن كان في غايةِ الكثرة؛ لأنّ اللهَ تعالى يَعلَمُ تمامًا كلًّا من خاصيّةِ الأشياءِ وحاجةِ الإنسان أيضًا، وهو يحبُّ للإنسانِ كلَّ ما يفيدُه، ولهذا على أهلِ العقولِ أن يتّقوا اللهَ دائمًا ويخافوه، ويُجنِّبوا أنفُسَهم كلَّ خبيث، ويرتبطوا بكلِّ ما هو طيِّب، حتّى يستحِقُّوا فلاحَ الدّارَيْنِ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ۝١٠١ قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ۝١٠٢ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ۝١٠٣ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ۝١٠٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝١٠٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ۝١٠٦ فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠٧ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝١٠٨﴾

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾

١٣٧ ـ كان بعضُ النّاسِ يسألونَ النبيَّ ﷺ أسئلةً عجيبةً وغريبة، وهو ما كان يُثقِلُ على النبيِّ ﷺ، وقد مَنَع اللهُ تعالى من مِثلِ هذه الأسئلة، وعلى سبيل المثال:

١ ـ كان بعضُ النّاسِ يسألونَ النبيَّ ﷺ على سبيل السُّخْرِية: **فعن ابن عباسٍ، رضيَ الله عنهما، قال: كان قومٌ يسألونَ رسولَ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم استهزاءً، فيقولُ الرّجُل: من أبي؟ ويقول الرّجُلُ تَضِلُّ ناقتُه: أين ناقتي؟ فأَنْزلَ اللهُ فيهم هذه الآيةَ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾**(١). بينَما كان احترامُ الصَّحابةِ الكرام للحَضْرة النَّبويَّةِ مَضرِبًا للمثَل، ولهذا لا يمكنُ أن نتوقَّعَ أن يسألَ أحدُهم مثلَ هذه الأسئلةِ، فإذا كان وَقعَ مِثلُ هذا دونَ عِلم أو بغيرِ قَصْدٍ فهذا أمرٌ آخَر، لكنّ المنافقينَ في ذلك الوقت كانوا يُعَدُّونَ مسلمينَ ظاهرًا، ولهذا فإنِّي أعتقدُ أنّ مِثلَ هذه التصرُّفاتِ كان يقومُ بها هؤلاءِ المنافقون، وكانوا هم المحرِّكَ لها.

٢ ـ يقول سيِّدُنا أنسٌ رضيَ اللهُ عنه: **إنّ النّاسَ سألوا نبيَّ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم حتّى أحْفَوهُ بالمسألة، فَخَرج ذاتَ يوم فصَعِد المِنبرَ، فقال: «سَلُوني، لا تسألوني عن شيءٍ إلّا بيَّنتُه لكم»، قال أنسٌ رضيَ اللهُ عنه: فجَعلتُ ألتفِتُ يمينًا وشمالًا، فإذا كلُّ رجُلٍ لافٌّ رأسَه في ثوبِه يبكي، فأنشأَ رجلٌ من المسجد، كان يُلاحى فيُدعى لغيرِ أبيه، فقال: يا نبيَّ الله! من أبي؟ قال: «أبوك حُذافةُ»**(٢). وهكذا لم يقُل النبيُّ ﷺ إنّ مِثلَ هذا السؤالِ خارجٌ عن عِلمي، وإنّما أجابَ مُظهِرًا العِلمَ الواسعَ الذي مَنَحه اللهُ إياه.

٣ ـ يقولُ سيِّدُنا أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنه: **«خَطَبَنا رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم فقال: «أيُّها الناسُ! قد فُرِضَ عليكم الحَجُّ فحُجُّوا»، فقال رجلٌ: أكلَّ**

(١) البخاري، تفسير القرآن، سورة المائدة.

(٢) مسلم، كتاب الفضائل، باب ٣٧ برقم ٦١٢٣.

عامٍ يا رسولَ الله؟ فسَكتَ، حتّى قالَها ثلاثًا، فقال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلم: «لو قلتُ: نعَمْ، لَوجَبَتْ ولَما استطعتُم»(١).

والنبيُّ يقالُ لذلك: الإنسانِ الذي يُنْبِئُهُ اللهُ تعالى بخبرِ الغَيْبِ والمستقبَل(٢)، ولهذا لا تَسألوا في حَضْرتِه عن أشياءَ يسبِّبُ إظهارُها مشاكلَ لكم فتَندموا بعدَها قائلين: ليتَنا لم نَسألْ مِثلَ هذا السؤالِ لَكان أفضَلَ لنا.

وعلى سَبيل المثال: سَألَ سيِّدُنا عبدُ الله بنُ حُذافةَ رضيَ الله عنه: من يكونُ أبوه؟ فلو كان أبوه ـ لا قَدَّر اللهُ ـ ليس حُذافةَ، وكان رجُلًا آخَرَ، لكان العارُ أصابَه، وتلوَّثتْ سُمعةُ أُمِّه أيضًا، وبنفسِ الطريقة، ذلك الشَّخصُ الذي سَألَ: هل الحجُّ فَرْضٌ كلَّ عام؟ لو أنّ النبيَّ ﷺ أجابَ بنَعَم، لَفُرِضَ الحجُّ على النّاسِ كلَّ عام، ولَأصابَ المسلمينَ عناءٌ شديدٌ بسببِ هذا السُّؤال، ولهذا قال النبيُّ ﷺ **«إنّ اللهَ فَرَضَ فرائضَ فلا تُضيِّعوها، وحَدَّ حدودًا فلا تعتَدوها، ونَهى عن أشياءَ فلا تنتَهِكوها وسَكَت عن أشياءَ رُخصةً لكم ليس بنسيانٍ فلا تَبحَثوا عنها»**(٣).

ولا يعني هذا ـ أبدًا ـ أنْ لا يُسألَ النبيُّ ﷺ أبدًا، وإنّما يجوزُ الاستفسارُ منه ﷺ عن حُكم شيءٍ ما، أو توضيح حُكم ما، أو تأكيدِ شيءٍ فيه شكٌّ مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، وقال النبيُّ ﷺ: **«إنّما شفاءُ العَيِّ السُّؤالُ»**(٤)، وهناك إشارةٌ إلى هذا الجانبِ أيضًا في الجزءِ الأخيرِ من هذه الآية التي نحن بصدَدِ

---

(١) مسلم، كتاب الحج، باب ٧٣ برقم ٣٢٥٧.

(٢) المخبر عن الغيب أو المستقبل بإلهامٍ من الله. المنجد.

(٣) السنن الكبرى للبيهقي، ١٠: ١٢، كتاب الضحايا، باب ما لم يذكر تحريمه.

(٤) سنن أبي داود، كتاب الطهارة، باب ١٢٥ برقم ٣٣٦.

تفسيرِها ﴿وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾، بمعنى: أن اسألوا عندَ نزولِ القرآنِ عن الحُكم المجمَل أو الذي لم تَفْهَموه، وذلك حتى يتَّضِحَ لكم.

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا﴾

١٣٨ ـ يعني: أنَ اللهَ تعالى قد عَفَا عن خطأكم الذي ارتكبتُموه قبلَ نزولِ هذا الحُكم بسؤالِكمُ النبيَّ ﷺ أسئلةً لا هدفَ من ورائها، وما سبَّبتُموه بذلك من إيذاءٍ للنبيِّ ﷺ في وقتِها، ولكنْ لا تَسألوا مثلَ هذه الأسئلةِ التّافهةِ مستقبَلًا، فإنّ ذلك يُثقِلُ على النبيِّ ﷺ، وذاتُ النبيِّ ﷺ أرفعُ وأعلى من مِثلِ هذا، بل وينبغي للمسلم ألّا يسألَ أيَّ إنسانٍ ـ مهما كان عاديًا ـ مثلَ هذه الأسئلةِ التّافهة، ولا يتكلَّمَ معه بمِثلِ هذا الحديثِ الذي لا مَقصِدَ من ورائه، والذي يسبِّبُ إيذاءً للنفس، ولهذا قال النبيُّ ﷺ فيما رواه سيِّدُنا أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنه: «**مِن حُسن إسلام المرْءِ تَرْكُه ما لا يَعْنيه**»[١].

﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَـٰفِرِينَ﴾

١٣٩ ـ يعني: أنّ بعضَ الأُمم من قبلِكم كانوا يسألونَ الأنبياءَ الكرامَ عليهمُ السَّلامُ أسئلةً لا داعيَ لها، وعندَما كان اللهُ تعالى يجيبُهم عن أسئلتِهم كاملةً فإنّهم كانوا يستمرُّونَ في كُفرِهم بدَلًا من الإيمانِ بأولئك الرسُل، وبدَلًا من أن يعمَلوا بالأحكام الإلهيَّة فإنّهم كانوا يَركَنُونَ إلى التساهُل والتكاسُل، مثلَما سألَ قومُ سيِّدِنا صالح عليه السَّلامُ عن الناقة، وعندَما جاءتِ الناقةُ قام هؤلاءِ الظَّالمونَ بإهلاكِها، وقد أهلَكَهم اللهُ تعالى عقابًا لهم على فعلِهم هذا: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ

---

(١) الترمذي، أبواب الزهد، باب ١١ برقم ٢٣١٧.

مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ۞ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۞ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٣-٧٨]، وقد نبَّه اللهُ تعالى المسلمينَ في هذه الآية إلى أن لا يَسيروا على نَهْج الأُمم السَّابقةِ في أسئلتِهم، وقد قال النبيُّ ﷺ: **«ما نهَيْتُكم عنه فاجتَنِبوه وما أمرتُكم به فافعَلوا منه ما استطعتُم، فإنّما أهلَكَ الّذين مِن قبلِكم كثرةُ مسائلِهم واختلافُهم على أنبيائهم»**[1].

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾

١٤٠ ـ جاء في هذه الآيةِ ذكرُ الحيَواناتِ التي كان أهلُ الجزيرةِ العربيَّة يقدِّمونَها نُذورًا لأصنامِهم، وحَرَّموا على أنفُسِهم الاستفادةَ منها بشيءٍ، وقد فُسِّرت هذه الحيَواناتُ تفسيراتٍ عديدةً:

(١) البَحِيرة:

تقالُ لتلك: النّاقةِ التي وَلَدتْ خمسًا، فإن كان آخِرُ مواليدِها ذَكَرًا فإنّهم كانوا يَشُقُّونَ أُذنَها ويُطلقِونَها حُرَّةً، ويُحرِّمونَ ركوبَها أو ذَبْحَها على أنفُسِهم، وكلُّ حقلٍ دَخَلتْه هذه النّاقةُ كان النّاسُ يحترمونَها، ولم يكن أحدٌ يوقفُها.

(٢) السّائبة:

عندما كان أحدُ النّاسِ يَخرُجُ في سَفَر، فإنه كان يَنذِرُ إنْ عاد إلى بيتِه سالمًا،

---

(١) مسلم، كتاب الفضائل، باب ٣٧ برقم ٦١١٣.

أو شُفِي من مرضٍ ألمَّ به، فسوف تكونُ الناقةُ كذا سائبةً، ويُصبحُ من المحرَّم على الجميع لَبنُها ولحومُها والرُّكوبُ عليها.

(٣) الوَصِيلة:

إذا وَلَدتْ شاتُه أُنثى احتَفظَ بها لنفسِه، وإذا وَلَدت ذَكَرًا أوْقفَه على الأصنام، فإذا وَلَدت ذَكَرًا وأُنثى معًا دفعةً واحدةً فإنه عندَئذٍ يوقَفُ الذَّكرُ والأُنثى معًا للأصنام، وهكذا يُطلَقُ على الشّاةِ الموقوفةِ على الأصنام اسمُ: الوَصِيلة.

(٤) الحام:

هي: الجَمَلُ الذي يولَدُ من نُطفتِه عشَرةٌ صِغارٌ، وفي هذه الحالة يَحرُمُ الرُّكوبُ عليه وما إلى ذلك، ويُسمَّى عندَئذٍ: حامًا.

وقد أحَلَّ اللهُ تعالى لحومَ الحيَواناتِ المذكورةِ وألبانَها، لكنّ الكفَّارَ حرَّموها على أنفُسِهم بأفكارٍ اختَرعوها من عندِ أنفُسِهم، وادَّعوْا أنّ اللهَ تعالى حرَّم هذه الحيَواناتِ، في حينَ أنّ هذا الكلام كلُّه كذبٌ مَحْضٌ وافتراءٌ كاملٌ على الله تعالى، فقد خَلَق اللهُ تعالى الحيَواناتِ لخِدمةِ الإنسان، والحقيقةُ أنّ هؤلاءِ النّاسَ حَمْقَى، ويُحرِّمونَ الحلالَ بغيرِ سببٍ فيُضَيِّعون النِّعَم، ويَحرِمونَ أنفُسَهم من الاستفادةِ منها.

ملحوظة: الحيَواناتُ المذكورةُ حلالٌ في الأصل، وعندما تَؤُولُ هذه الحيَواناتُ إلى المسلمين في شكلِ غنيمةٍ اغتَنَموها، فإنّهم يَذكُرونَ اسمَ الله عليها ويذبَحونَها ويأكُلونَ لحومَها، واشتهارُها بأسماءٍ كالبَحِيرة أو السّائبةِ أو الوَصِيلة أو غيرِها لا يُحَرِّمُها، بشَرْطِ أن لا يكونَ هدفُ من يذبَحُها أو يأمُرُ بذَبْحِها هو عبادةَ غيرِ الله تعالى، وبنفسِ الطَّريقة إذا أُطلِقَ على الحيَوانِ المخصَّص للصَّدقةِ أو العقيقةِ أو الوليمةِ أو الأُضْحيةِ أو لإيصالِ الثوابِ إلى أحدٍ اسمُ أحدِ الوالدَيْنِ أو

المشايخ، ثم ذُبِح باسم الله، فإنّ تناوُلَ لحومِه حلالٌ، ولا قُبْحَ فيه بأيٍّ صورةٍ من الصور، ونحن إذا حرَّمناها لأنّها منسوبةٌ إلى غيرِ الله تعالى فيجبُ أن تكونَ الوَصِيلةُ والبَحِيرةُ وغيرُهما حرامًا أيضًا، في حينَ أنّ اللهَ تعالى حَلَّل كلَّ هذا، ولهذا يجبُ على أهل الإسلام التفكيرُ بعَقْلانيَّة، وأن لا يُحرِّموا الحيَواناتِ التي حَلَّلها الله تعالى ويَجتَنِبوا تناولَها.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾

١٤١ ـ كان الكفَّارُ حينَ يُدْعَوْنَ إلى تَرْكِ عبادةِ الأصنام وإطاعةِ اللهِ تعالى والقرآنِ الكريم والرَّسولِ ﷺ يقولونَ: إنّنا لسنا في حاجةٍ إلى إرشادِكم، ويكفينا ذلك الطَّريقُ الذي كان آباؤنا وأجدادُنا يَسيرونَ عليه، ونحن سوف نُقلِّدُ آباءنا وأجدادَنا فقطْ ونتَّبِعُهم، وإذا قُبِلَ أحدُهم من سُعداءِ الطَّالع الحقَّ ودَخَلَ في الإسلام فإنّ الكفَّارَ كانوا يُمطِرونَه بالسُّباب، ويُعايرونَه بأنك قدِ اعتبَرتَ آباءك وأجدادَك أغبياءَ حَمْقى، وتخلَّيتَ عن طريقهِم إلى طريقٍ آخَر، وعليه قال اللهُ تعالى بأنه لو كان آباؤهم وأجدادُهم جُهَلاءَ ضالِّينَ، أكانوا يتَّبِعونَ آباءهم وأجدادَهم أيضًا؟ بمعنى: أنّهم يتَّبِعونَ آباءهم وأجدادَهم إنْ كانوا أهلَ عِلم وأهلَ هداية، لكن إن كان أسلافُهم أهلَ ضَلالٍ فإنّ اتِّباعَهم لن يؤدِّي إلّا إلى الضَّلال أيضًا.

ويُعلَمُ من هذا أيضًا أنّه لم يكنْ لدى الكفَّارِ تبريرٌ أو دليلٌ عَقْليٌّ أو نَقْليٌّ يعتمدونَ عليه في بقائهم على كُفرِهم سوى اتِّباع آبائهم وأجدادِهم، وهذا ليس بالدَّليل الكافي لإثباتِ صِدقِ أيٍّ نظام من الأنظمة، ولا يمكنُ أن يقتنعَ بهذا الكلام أيُّ صاحبِ عقلٍ أو علِم في هذا العالَم.

في هذه الآيةِ مَنَع اللهُ تعالى منَ اتِّباع الجُهَلاءِ الضالِّينَ وتقليدِهم، حتّى وإن كان هؤلاءِ الجُهَلاءُ الضالُّونَ أبا أحدٍ منّا.

وخُلاصةُ القولِ: أنّ الاتِّباعَ والتقليدَ يناسبُ أن يكونَ لأهلِ العِلم والهدايةِ فقطْ، أيًّا كانت القبيلةُ التي ينتمي إليها هؤلاءِ المهتَدونَ؛ لأنّ العالِمَ الصَّحيحَ المهتدي هو الذي تكونُ أقوالُه وأفعالُه مطابِقةً لِما جاء في القرآنِ والسُّنّة، فيكونُ مقلِّدُه ومتَّبِعُه مقلِّدًا ومتَّبِعًا للقرآنِ والسُّنةِ في الأصل.

والمقلِّدونَ للأئمّةِ الأربعةِ (الإمام أبي حنيفةَ والإمام مالكٍ والإمام الشافعيِّ والإمام أحمدَ بن حَنْبلٍ رحمَهمُ اللهُ أجمعين) لا يعمَلونَ بأقوالِهم لأنّهم أئمتُهم، بل يعمَلونَ بأقوالِهم لأنها مَبْنيَّةٌ على دليلٍ ما من القرآنِ والسُّنة، وقد بَلَغ من تقوى هؤلاءِ الأئمَّة وصَلاح نفوسِهم أنّهم قالوا: إنْ خالَفَ قولُنا حديثًا صحيحًا فاترُكوا قولَنا واعمَلوا بالحديثِ فهو مذهبُنا، كما أنّ عِلمَ الرَّجُلِ العاديِّ لا يكونُ واسعًا إلى الدرجةِ التي يستطيعُ معَها استنباطَ المسائل من القرآنِ الكريم والحديثِ الشَّريف، ولهذا يُضْطَرُّ إلى الرُّجوع إلى عالِم عامِل، عالم بالقرآنِ والحديث، حتى يستطيعَ الإنسانُ أن يحقِّقَ هدفَ القرآنِ والسُّنة حين يتَّبِعُه ويُقلِّدُه، وباختصار: فإنّ علينا - قبْلَ أن نتَّخذَ من أحدٍ إمامًا ومُرشِدًا - أن نَنظُرَ جيِّدًا هل لديه العِلمُ الكاملُ بالمقصِدِ الذي تريدُ أن تتَّخِذَه من أَجْلِه إمامًا ومُرشِدًا؟ وإن كان لدَيْهِ العِلمُ الكاملُ فهل يُطابقُ عَمَلُه عِلمَه؟ فإن كان عِلمُه صحيحًا وعمَلُه أيضًا صحيحًا فإنّ تقليدَه واتِّباعَه طريقٌ من طُرُقِ النَّجاةِ.

ملحوظة: يُعلَمُ من هذه الآية أنّ الرُّجوعَ إلى القرآنِ الكريم فقَطْ لا يكفي، وإنّما من الضَّروريِّ أيضًا الرُّجوعُ إلى صاحبِ القرآنِ الكريم النبيِّ ﷺ؛ لأنّ لسانَ النبيِّ ﷺ هو أعظَمُ وسيلةٍ لإثباتِ القرآنِ المَجيد.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾

١٤٢ ـ حاولَ المسلمونَ قَدْرَ استطاعتِهم دعوةَ الكفَّارِ إلى الإسلام، لكنَّهم ظَلُّوا قائمينَ على ضلالِ آبائهم وأجدادِهم وعلى جهالتِهم، فقال اللهُ تعالى: أنْ يا أيُّها المسلمونَ، لقد أدَّيتُم حقَّ تبليغ الرِّسالةِ إليهم، فإنْ كانوا مُصِرِّينَ على الضَّلالِ فلستُم في حاجةٍ إلى أن تَقلَقوا بشأنِهم، عليكم أن تستمرُّوا في إصلاح أنفسِكم والحِفاظِ على إيمانِكم، فإنْ ظَلَلتُم ثابتينَ على الطَّريق الصَّحيح فلن يَضُرَّكم ضلالُ أحدٍ، وفي النِّهاية سيَمثُلُ الجميعُ أمامَ الله تعالى، وهنا سيَرى كلُّ واحدٍ منّا أعمالَه، وسيَسعَدُ الصّالحونَ برؤيةِ حسَناتِهم، وسيُواجِهُ الأشرارُ العذابَ عقابًا على سيِّئاتِهم.

أساء بعضُ النّاسِ فَهْمَ هذه الآية، ففَهِموا منها أنه إذا كان النّاسُ يفعَلونُ السُّوءَ فدَعْهم يفعَلونَه، ولا حاجةَ إلى مَنْعِهم من فعلِ السُّوء، وحينَ بَلَغ هذا الأمرُ سيِّدَنا أبا بكرٍ الصِّدِّيقَ رضيَ اللهُ عنه خَطَب في النّاس موضِّحًا الأمرَ قائلًا: **أيُّها الناس، إنّكم تقرأونَ هذه الآيةَ فتُسيئونَ فَهْمَها، إنّي سمعتُ رسولَ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم يقول: «إنَّ النّاسَ إذا رأَوْا ظالمًا فلم يأخُذوا على يدَيْه أوْشَكَ أنْ يَعُمَّهم اللهُ بعقابٍ منه»**[١]، وعن **هُشَيْمٍ رضيَ اُللهُ عنه، قال: إنّي سمعتُ رسولَ الله صلى اُللهُ عليه وآلِه وسلَّم يقول: «ما مِن قومٍ يُعمَلُ فيهم بالمعاصي ثمّ يَقدِرونَ على أن يُغيِّروا ثمّ لا يُغيِّروا إلّا يوشِكُ أن يَعُمَّهم اللهُ منه بعقاب»**[٢].

وعنِ ابن عُمرَ رضيَ اللهُ عنهما، أنه جاء رجلٌ فقال: نَفَر ستةٌ كلُّهم قرَأَ القرآنَ، وكلُّهم مجتهدٌ لا يَأْلوهم في ذلك يشهَدُ بعضُهم على بعضٍ بالشِّرك، فقال: لعلَّك

---

(١) الترمذي، باب ٥ برقم ٣٠٥٧.

(٢) أبو داود، كتاب الملاحم، باب ١٧ برقم ٤٣٣٨.

تَرى أنّي آمرُكَ أن تذهبَ إليهم تُقاتِلُهم، عِظْهم وانْهَهُم، فإنْ عصَوْكَ فعليكَ نفَسك[1].

إن مسئوليَّةَ كلِّ مسلم هي أن يأمُرَ بالمعروفِ قَدْرَ استطاعتِه، وينهَى كذلك عن المنكَر، لكنْ إن أصبحَ الأمرُ أنّ النّاسَ تحوَّلوا إلى عَبيدٍ لشَهواتِهم، وأخَذوا يَخلُقونَ المشاكلَ والمخاطرَ للدَّاعي، فإنّه عندَئذٍ يجوزُ للداعي أن يهتمَّ بأمرِ نفسِه فقطْ، وأن يترُكَ النّاسَ لحالِهم، مثلَما قال النبيُّ ﷺ: «**ائْتمِروا بالمعروف وتناهَوْا عن المنكَر، حتّى إذا رأيتَ شُحًّا مطاعًا وهوًى متَّبعًا ودُنيا مؤْثَرةً وإعجابَ كلِّ ذي رأيٍ برأيِه، فعليكَ بخاصّةِ نفسِك ودَع العَوامَّ**»[2].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

١٤٣ - جاء ذِكرُ حادثةٍ بعَيْنِها في كتُبِ الحديثِ والتفسير باعتبارِها السببَ في نزولِ هذه الآية، وهذه الحادثةُ كالتالي:

كان هناك مسلمٌ يُدعَى بُدَيْلًا رضيَ الله عنه، ذَهَب إلى الشّام في تجارةٍ معَ اثنينِ من النَّصارى هما تميمٌ وعَدِيٌّ، ولمَّا وَصَل بُدَيْلٌ رضيَ الله عنه إلى الشّام مَرِض فجأةً، فكتَبَ قائمةً بمفرداتِ المتاع وأخفاها فيه، وحين اشتَدَّ عليه المرضُ أوصَى رفيقَيْه النَّصرانيَّيْنِ أنْ أَوْصِلا أمتعتي إلى بيتي بعدَ وفاتي، وهكذا توفِّي

---

(١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور.

(٢) الترمذي، برقم ٣٠٥٨.

بُدَيْلٌ رضيَ اللهُ عنه، وفَتَح تميمٌ وعَدِيٌّ أمتعتَه، وكان فيها كوبٌ من الفضَّة منقوشٌ عليها ومُذَهَّبة، فأَخْرجاها، وأَوْصَلا باقيَ المتاع إلى بيتِ بُدَيْلٍ في المدينةِ حين وَصَلاها، وحينَ فَتَح أهلُ بيتِ بُدَيْل المتاعَ وجَدوا القائمةَ التي كتَبَها بُدَيْل، وطِبقًا للقائمةِ كان الكوبُ المصنوعُ من الفضَّة غيرَ موجود، فسأل أهلُ الميِّت تميمًا وعَدِيًّا إنْ كان ميِّتُهم قد باعَ بعضَ المتاع فأجابا بالنَّفْي، فقال أهلُ الميِّت: إنّ القائمةَ التي عثَروا عليها في المتاع تَدُلُّ على غيابِ كوبٍ من الفضَّه. فأَظْهَر تميمٌ وعَدِيٌّ أنّهما لا يَعرِفانِ عن الكوبِ شيئًا، وهكذا قيل للنبيِّ ﷺ الأمرُ كلُّه، فقام النبيُّ ﷺ باستدعاءِ هذَيْنِ الاثنَيْنِ إلى المسجد بعدَما صلَّى العصرَ، وقال لهما: «إنّ أهلَ الميِّت يَدَّعُونَ أنّكما استَوْليتُما على كوبٍ من الفضَّةِ، فلمّا أنكَرا جعَلَهما النبيُّ ﷺ يُقسِمان، فأَقْسَما أنّهما لا يَعرفانِ شيئًا عن كوبِ الفضَّةِ هذا، وبعدَ مُدّةٍ وُجدِ الكوبُ عندَ صائغ من صاغةِ مكَّةَ المكرَّمة، وهو الذي قال: إنه اشتَرَى هذا الكوبَ من تميمٍ وعَدِيٍّ بألفِ درهم، وهكذا عُرِضَ الأمرُ على رسُولِ الله ﷺ، فادَّعى تميمٌ وعَدِيٌّ أنّهما اشتَريا الكوبَ من بُدَيْلٍ رضيَ اللهُ عنه قبلَ وفاتِه، وهنا انقَلبَ الأمرُ على غيرِ المتوقَّع؛ لأنّ تميمًا وعَدِيًّا الآنَ يَدَّعِيانِ مُلْكيَّةَ الكوب، بينَما أَقْسَما ـ قبلَ ذلك ـ أنّهما لا يَعرِفانِ عنه شيئًا، ولم يكنْ لدَيْهما شاهدٌ على أنّهما اشتَرَيا الكوبَ من بُدَيْل، ولهذا قيل لوَرَثةِ بُدَيْل: أنْ أَقْسِموا على أنّ هذا الكوبَ ليس لهما (تميمٍ وعَدِيٍّ)، وأنّ تميمًا وعَدِيًّا قد خانا، وفَضَح ما قاله الصائغُ خيانتَهما، ولهذا فإنّ شهادتَنا أصدَقُ منهما. وبعدَ أن أَقْسَم ورَثةُ الميِّت رَدَّ قَسَمُ تميمٍ وعَدِيٍّ عليهما، وأخَذ النبيُّ ﷺ منهما ألفَ درهم وأعطاها لوَرَثةِ بُدَيْلٍ رضيَ اللهُ عنه.

وتُعَدُّ هذه الآياتُ الثلاثُ من حيثُ إعرابُها ومعانيها وأحكامُها من أصعبِ الآياتِ في القرآنِ الكريم[1]، وتَدُلُّ هذه الآياتُ على الأحكام التالية:

---

(١) هذه الآيات الثلاث عند أهل المعاني من أشكل ما في القرآن إعرابًا ومعنًى وحكمًا. تفسير القرطبي.

١ ـ حينَ يقتربُ أَجَلُ أيِّ مسلم وأراد أن يُوصِيَ، عليه أن يُوصيَ في وجودِ شاهدَيْنِ مسلمَيْنِ موثوقٍ فيهما، حتى لا يَحدُثَ اختلافٌ فيما بعدُ.

٢ ـ إذا حان موتُ أحدٍ من المسلمينَ أثناءَ سَفَرِه، وأراد أن يُوصيَ، فعليه أيضًا أن يُوصيَ في وجودِ شاهدَيْنِ مسلمَيْنِ موثوقٍ فيهما، لكنْ إن لم يَجِدْ شاهدَيْنِ مسلمَيْنِ في البلادِ الأجنبيَّة التي هو فيها، يمكنُه أن يُوصيَ أمامَ شاهدَيْنِ غيرِ مسلمَيْنِ، ورَغْم أنّ شهادةَ الكافرِ ضدَّ المسلم لا تُقبَل، لكنْ عندَ بعضِ الفقهاءِ: يجوزُ أن يُوصيَ المسلمُ أمامَ شاهدَيْنِ غيرِ مسلمَيْنِ في حالةِ ما لو لم يستطعِ العثورَ على شاهدَيْنِ مُسلمَيْن.

٣ ـ إذا شكَّ وَرثةُ الميِّتِ في أنّ الشاهدَيْنِ يخونانِ، وأنكَرَ الشاهدانِ الخيانةَ، فحينَئذٍ يُقسِمُ هذانِ الشَّاهدانِ في المسجدِ بعدَ الصَّلاة أمامَ النّاس، حيث يُقِرُّ الشَّاهدانِ أنّهما لن يَكذِبا في شهادتِهما لرِشوةٍ أَخَذَاها، ولن يُخفِيا الحقَّ لقرابةٍ من القرابات، وإنّما سيَشهَدانِ بالحقِّ في كلِّ حال، وفي هذه الحالةِ يكونُ الورَثةُ هم المُدَّعِينَ، والشاهدانِ همُ المُنكِرَيْنِ، ولهذا يُقسِمان؛ لأنّه في الإسلام إذا لم يستطعِ المدَّعي تقديمَ شهودٍ فإنّ القَسَم على مَن أنكَر.

٤ ـ إذا ثَبتَ فيما بعدُ أنّ الشاهدَيْنِ قد استَوْلَيا على بعضِ مال الوَرثة بقَسَم كاذب، وادَّعيا أنّ ما أَخذاه حقٌّ لهما (مثلَما استَوْلَى تميمٌ وعَدِيٌّ على الكوبِ الفضِّيِّ وادَّعيا ـ كذبًا ـ أنهما اشتَرياهُ من بُدَيْل)، وفي هذه الحالة يُطلَبُ من المُدَّعيَيْنِ الكاذبَيْنِ أن يقدِّما شهودًا، وفي حالةِ عدَم توفُّرِ الشهودِ يُقسِمُ ورَثةُ الميِّتِ ضدَّ ادِّعائهما، وبناءً على قَسَمِهم يَبطُلُ القَسَمُ الكاذبُ السَّابقُ للشّاهدَيْنِ، ويَصدُرُ الحُكمُ طبقًا لقَسَم الوَرثة؛ لأنّ الشاهدَ الكاذبَ في هذه الحالة هو مدَّعي المُلْكيَّة، والوَرثةُ هم المُنكِرونَ لذلك، ولهذا يُقسِمُ الوَرَثةُ.

﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ ﴾

١٤٤ ـ يعني: أنّ طريقةَ أَخْذِ القَسَم أمامَ النّاس في المسجدِ بعدَ الصَّلاةِ هي الأنسَبُ، إذْ بهذا الشَّكل سيتجنَّبُ الشُّهودُ الكذبَ، ولن يُطالبَ الوَرثةُ بما ليس لهم، وسيَعلَمُ الفريقانِ أنَّهما لو أَقْسَما كذِبًا في بيتِ الله تعالى أمامَ النّاس، وافتُضِحَ أمرُ هذا القَسَم الكاذبِ في الغدِ، فسوف يكونُ هذا عارًا يصيبُهما أمام الملأِ، مثلَ العارِ الذي أصابَ تميمًا وعَدِيًّا.

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ ﴾

١٤٥ ـ سيجمَعُ اللهُ تعالى كلَّ بني الإنسانِ يومَ القيامة ، لكنّ هذه الآيةَ اكتَفَتْ بذِكرِ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ فقطْ؛ لأنّ الأُممَ تُعَدُّ تابعةً لأنبيائها، وسيكونونَ

موجودينَ أيضًا يومَ القيامة معَ أنبيائهم[1]، ولهذا سيَسألُ اللهُ تعالى الأنبياءَ الكرامَ عليهم السَّلامُ أمامَ أتْباعِهم: أنْ ماذا فَعَلتْ أُممُهم ردًّا على دعوتِهِم؟ معَ أنّ اللهَ تعالى يَعلَمُ تمامًا إجابةَ هؤلاءِ الأُمَم، وعليه سيقولُ الأنبياءُ الكرامُ عليهمُ السَّلامُ على سبيلِ التعظيم لله والتأدُّبِ معه: إنّنا لا عِلمَ لنا، بمعنى: أنّ عِلمَهم لا يساوي شيئًا أمامَ عِلم الله الكاملِ غيرِ المحدود، واللهُ تعالى يَعلَمُ أحوالَهم أكثرَ منا؛ لأنّه هو الذي يَعلَمُ الغيبَ كلَّه.

ولا يعني هذا أنّ الأنبياءَ عليهم السَّلامُ لا يَعلَمونَ شيئًا عن أحوالِ أُمَّتِهم، إذْ كيف لا يَعلَمُ الأنبياءُ الكرامُ الذين تمّ تكذيبُهم، أو الذين تَمَّ قَتْلُهم وإيذاؤهم عن كلِّ هذا شيئًا؟ لكنَّهم، معَ ذلك، يُظهِرونَ الشَّفَقةَ على أُمَّتِهم ويَصمُتونَ، حتى يقرِّرُ الله تعالى فيهم ما يشاءُ بما يُرضيه، خوفًا من أن يزيدَ اللهُ عذابَ أُمّتِهم بسببِ شكواهم منهم يومَ الحَشْر، ولهذا فإنّهم يُظهِرونَ عدمَ عِلمِهم في حضرةِ اللهِ تعالى من بابِ التأدُّبِ معَ الله والشَّفقةِ على أُمَّتِهم، لكنَّهم - في الحقيقة - يَعرِفونَ أحوالَ أُمَّتِهم، وإلّا فكيف سيَشهَدونَ عليهم مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١]. والسُّؤالُ في هذه الآيةِ رَغْمَ أنه موجَّهٌ للأنبياءِ عليهم السَّلام، لكنّ الهدفَ هو تأنيبُ وتحقيرُ الأُمَّةِ العاصِية، مثلَما سيَسألُ اللهُ تعالى يومَ القيامة الموءودةَ بأيِّ ذُنب قُتِلَتْ: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۞ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨-٩]، ومِثلُ هذا السُّؤالِ أيضًا رَغْمَ أنه يُسألُ للبنتِ التي دُفِنت حيَّةً، لكنّ القَصْدَ منه هو تأنيبُ القاتل وتحقيرُه.

---

(١) «وتخصيص الرسل بالذكر مع أن ذلك يوم مجموع له الناس لإبانة شرفهم وأصالتهم والإيذان بعدم الحاجة إلى التصريح بجمع غيرهم بناء على ظهور كونهم أتباعًا لهم». تفسير روح المعاني.

وفيه تنبيهٌ للأُمّةِ المسلمةِ أنِ استعِدُّوا من الآنَ للسُّؤالِ يومَ القيامة، وفي هذا الإطارِ لاحِظْ هذا الحديثَ الشَّريفَ، فقد قال النبيُّ: ﷺ فيما رَواه سيِّدُنا ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنه: «**لا تَزُولُ قَدَما ابنِ آدمَ يومَ القيامةِ من عندِ ربِّه حتّى يُسألَ عن خمسٍ: عن عُمُرِه فيما أفْناه، وعن شبابِه فيما أبْلاه، وعن مالِه من أينَ اكتَسَبُه وفيما أنفَقَهُ، وماذا عَمِل فيما عَلِم**»[1]، خمسةُ أشياءَ يُسألُ عنها:

١ ـ عن عُمرِه فيما أفناه (في الخيرِ أم في الشَّرِّ).

٢ ـ عن شبابِه فيما أَبْلاهُ (في الخيرِ أم في الشَّر).

٣ ـ عن مالِه من أين اكتَسبَه (بطريقةٍ حلالٍ أم بطريقةٍ حرام).

٤ ـ وفيما أنفَقَه (في الخيرِ أم في الشَّر).

٥ ـ ماذا عَمِل فيما عَلِم (إلى أيِّ مدًى عَمِل بعلمِه).

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ﴾

١٤٦ ـ ليس المرادُ بتذكُّرِ النِّعَم يومَ القيامة وذِكْرِها أنّ سيِّدَنا عيسى عليه السَّلام قد نَسِيَ نِعَمَ الله تعالى عليه، إنّما الحقيقةُ هي أنّ الحُجَّةَ تُقامُ على اليهودِ والنَّصارى، حتى يَعلَمَ اليهودُ أنّ الذي كانوا يَتآمَرونَ على قَتْلِه نبيٌّ عظيمٌ من أنبياءِ الله تعالى، ويَعلَمَ النَّصارى أنّ ذلك الذي كانوا يقولونَ عنه: إنه الله أو ابنُ الله، هو عبدُ الله ونبيُّه.

في هذه الآيةِ ذَكَر اللهُ تعالى نِعَمَه على سيِّدِنا عيسى عليه السَّلام وعلى والدتِه

(١) الترمذي، أبواب صفة القيامة، باب ١ برقم ٢٤١٦.

والإنْجِيلَ، مثلَما ذَكَر القرآنُ الكريمُ جملةَ الملائكة، ثم ذَكَر سيِّدَنا جِبريلَ عليه السَّلام، معَ أنه واحدٌ من الملائكةِ أيضًا، لكنّه ذَكَره ثانيةً باعتبارِ الفَضْل الخاصِّ به.

ومن الممكنِ أيضًا أن يكونَ المرادُ بالكتابِ: القرآنَ المَجِيدَ، وبالحِكمة: الحديثَ الشَّريفَ، يعني: أنّ اللهَ تعالى عَلَّم سيِّدَنا عيسى عليه السَّلامُ القرآنَ والحديثَ؛ لأنه بعدَ أن يَنزِلَ من السَّماءِ إلى الأرض سيقومُ بتبليغ القرآنِ والحديث.

٤ ـ جَعَلَه يَخلُقُ من الطِّين كهيئةِ الطَّير، ثم يَنفُخُ فيه فيكونُ طيرًا حيًّا بإذْنِ الله.

٥ ـ جَعَلَه يُبرِئُ الأَكْمَه المولودَ أعمى، والأبرَصَ كذلك بإذْنِ الله.

٦ ـ جَعَلَه يُحيي الموتى بإذْنِ الله.

وقد ذَكَر الكتابُ المقدَّسُ الحاليُّ كثيرًا من معجزاتِ سيِّدِنا عيسى عليه السَّلامُ، على سبيل المثال:

١ ـ ماتت طفلةٌ لأحدِ السَّادة، وامتَلأَ بيتُه بالباكين، فذَهَب سيِّدُنا عيسى عليه السَّلامُ إلى هذا البيتِ وقال للنّاس: «توقَّفوا عن البكاء، إنّها ليست ميِّتةً، إنّها نائمةٌ فقطْ»، وأمسَكَ سيِّدنا عيسى عليه السَّلامُ بيدِها وناداها قائلًا: «أيَّتُها الفتاةُ، انهَضي»، وفي نفسِ اللَّحظة عادَت إليها الحياةُ ونَهَضت واقفةً[١].

٢ ـ حين نَزَل سيِّدُنا عيسى عليه السَّلامُ من ذلك الجَبَلِ رافَقَه عددٌ كبيرٌ من الناس، انظروا، إنّ مصابًا بالجُذام قدِ انحنَى أمامَه وهو يؤدِّي العبادةَ، ثم قال: سيِّدي، إن شئتَ اجعَلْني سليمًا معافى، فلَمَسَ سيِّدُنا عيسى عليه السَّلامُ هذا المصابَ

---

(١) The home was filled with mourning people, but he said, "Stop the weeping! She is not dead, she is only sleep!" ...... Then he took her by the hand and called, "Get up, little girl" And at that moment her life returned and she jumped up. (Luke: **8**: **52-55**: The Living Bible: **1975**).

بالجُذام وقال: «إنّي أريدُ أن تصبحَ سليمًا معافى»، وعلى الفورِ غاب الجُذامُ عن الرجُل، أي: أصبح سليمًا معافى[1].

٣ ـ قال رجُلانِ من العُمْيانِ لسيِّدِنا عيسى عليه السَّلامُ: ارحَمْنا، وعندَئذٍ لَمَس سيِّدُنا عيسى عليه السَّلامُ عيونَهما وقال: «يكون طبقًا لِما تعتقدانِ»، وفجأةً انفَتَحت عيونُهما وعاد إليهما بَصرهما[2].

٤ ـ ذاتَ مرّةٍ كان سيِّدُنا عيسى عليه السَّلامُ يسافرُ معَ تلاميذِه في سفينةٍ، وفي السَّفينةِ غَلَب النَّومُ سيِّدَنا عيسى عليه السَّلام، وفجأةً ثار طُوفانٌ شديدٌ وعواصفُ قويَّة، بحيث أصبحتْ حياتُهم في خَطَر، فأيْقَظَ التلاميذُ سيِّدَنا عيسى بسُرعةٍ وصاحوا قائلينَ: سيِّدي، سيِّدي، إنّنا نغرق! فنَهَض سيِّدُنا عيسى عليه السَّلامُ وأمَرَ الطُّوفانَ والرِّيحَ أن يتوقَّفا، فتوقَّفا وساد الهدوءُ والأمنُ ..... فلمَّا رأى التلاميذُ هذا اعتراهمُ الخوفُ، وقالوا لبعضِهم وهم في حالةٍ من الارتباك: من هذا الرَّجُلُ الذي تُطيعُه حتّى الرِّياحُ والماء[3]؟

٥ ـ يقولُ أحدُ تلاميذِ سيِّدنا عيسى عليه السَّلامُ ذاكرًا معجِزاتِه: «وأعمالٌ أخرى

---

(١) Large crowds followed Jesus as he came down the hillside. Look! A leper is approaching. He kneels before him, worshipping. "Sir," the leper pleads, "If you want to, you can heal me". Jesus touches the man, "I want to". He says: "Be healed". And instantly the leprosy disappears. (Mathew: **8**: **1-3**: The Living Bible: **1975**).

(٢) Then he touched their eyes and said, "Because of your faith it will happen:. And suddenly they could see. (Matthew: **9**: **29-30**: The Living Bible **1975**).

(٣) They rushed over and woke him up. "Master, Master, we are sinking!". They shouted. So he spoke to the storm: "Be quiet," he said, and the wind and waves subsided and all was calm! ... And they were filled with awe and fear of him and said to one another, "Who is this man, that even the winds and waves obey him?" (Luke: **8**: **24-25**: The Living Bible **1975**).

كثيرةٌ قام بها يَسُوع، لو أنّها كُتِبت كلٌّ على حِدَةٍ فإنِّي أعتقدُ أنه لن يكونَ هناك مكانٌ في الدُّنيا للكُتبِ التي ستُكتَب»، أي أنها ستكونُ كثيرةً لدرجةٍ لن تَسَعَها معَها الدنيا(١).

﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ﴾

١٤٧ ـ لمَّا رأى اليهودُ معجِزاتِ سيِّدِنا عيسى عليه السَّلامُ الواضحةَ قالوا عنه: إنه ساحرٌ، وتمادَوْا في مخالفتِه إلى درجةِ أنّهم قرَّروا قتْلَه وصَلْبَه، لكنّ اللهَ تعالى نَجَّاه من مؤامراتِهم، ورَفَعه إلى السَّماءِ حيًّا، ولمزيدٍ من التفصيل راجِع الآياتِ من ١٥٧ إلى ١٥٩ من سورة النِّساء، وفي الإنْجيل الحاليِّ ذِكرٌ لنماذجَ من هذه المؤامراتِ، على سَبيل المثال:

١ ـ وعندَئذٍ رَفَع زعماءُ اليهودِ الأحجارَ من أَجْل قَتْل سيِّدِنا عيسى عليه السَّلام، لكنّ سيِّدَنا عيسى عليه السَّلامُ اختفَى من أمام أنظارِهم، ومَرَّ من بَيْنِهم وخَرَج من الهيكل(٢).

٢ ـ ومرةً ثانية، حاوَلَ اليهودُ اعتقالَ سيِّدِنا عيسى عليه السَّلام، لكنّه ترَكَهم وخَرَج بعيدًا(٣).

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾

١٤٨ ـ لا يزالُ الحديثُ متواصِلًا عن نِعَم اللهِ تعالى على سيِّدِنا عيسى عليه

---

(١) And there are also many other things which Jesus did, the which, if they should be written everyone, I suppose that even the world itself could not contain the books that should be written. (John: **21**: **25**: The Living Bible **1954**).

(٢) At that point the Jewish leaders picked up stones to kill him. But Jesus was hidden from them, and walked past them and left the Temple. (John: **8**: **59**: The Living Bible **1975**).

(٣) Once again they started to arrest him. But he walked away and left them. (John: **10**: **39**: The Living Bible **1975**).

السَّلام، ومن هذه النِّعَم: أنّ الله تعالى خَلَق الرَّغبةَ في الإيمانِ في قلوبِ أصدقاءِ سيِّدنا عيسى عليه السَّلام المُخلِصينَ (الحَواريِّين)، وما أنْ أعلَن سيِّدُنا عيسى عليه السَّلام نُبوَّتَه حتّى آمَن به الحَواريُّون، وأشهَدُوه مُعلِنينَ أنّهم أَسْلَموا، ويُعلَمُ منه أيضًا أنّ الإسلامَ ليس دينًا جديدًا، بل إنّ كلَّ إنسانٍ سعيدِ الطّالع هو المسلمُ الذي يؤمنُ إيمانًا كاملًا باللهِ تعالى وأنبيائه.

﴿ إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾

١٤٩ - يبدو من هذه الآيةِ ظاهرًا أنّ الحَواريِّينَ كانوا يَشُكُّونَ في قُدرةِ الله تعالى، بمعنى: هل يستطيعُ أن يُنزِلَ عليهم مائدةً (طعامًا جاهزًا للتناول) من السَّماءِ أم لا؟ ولكنّ معنى أسلوبِ الكلام بهذا الشَّكل ليس فقطْ هذا، وإنّما يمكنُ أن يكونَ معناه أيضًا: أنه ماذا تقتضي حِكمةُ الله تعالى فيما يتعلَّقُ بإنزالِ مائدةٍ من السَّماء؟ هل يُحِبُّ اللهُ تعالى أن يُنزِلَ المائدةَ[١]؟

ومثلُ هذه الألفاظِ بالضَّبط موجودةٌ في «البخاريِّ»، حيث سألَ رجلٌ سيِّدَنا عبدَ الله بنَ زَيدٌ رضيَ اللهُ عنه قائلًا: «**أتستطيعُ أن تُريني كيف كان رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم يتوضّأُ؟**»[٢]، وليس معنى هذا السُّؤالِ معرفةُ ما إذا كان سيِّدُنا عبدُ الله بنُ زَيْد يَعرِفُ عِلمَ الوضوءِ أم لا، ولكنّ الهدفَ منه هو أنه يَعلَمَ فعلًا عِلمَ الوضوء، ولكنْ هل لدَيْهِ فُرصةٌ، وهل يُحِبُّ أن يتوضَّأَ الآنَ ويُريَني؟

ومِثلُ هذا الأسلوبِ في الحديثِ رائجٌ كثيرًا في اللُّغة الإنجليزيّةِ في أيّامِنا هذه،

---

(١) «هذه الاستطاعة على ما تقتضيه الحكمه والإرادة، فكأنهم قالوا: هل إرادة الله تعالى وحكمته تعلقت بذلك أو لا؟ لأنه لا يقع شيء بدون تعلقهما به». تفسير روح المعاني.

(٢) البخاري، كتاب الوضوء، باب ٣٨ برقم ١٨٥.

فيقولون: "Can I borrow your pen?" (هل أستطيعُ أن أستعيرَ قلمَك؟)، وليس معناه أبدًا: هل أنت تَملِكُ القُدرةَ على إعطائي القلمَ أم لا؟، وإنّما معناه: هل تُحِبُّ أن تُعطيَني قلمَك الآنَ؟ ومِثالُه أيضًا: أنه إذا قال طالبٌ للأستاذ: لو تكلَّم الأستاذُ المُدِيْرَ، فهل يستطيعُ المديرُ أن يتناولَ الطَّعامَ في بيتي؟ فإنّ هذا ليس معناه: هل المديرُ يَملِكُ القُدرةَ على الذَّهابِ إلى بيتِ الطالب أم لا؟ وإنّما هدفُ السُّؤال هو: هل يُناسبُ أن يَدعوَ طالبٌ مديرَه إلى البيتِ أم لا؟ هل تَمنَعُ لوائحُ الكُلِّيةِ ونظامُها المديرَ من أن يذهبَ إلى بيتِ طالبٍ عندَه؟

وبنفسِ الطريقة، فإنّ معنى سُؤالِ الحَوارِيِّين ليس: هل يَمْلِكُ اللهُ تعالى القُدرةَ على إنزالِ مائدةٍ من السَّماء أم لا؟ وإنّما الهدفُ: هل سيرَى اللهُ تعالى أمرَ إنزالِ مائدةٍ من السَّماءِ هذا مناسبًا أم لا؟، وهل سيُحِبُّ سيِّدُنا عيسى عليه السَّلامُ أن يَدعوَ اللهَ تعالى أن يُنزِلَ مائدةً من السَّماء؟ وهل سيَقبَلُ اللهُ تعالى دعاءَ سيِّدِنا عيسى عليه السَّلامُ بهذا؟

وهكذا رَدَّ سيِّدُنا عيسى عليه السَّلامُ على طلبِ الحَوارِيِّين هذا قائلًا: اتَّقوا اللهَ، ولا تُطالبوا بمعجزاتٍ دونَ حاجةٍ إلى ذلك فتَضَعوا أنفُسَكم محَلَّ اختبار، فقد لا تستطيعونَ أداءَ حقِّ هذه النِّعمةِ العظيمةِ من الشُّكر مَثَلُكم مَثَلُ الأُمَم السَّابقة، وعندَئذٍ تصبحونَ مستحِقِّينَ للعقابِ على جحودِكم، لهذا فإنّ مقتضَى الإيمانِ هو أن تبحثوا عن الرِّزقِ الحلالِ طِبقًا للوسائلِ التي قرَّرتْها القُدرةُ الإلهيَّة، واقْنَعُوا بما جَعَله الله تعالى في الأرض، ولا تُطالبوا بمائدةٍ من السَّماء تتناولون طعامَها وأنتم جالسونَ في بيوتِكم دونَ جُهدٍ تبذُلونَه.

ويُعلَمُ من هذه الآيةِ أيضًا أنّ الحوارِيِّينَ لم يكونوا يَعتبرونَ سيِّدَنا عيسى عليه السَّلامُ ابنَ الله، وإنّما كانوا يَعتبِرونَه عبدَ الله وابنَ مريَم، وكانوا يؤمنونَ بأنّ المعجِزاتِ

التي تَظهَرُ على يدِ سيِّدِنا عيسى عليه السَّلام إنّما هي قدرةُ الله تعالى، ولهذا لم يُطالِب الحَواريُّونَ سيِّدَنا عيسى عليه السَّلامُ مباشرةً بنزولِ المائدة من السَّماء، وإنّما سألوه: هل سيَستَجيبُ ربُّك دعاءَك ويُحِبُّ أن يُنزِلَ علينا مائدةً من السَّماء؟

﴿ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾

١٥٠ ـ ذَكَر الحَواريُّونَ أربعةَ أسبابٍ تأييدًا لمطالبِهم:

١ ـ لا شكَّ عندَنا في نُبوّتِك ولا في قُدرةِ الله تعالى، وإنّما نحاولُ التغلُّبَ على الجُوع والحصُولَ على بركةِ الطَّعام السَّماويِّ[1].

٢ ـ إنّنا نؤمنُ بقُدرةِ الله تعالى، ولكنْ بعدَ مشاهدةِ هذه المعجِزة فإنّ قلوبَنا ستزدادُ اطمئنانًا، مثلَما قال سيِّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلام من أَجْل أن يطمئنَّ قلبُه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِيۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًاۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

٣ ـ إنك نبيُّ اللهِ الصَّادق، ولكن ـ بمشاهدةِ هذه المعجِزة ـ سيكونُ لدينا دليلٌ قويٌّ آخَرُ على صِدقِك.

٤ ـ المُعجزاتُ التي ظَهرتْ على يدَيْك حتّى الآنَ تتعلَّقُ بالأرض، ولكنّ نزولَ المائدةِ أمرٌ يَتعلَّقُ بالسَّماء، ولهذا فإنّ هذه المعجِزةَ ستكونُ أكثرَ إبهارًا قياسًا بالمعجِزاتِ الأخرى، وحين نَرى هذه المعجزةَ رأيَ العَيْن، ونَبيِّنُ للنّاس ما رأيناهُ

---

(١) «لسنا نريد من السؤال إزاحة شبهتنا في قدرته سبحانه على تنزيلها أو في صحة نبوتك ولكن نريد أن نأكل منها». تفسير روح المعاني.

بأعيُنِنا فيما يتَعلَّقُ بهذه المعجزة، فسيصبحُ من اليسيرِ عليهم قَبولُ الهدايةِ أكثرَ من ذي قَبلُ.

﴿قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾

١٥١ ـ حينَ سَمِع سيِّدُنا عيسى عليه السَّلامُ استدلالاتِ الحَواريِّين وافَقَ على أن يَدعوَ الله واستعدَّ لذلك، وهكذا اغتَسل سيِّدُنا عيسى عليه السَّلامُ والتحَفَ بردائه ثم أدَّى الصَّلاةَ، وبعدَها اغْرَوْرَقتْ عيناهُ بالدُّموع وهو يَدعو اللهَ تعالى متوسِّلًا إليه: **﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ـ فأَنْزل اللهُ عليهم سُفرةً حمراءَ وهم يَنظُرونَ إليها، وخَرَّ عيسى عليه السَّلامُ والحَواريُّونَ لله سُجَّدًا شُكرًا له بما رَزَقَهم من حيثُ لم يَحتِسبوا»**[١].

﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾

١٥٢ ـ العيدُ يقالُ: ليوم الفَرْحةِ والسُّرور، بمعنى: أنه يومَ أن تَنزِلَ المائدةُ سيكونُ لنا ولمَن يأتي بعدَنا من النَّصارى جميعًا يوم عيد؛ لأنّ المائدةَ نَزَلت يومَ الأحد، ولهذا فإنّ يوم الأحدِ بمثابةِ يوم عيدٍ للنَّصارى[٢]، مثلَما أنّ يومَ الجُمعةِ بمثابَة يوم عيدٍ عندَ المسلمين، وقد قال النبيُّ ﷺ فيما رَواه سيِّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: «**إنّ يومَ الجمُعةِ يومُ عيدٍ، فلا تجعَلوا يومَ عيدِكم يومَ صيامِكم إلّا أنْ تصوموا قبلَه أو بعدَه**»[٣].

ما أجمَلَ ما قالهُ مَوْلانا صَدْرُ الأفاضل الشَّيخُ محمَّد نَعيم الدِّين مُرادآبادي رحمةُ الله عليه في تفسيرِ هذه الآية: «ويُعلَمُ من هذه الآيةِ أنّنا يمكنُ أن نتَّخذَ من أيِّ

---

(١) تفسير الدر المنثور.

(٢) «رُوي أنها نزلت يوم الأحد فلذلك اتخذه النصارى عيدًا». تفسيرالخازن وروح المعاني.

(٣) مسند أحمد، ٢: ٣٠٣.

يوم تَنزِلُ فيه رحمةٌ خاصَّةٌ من اللهِ تعالى علينا عيدًا نحتفلُ به، ونَعبُدُ اللهَ فيه ونَشكُرُه تعالى، وهذا من شِيَم الصَّالحين، ولا شكَّ أنّ قدومَ سيِّدِ المرسَلين سيِّدِنا محمَّدٍ ﷺ إلى هذه الدُّنيا نعمةٌ عظيمةٌ من نِعَم الله تعالى ورحمةٌ ما بعدَها رحمةٌ، ولهذا فإنّ الاحتفالَ بمولِدِه ﷺ المبارك، واتِّخاذَ هذا اليوم عيدًا نقرَأُ فيه قصائدَ المديح النَّبويِّ، ونَشكُرُ اللهَ تعالى، ونُعبِّرُ فيه عن سعادتِنا وسرورِنا أمرٌ مُستحسَنٌ ومحمود، وطريقةُ عبادِ الله الصَّالحينَ المقرَّبين[1].

﴿وَءَايَةً مِّنكَ﴾

١٥٣ - يعني: أنّ نزولَ المائدةِ من السَّماء سيكونُ آيةً تدُلُّ على قُدرةِ الله تعالى الكاملة، وسيكونُ - من ناحيةٍ أخرى - دليلًا على نُبوَّة سيِّدِنا عيسى عليه السَّلام.

﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾

١٥٤ - جمهورُ المفسِّرينَ على أنّ المائدةَ نَزَلت بالفعل، وإنْ قيل: إنّ المائدةَ لم تنزِلْ، فإنّ دعاءَ سيِّدِنا عيسى عليه السَّلام بنزولِها، والتأكيدَ على أنه سيكونُ يومَ عيد، وإيرادَ اللهِ تعالى لهذا الدُّعاءِ في القرآنِ الكريم باهتمامٍ كبير، يبدو أمرًا عجيبًا بعضَ الشَّيء، ولهذا فإنِّي أرى أنّ المائدةَ قد نَزَلتْ بالفعل، وألفاظُ هذه الآية تؤيِّدُ أنّها نَزَلتْ، بمعنى: أنّ اللهَ تعالى قال في ردِّه على دعاءِ سيِّدِنا عيسى عليه السَّلام: «**إنّي منزِّلُها عليكم**»، فهذا نوعٌ من الوَعْدِ من الله تعالى، واللهُ لا يُخلِفُ وعدَه[2]، والتَّنبيهُ الذي وَرَد في الآيةِ يؤيِّدُ هذا الرأيَ أيضًا، أي: إنَّني حينَ أُتِمَّ وَعْدي هذا فسيكونُ عليكم أداءُ الشُّكر إليَّ على هذه النِّعمةِ العظيمة، وإنْ جَحَد نعمتي هذه واحدٌ منكم فسأُعاقبُه عقابًا لا أُعاقبُ به أحدًا يأتي من بعدِه في هذا العالَم، وبالفعل

---

(١) خزائن العرفان.

(٢) «هذا وعد من الله بإنزالها، ولا خلف في وعده». تفسير الخازن.

حَدَث هذا، حيث مَسَخَ اللهُ تعالى أولئك الذين قالوا: إنه ساحرٌ، قِردةً وخَنازيرَ، وهما ما لم يُعاقِبْ به أحدًا من النّاسِ أبدًا فيما بعدُ.

وتُؤيِّدُ روايةَ الإمام التِّرمذيِّ هذا الرأيَ، يعني: أنّ رسولَ الله ﷺ قال فيما رَواه سيِّدُنا عَمَارُ بن ياسِر رضيَ الله عنه: «**أُنزِلت المائدةُ من السَّماء خُبزًا ولحمًا، وأُمِروا أنْ لا يَخُونوا ولا يَدَّخِروا لغدٍ، فخانوا وادَّخَروا ورَفَعوا لغدٍ، فمُسِخوا قِرَدةً وخِنازيرَ**»(١)، حَدَث هذا من بعضِهم فرَفَع اللهُ هذه المائدةَ(٢).

وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾

١٥٥ ـ سيَسألُ اللهُ تعالى سيِّدَنا عيسى عليه السَّلامُ يومَ القيامة: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، معَ أنّ اللهَ تعالى يَعلَمُ تمامًا أن سيِّدَنا عيسى

---

(١) الترمذي، أبواب تفسير القرآن، باب ٥ برقم ٣٠٦١.

(٢) البحر المحيط.

لم يَقُلْ مثلَ هذا الكلام، ولكنّ المقصودَ من هذا السُّؤال تأنيبُ أولئك النَّصارى الذين يَعتبِرونَ سيِّدَنا عيسى عليه السَّلامُ وأُمَّه إلهَيْنِ، وهكذا يُجيبُ سيِّدُنا عيسى عليه السَّلامُ بما معناه: يا إلهي، أنتَ المنزَّهُ، وهل أستطيعُ أنا أن أقولَ مِثلَ هذا الكلام الذي لا حقَّ لي في قولِه؟ وعلى سَبيل الافتراض، لو أنِّي قُلتُه فإنّك ـ بالتأكيد ـ تَعلَمُه، لأنك تَعَلُم ما في قلبي، ولا أعلَمُ ما في عِلمِك، فأنت عالِمُ الغيب، ولقد قلتُ لهم ما أمَرْتَني به فقطْ، وهو: أنِ اعبُدوا اللهَ تعالى فقطْ الذي هو ربِّي وربُّكم أيضًا.

ملحوظة: لا توجَدُ أيُّ إشارةٍ في الكتابِ المقدَّس على أنه قيل عن مرْيَمَ: إنّها إلهٌ، ولكنْ تَمَّ وَضْعُ مصطلَح «والدةُ الرَّبِّ» للسيِّدة مرْيَمَ عليها السَّلامُ فيما بعدُ، وحينَ نَزَل القرآنُ كانت تماثيلُ السيِّدة مرْيَمَ عليها السَّلام توضَعُ في الكنائس، وكانت بعضُ الفِرَق النَّصرانيَّة تؤدِّي أمامَها مراسمُ العبادة التي لا تؤَدَّى إلّا لله تعالى فقطْ، ويَظهَرُ منه أنّهم كانوا يَعتبِرونَ السيِّدةَ مرْيمَ إلهًا بصورةٍ من الصُّور، ورَغْمَ أنّ النَّصارى كانوا يعبُدونَ اللهَ تعالى، ولكنْ إذا عُبِد غيرُ الله معَ عبادةِ الله فإنّ هذه لا تُعتبَرُ عبادةً لله تعالى، وإنّما شِركٌ به؛ لأنّ اللهَ تعالى ـ وحدَه ـ هو المستحِقُّ للعبادة ولا غيرُه، وعبادةُ أحدٍ آخَرَ معَه تنفي عبادةَ الله، ويكونُ ذلك موجبًا للشِّرك.

﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ شَهِيدٌ ﴾

١٥٦ ـ سيقولُ سيِّدُنا عيسى عليه السَّلامُ في حضرةِ اللهِ تعالى: يا الله، طالما كنتُ بيْنَ ظَهْرانَيْ أُمّتي فإنّي كنتُ أراقبُهم، وأُعلِّمُهم مِرارًا وتكرارًا عبادةَ الله وحدَه، ولكنْ منذُ أن رفَعتَني إليكَ كنتَ أنتَ الرَّقيبَ عليهم.

وبعضُ النّاسِ هنا يفسِّرُ رَفْعَ سيِّدِنا عيسى عليه السَّلامُ بموتِه، ورَغْمَ أنّ الموتَ من بينِ معاني الرَّفع، ولكنْ في ضوءِ الأحاديثِ والآياتِ الأخرى فإنَ التَّرجمةَ

الصَّحيحةَ هي أنّ اللهَ تعالى قد رَفَعَه حيًّا إلى السَّماءِ مثلَما قال اللهُ تعالى ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [آل عمران: ٥٥]، وسينزِلُ سيِّدُنا عيسى عليه السَّلامُ من السَّماءِ قُربَ يوم القيامة في دمشقَ «**إذْ هَبَط عيسى ابنُ مريَم عليه السَّلامُ بشَرْقيِّ دمشقَ عندَ المنارةِ البيضاء**»[١]، وسيؤدِّي الصَّلاةَ خلفَ الإمام المَهْديِّ اقتداءً به: **عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: «كيف أنتم إذا نَزَل ابنُ مَرْيَم فيكم وإمامُكم منكم؟»**[٢]، وسيقضي ما تبقَّى من عمُرِه في الدَّعوة إلى الإسلام، وسيُدفَنُ في رَوْضةِ رسول الله ﷺ: **عن عبدِ الله بن سَلّامٍ، قال: مكتوبٌ في التَّوراةِ صفةُ محمّدٍ، [وصفةُ] عيسى ابن مرْيَمَ يُدفَنُ معَه. قال: فقال أبو مودودٍ: قد بقيَ في البيتِ موضعُ قبر**[٣].

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

١٥٧ ـ سيقولُ سيِّدُنا عيسى عليه السَّلامُ في حضرةِ اللهِ تعالى: يا الله، إنّ الذين عَصَوْكَ مِن بعدي إنْ عذَّبتَهم فهم عبادُك، ولا يستطيعُ أحدٌ أن يعترضَ عليك، وإنْ عفَوْتَ عمَّن تابوا فلا يستطيعُ أحدٌ أن يمنَعَك من ذلك؛ لأنّك الغالبُ القويُّ والحكيم، ولا يَخْلو أيُّ عمل من حِكمةٍ لك، على أيّة حال في الحالتَيْن أنت القادرُ المُطلَقُ وصاحبُ السُّلطة الأوحَدُ الذي يفعَلُ ما يشاء.

يقولُ سيِّدُنا عبدُ الله بنُ عَمْرِو بن العاص رضيَ اللهُ عنهم: **إنّ النّبيَّ صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم تلا قولَ اللهِ تعالى في ابراهيمَ عليه السَّلام: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا**

---

(١) الترمذي، أبواب الفتن، باب ٥٩ برقم ٢٢٤٠.

(٢) البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ٤٩ برقم ٣٤٤٩.

(٣) الترمذي، أبواب المناقب، باب ٢ برقم ٣٦١٧.

مِنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ [ابراهيم: ٣٦] الآيةَ، وقال عيسى عليه السَّلامُ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فرَفَع يدَيْه وقال: «اللّهُمَّ! أمَّتي أمَّتي» وبكى، فقال اللهُ عزَّ وجلَّ: يا جِبريل! اذهَبْ إلى محمّدٍ، وربُّك أعلم، فاسأله: ما يُبكيك؟ فأتاه جِبريلُ عليه السَّلامُ فسأله، فأخبرَهُ رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم بما قال، وهو أعلمُ، فقال الله: يا جِبريل! اذهَبْ إلى محمّدٍ فقُلْ: إنّا سنُرضِيك في أُمّتك ولا نَسوءُك»[1].

ويُعلَمُ من هذا الحديثِ أيضًا أنّ رَفْعَ اليدَيْنِ وقتَ الدُّعاءِ من سُنّةِ المصطفى ﷺ، كما أنّ مفهومَ هذا الحديثِ الشَّريفِ يوافقُ مفهومَ الآية القرآنيَّة التي قال اللهُ تعالى فيها: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٥].

﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾

١٥٨ ـ أهلُ الإيمانِ الصّادقونَ في أقوالِهم وأفعالِهم غالبًا ما يستفيدونَ من صِدقِهم في هذه الدُّنيا أيضًا، ولكنْ ـ في بعضِ الأحيان ـ لا يَظهَرُ في هذه الدُّنيا ما هو صلةٌ ومكافأةٌ على صِدقِهم، ولكنّهم سيَلقَوْنَ جزاءَ صِدقِهم على وَجْهِ اليقين يومَ القيامة، وبفَضْلِه سيرضَى اللهُ عنهم وسيَدخُلونَ الجنَّةَ، وهذا هو أعظمُ فلاح ونجاح.

قال النبيُّ ﷺ فيما رَواهُ سيِّدُنا عبدُ الله رضي الله عنه: **«عليكم بالصِّدقِ، فإنّ الصِّدقَ يَهدي إلى البرّ، وإنّ البرَّ يَهدي إلى الجنّة، وما يزالُ الرّجُلُ يَصدُقُ ويتحرَّى الصِّدقَ حتّى يُكتَبَ عندَ الله صِدّيقًا، وإيّاكم والكذبَ، فإنّ الكذبَ يَهدي إلى الفُجور، وإنّ الفجورَ يَهْدي إلى النّار، وما يزالُ الرّجُلُ يكذِبُ ويَتحرَّى الكذبَ حتّى يُكتَبَ عندَ الله كذّابًا»[2].**

---

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب ٨٧ برقم ٤٩٩.

(٢) المرجع السابق، كتاب البر، باب ٢٩ برقم ٦٦٣٩.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ﴾

١٥٩ ـ إذا كان اللهُ تعالى هو مالكَ الأرضِ والسَّماءِ وما بينَهنَّ، فالواضحُ كذلك أنه مالكُ سيِّدِنا عيسى والسيِّدةِ مرْيَمَ عليهما السَّلامُ أيضًا، ولهذا فهما من خَلْقِ الله تعالى وليسا آلهةً.

الفقيرُ إلى الله:

محمد إمداد حُسَين بيرْزَاده: جامعة الكَرَم، بريطانيا.

بعدَ فجر يوم الخميس الرابع من ديسَمبر عام ٢٠٠٣م

الموافق العاشرَ من شوّال عام ١٤٢٤هـ.

* * *

فهرس المطالب التفصيلي
للمجلد الأول
(من سورة الفاتحة إلى سورة المائدة)

* * *

المصادر والمراجع

أولًا: كتب التفاسير

(١) تفسير ضياء القرآن: الشيخ محمد كرم شاه الأزهري، دار نشر ضياء القرآن، لاهور، باكستان ١٩٩٥م (٥ مجلدات).
(٢) الدر المنثور: الإمام جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت ١٩٩٣م (٨ مجلدات).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي): محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان (١٠ مجلدات).
(٤) التفسير الكبير: الإمام فخر الدين الرازي، دار الفكر، بيروت، لبنان (١٦ مجلدًا).
(٥) حاشية الصاوي على الجلالين: الشيخ أحمد الصاوي المالكي، دار الفكر، بيروت، لبنان (٣ مجلدات).
(٦) في ظلال القرآن: الشهيد سيد قطب، دار الشروق، مدينة نصر، القاهرة، مصر (٦ مجلدات).
(٧) جامع البيان (تفسير الطبري/ تفسير ابن جرير): أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٩٨٤م (١٥ مجلدًا).
(٨) تفسير روح البيان: الإمام إسماعيل حقي، دار الفكر، بيروت، لبنان (١٠ مجلدات).
(٩) صفوة التفاسير: محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، لبنان ١٩٨١م (٣ مجلدات).
(١٠) تفسير البيضاوي: الإمام ناصر الدين البيضاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٨٨م (مجلدان).
(١١) تفسير فتح العزيز (تفسير عزيزي: أردو)، شاه عبد العزيز الدهلوي، مطبعة عليمي، دهلي، الهند.
(١٢) تفسير ابن كثير: الحافظ إسماعيل بن كثير، دار القلم، بيروت، لبنان (٤ مجلدات).
(١٣) التفسير المظهري: القاضي محمد ثناء الله باني بتي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
(١٤) تفسير نعيمي: المفتي أحمد يار خان نعيمي، المكتبة الإسلامية، الكجرات، باكستان.

(١٥) تفسير روح المعاني: الإمام شهاب الدين السيد محمود البغدادي، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٩٧٨م (١٠ مجلدات).
(١٦) تفسير الشعراوي: محمد متولي الشعراوي، دار أخبار اليوم، القاهرة، مصر ١٩٩١م (١٤ مجلدًا).
(١٧) تفسير الحسنات: العلامة أبو الحسنات القادري، دار نشر ضياء القرآن، لاهور، باكستان (٧ مجلدات).
(١٨) تفسير الخازن: الإمام علاء الدين البغدادي، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٩٧٩م (٧ مجلدات).
(١٩) تنوير المقياس: عبد الله بن عباس، المكتبة الشعبية، القاهرة، مصر ١٩٧٢م.
(٢٠) البحر المحيط: محمد بن يوسف الغرناطي، دار الفكر، بيروت، لبنان (١١ مجلدًا).
(٢١) مدارك التنزيل (تفسير النسفي): الإمام عبد الله بن أحمد النسفي، دار النفائس، بيروت، لبنان ١٩٩٦م.
(٢٢) خزائن العرفان: سيد محمد نعيم الدين مرادآبادي، حفيظ بك دبو، الهند.
(٢٣) أحكام القرآن: الإمام أحمد بن علي الجصاص، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
(٢٤) زهرة التفاسير: محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر.
(٢٥) تفسير المنار: محمد رشيد رضا، دار الفكر، بيروت، لبنان.
(٢٦) تفسير الكشاف: محمود بن عمر الزمخشري: دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان ١٩٨٧م.
(٢٧) فتح القدير: محمد بن علي الشوكاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
(٢٨) تفسير القرآن العظيم، حافظ بن أبي حاتم، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان (١٤ مجلدًا).
(٢٩) تفسير الجيلاني: محي الدين عبد القادر الجيلاني الحسني الحسيني، شركة التمام، بيروت، لبنان.
(٣٠) التفسير المنير: دكتور وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، الشام (١٧ مجلدًا).
(٣١) زاد المسير: عبد الرحمن الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (٨ مجلدات).
(٣٢) تفسير الماجدي: عبد الماجد دريا آبادي، تاج كمپنى لميتد، لاهور، كراتشي، باكستان (مجلدان).
(٣٣) تفسير أحكام القرآن: أبو بكر بن العربي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (مجلدان).
(٣٤) تفسير معارف القرآن: مفتي محمد شفيع، إدارة المعارف، كراتشي، باكستان (٨ مجلدات).

(٣٥) تفهيم القرآن: سيد أبو الأعلى المودودي، مركزى مكتبه إسلامى ببلشرز، نيو دلهي، الهند (٦ مجلدات).
(٣٦) تفسير عثماني: شبير أحمد عثماني، دار الإشاعت، أردو بازار، كراتشي، باكستان (مجلدان).
(٣٧) تفسير البغوي: الحسين بن مسعود البغوي، دار الفكر، بيروت، لبنان، حاشية تفسير الخازن (٧ مجلدات).
(٣٨) تفسير تبيان القرآن: العلامة غلام رسول سعيدي، فريد بك ستال، اردو بازار، كراتشي، باكستان.
(٣٩) تفسير أبي السعود: القاضي محمد بن محمد، دار الفكر، بيروت، لبنان.
(٤٠) تفسير حقاني: العلامة عبد الحق حقاني، مير محمد كتب خانه، آرام باغ، كراتشي، باكستان.
(٤١) تفسير المراغي: أحمد مصطفى المراغي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

ثانيًا: كتب الأحاديث

(٤٢) صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل البخاري، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١م.
(٤٣) صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج القشيري، دار الدعاء، اسطنبول، تركيا ١٩٨١م.
(٤٤) سنن الترمذي: محمد بن عيسى، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١م.
(٤٥) سنن ابن ماجه: محمد بن يزيد القزويني، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١م.
(٤٦) سنن أبي داود: سليمان بن الأشعث، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١م.
(٤٧) سنن النسائي: أحمد بن شعيب، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١م.
(٤٨) مسند أحمد: الإمام أحمد بن حنبل، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١م.
(٤٩) الموطأ: الإمام مالك بن أنس، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١م.
(٥٠) مشكاة المصابيح: محمد بن عبد الله التبريزي، دار الفكر، بيروت، لبنان.
(٥١) المعجم الكبير: سليمان بن أحمد الطبراني، مطبعة الزهراء الحديثة، الموصل، العراق ١٩٨٤م (٢٥ مجلدًا).
(٥٢) المستدرك: الإمام الحاكم النيشابوري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٩٠م (٤ مجلدات).
(٥٣) الجامع الصغير: محمد ناصر الدين الألباني، المكتبة الإسلامية، بيروت، لبنان ١٩٩٠م (مجلدان).

(٥٤) رياض الصالحين: يحيى بن شرف النووي الشافعي، دار القلم، بيروت، لبنان ١٩٧٠م.
(٥٥) سنن الدارقطني: علي بن عمر الدارقطني، عالم الكتب، بيروت، لبنان ١٩٩٣م (٤ مجلدات).
(٥٦) شعب الإيمان: أحمد بن الحسين البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٩٠م.
(٥٧) الترغيب والترهيب: عبد العظيم المنذري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان ١٩٦٨م.
(٥٨) السنن الكبرى: أحمد بن الحسين البيهقي، نشر السنة، الملتان، باكستان (١٠ مجلدات).
(٥٩) المعجم الأوسط: سليمان بن أحمد الطبراني، مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية (١١ مجلدًا).
(٦٠) صحيح ابن حبان: دار الفكر، بيروت، لبنان (٦ مجلدات).
(٦١) سنن الدارمي: الإمام عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، دار الدعوة، استنبول، تركيا ١٩٨١م.
(٦٢) مصنف عبد الرزاق: الإمام عبد الرزاق بن همام الصنعاني، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان (١١ مجلدًا).
(٦٣) مصنف ابن أبي شيبة: عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، دار الفكر، بيروت، لبنان.
(٦٤) المعجم الصغير: الإمام الطبراني، دار الفكر، بيروت، لبنان.
(٦٥) جمع الجوامع: الإمام جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
(٦٦) الجامع الصغير: الإمام جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

مراجع أخرى

(٦٧) معجزات الرسول: محمد متولي الشعراوي، المكتبة الإسلامية الشعراوية، القاهرة، مصر.
(٦٨) الخصائص الكبرى: الإمام جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٧٥م (مجلدان).
(٦٩) السيرة النبوية: عبد الملك بن هشام، دار الجيل، بيروت، لبنان (٤ مجلدات).
(٧٠) البداية والنهاية: الحافظ إسماعيل بن كثير، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٩٨٢م (٧ مجلدات).
(٧١) المفردات: الإمام راغب الأصفهاني، مكتبة مصطفى البابي، مصر ١٩٦١م.
(٧٢) لسان العرب: ابن منظور، دار المعارف، القاهرة، مصر (٨ مجلدات).

(٧٣) المنجد: دار المشرق، بيروت، لبنان ١٩٧٥م.
(٧٤) شرح المواهب اللدنية: الإمام محمد بن عبد الباقي الزرقاني المالكي، دار الفكر، بيروت، لبنان.
(٧٥) دلائل النبوة: أحمد بن الحسين البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ٢٠٠٢م (٧ مجلدات).
(٧٦) كتاب المبسوط: شمس الدين السرخسي، دار المعرفة، بيروت، لبنان ١٩٨٠م (١٥ مجلدًا).
(٧٧) الفتاوى العالمگيرية: العلامة نظام الدين، بلوچستان بك دبو، كويته، بلوشستان، باكستان ١٩٨٥م (٦ مجلدات).
(٧٨) فتاوى قاضي خان: حسن بن منصور الفرغاني الحنفي، بلوچستان بك دبو، كويته، بلوشستان، باكستان ١٩٨٥م (٦ مجلدات).
(٧٩) رد المحتار: ابن عابدين، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٩٧٩م (٨ مجلدات).
(٨٠) حاشية الطحطاوي: الإمام أحمد الطحطاوي، مير محمد كتب خانه، كراتشي، باكستان.
(٨١) مراقي الفلاح: حسن بن عمار الحنفي، مير محمد كتب خانه، كراتشي، باكستان.
(٨٢) فتاوى أفريقيه: الإمام أحمد رضا القادري، مدينه پبلشنگ كمپنى، كراتشي، باكستان.
(٨٣) بهارِ شريعت: ربيع الشريعة: العلامة محمد أمجد علي، شيخ غلام علي ايند سنز، لاهور، باكستان.
(٨٤) إمداد الفقه: محمد إمداد حسين بيرزاده، دار السلام، القاهرة، مصر ٢٠٠٣م.
(٨٥) اسلامى عقائد: العقائد الإسلامية: محمد إمداد حسين بيرزاده، الكرم پبلى كيشنز، ايتن هال، نوتنجهام شاير، المملكة المتحدة ١٩٩٩م.
(٨٦) كنز العمال: العلامة علاء الدين البرهانبورى، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان ١٩٨٥م (١٦ مجلدًا).
(٨٧) مجمع الزوائد: علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٨٨م (١٠ مجلدات).
(٨٨) نزهة المجالس: عبد الرحمن الصفوري الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
(٨٩) نور الإيضاح: الشيخ حسن بن علي، كتب خانه مجيديه، ملتان، باكستان.
(٩٠) قصيدة البردة: الإمام البوصيري، الترجمة الإنجليزية: محمد إمداد حسين بيرزاده، الكرم پبلى كيشنز، ايتن هال، نوتنجهام شاير، المملكة المتحدة.

(٩١) السيرة النبوية: الحافظ إسماعيل بن كثير، دار الفكر، بيروت، لبنان.
(٩٢) ضياء النبي: بير محمد كرم شاه الأزهري، دار نشر ضياء القرآن، لاهور، باكستان ١٤١٥هـ (٧ مجلدات).
(٩٣) الصراط المستقيم: شاه إسماعيل الدهلوي، اسلامي اكيدمى، لاهور، باكستان.
(٩٤) القول الجميل (أردو): شاه ولي الله، مدينه پبلشنگ كمپنى، كراتشي، باكستان.
(٩٥) سبل الهدى والرشاد: الإمام محمد بن يوسف الشامي، وزارة الأوقاف، القاهرة، مصر (١٢ مجلدًا).
(٩٦) المنتظم في تواريخ الملوك والأمم: الإمام عبد الرحمن الجوزي، دار الفكر، بيروت، لبنان (١٣ مجلدًا).
(٩٧) تاريخ الإسلام: المؤرخ شمس الدين الذهبي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان (٥٢ مجلدًا).
(٩٨) إمتاع الأسماع: تقي الدين المقريزي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (١٥ مجلدًا).
(٩٩) حلية الأولياء: الإمام أبو نعيم الأصفهاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (١٢ مجلدًا).
(١٠٠) الفقه الإسلامي وأدلته: وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، الشام ١٩٨٩م (٨ مجلدات).
(١٠١) الفقه الحنفي وأدلته: الشيخ صاغر جي، دار الكلم الطيب، دمشق، الشام ٢٠٠٠م (٣ مجلدات).
(١٠٢) الفقه على المذاهب الأربعة: عبد الرحمن الجزيري، دار الفكر، بيروت، لبنان (٥ مجلدات).
(١٠٣) لسان الميزان: ابن حجر العسقلاني، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان ٢٠٠٢م، (١٠ مجلدات).
(١٠٤) الأدب المفرد: الإمام البخاري، مكتبة الآداب.
(١٠٥) السيرة الحلبية: نور الدين الحلبي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (٣ مجلدات).
(١٠٦) شرح الشفاء: القاضي عياض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (مجلدان).
(١٠٧) طبقات ابن سعد: مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر ٢٠٠١م، (١١ مجلدًا).
(١٠٨) بدائع الصنائع: علاء الدين الكاساني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ٢٠٠٣م (١٠ مجلدات).
(١٠٩) الموسوعة الإسلامية: الفيصل ناشران، اردو بازار، لاهور، باكستان (مجلدان).

(١١٠) تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، (١٠ مجلدات).
(١١١) الهداية: علي بن أبي بكر الفرغاني، مكتبة شركة علمية، خارج بوابة بوهر، الملتان، باكستان (مجلدان).
(١١٢) فقه السنة: السيد سابق، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٩٨٢م (ثلاث مجلدات).
(١١٣) عمدة القاري، العلامة بدر الدين عيني، دار الفكر، بيروت، لبنان (٢٥ مجلدًا).
(١١٤) فتح الباري: الإمام ابن حجر العسقلاني، دار الفكر، بيروت، لبنان (١٣ مجلدًا).
(١١٥) الأحكام الفقهية: أحمد محمد عساف، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان.
(١١٦) جامع بيان العلم وفضله: يوسف بن عبد الله القرطبي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ٢٠٠٠م.
(١١٧) المقاصد الحسنة: شمس الدين السخاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٨٧م.
(١١٨) الفاروق: العلامة شبلي النعماني، مشتاق بك كارنر، أردو بازار، لاهور، باكستان.
(١١٩) المواهب اللدنية: الإمام أحمد القسطلاني، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان (٤ مجلدات).
(١٢٠) الحاوي للفتاوي: الإمام جلال الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (مجلدان).
(١٢١) الكواكب السائرة: الشيخ نجم الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (٣ مجلدات).
(١٢٢) الفوائد المجموعة: محمد بن علي الشوكاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
(١٢٣) حقوق الأولاد: محمد شريف الصواف، دار الفكر، دمشق، الشام.
(١٢٤) الإتقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان ١٩٨٨م (٤ مجلدات).
(١٢٥) سيرة النبي: سيد سليمان الندوي، ناشران قرآن لميتد، أردو بازار، لاهور، باكستان.
(١٢٦) الخطبة العصرية: إبراهيم محمد الجمل، مكتبة القرآن، القاهرة، مصر.
(١٢٧) كتاب الخراج: الإمام أبو يوسف، مكتبة الأزهر للتراث، القاهرة، مصر.
(١٢٨) شرح شمائل الترمذي: سليمان بن عمر الأزهري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
(١٢٩) البدر المنير: الإمام الشعراني، مكتبة عالم الفكر، القاهرة، مصر.
(١٣٠) الكامل لابن الأثير، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
(١٣١) إرشاد العباد: عبد العزيز محمد سلمان، مطابع الخالد، الرياض، المملكة العربية السعودية.
(١٣٢) نسيم الرياض: شهاب الدين خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

(١٣٣) أسد الغابة: أبو الحسن الجزري، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
(١٣٤) الإصابة: الحافظ ابن حجر العسقلاني، دار الفكر، بيروت، لبنان.
(١٣٥) جلاء الأفهام: ابن قيم الجوزية، دار الحديث، القاهرة، مصر.
(١٣٦) سيرة عمر بن الخطاب: أبو الفرج بن الجوزي، دار الدعوة الإسلامية، القاهرة، مصر.
(١٣٧) الفاروق عمر: محمد حسين هيكل، دار المعارف، القاهرة، مصر.
(١٣٨) فيوض القرآن: سيد حامد حسن بلكرامي، فيروز سنز لميتيد، لاهور، باكستان.
(١٣٩) نزهة القاري شرح البخاري: مفتي محمد شريف الحق أمجدي، دائرة البركات، كهوسي، اعظم كرهـ، يوبي، الهند.
(١٤٠) منهاج البخاري: محمد معراج الإسلام، عرفان القرآن، أعوان تاون، لاهور، باكستان.
(١٤١) إرشاد الساري شرح البخاري: شهاب الدين قسطلاني، دار الفكر، بيروت، لبنان.
(١٤٢) أيها الولد: الإمام الغزالي، Awakening Publications 200 UK Swansea.
(143) دلائل النبوة: أبو نعيم الأصبهاني، دار ابن كثير، بيروت.

ثالثًا: المراجع الإنجليزية

(144) Miracles of the Qur'an: Muhammad Mutawali ash-Sha'raawi, published by Daar-ul-Taqwa Ltd. London.
(145) Encyclopedia Britannica: peter B. Norton, Joseph Espsito, USA, 1995.
(146) Islam & the West: H.R.H. Charles Prince of Wales, printed by Uniskill Ltd. Eynsham, Oxford, UK.
(147) Muhammad at Madinah: Montgomery Watts. Oxford University Press, 2006.
(148) Oxford Encyclopedia Dictionary: published by Oxford University Press, USA, 1991.
(149) Shari'ah the Islamic Law: Abdur Rahman Doi (Zia-un-Nabi).
(150) The Holy Bible: published by Collins, London, 1954.
(151) The Living Bible: British Edition, 1975.
(152) The Hutchinson Encyclopedia: 1999 Edition.

(153) The New Universal Encyclopedia: Caxton publishing Co, Ltd, London.

(154) The English Pig: published by The Hambledon Press, London 1998.

(155) American Government: Lowi & Ginsberg. Published by W.W. Norton Publication 1998.

(156) Fream's Agriculture: printed by Butler & Tanner Ltd, London. 16th Edition 1983.

(157) Oxford Advanced Learner's Dictionary: 4th Edition 1989.

(158) The Hans Wehr Dictionary of Modern Written Arabic: Edited by J. M. Cowan, 3rd Edition.

(159) The 100: Michael H. Hart, Citadel Press, 1987, New Jersey, USA.

(160) The Bible, the Qur'an and Science: Maurice, 1979, North America, Trust Publication, USA.

